جمهوريه باكستان الاسلاميه
جامعة السند ـ حيدرآباد
كليه الاداب ـ قسم اللغه العربيه

التحقيق النقدي للجزء الأدبي من مسالك الأبصار (الجزء ١٢)

لشهاب الدين العمري

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه
في اللغه العربية و آدابها
اعداد الطالب

عبدالرؤوف زهدي حسين مصطفى

اشراف

فضيلة الأستاذ الدكتور
مدد علي القادري
عميد كلية الاداب

المجلد الاول

اطلبوا العلم من المهد الى اللحد

UNIVERSITY OF SIND

سنڌ يونيورسٽي

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

إليك يا رافع علم العربية في سماء السند . . . بل في باكستان . . .

إليك يا حاضن لغة السماء . . . بل يا حامي لغة القرآن . . .

إليك يا من برعايتك وسعة صدرك طمأنت الفؤاد والجنان . . .

إليك يا منار العلم . . . ويا منار الأدب . . . نقدم لك الشكر والعرفان . . .

إليك يا فضيلة الأستاذ الدكتور مددعلي القادري يا رمز الإيمان . . .

إليك يا مهوى أفئدة العرب جاءوا إليك . . . بقلب ولهان . . .

فاحتضنتهم أباً . . . ووجهتهم أخاً . . . ورعيتهم مربياً غير وسنان . . .

حقاً يا فضيلة الأستاذ الدكتور مدد . . . مدّ الله في علمك وعمرك . . .

هكذا كنت ويكون العلماء . . . هكذا كنت ويكون الآباء الرحماء . . .

هكذا كنت ويكون الأدباء الأوفياء . . .

فكلماتنا . . . ولساننا . . . وأقلامنا . . . عيية عن شكرك . . . وإيفاء حقك . . .

فأنت أكبر منها . . . وأنت الرمز . . . فكيف تجارى . . .

فجزاك الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء . . .

الطالب : عبدالرؤوف زهدي

الإهداء

إلى من قضى حياته مجاهداً ليله ونهاره . . . والدي

إلى من اختطفتها يد المنون وسكنت جوار ربها . . . والدتي

إلى من بذلوا وقدموا كل ما يملكون لي ومن أجلي . . . إخوتي

إلى من دعون الله لي بقلوب صادقة سراً وعلانية . . . أخواتي

إلى من سهرت على راحتي، وشجعتني بل وساعدتني حتى أتممت مهمتي . . . زوجتي

إلى فلذات أكبادي . الذين لفحهم حرّ باكستان وغيرتهم كرب الغربة . . . أطفالي

إلى مَنْ كان لي عوناً وسنداً ورفداً مرفوداً . . . . عمي وعمتي

إلى كل من سهّل لي عملي ودفعني قدماً إلى الإمام أحبائي . . . أخلائي

إليكم جميعاً أقدم هذه الثمرة طيبة المذاق . . .

علّني أردّ بعض جميلكم . . . وحسن صنعكم . . . وكريم ما أسدته أياديكم .

عبد الرؤوف زهدي

المقدمة

الحمدلله الذي جعل العباد من البلاد ،بمنزلة الأرواح من الأجساد ، والأسياف من الأغماد ،وحلّى بحلية الأدب منهم من شرفت حاشيته ،ولطفت ناشئته بحلية الأغصان بأزهارها وأوراقها ،والحمائم بألحانها وأطواقها ،فاهتزت بمحاسنهم أعطاف الوجود اهتزاز المطروب برنّة العود ، والكريم بنعمة الجود جاعل المسالك عبراً لكل سالك ، وخلق في الامصار آيات لأولي الأبصار ،ينطلق بتمجيده القلب واللسان ويظهر جليا واضحا أن سحراً في بعض البيان .

الحمد لله خالق الأرض ومن عليها ،ومبدئ الخلق منها ومعيدهم إليها ، الذي نطق كتابه العزيز بالسير في الأرض والمشي في مناكبها" هوالذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها " ،وقال تعالى : ((أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رُفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت)) وقال تعالى : ((الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السموات والأرض ربّنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)) .

وأعلن بالصلاة على مصطفاه الذي أفاض أنوار دعوته على مازوى له من مشارقها ومغاربها ،محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي اختاره على خير أمّة وبعثه رحمة للعالمين ،والذي تضوّع من حديثه عطر وطيب ،فكان من مسك كلامه وروعة بيانه " ان من الشعر لحكمة ،وانّ من البيان لسحرا " ،صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين خلّدوا من مآثرهم ما يبقى على صفحات الأيام ،كالغرة في وجوه الجياد والأعياد في الأعوام .

أمّا بعد فإذاكان تحقيق كتب الثقافة الاسلامية أمرا ملحا لإخراج

مخزوننا الثقافي إلى الوجود ،ولكي نقدم الأبحاث الجديدة على قدر وافر من الشمول ،ويتوفر للباحث بذلك الاستقصاء المطلوب لإطلاق الأحكام فان اختيار أهم كتب هذه الثقافة في ميادينها المتعددة وتحقيقها مقدمة على غيرها أشد إلحاحا.ففي المكتبة كتب جليلة لابدّ أن نلتفت إليها وأن نأخذ من منابعها المورد العذب للإرتواء من معينه ، ونعرف قدر أسلافنا الذين وعوا تراث الأمّة في جميع العلوم والميادين ،وصانوه من الضياع وحموه من عوادي الزمن ،وكثرة المحن فأسدوا بذلك إلى أمتهم من الفضل مايجلّ عن الثناء والشكر ،وإنّ دوائر المعارف هي حقاً الخزانة الكبرى التي حفظت لنا تراثنا الإسلامي في عصر جابهت أمتنا الاسلامية أحداثا جساما من الغرب والشرق ،ومن هنا تبرز أهمية الدوائر العلمية في قصة الحضارة الاسلامية الخالدة عبر الزمن .

وجدير بالذكر أن هؤلاء العلماء كانوا حقا قد قدّموا للغة العربية خدمة جلّى ، فصانوها خير صيانة، صانوا اللغة العربية في العصر المملوكي ، وصانوا لبّ لبابه في العصر العثماني ،وهكذا صانوا الأمة الاسلامية في صون هيكل الحرف الرمز ،والكلمة البليغة المعبرة .

وترجع رغبتي في التحقيق منذ السنة الأولى في جامعة دمشق سنة ١٩٦٩ عندما زرع أستاذنا أحمد النفاخ في قلوبنا حبّ التراث والكشف عن مكنونه ،فقدكانت كلماته نورا نستضيء به طريقنا في دهاليز المكتبات القديمة مكتبات دمشق العتيقة وكلما ازددت بحثا ازددت شغفا وأجهدت نفسا في البحث للوصول إلى المبتغى والمراد وخاصّة عندما أرى غيري يعرض عنها لطولها وسعتها وشموليتها وصعوبتها والزمن الذي تستغرقه نسخا وتحقيقا ،كل هذه الأمور

وجدتها سهلة من أجل وصولي إلى هدفي الذي تعثر إلى أن شاء الله تعالى ووقعت على هذا المخطوط مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - فأضفته إلى إضافة المفقود إلى أهله والطريد إلى أخلافه وأحبائه ، وقد نصحني به ثلة من أساتذتي الفضلاء المختصّين بالآداب والعلوم الاسلامية واللغة العربية .

وقد جرت محاولات كثيرة من أجل تحقيق هذه الموسوعة الكبيرة ولكنها تعثرت ولم يكتب لها النجاح ، وقداستطاع أديبان مصريان تحقيق الجزء الأول فقط وهما ، أيمين فؤاد سيد وزكي باشا ، ولم تظهر بعدهما إلا محاولات جديدة من قبل بعض الأساتذة الكبار للنظر في تحقيق أجزائه الأخرى والتي تقع في بضع وعشرين جزءا والتي تشمل كثيرا من العلوم الانسانية .

ورغم النصائح من أحبائي وأساتذتي لتحقيق ما هو أسهل منه ولكن رأيت أن العلم لا يتأتّى إلاّ بالجهد والسهر والتعب ، فشمّرت عن ساعد الجد آملا أن أنال الأجر والمجد إن شاء الله تعالى .

وقد بذلت جهودا كبيرة فضنية حتى تمكنت من قراءته وتصويره وبخاصة لأنه من الصعب نقله من جامعة الى جامعة أخرى ، فتدخلت العناية الالهية ووفقني الله بتصويره رغم التكاليف الباهظة ووعورة المسلك والطريق .

وقد شاء الله جلّت قدرته وحظيني برحمته وفتح لي وعليّ بعدد وقبول لهذا المخطوط عند أستاذي ومشرفي فضيلة الدكتور العلاّمة مدد علي القادري حفظه الله تعالى وأمدّه بعونه وتوفيقه - لما رأى أهميته ولمس قيمته العلمية العالية بين كتب الأدب الجغرافي ، وبعد أن ناقشني كثيرا وطويلا وبعد أن وقف

واستوقف أرشدني إلى ماأخذ بيدي ، منيرا لي سبيل طريق معوج فزوّدني ببرنامج علمي على نهجه أسير في تحقيق هذا الجزء ،فجزاه الله عني كلّ خير وجعله دائماً رائداً وحامياً وحاملاً للواء العربية ،لغة القرآن والسماء .

وعلى ضوء خطة كاملة متكاملة في منهج التحقيق وخلال ثلاثين شهرا خلت، شهرت معه ليلي وعملت فيه نهاري ،ماشكوت مللاً ولا ضجراً حتى المخطوط شكاني لنفسي ،ا استطعت وبعون الله ومنته ثم بارشاد واشراف وتوصيات وتوجيهات أستاذي الكريم الفاضل المفضال فضيلة الدكتور محمدعلي القادري استطعت - وأشكرالله تعالى على ذلك - أن أصل إلى المبتغى والى ماكنت أحلم به وأتمناه ،وشعرت بحلاوة الموقف ولذة جني الثمار بعد طريق غير مفروش بالورود والأزهار أعانني الله فيه وعليه .

ان كتاب " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " الذى نحقق اليوم الجزء الثالث عشر منه ،مؤلف كبير الحجم يقع في قسمين : الأول : في وصف الأرض ومسالكها وممالكها . والثاني في سكانها .

وقد رتّب مؤلفه مابعد الهجرة على السنين وانتهى فيه الى سنة ٧٤٣ هـ.

وكتابنا الذي نحن بصدده هو من القسم الثاني ، وهو عبارة عن مجموعة من التراجم الأدبية ،يبدؤها المؤلف نقلا عن " قلائد العقيان " و"الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " ثم يأخذ في التنويع من الكتب المختلفه حتى يصل الى باب الخطابة، فيذكر من عرف بالخطابة واشتهر منذ ماقبل الاسلام الى وقته مُوردا نماذج لهؤلاء وهؤلاء من نثرهم أونظمهم أو خطابتهم .

وهو قبل ذلك يقدّم للمترجم ببضعة أسطر من النثر المسجوع الذي كان سائداً في زمنه قبل أن يورد النماذج ،وكأنّه يريد أن يعطي حكمه ويقدم نقده للكتّاب والخطباء الذين ترجم لهم ، فقد مزج بين الجمع والتأليف والنقد وصياغة الأدب من نثر ونظم فجاء أسلوبه يراعي الحالة التي هو فيها ،وكتابه هذا يعدّ من المراجع المهمة ،على الرغم من أن الجمع بين الأدب والعلم لابدّ أن يميل أحدهما بصاحبه وصفا ،ونهجا وأهمية .

وأنني أعتقد أن االكمال لله تعالى وحده - فلاأدّعي أنّ هذا التحقق والبحث قد جاء كاملا متكاملا دون نقص وهنة ،فهذا هو ديدن العلم أن يقدم الباحث جهده ويتحرّى الصدق والأمانة في نقله وعمله والدقة في التحقيق ،فيكون أدّى الامانة وبلّغ الرسالة إن شاء الله تعالى .

وقد أبرزت هذا المخطوط على هذا المثال الذى أرجو أن ينال قبولا عند العارفين من أهل العلم ،وأملي في الله كبير . وعظيم أن يكون مابذلته من نسخ وتحقيق ومقدمات وتمهيدات وتنظيمات على قدر من الصواب والصّحة والدّقة .

وسأتولّى في هذا الجزء الكلام عن عصر المؤلف والتعريف بهذه الموسوعات الاسلامية الكبرى ،بعد أن انتهي من استخبار المؤلف نفسه عن نفسه ،ووصف للمخطوطة وبيان لخطتي ومنهجي في التحقيق ،واشارة الى الكلام عن بابي المخطوطة الكتابة والكتّاب والخطابة والخطباء ،وسأتمم عملي -إن شاء الله تعالى بالفهارس العلمية الكاملة .

والله ولي التوفيق ويهدى من يشاء الى سبيل الرشاد .

التمهيد

الفصل الأول
حياة المؤلف

المَبحَثُ الأوَّلُ

اِسمُهُ وَنشَأتُهُ وَعِلمُهُ وَوَفَاتُهُ

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحي بن فضل الله بن مجلي بن دعجان بن خلف بن نصر بن منصور بن عبيد الله بن يحي بن محمد بن أبي بكر بن عبيد الله بن أبي بكر بن عبيد الله بن أبي سلمة بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي العمري (١)، ولد العمري بدمشق ثالث شوال سنة سبعمائة هجرية لأسرة تولت رئاسة ديوان الانشاء بمصر والشام مدة قرن من الزمان تقريبا ورغم ولادته بدمشق إلا أنه شب وتعلم بمصر .

كان العمري يتوقد ذكاء مع حافظة قوية وصورة جميلة، واقتدار على النظم والنثر ، حتى كان يكتب من رأس القلم مايعجز عنه غيره في مدة ما ، مع سعة الصدر وحسن الخلق وبشر المحيا .

كتب الانشاء بمصر ودمشق ، ولما ولي أبوه كتابة السر، كان هو يقرأ كتب البريد على السلطان ثم غضب عليه السلطان ، وولاه كتابة السر بدمشق بعد القبض على تنكز ونقلهما السلطان إلى دمشق في شعبان سنة ٧٣٢ ثم أعادهما ثانية إلى القاهرة مسنداً إليهما كتابة السر ورياسة ديوان الانشاء سنة ٧٣٣. ويبدو أنه كان حادّ الطبع ، ولم يتحاش عن اظهار هذه الحدة في مخاطبته للناصر وخاصة فيما يتعلق بتعيين قبطي في الديوان ، فتغير عليه وصرفه ، وولى أخاه علاء الدين مكانه ، وكانت منزلة أبيه عند الناصر قد عظمت، وطلب أن يرجع إلى دمشق فأجابه إلى طلبه ، على أن تستمر له رياسة ديوان الانشاء في جميع

=:=:-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:

(١) فوات الوفيات ١/ ١٢ والنجوم الزاهرة ١٠/ ٢٣٤ والشذرات ٦/ ١٦٠
والوافي بالوفيات للصفدي ٨: ٢٥٢ ، والزركلي الأعلام ١: ٢٦٨ ،
البداية والنهاية لابن كثير ج ١٤ ص ٢٩٩ ، تاريخ ابن الوردي : ج ١ ص ٣٥٤

ديار السلطنة وأن يكون جميع الموظفين في تلك الدواوين نوابه ، وسرعان ما لبى نداء ربه . وعاد الناصر في سنة ٧٤٠ فرضي عن شهاب الدين وولاه كتابة السر بدمشق ، ودخلها في المحرم سنة ٧٤١ وظل يلي وظيفته حتى طلب إلى القاهرة سنة ٧٤٣ لكثرة الشكايات منه وشفع فيه أخوه علاء الدين ، وقبلت شفاعته وعاد إلى دمشق ، وبارحها في سنة ٧٤٩ لقضاء فريضة الحج ، وتوفي بمكة ونقل تابوته إلى دمشق . ولم يكن يبلغ الخمسين من عمره .

المَبحثُ الثانِي

شيوخه وأساتذته ومن أخذ عنهم

لقد تتلمذ العمري على أيدي جهابذة العلماء في عصره ، فقرأ العربية أولاً على الشيخ كمال الدين بن قاضي شهبة ، ثم على قاضي القضاء شمس الدين محمد بن مسلم المزي وكذلك على يد ابن الزملكاني . أمّا الأدب فأخذه عن أبيه ورفيقيه في ديوان الانشاء الشهاب محمود وعلاء الدين الوداعي ، وأخذ العربية أيضا عن شيوخ مصر وعلمائها مثل ابن الصائغ الحنفي ونزيلها أبي حيان الأندلسي . وأخذ الفقه عن قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن المجد عبدالله ، وعن الشيخ برهان الدين ابراهيم بن عبدالرحمن الفزاري المعروف بابن الفركاح . وأخذ علم الأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهاني نزيل دمشق منذ سنة ٧٢٤ وبها ظل سبع سنوات وكان من أبرع علماء زمنه في العقليات .

وقرأ الاحكام الصغرى على الشيخ تقي الدين أحمد بن عبدالحكيم بن تيمة ، والعروض على الشيخ شمس الدين بن الصائغ وعلى الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني ، وتدرب في النظم على الشيخ علاء الدين الوداعي وقرأ عليه جملة من دواوين العرب وأخذ المعاني والبيان عن الشيخ شهاب الدين أبي الثناء محمود . وسمع الحديث عن جماعة كست الوزراء والحجّار وابن أبي الفتح . أما اللغة فأخذها عن الشيخ أثير الدين بن حسان سمع عليه (فصيح ثعلب) و(الأشعار الستة) و (مقصورة ابن دريد) (١)

---

(١) الصفدي : الوافي ٨: ٢٥٤- ٢٥٥

ابن شاكر: فوات الوفيات ١: ١٥٩ - ١٦٠

ابن حجر : الدرر الكامنة ١: ٣٥٢

أبوالمحاسن : المنهل ٢ : ٢٦٤

إن جمهرة هؤلاء الأعلام الذين رضع العمري من علمهم وروى مـن أدبهم وفقههم لدليل قاطع على أنه كان قد حاز على علمٍ وافرٍ جمٍ وفي جميـع ميادين العلم والمعرفة الموجودة في عصره .

المَبحَثُ الثَّالِثُ

عِلمُهُ وَثَقَافَتُهُ

لقد اهتمت الدولة الفاطمية بديوان الانشاء الذي كان بمثابة وزارة الخارجية في عصرنا الحديث، فعنه كانت تصدر رسائلها والدعوة لها وما فيه إجلا لها وتقديسها وسمّوا رئيسه بالشيخ الأجلّ وبكاتب الدست الشريف وهو أقرب الناس إلى الخليفة وتديلازمه ويسرّإليه هذا بما يكتمه عن وزرائه وأهله وولده ،وكان يحمل دواته أحد خدم الخليفة المقربين ويعطى الكسوة والرسوم والملاحظات ،ويعدّ أول أرباب الاقطاعات .

وكانت أعمال رئيس ديوان الإنشاء خطيرة كثيرة متشعبة فهو الذي يتولى عن السلطان المراسلات الداخلية والخارجية وأمور المظالم وهو الذي ينظر في الكتب الواردة إلى السلطان ويعرضها عليه ويدقق في الكتب الصادرة لتكون كاملة لغة ومعنى وأسلوبا وخطا وإعرابا وألقابا إذ لايجوز أن يزاد أو ينقص أو يغير في الألقاب وهو يدير أمر البريد ورجاله وأمر أبراج الحمام وملحقاته وأمر المخابرات (العيون) وسائر مايتعلق بالمملكة .

وحسبنا في هذا الصدد مايقوله القلقشندي عن ديوان الانشاء (ومرتبته في زماننا أرفع مرتبة ،ومحله أعظم محل ،إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها ، وبرأيه يستضاء في مشكلاتها . وعلى تدبيره يعول في مهماتها ،وإليه ترد المكاتبات . وعنه تصدر ،ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة) (١) .

ونظرا لأهمية كاتب الديوان العظمى ولمركزه الخطير كما رأينا كان عليه أن يكون ضليعا بالعلوم الشرعية والعلوم السياسية والعلوم اللغوية وما

=:=

(١)القلقشندي : صبح الاعشى ،ج ١٤ صفحه ٣٢٢- ٣٢٥ .

يتصل بها من أدب شعراً ونثرا ومن بلاغة ونحو وصرف، كما كان يجب عليه أن يلم بالعلوم العقلية والكونية التي ترجمت عن الأمم الأخرى أو خاض بها العرب وابتكروها كالمنطق والفلسفة والحساب والفلك والهندسة والطب والصيدلة وعلمي الحيوان والنبات والكيمياء، لا إلمام المختص ولكن إلمام المثقف الذي يفهم مبادئها وما لا يجوز للمثقف الواسع الثقافة أن يجهله منها .

وأصبح عليه في عهد المماليك أن يحسن اللغة التي كانت لغة الحكام الذين لم تكن أصولهم عربية وهي التركية أو الكردية وأن يحسن معها الفارسية .

وعلى كاتب الديوان أن يكون عنده الاستعداد الفطري من البلاغة والفصاحة والقدرة على التعبير وأن ينميه المرات على فهم النصوص البليغة كالقرآن والحديث والشعر الجيد والحكم المختارة، وبقراءة ما يكتب في الديوان من نصوص بليغة في جميع الموضوعات وأن يحفظ القرآن وكثيراً من الأحاديث والقصائد والأمثال وكتابات البلغاء وروائع الحكم المترجمة . (١)

ولا نبالغ إذا ما قلنا بأن جلّ هذه الشروط قد توفرت في العمري وخاصة وأنه من بيت علم بل من بيت غرس في هذا العمل لدى السلاطين . لقد استوعب هذه الفنون التي كانت تندرج تحت مدلول كلمة الأدب في عصره . فجاء دائرة معارف شاملة للثقافة العربية العامة . وذلك في إطار أدبي . ومجموعة كتب قيمة .

=:=

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ صفحه ٣٩ .

المبحث الرابع
أسلوبه في الكتابة

العمري أديب صانع مجتهد ،صاحب قلم سيّال يرتكز على ثقافة واسعة في جميع ميادين العلم والأدب والفن ،وأيضا ذو أُسلوب مشرق الديباجة سلس المأخذ والعطاء ومن خلال تحقيقنا لكتابه وجدنا أن الكتابة الديوانية لابدّلها من خصائص وسمات تسير عليها ، ومن هذه الخصائص :

١ - الإكثار من عبارات المديح والإطراء والذلة والخضوع في فن الرسائل ،ووجود القاب الفخامة التي كانوا يطلقونها على الملوك .

٢ - الاكثار من الاسماء التي تضاف إلى الدين حيث اطلق على الشعراء والعلماء ألقاب تضاف إلى الدين أو الاسلام مثل : حجة الاسلام أو الدين وضيائه وتاجه وسراجه وشرفه .

٣ - تصنع الصور البيانية ،فقداستخدم الكتاب الصور البيانية كما استخدمها الشعراء وربما زادوا عليهم فيها .

٤ - الاكثار من السجع ، فقد انتشر وعدّ ضرورة اسلامية وأنه في النثر كالقوافي في الشعر (١) . وعدّه العسكري فضيلة من فضائل الكلام شرط الخلو من التكلف (٢) .

٥ - الاقتباس من القرآن والحديث وتضمين الشعر القديم والمثل السائر والنوادر وقصص العرب وحكاياهم وأخبارهم .

٦ - ظهور ضعف الترابط بين الجمل ويعود سبب ذلك إلى زيادة الصنعة البيانية والبديعية .

:x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-=:=:=:=:=:=:=

(١) السكاكي : مفتاح العلوم صفحة ٣٢٨

(٢) العسكري : كتاب الصناعتين صفحة ٢٦١

٧ - استعمال الغريب من الألفاظ مع ظهور مشكلة الاساليب العامية والألفاظ العامية السخيفة والساقطه .

وما العمري إلا أديب وكاتب من جملة أولئك الكتاب الذين برزوا في زمن المماليك فقد أغرق في السجع والزينة البديعية وسبب ذلك أنهم قصدوا من أدبهم ارضاء الملوك والأمراء ، فلا بد من تقديم أدبهم مملوء باللآلئ والمحسنات ولم يكن الشعب ذا قيمة ولا مال حتى يتجه إليه الأدباء ، ولو اتجهوا إليه لكان سهلا بسيطا مجردا من الزينة .

المبحث الخامس

ما قاله الآخرون عنه

كان العمري شاعرا كما كان كاتبا ،نظم كثيرا من القصائد والأراجيز والمقطعات والدوبيت ،غير أن شهرته الكتابية غطت على شهرته الشعرية ،وأصدق شيء يدل على مكانة العمري وسبقه في ميدان الكتابة الديوانية أن نورد شهادة بعض معاصريه عنه .

يقول عنه القلقشندي : (الفاضل الألمعي ،(١) والمصقع (٢) اللوزعي (٣) ملك الكتابة وإمامها ،وسلطان البلاغة ومالك زمامها) (٤) .

ويقول صلاح الدين الصفدي : (هو الإمام المفضال البليغ المفوّه الحافظ حجة الكتّاب ،إمام أهل الأدب،أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا ،وتوسلا إلى غايات المعاني وتوصلا ،يتوقد ذكاء وفطنة وتلهب ،وينحدر سيله مذاكرة وحفظا ويتصبب ،ويتدفق بحره بالجواهر كلاما ، ويتألف انتشاؤه بالبوارق المستمرة نظاما . ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتندى عباراته انسجاما وصياغة، وينظر إلى غرر المعاني من ستر رفيعه ،ويغوص في لجّة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق . يكتب من رأس قلمه بديها ،مايعجز تروّي الفاضل أن يدانيه تشبيها .... صرّف الزمان أمراً ونهياً ،ودبّر الممالك تنفيذا ورأيا) . ويقول عنه الصفدي في موضع آخر : (لا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه ... ولا أعتقد أن بينه وبين القاضي الفاضل من

:=:

(١) الألمعي : الداهي الذي إذا ظن الأمر فلا يخطئ ،مثل الذي إذ لمح له أول الأمر عرف آخره (اللسان ٨/٣٢٧)

(٢) المصقع : هو الذي لا يرتج عليه في كلامه ولا يتعتع. البستان ١/١٣٤٤)

(٣) اللوزعي : هو الحديد الفؤاد واللسان ،الظريف كأنه يلدغ من ذكائه . (اللسان ٣/١٤١

(٤) صبح الأعشى : القلقشندي ١٠/١٥٤

جاء مثله .. رزقه الله أربعة أشياء لم أرها اجتمعت في غيره وهي : (الحافظ) طالما طالع شيئا إلاّ وكان مستحضرا لأكثر - ،و" الذاكرة " التي إذا أراد ذكرى شيء من زمن متقدم كان ذلك حاضرا كأنه إنما مرّ به بالأمس ،و" الذكاء " الذي تسلّط به على ما أراد ،و"حسن القريحة" في النظم والنثر ... وهو أحد الأدباء الكَلَمَة الذين رأيتهم ،وأعني بالكلمة الذين يقومون بالأدب علما وعملا في النظم والنثر ،ومعرفة بتراجم أهل عصره ومن تقدمهم على اختلاف طبقات الناس ،... .. ولم أر من يعرف تواريخ ملوك المغول من لدن جنكيزخان وهلم جرّا معرفته ، وكذلك ملوك الهند والأتراك . (١)

وذكره الذهبي في "المعجم المختص" قال: وله تصانيف كثيرة أدبية ،وباع طويل في الصناعتين ،وبراعة في البلاغتين ، والله أعلم . (٢)

ويقول الزركلي في الأعلام :" مؤرخ حجة في معرفة الممالك والمسالك وخطوط الأقاليم والبلدان . أمام في الترسل والإنشاء ،عارف بأخبار رجال عصره وتراجمهم ، غزير المعرفة بالتاريخ ولاسيما تاريخ ملوك المغول من عهد جنكيز خان إلى عصره " . (٣)

=:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-x-:x-:-x-:-x-:x-x-: x-:-x-:-x-:-x-:-x-:

(١) الصفدي :الوافي ٨: ٢٥٣ - ٢٥٤
ابن شاكر : الفوات ١: ١٥٨ - ١٥٩
(٢) الدرر الكامنة بأعيان المائة الثامنة ١ / ٣٣١ - ٣٣٣
(٣) الاعلام للزركلي ١/ ٢٥٤ .

المَبحثُ السادسُ

بقَولِ المتأخرينَ منَ الكتابِ

إن موسوعة العمري من الموسوعات التي جمعت فأوعت ، والتي ذاع صيتها حتى سمع بها القاصي والداني ، فتلقفها الأدباء والعلماء والمؤرخون والجغرافيون كل حسب تخصصه ،تلقفوها دراسة وتمحيصاً وعلماً ينهلون من حوضه ويرتعون حول جنباته علّهم يزينون بعباراته مؤلفاتهم ، ويعتبر "مسالك الأبصار" من المصادر التاريخية المهمة للمؤرخين المصريين المتأخرين .

وأول المؤرخين هو القلقشندي الذي اعتمد اعتماداً كبيراً على مصنفي العمري " التعريف بالمصطلح الشريف " و " مسالك الأبصار " الذي اعتمد عليه في جمع مادة الجغرافيه منه وقد أشار القلقشندي إلى ذلك .

والمؤرخ الثاني الذي استفاد من العمري هو المؤرخ المصري الشهير تقي الدين احمد بن علي المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، فإنه وكما أوضح كازانوفا ، فإن العمري هو المؤرخ الثاني بعد ابن عبد الظاهر الذي نقل عنه المقريزي أكثر معلوماته عن عصور سلاطين المماليك السابقة لزمنه ، فهو الأصل الذي نقل عنه المقريزي أكثر عباراته (١) . ولم يشر المقريزي البتة إلى العمري في صفحات كتابه " الخطط " رغم أنه لم يتورع أن ينسخ كلمة كلمة .

أمّا المؤرخ الثالث فهو الحافظ المؤرخ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ . الذي اعتمد على كتاب " المسالك " للعمري كثيرا في كتابه " حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة " .

=:

(١) كزانوفا : وصف تاريخي لقلعة القاهرة : صفحة ٦٦٧ .

وقد استفاد منه أكابر العلماء في القرون الوسطى وذلك بعد رحيل العلم إلى أوروبا هاجرا منشأه ، فتلقفه المستشرقون يستقون من بحره الطامي مثل كاترمير الفرنسي ومايرالانجيلزي وأماري الطلياني . لقد كان لهؤلاء المستشرقين القدح المعلّى والراية البيضاء في استخراج كنوز المعارف من هذا المعدن الكريم النقي السخي .

المَبْحَثُ السَّابِعُ
مُؤَلَّفَاتُهُ

لم يمهل الموت العمري طويلا ،فقد طاولته يد المنون وهو مايزال في ريعان شبابه ، وقد ألّف خلال سني حياته - التي ماتزيد عن الخمسين عاماً - مؤلفات كثيرة، ولو قدّر له البقاء لأثرى المكتبة العربية بمؤلفات لا يجاريه فيها أحد ،ومن أهم مؤلفاته :

١ - موسوعته الضخمة "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" وهذا الكتاب من أهم كتبه وسنتكلم عنه تفصيلا في الفصل القادم إن شاء الله تعالى .

٢ - "التعريف بالمصطلح الشريف" وهو عبارة عن نماذج في جميع صور المكاتبات الديوانية ،وأراد أن يعرض فيه كل مايحتاج إليه في عمل الدواوين ،وألفه في الفترة التالية لعام ٧٤١ هـ ،وقد أطلق عليه القلقشندي "الدستور" ووصفه بأنه "أنفس الكتب المصنفة في هذا الباب" (١) وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة سنة ١٣١٢ .

وقد جعله في سبعة أقسام أولها في رتب المكاتبات إلى الخليفة العباسي بالقاهرة وعنه مع رسوم الكتابة إلى أمراء البلدان وراء السلطنة المصرية من الهند إلى الأندلس ،وأيضا إلى نواب السلطنة والحكم خارج مصر. والقسم الثاني في العهود والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والعهود أمّا من الخلفاء إلى السلاطين وإما من السلاطين إلى ولاة العهد ،والتقاليد خاصة بكبار الموظفين والتواقيع لصغارهم والمراسيم لصغائر الأمور والشؤون والمناشير خاصة بالأمراء والجند . والقسم الثالث خاص بنسخ الأيمان على العامة والولاة وكبار الموظفين وأهل الكتاب . والقسم الرابع في الأمان والهدن مع الاعداء ونقض

:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x- -x-:-x-:-x-:-x-:x-:-x-:-=

(١) القلقشندي : صبح الأعشى : ١ : ٧ .

المعاهدات ،والقسم الخامس في حدود المدن والبلاد وهو جغرافي ،والقسم السادس في مراكز البريد وسائله براً وبحراً والقسم السابع في الآلات وخاصة آلات الحرب من سيف وغيرسيف وكذلك آلات السفر وآلات الصيد وآلات الطرب وأيضاً الحيوان الأليف والوحشي والطير ،ويتسع هذا القسم للحديث عن المدن والحصون وأنواعها والأزمنة وفصولها والأنواء. وواضح أن الأقسام الأربعة الأولى هي التي دفعته لاعطاء النماذج الكتابية المتصله بموضوعاتها . أمّا الأقسام الثلاثة التالية فقد رأى معرفتها ضرورية لكتّاب الديوان لأنها تتصل بأعمالهما اتصالاً قوياً .

٣ ـ النزهة الكافية في معرفة الكتابة والقافية :

ويوجد منها نسخة في ليبزغ تحت رقم ٤٩٣ .

٤ ـ دمعة الباكي ويقظة الشاكي . (١)

٥ ـ ذهبية العصر .

ذكر فيه شعراء المشرق والمغرب الاسلامي من أهل المائة الثامنة على نهج يتيمة الدهر للثعالبي . وتوجد منه نسخة في المكتبة العتيقة في تونس .

٦ ـ صبابة المشتاق .

وهو عبارة عن مجلد في المدائح النبوية .

٧ ـ الشتويات .

مجموعة رسائل إخوانيه ، منها نسخة في ليون برقم ٣٥١ .

:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:x- -x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:

(١) الوافي ٨: ٢٥٥

الفوات ١ : ١٦٠ المنهل الصافي ٢ : ٢٦٥ ، النجوم الزاهرة ١٠ : ٢٣٥

٨ ـ الدعوة المستجابة .

٩ ـ نفحة الروض .

١٠ـ سفرة السفرة .

١١ـ "فواضل السمر في فضائل آل عمر"

١٢ـ ويقع في أربع مجلدات ،وسبب تأليفه لهذا الكتاب نسبته إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

١٣ـ مختصر قلائد العقيان لابن خاقان

منه نسخة في المكتبة التيموريه .

١٤ ـ الإنشاء في صفة التوقيع .

١٥ ـ ممالك عباد الصليب .

١٦ـ الدائرة بين مكة والبلاد .

ومن خلال اطلاعي على معظم مؤلفاته وجدته بحراً يتدفق ،وفي تضاعيف تدفقه ينثر جواهر المحسنات ، وهي تواتيه طيعة ،فتارة يطابق وتارة يجانس في يسر دون أن نحس عنده بتصنع متكلف .

:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-

(١) وقد تولى رئاسة ديوان الانشاء من بين أفراد الأسرة خمسة أشخاص وهم :

١ ـ القاضي شرف الدين عبد الوهاب فضل الله .

٢ ـ القاضي محي الدين بن فضل الله ،ومعه ابنه القاضي شهاب الدين .

٣ ـ القاضي محي الدين ـ فضل الله ومعه ابنه القاضي علاء الدين

٤ ـ القاضي علاء الدين بن محي الدين بن فضل الله استقلالا

٥ ـ القاضي بدر الدين العمري .

الفصل الثاني
عصر المؤلف

المَبحث الأوَل

النَاحِيَة السِيَاسِيَة

لقد استقلت مصر نهائيا عن الخلافة العباسيّة في منتصف القرن الرابع الهجري وذلك عند ماانتقلت إليها الخلافة الفاطمية من افريقيا ،فنشأ فيها قصر خلافي منافس لبغداد . وتفوّق عليه بمظاهر الترف والبذخ والأبهة مستغلين من أجل ذلك كلّ امكانيات مصر الحضارية (١)

وخلفهم الأيوبيون السنيون ،حيث ألغى صلاح الدين وخلفاؤه معظم مظاهر الترف والبذخ ،ووجّهوا اهتمامهم الأول خلال فترة حكمهم القصير (٥٦٧ - ٦٤٨)هـ إلى النشاط الحربي ومواجهة الصليبيين الذي كان يهدد العالم الاسلامي في ذلك الوقت ،فأمّنوا سلامة الأراضي الإسلامية (٢) واعتلى ممالك الأيوبيين كرسي الحكم فأكملوا جهادهم للقضاء على بقايا الصليبيين في الساحل الشّامي وفي مقاومة المغول بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ،ولم يدخلوا تغييرا كبيرا على أسلوب الحكم وجهاز الادارة ،وذلك لأنهم أصل الدولة التركية .

وقد شهدت مصر في زمانهم بلاطا متميزا ورسوما معقدة أعادت إلى الأذهان ماكان عليه بلاط الفاطميين من قبل (١) . ولعلّ هذا يعود إلى أصلهم غير العربي ،وازدها التجارة في زمانهم أدّى إلى ارتباطهم بدول أوربا والهند وافريقيا بروابط سياسية واقتصادية حيث أدّى ذلك إلى إمداد البيئة العربية الاسلامية بالكثير من العادات والتقاليد والنظم التي لم يألفها المسلمون العرب

=:=

(١) نظم الفاطميين ورسومهم في مصر (عبد المنعم ماجد) ١-٢ ،القاهرة ١٩٥٣-١٩٥٥

(٢) نظم الحكم والادارة في العصر الأيوبي بمصر أحمد فؤاد سيد ١٩٨٣ .

(٣) نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ،
عبد المنعم ماجد ١-٢ - القاهرة ١٩٦٧ و١٩٧٩

من قبل .

ولقد كان تأثير المغول على نظام الدولة المملوكية عظيما وخاصة نظام السياسة . فبعد هزيمة المغول في عين جالوت أسر منهم عدد كبير عرفوا بالوافدين وقد انتشروا في مصر والشام فنشروا عاداتهم وتقاليدهم بها (١) ،وقد اعجبت هذه العادات والتقاليد الظاهر بيبرس الذي سلك فيه طريقة جنكيزخان ورتب آشياء كثيرة لم تكن قبله في الديار المصرية (٢) وجدّد وظائف كثيرة في مراتب الأمراء والجند (٣) غير التي كانت موجودة .

ولابدّ من توصيف وشرح هذه التعديلات والوظائف الجديدة ،والذي سيقوم به نفر من كتّاب الانشاء والعاملين بدواوين الدولة الملوكية وعلى رأسهم محي الدين بن عبد الظاهر وابن فضل الله العمري .

ومن الجدير ذكره وقوع ثلاث محن كبيرة في العهد المملوكي : أولها سنة ٦٩٦ هـ في زمن كتبغا ،والثانية سنة ٦٣٧ في عهد الناصرمحمد ،والثالثة في سنه ٧٧٦ هـ في عهد الأشرف شعبان . وقدزاد تلك المحن قسوة سوء تدبير السلاطين والأمراء والموظفين وجورهم على الشعب وشدة استغلال التجار والأعيان واحتكارهم مواد الطعام للإثراء الفاحش على حساب حياة الفقراء وارهاقهم .

وقد أدّى اضطهاد الفلاحين إلى هجرهم الأرض فبارت وقد حاول المؤلفون

=:=

(١) الخطط ٢ : ٢٢١ المقريزي .

(٢) النجوم الزاهرة ٦ : ٢٦٨- ٢٦٩
أبو المحاسن

(٣) النجوم الزاهرة ٧- ١٨٣
أبو المحاسن .

تعليل ذلك وألّفوا فيه الكتب وكوّن هذا اللون من التأليف جز ٣ من أدب العصر فمنهم من أرجع ذلك إلى غضب الله على الناس لجورهم وخروجهم عن طاعته فحاول أن يعظهم ليرجعهم إلى تعاليم الدين ، ومنهم من أرجعه سوء الحال إلى الاضطراب السياسي والمالي والإداري .

وقد وصف المقريزي بعض ماحدث في المحن في زمن كتبها : فقد نقص النيل وجفّت السماء وهاجر الناس من برقة والشام إلى مصر وانتظر الناس مجيء الغلال الجديدة ولكن ريحا سوداء مظلمة هبّت من جهة برقة فعمّت الزروع وأفسدته فزادت غلاء الأسعار وانتشرت الأمراض التي عمّت جميع الناس وارتفعت الأسعار .... وقد حصر عدد من مات في شهر واحد فبلغ مئة وسبعة وعشرين ألف إنسان (١)

=:=

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة

صفحه ٣٤ المقريزي .

المبحث الثاني

الناحية الاجتماعية

قسّم المقريزي المجتمع المصري في عصر المماليك سبع طبقات يقـول "الناس بإقليم مصر في الجملة على سبعة أقسام :

القسم الأول أهل الدولة ،والقسم الثاني أهل اليسارمن التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية ،والقسم الثالث الباعة ،وهم متوسطوا الحال من التجار، ويقال لهم أصحاب البز ،ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة . والقسم الرابع أهل الفلح ،وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف . والقسم الخامس الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ،والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم . والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن . والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة ،وهم السؤال الذين يتلففون الناس ويعيشون منهم" . (١)

كان العمري - حسب هذا التقسيم ينتمي إلى القسم الأول وهم أهل الدولة وكان هذا القسم يضم سلاطين المماليك وأمراءهم وجنودهم ،ثم الوزراء والكتاب والقضاة

ولئن بدا من الغريب أن يجعل المقريزي كلاً من الفقهاء وطلاب العلم في الطبقة الخامسة من التنظيم الطبقي الاجتماعي للعصر المملوكي ، لكان هذا في واقعه أمر طبيعي في دولة يقوم نظامها على العسكرية ،والاعداد للقتال والاهتمام بالفروسية وتقديم ذلك على العلم والكتاب (٢)

ورغم انتماء العمري للطبقة الأولى ،وهي الطبقة التي تحصل على كل الامتيازات في المجتمع ،وتتملك القصور والدور والضياع والبقاع ،وتتوسع

=:

(١) تقي الدين المقريزي،إغاثة الأمة بكشف الغمة .

(٢) الأدب في العصر المملوكي . الدكتور محمد زغلول سلام طبع بمصر ١٩٧١ سنه

في الترف والرفاهية ، فإن العمري كان يعدّ نفسه منتميا إلى تلك الطبقة الخامسة - طبقة الفقهاء وطلاب العلم - ملحقا بها في كل حال من أحوالها ، فقد عاش وسط هذه الطبقة ، وظل يقيم بين ظهرانيها ، وكان معظم أصدقائه وخلانه من أفرادها
وإذا كانت الطبقة الأولى من المجتمع - حسب تقسيم المقريزي - تضم المماليك من السلاطين والأمراء ، كما تضم الوزراء والكتاب والقضاة من أهل البلاد ، ممن استعان بهم المماليك في تسيير دفة الأمور بالدولة ، فان كل واحد من هاتين الطائفتين كانت تعرف حدودها ولا تتعداها . فلم يكن هؤلاء الوزراء والكتاب والقضاة من أهل البلاد يتطلعون إلى تولي السلطة والامرة بدلا من المماليك . (١)

ولم ير المماليك أنفسهم أهلا لأن يتولوا الوزارة والكتابة بأنواعها والقضاء ، فتركوا هذه الوظائف لأهل البلاد .

وقد كان الوزراء والكتاب يتقاضون رواتبهم مشاهرة ، وقد بلغ راتب الوزير نحو مائتين وخمسين دينارا شهرياً . وبجانب الرواتب كان أكابر الكتاب والموظفين يحصلون على مخصصات عينية من لحم وخبز ، وعليق ، وسكر وشمع ، وزيت ، وكسوة وكانت هذه المخصصات تقدم لهم في كل سنة ، وكانوا يأخذون نصيبا من الأوقاف. وقد بلغ بعضهم حدا بعيدا من الغنى والثروة والجاه ، كعلاء الدين بن الأثير (توفي سنه ٧٣٠هـ) الذي كان كاتب سر السلطان الناصر محمد ، فقد اتخذ ابن الأثير هذا الغلمان والمماليك ، وكان يركب في ستة عشر مملوكا من الأتراك مشترى كل واحد منهم أكثر من خمسمائة دينار ، وكانت لابن الأثير حرمة ووجاهة وأموال وثروة . (٢)

---

(١) ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ١٠ : ٣١٠ .

(٢) الحافظ ابن كثير ، البداية والنهاية . طبعة القاهرة ١٤٠ : ١٤٩ .

ومما يلاحظ انتشار حياة اللهو والاستمتاع بالطبيعة فكانوا يختلسون أوقات اللهو في أماكن النزهة على شواطئ الأنهار في الحدائق والبساتين أو في الأديرة وكانت تعمر في ذلك الوقت بالكروم والبساتين الزاهرة ويحبس بها الرهبان الخمر ويتاجرون فيها ،وكانوا يستمعون إلى الموسيقى والغناء بين تلك الرياض ،ويحتسون الخمر ويمر بها السقاة من الجواري والغلمان حتى الصباح .

وتمادت النسوة في الترف والزينة زمن الناصر حسن فنودي سنه ٧٥١هـ ألا تلبس النساء الأكمام الطوال العراض ،ولا البرد الحرير ،ولا شيئا من اللباسات والثياب الثمينة ولا الأقمشة القصار ، وقد شدد في ذلك في الديار المصرية حتى قيل انهم غرقوا بعض النساء بسبب ذلك . (١)

واحترف نساء كثيرات الغناء والرقص ،وبعضهن البغاء في أماكن عينت لهن في المدن الكبرى ،وضيّق عليهن بعض المماليك وحرم أعمالهن وتساهل معهن آخرون ورتبوا مكوسا عليهن . وتغالى النساء الموسرات في زمن الناصر محمد في الترف والزينة حتى كان ثمن الطرحة يتراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف دينار ،ولبسن الخلاخيل الذهبية والأطواق والقباقيب المرصّعة بالجواهر والحرير. (٢)

ولكن برغم هذا كله نجد العمري قدعزف عن الاندماج في هذه الطبقة، وأعرض عن تقاليدها ،وضرب صفحا عن شعارها ودثارها ،وإن ظل منتميا إليها

==:=

(١) ابن كثير جـ ١٤ صفحه ٢٣٣

(٢) النجوم الزاهرة ج ٩ صفحه ١٧٦

فترة من حياته إلى أن قرر أن يكون فرداً عادياً من المجتمع .

المَبحَثُ الثَالِثُ

النَاحِيَةُ العِلمِيَة

عاش العمري في وقت شهد تفوق مصر الفكري في سائر أنماط الانتاج العلمي والأدبي ،فنحن نلتقي بأدب حافل قل أن نجده مثلاً في أي بلد من بلدان الشرق الأخرى (١) ولقد كان هذا الأدب في واقعه نتاجاً للحياة الفكرية الزاهرة المتنوعة التي تجلّت في ذلك الحين . وقدمت مصر للعالم نموذجاً حياً رائعاً من الحضارة الاسلامية الأصيلة ،ساهمت في صنعها أجناس شتى على أرض مصر في عهد المماليك حتى شهد بذلك المؤرخ ابن خلدون في القرن التاسع فقال في مقدمته : (واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة ،ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر ،فهي أمّ العالم ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع).(٢)

ولكن ماوصلنا من تأليف هذا العصر ،وهو بعض من كل وغيض من فيض، تراث ضخم يدلّ على نهضة واسعة علمية في تلك العهود وعلى اهتمام كبير بالعلم والعلماء . ونلاحظ في تلك العهود كثرة الموسوعات العلمية وغيرها من المراجع العامة ،وكثرة الشروح الكبرى، والكتب المبسطة ، (كتفسير القرآن الكبير) للرازي و (بدائع الصنائع في الفقه الحنبلي)لعلاء الدين الكاساني ت ٥٨٧ هـ ، و(مسالك الأبصار) للعمري و(تاريخ دمشق)لابن عساكر ،وغيرها .

وقد ساعدت عدة عوامل على النهضة العلمية ونشاط الحركة التأليفية ، ويمكن تقسيم هذه العوامل إلى قسمين : خارجية وداخلية . فمن العوامل الخارجية غزو التتار للعالم الاسلامي ومارافقه من تدمير بغداد وقتل العلماء وإحراق الكتب

=:=

(١) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١ : ٤٠٥ .

(٢) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ص ٥١٢، طبعة دار الشعب .

مما جعل فلول العلماء تتجه إلى مصر والشام مثل : ابن خلكان ،ومنها الهجرة من الأندلس بعد نكبتها ومنهم من هاجر من ديار الشام إلى مصر مثل :كمال الدين بن العديم . وذلك يدل على أن تيار الثقافة الاسلامية أخذ في التحول التدريجي من المشرق والمغرب ليصبّ في مصر والشام تحت الضغط العدواني من الشرق والغرب وعندئذ ورثت مصر العراق في الزعامتين السياسية والروحية ، وفتحت أبوابها على مصاريعها لاستقبال العلماء والأدباء من سائر أرجاء العالم الاسلامي (١) ،فأضحت منبراً حراً متفتحا لكل رأي ،وصارت بوتقة انصهرت فيها أفكار وتجارب شتى ،وتعددت فيها المؤسسات التعليمية والمدارس العالية. وأتيحت الفرصة في ربوعها لكل ذي كفاءة لكي يبرهن على كفائته ومقدرته،وأنجبت هذه البلاد في تلك الفترة عدداً وفيراً من العلماء والأدباء الأفذاذ ،قلّ أن يجود الزمان بمثلهم في وقت واحد .

وقد يستغرب كيف يزدهر العلم والأدب في عصر سادته الحروب الهائلة الصليبية والتتارية من الشرق والغرب ،ولكن يبدو أن الشرق قداعتاد أن تسير الأحداث العنيفة فيه جنبا إلى جنب مع الثقافة والفن ويرجع ذلك إلى أنه في حالة الحروب تستيقظ النفوس وتتحرك الهمم للدفاع في سائر الميادين العسكرية والمدنية والعلمية والأدبية ،كما يرجع إلى أن الحياة العامة تكون وحدة كاملة مترابطة متداخلة متفاعلة في جميع مظاهرها ونواحي فاعليتها .

أمّا العامل الداخلي فهو وحدة مصر والشام السياسية والعسكرية والفكرية ونحن نرى أن العالم الاسلامي كله كان في ذلك العصر بيئة علمية واحدة ،ولكن

=:=

(١) محمد زغلول سلام ـ الأدب في العصر المملوكي ١، ١٠٧ .

التخصيص نال هذين القطرين لأنهما كانا قطري المواجهة مع العدو ، اللذين وحّدتهما المصيبة واشعرتهما بوحدة المصير . لقد احتكم واقع هاتين الدولتين إلى مبدأ من أهم مبادئ الإسلام ، مبدأ الأخوة الإسلامية ، ولم يكن قد شابته تلك الإتجاهات القومية والوطنية ، والتي لم يشعر بها العالم الإسلامي كله إلاّ في عصر الإستعمار .

وقد ساعد على ازدهار هذه الحركة انتشار دور العلم في أرجاء مصر والشام وما ألحق بها من خزائن الكتب ووصول العلماء إلى أسمى مناصب الدولة لحاجة ذوي السلطان إليهم ، وتشجيع الخلفاء والسلاطين للعلماء وإجلال الشعب وتقديره لهم ، ومن هنا نلاحظ أن الجامع الأزهر في القاهرة والمسجد الأموي في دمشق مصدري إشعاع للمعرفة على العالم كله .

وانصرف العلماء إلى التأليف وكانوا ينالون التشجيع الكبير على مايؤلفون ، وعاش بعضهم في بحبوحة بل عاش جماعة منهم عيش الأمراء . وقد تنوعت تآليفهم فنرى ابن الخشاب النحوي يؤلف في المنطق والفلسفة والحساب والهندسة والبغدادي الرحّالة ألّف أيضا في الطب والحيوان والنبات والكيمياء والطبيعة والرياضيات .

وكان العلماء يرحلون في طلب العلم وينقلونه من بلد إلى آخر ، ومظاهر هذا التنقل فريدة في التراث العربي الإسلامي لاتوجد في أي بلد آخر غيره . فترى العالم يؤلف عدة كتب يؤلف كلاً منها في بلد لا يفرق بين بلد وآخر ، ولا تفرق أيّ بلد بين عالم وآخر مهما كان موطنه . . . وقد هيّأ الحكام خلال هذه الرحلات وسائل الراحة والاحترام والتقدير حتى أن بعضهم آثر البقاء لدى سلاطين

الشرق حيث الاهتمام والراحة والسعادة بالاضافة إلى حبهم من الاستزادة من العلم في المشرق .

وقد شيد الأيوبيون دور العلم والمدارس والمساجد والزوايا والمكتبات ، وقد ضمّت (دارالعلم) نحواً من مليون و ٦٠٠ ألف كتاب (١) . ولم يأل المماليك الأيوبيون جهدا في العناية بالمكتبات فأضافوا إلى كل مدرسة أنشأوها مكتبة عامرة بالكتب والمؤلفات في شتى العلوم ،وكان من أضخم المكتبات الملحقة بالمدارس مكتبة القاضي الفاضل التي ألحقها بالمدرسة الفاضلية ،وقدأخذت تلك المكتبة نحو مائة ألف كتاب من مكتبة القصر الفاطمي (٢) .

ولقد انتشرت المدارس انتشاراً واسعاً في سائر عواصم مصر والشام ، وكان طلآب العلم يؤمّون هذه المدارس بالمجان . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان هؤلاء الطلاب يتقاضون الرواتب وتصرف لهم الملابس ،وتقام لهم دور داخل المدرسة يقيمون فيها على نفقة الواقفين الذين أوقفوا على هذه المدارس الأموال الجزيلة (٣) خدمة للعلم وأهله .

وقد ألّفت التآليف في جميع العلوم والفنون المعروفة ،ولكن عصرنا لا يزال مقصّرا جدا في تحقيق دراسات كافية مجدية حول هذه العهود وعلومها

==:=: :=: :=: ==

(١) أنورالجندي ،أضواء على الفكرالعربي الاسلامي طبع مصر ١٩٦٦ ،صفحه ٧ .
(٢) المقريزي : الخطط : ٢ : ٢٥٥ .
(٣) النويري :نهاية الأرب ،٣٠ ،ورقة ١٢ من النسخة المصورة بدارالكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

وفنونها ومدى ماوصلت إليه من رقي وتنوع ،وتسرّع بعض مفكريه في تعميم مارآه من الضعف والإنقسام السياسيين في العالمين العربي والاسلامي في ذلك الوقت على العلوم والأداب فيهما فعدّها عهود انحطاط دون أن يستند في ذلك إلى دراسة كافية أوأن يحتاط في الحكم .

وقد ظهر التخصص في هذه العهود لتعمق العلماء في دراسة العلوم وتوسّعهم فيها ،وقد دلّنا السيوطي على ذلك حين صنّف العلماء ضمن زمر خاصّة بحسب العلوم التي غلبت عليهم فاكثروا من التأليف فيها ،فقد اشتهر في كل مذهب من المذاهب الأربعة جماعة وانصرف جماعة إلى رواية الحديث أونقده . وانصرف آخرون إلى القراءات وآخرون إلى التأليف ،وجماعة إلى اللغة والنحو والصرف وجماعة إلى التاريخ واختصّت فئة بالعلوم العقلية أوببعض فنون الحياة الأخرى كالأدب والموسيقى .

وكان أكثر ما اهتم به الناس في هذه العهود علوم الثقافة الإسلامية وأهمها القرآن والحديث والفقه واللغة ومعاجمها والنحو والصرف والبلاغة والعروض وكتب الطبقات والتراجم والجغرافية ثم يأتي الاهتمام بالفلسفة والمنطق والطب والهندسة والرياضيات والموسيقى وعلم الحيل والفلك والتنجيم .

وإلى هؤلاء الفقهاء والعلماء يرجع معظم الفضل في دفع الناس في ذلك العصر دفعا قوياً إلى المثل الأعلى ،وكثيرا ماكانوا أسبق منهم إلى احتذاء هذا المثل (١) . مجمل القول أن هؤلاء العلماء كانوا ضمير الأمة وقادة المجتمع،

=:=

(١) عبداللطيف حمزة ،الحركة الفكرية ،ص ٦٨ .

يرتضي الناس مايرتضون ،ويعرضون عمّا أعرضوا هم عنـــه .

وقد يخيل إلى كثيرين أن النثر في هذه الحقبة ،بماحمل من أوزار الصناعتين البيانية والبديعية المتكلفتين تكلفاً شديداً ،قدعجز عن التعبير عن وصف الحالة السياسية وتطلعات الأمة ونزعاتها وأوضاعها وآلامها وأمراضها ، ولاسيما النثر الديواني منه . والواقع أنه قام بمهمته قياماً جيداً وتعدّى القدرة على وصف الواقع إلى القدرة على توجيه السياسة العليا وتقوية المعنويات والحث على الجهاد والاعداد للحرب في سبيل طرد المغتصبين وذلك يتجلّى في فنونه المختلفة مــــن خطابة سياسية وحربية ودينية ومن رسائل ديوانية وإخوانيه ووجدانيه ومن أدب وصفي مختلف الأنواع ،ألّف في الجهاد وفضائل المدن والسياسة والأخـــلاق والقصص والمقامات والتاريخ والسير والمناقب .

الفصل الثالث

عصر الموسوعات

المَبحَثُ الأوَّلُ

لمحةٌ عنِ الموسوعاتِ

إن القرن الثامن الهجري في مصر يمتاز بظاهرة ثقافية خاصة فريدة ، وهي أنه عصر الموسوعات العلمية والأدبية الكبرى ، فقد ظهرت فيه طائفة من العلماء الذين توفروا على جمع أشتات العلوم والفنون الأدبية المعروفة يومئذ في مؤلفات جامعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل ، ويعد كتاب " مسالك الأبصار" للعمري خير ممثل للاتجاه إلى التأليف الموسوعي ، وهو الاتجاه الذي ساد العصر المملوكي ، ولست أعني بهذا أن العمري كان أول كتّاب الموسوعات العربية على الاطلاق ، فلقد عرف العقل الاسلامي العربي الموسوعات منذ زمن يسبق العمري بكثير ، بل ربما عرف هذا العقل الموضوعات " على أول عهده بالتأليف" وربما كانت الموسوعات الأولى مثل (الحيوان) للجاحظ ، (وعيون الأخبار) لابن قتيبة أقرب منهجاً إلى الموسوعات المملوكية ولعل (عيون الأخبار) أكثر قرباً إليها

:==:=

من غيرها .... (وكتاب الأغاني) دون شك أكبر وأغنى الموسوعات الأدبية والتاريخية والإجتماعية والموسيقية الغنائية والجغرافية والفكاهية .

إنّ الموسوعات ظهرت متتابعة متسلسلة ، يلاحق بعضها بعضا ، وتتابع مؤلفوها على مسرى الزمان تتابعا متصل الطقات،قصير الفواصل الزمنية (١) إلى أن جاء العصر المملوكي الذي تتابعت فيه الموسوعات تتابعاً سريع الخطا ، فظهرت في مدة زمنية محددة موسوعات ضخمة جليلة جمعت فأوعت وما زالت تتبوأمقامها في تراث الأدب العربي وتفاخر المكتبة العربية بوجودها فيها ،ولعل السبب في وفرة الموسوعات في ذلك العصر يرجع إلى أنها " نشأت في بيئة خصبة مستنيرة غير جامدة ولا متخلفة ،وأن فترة تأليفها كانت فترة ازدهارعقلي وتأليف حضاري في مختلف فروع الآداب وجوانب المعرفه الإنسانية ..." (٢) .

وإزاء هذا العدد الضخم من الموسوعات ظهرت الحاجة إلى الكتب الموسوعية المختصرة (٣) وذلك لأن عمرالعالم لايكفي لقراءة كل ماكتب في ميدانه وقد كتب هذه الموسوعات علماء وعمال حكومة المماليك لخدمة كتبة الدواوين

=:=

(١) دكتور مصطفى الشكعه ،مناهج التأليف عند العلماء العرب ،بيروت سنه ١٩٧٤ ، ص ٨٥٨ . وعبد اللطيف حمزة الحركة الفكرية ص ٣١٦ .
(٢) دكتور مصطفى الشكعة ،مناهج التأليف ،ص ٧٦٠ .
(٣) فرانز روز نتال (مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي) ترجمة أنيس فريحة و مراجعة وليد عرفات . بيروت ١٩٦١ . صفحة ١٦٦

للإستفادة بها في مجال عملهم . ولكنها في الواقع أفادت جمهورا عظيما من المثقفين لمعالجتها مواضع كثيرة . ومن الملفت للنظر أن هؤلاء المؤلفين لم ينظروا لأنفسهم إلا على أنهم كتّاب في ديوان الانشاء ،وقد كانت متشابهة الترتيب مما يعكس أثر التدريب الصارم في الشئون الديوانية (١) .

وأول هذه الموسوعات (مباهج الفكر ومناهج العبر) للوطواط وهي موسوعة في علوم الطبيعة والجغرافية موضحة بالشواهد الشعرية والنثرية ،وثانيها (نهاية الأرب في فنون الأدب) لأحمد بن عبد الوهاب النويري المتوفى سنه ٧٣٢ (٢) حيث استعار من الوطواط تقسيم كتابه ويبلغ الكتاب واحداً وثلاثين جزءا كبارا ، وثالثها (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمري المتوفى سنه ٧٤٩هـ ،وهي عبارة عن موسوعة في الأدب الجغرافي وهو كتاب حافل مايعلم أن لأحد مثله (٣) ،ورابع هذه الموسوعات (صبح الأعشى في صناعة الانشا) لأبي العباس محمد بن عبد الله القلقشندي المتوفى سنه ٨٢١ ،وهي موسوعة في الصناعة اللفظية والأدبية ،وآخر هذه الموسوعات (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) لابن تغري بردى المتوفى سنة ٨٧٤ وهي موسوعة تاريخية .

وقد يظن الدراس أن عنوان الكتاب قد يشير إلى موضوع واحد ولكنه حين يدرس ويطلع على هذه الموسوعات يجدها في حقيقة أمرها موسوعات ضخمة ،

=:

(١) المقدمة :ابن خلدون ٣، : ١٢٤٢

(٢) الأدفوتي : الطالع السعيد ٩٦-٩٧ و الصفدي : الوافي بالوفيات ٧ : ١٦٥
و حسن المحاضرة : السيوطي : ١ : ٥٥٦

(٣) الوافي : الصفدي ٨: ٢٥٥ .

تجمع بين الأدب والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والعلوم ونظم الحكم والتراجم والفنون ... وغيرها من ضروب المعرفة التي تجعل منه دائرة معارف ثمينة يفخر بها الفكر العربي وتمتز بها الحضارة العربية الاسلامية في العصور الوسطى.

ومن الملاحظ أن هذا التراث الضخم الذي خلّفه لنا عصر سلاطين المماليك لم ينشر منه سوى القليل ومازالت غالبيته مخطوطا في دور الكتب الكبرى في العالم وتنتظر التحقيق والنشر لترى النور فيستفيد منها الباحثون فوائد قد تؤدي إلى تصحيح كثير من مفاهيمنا وزيادة معلوماتنا عن ذلك العصر. (١)

:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-::

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور. القلقشندي ٧ / ١١٥ و ٣٩٥ .

المَبحثُ الثَّاني

أسبابُ ظهورِ الموسُوعاتِ

إن الحيوية العلمية في العصر المملوكي كانت نوعا من التعويض عن الخسائر التي أصابت الثقافة العربية اثر الغزو المغولي ، ولكن الأعمال الأدبية الكبرى لابد لها من توفر مجموعة عوامل مختلفة من سياسية واجتماعية وتاريخية ونفسية وغيرها تكون حاضنة لها وحافزا لبزوغها وتقديم ثمارها ، ولكننا نعتقد بأن العصر امتاز ببعض العلاقات البارزة التي أثرت في عقد تلك الثمرات وتساقطها رطبا جنيا بين أيدي أبناء الأمة العربية في تلك الفترة والأجيال اللاحقة .

ومن أهم أسباب ظهور الموسوعات هو سقوط بغداد سنه ٦٥٦هـ في أيدي التتار الذين حوّلوها إلى منطقة خربة لايسكنها إلا البوم والغربان ، وقضوا على مكتباتها الزاخرة بالكتب والمؤلفات ، فألقوها في نهر دجلة ، وأحرقوا مابقي منها . وعندئذ فتحت مصر أبوابها للاجئين إليها من العلماء والأدباء واحتضنت الخلافة ورغم مايقال بأنها كانت صورية فإن لها رمزا في توحيد وجمع الأمة ، فكثرت الرحلة إلى مصر ، واتجهوا - بعد أن شعروا بالأمان في هذه الديار - إلى جمع المواد التي تتألف منها هذه الثقافة في كتب كثيرة على شكل موسوعات ، لحفظها من الضياع والإندثار (١) .

وإذا كان الباحثون المحدثون من العرب يرون أن التأليف الموسوعي جاء نتيجة لعوامل عامة شملت المنطقة كلها ، أهمها القضاء على الخلافة العباسية

:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-: -x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x -:-:=:=:=:

(١) هذا هو رأي جمهرة الباحثين العرب ، انظر مثلا : عبداللطيف حمزة : الحركة الفكرية ص ٣١٥ ، مصطفى الشكعة : مناهج التأليف ، ص ٧٦٠ ، وشوقي ضيف الفن ومذاهبه طبع مصر ١٩١٩ ، ص ٣٧٩ .

واغراق الكتب في نهر دجلة فإن المستشرق الروسي كراتشكوفسكي يرى أن السبب في نشأة هذه الموسوعات وانتشارها، يرجع إلى ظروف البيئة، ولا يرجع إلى ظروف خارجة عن نطاق هذه البيئة فهو يقول: "من وجهة نظر التاريخ الأدبي فإن الموسوعات تنتمي إلى طراز مصري صرف من المؤلفات الوصفية التي وضعها عمال وعلماء حكومة عصر المماليك ... وكنمط أدبي فإن هذه الموسوعات وليدة تاريخ طويل معقد ... وعلى الرغم من أنها عملت أساسا من أجل كتبة الدواوين الذين كانوا زينة الجهاز الكتابي والاداري لمصر آنذاك إلا أن جميع المثقفين قد اهتموا بمطالعتها، مما جعل مؤلفيها يولون اهتماما كبيرا للأسلوب الأدبي" (١)

ومن أسباب ظهور الموسوعات استطاعة المماليك تعزيز الكيان الاسلامي عن طريق الوحدة والقوة المركزية الجامعة، فأصبحت مصر هي قلب ومركز المقاومة الاسلامية النابض والقوة المتحكمة في طرف التجارة شرقا وغربا.

والسبب الرئيسي هو وجود طائفة من الشخصيات الأدبية والعلمية الفذة التي استطاعت أن تستغل الوسط العلمي السائد في ذلك الوقت في مصر، بعد أن هجر إليها العلماء في كل فن من كل حزب وصوب واستقروا بها، وبعد أن تعددت المعارف الإنسانية وتنوعت وتشعبت ووجد المثقفون عامة والكتّاب خاصة أنهم بحاجة إلى أن يلموا من كل فن من هذه الفنون والعلوم بطرف، وقبل أن يبزغ فجر عصر التخصص الدقيق، فأفادت هذه الطائفة بالجو العلمي ذي الطابع الموسوعي في مصر، وأدركت حاجة الناس إلى نوع من التأليف

=:=

(١) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي ١ : ٤٠٥، ترجمة صلاح الدين هاشم، مصر ١٩٦٣م.

يقابل طبيعة العصر الذي يعيشون فيه ،فقدمت لهم هذه الموسوعات التي كانت بحق شاهدة على عبقريتهم هم بقدر ماكانت شاهدة على عبقرية البيئة التي عاشوا فيها والظروف التي أحاطت بهم .

ويمثل كتاب (مسالك الأبصار) مكانة خاصة بين هذه الموسوعات التي حفل بها عصر سلاطين المماليك ،نظراً لغزارة مادته وتنوعها ،ومكان مؤلفه وسعة أفقه وغزارة علمه وخطورة المنصب الذي وليه في الدولة .

الفصل الرابع

كتاب مسالك الابصار في ممالك الأمصار

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

مَوضُوعُ الكِتَابِ

هذا كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لابن فضل الله العمري،

وهو قد لا يحتاج إلى تعريف فقد كتبه ابن فضل الله العمري في النصف الأول من القرن الثامن الهجري" ويعتبر من أهم ما أنتجه عصر سلاطين المماليك، رغم أنه لم يلق ما يناسبه من الشهرة، وقد وصفه الصفدي - معاصر العمري - بأنه "كتاب حافل ما يعلم أن لأحد مثله" (١).

ومن الملاحظ أن عنوانه يفهم على أنه يعالج موضوعاً واحداً، وهو الجانب الجغرافي ،ولكن القارئ يجد موسوعة ضخمة تجمع بين الأدب والجغرافيا والتاريخ والأقتصاد والعلوم الدينية ونظم الحكم والتراجم والعلوم والفنون ... وغيرها من ضروب المعرفة التي تجعل منه دائرة معارف ثمينة يفخر بها الفكر العربي وتعتز به الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى (٢)

ويعود سبب تأليف هذا النوع الموسوعي إلى اتساع رقعة الدولة الإسلامية الذي نتج عن حركة الفتوحات الكبرى والذي يتطلب معرفة أحوال تلك البلاد وأطرافها وكيفية دخولها في الاسلام وذلك لتقدير قيمة ما يجب عليها من جزية وخراج . فكان من أوجب الأمور لمعرفة الجباية وجمع الأموال أن يعرف الحاكمون حال المسالك والممالك شعوباً وتقاليداً وعقائداً وطرقاً وحاصلات وخراجا (٣)

-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x+

(١) الصفدي : الوافي ٨: ٢٥٥.
(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : القلقشندي وكتابه صبح الأعشى صفحه ٢٦ .
(٣) سامي الدهان : مقدمة (رسالة ابن فضلان) ،صفحة ١٤ . دمشق ١٩٥٩ م

من أجل ذلك نشأت ضرورة التأليف في المسالك والممالك ويعد ابن خرداذبه المتوفى سنة ٣٠٠هـ أول مؤلف يصل إلينا عنه مصنف في الجغرافيا الوصفية رغم وجود من قبله مثل المروزي المتوفى سنة ٢٧٤هـ بالأهواز .

أمّا كتابنا " مسالك الأبصار" للعمري فيعد من أهم الآثار بالنسبة لنظم دولة سلاطين المماليك ورسومها ،وقد اعتمد عليه كثيرا مؤرخو عصر سلاطين المماليك في القرن التاسع كما يبدو واضحا في مؤلفات القلقشندي والمقريزي وابن شاهين والسيوطي . فموسوعة العمري مصدر من الدرجة الأولى لدراسة عصر المماليك وعلى الأخص المعلومات التي يوردها عن البلاد التي ربطتها صلات دبلوماسية منتظمة أو متقطعة بدولة المماليك . وقد خصص قسمه الثاني للحديث عن سكان الأرض والانصاف بين المشرق والمغرب ،وقد ضمّنه تراجم على درجة كبيرة من الأهمية لطبقات : القراء ،وأهل الحديث الشريف ،والفقهاء ، وأهل اللغة ،وأهل النحو ، وأرباب المعاني والبيان . والشعراء ،والحكماء . . . . وغيرهم . وترجمة قيمة هذا القسم إلى أنه انفرد فيه بالترجمة لنفر لانجد لهم ذكراً في غيرما أورده العمري في هذا القسم .

المبحث الثاني

منهج الكتاب

يبين العمري في مقدمة "مسالك الأبصار" الخطة التي اتبعها في تأليف هذا الكتاب ، وكذلك الغرض الذي ألفه من أجله فقال :

(فاستخرت الله تعالى في إثبات نبذة دالة على المقصود في ذكر الأرض وما فيها ومن فيها : الأظهر فالأظهر ،والأشهر فالاشهر ،وما لم أجد بداً من ذكره في ذلك ومثله ،وحالة كل مملكة ، وماهي عليه ،هي وأهلها في وقتنا هذا ، مما ضمه نطاق تلك المملكة ، واجتمع عليه طرفا تلك الدائرة ، لأقرب إلى الأفهام البعيدة غالب ما هي عليه أمّ كل مملكة من المصطلح والمعاملات ،وما يوجد فيها غالبا : ليبصر أهل كل قطر القطر الآخر . وبيّنته بالتصويسر : ليعرف كيف هو ،كأنه قدّام عيونهم بالمشاهدة والعيان مما اعتمدت في ذلك على تحقيق معرفتي له ،فيما رأيته بالمشاهدة ،وفيما لم أره بالنقل ممن يعرف أحوال المملكة المنقول عنه أخبارها ، مما رآه بعينه أو سمعه من الثقات بأذنه .

ولم أنقل إلاّ عن أعيان الثقات ،من ذوي التدقيق في النظر ،والتحقيق للرواية ،واستكثرت ما أمكنني من السؤال عن كل مملكة ،لآمن من تغفل الغفلاء ، وتخيّل الجهالات الضالة ، وتحريف الأفهام الفاسدة .

فان نقلت عن بعض الكتب المصنّفة في هذا الشأن فهو من الموثوق به فيما لابدّ منه ،كتقسيم الأقاليم ،وما فيها من أقوال القدماء ، واختلاف آراء الحكماء ،إلى غير ذلك من غرائب وعجائب ،وأخبار ملل ودول ،وذكر مشاهير أعلام ،وتاريخ سنين وشهور وأيام ،مما هو مسرح أمل ،ومطمح ذي عمل ، لأجمّل به كلامي ،وأكمّل به نقصي ، وأتمّ به بهجة النظر ، ورونق الصفحات ؛

كالطراز في الثوب ، والخال في الخدّ لا لأكثّر به سواد السطور ،وأكبّـــــر به حجم الكتاب ولم أقتصر بذكر الأقاليم ،عند ذكري الممالك ، مقصد الجغرافيا، كالأول والثاني والثالث ،ولا بما تطلق عليه السمهات ،كالعراق وخراســــان وأذربيجان (١) ،بل أذكر ما اشتملت عليه مملكة كل سلطان ،جملة لا تفصيلا ، على ماهي عليه المدينة التي هي قاعدة الملك : كقرشي والسّراي من قسمي توران وتوريز (٢) من ايران ،أو مالا بدّ من ذكره معها ،والغالب في تلك المملكة من أوضاعها ،والأكثر من مصطلح أهلها .

ولا أعني ذوي الممالك الصّغار ،إذا كانوا في مملكة سلطان قاهرعليهم، آمر فيهم : إذهم جزء من كل بل الذكر لكل سلطان يستحق اسم السلطنــــة، لاتسّاع ممالك وأعمال ،وكثرة جنود وأموال ،و يتغطّى بذيله من لعله يكون فـــي مملكته من ذوي الممالك الصّغار : كصاحب حماة مع صاحب مصر ،وصاحب ماردين مع صاحب ايران اللّهم إلاّ، أن تكون تلك المملكة مفردة لملك أو ملوك ،وليس عليهم سلطان يجمعهم حكمه ،ويمضي فيهم أمره : كملوك الجبل ، وملوك جبـال الهربر ،ومايجري هذا المجرى ،ويسري كوكبه هذا المسرى .

ولم آل جهدا في تصحيح ماكتبته بحسب الطاقة ،من غير استيعاب ولا تطويل ،ولم أعرّج إلى ملوك الكفّار ركابي ،ولا أرسيت بجزائر البحر سفنـــي ، ولا أسهرت في الظلمات عيني ،ولا أتعبت في المعمورة يدي ،إلاّ ما ألممت من إلمامةَ

=:=

(١) معجم مااستعجم للبكري .

(٢) هي مدينة تبريز وهي قاعدة آذربيجان (قاموس)

الطيف المنفّر، ونفبت منه نفبة الطائر الحذر لأنّ غالب مايقال (والله أعلم) أسماء لا يعرف لها حقيقة ، ومجاهل لا توصِّل إليها طريق .

ولم أقصد في المعمورة سوى الممالك العظيمة ،ولا خرجت في جهاتها عن الطريق المستقيمة : اكتفاء بالحق الواضح ،والصدق الظاهر ،مما اتّصلت بنا حقيقة أخباره ،وصحّت عندنا جليّة أحواله .

وقنعت بمابلغه ملك هذه الأمة ،وتمّت بكلمة الاسلام على أهله النعمة، ولم أتجاوز حدّها ،ولا مشيت خطوة بعدها ، إلاّ ماجرّه سياق الكلام ،أوطارح به شجون الحديث : ممّا اندرج في أثناء ذلك ،أو اضطرت إليه تعريجات السالك أو اقتضاه سبب ، أو دخل مع غيره في ذمّة حسب .

وإن كان في العمر فسحة ،وفي الجسم صحة ،وللهمة نشاط ،وللنفس انبساط ،(وماذلك على الله بعزيز) ولا من عوائد ألطافه الخفية بعجيب ،لأذيّلنّ بممالك الكفّار هذا التصنيف ،وأجئ بفارسه المعلم وخلفه من سبيّهم رديف .

لكنّني لم آت في هذا الكتاب بذكر ممالكهم (على اتّساع بلادها) إلا عرضا ،ولا سطّرت من تفصيلها إلاّ جُملا : : توفيراً للمادّة ، وتيسيراً للجادّة، ولأتمتع برونق الأنوار ،ولا أشوب بسواد الليل بياض النهار.

على أنني ربما ذكرت في مكان ماقاربه من بلاد الكفّار ،وذكرته للمجاورة رجاء أن يؤخذ بشفعة الجوار .

ولم أذكر عجيبة حتّى فحصت عنها ،ولا غريبة حتّى ذكرت الناقل ، لتكون عهدتها عليه ،وتبرّأت منها ،وقد يقع الانكار لأكثر الحقائق من النّاس :

لنقصان العقول ، لأنّ الذي يعرف الجائز والمستحيل، يعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدرة الله تعالى قليل ،وقد وصف الله تعالى الجهال بعدم العقل فقال : (أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون) . وقدأودع الله من عجائب المصنوعات في الأرض والسّماوات ،كما قال تعالى (وكأيّن من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون) . وقدأرانا من عظيم قدرته، وبدائع صنعه ،ماجلا الشّك ،وأوضح الحقّ فما ذا بعد الحقّ إلا الضلال ؟

وأول ماأبدأ بالمشرق ، لأن منه يتفتح نوّار الأنوار ،وتجري أنهار النهار إلى أن أختمه بنهاية المغرب ، إلى البحر المحيط ، لأنه الغاية وإليه النهايه ،إلاّ فيما لم أجد بدأ من الابتداء من المغرب إلى المشرق :كتخريج الأقاليم،لابتداء الأطوال من الجزائر الخالدات بالبحر الغربيّ ،أو ما هذا حكمه ، أو وقع عليه قسمه .

وقطعت فيه عمر الأيام والليالي ،وأثبتّ فيه بالأقلام أخبار العوالي ، وشغلت به الحين بعدالحين ،واشتغلت ولم أسمع قول اللاّحين ،وحرصت عليه حرص الضنين ،وخلصت إليه بعدأن أجريت ورائي السنين .

وشرعت فيه في أيام مَن ماننا باحسانه ،وأمّننا فيسلطانه : سيدنا ومولانا ،ومالك رقابنا ،السلطان ابن السلطان ،السيّد الكبير الملك النّاصر العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر،المؤيّد المظفر المنصور،ناصرالدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ،سيد الملوك والسلاطين ،وارث الملك ، ملك العرب والعجم والترك ،نائب الله في أرضه ،القائم بسنته وفرضه ،ملك البحرين

خادم الحرمين ، حامي القبلتين ،مانع الخليفتين ،بهلوان جهان ،اسكندر زمان ، ناشر علم العدل والاحسان ،معلّك أصحاب المنابر والأسرّة والتخوت والتيجان ، جامع ذيول الأقطار ،مُبيدا لبغاة والطّغاة والكفّار ،هازم الرّوم والفرنج والكُرج (١) والأرمن والتتار ،سلطان البسيطة ،مثّبت أركان المحيط ،إمام المتقين ولي أمو رالمؤمنين ، متعهّد حج بيت الله الحرام وزيارة سيّد المرسلين أبي المعالي محمدبن مولانا السلطان الكبير الشهيد أبي المظفّر قلاوون سيّد ملاك الأرض على الاجماع ،المخصوص بملك أشرف البقاع .

سَل عنه وانطق به وانظر إليه تجد ملءْ المسامع والأفواه والمُقل ! فأدام الله أيّامه ، وأدار على مفارق النجوم أعلامه : وسميته .

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (٢) وعلى الله أعتمد ، ومنه استمدّ وإيّاه أسأل التوفيق والإعانة وأبرأ من الحول والقوة إلاّ به وهو حسبي ونعم الوكيل ! والله المؤمّل في عمر يوفّي بتمامه ويوفّر المواد على مدد أقسامه ، مع ماهو أبقى من الابتهال إلى الله فيما هو أهم من التفويض إليه ،والابتهاج بما لديه ، فمّا يوقّي المهمات ،ويرقي الدرجات ،في الدنيا والآخرة إنه وليّ ذلك والقادر عليه ،والمقدّر له والهادي إليه !

والرغبة إلى من وقف على هذا الكتاب ،ووقع منه نظره على خطإ أو صواب أن يصفح عمّا جنح فيه القلم من الزلل، وتخطّى إليه الفكر من الخطل ، ويبسط العذر لمن لم يجُب البلاد ،ولم يجُل في الآفاق ،ولم يُتهم في تهامة

=:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x

(١) هم أهل البلاد المعروفة عند الافرنج باسم Georgie

(٢) العمري : مسالك الأبصار ١ : ٢ - ٦ .

ولا أعرق في العراق ، ولاخطب الدأماء ، ولاخبط الظلماء ، ولااقتحم لُجج البر والبحر ، ولا تعدّى مصر والشام والحجاز ، ولا فارق ممالكه كان هو وأسلافه فيما تحت قيد العَلَق والشواغل ، لما كان يتقلده منهم ابنٌ عن أبيه ، وأخ عن أخيه ، من أعباء الدول وأمور الممالك ، وأثقال الفكر والمهمات ، وشَغْل الأسماع والأبصار مما يستغرق بعضه الأوقات ، ويقطع عن الأسباب ، حتّى عن لفظة سؤال ، ولحظة كتاب ، إلى أن وهبني الله فراغا ألّفت فيه هذا الكتاب هذا هو المنهج الذي أتبعه العمري في تأليف كتابه وذلك حسب مارأيناه في مقدمة الجزء الأول ، فقد بدأ بعرض خطته التي مااختار فيها الآ المشهور والمعروف معتمدا في ذلك على معرفته الشخصية أو مانقله من الثقات بأذنه وقد كان دقيقا في نقله ، فلم ينقل إلاّ عن أعيان الثقات ومن ذوي التدقيق في النظر والتحقق للرواية .

وقد كان شديد الحرص والاحتراس في نقل العجائب والغرائب ونسب كلّ عجيبة ذكرها إلى ناقلها لتكون عهدتها عليه ، وقد بدأ كتابه بالمشرق وأتبعه بالمغرب وذلك لأسباب يراها هو ويذكر تعبه وجهده في تأليف هذا الكتاب وأنه كيف شغله عن كل مايشغل الآخرين ، وكان يحرص عليه حرص الأمّ على وليدها وقد دفع الغالي والثمين ، وقطع البلاد والوهاد من أجل إتمامه واخراجه على أحسن صورة وقد نوّه بما لابدّ من التنويه به ـ بسلطان الزمان وذلك ليزيد العلم نورا والعمل شعاعا وبلورا ، ويزيّن السطور باسمه ، والحروف برسمه ويذكر اسم الكتاب حيث قال : وسميته مسالك الأبصار في ممالك الأمصار .

المَبحَثُ الثَّالِثُ

تَقسِيمُ الكِتَابِ

على ضوء هذه المقدمة التي قدّمها المؤلف لكتابه ، نستطيع تقسيم "مسالك الأبصار" إلى قسمين كبيرين :

أ- القسم الأول من الكتاب .

في ذكرالأرض وما اشتملت عليه براً وبحراً :

١ - النوع الأول : في ذكر المسالك ،ويقع في خمسة أبواب

أ- في مقدار الأرض وحالها ومقدارها وأسمائها وترابهاوصفاته وغبارها وصفاته ورمالها وصفاته .

ب - في ذكر الأقاليم السبعة ومدنها وتصويرها وأطوال النهار فيها .

جـ - في ذكر البحار ومايتعلق بها والرياح وبعض العجائب .

د - في ذكر القبلة والاستدلال عليها بالنجوم والرياح والجبال والانهار .

هـ - في ذكر الطرق وتعاريجها وسوائها .

٢ - النوع الثاني : في ذكر الممالك ويقع في خمسة عشر باباً في مملكة السند والهند ،وممالك بيت جنكيزخان ،ومملكة الجيل والجبال ،والأتراك ومصر والشام والحجاز واليمن ، وممالك المسلمين في الحبشة،ومسلمي السودان ومالي وجبال البربر والأندلس وبرالعدوة ،وفي ذكرالعرب الموجودين في زماننا وأماكنهم ومساكنهم ،وطرائق معيشتهم .

ب - القسم الثاني من الكتاب

وقدخصصه في سكان الأرض من طوائف وأمم وشعوب مختلفة،ويقع فيأربعة أنواع :

١ - في المفاضلة والانصاف بين المشرق والمغرب (الكتّاب والشعراء والخطباء، والعلماء .... وغيرهم .

٢ - في الكلام على الديانات وهي ست نحل وأربع ملل .

٣ - في الكلام على طوائف المتدينين .

٤ - في ذكر التاريخ أ - الدول التي كانت قبل الإسلام

ب - الدول الكائنة في الإسلام (١)

-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-

(١) العمري : مسالك الأبصار : ١ : ٧ - ١٣

المبحث الرابع

مميزات وأهمية الكتاب

أولا الطابع الموسوعي :

إن من أهم مميزات "مسالك الأبصار" أنه موسوعة شاملة للمعارف الإنسانية، ودائرة معارف احتوت على ماانتهت إليه العلوم حتى عصر المصنف.

ولقد كان العمري يعرف تمام المعرفة أنه مقبل على كتابة موسوعة ضخمة تضم أشتاتا من المعلومات وأنواعاً من المعرفة ، ولذلك وضع نصب عينيه عدداً من المبادئ تمكن من تطبيقها أثناء الكتابة حرصاً على عدم اختلاط المعلومات بعضها ببعض ، ومن هذه المبادئ :

١ - وضوح تقسيم الكتاب كما ذكرنا في فصل سابق ، والواقع أنه لو لم يراع تطبيق هذا المبدأ ، وهو التقسيم الصارم للأبواب والمواضيع التي تناولها في موسوعته ، لاختلطت هذه المعلومات ولأصبحت أكواماً هائلة من المعارف يصعب فصلها وتميزها عن بعضها ،

٢ - البعد عن الحشو والفضول .

فهو يقتصر على الخطوط العامة ، والمعارف التي يعتقد أنها تفي بالغرض في الموضوع الذي يتناوله .

ثانيا وفرة المعلومات وتنوعها :

إن هذه الميزة واضحة جلية في "مسالك الأبصار" فالقارئ لهذه الموسوعة يعجب لكثرة المعلومات الواردة فيها ووفرها وتنوعها ، كما يعجب لهذا الكم الهائل من المصادر التي اعتمد عليها المصنف في استقاء معلوماته حتى ظننا أن معظم الكتب العربية التي ألفت منذ العصور الأولى للتدوين كانت في متناول المصنف ، ينقل عنها ويفيد بها ، ولكن من أسف أن عدداً كبيرا من هذه المصادر ضاع فلم يصل إلينا ، مما يؤكد مدى أهمية هذا الكتاب .

والمنصف يذكر غالباً مصادره ،وهي مصادر متنوعة أشد مايكون التنوع تنتمي إلى صنوف من العلوم المختلفة ،وضروب من المعارف المتباينة. يتضح هذا من تصفحنا لأبواب الكتاب وأقسامه ،تلك الأبواب والأقسام التي عرضنا لهما من قبل.(١)

وبرغم كثرة مصادره تبدو شخصية المصنف واضحة كل الوضوح في كتابه من خلال انتقائه لما يعرضه في هذا الكتاب وينقله من مختلف المصادر،وهو انتقاء إن دلّ على شيء فإنما يدل على وعيه ويقظته ، وإحساسه المرهف، وذوقه الرفيع .

وتبدو شخصية المصنف واضحة للغاية عند مايعمد إلى مزج الأدب بالعلم ، وإخراجها في باقة واحدة متناسقة الألوان متكاملة المعاني والفنون ،على أن هذا المزج لا يتم إلا من خلال ثقافة المصنف الدينية وعقيدته الإسلامية الراسخة ،تلك العقيدة التي يراها في الواقع مهيمنة على الفكر والرأي ،لاينِدّ عنها رأي ولايشذ إلا ماكان ضرباً من الأساطير ،وصنفاً من الأوهام والوساوس.

ويعتبر مسالك الأبصار " من الكتب المهمة وخاصة فيما وجدناه فيه من الشعراء والأدباء المشرقيين وكذلك الاندلسيين .

ويكاد التاريخ يأخذ أكبر الاهتمام وأعظمه ،ويخيل للقارئ أنه كتاب في التاريخ ،وإزاء هذه المادة التاريخية والتي احتلت القسم الأكبر من كتابه -

+x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-

(١) انظر فيما سبق صفحه ٥٦ ومابعدها .

يعد دائرة معارف للتاريخ الإسلامي ،اتبع في تصنيفه المنهج المعروف في كتابة التاريخ ،فقد نقل كثيرا من مؤلفات من سبقوه وعاصروه ،ووصف أحداثاً تاريخية عانيها بنفسه .

ثالثاً اعتماد العمري على السماع والمشاهدة :

وتبدو القيمة العلمية للكتاب كأوضح ماتكون في اعتماد المصنف على "السماع" في إيراد بعض الأخبار والمعارف الهامة،وهذا السماع يضيف إلى القيمة العلمية للكتاب ميزة أخرى ويزوده بمعلومات قدلاتوجد في الكتب المتخصصة في موضوعاتها .

والواقع أن العمري قد علّق على السماع أهميته كبيرة فجعله أهم منزلة من المصادر نفسها في بعض الموارد التي يتناولها في كتابه ، فهو يضع السماع في المرتبة الأولى عندمحاولته استيفاء معلوماته عن بعض المضوعات ، ويحرص على أن يجمع من هذا الطريق مادته العلمية ، فإن أعيته الحيلة وتعذر عليه أن يجد ثقة يحدثه في الموضوع انتقل إلى المرتبة التالية وهي المصادرليستقي منها معلوماته .

الأهمية الأدبية والنقدية للكتاب :

ينطوي "مسالك الأبصار" على أهمية كبيرة في مجال الدراسات الأدبيه والنقدية ،فالكتاب بذاته مصدر من مصادر الأساليب الأدبية والفنية في عصره وفيما سبقه من عصور ،والمصنف بحسه الأدبي وذوقه النقدي يقيم - من نفسه وبمقاييس عصره - معيارا يزن به المواد الأدبية التي يعرضها ويبين به سقيمها من صحيحها .

وتزداد في نظرنا القيمة الأدبية للكتاب حين نعلم أنه يأتـــي بأخبار نادرة لاتتوفر في غيره من المصادر عن بعض الأدباء في الأندلـــس ،

على أنه مما يزيد من القيمة الأدبية والنقدية للكتاب تلك الرسائل الأدبية الرائعة التي سمعها العمري أو قرأها بنفسه لكتّاب عصره .

وقد زودنا المؤلف بالمزيد من الرسائل - التي يُعدُّهو المصدر الرئيسي لها - لكن شبح الإطالة كان ماثلاً أمامه فاقتصر في إيراده لرسائل عصره علـــى جملة من رسائل الكتّاب من أصدقائه وأصحابه ،ومن يتصل بهم بصلة الودّ .

ومن هؤلاء الكتاب الذين نقل بعض رسائلهم الديوانية محي الديـــن بن عبدالظاهر وكذلك نقل للعالم الأديب البليغ شهاب الدين أبوالثناء محمود بن سليمان الحلبي الكاتـــب .

ولم يـــقتصر أمر النقل من المعاصرين والسابقين على النثر ،بل يمتد أيضا إلى الشعر . هذا النقل الشعري والنثري يجعل من الكتاب مصدراً من مصادر دراسة الأدب في عصر مصنفه .

الفصل الخامس

الجزء الذي حققته

المَبْحَثُ الأوَّل
مَوْضُوعُ هَذَا الجُزء

لنقرأ ماكتبه المؤلف - رحمه الله - عن موضوع هذا الجزء وأهم مساورد فيه ،قال : (وهذا آخر مااختصنا به أهل قطرنا أحياء وأمواتا، ولا حفلة من تخطيناه فواتاً ،إذكان هؤلاء هم أعيان القوم ،من أول هذه الملّة وإلى اليوم ممن اشتهر لعلو قدره أولغلو درّه .... وهذه جملة من الكتّاب المشارقة) (١)

في هذه الجمل نجد المؤلف رحمه الله - قد بدأ هذا الجزء مكملا مابدأه في الجزء الثاني عشر عن الكتّاب المشارقة الذين ترجم لهم أحياءً وأمواتاً ومن أول هذه الملّة إلى يومه .

ثم يكمل وصفه لموضوع هذا الجزء بقوله :)((فأمّاالكتاب المغاربة وما لهم من نجوم غيرغاربة ... أبدؤهم بابن بسّام وغرر ما ابتكر ،ثم بالفتح بن خاقان راغباً فيمن ذكر ،وأذيّل ابن خاقان إلى هذا الأوان ،وأكثر عددهم بأهل مصر ... على أن الغرب كثير بناسه ،ملئ بأنواع الأدب وأجناسه ،وبهم الفضل المغرب والبيان المعرب ،ولهم غوص لايدرك له قرار ....)) (٢) نلاحظ انتقال المؤلف رحمه الله إلى موضوع آخر ،الكتّاب المغاربة ممجداً ومادحاً ومميّزاً .

يتابع المؤلف - رحمه الله -كلامه فيقول : (فأمّا من فتح-الفتح بن خاقان-باب ذكرهم ،ومنح لباب شكرهم،فسنورد منهم مابلّ به تلك العظام

:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:

(١) مسالك الأبصار للعمري : ١٣ / ٢١
(٢) مسالك الأبصارللعمري : ١٣ / ٢٢

وتحل عقود الغمام ... وها أنا آتي بجماعة ممن ذكر من الكتّاب ممن لا يجوز بهم الإخلال ويجول معهم سابق في كرم الخلال، وسأدعي لكل واحد ماأتـــى عليه من الفتح بشاهد ماله جاحد).(١) هنا تظهر الأمانة العلمية في البحث العلمي حيث يذكر ممن أخذ وعمّن أخذ دون حرج أووجل، ولكننا نراه فــي نفس الوقت يشرك نفسه في عملية الترجمة حيث يورد الشواهد التي تدعم القـول في الكتّاب .

ويتابع المؤلف - رحمه الله - قوله : (وأثبت في أثناء ما قلت في كل ترجمة بعض مقال مؤلفه فيما ترجمته وصرّحت في كل مكان باسمه لأبيّن كلامه من كلامي، وإن كان لا يخفى إلاّ على الأعمى أو المتعامي، وأين أنا من ذلك، وهل استفدت إلاّ من هناك ...) (٢)

يبلغ المؤلف - رحمه الله - القمة في الأمانة والبحث العلمي فنراه يصرّح ولا يلمح ويعترف ولا ينكر، إنه يعزو كل كلمة إلى صاحبها، وينزل الآخريـــن منازلهم دون انتقاص أو اجحاف ودون تبديل أو تحريف، فهذه المواقف كلهـــا تجعلنا نصدق ونقرّ بصدق وأمانة المؤلّف - رحمه الله رحمة واسعة - وتجعلنا غير مترددين في الأخذ بالأحكام التي أصدرها على الكتّاب والخطباء في عصـــره وماقبله .

يتابع قوله : (وقد ذكرت بعضها هنا، وإنما ذكرته لئلا أخلّي هذا الكتـــاب منه، وهو المشموع بها والمسؤول عنها، وأنا أستغفر الله مما ذكرت من دده

---

(١) مسالك الأبصار للعمري : ١٣ / ٣٠
(٢) مسالك الأبصار : ١٣/ ٧٩ .

آمين) . وكتب على جلدها أيضاً (نقل هذا الجزء المبارك من نسخة الكتب خانه الخديوية المصرية المحمية الكائنة بسراي درب الجماميز نمرة ٣٣٧ في يوم الأحد ١٤ شعبان سنة ١٣٠٩ هجرية الموافق ١٣ مارث سنة ١٨٩٢ ميلادية على يد محمد الليثي غفر له ولوالديه وللمسلمين آمين ، بلغ مقابلة على أصله بغاية الإجتهاد ولكن من حيث أن النسخة القديمة سقيمة فلم يصل إلى غاية المراد ولكن لا تخلو إعادة من إفادة ، محمد أحمد الخوجة عفا الله عنه آمين .

وقد بدأت المخطوطة بمايلي : (فكتبت إليه كيف أصبح مولانا في هذا الشتاء الذي أقبل يرعب مقدمه ، ويرهب تقدمه ، ويريب اللبيب من برقه الموهض تبسمه . . . .) وانتهت هذه المخطوطة بقوله : (أين الأمم الخالية ، أين أصحاب الهمم العالية ، صاروا والله عظاما بالية ، فغيرت منهم المحاسن وزالت ، وذهبت عنهم تلك النضارة وحالت ، وذوت تلك الغصون الزاهية ومالت ، فاتقوا الله واحذروه ، وقدّموا بين أيديكم ماتجدوه .

وجاء في آخر هذا الجزء مانصه :

آخر الجزء الثالث عشر من كتاب مسالك الأبصار .

المَبحَثُ الثَّانِي

وَصفُ الجُزءِ المَخطُوطِ

إن تحقيق أي مخطوطة يحتاج إلى معرفة تامة بأمور كثيرة، يلتزمها طالب العلم، ومن هذه الأمور نسبة المخطوطة إلى صاحبها وقد أثبتناه في صفحة (٦٧)، وكذلك مكان المخطوطة ورقمها وخطوطها.

إن **(مسالك الأبصار)** -الذي تحقق الجزء الثالث عشر منه- مجموع بأجزائه في نسخة الكتب خانه الخديوية المصرية المحمية الكائنة بسراي درب الجماميز تحت رقم (٣٣٧) في مصر، والذي قام بجمعه محمد الليثي في يوم الأحد الرابع عشر من شعبان سنة ألف وثلاثمائة وتسع هجرية الموافق الثالث عشر من شهر مارس سنة ألف وثمانمائة واثنتين وتسعين ميلادية.

وهذه النسخة التي جمعها وخطها محمد الليثي راجعها الأستاذ محمد أحمد خواجه ففي الإعادة إفادة حيث استطاع الأخير من ضبط بعض الأبيات الشعرية وإعادة بعض الحروف الساقطة وقد أخذت مكتبة لندنبرغ صورة بواسطة الميكروفلم عن هذه النسخة الأصلية للمخطوطة وأودعته في مكتبتها تحت رقم (٣٤١) من باب المبادلة والتعاون العلمي بين الجامعات.

أما الباحث فقد صوّر مخطوطه عن الميكروفلم الموجود في الجامعة الأردنية تحت رقم (١٠٣٨)، وهنا لا بد من التاكد من صحة المخطوطة في مكتبة لندنبرغ والجامعة الأردنية، فقمت بمراسلات لبعض الإخوة وقد زوّدتهم باسم المخطوطة ومؤلفها ورقمها حسب ما كتب على الشريط الموجود في الجامعة الأردنية التي صوّرته عن مكتبة لندنبرغ وطلبت تصوير بعض صفحاتها، فأرسلوا لي تلك الصور وعندما قارنتها بما صورته من الجامعة الأردنية وجدت أنها نفس النسخة فحمدت

الله على ذلك وبعد هذا كان لا بدّ من التأكد من النسخة الموجودة في مكتبة لندنبرغ هل هي مختلفة عمّا في مصر أم لا؟ فكان لا بدر من السؤال والإستفسار والرحيل، وبحمد الله بلغت المرام عندما وجدت أن مكتبة لندنبرغ قد صورته عن النسخة الأصلية والوحيدة الموجودة في نسخة الكتب خانه الخديوية المصرية تحت رقم (٣٣٧).

بعد التأكد من صحة المخطوطة وأنها في المكتبات الثلاثة واحدة تماماً شكلاً وموضوعاً ومضموناً وصفحات إعتمدتها وبدأت العمل بنفس مطمئنة وخاصة بعد تاكيد مؤسسة آل البيت -مؤسسة علمية تراثية تهتم بالتصنيف والفهرسة والتأريخ والجمع- بأن هذه المخطوطة فريدة ووحيدة في الأمكنة التي ذكرناها.

إذن فالمخطوطة التي إعتمدها الباحث ماخوذة كما ذكرنا من مكتبة الجامعة الأردنية ميكروفلم رقم (١٠٣٨) وهذه مصورة عن مكتبة لندنبرغ رقم (٣٤١)، وهذه الأخيرة مصورة عن الأم والأصل النسخة الموجودة في نسخة الكتب خانه الخديوية المصرية تحت رقم (٣٣٧)، وقياس صفحاتها (٣٠×٢٠)، وعدد اوراقها (٢٠٥) ورقة، وكل ورقة عبارة عن صفحتين متفاوتة الأسطر تصل إلى خمسة وعشرين سطراً في الصفحة الواحدة، ويزيد عدد كلمات السطر الواحد على عشر كلمات.

وقد كتبت بخط نسخي متوسط ضبط بالشكل احياناً. غير أن تصحيفاتها وتحريفاتها وأوهامها واسقاطها كثيرة جداً. والمطلع على النسخة يحسب لأول وهلة أنه إزاء مخطوطة سهلة، غير أنه سرعان ما يتبين له خلاف ذلك كلما أوغل فيها، وسبب ذلك أن ناسخها من الجهل بمكان، فإنه يتلاعب أحياناً بالعبارة فيقدم ويؤخر

مما يخل بالمعنى المراد منها، وأحياناً يلجأ إلى التحريف والتصحيف والى المسخ والبتر والتشويه فيدع القاريء في حيرة وأباجير وفي حيص بيص، فإن لم تسعفه ذاكرته في إستحضار الكلمة المناسبة فعليه أن يعود إلى المصادر التي نقل عنها المؤلف، ولولا وجودها والإعتماد على الحفظ والمعرفة باللغة لتعذر إتمام تحقيق هذا النص الجميل بخطه، العسير بكلماته.

وبالإضافة إلى ما نكر يوجد بياض في الأصل وذلك من اثر رطوبة أصابت الأصل في خزائن المكتبات الأثرية القديمة.

وقد بدأت المخطوطة بما يلي:

(فكتبت إليه كيف أصبح مولانا في هذا الشتاء الذي أقبل يرغب مقدمه، ويرحب تقدمه، ويريب اللبيب من برقه المومض تبسمه...)

وانتهت المخطوطة بقوله:

(اين الامم الخالية، اين أصحاب الهمم العالية، صاروا والله عظاماً بالية، فغيرت منهم المحاسن وزالت، وذهبت عنهم تلك النضارة وحالت وذوت تلك الغصون الزاهية ومالت، فاتقوا الله واحذروه وقدّموا بين ايديكم ما تجدوه).

وجاء في آخر هذا الجزء ما نصه:

آخر الجزء الثالث عشر من كتاب مسالك الأبصار.

تعليق على المخطوطة

لقد اتبع المؤلف -رحمه الله- أسلوباً علمياً رائعاً في ترجمته للكتاب، فقد إختار المشهورين منهم ونوّه ببعض المغمورين، وكان يعرفنا على الكتّاب من خلال النواحي الأدبية والإسلامية والثقافية وهذا يدل على حسّ نقدي وحفيظة تعي ما تحفظ وتميز الغثّ من السمين، متبعاً ترجمته رسالة من رسائل الكاتب أو نصاً شعرياً أو نثرياً أو قولاً، يؤكد ويدعم حكم المؤلف على الكاتب ويثبت ما قال.

وفي كلامه على الخطباء، ترجم للخطباء مشارقة و مغاربة دون تمييز، وقد اتّبع التسلسل الزمني منذ بدئها حتى عصره، وقد أكد أن الخطابة عربية صرفة لا علاقة للعجم أو البربر بها، وقد أفرد الخطباء المصريين فأخرجهم من التسلسل التاريخي، وكأنه يريد القول بأن هؤلاء الخطباء وصلوا إلى تقدم رفيع المستوى في هذا الفن، وأن موضوع الخطابة قد نضج عندهم فلا بد من إفرادهم وتميزهم عن غيرهم.

وعلى طريقة كتّاب السير الذاتية وغيرها نجده ينقل كل شيء دون حرج، ونراه يعتذر إلى الله عن نقله ما يندى له الجبين، فقد أراد أن يدلل على ما في العصر من غثّ وسمين، من جاد وهزل، من نافع وساقط، وكان ينبغي عليه -وما أنا إلا نقطة من بحر علمه وذرة من بيداء أمام علمه ومقدرته- أن يترفع عن ذكر بعض الكلمات السّوقيّة والتي لا تليق

لا بالكتاب ولا بالكاتب أن يضمنها صفحات كتابه، فهناك الأمثلة الكثيرة التي يمكن أن يستعاض بها عمّا ذكره وما لنا إلا أن نردد قول المؤلف رحمه الله (وأنا أستغفر الله مما ذكرت)(١).

ومن خلال عرضه في المقدمه لموضوع الجزء أراد أن يعلمنا طريقة البحث العلمي السليمة، وطريقة التأليف الموسوعي الصادق، فهو يورد لمن رآهم أو سمع منهم أو أخذ من غيره الثقات، فبهذا يستطيع الباحثون -ودون ريب أو شك- أن يأخذوا وأن يرجعوا إلى كتاب مسالك الأبصار وهم على ثقة مما ينقلون ويروون وخاصة لما عرف عن المؤلف من الصدق والنشأة الإسلامية الصالحة.

(١) مسالك الأبصار: ١٣/٨٠

هما الكتابة والخطابة ،فقد تناول الكتابة وأشهر كتّابها ،مشارقة ومغاربة ، رجال سياسة ورجال قضاء ورجال دين ،مشهورين ومغمورين ،مكثرين ومقلين ، مع تركيز واضح على الكتّاب المشارقة بحجة أن الشرق هو أصل العلوم والأدب والثقافة .

وقد اتّبع المؤلف - رحمه الله - أسلوباً علمياً رائعاً في ترجمته للكتّاب فقد اختار المشهورين منهم ونوّه ببعض المغمورين ،وكان يعرفنا على الكتّاب من خلال النواحي الأدبية والإسلامية والثقافية وهذا يدل على حسّ نقديّ وحفيظة تعي ماتحفظ وتميز الغث من السمين ، متبعاً ترجمته رسالة من رسائل الكاتب أو نصّاً شعرياً أو نثرياً أوقولاً ،مما يؤكد ويدعم حكم العمري على الكاتب ويثبت ماقال .

أمّا الباب الثاني - الذي وضعه في كتابه - هو الخطابة ،فترجم للخطباء مشارقة ومغاربة دون تمييز،وقداتّبع التسلسل الزمني منذ بدئها حتى عصره، وقدأكّد أن الخطابة عربية صرفة ولاعلاقة للعجم أوالبربر بها وقد انهى كتابه - الجزء الثالث عشر من مسالك الأبصار - بإفراد الخطباء المصريين مخرجا إيّاهم من التسلسل التاريخي ،وكأنه يريد القول بأنّ هؤلاء الخطباء وصلوا إلى تقدم رفيع المستوى في هذا الفن ،وأن موضوع الخطابة قد نضج عندهم فلا بد من إفرادهم وتميزهم عن غيرهم .

أمّا حال الخطابة بالمغرب، فانه لم ينطق به في الزمان الأول قالتها، ولم تشرق بما فاق المنابر هالتها، حتى كان الزمن الأخير، خطب منهم عدد غير كثير، وأجاد منهم قوم نوؤهم غير مطير، ونفر لا يعدّ أحد منهم في نعير، ولا يغير هذه القلّة من عندهم من ذوي الأقدار وأولي الرتب الكبار، ثم لما أصبحت بلاد المغرب مدنا من مدنها، ومنابر يمن رفع بناءها، وذلك من المائة الرابعة إلى آخر السابعة وما معها في هذا القرن الثامن بطريق المتابعة، لم يخطب أكثر من خطبائها الا بسورة (ق) وفيها مقنع كاف، إلاّ أنهم لو يرددوها ولم يخلوا منها جمعة، ....

إلا أن هذا ماوردت به السنّة من أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خطب بسورة (ق)، وهو مما لا وجه فيه الخلاف، فإنه يورد عليهم ماحفظ عنه - صلى الله عليه وسلم - من الخطب وأنه قلّ في السّلف الصالح إلاّ من خطب، وماهذا إلاّ لما يرى هممهم بالقصور وقرائحهم بالقبور، ولقد جهدت على أن أقف من المغرب على ديوان خطب ولو كان غير ذي رطب، ورأيت هذا ممّا لا رأيت، وسموت به على كثير ممن أخذت عنهم ورويت الآن من متأخريهم من له خطب حسان قدحت زنادها وأوريت، وصرّحت ببيانهم الواضح وماوريت منهم ...(1)).

يبدو واضحاً انتقال المؤلف - رحمه الله - من باب إلى باب، من الكتابة إلى الخطابة متبعاً تسلسلاً زمنياً في ترجمته.

هذا كلام المؤلف - رحمه الله - في وصف مادة الجزء الثالث عشر والذي - أمدّنا بعون منه حققناه ووجدناه يشمل موضوعين كبيرين هامين.

=:==:=

(1) مسالك الأبصار للعمري: ١٣/ ٣٨٢.

يريد من هذه المقدمات الوجيزة أن يعلمنا طريقة البحث العلمي السليمة، وطريقة التأليف الموسوم الصادق، فهو يورد لمن رآهم أو سمع منهم أو أخذ من غيره الثقات الثقات، فبهذا يستطيع الباحثون ودون ريب أو شك - أن يأخذوا وأن يرجعوا إلى كتاب مسالك الأبصار وهم على ثقة لما ينقلون ويروون وخاصة لما عرف عن المؤلف من الصدق والنشأة الاسلامية الصالحة .

ويختم المؤلف كلامه عن الباب الأول بقوله : (وبتمام ذكره كتّاب مصر أمواتا وأحياء، ممن نكّس لهم البدر خجلا وتنصبت السماء حياء ... ، على أنني أقول ولا عصبية ولا حمية لقوة غضبية، ان كتّاب المشرق أفخم بما نالوا، وأعظم بما فعوا لا بما قالوا ...) (١) ينهي المؤلف - رحمه الله - الباب الأول برفع قيمة الكتاب المشارقة وتفضيله إياهم عن المغاربة .

ينتقل المؤلف إلى الباب الثاني بقوله : (وأمّا الخطابة فبالمشرق منشؤها ومنه منبتها، وأمّا منابرها وخطب أكابرها فإنه لا يعرف لأمّة قبل العرب قيد الخطب إلاّ أنّه كان في بعض الأمم كالفرس والروم متكلم إلاّ أنه لا يقوم ولا ينتصب خطيبا، اذا تكلم سكت الناس ... فأمّا المغرب فبلاد بربر لا يعرف فيها خطيب ولا منبر... وها أنا أذكر من خطباء الجانبين ما يعرف به قدر كلا منهم السائر في الوجود، وسهامهم التي تشقّ القلوب قبل الجلود، وأبدأ بالمشرق كشأننا فيما تقدّم، وأقول الحقّ ولا أتقدم) (٢) .

:-x-:-x :- -x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-:x::x

(١) مسالك الأبصار : ١٣ / ٢٩٨ .

(٢) مسالك الأبصار : ١٣/ ٣٠١ .

وأوردت من أباطيله ،وعقدت البنان على القلم حين تستطير أضاليله ،وإن كنت لم أوردها إلاّ كالصد الحالي ،وأنا فيه ناقل لا قائل ،ومن الله العصمة ،وبه السلامة) (١)

في هذه الجمل القصيرة تزداد الثقة في المؤلّف ،وعلى طريقة كتّاب السير الذاتية وغيرها نجده ينقل كل شيء دون حرج ،ينقل حتى ماينـدى له الجبين بذكره ،ونراه تبرأ ويعتذر إلى الله على نقله ،فقد أراد أن يدلل على مافي العصر من غثّ وسمين من جاد وهزل ،من نافع وساقط ، وكان ينبغي على المؤلّف - رحمه الله - وما أنا إلاّ نقطة من بحر وذرة من بيداء أمام علمه ومقدرته ،ولكن التلميذ يتطفل على أستاذه طالبا العلم لا ناقداً مستفيداً لا غامزاً ولا لامزاً ،كان الأجدر بالمؤلف -رحمه الله - أن يترفع عن ذكر بعض الكلمات السوقية والتي لا تليق لا بالكتاب ولا بالكاتب أن يضمنها صفحات كتابه فهناك الأمثلة الكثيرة الكثيرة التي يمكن أن يستعاض بها عمّا ذكره وما لنا إلا أن نردد قول المؤلف رحمه الله (وأنا استغفرالله مما ذكرت) (٢) .

ويتابع الباحث - رحمه الله - وصفه لموضوع الكتاب قائلا : (...فسآتي بما شقّ سمعي خبره ،أومتّع طرفي نظره ممن قدم مصر فرأيته ،ودنالي اقتطافه فجنيته) وهم إلى آخر ماعلمته حين صنّفت هذا الكتاب وعلته أحياء يرزقون وأغنياء لا ينفد من كنوز البلاغة ما ينفقون) .(٣) وكأني بالمؤلف -رحمه الله - يريد

-:x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:x

(١) مسالك الأبصار : ٨٠/١٣
(٢) مسالك الأبصار : ٨٠/١٣
(٣) مسالك الأبصار : ٢٣٢/١٣

المبحث الثالث

منهج وخطة التحقيق

إن لكل باحث منهجاً لا بد من إتباعه في عملية التأليف أو التحقيق، ولا بد من إلتزام هذا المنهج أثناء عمل البحث، وربما يخرج الباحث أحياناً لضرورة يقتضيها البحث شريطة أن لا يترك هذا الخروج أثراً ملموساً أو ملحوظاً.

فبعد تصوير المخطوطة وقراءتها على الشاشة في مكتبة الجامعة الأردنية، مرات ومرات حتى عانقت الليل، وأحياناً سهرت ونجوم الليل تصبرني وتواسيني، وذيول أمراس تشد جفوني حتى لا يغلب النوم عليّ، وكنت كلما أوغلت في صفحاتها عدت أدراجي إلى الوراء لربط التالد بالطارف والسابق باللاحق.

شهور مرت وتعاقبت حتى فرغت من قراءتها والتحقق في فحواها، فحللت لغزها، وأتيت على مواضيعها جملة وتفصيلا، فلم أجد بعد ذلك سبيلاً إلا الشروع في التحقيق والكشف عما يبل الريق، فإذا بسيل من الكتّاب والأدباء والخطباء والشعراء الذين سمعت ببعضهم من قبل، ولم أسمع بكثير منهم، فدفعني هذا إلى اللجوء والإسراع إلى المكتبات الأمهات لأعيش في بطونها، فافترشت الأرض متسلحاً بالمصادر والمراجع، الموثّقة والمتداولة لأشهر المؤلفين والتي تتعلق بالتراجم والمؤلفين والأدباء وكذلك المعاجم اللغوية.

وقد حاولت -بعون الله تعالى- أن أجمع بين أسلوب الأديب الذي يرسل نفسه على سجيتها، والعالم الذي يدقق في المضامين بتمعن بحيث يخرج الكتاب كما أراده مؤلفه، علماً وأدباً وترويحاً وأخباراً، فقمت بما يلي:

أولاً: إثبات نسبة الكتاب للمؤلف، وقد أخذت من أساتذتي والمحققين الذين

سبقوني في تحقيق الجزء الأول ،مثل : العلاّمه الاستاذ أحمد زكي باشا في تحقيقه للقسم الأول ،وكذلك الأستاذ الكبير أيمن فؤاد سيّد في تحقيقه لنفس الجزء .

ثانيا : كتابة المخطوط بالخط المستعمل اليوم وذلك على مرحلتين ،النسخ بخط اليد ،والمرة الثانية طباعته على آلة طابعة .

ثالثا : تخريج الآيات الكريمة وذلك بالرجوع إلى كتاب الله - القرآن الكريم - مستعينا بالمعجم المفهرس لآيات القرآن لمحمد فؤاد عبدالباقي و نجوم الفرقان في أطراف القرآن للمستشرق الألماني فلوجل .

أمّا الأحاديث النبويه الشريفة فقد أثبتهاكما وردت في النص وأشرت إلى رواياتها المتعددة وعلقت عليها من حيث ضعف روايتها أو قوتها مستعينا بمفتاح كنوز السنة للمستشرق فنسنك ترجمة محمد فؤاد عبدالباقي وكنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي والجامع الصغير في أحاديث البشير والنذير للسيوطي .

رابعا : تخريج الأمثال

فالأمثال من الأعمال التي كثرت الروايات حولها وتصرف الرواة في ألفاظها وعباراتها وفي طولها وقصرها ،فرجعت إلى مظانّها وأتيت بموجز لقصة المثل الذي عثرت على مصدره ،وأهم الكتب التي رجعت إليها : مجمع الأمثال للميداني ،وأمثال العرب للمفضل الضبي وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري .

خامسا : تخريج الشواهد الشعريه ونسبتها إلى أصحابها وذلك بعد التأكد من وزنها واكمال عجز البيت إن وجد صدره . وقد استعنت بالدواوين المطبوعة وكتب الحماسة والاختيارات والمجاميع الشعرية وكتب اللغة والأدب والنحو

والتاريخ ، وقد وضعت بحر كل بيت في مقدمته .

سادسا : تخريج الأماكن ،وقد استعنت بكتاب معجم البلدان لياقوت الحموي والديارات للشابشتي ، ومعجم ما استعجم للبكري والجبال والأمكنة والمياه للزمخشري .

سابعا : تراجم الأعلام فقد ترجمت لمعظم الأعلام الذين ورد ذكرهم ففي الإعادة إفادة ،وقد استعنت بالتراجم العامة ، مثل : الإصابة في أسماء الصحابة لابن حجر والطبقات الكبرى لابن سعد ،والبداية والنهاية لابن كثير وشذرات الذهب لابن العماد .

وكذلك كتب الوفيات المعروفة ،مثل : وفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي والوافي بالوفيات للصفدي .

أما معاجم الشعراء فمنها : طبقات الشعراء لابن سلام ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ،ومعجم الشعراء للمرزباني ، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

ومن معاجم النحاة : انباه الرواة للقفطي ،وطبقات النحويين للزبيدي ونزهة الألباب لابن الانباري ، وبغية الوعاة للسيوطي .

ومن معاجم الكنى والألقاب : ألقاب الشعراء لابن حبيب ، والمؤتلف والمختلف للآمدي والكنى والألقاب للقمي .

ثامنا : شرح المبهم من الكلمات، ومن المصادر الهامة التي رجعت إليها : لسان العرب لابن منظور وتاج العروس للزبيدي ،والقاموس المحيط للفيروز آبادي والمخصص لابن سيده وفقه اللغة للثعالبي .

وأثناء هذه العمليات كلها حافظت على أصل الكتاب كما هو دون زيادة ولا نقصان ولا تأويل ، فالواجب العلمي يوجب على الباحث أن يلتزم بما جاء في المخطوط الذي يحققه ، ولكنني جعلت بعض كلماته عناوين ووضعت ذلك بين قوسين إما مربعين أو على شكل قوس ، لأشير إلى أن هذا الوضع الذي لا زيادة فيه من عندي قد خالفت فيه الأصل الذي اعتمدت عليه لمجرد الفصل بين شيء وآخر .

وقد نجد في الكتاب أشياء لابدّ من التعقيب عليها ومسايرة النقد الذي طرأ عليها وقد لخصته وأدليت مستعينا بالله - سبحانه وتعالى - برأيي في هذا النقد مستخدما الحاشية لطرح هذه الأمور حتى يبقى النص على سلامته .

أمّا فيما يتعلق بمشاكل النسخة كالبياض وبعض الكلمات المطموسة والكلمات غير المنقوطة والتقديم والتأخير والزيادة أحيانا والنقصان أحيانا أخرى ، كلّ هذه الصعوبات واجهتها بصبر وتجلد وتحمل فرجعت إلى معظم الكتب والمؤلفات التي لها علاقة بالنسخة أو بالمؤلف وخاصة " قلائد العقيان " لابن خلكان " والذخيرة " لابن بسّام " وصبح الأعشى " للقلقشندي وغيرها من الكتب . أمّا فيما يتعلق بالكلمات غير المنقوطة والمطموسة وغير ذلك فقد اعتمدت في إثباتها على قوّة الحافظة ومفهوم الجمل والمعاجم اللغوية والترجيح في المعاني الممكنة ، وكلّ ذلك احتاج إلى وقت طويل وجهد مضن وصبر حتى بيّنت حقيقتها وأتيت على صوابها ، إلاّ ماندر - وهي قليلة - من الكلمات فقد رسمتها كما جاءت أو تركت مكانها بياضا مشيراً إلى ذلك في الحاشية إلى عدم قراءتها

والتحقق منهـــا .

وأخيراً قمت بعملية تنظيمية فقسّمتها إلى بابين كبيرين ،البـــاب الأول في الكتابة والكتّاب ،والباب الثاني في الخطابة والخطباء ، وقمت أيضاً بعملية فصل كل خطيب أو كاتب ،وأفردته بعنوان يدلّ عليه ،لتسهل عمليـــة الرجوع والاستفادة . وأثناء هذا الفصل كنت أضع عناوين حسب الموضوعات التي تعرّض لها الكتّاب والخطباء . وكل هذه الأعمال وضعت بين حواصر لتمييزها عن المخطوطة، فالأمانة العلمية توجب إفراد هذه الترتيبات وفصلها عن كلام المخطوطـة .

وفي النهاية وضعت الفهارس كاملة وقد شملت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبويـة الشريفة والأشعار والأمثال والأعلام والأمكنة ،والمواضيـــع العامة وكذلك المصادر والمراجع التي استعنت بهـــا .

المبحث الرابع
أهمية هذا الجزء

إن " مسالك الأبصار " من الموسوعات التي حوت معارف العصر وعلومه، فلم تقتصر على فن واحد ،بل اتّسعت فشملت التاريخ ،والجغرافيا ،والشعر، والنثر والعلوم العصرية ،فالقارئ لأجزائه يجد نفسه أمام سيل من المعلومات لا ينضب ولا يجف نبعه ،لقد حرص المؤلف - رحمه الله تعالى - على أن يكون كل ما أورده إماسماعاً أو شفاهاً ،وهذان العنصران يزيدان من أهمية الكتاب ويجعلانه في مقدمة كتب التراث المعتمدة .

لقد اخترت هذا الجزء من بين أجزائه والتي تربو على عشرين جزءاً - لاشتماله على موضوعين رئيسين مهمين ،هما الكتابة والخطابة ،وقد عملت جهدي وعشت أياماً وشهوراً طويلة متجولاً وباحثا ومقيما في المكتبات الجامعة الكبيرة حتى أعانني الله - سبحانه وتعالى - وأخرجت هذا المخطوط من اللاوجود إلى كتاب مطبوع مقروء مفهوم ،أسأل الله تعالى أن يفيد منه طلاب العلم والبحث .

وأثناء عملية البحث والتحقيق والتمحيص وقفت على حقائق جليلة جليّة تساعد على تثبيت مفاهيم العصر الأدبية الأسلوبية والموضوعية وبالمقابل على نفي بعض المفاهيم الأخرى السائدة عن هذا العصر .

إنّ هذا الجزء - الثالث عشر - يعطي صورة صا قه واضحة عن أن عصراً يبرز فيه هذا النوع الموسوعي من التأليف لا يمكن وصفه بالجمود والركود والتبلد والموت ، بل يعطي صورة عكسيةً تماماً عن أن هذا العصر هو عصر استطاع أن يوازن بين الشيئ وضده ،فقد واكب العلم والتأليف الحروب والمعارك المستمرة، وصفها ، كتب عنها ،ساعد في تثبيت الهمم والعزائم وشحذ النفوس

وتقويتها ،وتثبيت القلوب والأفئدة . مدح فأجزل في المدح ،وواس وآنس الحكام في مصائبهم وكرباتهم ، لقد شارك الأدب السياسة فكانا توأمين لا فرق ولا بون بينهما .

التركيز على أسلوب البحث العلمي الذي اعتمده المؤلف- رحمه الله - في كتابه رفع من قيمة هذا الجزء والكتاب بشكل عام ،وقد يعتبر المؤلف من السبّاقين إلى هذا النوع التأليفي ،فأسلوب البحث العلمي من أنجح الوسائل لجعل الكتاب مصدراً من مصادر العلم والمعرفة وذلك لكون صاحبها قد بذل خلاصة تجاربه وعلمه وعطه وأفكاره في كتابه ،فبالتالي يكون هذا الكتاب مرجعاً ثراً وصادقا في موضوعاته التي تناولها ، وخالياً من الغث وغنيا بالسمين ،وهذه الصفات مجتمعة تؤهله لأن يكون مصدراً ومرجعاً يرجع إليه ويعتمد عليه في القضايا الأدبية الساخنة الفاصلة .

ومن الأشياء التي ركّز عليها واهتم بها وضوح التقسيم والتبويب أمام القارئ ولولا هذا لاختلطت المعلومات والموضوعات، ولأصبحت أكواماً هائلة من المعارف يصعب فصلها و تمييزها عن بعضها ،ولأشكل على القارئ أمر تصنيفها وبالتالي الإفادة منها والأنس بمعرفتها ،ففي هذا الجزء الذي نحققه جعله في بابين كبيرين ،الكتابة والخطابة ،فوضح للقارئ أن هذا الجزء يشمل موضوعين لا ثالث لهما ،ثم بعد ذلك قسّم الكتّاب إلى مشارقة وكتاب مغاربة ، وعقد شبه موازنة بينهما ،ثم قسّم الكتّاب والخطباء إلى من عاشهم وصادقهم وإلى من كانوا في عصره أوسبقوه ، فهذا الوضوح في التقسيم يجعل القارئ يستريح لموضوع الكتاب ويدفعه إلى الاطلاع على محتوياته ،ويعطي درساً كاملاً وافياً مفيداً لروّاد التأليف ليقتدوا به ويسيروا على منواله ونهجه ويقتفوا أثره

وقد ظهرت هذه الخاصية ليس في هذا الجزء فقط بل في جميع أجزاء الموسوعة المخطوطة والمطبوعة "الجزء الأول فقط" ، فقصر كل جزء على موضوع واحد كتب فيه وعالجه وأتى بالشواهد الكثيرة وأحياناً ليدلل على صدق دعواه ،ولكنه أغفل عنونة موضوعاته ، ويعود هذا - والله أعلم - إلى عادة أهل العصر في التأليف الموسوعي تاركين لنا وللباحثين وروّاد البحث العلمي والنّقاد عناء هذا العمل مع وضوح وسهولة هذه العلمية .

ركّز المؤلف - رحمه الله - على الموضوعين الرئيسين في النثر ،الكتابة والخطابة ،فترجم للكتّاب والخطباء ترجمة تكاد تكون فريدة من نوعها ،ماعرفت إلاّ على يديه وثلة ماسبقوا ،أنها الترجمة التي نفتقر إليها ،إنها النقد العلمي البنّاء في عملية الاختيار والانتقاء للأدباء الذين يمثلون عصورهم في أدبهم ونتاجهم ،أنه ترجم لهم ترجمةً أدبيةً وافيةً واصفاً وناقداً ،مادحاً وذامّاً خافضاً ورافعاً ، فطالب العلم وطالب البحث يكفيه أمثال هذه الموسوعات في تراجم الرجال أدبياً لتغنيه عن استعمال مكتبة كبيرة واسعة ، يأخذ السيرة الذاتية والحياتية والمعاشية من كتب التراجم المعروفة ويأخذ من العمري وأقرانه التراجم الأدبية الصرفة ليخرج بعد ذلك بشخصيته كاملة متكاملة ، تكون كل واحدة بمثابة كتيب تحمل اسمه .

ومن الأشياء التي ركّز عليها المؤلف - ومن طرف خفي لم يصرح به - الدراسة الأدبية النقدية المقارنة وذلك أثناء عرضه للخطباء ، فالتسلسل الزمني في تراجمه ومن الجاهلية إلى عصره يعطي صورة جلية أنه أراد عقد مقارنة بين موضوع وأسلوب الخطابة في العصور الزمنية الأدبية المتعارف عليها عند طلاب

الأدب والمهتمين به . فطالب العلم الذي يطّلع على هذا الجزء وفي هـــذا الموضوع يتزود بمعلومات تغنيه عن الرجوع إلى نفس الموضوع في مراجـــع ومصادر عديدة ،وتوّ عليه عناء البحث وهمومه وتوفر عليه الوقت وأهميتـــه ، لم لا ، والمؤلف يعطيك نماذج لأدباء وخطباء مشهورين ومعروفين وكذلـــك لبعض الأدباء الذين خبا صيتهم ،إنه يقول وبصراحة هذا هو العصر وبضاعته وما عليك أيها الباحث إلا أن تستنتج . نعم ،إنها الطريقة المثلى فيعمليـــة البحث العلمي الصحيح ، يضع بين يديك المعطيات ويترك لك حرية الحكـــم والنتيجة وقطف الثمار.

لقد رفع المؤلف - رحمه الله - راية السَّبْق في ترجمته لعدد ممـــن الكتّاب والخطباء فساق زمام القول ،وملك قياد الكلام ، وجعل مايـــنقلـه من المصادر والمراجع خادماً للفكرة التي يعرضها أو القضية التي يشرحهـــا. إننا نراه في هذا الجزء يترجم لأدباء ماذكرهم أحد قبله ،ولا أتى على ذكرهـم مؤلف في عصره ،فمن هذا الباب ومن هذه الزاوية تكمن أهمية هذا الجزء أيضا.

وتبدو القيمة العلمية لهذا الجزء كأوضح ماتكون في اعتماده علـــى السماع والمشاهدة لمن ترجم لهم ، وهاتان الميزتان تضيفان إلى القيمة العلمية للكتاب ميزة أخرى وتزودانه بمعلومات قدلاتوجد في الكتب المتخصصة في نفـــس الموضوع ، يقول :فسآتي بما شقّ سمعي خبره ،أو متّع طرفي نظره ،ممـــن قدم مصر فرأيته ،ودنالي اقتطافه فجنيته .... (١)

-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:

(١) مسالك الأبصار : جزء ١٣ صفحة ٢٣٢ .

إنه يأتي بأخبار نادرة ـ لا تتوفر في غيره من المصادر ـ عن بعض الأدباء والخطباء فيما سبق وفي عصره ، فهو يتحف قارئه بمجموعة من الأخبار عن أولئك الأدباء الذين لم يتطرق لهم أحد قبله .

ومما يزيد من القيمة الأدبية والنقدية للكتاب ،تلك الرسائل الأدبية الرائعة التي سمعها أو قرأها بنفسه لكتّاب عصره ،وقد كان بوسعه أن يزودنا بالمزيد من هذه الرسائل ـ التي يعدّ هو المصدر الرئيسي لها إذ لم ترد في مصدر غيره فيما نعلم ـ لكن شبح الإطالة كان ماثلا أمامه فاقتصر في إيراده لرسائل عصره على جملة من رسائل الكتّاب من أصدقائه وأصحابه ،ومن يتّصل بهم بصلة الودّ والأدب ، ومن أمثلة الرسائل التي أوردها رسالة إهداء العروس قطر الندى إلى الأمير .

واذا كان المصنف قد أجاد وأبدع في رسم معاصريه من الوجهتين العلمية والأدبية لعالم الطبيعة والفلك ، فإنه قد انفعل عندما راح ينقل هذا التصوير فيما يختص بالحيوان وغيره ،الذي يعتمد على المصادر الموثوقة والمشهورة ككتاب الحيوان للجاحظ ،ويجمع إلى جانب ذلك كله الكلمات المنشورة والمسجوعة والبليغة والمعبرة وبدقة عمّا يريد أن يكتب .

وترجع أهمية هذا الجزء أيضا إلى تحرّي الدقة والأمانة العلمية في النقل ،وإسناد كل قول إلى صاحبه دون زيادة أونقصان ،يقول: (وأثبت في أثناء ماقلت في كل ترجمة بعض مقال مؤلفه فيما ترجمته وصرحت في كل مكان باسمه لأبيّن كلامي من كلامه) (١)

*:-x-:-x-:-x-:-x--x-:-x-:-x-:-x-:-x-:--x--x-:-x-:x-:-x-:-x-:-x-:

(١) مسالك الأبصار : جزء ١٣ صفحة ٧٩ .

ومما ركز عليه العمري المقتبسات التي سقطت من يد الزمن ، ومن خير ما احتفظ به تراجم لكتاب وخطباء أندلسيين ، ومفاخرة طريفة بين المشرق والمغرب تمس حضاراتيهما ومن كان بهما من أفذاذ العلماء والأدباء والخطباء والقضاة فهذه المقتبسات والمختارات تستحق وبجدارة أن تضاف إلى تراثنا وفي أمهات الكتب اعتنت بهذه المواضيع لتكشف عن مقدرة أدبائها على تصوير واقعهم والتفاعل مع معطيات الحياة وتصاريفها وأحداثها ، ولتميط اللثام عن الفكرة التي ارتسمت في أذهان الناس عن تلك الفترة الزمنية وما وصفت به من خمود وخمول وجمود ، فجاءت هذه الاختيارات لترد على هذه المقولات بالأمثلة والأدلة والبراهين الدامغة التي لا تشوبها شائبة وذلك فيما نقل من الأشعار والمأثورات والتقاليد والرسائل فالمؤلف فعل هذا بحس نقدي وأدبي متميزين ، فيقيم من نفسه وبمقاييس عصره معياراً يزن به المواد الأدبية التي يعرفها ويبين سقيمها من صحيحها ، وظهر هذا كله أثناء المقدمات السجعية التي كان يقدمها عند التعريف بالأديب ، فكانت تلك المقدمات بمثابة الحكم الذي يصدره الحاكم والناقد ، فكلمات قصيرة وجمل ليست طويلة تحمل في ثناياها حكماً على من ترجم لهم ، حكماً صادقاً كان خلاصة تحقيق وتمحيص وتدقيق وهذا العمل الجاد يدفع القارئ والباحث إلى أن يسلّم تسليماً كاملاً للمؤلف ويعتمده مصدراً من مصادره ومرجعا من مراجعه يرجع إليه عند حاجته .

الفصل السادس
الكتابة والإنشاء

المبحث الأول

فضل الكتابة والحث

علي تعلمها

إن اعظم شاهد لجليل قدرها ، وأقوى دليل على رفعة شأنها ، أن الله - سبحانه وتعالى - نسب تعليمها إلى نفسه ، واعتدّها من وافر كرمه وافضاله فقال عز اسمه : ((اقرأباسم ربّك الذي خلق . خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربّك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان مالم يعلم)) مع ما يروى أن هذه الآيه والتي قبلها مفتتح الوحي ، وأوّل التنزيل على أشرف نبيّ ، وأكرم مرسل - صلى الله عليه وسلم - وفي ذلك من الاهتمام بشأنها ورفعة محلّها ما لا خفاء فيه .

ثم بيّن شرفها بأن وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال جلّت قدرته : ((وانّ عليكم لحافظين كراما كاتبين)) ولا أعلى رتبة وأبذخ شرفاً مما وصف الله تعالى به ملائكته ونعت به حفظته ، ثم زاد ذلك تأكيداً ووقّر محله إجلالا وتعظيما التنويه والقسم بالقلم الذي هو آلة الكتابه ومايسطر به فقال تقدّست أسماؤه : ((نّ والقلم ومايسطرون)) . والاقسام لا يقع منه سبحانه إلا بشريف ما أبدع ، وكريم ما اخترع : كالشمس والقمر والنجوم إلى غير ذلك من الآيات الدّالّة على شرفها ورفعة قدرها . وتتردد في القرآن كلمات اللوح والقرطاس والصحف في مثل قوله - تبارك وتعالى - : ((بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ)) ، وقوله :((قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس)) . وقوله : ((رسول من الله يتلو صحفا مطهّرة)) .

ثم كان نتيجة تفضيلها ، وأثرة تعظيمها وتبجيلها ، أنّ الشارع ندب إلى مقصدها الأسنى ، وحثّ على مطلبها الأغنى ، فقال - صلى الله عليه وسلم قيّدوا العلم بالكتاب ، مشيراً إلى الغرض المطلوب منها ، وغايتها المجتناة من ثمرتها ، وذلك أن كل ذي صنعة لابدّ له في معاناتها من مادة جسمية تظهر

فيها الصورة ،وآلة تؤدّي إلى تصويرها ،وغرض ينقطع الفعل عنده ، وغاية نستثمر من صنعته .

وعمل الرسول - عليه الصلاة والسلام - جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه ،حتى لنراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرة من صبيان المدينة (طبقات ابن سعد ج ٢ صفحه ١٤) ، وقد حثّ القرآن على استخدامها في المعاملات ،يقول - عز سلطانه - : ((ياأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين إلى أجل مسمّى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق)) . ومن غيرشك كانت هي الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه ،فقدكان الصحابة يكتبونه ،حتى يتحفظوه .

وقد أطنب السلف في مدح الكتابة والحث عليها فلم يتركوا شأواً لمادح حتى قال سعيد بن العاص : (من لم يكتب فيمينه يسرى) .وقال معن بن زائدة : ((إذا لم تكتب اليد فهي رجل)) . وبالغ مكحول فقال : ((لا دية ليد لا تكتب)) . قال الجاحظ : ولو لم يكن من فضل الكتابة إلا أنه لا يسجل نبي سجلا ولا خليفة مرضيّ ولا يقرأ كتاب على منبر من منابر الدنيا إلا إذا استفتح بذكر الله تعالى وذكر رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

وبالجملة ففضل الكتابة أكثر من أن يحصى وأجلّ من أن يستقصى ، وإنما حرّمت الكتابة على النبي - صلى الله عليه وسلم - ردّاً على الملحدين حيث نسبوه إلى الإقتباس من كتب المتقدمين كما أخبر تعالى بقوله ((وقالوا أساطيرالأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلا)) .

المبحث الثاني
لمحة تاريخية عن الكتابة

كان العرب في الجاهلية أميين ، لا يعرف القراءة والكتابة إلا قليل منهم، فلما جاء الاسلام أخذ يحضهم على تعلم الكتابة وعلى العلم والتعلم. وكان اختلاطهم بالأعاجم بعد الفتوح مهيئا لهم أن يقفوا منهم على فكرة الكتاب وأنه صحف يجمع بعضها إلى بعض في موضوع معين وقد أخذوا يتحولون سريعاً من أمة أمية لا تعرف من المعارف إلا ما حواه الصدر ووعته الآذان إلى أمة كاتبة ، تدون معارفها العربية والاسلامية واضعة بعض المصنفات ومضيفة إلى ذلك بعض المعارف الأجنبية .

وكان أول ما عنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبار آبائهم في الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم ،ومن ثم كثر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار ومن أشهرهم دغفل السدوسي ،وله مجالس عند معاويه دونت في كتاب له اسمه "التضافر والتناصر" وهي تدور بينهما في أسلوب حواري ،اذ يسأل معاوية عن قبائل العرب ويجيبه دغفل بعبارات بليغة ، وقد احتفظ الجاحظ منها في بيانه ببعض إجابات طريفة .(١)

وبجانب ذلك أخذ القبائل تعنى بأخبارها في الجاهلية فتدونها ،وتكاثر هذا التدوين في الكوفة حيث كانت تعيش الأرستقراطية العربية ، مما أتاح الفرصة للرواة من أمثال حماد الراوية أن يحملوا مادة غزيرة من الشعر الجاهلي وكل مايتصل به من أخبار وأيام . وبين أيدينا أخبار مختلفه تدل على أن الشعر

:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-

(١) البيان والتبيين ١/ ١٢١ .

الإسلامي كان يكتب ويدوّن ،من ذلك مايرويه الجاحظ عن ذي الرّمه عن أنــه كان يقول لعيسى بن عمر : (اكتب شعري فالكتاب أحبّ إلي من الحفظ ،لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ،فيضع في موضعها كلمة في وزنها ،ثــم ينشدها الناس ،والكتاب لا ينسى ولا يبدّل كلاما بكلام (١) وفي أخبار جرير أنــه كان يأمر راويته حسيناً بإعداد ألواح ودواة ليملي عليه بعض أشعاره وأنه كان يقول لسامعيه بالمربد قيّدوا قيداً أي اكتبوا (٢) ،وفي الأغاني أن خالد بــن كلثوم الكلبي كان يدوّن شعره وشعر الفرزدق ،ونحن لا نصل إلى عصرهما حتى يتكون بالبصرة والكوفة جيل من الرواة ،يعنى تدوين أخبار العرب في الجاهلية وأشعارهم ،ولعل خير من يمثله أبوعمرو بن العلاء .

وعناية العرب في هذا العصر بتدوين أخبارهم الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم لا تقاس إلى عنايتهم بتدوين كل ما اتّصل بدينهم الحنيف فقد تأسست في كلّ بلدة اسلامية مدرسة دينية عنيت بتفسير الذكر الحكيم ورواية الحديث النبوي وتلقين الناس الفقه وشئون التشريع ،وكان كثيرون من المتعلمين فــي هذه المدارس يحرصون على تدوين مايسمعونه وقد اشتهر ابن عباس في مكة بما كان يحاضر في تفسير القرآن الكريم ، وكان الصحابة والجيل الأول من التابعيــن يتردّدون في تدوين الحديث ، غير أن بينهم قوما كانوا لا يكتفون بالحفظ خشيــة النسيان ، فعمدوا إلى كتابة ماسمعوه على نحو مايصوّر لنا ذلك البغدادي فــي كتابه " تقييد العلم " ونحن لا نصل إلى عصر عمر بن عبد العزيز حتى نراه يأمر الزهري

:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:

(١) الحيوان : ١/ ٤١

(٢) ابن سلام : ٣٧٤ .

بتدوين الحديث ، فيدونه . ودوّن الفقه أيضاً ،فقد حرّر تلامذة ابن مسعود فتياه ومذهبه في التشريع .

وفي العصر الأموي والعباسي نمى التدوين نمواً واسعا إذ دوّنوا معارفهم التي تتصل بالجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها كما دوّنوا ومعارفهم التي تتصل بالإسلام ومايرتبط به من تفسيرالذكر الحكيم والحديث النبوي والفقه والمغازي وقصص الأنبياء ومضوا يدوّنون أخبار الأمم الماضيه وأخبارالدولة الإسلامية وماعارضها من أحداث وخطوب ،وأخذت تظهر مصنفات في المثالب والأمثال والمواعظ والحكم وفي مسائل العقيدة . ودوّنوا كثيراً من الرسائل والخطب ،كما نقلوا إلى العربية بعض المعارف الأجنبية ، وخاصّة في الكيمياء والطب والنجوم .

وكثرت كثرة مفرطة الرسائل وخاصة السياسة ،وأخذ كتاب الدواوين المحترفون ينهضون بالكتابة الديوانية ،حتى كان سالم رئيس ديوان هشام بن عبدالملك ،فإذا هو يتخذ فيها أسلوب خطباء الوعظ والقصص الديني ،وتبعه عبدالحميد الكاتب ،فأوفى بالكتابة الديوانية على الغاية من غزارة المعاني وروعة الأسلوب وإعطائه حقوقه من الجزالة والرونق والطلاوة ،ومض يدبّج رسائل أدبية لايقصد بها إلى سياسة ،إنما يقصد بها إلى الأدب من حيث هو فن جميل.

المبحث الثالث
الرسائل الديوانية

المبحث الثالث
الرسائل الديوانية

إنّ مايهمنا في حديثنا عن الكتابة ما يتعلق بالرسائل الديوانية لأن موضوع مخطوطتنا ـ التي أعاننا الله على تحقيقها ـ الأول ـ والذي يشكل ثلثيها يدور حول الرسائل الديوانية والكتابة الانشائية .

لقد ظلت مصر في عهد ولاتها من قبل الأمويين والعباسيين فقيرة إلى معرفتها بالدواوين سوى ديواني الخراج والبريد ، وكانت الكتابة في الديوان الأول باليونانية إلى أن تعرّب في عهد الوليد بن عبد الملك ، وعادة كان القائمون عليه وعلى ديوان البريد يجلبهم الولاة معهم من العراق ، وبحق يقول القلقشندي إنه " لم يصدر عنهم مايدوّن وتتناقلة الألسنة (١) . ومرجع ذلك أن الولاة لم يهتموا حينئذ باتخاذ ديوان للانشاء . يوظّف فيه كتّاب جيدون وتصدر عنهم رسائل محبّرة .

جاء احمد بن طولون وتولّى حكم مصر وأسس بها دولته الطولونية وامتد سلطانه إلى الشّام وعلا شأنه ، وأقام ديوان الإنشاء ورفع مقداره كما يقول القلقشندي (٢) ، واتخذ فيه جماعة من مهرة الكتّاب على رأسهم أحمد بن محمد بن مودود المعروف باسم ابن عبدكان ، ويشهد اسمه بأنه فارسي الأصل ، إذ الكاف في الفارسية القديمة تدل على التصغير والألف والنون على النسبة ، فعبد كان

---

(١) صبح الاعشى : ١/ ٩٥

(٢) صبح الأعشى ١ / ٩٥

يقابلها في العربية عبيدي . وقد ظل قائماً على ديوان الإنشاء بعد وفاة ابن طولون في عهد ابن خمارويه حتى توفي فخلفه على الديوان اسحق بن نصير الكاتب البغدادي .

ونمضي إلى زمن الدولة الإخشيدية وقد ترتب ديوان الإنشاء وكثر الكتّاب فيه ،غير أن أحداً منهم لم يشتهر شهرة ابن عبدكان ،ومن كتّاب الديوان حينئذ ابراهيم النجيرمي .

ويستولي الفاطميون على مقاليد الأمور بمصرمنذ منتصف القرن الرابع الهجري ويعظم ديوان الإنشاء في زمانهم لاتّساع دولتهم من أقاصي المغرب إلى نهرالفرات وامتداد سلطانهم إلى الحجاز واليمن وأيضاً لأنهم كانوا أصحاب نحلة شيعية غالية اتخذوا لها دعاة كثيرين في العالم العربي ونظّموا الدعوة لها تنظيماً دقيقاً ،فكان من الطبيعي أن يهتموا اهتماماً واسعاً بديوان الانشاء القائم على كل شؤن الدولة السياسية والإداريه والمذهبيه ،وفي ذلك يقول القلقشندي : (لما ولي الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتّابه فارتفع بهم قدره ،وشاع في الآفاق ذكرُه ،ووليه عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم مابين مسلم وذمّيّ) (١) . وكانت لصاحب هذا الديوان منزلة كبرى لدى الفاطميين ،فكان لا يتولاّه إلاّ أجلّ كتاب البلاغة ،ويخاطب بالأجلّ ويلقّب بكاتب الدّست ،والدست صدر المجلس إشارة إلى أنه في الصدر من مناصب الدولة . وكان أول أرباب الاقطاعات في الكسوة والرسوم والملاطفات ... وله حاجب

:x=:x=:-x=:-x=:x :-x=:-x=:-x=:x-:-x=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) صبح الأعشى ١/ ٩٦ .

من الأمراء والشيوخ ، وله في مجلسه المرتبة العظيمة والمخاد والمسند والدواة العظيمة الشأن، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة . (١)

وكانت تساعده طائفة من الكتّاب والبلغاء وبلغ من اهتمام الفاطميين بهذا الديوان أن ألحقوا به دائماً أكبر النحاة واللغويين في أيامهم لمراجعة الرسائل قبل صدورها من الديوان ، وممن اختاروه لذلك ابن بابشاذ كبير نحاة مصر ولغويها في القرن الخامس الهجري وخلفه في مكانه ابن بركات من تلاميذه ، حتى إذا توفي خلفه ابن برّي اللغوي المشهور، إلى نهاية أيام الدولة الفاطمية.
وكان يلتحق بالديوان بعض الشباب للتدريب فيه على تجويد الكتابة، حتى إذا جوّدها شاب وأتقنها أصبح من كتّابه على نحو ما حدث للقاضي في آخر زمن الفاطميين .

وتظل لديوان الإنشاء مكانته في عهد الأيوبيين ، ويتولاه لصلاح الدين القاضي الفاضل مع قيامه على وزارته ، ويشرك معه العماد الأصبهاني الكتابة ، وكان صاحب الديوان حينئذ يُسمّى كاتب الدّست وكاتب الدّرج وهو الورق الذي يكتب فيه . واتسع عمل هذا الديوان اتّساعاً كبيراً في عهد المماليك ، مما جعل الظاهر بيبرس يعيّن ثلاثة كانوا أصحاب الدّست ، حتى إذا تحولت السلطنة إلى قلاوون سمّى صاحب الديوان كاتب السّر ورفع منزلته فوق كتّاب الدست. وجعلهم أعلى درجة من كتّاب الدرج ، وكان في كل ولاية كبيرة لمصر ديوان انشاء:

---

(١) صبح الأعشى : ١٠٢/١ .

في الإسكندرية وفي دمشق وغيرهما . وظلّ هذا الديوان قائماً إلى نهاية عصر المماليك ، حتى إذا تبعت مصر الدولة العثمانية ضاعت منزلته نهائيّاً وأصبح أثراً بعد عين .

وفي صبح الأعشى للقلقشندي ثبت بأسماء من تولّوا رياسة هذا الديوان حتى زمنه سنة ٨٢١ وأضاف إليه ابن تغري بردى من تولّوه حتى أيامه سنة ٨٦٥ وأتمه السيوطي حتى نهاية القرن التاسع الهجري ، ووراء هؤلاء الرؤساء كتّاب كثيراً ما بذّوا من كانوا يكتبون بين أيديهم وهم كثيرون . وقد ظلّ كتّاب الدولة الفاطمية في القرن الرابع الهجري يرتسمون طريقة ابن عبدكان الذي وضع رسوم الكتابة الإنشائية بمصر لزمن الطولونيين حيث عني بالسجع والإزدواج . وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجري ، وجدنا كتابا يصدر على لسان الخليفة الظاهر سنة ٤١٤ مسجوعا كلّه ، وربما كان الذي كتبه أحمد بن علي بن خيران الملقب بولي الدولة .

ولعل أهم كاتب خلف ابن خيران بديوان الإنشاء في القرن الخامس الهجري ابن أبي الشخباء ولم يكن من رؤساء الديوان بل كان من الكتاب فيه ، وامتازت الكتابة الديوانية في العهد الأيوبي بأنه تكوّنت فيها مدرسة جديدة قادها القاضي الفاضل ، والحق أنها ليست جديدة خالصة ، فهي الثمرة النهائية لرقي الكتابة زمن الفاطميين ، إذ نرى الفاضل يكثر من المحسنات البديعية ، وكانت قد بدأت مع ابن خيران ، وأضاف الفاضل إليها الإكثار من التورية .

ويلمع في رياسة ديوان الإنشاء بمصر ودمشق منذ عهد السلطان خليل المتوفى سنة ٦٩٣ حتى نهاية القرن الثامن غير كاتب من أسرة فضل الله العمري

وأول من ولي كتابة السرّ منها أو بعبارة أخرى رياسة الديوان عبد الوهّاب بن فضل الله العمري ، وظلّ يشغل هذه الوظيفة حتى العقد الثاني من القرن الثامن اذ نقله الناصر بن قلاوون إلى دمشق ووليها بعده من أسرته محي الدين ، وكان يشركه في كتابة السرّ ابنه شهاب الدين أحمد ، وفي سنة ٧٣٢ نقلهما الناصر فترة قليلة إلى دمشق ولم يلبث أن أعادهما فظلا على كتابة السرّ حتى سنة ٧٣٨ اذ تغيّر الناصر على شهاب الدين وأقام مقامه أخاه علاء الدين .

المبحث الرابع
الكتابة السلطانية

تتناول الكتابة السلطانية شؤون الدولة الداخلية والخارجية .وتشمل بيعات الخلفاء وتقاليد الملوك وولاة العهود ومراسيم إسناد الوزراة والنيابة والقيادة والقضاء والتعليم ، وتشمل كذلك التوقيعات وبلاغات القصر والمنشورات السياسية والإقتصادية ،ونسخ الأمان والمعاهدات والهدن والأيمان ، وشئوون السفارات بين ملوك المسلمين والأعاجم ،وتشمل أيضاً الرسائل الديوانية وكتابة التقارير ، وكان الذي يتولّى هذه الأمور كلها كتابةً وجواباً وإصداراً واستلاماً ديوان الإنشاء الذي سنوضحه إن شاء الله تعالى .

وقد اهتمت الدولة الفاطمية بديوان الإنشاء فعنه كانت تصدر رسائلها والدعوة لها ومافيه إجلالها وتقديسها وسمّوا رئيسه بالشيخ الأجلّ وبكاتب الدست الشريف كما مرّ في الصفحات السابقة . وهو أقرب الناس إلى الخليفة وقد يلازمه ويسرّإليه هذا بما يكتمه عن وزرائه وأهله وولده.

وكانت أعمال رئيس الديوان خطيرة كثيرة متشعبة فهو الذي يتولّى عن السلطان المراسلات الداخلية والخارجية وأمور المظالم ،وهو الذي ينظر في الكتب الواردة إلى دارالخلافة ويعرضها على الخليفة أوالسلطان ويدقق في الكتب الصادرة لتكون كاملة لغةً ومعنى وأسلوباً وخطاً واعراباً وألقاباً إذ لايجوز أن يزاد أو ينقص أويغير في الألقاب ،وهو يدير أمر البريد ورجاله وأمر أبراج الحمام وملحقاته وأمر المخابرات " العيون والجواسيس" وسائر مايتعلق بالدولة .

ولم يكن يقوم بهذه الأمور كلّها وحده فكان يساعده في كل ناحية منها كاتب مختص ماهر في ما يكلف به . ومن هؤلاء الكتّاب كتّاب عملهم الترجمة من اللغات الأجنبية وإليها وأكثر ماكان يحتاج إليه من اللغات الفارسية والرومية والفرنجية أمّا التركية فكان يعرفها كثيرون . وقد أدرك القلقشندي ما للديوان من شأن فقال " لو جمعت بعض دفا تره لاجتمع منها تاريخ كامل " .

وكان الديوان بمثابة معهد علمي يتخرّج به من سيعمل به في المستقبل بعد أن يتثقّف بما يحتاج إليه وهو كثير وبعد أن يمتلك ناصية الكتابة، وقد وليه طائفة من أشهر الكتّاب - كما أسلفنا - في مصر والشام منذ أواخر الدولة الفاطمية حتى نهاية دولة المماليك .

الفصل السابع

الخطابة

المبحث الأول
تعريفها وموضوعاتها وفوائدها

الخطابة مصدر خطب يخطب أي صار خطيباً ،وهي صفة راسخة في نفس المتكلم ، يقتدر بها على التصرف في فنون القول ، لمحاولة التأثير في نفوس السامعين ، وحملهم على مايراد منهم بترغيبهم ،وإقناعهم ،فالخطابة حرصاً التأثير في نفس السامع ،ومخاطبة وجدانه ،وإثارة إحساسه للأمر المراد ليذعن للحكم، إذعاناً ويسلم به تسليما .

ولا يوجد للخطابة موضوع خاص، تبحث عنه بمعزل عن غيره ، ولا شيئ مهما كان جليلًا أو محسوساً إلا ويدخل تحت حكمها ،ويخضع لسلطان لسانها ، فإن كل مسألة عامة يصح أن تكون موضوع الخطابة: كحب الوطن ،وإقامة العدالة والنظام ، وتسكين الفتن ،والتمسك بالفضيلة ،وغيرذلك من المواضيع .

إن للخطابة فوائد جمّة كثيرة فهي التي تهدي بعض اصناف الناس إلى الحق الذي يراد اعتناقه حينما يصعب إقناعه وذلك لأنها تهديه إلى الحق ولأنها تسلك من المناهج ما لايسلك المنطق ، وهي التي تفض المشاكل ، وتقطع الخصومات ، وهي التي تهدئ النفوس الثائرة ،وتثير النفوس الفاترة ، وهي التي ترفع الحق وتخفض الباطل ،وتقيم العدل ،وترد المظالم ،وهي صوت المظلومين ولسان الهداية ، فلا ينتصر صاحب دعاية، وهاد بفكر ،وصاحب إصلاح إلاّ بالخطابة .

والحق أن الخطابة مظهر اجتماعي للمجتمع الراقي تحيا برقي الجماعة

وتخبو بضعفها . قال ابن خلدون: إن صناعة الخطابة عظيمة النفع جداً وذلك لأن الأحكام الصادقة فيما هو عدل وحسن أفضل نفعاً ،وأعم على الناس من أضدادها فائدة ،لأن نوع الانسان يعيش بالتشارك ، والتشارك محوج إلى التعامل والتحاور ،وهما محوجان إلى أحكام صادقة ،وهذه الأحكام الصادقة تحتاج إلى أن تكون مقررة في النفوس ،ممكنة في العقائد .

وحتى يصل الانسان إلى تلك الغاية السامية ويحصل عليها فإنه يتحتاج إلى زاد عظيم ، وصبر ومعاناة، إنه بحاجة إلى فطرة مواتية وسليقة ملائمة وخلو من العيوب الكلامية فلا فأفأة ولاكشكشه . ولابد له من دراسة أصول الخطابة وقراءة كلام البلغاء لما فيه من جمال الأسلوب ،وحسن التعبير، وجودة التفكير ، ولابدّ له من الاطّلاع على كثير من العلوم التي لها صلة بالجماعات ، كالاقتصاد والأخلاق ،والاجتماع وعلم النفس ، والأديان ، وهذه الأشياء تجعله بصيراً في مهمته ،ويضع أمامه المصباح الذي يهديه إلى طرق التأثير ،فيصيب غايته وينال غرضه . وكذلك هو بحاجة إلى ثروة لفظية وأسلوبية وضبط للنفس واحتمال للمكاره ولابد لها من الرياضة والممارسة . قال الجاحظ: وأنا أوصيك ،ألّا تدع التماس البيان والتبيين ، إن ظننت أن لك فيهما طبيعة ،وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ،ويشاكلانك بعض المشاكلة ، ولاتهمل طبيعتك ،فيستولي الإهمال على قوة القريحة،ويستبد بها سوء العادة ، وإن كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة وبقوة المنة يوم الحفل ، فلا تقصر في التماس أعلاها في البيان سورة ،وأرفعها في البيان منزلة .

المبحث الثاني
نشأتها وعوامل رقيها

الخطابة سلاح معنوي وضرورة اجتماعية ،فمنذ أن اجتمع الناس في مكانٍ واحدٍ واستوطنوه ، وتفاهموا بلسان واحد ، عرفوا الخطابة ، لأنه من الطبيعي أن يختلفوا في رأي أو عقيدة ،ومن الطبيعي أن يتنافسوا على غنيمة أو يتنافسوا على غنيمة أو متاع أو سلطة ،فيحاول المتفوق أن يستميل إليه من يخالفون ، وأن يقنعهم ، فإذا ما أقنعهم واستطالهم فهو خطيب وقوله خطبة ، ثم إنه من الطبيعي أيضاً أن تنصب أمور تستدعي تعاون المجتمع ،وتضافر قواه على اجتلاب نفع عام مشترك ، أواتقاء ضير ،فيتصدر بعض التابعين من هذا المجتمع لقيادة الجماعة وزعامتها ، عدّتهم في ذلك خطابتهم .

على أنّ الناس في حياتهم القديمة تسلّحوا بأسلحه مادية للدفاع والعدوان وتسلحوا أيضاً بسلاح معنوي هو اللسان ،ومازالت الخطابة إلى الآن سلاحاً مرهفاً تتصاول به الأمم وان جيّشت جيوشها وافتنّت في اختراع القذائف والمدمرات .

لذلك لم يخل من الخطابة سجلّ أمة وعى التاريخ ماضيها ، حفظها خط أشور المسماري وقيدها خطّ الفراعنة الهيروغليفي ،ثم رواها تاريخ اليونان السياسي والأدبي منذ القرن السابع قبل الميلاد ،وبها أخضع بوذا الجموع الهندية لتعاليمه وبها أذاع الدين أنبياء بني اسرائيل ،وكان لها مكانها العظيم في مجا مع العرب قبل الإسلام وفي أسواقهم الأدبية بنوع خاص .

[عوامل ازدهارها ورقيها]

في عصور الحرية الفكرية والقولية تزدهر الخطابة ، فيتحرر كل شخص في

تفكيره ، وينطلق إلى إذاعة ما اهتدى إليه ، وهو آمن عقاب الحاكم الظالم واستبداد المسلّط الغاشم ، ولا يتهيب الخطباء موضوعاً أو محفلاً ، ويحتذي بهم غيرهم من الطامحين إلى الشهرة ، أو التواقين إلى الإصلاح ، فتنتشر الخطابة في الشعب ، وتتعدد أنواعها ، وتعبر تعبيراً صادقاً عن عواطف القائلين .

وتزدهر أيضاً إذا تفشى في الأمة سخط على نظام من نظمها الدينية أو السياسية أو الاجتماعية ، وارتبط هذا السخط بطموح إلى مثل أعلى ، وحياة أرقى وجدّ في تبديل الحالة وتحقيق المثل .

وإذا تفشّت الأميّة في شعب لجأ إلى الخطابة وسيلةً للاقناع والإستمالة ، وإذا كان انتشار التعليم وذيوع الصحافة يرقى الخطابة من حيث موضوعهما وفنها ، فإنه يضعفها من حيث شمولها وذيوعها .

وهذه الأميّة مشفوعة إلى استعداد العرب الفطري لإجادة القول لأن أميتهم أرهفت حوافظهم وذواكرهم ، فكانوا يتدفقون في الخطابة تدفقاً .

وأميتهم بعثت في نفوس المعمرين منهم أن ينفضوا ماضيهم وأحداثهم إلى السامعين ، ليعظوهم أو لينافسوهم عن أنفسهم بالتحلل من بعض ما ثقلهم من أخبار وأسرار ، أو ليُزهَوْا بما كان لهم فيه من شأن عظيم .

ويقول الجاحظ : (وكل شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين أن يمتح على

رأس بئر ،أو يحدو ببعير ،أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع أو في حرب فما هو إلاّ أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ،وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني إرسالا ،وتنثال عليه الألفاظ إنثيالا ،ثم لا يقيده على نفسه ،ولا يدرّسه أحداً من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ،وهم عليه أقدر وأقهر ،وكل واحد في نفسه أنطق ،ومكانه من البيان أرفع ،وخطباؤهم أوجز ،والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر ،من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس ،وليس هم كمن حفظ على غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله .(١)

وإذا اضطربت الأمة لتغيير سياستها، أو تبديل دينها ،أو اصلاح نظام اجتماعي من نظمها ،انبعث منها خطباء يتصدرون الدعوة ويحتضنونها، فيدعون إلى الجديد ،ويكشفون عن مزاياه ،ويزعزعون القديم من النفوس، وينفرون منه حتى يقوّضوه ،ولكن في الناس من يحرص على القديم ويلاحي عنه ، فيصطرع هؤلاء وهؤلاء ، وهم جميعاً يتذرعون بالخطابة ،وإن تسلحوا بأدوات القتال ،وقد أثر الاسلام والنصرانيّة والدعوات السياسية في رفع الخطابة ورقيّها .

وإذا تعددت الأحزاب السياسية في أمة كثر خطباؤها وارتقت خطابتها، فقديما انقسمت أثينا إلى حزب وطني يتزعمه ديموسين ،خطته أن يبقى بمعزل عن محالفة ملك مقدونيا ،وأن تحيا أثينا حرة مستقلة ،وحزب يتزعمه أشسين يدعوا

*-:-x-:-x-:-x-:-x- -x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:xx

(١) البيان والتبيين : ٣/ ٢٠ - ٢٦ .

إلى هذه المخالفة ،وكان من آثار هذا الانقسام السياسي أن أينعت الخطابة في أثينا . وحديثاً تعددت الأحزاب السياسية في العالم وكان في تعدادها انعاش للخطابة. ولو أخذنا مثلاً باكستان نرى فيها عدة أحزاب سياسية ودينية وعقدية، ولكل حزب خطباؤه اللُّسن ، يخطبون في البرلمان ،وفي المحافل ،وفي المناسبات وفي النوادي والمساجد والساحات ،وكثير منهم جذّاب خلاّب يجعل جماعته وحزبه يداً واحدةً ،ويغذّيها بفكره فيجعلهم منافحين عن فكرة حزبهم يقارعون الأحزاب الأخرى بالحجة والدليل والمنطق .

المبحث الثالث

علم الخطابة وعلاقته بالعلوم الأخرى

إنّ علم الخطابة كغيره من سائر العلوم المعروفة له أسس وقواعد وقوانين تحكمه وترسم له الطريق ، وإلاّ ماسُمي علماً ، فقد اعتقد الأقدمون هذا وقالوا من أخذ بهذه القوانين والأصول أو استطاع الأخذ بها ،والسير في طريقها عدّ خطيباً . وقالوا إن علم الخطابة مجموع قوانين ،تعرف الدارس من طرق التأثير بالكلام ،وحسن الإقناع بالخطاب ، فهو يعني بدراسة طرق التأثير ،ووسائل الإقناع ، وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات ،وما ينبغي أن يتجه إليه من المعاني في الموضوعات المختلفه . وما يجب أن تكون عليه ألفاظ الخطبة ، وأساليبها ،وترتيبها ،وهو بهذا ينير الطريق أمام من عنده استعداد الخطابة ، ليربي ملكاته ،وينمي استعداداته ، ويرشده إلى طريق إصلاح نفسه .

إنه العلم الذي يتسلح به الدارس ليوصله إلى مناهج ،ومسالك ، ولا يحمله على السير فيها ،فأرسطوا واضع كتاب الخطابة لم يكن خطيبا ،فكما أن علم النحو لا يضمن لصاحبه أن ينطق بالفصحى مالم يمرس نفسه به فكذلك علم الخطابه ،وعلم العروض أيضاً فلا يضمن لصاحبه أن يكون شاعرا ... الخ .

وهكذا كل العلوم النظرية التي تظهر ثمرتها في العمل ،تعطي من يريدها قانونا يساعده ، ولا تضمن له العمل إلاّ إذا راض نفسه على قانونها .

علاقته بالمنطق

فعلم المنطق له علاقه بعلم الخطابة ،فكتاب الخطابة لأرسطو تمرى

فيه المنطق واضحاً وضوحا تاماً ،ترى الكلام على الحد والرسم والدليل ، وكيف يتكون القياس الخطابي ، ثم ترى فيه الكلام على التصديق الذي يكتفى به في الخطابة ،وغيرذلك مما يعدّ من المنطق . فعلم الخطابة على هذا له صلة وثيقة بالمنطق ،من حيث أن المنطق خادم له ، وقد أخذ يبحث بالإضافة إلى القوانين التي تعصم الذهن عن الخطأ - عن أهواء النفس ،وخواطرها ، وأسباب الغلط ،وتسلسل الخواطر،وكل تلك أمور تساعد الخطيب على أداء مهمته ،وتعد قوانين الخطابة بمناحي التأثير ،وطرق الإقناع .

علاقته بعلم النفس

حتى يستطيع الخطيب اقناع سامعيه لابدّ من إثارة حماستهم ومخاطبة إحساسهم والوصول إلى شغاف قلوبهم ولايكون هذا إلاّ إذاكان عليماً بما يثير شوقهم ويسترعي انتباههم ،وعليماً بطبائع النفوس ، وأحوالها ،وغرائزها ، وسجاياها ،وهذا لايكون إلاّ بعلم النفس ،وإذاكان علم النفس دعامة لعلم التربية فهو أيضا دعامة لعلم الخطابة ،لأن كليهما يهدي الإنسان إلى وسائل الإقناع لذلك نقول : إن علم الخطابة له صلة وثيقه بعلم النفس ، إذ يجب أن تكون قوانين الخطابة ملائمة كل الملاءمة لقوانين هذا العلم ،بل يجب أن تستمد منها ناموسها ،وطرقها ومناهجها وأساليبها وجميع مناحيها .

علاقته بعلم الاجتماع

قال أفلاطون : لكل أمر حقيقة ،ولكل زمان طريقة،ولكل إنسان خليقة ، فعامل الناس على خلائقهم ،والتمس من الأمور حقائقها ،واجر الزمان

على طرائقه . وهذه القوانين تنفع الخطيب في تصرفاته مع كل طائفة من أهل طبقته ، ومن دونه ، ومن فوقه على سبيل الايجاز والاختصار ، أي يتوجب على الخطيب الإلمام بسياسة الناس ، وما يجب لكل طبقة من المعاملة ، وما يلزم لكل صنف من الناس من خطاب ، يجب أن يكون عليها بروح الجماعة ، دارساً لأخلاقها ، فاهماً يسيطر عليها ، وإذا كان ذلك جدّ لازم للخطيب فمن الواجب اذن أن تكون قوانين الخطابة متصلة بقوانين الجماعات ونواميسها ، مستمدة منها قوة ، ومن مشاربها مسالك ، ونحن نرى من هذا قوة الاتصال بين علمي الخطابة والاجتماع .

هذه ينابيع ثلاثة ، صافية واضحة ، استمد علم الخطابة منها قوانينها وعلى ضوئها سلك طريقه ، ولذا اقتصرنا ذكر علاقتها به دون سواها ، إذ هي الأنهار التي يأخذ منها هذا العلم ماء الحياة .

المبحث الرابع
أركان الخطابة

لكل علم من العلوم أركان ،وهذه الأركان تختلف من علم لآخر،وعناصر الخطبة لابدّ من جمعها أولاً لمن يريد إلقاء خطبة في موضوع ثم يرتبها ،ثم يضع كل عنصر في موضعه المناسب ثم يعبر عن ذلك . وقدتحدث منه تلك الأعمال الثلاثة في أسرع وقت ،وأقصر زمن ،كما هو الحال في الخطب الإرتجالية ، والمناقشات الخطابية . وقدتحدث بعد تروية وإمعان وتفكير وفي زمن طويل ، وذلك في الخطب التي تهيئا وتحضر ،ومهما يكن من حال الخطيب والخطبة فتلك الأعمال الثلاثة لابدّ أن تكون. قال بعض الحكماء : العلوم الأدبية مطالعها من ثلاثة أوجه : قلب مفكر، وبيان مصور،ولسان معبر.

ويسمّى العمل الأول إيجاداً أو اختراعاً، والثاني التنسيق ،والثالث التعبير ،وتلك هي الأركان ،التي تقوم عليها الخطبة .

وهذه الأركان أو الأجزاء يتبع بعضها بعضاً ويرتكز كل واحد منها على سابقه ،ولكنها ليست أركاناً حتميةً في كل خطبة بحيث تكون الخطبة التي تخلو من جزء أوركن منها مختلفة ناقصة أو لا تستحق أن تسمى خطبة ،وإنما هو عمل فني يرادبه جعل الخطبة أدنى إلى الدّقة والكمال ،كما يراد منه مساعدة الخطيب وإرشاده إلى مايكمل به خطبته ويرفعها ويجعل السامعين أكثر استفادة منها ، وهذه الأركان قدتكون ضرورية في الخطب الطويلة التي تتعرض لموضوعات هامّة خطيرة كما هوالحال في الخطب السياسية والبرلمانية وخطب الدفاع في القضايا الكبرى .

أمّا أرسطو فبيّن أجزاء الخطبة وقسّمها إلى أربعة أقسام - وهي في حدّ ذاتها نفس السابقة - مقدمة الخطبة أو التمهيد لموضوعها، ويليها عرض الموضوع ثم التدليل عليه ودفع ما قد يرد عليه من اعتراضات، ثم ختام الخطبة بتقرير النتيجة التي يريد الخطيب إقرارها في أذهان الناس، وموافقتهم عليها أو استمالتهم إليها .

المبحث الخامس
أنواع الخطابة

للخطابة أنواع ومضارب ،وذلك حسب مقتضيات الحال ،وقد حصرها أرسطو في ثلاثة أقسام : وهي الخطب التثبيتية ،والخطب القضائية ، وخطب المشورة ،وكان تقسيمه هذا تابعاً لأوقات المعاني الخطابية ،فالخطب التثبيتية وهي التي تتعلق بالمدح أوالتأبين أو التعزية وغيرها من الأمور التي تتعلق بحادث ثابت أوحال قائمة ،والخطب القضائية لأنها تتعلق بأمور حدثت فيما مضى ويتناقش الخصمان في بيان تبعاتها ،وخطب الشورى وهي التي تتعلق بأخذ الأهبة للمستقبل ،وإعداد العدة لما يكون فيه .

والحق أن فنون الخطابة تتبع حاجات الأمة ، وأحوالها وشئونها والضرورة الدافعه إلى القول الخطابي . وقد شاعت الخطابة في عصرنا في فنون وموضوعات كثيرة ،ولكل منها طرائق خاصة ،ومناهج بيانية امتازت بها ، وطرق للسبق فيها ،والغلب في ميادينها .

وقد حصرت على تباين موضوعاتها في أقسام جامعة لها وهي : الخطب السياسية ،والخطب القضائيه ،والدينية ،والعسكرية ،والمحاضرات العلمية وخطب التأبين وخطب المدح والشكر .

الخطب السياسية

إن التبريز في الخطبة السياسية من طرق المجد المعبدة ،ومنهاجا مستقيما لمن يريد أن يتقدم إلى خدمة الأمة بإقامة حكمها على نظام عادل مستقر، ثابت الدعائم ،مشيد الأركان .

ونعني بالخطبة السياسية التي توجه من حكومة الدولة إلى وجهة معينة سواء في علاقاتها الخارجية أو أعمالها الداخلية، والخطب البرلمانية من أهم الخطب السياسية لأن الخطيب البرلماني من حقه بل ومن وظيفته أن يقترح على حكومته وأن يشرع لها وأن ينقدها فيما تخطئ فيه، وهو لهذا يتمتع بحصانة برلمانية تتيح له الحرية الكافية في أن يقول مايشاء، ومن الخطب السياسية خطب الدعايات الانتخابية إذ فيها يوضح العضو المرشح جوانب السياسة التي يريد أن ينهجها ويبين عيوب السياسية التي يعارضها، ومنها خطب المؤتمرات السياسية فهي بطبيعة الحال خطب رسمية خاصة بسياسة الدولة .

وعلى هذا النحو كان لكل حزب خطباؤه الذين يذودون عنه وينافحون عن مبادئه ، ولم يكن هناك داع لفكرة أو لنضال في حرب لا يقف في الناس خطيبا، وقد بعث ذلك على نهضة الخطابة السياسية نهضة واسعة ولعل هذه النهضة هي التي جعلت المؤرخين حين يعرضون علينا الأراء السياسية أو المذهبية يعرضونها علينا في شكل خطب، على نحو مانجد في الطبري وابن الأثير فهم إذا أرادوا أن يعرضوا علينا رأياً للحسين بن علي أو لحفيده زيد أو لأي داعٍ شيعي أو خارجي أو أي ثائر زبيري أو لأي والٍ أموي أو قائد يقود الجيش عرضوه في صورة خطبة، فهم لا يقولون إن فلانا كان يرى كذا أو كذا، وإنما يقولون خطب فلان فقال كذا وكذا، فهم لا يتصورون صاحب نحلة سياسية يعرض رأيه في شكل حديث بل لابد أن يعرضه في شكل خطبة يقرع بها الأسماع ويجذب القلوب .

الخطب الدينية

تعتمد الخطبة الدينية على تعاليم الدين أو تلقى لغرض من أغراضه، فهي تشمل الخطبة المنبرية التي تلقى في الجمع والأعياد و يوم الحج الأكبر وعند صلاة الاستسقاء ... تلك الأمور التي بين الدين لها خطبة ،كما تشمل المواعظ والخطب التي تلقى في المجتمعات الدينية أيا كانت ، ففي الجمعيات الدينية وسرادقات العزاء ومجالس الصلح ... وما إليها تلقى خطب تستند في معانيها وأغراضها إلى الدين ،ويستشهد الخطيب لما يطلب فيها بآيات القرآن الكريم والحديث الشريف ، فهذه كلها خطب دينية ،وأهمها جميعا هي خطبة الجمعة لتكررها ولأنها فرض لاتصح الصلاة إلاّ بها .

والخطبة الدينية أشقّ أنواع الخطب جميعا فإذا استهان بها الخطيب وجعلها أمراً تقليديا هانت وسقطت وأصبحت عديمة الفائدة نهائيا .

ولا تزدهر الخطب الدينية وتثمر إلا في عصور الحرية شأنها في ذلك شأن الصحافة والخطب الأخرى ، فمهمة الخطيب الديني تتوقف على جانبين بيان حكم الشرع في أمر من الأمور ،ثم تطبيق هذا الأمر على حياة الناس وأوضاع المجتمع الذي يعيش فيه .

ومجال الخطبة الاسلامية أوسع من مجال الخطبة في الديانات الأخرى لأن الإسلام دين شامل لكل جوانب الحياة ، وكل عمل صالح أياً كان نوعه مما يدعو له الاسلام ويحث عليه ،وكل عمل ضار ينهى عنه الاسلام ويحذر الوقوع فيه ،وهذا مما وسّع موضوعات الخطبة الإسلامية .

وقد نمت هذه الخطابة في عصر بني أمية نمواً واسعاً ، فقد كانت فريضة مكتوبة على المسلمين وكان الخلفاء والولاة يؤمّون الناس في تلك الصلاة ولذلك نقرأ الكثير منهم خطابات زاهدة ، يحضّون الناس فيها على الانصراف عن الدنيا والتعلق بالآخرة ويحثونهم على الخير والفضيلة والأعمال الصالحة . وأخطب الخطباء في هذا الباب عمر بن عبدالعزيز ، يدعو فيها الناس إلى طاعة الله والنفور من معصيته وأن يفكروا في الموت ومابعده من البعث والحساب والجنة والنار .

وإذا كان هذا اللون من الخطابة قد شاع على ألسنة الخلفاء الأمويين وولاتهم فإن خصومهم من الخوارج والشيعة كانوا لايقلون عنهم دعوة إلى التقوى والورع ،بل لعلهم كانوا يتقدمونهم ،إذ لم يكن بأيديهم شيء من الدنيا وكانوا يمزجون خطابتهم السياسية بالدين ،وقد يجعلونها دينية خالصة ،على نحو ماصنع قطري بن الفجاءة .

خطب المحافل

هذه الخطب عرفت في العصر الجاهلي ،ولما جاء الإسلام كثرت المناسبات الداعية إليها ،فكانت وفود القبائل تقدم على الرسول - صلى الله عليه وسلم- وخلفائه ويخطب خطباؤها بين أيديهم لتفاخر أو لتعلن اسلامها وخضوعها أو لتعرض لهم شأنا من شؤونها أو للتهنئة أو التعزية ،وكثيراً مايكون الخطيب رئيس القوم كالأحنف بن قيس زعيم تميم البصرة وخطيبها في المحافل . وكانوا يسمون الخطب التي تُلقى في مجالس الخلفاء والولاة (خطب بين السماطين) ، وفي هذه الخطب يستحسن ابن المقفع (الإكثار في غير خطل ،والإطالة في غير إملال) (١) كما كانوا يستحسنون أن تشتمل خطب المحافل على آي من القرآن الكريم .

ومما يدخل في هذا الضرب من خطابة المحافل خطابة الإملاك والتزويج وخطابة الصلح بين العشائر (٢) ،وماكان من منازعات ومفاخرات في مجالس الخلفاء ،ويسوق الجاحظ في بيانه أخباراً كثيرة عن هذه الصور من الخطابة وماكان يفترق به بعضها من بعض .

x : -x- : -x- :-x- :-x- :-x- :-x- :-x- :-x- :-x- :-x- :-x- :-x- :-x- :-x- :-x- :-x- :-x- :

(١) البيان والتبيين ٢/ ٦٣١ .

(٢) البيان والتبيين ٢/ ١٣٥ .

خطب الجهاد والحض على القتال

وقد عرف الجاهليون الخطب التي تحض على القتال ،وكانت بواعث هذا القتال مايقوم بين القبائل من نزاع على موارد العيش وتنازع على الرياسة والشرف فلما جاء الإسلام وقامت الفتوح احتيج إلى خطباء يحثّون المسلمين على الجهاد في سبيل الله لنشر الدعوة الاسلامية ويرغبونهم في قتال المشركين ابتغاء ثواب من الله عظيم . وكان الخلفاء الراشدون والولاة والقواد كثيراً ما يخطبون في الحض على الجهاد ،مثال ذلك قول أبي بكر من خطبة له قالها حين ندب الناس لفتح الشام : (ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله ،لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخصّ به هي التجارة التي دلّ الله عليها ،ونجّى بها من الخزي ،وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة) (١) .

ثم نجد طائفة من الخطباء يتولون أمر الحض على الجهاد ويرافقون المسلمين في غزواتهم وفتوحهم وهم الذين عرفوا بالقصاص وقد أصبح لهم شأن كبير في العصر الأموي . وحين انقسم المسلمون على أنفسهم وافترقوا طوائف وشيعا كان خطباء كل فرقة يحضّون أنصارهم على قتال مخالفيهم مظهرين لهم أن الله في جانبهم وأنهم وحدهم على حق وخصومهم على باطل ، وكانوا يعدّون قتال مخالفيهم جهاداً في سبيل الله .

وهناك أنواع وأقسام أخرى عديدة للخطابه ذكرها الأدباء والمؤلفون

×:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-×-:-:×

(١) تاريخ الطبري : ٢/ ٥٨٨ .

في مؤلفاتهم ، وكل نوع منها يختص بمناسبة أو بناحية من نواحي الحياة ،
فالخطابة علم يغطي كل متطلبات الحياة وتعبر عنها بكل صدق ووضوح ،
والخطيب الناجح هو الذي يستطيع بعرضه لموضوعه أن يقنع المستمعين بوجهة
نظره ويحمل الناس على تبنيها والعمل من أجلها .

المبحث السادس
تطور الخطابة

الخطابة في الجاهلية

إن ما يظهر في الأمة من مظاهر ترجع إلى عاملين رئيسين : عنصرها ، والبيئة التي أظلتهما ، ولذلك يجب أن نلمّ إلمامة موجزة في هذا المقام بمزاج العربي وبيئته ،لنعرف هل فيهما ما يدعو إلى الخطابة والبيان ؟

إن البلاد العربية أكثرها صحراء جرداء ،يندر فيها النبات والماء ، وتكثر الجبال والوهاد والرمال والرمضاء ،ولذلك كان سكان هذه الصحراء في شظف من العيش ،وقلة من الزاد ،واكتفوا من الحياة بالكفاف ، ورضوا بالقناعة واطمأنّوا إلى الخشونة مع العزة ،ولعدم المواصلات في الصحراء ،وتقطع أسباب الإتصال ،لم تكن عند سكانها جامعة تجمعهم تحت حكم دولة واحدة ،بل كانت كل قبيلة كأنها أمة وحدها ،تخضع لزعيمها ،وتقدم له الطاعة ،وله فيها الكلمة النافذة .

هذه إلمامة موجزة أشد الايجاز لبيئة العرب وأحوالها - أما العربي فعصبي حاد يثور لأتفه الأسباب ،ويحمل السيف عند أول نداء ،أبيّ لا يرضى ضيماً ولا يسكن إلى ذلٍّ ،جواد كريم ،يؤثر على نفسه ،ولو كان به خصاصة أو فقر ،يرعى حرمة الجوار ،ويفي بعهده . فهذه البيئة وهذا العربي ، وهما من أشد الحوافز إلى الخطابة مستثيرة البيان الرائع .

فالتنازع المستمر ،والحروب الدائمة الناشبة بين سكان الصحراء تستدعي بياناً يثير الحمية ،ويقوي العزائم ،ويدفع النفوس إلى مشتجر السيوف ،وملتقى الحتوف ،ولاشئ يقوي روح الحرب أكثر من قول حافز وعبارات تهز أوتار القلوب وكثيرا ماكان يعقب حروب العرب التي كانت تقع فيما بينهم صلح تقدم به

إحدى القبائل التي لم يكن لها في الخصومة ناقة ولا جمل أو أحد الأشخاص ذوي النفوذ ، والعقل الراجح ،كما فعل هرم به سنان ،والحارث بن عوف عند ما أصلحا ذات البين بين عبس وذبيان ،بعد أن كادوا يتفانون . ومجالس الصلح تهين فيها أضرار الحرب ،ووشائج القربى بين القبيلتين المتنازعتين ،وذلك لا يكون إلا بالخطابة ،أداة الترغيب في النفع ،والترهيب من الضار الوبئ .

وتعصب كل عربي لقبيلته يجعله يفتخر بصفات أبطالها من شدة بطش وقوة بأس وثبات في الهيجاء ،وصبر على اللأواء ، ووفاء للعهد ،ورعاية للجوار، وإكرام للضيف ،وذلك تارة يكون بشعر قوي ،وأخرى يكون بكلام خطابي مبين .

ونحن نعلم أن العرب كانت لهم دار ندوة يجتمعون فيها ويتشاورون ويساجلون ويقررون مايرونه صالحا ،ولهم أسواق هي شبيهة بالمنتديات الأدبية يتبارى فيها المجيدون للقول ،إذا علمت ذلك ،فاعلم أن دار الندوة والأسواق كانت منابر عامة تروج فيها بضاعة الكلام البليغ ،وتزجي فيها غيرها .

وفي الجملة إن حياة العربي في الصحراء كانت حياة فروسية ،وقوة شكيمة ،ورفعته إلى البيان دفعاً فالخطابة يغلب تأثيرها في أبناء عصور الفروسية وأصحاب النفوس الأبية ، طلاب الاستقلال والحرية ...

حقا لقد كان للخطابة في العصر الجاهلي شأن عظيم ،إذ كانوا يستخدمونها في مفاخراتهم ،وفي النصح والإرشاد وفي الحث على قتال الاعداء وفي الدعوة إلى السلم وحقن الدماء وفي مناسباتهم الإجتماعية المختلفة

المختلفة كالزواج والإصهار إلى الأشراف (١) .

وليس كل مايدل على ازدهار الخطابة في الجاهلية مارأيناه آنفا من تعدد أنواعها وخوضها في أغراضها المختلفة ، فقد استقر في نفوس العباسيين وعلى رأسهم الجاحظ أنهم كانوا يكثرون من الخطب وأن قبيلة من القبائل بل عشيرة من العشائر لم تكن تخلو من خطيب ، وهو يسوق في البيان والتبيين أثباتا طويلة بأسمائهم ومواقفهم موردا من حين إلى حين فقراً وشظايا من أقوالهم .

ولعل في ما قدمنا مايدل دلالة واضحة على أن الخطابة كانت مزدهرة في الجاهلية ، فقد كانوا على حظ كبير من الحرية ، وكانوا يخطبون في كل موقف وابتغوا به دائماً في كلامهم أن يؤثر في نفوس سامعيهم بما حققوا له من ضروب بيان وبلاغة .

وكلمة أخرى نود تدوينها ، هنا بأن أكثر مايروى من الخطابة الجاهلية لا يصح الإطمئنان إليه من الوجهة التاريخية لطول المسافة بين روايته وكتابته ، وإن كان ذلك لا يمنعنا من تسجيل بعض الظواهر لتلك الخطابة ، فإن من يرجع إلى ما روي منها في كتب الأدب والتاريخ يلاحظ أن أغلب ماروي من خطب القوم روى مسجوعا . ويؤكد الجاحظ أن النبي - صلى الله عليه وسلم - هو الذي روى خطبة قس بن ساعدة الأيادي في سوق عكاظ ، ويقول أنه إسناد تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال ، ومع ذلك لم يستطع روايتها كاملة إنما روى أجزاء منها ، هي قوله :

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٧٧ .

(أيها النـــا س اسمعوا وعوا . من عاش مات ، ومن مات فات . . .) (١)

والحق أن خطباء العصر الجاهلي نهضوا لخطابتهم نهضة واسعـــة ولذلك لم يكن غريباً أن يستمع -صلى الله عليه وسلم- إلى بعضهم وهو يخطب ، فيقول : ((إن من البيان لسحرا)) (٢) ولم يكن هذا البيان الساحر شيئا خاصّا بهـــذا الخطيب ، بل كان شيئاً عاماً بين الخطباء ، إذ ذهبوا جميعاً مذهب التجسويـــد والتحبـير ، حتى يستميلوا الأسماع ويخلبوا الألبـــــاب

-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x

(١) راجع البيان والتبيين : ١ / ١٢٠

(٢) راجع البيان والتبيين : ١/٥٢ .

الخطابة في صدر الإسلام

يقول الدكتور إحسان النص في كتابه القيم (الخطابة العربية في عصرها الذهبي) يقول : بمجيء الإسلام وانتشاره تعرضت الحياة العربية لانقلاب شامل وتطور بعيد المدى. كان للعرب قبل الإسلام مفاهيم ومثل عُليا ومبادئ فرضتها بيئتهم الجاهلية وحياتهم القبلية، وجاء الإسلام فحمل إلى العرب مفاهيم جديدة ومثلاً عليا تغاير مُثل الجاهليين وجعلهم ينظرون إلى الحياة من زاوية واحدة وقد أصبح للعرب دين توحيدي يجمع شمل الكثرة من قبائلهم ونظام سياسي يعيشون في ظلّه، وتناول التطور كذلك حياتهم الإجتماعية والإقتصادية والعقلية ومن المحقق أن تاريخ العرب الطويل لم يشهد حدثاً أبرز وأبعد أثراً من ظهور الإسلام.

ولم يكن بد من أن يتأثر الأدب بالحياة الجديدة وأن يكون صدى لأحداثها واتجاهاتها. وكانت مظاهر التطور في النثر أوضح منها في الشعر، لأنّ الشعر منه تقليدي يترسم فيه الشّاعر خُطا سابقيه ويلتزم أصولاً محددة، ولذلك يكون أبطأ من النثر استجابة لدواعي التطور، وهذا مايفسر احتفاظ الشعر في العصر الإسلامي بكثير من الطوابع الجاهلية، ولاسيما في الأسلوب، في حين استطاع النثر مسايرة الحياة الجديدة وظهرت فيه سمات جديدة مؤذنة بتطور جاد في حياة هذا الفن، بيد أننا نلاحظ هنا أنّ التطور مسّ الموضوعات والأغراض أكثر مما مسّ الأسلوب وطريقة الأداء الفنية.

وكان للخطابة بطبيعة الأمر نصيبها من هذا التطور الذي أصاب النثر ومن المقرر أن الخطابة تزدهر إبان الأحداث كما تزدهر في ظلّ النظم السياسية الديمقراطية. وقد توافر لها في العصر الإسلامي من دواعي التطور

والإزدهار مالم يتوافر لها مثله في العصر الجاهلي فأتجهت حثيثا نحو الرقي ثم استكملت في عصر بني أميّة ماأتيح لها أن تبلغه من ازدهار وارتقاء .

كان مجيء الإسلام إذن أبرز الأحداث التي كان لها أثرها في تطور فن الخطابة ،والخطابة هي خير مايستعين به الدعاة والأنبياء والمصلحون في الدعوة إلى مذاهبهم وعقائدهم ،لكونها الوسيلة المثلى للاتصال بالجماعات والتأثير فيها واستمالتها . فاتخذها الرسول -صلى الله عليه وسلم- أداة لنشر دعوته واقناع المشركين بصدق رسالته ثم اتخذها بعد الهجرة أداة لإيضاح تعاليم الإسلام ووعظ المسلمين . ومنذ عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- ظهر لون من الخطابة يلقى على منابر المساجد أيام الجمع والعيدين بغية وعظ المسلمين وإرشادهم إلى مافيه صلاحهم ،ومالبث هذا الضرب من الخطابة أن أصبحت له تقاليد وأصول خاصة به .

ودعا الرسول المسلمين إلى الجهاد لنشر الدعوة الإسلامية في الأمم المجاورة للعرب فوجد ضرب آخر من الخطابة الغاية منه الحثّ على الجهاد في سبيل الله . وما لبثت خطبة الجهاد أن ازدهرت باتّساع الفتوح الإسلامية ووجدت طبقة خاصة من الخطباء هي طبقة (القصاص) تتولى الحثّ على الجهاد وتذكير المسلمين بما ينتظرهم من الثواب الكريم إذا أحسنوا البلاء في قتال المشركين .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلّم وخلفاؤه من بعده يبعثون العمّال والولاة إلى الأمصار فإذا قدم الوالي مصره قام خطيباً في الناس وبيّن لهم خطته التي سيسير عليها . وقد أصبحت هذه الخطبة سنّة للخلفاء والولاة يستهلون بها ولايتهم

وقضى الرسول الكريم، فاختلف الناس في الخلافة وتنازعها المهاجرون والأنصار، واستعان كلّ فريق بالخطابة في تأييد حقه فيها، فكانت خطب السقيفة أول ماعرفه الإسلام من الخطب السياسية.

وماكان الأمر يتمّ لأبي بكر حتى ارتدت عن الاسلام طوائف وقبائل عديدة، وظهرت طلائع الفتن الداخلية فكان ظهورها عاملاً في كثرة الخطباء، والعرب يفعل في نفوسهم بليغ القول مالايفعله الحسام الماضي. فكذلك نجد الخطابة تلعب دوراً في فتنة عثمان -رضي الله عنه- ثم ابان خلافة علي -رضي الله عنه حين انقسم المسلمون مذاهب وأحزابا كل منها يريد الخلافة لنفسه فكان على الخطيب تأييد حزبه ودعوة القوم إلى نصرته وإلى مجاهدة خصومه وقد حفظت لنا كتب التاريخ والأدب جلّ الخطب التي قيلت بصدد فتنة أصحاب الجمل، وعند احتدام الخلاف بين علي وبين معاوية ثم بين علي وبين الخوارج، وظهر في هذه الحقبة عدد من الخطباء والمفوهين الممتازين.

كانت هذه الأحداث الداخلية كلّها عاملاً فعّالاً في ازدهار الخطابة في صدر الإسلام، تضاف إليها الفتوح الخارجية التي اتّسع نطاقها زمن عمر وعثمان. كما كان للحياة الحضرية الجديدة التي عرفها العرب ولقيام حكومة نظامية لها دستورها وأنظمتها، ثم اختلاط العرب بالأعاجم واتّصالهم بحضارتهم كان لهذا كله أثره في تطور الخطابة في هذا العصر واتّسامها بسمات جديدة لم تعرفها من قبل.

ومن المحقق أن النظام الديمقراطي الذي كان سائداً في صدر الإسلام قد أعان على ازدهار الخطابة في هذا العصر وأتاح لمن يشاء أن يعتلي منصّة

الخطابة وأن يجهر برأية مؤيداً أومعارضا ،محبذاً أو لائما وكان يباح لمن يشاء من الرعية في ذلك العصر أن يناقش الخليفة أو الوالي في شؤون الحكم والسياسة والدين وكثيراً ماكان الخليفة يتخلى عن رأيه ويأخذ برأي مخالفيه إذا رأى الحقّ في جانبهم ،وكان الخلفاء الراشدون يطالبون الناس بمؤاخذتهم ومحاسبتهم إذا حادوا عن جادة الحق والعدالة ،فأبوبكر يقول في خطبته يوم بويع : (أيّها الناس ،إني قد وليت عليكم ،ولست بخيركم ،فإن رأيتموني على حق فأعينوني ،وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني ،أطيعوني ماأطعت الله فيكم ،فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ...) (١) . وحين قال عمر في خطبة له : (أيها الناس إن أحسنت فأعينوني ،وإن صدفت فقوّموني) فقام رجل من آخر المسجد فقال له : (ولو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناك بسيوفنا) . ولم يجد عمر غضاضة في أن يُقال له هذا القول ،وهذه الروح الديمقراطية خليقة بأن تنهض بالخطابة وتأخذ بيدها في طريق الرقيّ والإزدهار.

ومما أعان أيضاً على تطور الخطابة وازدهارها في هذا العصر النظام الشوري الذي كان سائداً إذ ذاك ،وهو من أسس الحكم الديمقراطي السليم ،وقد جاء القرآن الكريم فوضع للمسلمين دستوراً يتبعونه لقوله : ((وأمرهم شورى بينهم)) (١) ،وسار الرسول الكريم على خطة الشورى فكان كثيراً مايستشير صحبه في ما يعرض له من الأمور الهامة ،شأنه يوم أحد ويوم الخندق مثلاً ، وكذلك كان شأن خلفائه من بعده وكان عمريقول : (لاخير في أمر أبرم من غير

x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x : x

(١) تاريخ الطبري : ٢ / ٤٥٠ .

شورى) . وإبان الأحداث الهامة كانت تنعقد مجالس الشورى يتبادل القوم فيها الرأي ويقوم الخطباء مدلين بآرائهم في هذا الشأن من ذلك أنه لما كانت فتنة أصحاب الجمل انعقد في الكوفة مجلس للشورى خطب فيه عدد من الخطباء بعضهم يدعو إلى عدم المشاركة في الفتنة كأبي موسى الأشعري وآخرون يدعون إلى نصرة علي وقتال أصحاب الجمل كالقعقاع بن عمرو (٢) . ومن ذلك أن علياً -كرّم الله وجهه - لمّا أراد المسير إلى الشام لقتال معاوية جمع أصحابه واستشارهم في الأمر ... وهذه المجالس الشورية قد أفسحت دون ريب المجال لارتقاء الخطابة وازدهارها .

ولئن كان للإسلام اليد الطولى في تطور الخطابة في هذا العصر فإن القرآن الكريم أيضاً يعتبر في طليعة الدواعي إلى تطور الخطابة وارتقائها في العصر الإسلامي وفي العصور التي تلته ،وكان أثره شاملاً يتناول موضوعات الخطابة كما يتناول أفكارها ومعانيها وأسلوبها .

-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-:-x-:x*x

(١) الشورى آية ٣٧ .

(٢) تاريخ الطبري : ٣ / ٣٩٣ .

ولعلّ في كلّ ماقدمنا مايدلّ على نهضة الخطابة في هذا العصر الأول من عصور الإسلام ، إذ أتيح لها من نبوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ورسالته وبيانه وبلاغته ماتخذه خلفاؤه الراشدون لهم إماما . وفرق بعيد بين خطب هذا العصر وخطب الجاهلية ، فالأخيرة جمل وصنع لارابط بينها تأخذ في الأكثر شكل حكم متناثرة ، يسردها الخطيب سرداً ، أمّا في هذا العصر فقد أصبح للخطابة غاية دينية واضحة تسمو بالعربي في مراقي الفلاح الروحي ، وقد تخوض في تنظيمات حربية أو اجتماعية . وكلّ ذلك معناه أنها أصبحت ذات موضوع تدور عليه وأنها رقيت رقياً بعيداً .

الخطابة في العصر الأموي

يعتبر العصر الأموي ثمرة الأحداث التي حدثت في آخر عصر الخليفة الثالث ،وطول مدة الخليفة الرابع ، أو أنه امتداد لبعض الحوادث التي كانت في عصر علي ،أوصدى لما كان فيها ،فالدعوة إلى الأخذ بدم عثمان كانت هي الفكرة التي نبت منها السلطان للأمويه ،واستمر نحو تسعين سنة وسط السيوف والرماح المشروعة ،والدم المهراق ولم يسكن الناس لها إلا بعد أن سفكت دماء، وهتك الحمى ،فقد أبيحت المدينة في عهد يزيد بن معاوية ،وقتل الحسين قتلة فاجرة وكان بعد ذلك ماكان من خروج ابن الزبير واتساع سلطانه ،ثم استقامة الأمر لعبد الملك بن مروان بعد أن خاض في الدماء خوضاً ،ومرج فيها مرجاً، والخوارج الذين ظهروا في عهد علي -رضي الله عنه- تفاقم خطبهم ،واشتد أمرهم في ذلك العصر ،وكانوا شوكة حادة في جنب الدولة الأموية ،تمنعها من أن تتقلب في أعطاف النعيم الهادئ الساكن ،وأن تستسيغ لذة الملك صافية من غير أن ترنق بما يكدرها ،والشيعة الذين ظهروا في آخر عصر عثمان- رضي الله عنه- قد اتسعت مذاهبهم ،وكثرت دعاويهم ،وتفرقوا فرقاً ونحلاً مختلفة ،وكانوا أحياناً يرفعون السيف ،ويدفعون، أحد أولاد علي إلى الانتقاض فيذهب دمه على شفرات سيوف بني أمية ،كما فعلوا بزيد بن علي ،وأحياناً يسكنون ، وينشرون بين الناس أفكاراً ليست من الدين في شئ ، ومنها ماينقض مبادئ الدين ،ويذهب بقوته .

وقد كان الصحابة الذين عاشوا في ذلك العصر، ونقلوا إلى الناس صورةً للسلف الصالح ،أهل السبق والإيمان ،كابن عباس ، وأنس بن مالك خادم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ،والتابعون الذين شافهوا علية الصحابة

ونقلوا عنهم - كان هؤلاء وأولئك رابطة اتّصال بين ذلك العصر وماسبقه فكان متّصلاً به ،وإن لم يكن مثله قوة دين ،وثبات يقين ، وأخذاً بالسنن القويم ، والهدي الحكيم .

وفي هذا العصر لم يُغن العربُ في غيرهم ،ولم تبلا شهم المدنيات والحضارات الأجنبية التي غزوها ،وحاولت بما عندها من علوم أن تغزوهم ،بل كان الأمويون ذوي تعصّب شديد للعرب والعربية ،وكانوا حريصين على أن يربوا أولادهم على خشونة البادية ،وفصاحتها ولسانها ، فكانوا يرسلونهم ،والعود أخضر-إلى البادية ،ليتفصحوا بفصاحة أهلها ،ويذوقوا شيئاً من خشونتها ،ليتربوا على البأس والشدة والنجدة والهمّة والنشاط ،وإذا لم يفعلوا ذلك مع أحد منهم اعتقدوا فيه النقص حتى قال عبدالملك في ابنه الوليد : أضر بالوليد حبنا له فلم نوجهه إلى البادية ،لذلك كانت الحياة العربية مع قوة الحضارة مختلطة بالبداوة .

ولئن كان التاريخ يحفظ للأمويين حفاظهم على العربية وحرصهم على توطيد سلطان العرب ، حتى كان منهم الولاة والأمراء وذوو السلطان ،فلن ينسى التاريخ أنهم صيّروا الخلافة ملكاً عضوضاً ،يتوارث ،وأنهم غلبوا سياسة القهر ، وحاولوا نشركل شيء من شأنه أن يُبعد ملكهم عن منافسة المنافسين ، وطمع الطامعين ،ودفعهم الأمر إلى مجاوزة حدّ الإعتدال ، وقدكان من أثر منازعة العرب لهم ،ومغالبتهم إيّاهم ، ومحاولة الأمويين نشر سياستهم ، مناحرات بالسيف ،ومنازعات بالقول أفادت منها الخطابة أكبر فائدة ،وانتفعت منها أكبر النفع ،وازدهرت أيّما ازدهار .

وهناك سبب ديني خالص أدّى إلى ازدهار الخطابة في هذا العصر ، إذ أسست في كل بلد إسلامي مدرسة دينية تعلّم الناس أصول دينهم وفروعه وكان العلماء القائمون عليها كثيرا مايختلفون فيتحاورون في وجهات نظرهم (١) ولم تلبث أن انبثقت أبحاث كثيرة ومناقشات طويلة في القدر وإرادة الإنسان ومدى حريته وفي الإيمان وهل من الضروري له أن يرافقه العمل ، وفي صفات الله وهل هي عين الذات الإلهية ، وسرعان ماظهرت فرق الجبرية والقدرية والمرجئة ، فكان ذلك باعثاً على ظهور المناظرات ، وهي فرع مهمّ من فروع الخطابة .

ورافق هذا السبب الديني في ازدهار الخطابة سبب عقلي مردّه إلى عناصر الثقافات الأجنبية التي أخذ يدعم بها العقل العربي منذ هذا العصر مما فتق فيه قوة الجدل والحجاج ، وقد شرك الموالي العرب في هذه الثقافات الذين اتّخذوا العربية لسانهم وقد أخذوا يزوّدونها بمعارفهم وثقافاتهم القديمة . فقد ارتقوا بالعقل العربي وكلّ ماأنتجه في ذلك العصر من خطابة وغيرها .

ويخيّل إلى من يقرأفي أخبار القوم أنّهم أصبحوا جميعاً خطباء ، فهم يخطبون في نظرياتهم السياسية وفي معتقداتهم الدينية ويتناقشون فيها بكل مكان ، في المسجد الجامع وفي الطرقات والأسوا ، وفي السّلم وحين يتحاربون ومن ورائهم القصاص والوعاظ ، وقد جعل الجاحظ ينبهر انبهاراً شديداً ، فيخص العرب بالخطابة ويرفعهم درجات فوق الفرس واليونان (٢) .

---

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٥

(٢) البيان والتبيين : ٣ / ٢٧ .

ومهما يكن فقد ارتقت الخطابة رقيّاً بعيداً في العصر الأموي ، ونشطت نشاطاً لعل العرب لم يعرفوه في عصر من عصورهم الوسيطة، إذ اتّخذوها أداتهم للظفر في آرائهم السياسية والإنتصار في مجادلاتهم المذهبية ، وعوّلوا عليها في قصصهم ومواعظهم ووفاداتهم على الخلفاء والأمراء والولاة .

الخطابة في العصر العباسي الأول

ان اشتداد الإيذاء لآل البيت الأطهار ، وكثرة القتل الشنيع فيهم ، وفي أنصارهم من قبل الأمويين ،وكان بجوار ذلك الإيذاء تعصب للعرب والعربية كل هذا أدّى إلى حنق الفرس وغيرهم ،فوجد آل البيت الفرصة سانحة للإنقضاض عليهم ،إذ قد ملّ الناس مظالمهم ،ونفروا من حكمهم ،لما شاع من كثرة سوئهم ،ثم وجد الفرس المنتقمون لجنسيتهم مبرراً للخروج وهو الإنتصار لأهل البيت ،بينما وجد هؤلاء فيهم نصراء لهم يعاضدونهم في اللأواء ،ويؤازرونهم في الشّدة ،فحصروا دعوتهم فيهم ،لذا دبّر العباسيون الأمر في وسط فارس ،وبيّتوا مكرهم،وأخفوا تدبيرهم حتى لاحت الفرصة،فانتهزوها وأبعدوا الأمويين عن عرش المسلمين ،وتولوه هم باعتبار أنهم أقرباء النبي-صلى الله عليه وسلم- الأدنون ،وورثته المستحقون للخلافة من بعده ، ولم يكد الأمر يستقر لهم،حتى انتقض عليهم أبناء علي-رضي الله عنهم-لأنهم أصحاب البلاء، وأهل الجلاد ،والنضال ،ولأن العباسيين وصلوا إلى الحكم على كواهلهم ، وابتزّوه منهم واشتد النضال بالكلام وبالسيف بين الفريقين المتناحرين كلّ يدعو الناس إلى تأييده ،ويبرهن على صدق دعواه بما يستطيع من بيان ،ويدلي بما عنده من دليل ،وقد شغل ذلك النضال أكثر مدة أبي جعفر المنصور،وحتى تمّ له الانتصار عليهم بالسيف ،وأهوى كثيرين من أنصاره معهم .

وقد كان العباسيون سيئ الظن بالعرب ،لأنهم أنصار الأمويين ، شديدي الثقة بالفرس ،لأنهم أنصارهم ومقيمو دولتهم ،ولذلك كان كبار القوّاد والزعماء والوزراء والنابهين في الدولة منهم ،وقد انتهزها الفرس لنشر سلطانهم، وإحياء قديم مجدهم ،ونشر المقبور من آدابهم وأفكارهم ،ولذلك أخذت العادات

الفارسية تصبغ الحياة الإسلامية بصبغتها ، وأخذت الأفكار الفارسية ،تستوردعلى الذهن الإسلامي ،وتسيطر على البيئة الفكرية ،وانتشرت بين المسلمين حكمهم وكثير من معلوماتهم ،لأنهم كانوا أقوياء بذلك السلطان وأقوياء بآمالهم في إحياء دارس حضارتهم ،وأقوياء بحضارتهم القديمة وميراثهم الفكري الذي ورثوه من أسلافهم .

والفكر الفارسي الذي أثّر في الحياة الإسلامية ذلك التأثير كان يحمل معه ثمرات من الفكر اليوناني فإن الفلسفة اليونانية كانت منتشرة في بلاد فارس قبيل الإسلام ،وقد كان هذا وغيره سبباً في كثرة العلوم الفلسفية وانتشارها بين المسلمين ،وكانت تعقد المناظرات والمناقشات في كل مكان ،وكثير منها كان يعقد في مجالس بعض الخلفاء ، كالمأمون الذي كان معجباً بالفلسفة اليونانية وغيرها ،بل كان هو يعد فيلسوفا حكيما ذا رأي وسط معتلج الآراء ، ومتاحر الأفكار ،وقد كانت هذه المناظرات موضوع سبق المجيدين للقول ،فيها يتبارون في البيان وروعته ، ويتسابقون في المعاني وأحكامها ولذلك أخذت المناظرات تحلّ محل الخطابة التي أخذت تضعف ضعفاً ملحوظاً نتيجة تكميم الأفواه وكبت الحريات السياسية ،فقد أخذ العباسيون الناس بالشدة فضعفت الأحزاب السياسية وفنيت وذابت حريتهم في سلطانهم الباطش بكل من حدثته نفسه بالخروج عليهم بل بخلافهم .

وعلى نحو ماضعفت الخطابة السياسية ضعفت الخطابة الحفلية التي كنّا نعهدها في عصر بني أمية لسبب طبيعي ،وهو أنّ وفود العرب لم تعد تفد على قصور الخلفاء ،وبالتالي لم يعد خطباؤها يفدون عليهم ،فقد أسدلت الحجب بين الخليفة والرعية ،ولم يعد يلقى وفودها ولا خطباءها

المفوهين . واقتصرت الخطابة الحفلية حينئذ على بعض مناسبات كأن يموت للخليفة ابن أو بنت فيقف بعض الخطباء لتعزيته ،وكأن يموت خليفة ويتولى خليفة جديد فيجمع بعض الخطباء بين التعزية والتهنئة ، من مثل قول ابن عتبة للمهدي يهنئه بالخلافة ويعزّيه في أبيه المنصور .(١)

وعلى هذا النحو أصبحت الخطابة الحفلية شيئاً نادراً يقال في الحين الطويل بعد الحين ،وبذلك تضاءلت كما تضاءلت الخطابة السياسية ولم يعد لها شأن يذكر .

وقد ظل للخطابة الدينية وما يتصل بها من وعظ ازدهارها في هذا العصر ،وعلى نحو ماكان الخلفاء والولاة يشاركون فيها لعصر بني أمية كانوا يشاركون فيها أيضاً لهذا العهد ،إذ نجد للمهدي خطبة بارعة مأثورة (٢) ولكنها بشكل عام أخذت أيضاً بالضعف عندما أخذ هؤلاء الولاة يخطبون بكلام غيرهم ،وقد ينتدبون من يقوم مقامهم في الصلاة والخطابة ،ويذكر الجاحظ عن محمد بن سليمان العباسي والي البصرة والكوفة لعهد المنصور والمهدي أنه كانت له خطبة يوم الجمعة لايغيّرها ،وهي خطبة قصيرة (٣) .

ولئن ضعفت الخطابة الدينية على لسان الولاة والخلفاء فإنها أينعت في بيئة الوعاظ والنساك ممن كانت تزخر بهم مساجد بغداد والبصرة والكوفة ،فقد ارتقى القصّاص والوعاظ بصناعة النثر في المعاني التي كانوا يرددونها

=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-

(١) البيان والتبيين : ٢/ ١٩٢

(٢) العقد الفريد : ٤/ ١٠١ .

(٣) انظرها في البيان والتبيين : ٢/ ١٢٩ .

رقياً بعيداً ، اذ شقبوا وفرّعوا في تلك المعاني طويلاً ، واستنبطوا فيها كثيراً من الدقائق التي تمسّ القول والعقول ، وأضافوا إلى ذلك عناية واسعة بأساليبهم وهي عناية تقوم على الدقة في اختيار اللفظ والإحساس المرهف بجمال السبك والصياغة وأدّاهم ذلك في بعض الأحيان إلى استخدام السجع ، بل كان منهم من أكثر من استخدامه مثل الرقاشي وفيه يقول الجاحظ كان سجّاعا في قصصه (١) وكان من أخطب الناس وكان متكلماً قاصّاً مجيداً ، وقد لجأ إلى السجع لأن الحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلّت .

-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x-:-x

(١) البيان والتبيين : ١ / ٢٩٠ .

الخطابة في العصر الحديث

أما الخطابة عند المحدثين فقد صرعت الشعر، وسامت الكتابة على جلال خطرها، وقد سبق القول في عوامل ازدهارها وفي أنواعها .

والمحدثون يتصورونها ذات أنواع عدّة، وذات مراحل وأجزاء، ولكل نوع من أنواعها أسلوبه وطريقته، ثم يعنون بالسامعين ونواحي إثارتهم ويغلب على خطباء العصر الحديث التحضير والإعداد، ثم يلقي الخطيب من الذاكرة كأنه يرتجل أو يلمح الأوراق لمحاً خاطفاً دون أن يدري السامعون، وكثيراً ما يتصرف فيما يلقي، أو يلقى قارئا إن خشي أن تخونه الذاكرة، وإن كان هذا معيبا كما سبق .

وفي مصر من الخطباء في السياسة وغيرها شبان يهزّون المنابر، ويثيرون المشاعر، إلقاء وتفكيراً وتصويراً وتعبيراً، وهم كثير، نسمعهم ونقرأهم، وتعجب بهم . وقد عرف العصر الحديث بضع نساء عربيات اشتهرن بمواقف شبه خطابية في المحافل والمحاكم وقاعات الدرس بالجامعات، وصاحبهن التوفيق في حسن الإعداد، وبلاغة التعبير وجودة الإلقاء كالآنسة مي زيادة وبعض المعاصرات من الأحياء .

لكن هؤلاء جميعا - على براعتهن - لم تبلغ إحداهن إلى الدرجة التي تسوّي بينها وبين أحداً من الرجال الخطباء الكبار، ولعلني لا أعدو الحق إذا ما سلكتهن في عداد المحاضرات البارعات، أو المتحدثات اللبقات، لا في عداد الخطباء الأفذاذ .

وأخيرا نقول هذا هو موضوع الخطابة عرضناه بمايناسب موضوعنا تعريفا وعلما وأركانا وأنواعا وتطورا ،وعرفنا كذلك دوافعها وميزاتها في كل عصر من عصورها لتكمل الدراسة ولنوائم التراجم في المخطوطة مع دراسة متفـ ـة متكاملة مـع موضوعي المخطوطة ،الكتابة والخطابة .

وبعد هذا التمهيد الذي أخذ سبعة فصول تراوحت طولاً وقصرا سنشرع إن شاء الله تعالى في عملية التحقيق .

والله من وراء القصد .





فكتب اليه كيف أصبح مولانا في هذا الشتاء الذى أقبل يرعب مقدمه ويرهب تقدّمه ، ويريب اللبيب من برقه المومض تبسمه ،وكيف حاله مع رعوده الصارخة ،ورياحه النافخة ،و وجوه أيامه الكالحة ،وسرر لياليه التى لاتبيت منها بليلة صالحة ،وسحابه وأمواجه وجليده والمشي فوق زجاجه ، وتراكم مطره الحثيث وتطاول فرع ليله الأثيث ،(١) ومواقده السود الممقوتة ، وداوب جمره المحمر وأهون بها ولو أن كل حمراء ياقوتة ، وتحتّر نوئه (٢) المتصبب وتحيّر نجمسمه المتصوّب ،وكيف هو مع جيشه الذى ماأطلّ حتى نصب مضارب غمامه ،و ظلّل الجو بمثل أجنحة الفواخت (٣) من أعلامه .

هذا على أنه عرّى الأبنية ،وحلّل مما تلف دمه سالف الأشتية ،فقلت جاء من البرد بما رضّ العظام وأنخرها ،ودق فخّارات (٤) ت الأجسام وفجّرها ،وجمد في الفم الرّيق ،وعقد اللسان الا أنّه لسان المنطيق ، وييبس الأصابع حتى كادت أفصانها توقد حطبا ،وقيّد الأرجل فكانت لاتمشي الا بتوقّع عطبا .

وأتى الزمهرير بجنوده مالقوى بها قبل ،وحمّل الأجسام من ثقل الثياب مالا يعصمهم منه من قال سآوى الي جبل ، ومدّ من السّيل مااستكبى العيون اذا جرى ،واحتجن ماأتى عليه وأوّل مابدأالدمع بالكرى .

=:=:=:=:=:=:=:==:=

(١) الأثيث : الكثير العظيم (القاموس المحيط : ٢١٠) مؤسسة الرسالة ،سنة ١٩٨٧

(٢) نوء : عطاؤه (القاموس المحيط : ٦٩)

(٣) الفواخت : ج فاختة ،وهى من الطيور الحمام المطوق (لسان العرب: ٦٥/٢)

(٤) فخّارات جمع فخّارة وهى الجرّة . (القاموس المحيط : ٥٨٥ .)

فكيف أنت ياسيدي في هذه الأحول ،وكيف أنت في مقاساة هذه الأهوال ،وكيف رأيت منها ماشيّب بثلجيّة نواصي الجبال ،وجاء من البحر فتلقف ثعبانه ماألقته هراوات البروق من عصيّ وخيوط السّحاب والحبال .

أما نحن فبين أفواج من السحب تزدحم ،في رأس جبل لايعصم فيه من الماء الامن رحم (١) وكيف سيدنا مع مجامر كانون وشرار برقها القادح ، وهمّ ودقها الفادح (٢) ، وقوس قزحها (٣) المتلون ،ردّ الله عليه صوائب سهامه وبدّلنا منه بوشائع حلل الربيع ونضاره أيامه ،وجعل حظّ مولانا من لوافحه ما يذكيه ذهنه من ضرامه ،ومن سوافحه مايولد فكره من تؤامه ،وعوضنا واياه منه بالصيف اذا أقبل ،وأراحنا من هذا الشتاء ومشي غمامه المتبخرّ بكمّه السبل .

فكتب إليّ جوابا :

ويشهد ورود هذه الرقعة التى هي طراز في حلّة الدهر ،والحديقة التى تذكرني من الربيع وماتهديه أيامه من أنواع الزهر ، فوقف منها على الروض التى تهدّلت فروع غصونه بالأثمار ،ونظر منها الى الأفق الذى كلّ كواكبه شموس وأقمار ،فأنشأت له اطرابه ،وأعلمته أنّ قلم مولانا يفعل بالألباب ما لاتفعله

=:=:=:=: :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:==

(١) اشارة الى قوله تعالى : ((قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال لاعاصم اليوم من أمرالله الاّ من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين))سورة هود : ٤٣
(٢) الودق : المطر (القاموس المحيط : ١١٩٧) .
(٣) قوس قزح : من ألوان الطيف ،يظهرفي السّماء في مقابلة الشمس عند ماتضيء خلال قطرات ماء المطر ،بحيث تقع الشمس وعين الرائي و مركزالقوس على استقامة واحدة يظهرالقوس نتيجة لانعكاس أشعة الشمس وانكسارها ،وأحيانا يظهرقوسان أحدهما أخف من الأساس ويقع خارجه ،يتخذ رمزالوعد الله بني اسرائيل برعايته اياهم بعد الطوفان .

(سفرالتكوين : ٩-١٣)

نغمات الشبّابة (١) ،وأرشفته سلافا كؤوسها الحروف وكل نقطة حبابة ،وشاهد أوصاف هذه الأيام المباركة القدوم المتصلة الظلام ،فلا أوحش الله من طلعة الشمس وحواجب الأهلّة وعيون النجوم غمالنا ولهذه السحائب السحّابة ،والرّعود الصخّابة والبروق اللّهابة ،والغمائم السكّابة ، والثلوج التي أصبحت بحصبائها حصّابة(٢) والبرد الذى أمست ابره بغضون الجلود قطّابة ، والزميتة التى لاتسروي عن أبى ذر (٣) الا ويروي الغيث عن أبى قلابة (٤) .

كلما أقبلت فحمة الظلام قدحت فيها البوارق جمرتها ،وكلما جاءت سحابة كحلاء الجفون رجعت وهي مرهاء (٥) لما أسبلت من عبرتها فماهذا طوبة(٦) ان هذا الا جبل شهلان (٧) ،وماهذا كانون ان هذا الا تنوّر الطّوفان .

الى متى قطن هذه الثلوج يطرح على حباب الجبال ، والى متى تقضّ

=:=

(١) الشبّابة بفتح الشين- وهى الآلة المتخذة من القصب المجوّف ،ويقال لها اليراع أيضا وتستعمل للزمر (الموسوعة العربية الميسرة : محمد غربال ج ١٠٧٢/٢)

(٢) حصابة : ترمى بدقاق البرد والثلج . (القاموس المحيط : ٩٥)

(٣) أبوذر الغفارى الصحابى ،وهوجندب بن جنادة على الأصح ،وقيل بريد ،واختلف في أبيه فقيل جندب ، وقيل عشرقة ،أوعبد الله ،أوالسكن ،تقدم اسلامه ،وتأخرت هجرته فلم يشهد بدرا ، ومناقبه كثيرة جدا ،توفي سنة ٣٢ في خلافة عثمان . (انظرتهذيب التهذيب ، وتقريب التهذيب ٢ : ٤٢٠)

(٤) هوعبد الله بن زيد بن عمرو أوعامر الجرمي أبوقلابة البصرى ،ثقة فاضل ،توفي بالشام هاربا من القضاء سنة ١٠٤ (وقيل بعدها (التقريب ١ : ٤٠٧)

(٥) المرهاء : العين الخالية من الكحل أوالتى فسدت لتركه أوابيضت حماليقها . (لسان العرب : ٣/ ٥٤٠)

(٦) طوبة : من الأشهر المصرية (الموسوعة العربية الميسرة : محمد غربال ١/ ٥٣٨)

(٧) شهلان : جبل ضخم بالعالية ،عن ابى عبيدة ، وقال نصر : شهلان جبل لبني عامر بن صعصعة بناحية الشريف ،به ماء ونخيل وهومن جبال نجد (معجم البلدان : ٢/ ٨٨)

دلاص (١) الأنهار وترشقها قوس قزح بالنبال ؟ والى متى هذا تشقق السحاب مالها من الحلل والحبر ، والى متى ترسل خيوط المزن من الجو وفي أطرافهـــا على الغدران ابر، والى متى تجمد عيون الغمام ويلحها البروق بالنار ، والى متى تنار هذه الفضة وما يرى للنجم دينار ؟ والى متى نحن نحنو على النار خشــو المرضعات على الفطيم (٢) ؟ والى متى تبكي هذه الميازيب بكاء الأولياء بغير حزن اذا استولوا على مال اليتيم ؟ والى متى تتلوى بطون حيّاته وتتقلّب الحاليق المحمرّة من أسود غاباته ؟ والى متى يزمجر عتب هذه الرياح العاصفة ، والى متى يرسل الزمهرير أعوانا ترسل تصبح بها حلاوة الوجوه تالفة ؟

أترى هذه الأمطار تقلّب من آذار ، أم ترى هذه الموالد تنتهي فيهـا الأعمار ؟ كم من جليد يذوب له قلب الجليد ويرى زجاجه الشـّفاف أصلب من الحديد ؟ وكم من وحل لا تمشي هريرة فيه الوجى (٣) وكم من برد لا ينتطق فيه نؤوم الضحى ؟

اللهمّ حوالينا ولا علينا (٤) ، لقد أضجرنا

=:=

(١) دلاص: اللين السهل (القاموس المحيط : ٧٩٩)

(٢) اشارة الى قول المنازي (نسبة الى مناز جرد) :

نزلنا دوحه فحنا علينـــا حنوّ المرضعات على الفطيم

(٣) الوجى : الصوت الخفّي ، والمعنى أنها لا يسمع لها صوت. (القاموس المحيط : ١٧٢٩)

(٤) اشارة الى حديث الرسول صلي الله عليه وسلم .

عن شرحبيل بن السمط ، انه قال لكعب: ياكعب بن مرة : إحد ثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واحذر قال : جاء رجل الى النبي صلي الله عليه وسلم ـ فقال يارسول الله : استسق الله . فرفع رسول الله صلي الله عليه وسلم يديه فقال ((اللهم اسقنا غيثا مريئا طبقا عاجلا غير رائث ، نافعا غير ضار)) قال ، فما جمّعوا حتى أحيوا . قال : فأتوه فشكوا اليه المطر ، فقالوا : يارسول الله تهدّمت البيوت فقال ((اللهم حوالينا ولا علينا)) ، قال : فجعل السحاب ينقطع يمينا وشمالا رواه ابن ماجه ، واللفظ له (انظر ١/ ٤٠٤ ، رقم الحديث ١٢٦٩ ، طبعة دار احياء التراث العربي سنة ١٩٥٧) وكذلك رواه احمد في سننه والنسائي وابو داود وقال الالباني في تخريج سنن ابن ماجه : صحيح ١/ ٢١٤ .

تراكم الثبات (١) ومقاساة مالهذه الرحمة من العذاب ، وانجماع من العـذا ب ،

وانجماع كل من ألفه واغلاق باب القباب ، وتجلّل الضّباب زوايا البيوت والأطفال ضباب و

الضّباب كل ضب منهم قدلزم باطن نافقائه (٢) ، وقد (جثم) بين يديه المو ت

بدائه ، قد حسد النار على من أسس مذنبا وأصبح عاصيا ، وتمنى أن يرى من فواكه

الجمرات عنّابا أو قراصيا (٣)

فان كانت هذه الأمطار تكاثر فضائل مولانا فياطول ماتسفح ، وان كانت

العواصف تتشبّه ببأسه فياطول ماتلقح ، وان كانت البروق تحاكي ذهنه المتسرّ ع

فياطول ماتتألق ، وان كانت قوس قزح تتلون خجلا من طهروسه فياطول ماتتأنّق ،

وان كانت الرعود تحكي جوانح أعاديه فيا طول ماتفهق (٤) وتشهق ، وان كانت

السيول تجري وراء جوده فياطول ماتجرى على طول المدى ومايلحق ، والأولى

بهذا النوء الباكي أن لا يحاكى والأليق بهذا الفصل المبغض أن أن لا يتعو

.. ورحم الله من عرف قدره وكفى الناس شره وتحقق أن مولانا في هذا الوجود

ندرة .

فإجابته وفقا لمواقع القلم الشريف ، ووقفا عليه ، ومتمن بمجرد اقبالـه

اليه ، وقبله لقرب عهده بيديه وعدة لجلاء المره (٥) لما أمره على عينيه ، لابرح

---

(١) الثّبات: بالضم: المعجز عن الحركة. (القاموس المحيط : ١٩٠)
(٢) النافقاء : جحرالبربوع له مخرجات (القاموس المحيط : ١١٩٦)
(٣) القراصيا : وهي شجرة مثمرة من الفصيلة الوردية ، وتطلق في مصرعلي البرقوق المجفف. وفي الشا م تعرف بالخوخ المجفف. لون ثمرتها أزرق ضارب الى السواد . (الموسوعة العربية الميسرة : ٢/ ١٣٧٣))
(٤) فهق : امتلأ وطفح (القاموس المحيط : ١١٨٨)
(٥) المره : ضد الكحل ، والمرهة : البياض الذى لا يخالطه غيره ، وانما قيل للعين التى ليس فيها كحل مرهاء لهذا المعنى ، ومرهت العين فسدت لترك الكحل . (لسان العرب : ١٣/ ٥٤٠)

الشهد من جنى ريقه المعلّل ،والضّرب بكأس رحيقه المحلل ،والتيه وحاشاه منه في سلوك طريقه المذلل ،والجهد ولو كلّف لا يجيء بمثل سيره المدلّل ،والسّحاب لا يطير الا بجناح كرمه المبلّل ،والروض لا يبرز الا في ثوب زخرفه المجلّل ،والبرق لا يهتزّ الا في مثل ردائه المثلّل (١) ،والنصر تقضي لمواضيه على حدّ حسامه المفلّل ، والفجر لو لا بيانه الوضّاح لما أرشد دليله المضلّل ، والبحر لولا ماعرف من عبابه الزاخر لما ذم غزر المادة نواله المقلّل ،والفخر ولو شمخ بأنفه لا ينافس عقده الموشح ولا يتطاول الى تاجه المكلّل .

وفهمه فهام ،وعلمه فزاد صقال الأفهام ،وقصّر عن معرفته فما شكّ أنه الهام ،وانتهى في الجواب الى وصف أنواء تلك الليلة الماطرة ، وماموّهت به السحب من ذهب برقها ،وفتلته الأنواء من خيوط ودقها ، وفخت فيه الرياح من جمر كانونها ، وأظهرت حقيقة الرعود من شر مكنونها

وما تشبهه عارضة ذلك العارض المطر الذى هوأقرى من شآبيبها (٢) ، وأوقي ما أرقته السماء من جلابيبها ،وأسرى من برقها المومض في غرابيبها (٣) ، وأسرع من سرى رياحها وقد جمعت أطواق السحب وأخذت بتلابيبها .

وسبّح المملوك من عجب لهذه البلاغة التى كملت الفضائل ،وفضلت عن العلم وفي الرعيل الأول علم الأوائل ،وفضلت مبدعها وحقّ له التفضيل ، وأنطقت لسان العرب بيانه وأخرست كلّ لسان وأجرت قلم كرمه وأحرزت كلّ احسان

=:=

(١) المثلل : الصّوف المجمع المصلّح (القاموس المحيط : ١٢٥٧)

(٢) الشآبيب : ج . شؤبوب وهى الدفقة من المطر (القاموس المحيط : ١٢٧)

(٣) الغرابيب : كل ماهو شديد السواد غريب (القاموس المحيط : ١٥٤)

ونشرت علم علمه وأدخلت ،وأرهفت شبا حده وقطعت به كل مناظر وكل مناضل ،
وقالت للسحاب اليك ثم طبق اليك فان البحر قدجاءك ،و للنؤ وقدأعرق تنح فان
الطوفان قد ضيق أرجاءك ،وللرعد وقدصرخ اسكت فقد آن لهذه الشقاشق (١)
أن تسكت ،وللبرق و قدنسخ آية الليل استدرك غلطك لئلا تتبكت .

أما ترى هذه العلوم الجمة وقدزخر بحرها ،وأثرفي الألباب سحرها
وهذه الفضائل وكيف تفننت فنونها وفتنت عيونها ، وتهدلت بالثمرات أفنانها
وتزخرفت بالمحاسن جنانها ،وهذه الألمعية (٢) وكيف ذهبت الأصائل ،وهذه
اللوذعية (٣) وماأبقت مقالا لقائل ،وهذه البراعة التى فاضت وكل منها سكران
طافح ،وهذه الفصاحة وماغادرت بين الجوانح ، وهذه البلاغة التى سالت
بأعناق المطى بها الأباطح ،وهذه الحكم البوالغ ،وهذه النعم السوابغ ،وهذه
الهمم التى ترقت بتوجهها الى السماء فكشفت عمائة عارضها ،وكفت غواية البرق
وقد ولع وخط (٤) مشيبه بخط عارضها ،حتى جلاها وأضحاها ،وأغطش
ليلها وأخرج ضحاها (٥)، وجلا صدأ تلك الليلة عن صحفة ذلك اليوم المشمس
وبدل بذلك الصحو المطبع من ذلك النعيم المؤنس ،وأترع غدير ذلك النهار

---

(١) الشقاشق أوالشقائق : جمعشقشقة ،وهى شئ يخرجه الجمل من فيه اذا هاج وهدر. ويقال : (شقشقة هدرت ثم قرت)) ضجة أوفتنة ثارث ثم هدأت ،والمراد هنا الضجة .
(لسان العرب : ١٠/١٨٥)
(٢) الألمعي : الداهي ،الذى تظنن الأمرفلا يخطئ ،وقيل : الذى اذ الحه أول الأمرعرف آخره .
(القاموس المحيط : ٩٨٤)
(٣) اللوذعي : هوالحديد والفؤاد واللسان ،الظريف كأنه يلذع من ذكائه . (اللسان : ٣/١٤١)
(٤) الوخط : مخالطة الشيب و فشوه . (القاموس المحيط : ٨٩٣)
(٥) اشارة الى قوله تعالى ((وأغطش ليلها وأخرج ضحاها)) النازعات الآية ٢٩
وأغطش الله تعالى الليل : أى جعله مظلما .

خالصا من الرّنق (١) ، وضوّع نبير ذلك الثرى خاليا من الأنَق ،وأطلع شمس ذلك اليوم يوشع (٢) جانب مشرقها ،ووشّي بذائب الذهب رداء أفقها ،كما قلت : (السريع) :

كأنّما اليوم وقد موّهت   مشرقه الشمس ولا جاحد

ثوب من الشرّعب (٣) لكنّه   طرّز منه كمّه الواحد

استغفرالله بل ذلك بشر ذلك البشر بل الملك الكريم ، وصفحة وجهه المتهلل الوسيم ،بل صحيفة عمله وصفيحة أمله ،انموذج راثه (٤) الثناء عليه ، وصنو (٥) يده البيضاء وصنع يده، فلله تلك اليد المقبّلة ، ولله تلك اليد المؤمّلة ،ولله تلك المواهب المجزله ،ولله تلك الراحة التى لا تقاس بأنملة، ولله ذلك البيان الساحر ،ولله ذلك البنان السّاخر،ولله ذلك اللسان الذّرب وذلك البحر الزاخر ،ولله ذلك الانسان الذى طال باع عمله وطار فأوقدضرام ذلك الصحو شعاع فهمه، وطاب جنى ثمر جنات حلمه ، وطاف الأرض صيته ونفّق كاسد الفضائل باسمه .

لقد ألبس المملوك رداء الفخار ،وسرّفه العموم وكان لا يطمع أن يشقّ بحره الزخّار ومحاعنه صبغ درجته تلك الليلة ،وفرج عنه لباس تلك السحب وقدضمّ عليه ذيله

=:=

(١) الرّنق : الكدر والوسخ . (القاموس المحيط : ٢٢٨/٣)

(٢) هو يوشع بن نون ،وهوالذى ردت عليه الشمس حتى أتمّ الله له الفتح .
(لسان العرب : ٨/ ٢٩٤)

(٣) الشرعب : ضرب من الثياب له الأذيال ،الطويل منه والحسن .
(لسان العرب : ١/ ٤٩٤)

(٤) كذا في الأصل ،وراثه الثناء : يستحق الثناء عليه

(٥) الصنو : البهاء (القاموس المحيط : ١٦٨١)

وفارق ذلك النؤوم المضجع وقد جاراه جفنه وأجرى مثله سيله ،وأطلق لسانه من الاعتقال ، وانطلق بيانه وقال ،وحمى له هجير (١) الذكاء فقال ،ووقفه ولو لا ايقافه له لعبر على آثار « في وجهة من سبق ،فكتب هذا الجواب (الكامل) :

جاء الجواب برق منه فواصلا ... ويرف في روض البيان خمائلا

أعرفت غر السحب حين وصفتها ... يا من غدا بحرا يموج فضائلا

لو لم تكن يمناك بحرا زاخرا ... ماأرسلت تلك السطور جسدا ولا

ضرب من السحر الحلال متى تشأ ... أخرجته فيعود ضربا داخلا

مان حلا راويه بحر بيانه ... الأوزان مشاهدا ومحافلا

فمتى يروم به اللحاق مقصر ... والنجم أقرب من مداه تنساولا

أبرزته أفقا فكل قرينة ... يوح (٢) حوى معناه بدرا كاملا

فكأنما تلك الحروف حدائق ... أمست معانيها تصيح بلابلا

وكأن ذلك الطرس خد رائق ... والسطر فيه غدا عذارا سائلا

مهلا أبا العباس قد أفحمتني ... وتركتني بعد التحلي عاطلا

بالله قل لي عندما سطرته ... هل كنت تحسب أن تجيب الفاضلا

أقسمت لو جاراك في انشائه ... ماكان ضم على اليراع أناملا

حركت منك حمية عدوية (٣) ... ملئت فضاء الطرس منك جحافلا

كم فيه من لام كلامة (٤) فارس ... قد هز من ألفات خطك ذابلا

=:=

(١) هجير: الهجير والهجيرة والهجر والهاجرة: نصف النهار عند زوال الشمس الى العصر، وقيل في كل ذلك : انه شدة الحر، قال الجوهري: هو نصف النهار عند اشتداد الحر. قال ذو الرمة: وبيداء مقفار، يكاد ارتكاضها بآل الضحى ، والهجر بالطرف يمصح
(لسان العرب : ٥/٢٥٤)

(٢) يوح ويوحى ،بضمهما: من أسماء الشمس. (القاموس المحيط : ١٧٢٩)

(٣) اشارة الى نسب المؤلف ،فهو ينتسب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو من بني عدى

(٤) اللأمة: مايضعه الفارس على رأسه أثناء المعركة (لسان العرب : ١٢/٥٣٢)

هل شئت أن تنشي الجواب سحابة ... قد هزّ من ألفات خطّك ذابلا

يافارس الانشاء رفقا بالذي ... تركته يوم الترسّل راجلا

لو رام أن يجري وراءك خطوة ... نصبت له تلك الحروف حبائلا

فاحبس عنانك قد تجاوزت المدى ... وتركت سحبان (١) الفصاحة باقلا (٢)

والفاضل المسكين أصبح فنّه ... من بعد ما قدراح فينا خاملا

فاسلم لتبليغ النفوس مرامها ... فالدهر في أبواب فضلك ماثلا

كم فيك لي أمل يروق لأنني ... أدري بأنك لا تخيّب آملا

وكتبت أنا الجواب اليه : (كامل) :

وافى الكميّ بها يهزّ مناصلا ... ويروم صبغا للشبيبة ناصلا

سبق البهار (٣) بهاء وزينة ليلة ... ولوآنه في الفجر حلّى العاطلا

حمراء قانية يذوب شعاعها ... وترى حصى الياقوت فيها سائلا

حمراء قانية تحث كؤوسها ... وقع الصوارم والوشيج الذابلا

ذهبية ماعرف (٤) غابة كرمها ... لكنّها كفّ الكريم شمائلا

كفّ كمبجس النّوال كأنما ... دفع السيول تمدّ منه نائلا

كرم خليليّ (٥) يمدّ سماطه ... وتشبّ نارا للقرى وفواضلا

=:=

(١) سحبان وائل : خطيب مخضرم من وائل باهلة . اسلم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم - ولم يجتمع به . عاش مدة عند معاوية بن أبي سفيان بدمشق ، وقيل انه عمر مائة وثمانين سنة وكان اذا خطب يتوكأ على عصا ، ويسيل عرقا ، ولا يعيد كلمة ، ولا يتوقف ، ولا يتنحنح ، ولا يبتدىء في معنى فيخرج منه دون أن يتمه فضرب به المثل

(الموسوعة العربية الميسرة : ١/ ٩٧٢)

(٢) باقل : العيي الذى لا يقدر على التعبير (القاموس المحيط : ١٢٥٠)

(٣) البهار : نبت طيب الريح ، وكل حسن منير وتعني أيضا الفرس الأبيض (القاموس المحيط : ٤٥٣)

(٤) العرف : الرائحة الطيبة . (القاموس المحيط : ١٠٨٠)

(٥) أي منسوب الى ابراهيم الخليل عليه السلام .

ولهيب فكر لو يطير شرراره	منه لما حلّ السّحاب الوابلا
يذكي به كلّ صبحة قرّة	فهما لنيران القراع آكلا
عجبا له من سائق متأخر	فاق الأواخر ثم فات أوائلا
دانوه في سيب (١) وماأبهوا به	من ذا عراه (و) للغمام ما جلا
ماضل به البحر الخضمّ فانه	لا يرتضي خلفا سواه مماثلا
وافت عقليته لو ندّ أمرؤ	فيها استقلّ من البروج معاقلا
جاءت شبيهة الجود (٢) في حللها	حمر بتذهيب الحدود لها حلى
وتخضبّت بدم الحسود أما ترى	أثر السّواد بها عليه دلائلا
حلل على سحبان (٣) تسحب ذيلها	وتجرّ من طرف الذيول الغاضلا
خلت الهلال يلوح طالع نقابها	حتى نضت فرأيت بدرا كاملا
بنت القريحة ماونت في خدرها	حسن المليحة أن تواصل عا جلا ( )
جاءت تصوغ من العناق أساورا	لا بل تخوض من السيول خلا خلا
قبّلتها وأعدت تقبيلي لها	ان المتيّم لايخاف العاذلا
وأتت وجيش النّور مرهوب الشّذا (٥)	ملأ الوجود له قنا وقنا بلا
والبرق مشبوب الضّرام لأنه	صاد الغزالة حيث مدّ حبائلا
وأتت ورأس الطود يشكو لمّة	قد عمّمت بالثلج شيبا شاملا

=:=

(١) السيب العطاء : (القاموس المحيط : ١٢٦)
(٢) الخود : الناعمة الجسم ، وقيل الفتاة الجميلة (القاموس المحيط : ٣٥٨)
(٣) سحبان : ماء ، قال الشاعر : لولا ما حضرت سحبان ولا أخذت أجرة من انسان
(معجم البلدان لياقوت الحموى : ٣/١٩٤)
(٤) أى القصيدة التى نظمها .
(٥) في الأصل : الشذى ، خطأ والتصويب ماأثبت. والشذا : الأذى (القاموس المحيط : ١٦٧٥)

وكأنما نثرت قراضة (١) فضّـــــة   أيدى البروق وقد حرقن أنا مـــــلا

ملأت به كلّ الفضاء فلا تــــرى   الا نحيا جامدا أو سـائـــلا

والأفق كالكأس المفضّض ملــــؤه   صهبا قدعقدت حبابا حائـــلا

أبنا يوم قدتقهقر ضــــــوؤه   وبدا ذبالا في الأصائـــل ناحـــلا

والجوّمنخرق القميـص كأنّــــه   حنق يقدّ من السّحاب غلا ئـــلا

والسيل منحد يسيل مهنّـــدا   افرنده (٢) ذهب يمدّ سلا ســـلا

لله أنت أبا الصفا فانـــني   ألفي خليلا منك لي ومخالـــلا

أنت الذى خلقت صقـرا أجدلا (٣)   وضممت في برديك ليثا باســـلا

يامن ينفّق سوق كـل فضيلـــة   اسأد فما أبقيت بعدك فاضــلا

(الخــفيــف):

يافريدا ألفاظه كالفريـــــد   ومجيدا قدفاق عبد الحميـــد (٤)

وامام الأنام في كلّ علـــــم   وشريكا في الفضل للتّوحيــدى (٥)

=:=

(١) القراضة: ماسقط بالقرض. (القاموس المحيط: ٨٤٠)

(٢) الافرند: نوع من الدهنج وهوحجرنحاسي ، أجود أنواع الدهنج ، ومن منافعه أنه اذا وضع على مواضع لدغ العقرب سكن بعض السكون (لسان العرب: ٣/ ٣٣٤)

(٣) أجدل: الصقر، صفة غالبة ، وأصله من الجدل الذى هو الشدّة ، وهى الأجادل ، كسّروه تكسير الأسماء لغلبة الصفة (لسان العرب: ١١/ ١٠٣)

(٤) في الأصل: عبد المجيد ، والصواب ما أثبت ، وعبد الحميد: هو عبد الحميد بن يحي الكاتب مولى بني أميّة ، به يضرب المثل في اجادة الكتابة ، قتل مع مروان بن محمد آخر الأمويين سنة ١٣٢هـ (الموسوعة العربية الميسرة لمحمد عربال: ٢/ ١١٨١)

(٥) التوحيدى: هو علي بن محمد ، أبو حيان التوحيدى: فيلسوف ، متصوف معتزلي ، نعته ياقوت بشيخ الصوفيه وفيلسوف الأدباء وقال ابن الجوزى كان زنديقا توفي ٤٠٠هـ (الأعلام: ٤/ ٣٢٦)

عرف الفاضلون علمك بالعلـ	ـم وقال الجهّال بالتقليد
من تمنى بأن يلقى لك شبهـا	رام نقصا بالجهل حكم الوجود
طال قدري على السّماكين (١) لمّا	جاءني منك درّ نضيد
شابه الدرّ في النظام ولـما	شابه السّحر شاب رأس وليد
هو لغز في ذات خدر منيع	نزلت في العلى بقصر مشيد
هي أمّ الأمين (٢) ذات المعالي	من بني هاشم (٣) ذوى التأييد
أنت كنت البادي لمعناه حقـا	حين لوّحت لي بذكر الرشيد (٤)

وهذا آخر ماختمنا به أهل قطرنا أحياء وأمواتا ، ولا حفلة من تخطيناه فواتا ، اذ كان هؤلاء هم أعيان القوم ، من أول هذه الملّة والى اليوم من اشتهر لعلو قدره أولغلو درّه ، وثمّ بقايا ماخلو من أحد هذين ، ولاكانوا في قسمها الذين

وهذه جملة من الكتاب الشارقة ، وانما اطلعنا من شموسهم شارقة ، وهي دالة على مابعدها من تهاد يطيب في الخافقين ، ويطيب في النيّرين الشّارقين .

=:=

(١) السماكين : نجمان نيران في السّماء ، أحدهما في الشّمال وهوالسماك الرامح . والآخرفي الجنوب وهوالسماك الأعزل (لسان العرب : ١٠/٤٤٣).

(٢) أم الأمين : هي زبيدة بنت جعفربن المنصور ، سيدة جليلة ذات طولى في الحضارة والعمران والعطف على الأدباء والشعراء والأطباء ، أعرس بها الرشيد سنة ١٦٥ هـ ببغداد فأولدها محمد الأمين فأحبته حباعظيماحتى أوصلته لعرش الخلافة (أعلام النساء : عمركحاله : ٢/١٧)

(٣) بنوهاشم : نسبة الى هاشم بن عبد مناف أبوعبد المطلب جدّ النبي صلى الله عليه وسلم . كان يسمى عمرا وهو أول من ثرد الثريد وهشمه فسمى هاشما ، فقالت فيه ابنته :
عمرو العلا هشم الثريد لقومـه ورجال مكّة مسنتون عجاف (لسان العرب: ١٢/٦١١)

(٤) هارون الرشيد : خامس الخلفاء العباسيين وأوسعهم شهرة ، ابن الخليفة المهدى ، أمه الخيزرانة ، وكان لها نفوذ كبيرفي زمن المهدى حارب البيزنطيين قبل توليه الحكم ، فأشرف على أسوار القسطنطينية . يعتبرحكمه أوج الحكم العباسي ازدهارا ، استحدث منصب قاضي القضاة ، واهتم بالرعية ، وعنى بحفظ الأمن ، نظّم مسألة ولاية العهد .
(الموسوعة العربية الميسرة : ٢/١٨٩٦)

فأما الكتّاب المغاربة ومالهم من نجوم غيرغاربة ، فسأسّس منهم على بحور تزخر عبابا وتسحر ألبابا ،أبدؤهم بان بسّام وغرور ماابتكر ،ثم بالفتح بن خاقان راغبا فيمن ذكر،وأذيّل ابن خاقان الى هذا الأوان ،وأكثر عددهم بأهل مصر اذ أوقعها الحظّ في سوقهم ،وان لم أتوسّم بوسمهم ولم أدخل في مجرد اسمهم ،وانما أذكرهم في آخر المغاربة ،اذكان للبحث في اخراج مصر عن قسم المغرب بحال ،وماضرّ الشرق أن سامح أخاه المغرب برجال .

على أن الغرب كثير بناسه ،ملئ بأنواع الأدب وأحبابه ،وبهم الفضل المغرب والبيان المعرب ،ولهم غوص لايدرك له قرار ،وغرر هبّت على نجد له نسمات أسحار ، جاوروا البحر ،وقلّدوا درّة النّحر .

أبو الحسن
بن علي بن بسام

فمنهم : أبو الحسن بن علي بن بسام(١) : مميّز الذخيرة وجامعها ومعير الشمّ تلك الأنوف وجادعها ، حرفتها النفائس الغوالي وفخر المنافس المغالي ، وأخذ منها الجواهر وما فنيت ، وزايلتها الخواطر وما فتيت ، وطالما أثرى منفق من ذخيرتها ، ومرتفق بمير تها (٢) ، من كنوز ما وقفت عليه المآرب ولا وقعت عليها أرباب المطالب ، لا بل تلك ربما أنفدها الانفاق ، وأنفقها داعي الاملاق ، وهي معدن يولّد الذهب فكيف يملق ، وبحر يخرج الدّرّ فكيف لا ينفق قذفت بها أمواج ذلك البحر الذي يمتار ، ومجاج ذلك النحل الذي منه يشتار(٣) ، من عبق ذلك الروض وغدق ذلك النوض (٤) ، وثمر ذلك الدّوح ومكنون اللوح وفضائل ذلك الفضا ، بل الذي مارقب أصل المغرب ، ولا انصبّ جدول النهار في روضه المعشب، ولا رفعت للأندلس أعلام ، ولا عرفت وقائع ، ولا تميّزت لأهله أقدار ولا تطرقت بفضله سير وأخبار ، ولا حفظت له ذخيرة خير من كل درهم ودينار .

فاقتضيت لها لوعود الدهر ديون ، وجاءت آثار وكلها عيون ، ومن نثره قوله

وهو على نباهة الذكر ، وشرف المحل من فهر قد اقتصر على غقّة

==:=

(١) هو ابو الحسن علي بن بسّام الشنتريني نسبة الي شنترين بغرب الأندلس، توفي سنة ٥٤٢ ، وهو صاحب كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة الذي ينقل عنه المؤلف كثيرا وقد اشتهر بالأدب وسلك طريق ابن حيّان مؤرخ الأندلس وقفا أسلوبه ، انظر ترجمته في المغرب في حلي المغرب ٤١٧/١ ، ورايات المبرزين : ص ١٦ ، و نفح الطيب ٣٠٩/٢ ومعجم الأدباء ٢٧٥/١٢ .
وقد جاء في الأصل : أبو الحسن بن علي بن بسّام وهو خطأ ، والصواب ما أثبت .

(٢) الميرة : الأرزاق والطعام الموجود . (القاموس المحيط : ٦١٥)

(٣) يشتار : يأخذ طعامه أشرا وغتا . (القاموس المحيط : ٤٣٨)

(٤) النوض وجمعه أنواض وجمع جمعه أناويض ، وهو مخرج الماء (القاموس المحيط : ٨٤٦)

من العيش يتبرض (١) جميعها ،لابل يترود نسيمها ،والشمس وان سترها الضباب فغير خفية السناء ولا مجهولة الغناء .

ومنه قوله :

طرائد سيوف ،وجلاء حتوف قد حملهم لين العيش على خشنه وأسلمتهم غفلات الزمان الى محنه .

(ومنه)قوله :

عارض اذا همع استوشلت (٢) البحار،ونجم اذا طلع تضاءلت النجوم والأقمار ،وهو أحد من أوى بإشبيلية الى سنخ (٣) عظيم ،ومشى من الأدب على منهج قويم ،ثم سابق لذيمسح وجهه الابهيادب من الغيوم ،وصارم لا يحكي غمده الا بأفراد النجوم .

ومنه قوله :

بحر من بحور الظلام ،قذف بدر النظام ،وطرفه أعناق الأيام ،أسحر من أطواق الحمائم ،وأبهر من النجوم العواتم ،كان من شعراء الدولة العبادية (٤) ثم خلع الشعر بعدها خلع النجاد ،وتبرأ منها تبرؤ العباسية من دعوى زياد (٥) إلا إلمام الطيف بين الفرق ،والتفات الدليل ببنيات الطرق .

=:

(١) يتربض: يأخذ الشيء قليلاقليلا . (القاموس المحيط : ٨٢٨)

(٢) الوشل محركة: الماء القليل والماء الكثير ،من الأضداد ،وأراد باستوشلت : امتلأت (القاموس المحيط: ١٣٧٩)

(٣) في الأصل : شج ،وهوخطأ : والصواب ماأثبت ،والسنخ : الأصل .

(٤) دولةالعبادية : نسبةالى بني عباد ،أصحاب اشبيلية وهم من ملوك الطوائف في الأندلس ، قامت دولتهم على أنقاض الخلافة الأموية بالأندلس، أسس دولتهم قاض واسع الحيلة كبيرالثراء اسمه أبوالقاسم محمد بن اسماعيل بن عباد اللخمي .
(الموسوعة العربية الميسرة : ١/١٦٠٤)

(٥) هو زياد بن أبيه ،أو ابن أبي سفيان .

ومنه قوله في مؤرّج : (١)

كان سهما يمضي رميّه وبحرا لا ينكس آذيّه (٢) ، لوثلب الماء لما نقع أو تعرّض لابن ذكاء (٣) لما سطع ، متناول الأحساب التي قد درست في التخوم وأنافت على النجوم ، فيضع منارها ويطمس آثارها بلفظ أحسن من لقاء الحبيب غبّ الوعد وأمكن من غدر الطبيب عند العود .

ومنه قوله : في ذكر ابن عمّار : (٤)

شاعر لا يجارى ، وساحر لا يمارى ، ان مدح استنزل العصم ، وان هجا أسمع الصمّ ، وكان قد اتخذ الشّعر مدة صناعته ، ثم خلع بعد هذا طاعته ، رغبة بنفسه عن محلّة سؤددها سوال ، وأجودها كذب ومحال .

ومنه قوله :

وقد وعدت في صدر هذا الكتاب بأن أخلل اشعار الشعراء ، ورسائل الكتّاب والوزراء ، بما عسى أن يتعلّق بأذهانها ، وبسائر أفنان ضلالها ، ويشيد

=:=

(١) مؤرج : من الفعل أرّج بين القوم تأريجا اذ أغرى بينهم ، وكذلك هيج ، قال أبوسعيد : ومنه سمي المؤرّج الذّهلي جد المؤرج . الراوية ، وذلك أنه أرّج الحرب بين بكروتغلب
(لسان : ٢/ ٢٠٨)

(٢) الأذيّ : الموج . (القاموس المحيط : ١٦٢٥)

(٣) ابن ذكاء : الصبح أوالشمس . (لسان العرب : ١٤/ ٢٨٧)

(٤) هوذو الوزارتين أبوبكر محمد بن عمار ، الأديب الشاعر ، بلغ منزلة رفيعة عند المعتمد بن عبّاد صاحب اشبيلية ، حتى أدّى به الأمر الى انتزاء بمرسية وقتله بيد المعتمد في خبر طويل سنة ٤٧٧

ترجمته في الذخيرة ٢ / ٠ / ٣٦٨ ، ووفيات الأعيان ٤/ ٤٢٥ ، والخريدة ٢ / ٧١ ، وبغية الملتمس رقم ٢٢٧ ، والمغرب ١ / ٣٨٩ والقلائد ص ٨٣ والحلة السيراء ٢ / ١٣١ ، والمطرب : ١٦٩ والمعجب : ١٦٩ ، ورايات المبرزين : ٢٥ ، وأعمال الأعلام : ١٦٠ والنفح ١/ ٦٥٢ .

بأسماء طوائف توابعها الذين استظهروا على شهواتهم بجرذ بولها من إخلاف أباطيلها ، وسيخرط في سلك ماأوشح به هذا النصيب من تلخيص التشريف بأخبار ملوك الجزيرة لابن حيّان ، وعلى الجزيرة تاريخه الكبير عولت ، ومن خط يده أكثر مانقلت .

على أنه لم يخلص من غمامه الاقطرة ، ولاحصلت في يدى من حسامه الابرة ، فلذلك ماارتشفت ثمادي ، ونفخت فيما لم أجده من كلام رمادي ، وانفقت في ذلك من تافه زادي .

ومنه قوله :

نادرة الفلك الدوّار وأعجوبة الليل والنهار (له) نظم كما انشقّ البدر على النجوم ، ونثر كماخلط المسك بالكافور ، إلى نوادر كأطراف القنا الأملود (١) ، تشقّ القلوب قبل الجلود .

ومنه قوله :

وكان أبو الوليد يعنى ابن زيدون (٢) أحد منجرّا ، وفات الأنام طرّا ، الى أدب ليس للبحر تدفّقه ولا للبدر تألقه وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزّهر قرانه ، وحظ من الشعر غريب المنأى شقري المعاني ، أخبرني غيرواحد من شعراء اشبيلية ، قال :

=:=

(١) الأملود : الناعم اللّين من الغصون (القاموس المحيط : ٤٠٩)

(٢) هو أبو الوليد أحمد بن زيدون المخزومي المبرز في الشعر المتقدم في النثر ، الوزير زعيم الفئة القرطبية ، ونشأة الدولة الجهوريّة ، كان من أبناء الوجوه بقرطبة ، ثم تحول من أبناء الوجوه بقرطبة ، ثم تحوّل عن قرطبة الى اشبيلية وصاحبها المعتضد سنة ٤٤١ ، وبقي فيها الى وفاته سنة ٤٦٣ ، ترجمته في الذخيرة ١/١/٣٣٦ ، والقلائد ١/٩/٢٠٩ ، والمغرب ١/٦٢ والجذوة : ١٢١ ، والمطرب : ١٦٤ ، واعتاب الكتاب : ٢٠٧ ، والوفيات ١/١٣٩ والخريدة ٢/ ٤٨١ .

لما خلص ابن عبد البر (١) من يد عبّاد ، خلوص الفرزدق (٢) من يد زياد (٣) ينسب حضرته من أهل هذا الشأن أعرى من ظهر الأفعوان ، وأخلى من صدر الجبان ، فهمّ باستخلاف أبي عمر الباجي (٤) ، فكأنّ أبا الوليد غصّ بذلك وواطأ أبا محمد بن الجد على الاشارة بالاستغناء عما هنالك ، وكانت الكتب تنفذ من انشاء أبي الوليد الى شرقي الأندلس ، فيقال : يأتي من اشبيلية كتب هي بالنظم الخطير أشبه منها بالنثر .

ومنه قوله : (٥)

وأما ولاّدة فكانت في نساء زمانها واحدة أقرانها حضور شاهد ، وحرارة أوابد وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر يعشو أهل الأدب الى ضوء

=:=

(١) ابن عبد البر هو أبو محمد عبد الله بن الفقيه أبي عمر بن عبد البر النمري ، كان من أهل الأدب والبلاغة والتقدم في الذكاء والعلم ، عمل في بلاط المعتضد بن عباد ، ثم نقم عليه وعزله ، حتى توفي سنة ٤٥٨ في حياة أبيه ، ترجمته في الذخيرة ٣/ ٠/ ١٢٥ ، والقلائد ١/ ٣٨ ، والبغية : ٣٥٤ ، والصلة : ٢٧٩ ، والمغرب ٢/ ٤٠٢ ، والخريدة ٢/ ٤٧٨ ، واعتاب الكتاب : ٢٢٠ أي صاحب اشبيلية .

(٢) + (٣) اشارة الى هرب الشاعر الفرزدق من زياد بن أبيه وكان والي البصرة .

(٤) أبو عمر الباجي هو أبو عمر يوسف بن جعفر بن يوسف الباجي - نسبة لباجة من مدن الأندلس ومن أقدم المدائن فيها - وهو غير القاضي أبي الوليد الباجي المتوفي سنة ٤٧٤ صاحب الرحلة الى المشرق ، والذي كانت بينه وبين ابن حزم الظاهري مجلس ومناظرات ، ترجمة أبي عمر في الذخيرة ٢/ ٠/ ١٨٦ والقلائد ١/ ٣٠٠ والخريدة ٢/ ٣٣٧ ، والمغرب ١/ ٤٠٥

(٥) هي ولاّدة بنت المستكفي محمد بن عبد الرحمن الناصري ، كانت من أهل الأدب والاقبال على الدنيا ، وكان مجلسها مشهورا يجمع نخبة من الشعراء والأدباء ، وممن كلف بها الشاعر الوزير ابن زيدون ، انظر ترجمتها في الذخيرة ١/ ١/ ٤٢٩ ، والقلائد ١/ ٢٢٥ ، والصلة : ٦٥٧ ، وبغية الملتمس رقم ١٥٩٥ ، وتمام المتون : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، وسرح العيون : ٢٢- ٢٤ ، والنفح ٤/ ٢٠٥ ، والمطرب : ٧ ، والوافي بالوفيات ٤/ ٢٥١ ، ونزهة الجلساء : ١٠١

غرّتها ، ويتهالك افراد الدهر على حلاوة عشرتها ، الى سهولة حجابها ، وكثـرة منتابها ، تخلط ذلك بعلوّ نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، على أنها اطّرحت التحصيل ، وأوجدت الى القول فيها السبيل ، لقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذّاتها .

وأما ذكاء خاطرها ، وعجيب نوادرها فآية من آيات فاطرها ، وكانت تخالل الوزير أبا عامر بن عبدوس (١) ، وطال عمرها وعمره حتى أربيا على الثمانين وهو لا يدع مواصلتها ، ولا يغفل مراسلتها ، وتحيّف هذا الدهر المستطيل حال ولاّدة فكان يحمل كلّها ، ويرقع ظلّها ، على جدب واديه وخبوّ روائحه وغواديه .

ومنه قولـه :

هو في وقتنا غرّة الزمان الزاهرة ، وآية الاحسان الباهرة ، أحد من تقدّم أهل الفضل تقدّم الاسم على الفعل ، واستولى على النيل ، استيلاء الشمـس على الظل ، وله صدر يسع الدهر كلّه ، ولسان يحلّل السحر لو استحلّـه .

ومنه قوله :

صادق النوء ، ثاقب الضوء يوفي على أنواع البديع ايفاء نيسان علـى محاسن الربيع ، الى علم أعذب من الماء وأكثر من حصباء الدّهناء (٢) .

ومنه قـولـه :

وافاني منك كتاب ظللت أسامره وأناجيه ، وقلّبت اليه وفيه ، وخفـت

=:=

(١) هو خصم ابن زيدون الذي كاد له وتسبب في اعتقاله ، وكان يحقد عليه لتعلقه بولاّدة .

(٢) الدّهناء : صحراء بالمملكة العربية السعودية تمتد على شكل قوس طوله ١٣٠٠ من النفود شمالا حتى الربع الخالي جنوبا ويتراوح عرضة بين ٢٥ و ٤٠كم ، ومتوسط ارتفاعه ٤٥٠م فوق سطح البحر . النصف الشمالي رماله ثابتة ، والجنوبي كثبان رملية متحركة رمال الدهناء حمراء لكثرة أكاسيد الحديد (الهماتيت)

(الموسوعة العربية الميسرة : ٨٠٧/١)

أن أمحو سطوره تقبيلا فوضعته على رأسي اكليلا ، وصرت به على الدهر أميرا ، ولم لا وقد ملأ عينيّ نورا ،وبدني مسكا وكافورا ، وداخلت نفسي منه قوة لا أعرفها فكيف أصفها ،ولا أدريها فكيف أحكيها ،وهي أظنّ مايداخل المضلّ اذا نشد فوجد ،أو المقل (١) اذا استعدى على الأيام فاعدى ،أو الممحل يئس من السّقيا فسقي وظل ينشر : (الكامل الأحذّ)

وحديثها كالغيث يسمعه	راعي سنين تتابعت جدبا
فأصاخ يرجو أن يكون حيا	ويصيح من فرح هيا ربّا

=:=

(١) في الأصل : المظل ،وهوخطأ ،والصواب ماأثبت .

أَبُو نَصْر

الفَتْحُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ

خَاقَانَ

ومنهم : أبونصر الفتح بن محمد بن خاقان القيسي (١) : مؤلف قلائد العقيان ، ومثل فرائد تلك النحور للعيان ، فأحيا رمم أولئك الأعيان ، ووصل رحم ذلك البيان ، وخلّد للمغرب فخرا بفضيلة ذخرا ، بما حفظه لأهله ثم طلع من نجومهم بدرا ، ونثر خلال حصبائهم درّا ، وفاض على جداولهم بحرا ، وآض في أخريات أسحارهم فجرا ، وكان له عليهم رفعة السماء على رفعة الماء ، لفضل أناف به اناقة البدر على الميسم ، وغطّى عليهم تغطية الشفاء على المبسم ، ويقال انه ماضمّ بنانه قلما ، ولا أمّ ببيانه لقما حتى حفظ عشرة آلاف رسالة ، جعل خاطره مكان خطّها ، وحافظ ذكره موضع ضبطها ، فمرى بهاشعب فكره وأسله ، وجرى فيها الى غاية ماقاله ، وجاء بماوسّع مجاله ، ووشّع بتذهيب الحدود مقاله ، ورصّع من دريّة الدّرارى بمانالت يداه وطالت مذاكيه الى مداه ، وان كان حالية العذارى على حصاه ، وسابق الثّريا قد ألقى عصاه .

وآخر حاله أنه رسد كتابه ودبّج عليه بنبذ بعض من ذمه فيه وعابه ، وعلم بالقاتل وانما درأه المداراة عنه المقاتل ، وتلك شيمة الأيام ، وسخيمة صدور الأنام ، لاترعى حق فاضل ، ولاتراع بحدّ مناصل ، وهي الدنيا تعاقب ماجنت ، ولاتعاقب بماجنت .

=:=

(١) هوأبونصرالفتح بن محمد بن عبيدالله القيسي الاشبيلي ، يعرف بابن خاقان ، أصله من قلعة الواد احدى قرى يحصب من اعمال غرناطة ، احد الوزراء الكتاب المصنفين ، روى عن ابن سليمان بن القصيوة وابن عيسي بن اللبانة وأبي جعفربن سعدون وغيرهم ، له من المؤلفات : مطمح الأنفس وقلائد العقيان وكنزالفوائد وحديقة المآثر وغيرها تنو في سنة ٥٢٩ ترجمته في المغرب ١/ ٢٥٩ ، والوفيات ١/ ٥٦٨ ، ومعجم الصعدى : ٣٠٠ والخريدة ١٢/ ١٩٠ ، والنفح : في مواضع كثيرة ، ومعجم الأدباء ١٦/ ١٨٦ ، وشذرات الذهب ٤/ ١٠٧ ، وغيرها .

ومن نثره قوله :

واعلم أن المعتمد (١) جيّش اليها ليتركها خاوية على عروشها طاوية الجوانح على وحوشها ،فأمر الراضي بالخروج اليه (فأظهر) (٢) التّمارض والتشكّي ، وأكثر التقاعس والتلكّي فوجه المعتمد مع ذلك الجيش الذي لم تنشر بنوده ، ولم تنصر جنوده ، فعندما رأوا الغدر تفرقوا في تلك الأماريت (٣) ، وفرقوا من تحطب تلك المغاربت ،فآب أخسر من بائع السّدانة (٤) ،ومضيّع الأمانة فانطبقت سماء المعتمد على أرضه ،وشغله عن اقامة نوافله وفرضه ،وفرّق العزائم البظّية (٥) بين الصوارم والرماح الخطّية .

ومنه قولـه :

وأيام كأنها من حسنها جمع وليال ،كان فيها على الانس جبور ،ومجتمع وافت اشراقا وبلجا ،وسالت مكارمه أنهارا وخلجا ،الى أن عدت عليه الايام بمعهود العدوان ،ودنت اليه دنوّها لصاحب الايوان ،وانبرت اليه انبراءها (٦)

=:=

(١) المعتمد بن عبّاد : شاعر ،ولد بباجة بالأندلس ومات بأغمات بمراكش كان أبوه أمير اشبيلية ، فدرّبه على الحرب والسياسة بعثه لغزو مالقه فافتتحها ،ولكن باديس الصنهاجي انتزعها منه بعد قليل فغزا الي رندة ، وتولّى امارة اشبيلية ،وضمّ اليها قرطبة ومرسية وبلنسية بعد عدة حروب ،شجاعا كريما ،محبا للشعر ،لا يستوزر غير شاعر .

(الموسوعة العربية الميسرة : ٢/ ١٧١)

(٢) سقطت من الأصل ،فاستدركت من القلائد .

(٣) الأماريت مفردها أمره ، وهي الرابيه (لسان العرب : ٢/ ٨٩)

(٤) السّدانة : الحجابة ، والسدنه : حجاب البيت وقومه الاصنام في الجاهلية ، وهو الأصل ، وجاء ذكر سدانة الكعبة وسقاية الحاج في الحديث ،وسدانة الكعبة خدمتها وتولي أمرها وفتح بابها واغلاقه وكانت السدانة واللواء لبني عبد الدار في الجاهلية فأقرّها النبي صلى الله عليه وسلم (لسان العرب : ١٣/ ٢٠٧) .

(٥) البظية : من بظا ،وبظا لحمه يبظو : كثر وتراكب واكتنز (القاموس المحيط : ١٦٣٠)

(٦) في الأصل : انبراءه الزهير ،وهو خطأ ،والصواب ما أثبت عن القلائد ،وقيس بن زهير هذا هو سيد بني عبس أيام داحس والغبراء .

لزهير وراء عمان (١) ،وقتل (٢) هو وابناه لم تعطف عليهم الاجوانح الليل ولم تقف لديهم الا بوارح الويل ،وباتوا لم يطلب لهم بثار ،ولا انتظم شملهم بعد الانتشار ،وهي الأيام أقفرت شعب بوان (٣) ،وعقرت ملك غمدان (٤) ،وأظفرت الحمام بعبدالمدان (٥) ،وفرقت بين مكنس (٦) وأمه ظباء ،ورمت بسطام بن قيس (٧) فخرّ على الإلاءة ،ومزقت ابني بدر بجفر الهباءة . (٨)

=:=

(١) عمان بضم أوله وتخفيف ثانيه : اسم كورة على ساحل بحر اليمن والهند ،وهى من بلاد العرب تشمل على بلدان كثيرة ،وحرها يضرب به المثل ،وأكثر أهلها خوارج اباضية ، وقصبتها اليوم مسقط (معجم البلدان : ٤/ ١٥٠)

(٢) في الأصل : ونقل ،وهو خطأ ،والصواب ما أثبت .

(٣) بوّان : ثلاثة مواضع ،أشهرها وأسيرها ذكرا شعب بوّان بأرض فارس بين أرّجان والنّوبندجان وهو أحد متنزهات الدنيا ،وقد أجاد المتنبي بوصفه فقال :

مغاني الشّعب طيبا في المغاني بمنزلة الرّبيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

وقد جاء في القلائد : شعب ودّان ،وهو تحريف والصواب ما أثبت (معجم البلدان ١/٣ ٥٠)

(٤) في القلائد : وعفرت ملك غمدان وما أثبتاه عن المخطوطة له وجه ،وغمدان قصر عظيم باليمن يقال ان سليمان عليه السلام امر الشياطين فبنوا لبلقيس ثلاثة قصور بصنعاء ،منها هذا . (وانظر معجم البلدان : ٤/ ٢١٠)

(٥) عبد المدان ،وهو حشرم بن عبد ياليل من جرهم ،ملك جاهلي يماني ،كانت اقامته بمكة . (الأمالي الشجرية : ١/ ١٦١)

(٦) مكنس: موضع الربيه وهو مولج الوحشى من الظباء والبقر تستكنّ فيه (اللسان : ٦/ ١٩٨)

(٧) هو بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني ،سيد بنى شيبان ومن أشهر فرسان العرب في الجاهلية ،أدرك الاسلام ولم يسلم ،وقتله عاصم بن خليفة الضبي يوم الشقيقة . (الحماسة لأبي تمام : ١/ ١٠٦)

(٨) ابنا بدر هما حمل وحذيفة قتلهما قيس بن زهير بن جذيمة العبسي بمالك ابن قيس أخيه وكان حمل بن بدر قتله وفي ذلك يقول قيس :
شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
وكان ذلك في جفر الهباءة وهو يوم لعبس على ذبيان من أيام حرب داحس والغبراء
(وانظر الحماسة لأبي تمام بشرح التبريزى ١/ ١٠٦)

ومنه قوله :

وأخبرني ابن عبدون أن الجدب توالى بحضرته حتى جفّت مذانبها واغبرت جوانبها ، وأبدت الحوامل عبوسها ، وشكت الأرض بوسها ، فأقلع المتوكل وأظهر الخشوع ، وأكثر السجود والركوع ، الى أن غيّم الجوّ وأثجم (١) النوّ ، وصاب الغمام ، وترنّمت الحمام ، والمتوكل مافضّ لتوبة ختاما ، ولا نقض قلبه منها قتاما .

ومنه قوله :

وأخبرني أنه سايره بشنتمريّة (٢) ، وهي لا يروعها صرف ، ولا يقرعها طرف ، قد أطلّت على خمائلها إطلال العروس على منصّتها وانقطع في الجو أكثر من حصتها ، فمروا ببلش (٣) قطر سال به جداوله ، واختالت فيه خمائله ، فما يجول الطّرف منه الا في حديقة ، أو بقعة أنيقة ، فصار الى مجلس قد ابتسمت ثغور نوّاره وخجلت خدوده من دراره ، وأثمرت صدور أباريقه بأباريقها ، وضمت عليه المجالس أزرارها

ومنه قوله :

وهي ابنة لقد نهل بالغصص ، وذهل خوفا من القنص ، الى أن ركب في البحر طريقا غير يبس ، وساعدته الريح بنفس فامتطى البحر وأورد غربانه لججه ،

=:

(١) أثجم : دام ، وأثجم السما* : أسرع مطرها ودام (القاموس المحيط : ١٤٠١)
(٢) شنتمرية : بفتح الميم وكسر الرا* وتشديد اليا* ، قال ياقوت : واظنه يراد به مريم بلغة الافرنج ، وهو حصن من أعمال شنتمرية ، قال ابن السيد البطليوس:

أنا خت بنا في أرض شنتمريّة هواجس ظنّ خان والظّن خوّان

(انظر معجم البلدان ٣ / ٣٦٧)

أقول : هي من أعمال شلب بجزيرة الأندلس ، وهي تتبع البرتغال الآن و شنتمرية تعني بلغتهم : السيدة مريم ، وينطقونها بالسين اى : سانتا ماريا .
(٣) بلّش ، بلد بالأندلس ، انظر معجم البلدان ١ / ٤٩٢ ، وهي في شرقي مالقة ويقال لها بلّيش ، انظر المغرب ١ / ٤٤٢ .

وكانت أطوع من غربان نوح (١) ، وباتت بأجنحة الى حيث شاء جنوح (٢)، فأصبح وأطراف شراعه يلوح ،وأطلاله تبكي عليه وتنوح فأرجاه الى نجاته سكآنــه، وحسباه منها موضعه ومكانه .

ومنه قولـه :

ودخلت بلنسية (٣) فألفيته قد انحنى ،وعوّض من شطاطه (٤) بالحنا ،وهو يمشي بالعيش على ضجر ،ويمشي على ساق من الشجر ،لا تحمله المنسأة من الكبر، ولا يعلك رأس البعير ان نفر ،وأقمنا نتعاطى أحاديث كانها رضاب ،ونتراضي والأيام غضاب .

ومنه قوله :

وبوسطها مجلس قد تفتّحت للروض أبوابه ،وتوشحت بالأزر المذهبــة أثوابه ،يخترقه جدول كالحسام المسلول ،وينساب فيه انسياب الأيم في الطّلول وضفّاته (٥) بالدّوح محفوفة ،والمجلس يروق كالخريدة المزفوفة (٦) وأقمنا نتنعّـم

=:==:=

(١) نوح : هو النبي نوح ـ عليه السلام ـ الوارد ذكره في القرآن الكريم وخبر سفينته التي أنقذت الحياة البشرية والحيوانية من الطوفان ،وأبناء نوح هم: سام وحام ويافث ،وهم أسلاف الجنس البشري (سفر التكوين : ٦- ١١)
(٢) الجنوح : الميلان (القاموس المحيط : ٦٧٦)
(٣) بلنسية : كورة ومدينة مشهورة بالأندلس متصلة بحوزة كورة تدميرو هي شرقي تدمير و شرقي قرطبه ،وهي برية بحرية (انظر معجم البلدان ١/ ٤٩٠)
(٤) شطاطه : البعد . (القاموس المحيط : ٨٧٠)
(٥) في الأصل : الموقوفة ،وهي خطأ ،والصواب ما أثبت ،وهي اللؤلؤة السليمة

(٦) في الأصل : وقدرنـا ،خطأ والصواب ما أثبت .

يحسنه طول ذلك اليوم ،وقد ذدنا (١) عن جفوننا طروق النوم ،وظللنا بليلة كأنّ الصّبح مقدود ،والأغصان تميس كأنها قدود ،والمجرّة تترامى نهرا ،والكواكب تخالها في الجوزهرا ،والثريّا كأنها راحة تشير ،وعطارد (٢) لنا بالطرب بشير.

فلما كان من الغد وافيت أباعبد الرحمن (٣) ، فأفضنا في الحديث الى أن ذكرمتنزّهنا في أمس ،فقال مابهجة موضع قدبان قطينه (٤) وذهب ،وسلب الزمان بهجته وانتهب .

وقد استدعاني المنصور في يوم حلّت فيه الشمس بيت شرفها ، واكتست الأرض بزخرفها ،وبين يدى المنصور (مائة) غلام مايزيد أحدهم على العشر غير أربع ،ولا يحلّ غير الفؤاد من مربع ،وهم يديرون رحيقا خلتها في كؤوسها درّا وعقيقا (٥) ،فأقمنا والشهب تغازلنا ،وكأنّ الأفلاك منا زلنا ،ثم توجّع لذلك العهد ،وأفصح بمابين ضلوعه من الوجد وأنشد : (الكامل)

سقيا لمنزلة اللّوى (٦) وكثيبها   اذ لا (أرى) (٧) زمناكأزماني بها

=:=

(١) عطارد : أقرب الكواكب الى الشمس يطلق عليه وعلى الزهرة اسم كوكب سفلي لوقوع مساريهما بين الأرض والشمس، وله أوجه متغيرة مثل القمر.
(الموسوعة العربية الميسرة : ٢ / ١٢١٨)

(٢) هو المنصور أبو الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر ،نشأ بقرطبة ،واستقر بسرقسطة في كنف صاحبها منذر بن يحي التّجيبي ،حكم بلنسيه سنة ٤١١ (ترجمة في القلائد ١ / ١٨٧) و(والبيان المغرب ٣ / ١٦٤) و(وابن خلدون ٤ / ١٦١) .

(٣) في الأصل : فأقصينا في الحديث الى ذكرتنزهنا به الأمس فقال ما أبهجه فوضع قد بان بطنه !!! وهو خطأ وتحريف ،والصواب ما أثبت عن القلائد .

(٤) مابين الحاصرتين سقط من الأصل ،واستدركناه من القلائد .

(٥) العقيق : خرز أحمد يكون باليمن و بسواحل بحر رومية (القاموس المحيط : ١١٧٥)

(٦) اللّوى : اسم مكان ، واللّوى ما استرق من الرّمل . (القاموس المحيط : ١٧١٧)

(٧) مابين الحاصرتين سقط من الأصل ،واستدركناه من القلائد .

ومنه قوله :

ورب الرياسة عن ملوك عضدوا مؤازرهم وشدوا دون النساء مآزرهم ، ركبوا الصعاب فذللوها ، وابتغوا سببا الى النجوم حتى انتعلوها ، تملكوا الملك بأيد ، وعقلوه من النجد بقيد ، وكان ذو الرياستين يتشطط على ندامة ، ولا يرتبط في مجلس مداحه ، فلم تتم معه سلوة ، ولا فقدت في ميدانه كبوة ، وقليلا ماكان يفيد ، ولا ينجي المذنب عنه الا الحسام الصقيل ، ومع هذا فانه كان غيثا للندى ولسانا في العدى ، وبدرا في المحفل وصدرا في الجحفل .

ومنه قوله :

والجو سماكي العوارف ، لازوردي (١) المطارف ، والنور مبتل ، والنسيم معتل ، والرذاذ (٢) يرش ، والربيع على الأرض فرش ، وقد صقل الغمام الأزهار حتى ذهب نمشها ، وأسقاها فأذهب عطشها ، ثم وجد فيه الى روضة نفحت أرجاؤها ، وقد بجت ساحاتها ، وتجردت جداولها كالبواتر ، ورمقت أزاهرها بعيون فواتر ، وركب متصيدا في يوم غيم نضح رذاذه وجه الثرى ، وتلفعت الشمس بمطرفه فما ترى .

ومنه قولــه :

وأخبرني أنه دخل عليه في ليلة قد بنى السرور مناسمها ، وأمطى الحبــــور غاربها (٢) وسنامها (٣) ، وراع الانس بوادها ، وستر بياض الأماني سوادها ، وغازل نسيم الروض زوارها وعوادها ، ونور السرج قد قلص أثوابها ، ومحى من لجين الأرض أكوابها ، والبدر قد كمل ، والتحف واشتمل .

=:=

(١) اللازورد : لون يستعمل مادة ملونة وعاملا مزرقا ، وهو سيليكات مزدوجة الصوديوم والألمنيوم مع قليل من الكبريت . (الموسوعة العربية الميسرة : ٢/ ١٥٣٩)

(٢) في الاصل : الزداد ، تصحيف ، والصواب ما اثبت .

(٣) غاربها : غارب كل شيء أعلاه . والغارب : أعلى مقدم السنام . (اللسان : ١/ ٨٤٤)

(٤) سنامها : وسطها (القاموس المحيط : ١٤٥١)

ومنه قوله :

وأخبرني لمكاني عنده في يوم قد نشر من غيمه رداء رداء يد ، وسكب من قطره ماء ورد ، وأبدى من برقه لسان نار ، ومن قوس قزحه حبابا آس جففت بنرجس وجلّنار (١)

ومنه قوله :

ولما افترس ملوك الأندلس ذلك الليث ، وطمس رسومهم ذلك الغيث ، بقي ذو الرياستين طالعا بأفق الملك ، وقد أفلت نجومه ، محترسا من ذلك الليث أن يفاجئه هجومه ، الى ان حطته المنية وانحطت اليه تلك البنية ، وبقي ابنه على رسمه الى أن أذنت اليه تلك الأفاعي واشتملت تلك المساعي ، فخرّ من عرشه ، وأقيم من فرشه .

ومنه قوله :

ولم يزل يكشف العدو دفينه (٢) ، ويجذف والموج يعوق سفينه ، الى أن هبّت ريحه ، فجرى وتسنّى تسريحه ، ووافى شاطبة (٣) ، فأقام مشتملا بالجول ، سائلا عن المأمول ، الى أن برقـــــــــــــــت

=:

(١) الجلنار : أشدّ صفرة من البهرمان ، وأكثر اشعاعا ومائية ودونه الخلوقي ، وهو نوع من الياقوت
(القاموس المحيط : ٤٦٧)

(٢) في الأصل : دقيقة ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبت .

(٣) شاطبة : مدينة في شرقي الأندلس وشرقي قرطبة ، وهي مدينة كبيرة قديمة ، خرج منها خلق من الفضلاء ، ويعمل الكاغد الجيد فيها ويحمل منها الى سائر بلاد الأندلس ، وقال أبو بحر صفوان بن ادريس المرسي في وصف شاطبة :

شاطبة الشرق شر دار	ليس لسكانها فلاح
الكسب من شأنهم ولكن	اكثر مسكوبهم سلاح

(معجم البلدان : ٣/ ٣١٠)

بلنسية (١) من آلامها، فبادر الى استلامها، وعاد اليها ولزم مطالعه متواريـا، وأقام ثابت الاسار، لم يطأ رقعة أرض، ولا خرج لأداء سنة ولا فرض حتى ادرج في كنفه، وأخرج الى جفنه، فانقرض الكلام بانقراضه، وبكت البلاغة على إعراضه.

ومنه قوله:

وفي السّاقية الكبرى دولاب يئن كناقة اثرالحوار (٢)، أو كثكلى من حرّالأوار، وكلّ مغرم (يجعل) (٣) فيه ارتياحه، بكرته وصباحه.

ومنه قوله:

فتحيّل لنفسه حتى تسلّل من حبسه، ففرّ فرار الخائف، وسرى الى اشبيلية سرى الخيال الطائف، فوافاها غلسا (٤) قبل الاسراج والالجام، ونجا اليها برأس طمّرة (٥) ولجام، فهشّت له الدولة فأحمد قراره، وأرهقت النكبة

=:=

(١) بلنسيه: كورة ومدينة مشهورة بالأندلس متصلة بحوزة كورة تدمير، وهي شرقي تدميروشرقي قرطبة، وهي برية بحرية ذات أشجاروأنهار، وتعرف بمدينة التراب، والغالب على شجرها القراسيا، وينبت بكورها الزعفران، وكان الروم قد ملكوهاسنة ٤٨٧م، واستردها الملثمون الذين كانواملوكابالمغرب (معجم البلدان ١/ ٤٩٠)

(٢) الحوار: بالضم وقد يكسر: ولد الناقة ساعة تضعه، أوالى أن يفصل عن أمه.
(القاموس المحيط: ٤٨٧)

(٣) سقط من الأصل واستدركته من القلائد.

(٤) الغلس: ظلمة آخرالليل (القاموس المحيط: ٧٢٣)

(٥) اشارة الى قول حسان بن ثابت عندما هجا الحارث بن هشام.

ان كنت كاذبة الذى حدّثتني ... فنجوت منجى الحارث بن هشام

تركت الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجابرأس طمّرة ولجـام

والطمّر: هو الجواد المستفزللوثب والعدو، والأنثى طمّرة.

غراره ، وحصل عند المعتضد (١) كالسويداء من الفؤاد ، واستخلصه استخلاص المعتصم لابن أبي دواد (٢) ، حتى أدركه حمامه ولقي السّرار تمامه .

ومنه قوله :

وأخبرني أنه استدعى في ليلة قد ألبسها البدر رواءه وأوقد فيها أضواءه ، وهو على البحيرة الكبرى ، والنجوم قد انعكست فيها تخالها زهرا وقابلتها المجرة فسالت فيها نهرا ، وقد أرجت نوافح النّد وماست معاطف الرّند (٣) ، وحسد النسيم الروض فوشى بأسراره ، وأنشأ أحاديث آسه وعراره ، ومشى مختالا بين لباب الزهر وأزراره ، وهو وجم (٤) ، ودمعه منسجم ، وزفراته تترجم عن غرام وتجمجم .

ومنه قوله :

والغصون قد التحفت بسندسها ، والأزهار يحي طيب تنفسها ، والنسيم

=:=

(١) المعتضد : هو المعتضد بن عباد بن محمد ، صاحب اشبيلية في عهد ملوك الطوائف ، كان يقود الجيش في قتال بني الأفطس أيام أبيه ، ولي الأمر بعد أبيه ، ولقب بالحاجب مثله ، وان له أكثر ملوك الأندلس ، كان يطرب للشعر فقرب الشعراء ، وجمع له ديوان شعر ، توفي في اشبيلية سنة ١٠٦٩ م (الموسوعة العربية الميسرة لمحمد غربال : ٢ / ١٧١٨)

(٢) المعتصم هو الخليفة العباسي ، وابن أبي داود هو أبو عبيد الله أحمد بن ابي دواد الايادي القاضي ، أصله من قنسرين ، ونشأ بالشام وبها طلب العلم من فقه وكلام ، ثم ذهب الى بغداد ونال مكانة سامية عند المأمون والمعتصم والواثق ، واعتنق الاعتزال وناصر أصحابه وقال بخلق القرآن ، وتولى المظالم والقضاء ، وكان ذا مروءة وعصبية للعرب فصيح اللسان توفي سنة ٢٤٠ ترجمته في (تاريخ بغداد ٤ / ١٤٠) و (طبقات المعتزلة : ٦٢) و ، وفيات الأعيان ١ / ٨١) و (الجواهر المضيئة ١ / ٥٦)

(٣) الرند : شجر طيب الرائحة ، والعود والآس ايضا . (القاموس المحيط : ٣٦٢)

(٤) وجم : خائف (القاموس المحيط : ١٠٠٥

يلمّ بها فتضعه بين أجفانها ، وتودعه أحاديث آذارها ونيسانها ، وبين يديه فتى من فتيانه يتثنى تثنى القضيب ، ويجيل الكأس في راحة أبهى من الكف الخضيب وقد توشح فكأن الثريا وشاحه ، وأنار كأن الصبح من محيّاه اتضاحه .

ومنه قوله :

والغصون تختال في أرواحها ، وتتثنى في كف أرواحها ، وآثار الروض قد أشرقت كثكالى تحن على خرابها وانقراض اطرابها (١) ، وقد تلين الحديد ، ويبلى على ذائه الجديد .

ومنه قوله :

وبرز الظافر (٢) منفردا من كماته ، عاريا من حماته وسيفه في يمينه ، وهاديه في الظلماء نور جبينه ، فانه كان غلاما كما بلّله الشباب بأندائه ، وألحفه الحسن بردائه ، فدافعهم أكثر ليله ، وقد منع منهم بلاحق رجله وخيله حتى أمكنهم فيه غرّة ، وسقطت به عثرة ، فمرّ عنه أحد أئمة الجامع المغلّسين فرآه وقد ذهب ماكان عليه ومضى ، وهو أعرى من الحسام المنتضى ، فسبخلع رداءه منكبيه ونضاه ، وستره به سترا أقنع المجد به وأرضاه ، وأصبح لا يعلم ربّ تلك الصنيعة ، ولا يعرف فتشكر له يده الرفيعة ، ولماكان من الغد حزّ رأسه ، ورفع على رمح وهو يشرق كنار على علم ، ويرشق صدر كلّ ناظر بألم ، فلما رمقته الأبصار ، وتحققته الحماة والأنصار ، رموا أسلحتهم ، وسووا للفرار أجنحتهم .

=:=

(١) أطرابها : نقاوة الرياحين . (القاموس المحيط : ١٤٠)
(٢) هو الظافر بن المعتمد بن عباد ، ملك قرطبة لأبيه من بني جهور في سنة ٤٦١ ، الى ان ثار عليه فيها حريز بن عكاشة وقتله .

وانظر (النفح ١ / ٦٢٦)

ومنه قوله :

ولما ثلّ (١)عرش الخلافة وهوى نجمها ،وهى ركن الأمانه وطمس رسمها ،وصار الملك دعوى ،وعادت العافية بلوى ،استنسر البغاث (٢) وصحّت الأضغاث ،واستأسد الظبي في كناسه (٣) ،وثار كلّ واحد في ناسه ،وخلت المنابر من رقاتها وفقدت الجمع مقيم أوقاتها ،وكان باديس (٤) بغرناطة قدحجب سنانه لسانه ، وسبقت اساءته احسانه ،لا يرام بريث ولاعجل ،ولا يبيت له جار (الا) (٥)على وجل ،وأمره أضيع من مصباح الصّباح ، وهمّه في غبوق (٦) واصطباح (٧) ، وبلاده مراد للفاتك ،وستره في يد الهاتك ، فسقط الخبر على المعتضد ملقح الحرب ،ومنتج الطعن والضرب ،الذى صاد الطير تحت أجنحة العقبان ،وأخذ الفريسة من فم الثعبان ،فسدّد الى مالقة (٨) سهمه وسنانه وردّ اليها طرفه وبنانه ،ووجه اليها جيشه المتزاحم الأفواج ،المتلاطم الأمواج ، وعليه ابنه المعتمد سمام الأعادي ،وحمام الأسد العادي ،وطيّروا الى باديس

=:=

(١) فى الأصل : ولماترى! وهوخطأ ،والصّواب ماأثبت وثلّ سقط وهلك (القاموس المحيط :١٢٥٧)
(٢) استنسرالبغاث: البغاث،طائرأغبر،(والبغاث بأرضنا يستنسر) ،أى : من جاورناعزّبنا .
(القاموس المحيط : ٦٢٠)
(٣) كناس: مكان مستتره في الشجر،لأنه يكنس الرمل حتى يصل .
(القاموس المحيط : ٧٣٦)
(٤) هوباديس بن حبّوس بن ماكن بن زيرى بن مناد الصنهاجى ،لقبه الحاجب المظفربالله الناصر لدين الله ، كان من الطغاة الجبابرة ،وكان يخطب للعلويين ويدعولهم بمالقة انظر(الاحاطة ١/ ٤٣٥-٤٤٣) .
(٥) مابين الحاصرتين سقط من الأصل ،واستدركته .
(٦) غبوق : مايشرب بالعشي . (القاموس المحيط : ١١٨٠)
(٧) اصطباح : مايشرب بالصبح (القاموس المحيط : ٢٩١)
(٨) مالقة : مدينة بالأندلس،على شاطئ البحرين الجزيرة الخضراء والمرية .
(الروض المعطار: ٥١٧) و(وصف جزيرة الاندلس: ١٧٧) .

خبرا أصحاه من نسوته ، ونحّاه عن صبوته ،فأخرج كتيبة وعليها ابن اللبّانة (١) قائد جنده ومورِي زنده ،وكان أشار على المعتمد برابرة بالتنفيس (٢) عن الممتنعين ، فعدل عن انتهاز فرصتهم ،وابراء غصّتهم الى الاستراحة من تعبه ،والا ناخة على لهوه ولعبه فماأمسى الا وقد غشيه ليلها ،وسال عليه سيلها فخاب سعيه وفال رايه ،ونجا برأس طمّرة (٣) ولجام ،وأوى الى أحد المعاقل أعرى من الحسام .

ومنه قوله :

وعندما سقط الخبر عليه خرج حاسرا من مفاضته ،جامحا كالمهر قبل رياضته ،وفي يده سيفه يتلمظ الطّلى والهام (٤) ،ويعدبإفراج ذلك الاستبهام ثم انصرف وقد أراح نفسه وشفاها ،وأبعد عنها الملامة ونفاها .

ومنه قوله :

وكان أشهر ملوك أوانه خيرا ،وأيمنهم طيرا ،واشتغل بمعاطاة،ولا توغّل (في) (٥) شعب نداماه .

=:=

(١) في الأصل : اللبانة ،وماأثبتناه من القلائد . وابن اللبّانة هو محمد بن عيسى بن محمد اللخمي ، الداني الأندلسي ،المشهور بابن اللبّانة (أبو بكر) اديب شاعر ،اخباري توفي سنة ٥٠٧هـ بميروقة . من آثاره (مناقل الفتنة) و(نظام السلوك في وعظ الملوك) .
انظر (سير أعلام النبلاء للذهبي : ٨٨/١٢) و(كشف الظنون لحاجي خليفة : ٩٩٣) و(ايضاح المكنون للبغدادي : ١/ ٩٨)

(٢) في الأصل : وكان أشار على المعتمد برابين بالتقيس! وهو خطأ ،والتصويب من القلائد ، والتنفيس : هو التفريج . (القاموس المحيط : ٧٤٥)

(٣) طمرة كناية عن الفرس طويل القوائم الخفيف أو المستعد للعدو (القاموس المحيط : ٥٥٤)

(٤) الطّلى : الأعناق ،والهام : الرؤوس . (القاموس المحيط : ١٦٨٦، ١٥١٣)

(٥) في الأصل : ولا ترغل شعب نداماه : وهو خطأ والصواب ما أثبت .

ومنه قوله :

ولما أحس بهم المأمون (١) خرج بعدد قليل ،وحد فليل، وقد رتّبت له بطريقه رصائد ،ونصبت له فيها مصائد علق فيها زمامه ،ورشق اليه منها حمامه ،فانقضّوا عليه انقضاض الجارح ،وانصبّوا عليه انصباب الطير الى المسارح، فقطع رأسه وحيز ،وخيض به النهر وجيز ،ثم انتقلوا الى رنده (٢) أحد معاقل الأندلس الممتنعة ،وقواعدها السامية المرتفعة ،تطّرد منها على بعد مرتقاها، ودنوّ النجم من ذراها ، عيون لانصبابها (٣) دوى كالرّعد القاصف، أو الرياح العواصف ،ثم تتكوّن واديا يتلوى بجريانه التواء الشجاع ،ويزيدها في التوعّر والامتناع وقد تجوّنت نواحيها وأقطارها ،وتكوّنت فيها لباناتها وأوطارها ،فلا يتعذّر لها مطلب ، ولا يتصور فيها عدوّ الا علقه ناب أو مخلب .

ومنه قوله :

ومازالت عقارب تلك الداخلة تدبّ ،ورياحها العاصفة تهبّ ،حتى دخل البلد من واديه ،وبدت من المكروه بواديه ،وهو ملق بين جواريه ،مفتر بوادع ملكه وعواريه .

ولما انتشر الداخلون في البلد ،وأوهنوا عرى القوى والجلد ،خرج والموت يتسعّر في الحاظه ويتضوّر من ألفاظه ،فلقيهم برحبة القصر، وقد ضاق بهم فضاؤها ،وتضعضعت من رجّتهم أعضاؤها ،فحمل فيهم حملة صيّرتهم فرقا ،

:=

(١) المأمون المقصود هنا هو عبّاد ويكنى أبا الفتح وأبا النصر أكبر أولاد المعتمد بن عباد ،ولاّه أبوه قرطبة حينما استولى عليها ثانية سنة (٤٧١) ،ولقبه المأمون ، وقتلته لمتونة بقرطبة ، وانظر القلائد ١/ ٨٤-٨٥ .

(٢) رندة: بضم أوله وسكون ثانية ،معقل حصين بالأندلس من أعمال تاكرنّا ،وهي مدينة قديمة بين إشبيلية ومالقة. (معجم البلدان: ٣/ ٧٣)

(٣) في الأصل: لا بستانها!! وهو خطأ ،والتصويب من القلائد .

وملأتهم فرقا ، ثم والى عليهم الكرّ ،حتى أوردهم النّهر ، ومابهم جواد ،وأودعهم حشاه كأنّهم له فؤاد ،وعاد الى قصره وقد عزم على أفظع أمر ،وقال بهيدي لا بيد عمرو ، ثم جمع هو وأهله وحطتهم الجواري المنشأت ،وضمّتهم جوانحها كأنهم أموات ،فساروا والنّوح يحدوهم ،والبوح باللّوعة لا يعدوهم.

وأوّل عيد أخذه بأغمات (١) وهو سارح ،وماغير الشجون له مسارح (٢) دخل عليه (من بنيه) (٣) من يسلّم عليه ويهنّيه ،وفيهم بناته وعليهنّ أطمار (٤) ، كأنهنّ كسوف وهنّ أقمار ،وأقدامهنّ حافية ،وآثار نعمتهنّ عافية ، وأقام بالعدوة برهة لا يروّع له سرب وان لم يكن آمنا ،ولا يثور له كرب ،وان كان في ضلوعه كامنا ، الى أن ثار أحد بنيه بأركش (٥) ،معقل كان مجاورا لاشبيلية مجاورة الأنامل للرّاح ظاهرا على بسائط وبطاح ،لا يمكن معه عيش ،ولا يتمكّن من منازلته (٦) جيش ، فسار نحوه سير بن أبي بكر ،فوجده وشرّه قد تشمّر ،وضرّه (٧) قد تنمّر ،وجمره متسعّر ،وأمره متوعّر ،فنزل عدوته ،وحلّ للخرم حبوته (٨) ، وتدارك داءه قبل إعضاله ،ونازله وماأعدّ آلات نضاله ،فبقي محصورا لا يشدّ له الا سهم ،ولا ينفذ له الّا نفس أو وهم ، وتماسك شهـــــــــــــــــــــــــــــورا

=:=

(١) أغمات: ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش وهي مدينتان متقاربتان ومن ورائهما الى جهة البحر المحيط السوس الأقصى (معجم البلدان : ١/ ٢٢٥)

(٢) في الأصل : وماغيرت الشجون ا وهوخطأ ،والتصويب من القلائد .

(٣) مابين الحاصرتين سقط من الأصل ،وا ستدركته من القلائد .

(٤) أطمار مفرده طمر ، وهو الثوب الخلق ، أو الكساء البالي من غير الصّوف . (القاموس المحيط : ٥٤٤)

(٥) أركش: معقل من معاقل الاندلس، من أعمال اشبيلية (انظر المغرب : ١/ ٣١٥)

(٦) في الأصل : منازلته ،وأثبت مافي القلائد .

(٧) في الأصل : وضوء قد تنمّر وهوخطأ ،والصواب ماأثبت .

(٨) حبوته : العطاء بلا جزاء ولا منّ (القاموس المحيط : ١٦٤٢)

حتى غرّضه (١) أحد الرّماه ،فرماه فأصماه ، فهوى من مطلعه ، فخرّقتيلا فــي موضـــعه .

وبقى أهله ممتنعين حتى اشتدّ عليهم الحصر ،وارتدّ عنهم النّصــر، وعمّهم الجوع ،وأعيت أجفانهم لعدم الرجوع ،فنزلت منهم طائفة متهافتة، وولّت بأنفاس متخافتة ،فتبعهم من بقى ورغب في التّنعّم من شقي ، فوصلــــوا الى (قبضة) (٢) الملمات ،وحصلوا في غصّة الممات ،ولمّا زأر الشّبل خيفــــت صولة الأسد (٣) ،ولم يرج صلاح الكلّ والبعض قد فسد .

فاعتقل المعتمد خلال تلك الحال وأثنائها ،وأحلّ ساحة الخطوب وفناءها ، فماكان الا بمقدار ماتنداح دائرة ،أوتلتفت مقلة حائرة ،حتى قال : قلت : شــــم أنشد الفتح ما قال .

ومنه قوله :

ملك تفرّع من دوحة سناء ، (أصلها ثابت وفرعها في السّماء) (٤) وكلف بالعلم حتى صار ملهج لسانه ،وروضة أجفانه ،لايستريح منه الا الى متن سائل الغرّة، ميمون الأسرّة ،يسابق به الرّياح ، ويحاسن بغرّته البدر اللّياح ،عريق في السّناء ،عتيق الاقتناء ،سريع الوخد والارقال (٥) ،من آل أعوج (٦)

=:=:=:=:=:=:=:==:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) في الأصل : حتى عرض له أحد لمرماه ،والتصويب من القلائد .

(٢) مابين الحاصرتين سقط من الأصل ،واستد ركته .

(٣) في الأصل : ولمازال السهل خفت صولة الأسد ! ،تحريف ،والصواب ماأثبت

(٤) في الأصل : اسمها وفرعها في السما ،والصواب ماأثبت سورة ابرهيم : الآية ٢٤ .

(٥) الارقال : أرقل والفعل أرقل : أرقل الوالحرب إرقالا : اسرع . (لسان العرب : ١/٢٩٣)

(٦) أعوج : اسم فرس كان لبني هلال تنسب اليه الاعوجيات وبنات أعوج .
(القاموس المحيط : ٢٥٤)

أو لذى العقّال (١) .

إلى أن ولاّه أبوه الجزيرة الخضراء (٢) ،وضم اليها رندة ،فانتقل من متن الجود ،الى ذروة الأعواد ،وما زال يدرّرها بجوده ونهاه ،ويورد الآمـــل فيها مناه ،حتى غدت عراقا ،وامتلأت اشراقا ،الى أن اتّفق في الجزيرة ما اتفـق ، فانتقل الى رندة معقل أشب ،ومنزل الى السّماك منتسب ،حتى رمته سهام الخطوب عن قسيّها ،وأمكنت منه يد مسيّها ، فحواه رمسه ،وطواه عن غده أمسه .

ومنه قوله :

وقصر الشراحيب (٣) هذا مثناه في البهاء والاشراق ،مباه لزوراء (٤) العراق ،وكان يعتدها مجنى (٥) آماله ، ومنتهى أعماله ،الى التفاف خمائلها ، وتقلدها لنهرها فكان حمائلها .

==:=+:+:+:+:+

(١) ذو العقّال : فحل من خيول العرب ينسب اليه ،وهي المشدودة بالعقال .

(لسان العرب : ١١/٤٥٩)

(٢) الجزيرة الخضراء : مدينة مشهورة بالأندلس وأعمالها متصلة بأعمال شذونة ،وهي شرقـي شذونة وقبلي قرطبة ،وينسب اليها جماعة من أهل العلم .

(معجم البلدان ٢/١٣٦)

(٣) قصر الشراحيب : هو قصر واقع في مدينة شلب قاعدة ولاية الغرب في الأندلس

(معجم البلدان : ٣/٣٥٨)

(٤) زوراء : مدينة ببغداد في الجانب الشرقي ،سميت الزوراء لازورار في قبلتها ،وقال غير الأزهري : الزوراء مدينة أبي جعفر المنصور ،وهي في الجانب الغربي ،ولما عمرها جعل الأبواب الداخلة مزورة عن الأبواب الخارجة أي ليست على سمتها وفيها يقول بعضهم :

ودّ أهل الزوراء فـــلا تغترر بالوداد من ساكنيهـــا
هي دار السلام حسب فـلا يطمع منها بغير ما قيل فيهـــا

(معجم البلدان : ٣/١٥٦)

(٥) في الأصل : تحت آماله !! خطأ ، والتصويب من القلائد .

ومنه قوله :

في يوم جادت فيه السّماء بهطلها ، وأتبعت (١) وبلها بطلّهـــا وأعقب رعدها برقها ،وانسكب دراكا ودقها ، والأزهار قد تجلّت من أكمامهـــا وتحلّت بدرّ غمامها ،والأشجار قد جلي صداها ،وتوشّحت بنداها ،وأكوس الرّاح كأنها كوكب يتوقّد ،تديرها أنامل تكاد من اللّطافة تعقد .

ومنه قولـه :

ولما وصل باديس (٢) الى قرمونة (٣) ،أخرج اليه المعتضد (٤) جيشـــه يقدمه ابنه الظافر، ويقوده منه أسودا في المغافر (٥) ،فلما التقى الجمعان ،حمل فيهم عسكر المعتضد حملة خلعتهم عن مركزهم ،وأدالتهم بالذلّ من تعززهم، فتفرقوا في تلك البسائط والرّبى ،وشرقوا بسقيا الأسنّة والظّبى ،وأوقع بهم الظافر أحســـن ايقاع ،وتركهم مصرّعين في تلك البقاع ، وانصرف الى اشبيلية (٦) وألويته تختـــال

=:=

(١) في الأصل : وأيقنت! وهوخطأ ،والصواب ماأثبت .

(٢) باديس: لقب بالمظفر، ملك غرناطة من بني زيرى ، وطّد سلطانه بقتل مناوئيه ، شنّ الحرب على العباسيين في اشبيلية ، من أجل امتلاك الأندلس فاستولى على قومونة سنة ١٠٦٧م ازدهرت غرناطة في أيامه (الموسوعة العربية الميسرة : ١/ ٣٠١) .

(٣) قرمونة : مدنية بالأندلس في الشرق من اشبيلية ،وهي مدينة كبيرة قديمة ،أنظر صفة جزيرة الأندلس: ٥٨ : وقرمونة يتصل عملها بعمل اشبيلية غربي غرناطة وشرقي اشبيلية وهـــي قديمة البنيان. . ،أنظر (المغرب ١/ ٢٩٩) .

(٤) هو أبو عمرو عبّاد بن محمد اللخمي ،أفضى اليه الأمر سنة ٤٣٣ ،وتسمى أولا بفخر الدولة ، ثم بالمعتضد " قطب رحى الفتنة ومنتهى غاية المحنة" وهو ملك اشبيلية وزعيم أمراء الأندلس في وقته ،ترجمته في (الذخيرة ٢ / ١ / ٢٣ ومابعدها و (القلائد ١/ ٥٥) و (المطرب: ١٢ (الحلة السيراء : ٢/ ٣٩ ومابعدها)

(٥) المغافر: ج مغفر، وهو زرد من الدرع ، يلبس تحت القلنسوة (القاموس المحيط: ٥٨٠)

(٦) اشبيلية : بالكسر ثم السكون : مدينة كبيرة بالأندلس تسمى حمص أيضا ، وهي غربي قرطبـــة ، تقع على الوادي الكبير وهي قريبة من البحر ، وبها كان بنو عباد .

(انظر (معجم البلدان ١/ ١٩٥) .

في أكف الرياح ، وذوابله تكاد تنقصف من الارتياح .

ومنه قوله :

في عشية تجود بذمائها (١) ، ويصوب عليها دمع سمائها ، والبطحاء قد خلع عليها سندسها ، ودفرها (٢) نرجسها ، والشمس تنفض على الربا زعفرانها ، والأنوار تغمض أجفانها (ومنه قوله) (٣) قد أرهقته الرزايا والحت ، وهمت عليه سحائبها وسحت ، فأكثر التشكي من زمنه ، وأظهر جوى محنه ، وأصبح يبدى الضجر (و) يكاد يبكي الحجر .

ومنه قوله :

حضر مع المأمون بن ذى النون في مجلس الناعورة بالمنية (٤) التى يطمح اليها المنى ، ومرآها المقترح والمتمنى ، والمأمون قد احتبى وأفاض الحباء ، والمجلس يروق كأن الشمس في أفقه ، والبدر في مفرقه ، والنور عبق ، وعلى النهر مصطبح (٥) ومغتبق (٦) ، والجو قد عنبرته أنواؤه ، والروض قد رشته أنداؤه ، والأسد قد فغرت أفواهها ، ومجت أمواهها .

ومنه قوله :

جاءت به الدنيا ، كماشاءت العليا ، وقار كان به تثبت الأرض ومقدار كان

---

(١) في الأصل : في عيشه يجود بدمائها ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبت . وذماء : بقية الحياة (معجم عبد النور المفصل ١ / ٨٩٥)

(٢) دثرها : جعلها متلألئة (القاموس المحيط : ٥٠٣)

(٣) سقطت من الأصل فاختلطت العبارة .

(٤) المنية : هناك عدد الأمكنة باسم المنية ، منية الأصبغ ومنية ابن الخصيب ومنية بولاق ومنية الزجاج ومنية زفتا ومنية القائد ومنية قوص . وكلها في مصر (معجم البلدان ٥ / ٢١٨)

(٥) مصطبح : الشراب في الصباح (القاموس المحيط : ٢٩١)

(٦) مغتبق : الشراب في العشاء (القاموس المحيط : ١١٨٠)

له النافلة في الخلافة والمغرض ،وغدت به العلوم وقد سهّل صعبها ،وسلك شعبها ،رثم مضى فسدّ الدهر مطلعه ،وضم عليه القبر أضلعه .

ومنه قوله :

اذا عقد حباه أطرق الدهر توقيرا ،وخلته من تهيّبه أسيرا ،لم يستتر الابشمسه ، ولم يستشر في رأيه غير نفسه (١) ،والمهابة تخدم لحظته والاصابة تقدم لفظته ،كأن الحميّا تثنى بشاشته وتخفيه ،وكأن الخلق قد جمعوا فيه .

ومنه قوله :

وقار كراسي الهضب وأدب كما اضطرد السّلسل العذب ،وشيم تتضاءل لها قطع الرياض ،ويبادر الظن به الى شريف الأعراض ،إلا من التعب في السّودد جاهدا ،حتى تناول الكواكب قاعدا .

ومنه قوله :

ومررنا في احدى نزهاتنا بمكان مقفر ،وعن المحاس مسفر ، وفيه تكرير نرجس كأنها عيون مراض (٢) ،يسيل وسطه ماء رضراض (٣) ،بحيث لاحسّ الا للهام، ولا أنس الا مايتعرّض للأوهام .

ومنه قوله :

شرف باذخ تعقل بالنجوم ذوائبه ،وتخدفي مفرق الشمس ركائبه استفتحت الأندلس وقومه أصحاب رايات ،وأرباب آماد في السبق وغايات واستوطنوها فعدّوا

(١) مأخوذ من قول سعد بن ناشب حين هدم بيته هلال (وهوابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعرى :
ولم يستشرفي رأيه غيرنفسه ولم يرض الاقائم السيف صاحبا
حماسة أبي تمام بشرح التبريزى ١/ ٣٥

(٢) مراض: فاترة (القاموس المحيط ٣: ٨٤٣)

(٣) الرّضراض: القطرمن المطر ،وأراد الماء الجارى (القاموس : ٨٢٩)

بحور مواهبها ، وبدور غياهبها ، وجاء أبوالحسن آخرهم ، فجدّد مفاخرهم ، فيم ذا أصفه وقدبهر ، وبدا فضله كالصبح اذا اشتهر ، ولكني أقول تفخر به الدنيا وتنزهي ، وهو للعلياء سماك وسهى .

ومنه قوله :

فحملنا الى احدى ضياعه بقرية بقرب من حضرة غرناطة (١) ، فرش بهـا على الزمرّد (٢) بساطة ، فحللنا قرية على ضفة نهر ، أحسن من شاذ مهر ، تشقّها جداول كالصلال ، ولا ترمقها الشمس من تكاثف الظلال .

ومنه قوله :

وعلق منه أحد فتيانها وأنجد أعيانها ، وكان أجمل من جال في خلـد واستطال على جلد (٣) ، وهام به هيام الأحوص بدعد (٤) ، والراعي بهند (٥) بني

=:=

(١) غرناطة ، بفتح أوله وسكون ثانيه من اشهر بلدان الأندلس ، في أقصى الجنوب وفيها المرج الطويل ويخترقها نهر شنيل ، ومن أعمالها لوشة ووادي آش ، ومعنى غرناطة : رمّانة بلسان العجم ، وانظر معجم البلدان ٤ / ١٩٥ ونفح الطيب ١ / ١٤٧ وبعدها .

(٢) الزمرد : يقال بالذال المعجمة والمهملة ؛ قال بلينوس : والزمرد ابتدأ لينعقد ياقوتا ، وكان لونه أحمر الا أنه لشدة تكاثف الحمرة بعضها على بعض عرض له السواد ، وامتزجت الحمرة والسواد فصار لونه اخضر ، ومعدنه الذى يتكون منه في التخوم بين بلاد مصر والسود ان خلف اسوان من بلاد الديار المصرية . (الموسوعة العربية الميسرة : ١ / ٩٢٦ و ٩٢٧)

(٣) في الأصل : وكان أحمد من حال ، خطأ والصواب ما أثبت ، وعبارة : واستطال : ليست في القلائد

(٤) في الأصل : هيام الأندعد !! خطأ ، والصواب ما أثبت ، والأحوص هو الأحوص بن محمد بن عاصم شاعر اشتهر بالتشبيب ، كان موطنه المدينة ، وتغزل بنساء بعض الأشراف فيهـا فنفي الى دهلك في زمن عمر بن عبد العزيز ، ثم عفا عنه يزيد بن عبد الملك ، و توفي سنة ١١٠ ، ترجمته في الشعر والشعراء : ٥١٨ ، وفوات الوفيات : ٢ / ٢١٧ والموشح : ١٤٤ ، ودعد هي محبوبته .

(٥) الراعي : هو حصين بن معاوية النميري ، وانما قيل له الراعي لوصفه راعي الابل في قصائده ، وهجاه جرير ، وهو الذى فيه يقول : فغضّ الطّرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وانظر ترجمته في الشعر والشعراء : ٤١٥ .

سعد (١)، وكان الفتى ينافر وصله ويطرد في مباعدته أصله ،الى أن أطلّ شعر عارضه ،ودلّ لمعارضه ،فعاد الى مساعدته واستعاد بدنوّه من مباعدته .

ومنه قوله :

ولماتراءى الانفصال ،خاف الانتهاب والاستئصال ،فأراد أن يكتم ذلك الفرار ،وطوى إعلانه في الاسرار ،وخشي أن يفطن لخروجه ،ويطّلع عليه من خلال فروجه ،فعزم على مواعدة بعض الاخوان ،ومطالعته في ذلك الخوّان .

ومنه قوله :

وهواليوم بدر هذه الافاق ،وموقف الاختلاف والاتفاق ،جرى في ميدان الطب الى منتهاه ،وتصرّف في سماكه وسهاه ،وله تصانيف في الحكم ألّف منها ماألّف وتقدّم فيها وما تخلّف .

فهذان أديبا ذلك الصّقع ،وربيبا ذلك الصّنع ،فاقا في تدوينهما المحاسن ،وترتيبهما الأقمار للمحاسن .

فأما من فتح الفتح بن خاقان باب ذكرهم ،ومنح لباب شكرهم ، فسنورد منهم ماتبل به تلك العظام ،وتحل عقود الغمام على أولئك العظام ، فنحيين لهم النّشور ،ونباكر سقيا الرّحمة بصيّب تلك القبور .

وهاأنا آتي بجماعة ممن ذكر من الكتّاب ممن لا يجوز بهم الاخلال ،ولا يجول معهم سابق في كرم الخلال ،وسأدّعي لكل واحد ،ماأتى عليهمن الفتح بشاهد ماله جاحد .

=:=

(١) هند بني سعد بن زيد بن مناة بن تميم ،وقد شبب بها الراعي وسمّاها أيضا ليلى . فيقول :

أرى أهل ليلى لا يبالي أميرهم — على حالة المحزون أن يتصدعا

(طبقات فحول الشعراء ٣/ ٥٠٤) .

المتوكل

ابو محمد عمر بن المظفر

فمنهم : المتوكل أبومحمدعمر بن المظفّر (١)، وهوملك دخل في قسم الكتّاب ،لعنايته بالآداب ،بكلم مالها قيم يتهالك لها الزهر، و تتضاءل الشموس في وقت الظهر ،هو السّحر المأثور ،واللؤلؤ المنثور،يمتهن به ومايخرج من أشباهه نحورها ،وتهيم له الغواني الاماتحسبه في المراشف ثغورها .

و وصفه الفتح فقال: ملك جنّد الكتائب والجنود ،وعقد الألوية والبنود، وأمر الأيام فائتمرت (٢) ،وطافت بكعبته الآمال واعتمرت ،ثم قال :

الى نظام يزرى بالدّر النظيم ،ونثر تسري رقّته سرى النّسيم .

ومن نثره قوله :

ولما أتاني ثناؤه عليك بالغيب أرسالا ،كأنما هبّ صبا (٣)وشمالا (٤)

=:=

(١)المتوكل بن المظفربن المنصور ،أبومحمد ،عمربن محمدبن عبد الله بن بن سلمة التّجيبي بن الأفطس ،كان رجلا عظيم الشأن شجاعاذ احسب،وكان أبوه المظفربالله عالمالم يخضع للمرابطين ولا أقبل على غيرالمدافعة ،فقبض عليه وقتل هووابناه الفضل والعباس صبرا . (الحلة: ٢/ ٩٦-١٠٧ ،وفيات الأعيان : ٧/ ١٢٣ ،القلائد : ١/ ١٢٠)

(٢)في الأصل: فاغتمرت ،وهوخطأ ،والصواب ماأثبت .

(٣)الصبا :ريح معروفة تقابل الدبور. الصحاح :الصّاريح ومهبها المستوي أن تهب من موضع مطلع الشمس اذا استوى الليل والنهار. (اللسان : ١٤/ ٤٥١)

(٤)الشمال : جمع شمائل وبالكسرالرّيح التي تهب من قبل الحجر،أو مااستقبلك عن يمينك وأنت مستقبل والصحيح أنه ماميهبّه بين مطلع الشمس و بنات نعش .

(القاموس المحيط : ٨/ ١٣١٨)

لزمني أن أعلم بمكانه من الانقطاع الى جانبك ،والتحيّز الى فئتك ،وأن أشفع لـه شفاعة حسنة أدرك معها لديك كريم الشفيع ،ويحوز بها منك شرف الصنيـع ، وهي منّة طوّقته ايّاها ،وأطلعته بريّاها ،ويعيذ بالله مجدك أن يكون ماوهبت مرتجعا ،وما أوليت منتزعا .

ومنه قوله :

في عهد كتبه بولاية أشبونة (١) ، وقد أتته طاعتها : لم يسوّغ أبنـاء النعم مثل الذى سوّغتموه من التزام (٢) الطاعة ،والدخول في نهج الجماعة ، ولذلك لاآلوكم ونفسي فيكم نصحا ، فيمن أتخيّره (٣) للنيابة عني في تدبيركـم ، والقيام بالدقيق والجليل من أموركم ،قد ولّيت عليكم من لم أوثر والله (٤) فيـه دواعي التقريب على بواعث التجريب ،وهوالوزير القائد أبوعبدالله بن حبرة (٥) ابني دربة وبعض صحبة (٦) ، وقد رسمت له من وجوه الآب والحماية ،ومعالـم الرفق والرعاية ،ماالتزم الاستيفاء لحدّه ،والوقوف عند حدّه (٧) ،والمسئول (٨) في عونه لمن لاعون الامن عنده ،ولن أعرّفكم من حميد خصاله (٩) ،وسديد فعاله الابما سيبدو للعيان ،ويزكو مع الامتحان ،ويرفع (١٠) من قبلكم على كل لسان .

=:==:=:=:=:=

(١) أشبونة: مدينة بالأندلس، ويقال لها الشبونة وهي متصلة بشنترين تقع على ساحل البحر المحيط ملكها الافرنج في سنة ٥٧٣ ، وهى اليوم قاعدة بلاد البرتغال (معجم البلدان : ١/١٩١)

(٢) في الأصل الزام وهوخطأ ،والصواب ماأثبت ،وانظر القلائد ١٤٣/١ .

(٣) في الأصل : فمن اختبره ،وهوخطأ ،والتصويب من القلائد .

(٤) في الأصل : لم أوثرالله ! والتصويب من القلائد .

(٥) في الأصل : أبوعبدالله بن حبرة ،وهوخطأ ،والصواب ماأثبت .

(٦) في القلائد تتمة: ونشأتي شبكة وقربة .

(٧) في القلائد : ماالتزم الاستيفاء لحدّه ،والوقوف بجدّه عند جهده .

(٨) في الأصل : والمسلول : خطأ .

(٩) في الأصل : ولن أعرفكم الاّ من حميد خصاله ،خطأ ،والصواب ماأثبت .

(١٠) في القلائد يفشـو .

قلت : ومنه توقيع سنذكره ، ونجلّ قدره ونشكره .

قال الفتح : أخبرني الوزير أبو بكر بن القبطرنة (١) ، أنه كان يساير المتوكل ، اذ جاءه خبر بخروج أحد أهل يابرة (٢) فارا عن ابنه العباس ولحاقه بالمعتمد على الله ، فبينا هو يردد الوعيد ، ويبدئ في ذلك ويعيد ، اذ بكتاب العباس قد وافاه ، يقسم أنه ماأخرجه ولا نفاه ، ولا حمله على ذلك الا البطر ، وانه كان له في ذلك أرب ووطر ، وكانت له حاجة في نفسه قضاها (٣) ، وإرادة (٤) أنفذها وأمضاها ، فوقّع له على رقعته :

قبولك لتنصّلك من ذنوبك موجب لجراءتك عليها ، وعودتك اليها واتصل لي ماكان من خروج فلان عنك ، ولم تتثبّت في أمره ، ولا تحققت صحيح خبره ، حتى فرّ عن أهله ووطنه ، والعجلة من النقصان ، ولن يحمد قبل النّضج بحران (٥) ، وهذا الذى أوجبه (٦) اعجابك بأمرك وانفرادك برأيك ، ومتى لم ترجع الى ما وعدت به من نفسك وصدّرت به كتبك ، فأنا والله أريح نفسي من شغبك ،

=:=

(١) هو أبو بكر بن القبطرنة واسمه عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز ، وهو أحد ثلاثة أخوة من أسرة جلالة وبيت أصالة ، وأبو بكر هذا كتب للمتوكل بن الأفطس ولابن تاشفين ، وتوفي بعد ٥٢٠ ، ترجمته في الذخيرة ٢/٣/٧٥٣ ، والتكملة : ٦٢٤ ، والمغرب ١/٣٦٧ ، والمطرب : ١٧٦ ، والاحاطة : (١/٥٣٨)

(٢) يابرة : بلد في غربي الأندلس ، ينسب اليها أبو بكر عبد الله بن طلحة بن محمد اليابري الأندلسي ، سمع الحديث ورواه ، وكان عالما بالأدب واللغة (معجم البلدان : ٥/٤٢٤)

(٣) اشارة الى قوله تعالى ((وكانت له حاجة في نفس يعقوب قضاها)) يوسف : آية ٦٨)

(٤) في الأصل : ووارده خطأ والتصويب من القلائد .

(٥) البحران : (بضم الباء) : المريض ، المولّد (القاموس المحيط : ٤٤٢)

(٦) في الأصل : وهو الذي أعجبه ، وهو خطأ .

وإن تكن الأخرى فهو لك الحظ الآوفر (١) ، فاختر لنفسك ماترى ، والسلام .

(١) في القلائد : الأوفى .

أَبُو عُمَرَ البَاجِيُّ

ومنهم : أبوعمر الباجي (١) : بديعه غريب ، وبعيده قريب ، كلّه جدل ، وجد لا هزل ، مع أنه للأوام (٢) ينقع ، وفي القلوب يقع ، أقصد من السهام ، وأسرع من التصوّر للأوهام

قال فيه الفتح : بحر لا يمتطى ثبجه ، ولا تخاض لججه ، يقذف لسانه اللؤلؤ المكنون ، ويصرّف من بديعه الأنواع والفنون .

ومن نثره قوله :

ان لله تعالى قضايا واقعة بالعدل ، وعطايا جامعة للفضل ، ومنحا يبسطها اذا شاء ترفيها وانعاما ، وعلى آخرين فسادا وانتقاما ، (وهو الذى ينزّل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الولىّ الحميد) (٣) وإنه بعد ماكان من امساك الحيا وتوقف السّقيا الذي رتع به الآمن ، واستطير له الساكن ، ورجفت له الأكباد فزعا ، وذهلت الألباب فزعا ، وأذكت ذكاء حرّها ، ومنعت السّماء درّها فكادت برود الأرض تطوى ، ومدود نعمها تزوى ، نشر الله رحمته ، وبسط نعمته وأتاح (٤) منّته ، وأزاح محنته ، فبعث الرياح لواقح ، وأرسل الغمام سوافح بماء دفق ، ورواء غدق ، من سماء طبق استهلّ جفنها فدمع (٥) من نباتها أثاثا

=:=

(١) أبوعمر الباجي : هو يوسف بن جعفر الباجي رحل الى المشرق وحج وولي القضاء في حلب وعاد الى الأندلس ، فجلّ قدره عند المقتدر بن هود ، وهو غير القاضي أبي الوليد الباجي المتوفى سنة ٤٧٤هـ ، وانظر ترجمته في القلائد : ١/ ٣٠٠ ، والمغرب : ١/ ٤٠٥ والذخيرة : ٢/ ١/ ١٨٦ ، والخريدة ٢/ ٣٣٧ .

(٢) الأوام : شدة العطش وحرارته (القاموس المحيط : ١٣٩٣)

(٣) سورة الشورى : الآية ٢٨

(٤) في الأصل : وأباح : والتصويب من الذخيرة والقلائد .

(٥) في الذخيرة بعد هذه الجملة : وسمح دمعها فهمع ، وفي القلائد : وسحّ مزنها فهمع وصاب وبلها فنقع ، فاستوفت الأرض ريّا ، واستكملت من نباتها أثاثا ورئيا .

ورئيا (١) ، ونحن نستزيد الواهب نعمة التوفيق ،ونستهديه الى سواء الطريق ونستعيذ به من المنّة أن تعود فتنة ،ومن المنحة أن تعود محنة .

ومن شعره قوله (الوافر)

أروح اليّ محلكم وأغدوا يسوق بي (٢) الهوى والسوق يحدو

أنا الصّادي ويرد الماء أنتم ومالي من ورود الماء بدّ

=:=

(١) اشارة الى قوله تعالى ((وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا)) سورة مريم الآية : ٧٤ .

(٢) في القلائد : يقودني الهوى .

أَبُو بَكْرٍ

مُحَمَّدُ بْنُ الْقَيْصَرَة

ومنهم : أبو بكر محمد بن القصيرة (١)، ذو يد ليست بالقصيرة، وفهم ثاقب البصيرة، أحلّته الدّول في مفارقها، وحلّته في مغاربها بأشعة مشارقها، فعلا أجلّ الرّتب، وجلا متون الشّكّ والرّيب، وكان فرقد (٢) تلك السماء، وفرد تلك الأسماء، مقدّما في ذلك الجيل، مقلّدا دونهم بالجميل، حلّ من أهـــل تلك الارا، محل السّنان المتقدم من البرنيّة (٣) السمراء.

وقال فيه ابن خاقان : غرّة (٤) في جبين الملك، ودرّة لا تصلـــح الا لذلك السّلك.

ومن نثره قوله :

وافتني لك أطال الله بقاءك أحرف كأنها الوشم في الخدود، تميس فـــي حلل ابداعها كالغصن الأملود (٥)، وانّك لسابق هذه الحلبة لا يدرك غبارك في مضمارها، ولا يضاف بدرك الى سرارها (٦)، وما أنت في أهل البلاغة الا نكتـــة فلكها، ومعجزة تشرف الدّول بتملّكها، وما كان أخلقك بملك يدنيك، وملـــك يقتنيك، ولكنها الحظوظ لا تعتمد من تتجمل به وتتشرف، ولا تقف إلا على من توقّف

=:=

(١) هو أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي الاشبيلي المعروف بابن القصيرة، كان كاتبا جيد الخط، سافر رسولا عن المعتمد بن عباد الى الملوك، وكتب ليوسف بن تاشفين بعد ذلك، اختلط قبيل وفاته سنة ٥٠٨، ترجمته في الذخيرة : ٢ / ١ / ٢٣٩، والقلائد ١ / ٣٠٥ وفيهما عزو الـــى مصادر أخرى.

(٢) الفرقد : هو النجم الذي يهتدى به. (القاموس المحيط : ٣٩١)

(٣) البرنيه : اناء من خزف، وفي المحكم شبه فخاره ضخمة خضراء، وربما كانت من القوارير الثخان الواسعة الأفواه (اللسان : ١٣ / ٥٠)

(٤) في الأصل : غرّ في جبين ... والتصويب من القلائد.

(٥) الأملود : الناعم اللين من الغصون. (القاموس المحيط : ٤٠٩)

(٦) في القلائد : ولا يضاف سرارك الى أبدارها.

ولو اتّفقت بحسب الرّتب لما ضربت الاعليك قبابها (١) ، ولا خلعت الآعليك ثيابها .

قلت : وقد ذكره ابن بسّام ، ولقّبه بذي الوزارتين ، وقال فيه : عذبة اللسان العربي ، وسويداء قلب هذا الاقليم الغربي ، نشأ في دولة المعتضد ، وشهر بالعفاف فلزمه ، وبسرّ العلم فتعلّمه وعلّمه ، وكانت له نفس تأبى الا مزاحمة الأعلام والخروج على الأيام .

وهو دائما يقصّ جناحتها فتجنح ، ويطاطئ من غلوائها فتتطاول وتطمح .

وفطن له ابن زيدون (٢) ، فلم يزل يضرح قذى العطلة عن مائه ، ويعلى رماد تلك الهيبة عن نار ذكائه ، الى أن نبّه عليه المعتضد آخر دولته ، فتصرّف فيها ، قليلا على تقيّة من تلك البقيّة ، وتقشّف من ذلك التعفّف ، الى أن أفضى الأمر الى المعتمد ، فأنهضه السعي مثنى الوزارة ، وأكثر ماعوّل عليه في السّفارة ، ثم أتى أمير المسلمين كتاب من صاحب مصر ، لم يكن بدّ من الجواب عنه والانتصاف منه ، وتفقد يومئذ أعلام المشاهير فاستدعاه لجنبه ، وولاّه كتب دواوينه .

وأورد من نثره قوله :

فدنونا اليه بمحلاتنا ، ثم اضطربنا بإزائه ، وأظللنا عليه براياتنا حتى كدنا نركزها بفنائه ، فأجمع مضطرا على اللقاء وقدم بعض أحبته دهشا فى الوقعة التي كانت بيننا على صغرها ، فاهتبل (٣) فيما قدّر غرّة ، وحمل فتنادى المسلمون بشعارهم المنصور ، وأقبلوا بحا مؤذنة بالظهور ، ثم صدق أمير المؤمنين

==:=

(١) في الأصل : لما ضربت عليك الا فنائها ، وهو خطأ ، والتصويب من القلائد .
(٢) ابن زيدون ، وقد وردت ترجمته سابقا صفحة : ١٨٩ .

(٣) اهتبل : كذب كثيرا . (القاموس المحيط : ١٣٨٢)

الحملة ، وصدم في جمع لم يكثر عدد الجملة ، فلم يلبث (اعداء الله) (١) ولّـوا الأدبار ، واستصرخوا الفرار ، واتبعتهم خيل المسلمين بقية اليوم والليلة ، فلم يخلص منهم إلا من تراخى عنه عنان البعد ، أو أتى على حشاشته (الجهد) (٢) وأما محلّتهم فانتهبت في أوّل وهلة ، وشربت بأسرها في فرد نهلة ، ولم يصب من المسلمين على هول المقام وشدة الالتحام كثير ، ولا مات من أعلامهم تحت تلك الجولة الآ عدد يسير ، وان كان أذفونش (٣) لعنه الله لم يمت بالسيوف بردا ، فسيموت لا محالة كمدا .

ومما أنشده له قوله يهنّئ بمولود : (الكامل)

من كان عبد أباه فحسبه	لي بالدليل على النّجابة هاتفا
أعجب به من قبل أن يطأ الثرى	اجرى الى أمد المكارم واجفا (٤)
لم يستهلّ بكاء لكن منكرا	اذ لم تعدّ له الدّروع لفائفا
أولم يكن متن المذاكي مهده	قدرا وأصبح للرّماح موالفا
لو أن في أيدي القبائل سلّه	لمضى به نحو الأعادي زاحفا
أقرب بمنهده إلى أرض العدى	تغوى شواهق نحوها وتنائفا (٥)
وترى الأجاج (٦) الأجن (٧) عذبا صافيا	فيها وحرّ القّيظ ظلا وارفا

=:=

(١) مابين الحاصرتين سقط من المخطوطة وأتممناه من الذخيرة .
(٢) مابين الحاصرتين سقط من الأصل وأتممناه من الذخيرة
(٣) أذفونش بن فرزلند بن غرسية بن شانجة ، هلك هذا الطاغية بطليطلة سنة ٥٠٢ وكان ملكه نيفا على خمسين سنة . (البيان المغرب : ٥٠)
(٤) واجف : ضرب من السير . (القاموس المحيط : ١١١٠)
(٥) تنائفا : المفازة ، أو الأرض الواسعة البعيدة الأطراف ، أو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس ، وان كانت معشبة (اللسان : ١٨/٩)
(٦) الأجاج : الملح المر . (القاموس : ٢٢٩)
(٧) الاجن : الماء المتغير الطّعم واللون . (القاموس : ١٥١٦)

شيم اللّيوث تبين في أشبالها   من قبل أن يلغ الدّماء أو اشتفى

وبدا بأفق المجد منه كوكب   لألاؤه ينفي الظّلام العاكفا

أَبُو

المُطَرِّف الدَّبَّاغ

ومنهم : أبو المطرّف بن الدبّاغ ،(١) بليغ أغصّه الخطب بريقه، ووقف الحدثان في طريقه ،وولع ريح التبريح بمعاري غصنه ووريقه .

قال فيه الفتح ، أحد أعلام الوزارة المتسمين بحليتها ، المرتسمين في عليتها (٢) ،المشتهرين بالبلاغة ،المقتصرين على حسن التناول (٣) في كل إراغه (٤) ، إلا أن الأيام بعدت على آماله ،وأغرت صروفها بكماله .

ومن نثره قوله :

كتابي وأنا كماتدريه ،غرض للأيام ترميه ،ولكني غير شاك من آلامهـــا ، لأن قلبي في أغشية من سهامها ،فالنّصل على مثله يقع ، والتألم لهذه الحالــة قد ارتفع ،كذلك التقريع اذاتتابع هان ، والخطب اذا فرط في الشدّة لان ، والحوادث تنعكس الى أضدادها اذا تناهت في اشتدادها .

ومنه قوله :

وللرّاح من قلبي محبة لاتصل اليها سلوة ،ولاتعرّضها جفوة ،الاّ أن معينها قدجفّ ،وقطينها قدخفّ ،فماتوجد للسّبا ،ولو بحشاشة الحوباء(٥) ، فصلّني بمايوازي قدري ،ويقوم له شكري ،فان قدرك أرفع من أن تقضي حقّه زاخرات البحار ،ولو سالت بذوب النّضار ،لابصافية العقار .

=:==

(١) هوأبوالمطرّف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ ،كان في دولة المقتدر بن هود ،وحدث بينهما جفاء ثم اتّجه الى الدولة العبّادية باشبيلية ،ثم الى بني المظفر أصحاب تطليوس ، لكنه عاد الى سرقسطة وقتل بها ،ترجمته في (القلائد ١/ ٣١٤) والذخيرة ٣/ ١/ ٢٥١ و(المغرب ٢/ ٤٤) و(الخريدة ٢/ ٣٤٩)

(٢) في القلائد : المتسمين بأزيائها ،المرتسمين في زمام علياتها .

(٣) في الأصل : الشلاول ! وهوخطأ ،والصواب ما اثبت .

(٤) اراغة : طلبه ،والمقصود هنا في كل وقت ومناسبة . (اللسان : ٨/ ٤٣٠)

(٥) الحوباء : النّفس (القاموس المحيط : ٩٩)

ومنه قوله :

يومنا يوم تجهّم محيّاه ، ودمعت عيناه ، وبرقعت شمسه الغيوم ، ونثرت صباه اللؤلؤ المنظوم ، وملأ الخافقين دخان دجنه ، وطبّق بساط الأرض هملان جفنه ، فأعرضنا عنه الى مجلس حليّه تشرق في ترائبه ، وندّه يعبق في جوانبه ، وأباريقه تركع وتسجد ، وأوتاره تنشد وتغرّد ، وبدوره تستحثّ أنجمها محييّة ، وتقبّل أنملها مغذّية ، وسائر نغماتها ، خذ وهاتها ، وقد أملنا أن تحثّ خطاك حتى يلوح سناك وتستشفي بمرآك .

ومنه قوله :

كتابي عندي من الدهر مايهدّ يسيره الرّواسي ، ويفتت الحجر القاسي ، ومن أجلها قلب محاسني مساوي ، وجعل أوليائي أعادي ، فقس هذا على سوائه ، وعارض به ماعداه ، ولا تعجب لتبوتي لما لا ينهت عليه الحلق السّرد (١) ، وبقاءى على ما لا يبقى عليه الحجر الصّلد ، ولا أطيل عليك ، فقد غيرعلي حتى شرابي وأوحشتني ثيابي ، فها أنا أتّهم عياني ، وأستريب من بنائي ، وأجني الاساءة من غرس احساني ، وقاتل الله الحطيئة في قبره ، فأنشد ماغرّ بقوله : (البسيط)

من يفعل (٢) الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس (٣)

أنا والله عملت خيرا فعدمت جوازيه ، وما أحمدت عوائده ولا مباديه ، وزرعته فلم أحصد الاّ شرّا ، ولا اجتنيت منه الا ضرّا ، وهكذا جدّي فماذا أصنع ، وحظّي

=:=

(١) السرد : النّسج . (القاموس المحيط : ٣٦٧)
(٢) في الأصل : من يزرع الخير ، وصواب الرواية ما أثبت .
(٣) البيت للحيطئة ، وانظر ديوانه : ٢٨٤ ، وجاء بعده في الذخيرة :
من يزرع الخير يحصد ما يسربه   وزارع الشر منكوس على الراس وكذلك جاء في القلائد منفردا ، وهذا البيس للحطيئة ، والثابت أنّ له البيت الأول .

فما الذى ينفع ،وقد أبى القضاء الآ افناء عمرى فى بوس (١) ،ولا أنفك في نحوس ،
وياليت باقيه قد انصرم ،وغائب الحمام قد قدم ،فعسى أن يكون بعد الموت راحة
من هذا التعب ،وسلوة من هذه الخطوب والنّوب ،ودع نثا (٢) هذا التشكي
فالدهر ليس بمعتب من يجزع ،وفي الأيام رجاء ومطمع .

=:=:=: :==

(١) بوس : مخففة من بؤس بمعنى الشقاء والعناء .

(القاموس المحيط : ٦٨٤)

(٢) نثا : التحدث به واشاعته . (القاموس المحيط : ١٧٢٣)

أَبُو

الْقَاسِمِ بْنُ الْجَدِّ

ومنهم أبو القاسم بن الجدّ (١) ، له كمال الجدّ وكلام الجدّ ، وملاك المجن والمنزل الفرد ، والمنهل العذب والمعاني التي لا تزال تستجدّ ، والكتابة التي يود مسك الأيل منها أن يستمد .

وقال فيه الفتح : آية الاعجاز ، الذي جمع صنع العراق وطبع الحجاز ، واقطع استعارته جانبي الحقيقة والمجاز .

ومن نثره قوله :

كتابنا وقد اتصل بنا أنكم من مطالبة فلان على أولكم وفي عنفوان عملكم ، وأنه لا يعلم تشفيبا ولا تأليبا من قبلكم ، فالي متى تلحّون في الطلب ، وتجدّون في اللعب ، وتقضون النبع بالغرب ، لقدآن لجمرتكم في أمره أن تطفأ ، وللنائرة بينكم أن تهدأ ، ولذات بينكم أن تتصلح ، ولوجوه المراشد قبلكم أن تتضح ، فاذا وصل اليكم كتابنا هذا فليقبل كل واحد منكم على مايعنيه ، ولابدّ لكل عمل من أجل ولكل ولاية من غاية ، ولن يسبق شيء إناه ، واذا أراد الله أمرا سنّاه ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون .

ومنه قوله :

مرحبا بك أيها البر الغا تح والروض النافح ، فما أحسن تولّجك ، وأعطر تأرّجك ، لقد فتحت بالمخاطبة بابا ، طالما كنت له هيّابا ، ورفعت حجابا ، تركت قلبي له وجّابا ، ومازلت أحوم عليها شرعة ، ولا أسيغ منها جرعة ، وأغار عليها

=:=

(١) هو محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرح بن الجدّ الفهري المعروف بالأحدب ، وهو شلبي الأصل ، سكن اشبيلية ، كان من أهل التفنن في الأدب والبلاغة والمعارف ، ملما بالفقه والحديث ، توفي سنة ٥١٥هـ ، الذخيرة ٢/ ١/ ٥٨٥ ، الخريدة ٣/ ٣٩٢ ، الصلة : ٥٤٤ ، والذيل والتكملة ٦/ ٣٢٦ ، والمطرب : / ١٩٠ ، والمعجب : / ٢٣٧ ، والمغرب : ١/ ٣٤١ ، واحكام صنعة الكلام : ١٨٥- ١٨٦ ، والقلائد : ١/ ٢٢٣ .

أملا ، ولا أطيق لها عملا ، ولا أخطّها أبدا ، فأدوّن دونها كمدا : (الطويـــل)

وفي تعـب من يحسد الشمس نورها ويجهد أن يأتي لها بضريب (١) إلى

أن وردني كتابك ، فازددت له تهيبا ورعبا ، وعانيت منه مركبا صعبا ، وقلت : التغافل

عن الجواب أولى بالصواب ، إذ ليس بلبيب من يعارض البحر بالوشل (٢) ، ويناهض

التشمير بالفشل ، ولا بأديب من يقيس الشبر بالباع ، والمدّ بالصاع ، والجبان بالشجاع

فمن طلب فوق طاقته افتضح ، ومن تعسف الخرق النازح رزح ، ومن سبح في البحر كم

عسى أن يسبح .

ومـــن شعـــره قـــوله : (الطـــويل)

سلام كعرف المسك أو عبق النّدّ علي من غدا في الفضل فردا بلاندّ

علي من تحدّاني بمعجز شعـره فـاعجز أدنى عفوه منتهى جهـــدي

أبا عامر لا زال ربـعك عامـــرا بوفد الثناء الحرّ والسّدود الرّغـــد

لقد سمتني في حومة القول خطّة لغفت لها رأسي حياء من المجـــد

=:=

(١) في الأصل : ويجهد أن تضريب : وهو خطأ ، والصواب ما اثبت ، وانظر

(ديوان المتنبي : ٣٢٧) والضريب : المثيل .

(٢) الوشل ، محرّكة : الماء القليل يتحلّب من جبل أو صخرة ، ولا يتصل قطره ، أو لا يكون الا من

أعلى الجبل (القاموس المحيط : ١٣٧٩)

أُبُو بَكْرٍ

مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ

بْنِ رَحِيمٍ

ومنهم : أبو بكر محمد بن أحمد بن رحيم : (١) ،سماء شمس و قمر ،وأكمام زهر وثمر ،تأخرت عن لحاقه الخطى وقصّرت و قد توقّل (٢) العلياء وامتطى ،وله لطائف تفدى بالنفس والذات ،ذكر له فيها أيام لذّات منها على هذا الرّويّ أبيات ،يرتع حول حماها ،و يرتوى بعذب لماها .

و قال عنه ابن خاقان : رجل المشرق سؤددا وعلاء ،وواحده اشتمالا على الفضل واستيلاء .

و من نثره :

و قد أرسلتها أخطب ودّك ، وأطلب على الأيام عهدك ،فان جدت مجيبا كان بفضلك ، وان ضننت فليس بكفؤ لمثلك على أنك للكرم أميل ،وعلى أخذ باب الرجال أحيل ،وها أنت اذا شئت وقد عرضت لك وكفيت .

و من نظمه قوله : (البسط)

أفديك من منزل بالنفس والذّات

كم لي بمغناك (٣) من أيام لذّات

خير البنيات لا تنفكّ آهلة بمن حوته وهم خير البريات

لله يوم ضربنا للمدام بها رواق لهو بطاسات (٤) و جامات (٥)

=:=

(١) أبو بكر محمد بن أحمد بن رحيم : هو محمد بن أحمد بن رحيم ،أبو بكر ذو الوزارتين الأندلسي : شاعر من كبار الكتّاب كان صاحب الديوان باشبيلية أورد صاحب الخريدة نماذج حسنة من شعره . (الأعلام لخير الدين الزركلي : ٥/ ٣١٧٦)

(٢) التوقل وقل في الجبل يقل : صعد ،كتوقل ،ورفع رجلا وأثبت أخرى (القاموس المحيط ١٣٨١

(٣) في الأصل : كم منزلي فيك من أيام لذات والتصويب من القلائد .

(٤) في الأصل : بساطات ،وهو خطأ ،والصواب ما أثبت .

(٥) جامات مفرده اجام ،والجام هو اناء من فضة (القاموس المحيط : ١٤٠٨)

وللبلابل ألحان مرجّعة تجيبهنّ غوانينا بأصوات

جنات عدن (١) رعى الرحمن بهجتها حسبت نفسي منها وسط جنّات

منازل لست أهوى غيرها سقيت حيا يعمّ وخصّت بالتحيّات

ومنه قوله : (البسيط)

لما سريت إلى حمص وقد ظمئت سرى اليها سحاب منك مركوم (٢)

ووافت الريح تستسقي الغمام بها مهما تهبّ فللأنواء تغييم

كأنما المحل والأنواء تكنفه جيشان ذاها زم يلقى ومهزوم

رقّ النسيم ورقّت كلّ غادية فالأفق طلق وبرد (٣) الأرض مرقوم (٤)

وقوله : (الكامل)

يابغيتي قلبي لديك رهينة فلتحفظيه فربّما قد ضاعا

إني لأقنع من وصالك بالمنى ومن الحديث بأن يكون سماعا

=:=

(١) في القلائد : جنات أنس .

(٢) مركوم : جمع شيء فوق آخر حتى يصير ركاما مركوما (القاموس المحيط : ١٤٤٠)

(٣) في القلائد : ووجه الأرض وفي بعض النسخ : وبرد كما اثبتنا .

(٤) مرقوم: الأرض ذات النبات القليل (القاموس المحيط : ١٤٤٠)

وقوله : (الخفيف)

ولئن همت بالجمال فإنّي ... أبداً عفت موضع الارتياب

ردعتني (١) عن القبائح نفس ... خلقت من محاسن الآداب

(١) في القلائد : ودّعتني ، والصواب ما أثبت .

أَبُو
مُحَمَّدُ بنُ القَاسِمْ

ومنهم أبو محمد بن القاسم (١) ،اثنى عليه ابن خاقان بجهده ،ووصف له حال خمول كفّنه ببرده ،وكحّله بسهوه ،إلاّ أنه قال: انه أقبل على ربّه وأقبل نظره كتبه ،وقال: وقد وصفه في الأدب بأعلى الرّتب ،وقد أثبت من نثره المنتخب ،ونظمه المستحلي المستعذب ،ماتعاطيه المدامة ولا يدانيه قدامة .

قلت : وهو كما وصفه به الفتح وفوقه ،وصاغ الثّريا خاتمه ، والهلال طوقه وسرى الى الأفق والنّجوم رواكد ،وأغار على سرجها والكواكب رواصد .

قال الفتح : فمن ذلك ماراجعني به من رقعة كتبتها اليه مودّعا ،ووصفت فيها النجوم : عذيري من ساحر بيان ،وناثر جمان ،ومظاهر ابداع واحسان ، ماكفاه أن اعتام الجواهر اعتياما (٢) ، وجلاها في أبهى مطالعها نثرا ونظاما ، حتى حشر الكواكب والأفلاك ،وجلبها نحوي كتائب من هنا وهناك ،وقدما حمل لواء النباهة ، وأعجز أطوار (٣) البداهة ،وليس الغمر كالنّزر ،ورويدك أبا النصر (٤) فماسميت فتحا لتفتح علينا أبواب المعجزات ،ولا ملئت سروا (٥) لترتقي علينا الى الأنجم الزاهرات ،فتأتي بها قبيلا ،وتريد منّا أن نسوعها ،كاسمتها قعودا وتذليلا ،وأنّى لنا أن نساجل احتكاما ، أونباسل إقداما ، من أقدم حقّ

=:=

(١) هو أبو محمد عبد الله بن يمن الدولة محمد بن عبد الله بن قاسم من بني قاسم امراء اقليم البونت، وقد خضع بنو قاسم لملك قشتالة ،الى أن استولى المرابطون على امارتهم ثم قضى بقية عمره في المغرب . (موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية: احمد شلبي ٤/ ٢٠٨)

(٢) اعتام: اختار واعتام يعتام اعتياما ،واعتان اعتيانا ،اذا اختار. وقال طرفة .

أرى الموت يعتام الكرام و يصطفي عقلية مال الفاحش المتشدد

(اللسان: ١٢/ ٤٣٣)

(٣) في القلائد: وأعجز أدواء البداهة .

(٤) في الأصل: ويدل أبو النصر وهو خطأ والتصويب من القلائد، وهو يعني أبا نصر الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان

(٥) في الأصل: ولا ملئت سرورا ! والتصويب من القلائد ،وهي المروءة في شرف .

على القمرين ،وتحكّم حتى في انتقال الفرقدين ، وقصّ قوادم النّسرين ،ثم ورد المجرّة وقد تسلسلت غدرانها ،وتفتّح في حافاتها أقحوانها ،وهناك اعتقد النجم التّخييم (١) ،وأحمد المراد الكريم ،حتى اذا رفع قبابه ،ومدّ كما أحب أطنابه، سئم الدّهاء ،وصمّم المضاء ، واقتحم على العذراء رواقها وفصم عن الجوزاء نطاقها ،وتغلغل في تلك الأرجاء واستباح ماشاء أن يستبيحه من نجوم السماء ثم ماأقنعه أن بهرها بإدلاله (٢) ،حتى ذعرها بجياد أقواله ،وغمرها باطّراد سلساله .

فله ثمّ خيل وسيل،لأجلها شمّر عن سوق التّوأمين ذيل ،وتعلّق برجل السفينة سهيل (٣) ، هنالك سلم المسالم ،وأسلم المعارض والمقاوم ، فما الأسد وان لبس الزّبرة (٤) يلبا (٥) ، واتخذ الهلال مخلبا ،وانما انتهض تحت صبا أعتّه ،وقبض على شبا أسنّته ،وماالشجاع وان هال مقتحما ، وفغر (٦) عن الدّواهي فما ، وقد أطرق مما رآه ، وماوجد مساغا يأباه ،وماالرامي وقد أقصر عن مرامه ،ووجئت لبّته بسهامه ، والسّماك وقدقطر دفينا وغودر بذابله طمينا ،وماالفوارس وقد جللّت سربتها عجاجة ،ومسخت حليتها (٧) زجاجة ،

=:

(١) يمكن قراءتها : التنجيم كمافي بعض مخطوطات القلائد

(٢) في الأصل : أن يهزها باذلاله .

(٣) سهيل : نجم عند طلوعه تنضج الفواكه وينقضي القيظ (القاموس المحيط : ١٣٠٤)

(٤) الزّبرة : الشعر المجتمع بين كتفي الأسد وعلى مرفقيه ، وهماكوكبان نيران بكاهل الأسد . (القاموس المحيط : ٥١٠)

(٥) اليلب : جلود يخرزبعضها الى بعض تلبس على الرؤوس خاصة واحدها يلبه (القاموس المحيط : ١٨٦)

(٦) في الأصل : وتعرضا وهوخطأ ،والصواب ما اثبت

(٧) في القلائد : حلسيتها .

ولذلك ماقطّب زحل ،واضطّرب المرّيخ في نار وجده واشتعل ،ووجل المشترى فامتقع لونه وضياؤه ،وشعشع بالصّفرة بياضه ولألاؤه، وتأهب الزّهرة بين دلّ الجمال وذلّ الاستبسال ، فلذلك ماتتقدّم تارة وتتأخر ، وتغيب تارة ثم تظهر، وأماعطارد فلاذ بكناسه ،وردّ بضاعته في أكسياسة ،وتحجبت الشمس بالغمام ، واعتصم بمغربه القمر التّمام ،هذا حال النجوم (١) ،فكيف من يتعاطو أن يشرع في قول معك ،أو يطلع من ثنيّة فضل (٢) مطالعك ،فخذ السّانح من عفوي ،وتجاوز لمقتي وصفوي ،وحتمش بفكري فقد رجع قليلا ،ودع لي ذهنى عسو أن يتسودع قليلا .

قلت : ولما شاع ذكر ماكتب به الفتح وما أجاب له ابن القاسم من هذا الجواب كتب القاضي عياض (٣) الى ابن القاسم ،فكتب اليه هذا ابن القاسم رسالة منها :

هبيت أنت هبوب زيد الفوارس (٤) ،وقربت تقريب الألدّ المداعس ، تومض في وجوم ،وتمحض للنجوم (٥) ، فاستخرجها (٦) من هناك صمّت

=:=

(١) في القلائد زيادة : معك

(٢) زيادة ليست في القلائد .

(٣) القاضي عياض: هوالقاضي أبوالفضل عياض بن موسى بن عياض ولد سنة ٤٧٦هـ بسبتة بلد بمراكش على الساحل الشمالي ودخل الأندلس طالباللعلم ،فأخذ بقرطبة عن جماعة ، وجمع من الحديث كثيرا ، وفي النحو ،واللغة واستقضى ببلدة سبتة ، ثم نقل منها الى قضاء غرناطة ، وتوفي بمراكش سنة ٥٤٤هـ انظر (نفح الطيب ٤ : ٣٩١) .

(٤) زيد الفوارس: هوزيد بن حصين بن ضرار الضبي ، فارس شاعرجاهلي أورد البغدادي قليلا من أخبار وأبياته ،واختار أبوتمام في الحماسة أبياتا أخرى من شعره (خزانة الأدب للبغدادي : ١/٦١٥-٧١٥) و(شرح الحماسة للمرزوقي : ٥٥٧)

(٥) في الأصل : تومضي في وجوب وتمتمض للوجوم ،والتصويب من القلائد .

(٦) النص في القلائد بأتم من هذا ،وانظر القلائد ١/ ٣٨٤

الفيالق وفتحت المغالق ،فأذعن لشروطك الشرطان (١) ،فازدحمت بالبطين (٢) حلقتا البطان (١) وثار بالثريا ثبور ،وعصفت بالدبران الدبور ،وهكذا استعوضت المنازل ،واستنهضت للخطب النازل ،ثم سامتت (٣) (قليلا) (٤) نحو الجنوب فواها للمعاصم والجيوب (البسيط)

لم يبق غير طريد غير منفلت   أو موثق في حبال القدّ مسلوب (٥)

استخرجت السفينة من لججها ،وجالت الناقة بهودجها ،وغودرت العقرب يخفق فؤادها ، وذعرت النعائم فخاب اصدارها وايرادها (٦) .

ولما مسحت تلك الآفاق ،فأنخت فيها ،وشددت الوثاق ،عطفت ذات الشمال (٧) ، واتبعت أسباب الشمال (٨) ،فلا مطالع الا ألقى اليك باليمين ، واستدارت حولك الفكة (٩) فسميت قصعة المساكين ،وانتهيت الى القطب فكان عليه المدار (١٠) ،وتبوأته ففيه من جلالك افتخار .

=:=

(١) الشرطان : نجمان من الحمل ،وهما قرناه . (القاموس المحيط : ٨٦٩)
(٢) البطين . من منازل القمر ،من ثلاثة كواكب صغار كأنها أثافي . (القاموس المحيط : ١٥٢٤)
(٣) البطان : حزام القتب ،والبطان : (بالفتح) هو نجم العنز . اللسان : ٥٦/١٣
(٤) في القلائد : تيامنت .
(٥) مابين الحاصرتين زيادة من القلائد .
(٦) البيت للنابغة الذبياني ،انظر ديوانه : ٢٥ ،والقد : السير من الجلد . غير مربوغ
(٧) في الأصل : خاب طرادها ولا يصح ،والتصويب من القلائد .
(٨) الشمال بالكسر : الناقة السريعة . (القاموس المحيط : ١٣١٨)
(٩) الشمال بالفتح : الريح التى تهب ناحية القطب أو من مطلع النعش الى مسقط النسر الطائر . (القاموس المحيط : ١٣١٨)
(١٠) الفكة : كواكب مستديرة خلف السماك الرامح ،تعرف بقصعة المساكين (القاموس المحيط : ١٢٢٧)

ومن نظمه قوله وقد كتب اليه بعض أصدقائه: (البسيط)

واحسرتا لصديق ماله عوض

ان قلت من هو لا يلقاك معترض

هب العزار لمعنى الرّيب مرتفعا

فالوداد بظهر الغيب منخفض

أَبُو
عَامِرِ بْنُ الأَرْقَمِ

ومنهم : أبو عامر بن أرقم (١) : بالغ الفتح في شكره، وجد الفتح في ذكره، واجتهد ولم يوف حقّه، ولا أنصف حدقه، ولكنه أتى بماسنح بفكره، وقرع سنّ بكره، أتى لهكل رسالة ترقم، وكسالة تنفث بها منه ابن أرقم.

وقال : فريد وقته وابن فريده، وعميد الكلام وابن عميده، ووصف حسن مرباه، وأنه نشأ على ماألفى عليه أباه.

ومن نثره قوله :

سيدي أطال الله بقاءك محسود الجناب، محمود المقام والمناب، من كرم أمطر قبل أن يستبرق (٢)، وأثمر قبل أن يستورق، (٣) سجيّة نفس (٤) توّاقة الى الحسنى نزّاعة الى الأسنى (٥)، وكانت لك في جانبي مجالس ومشاهد (٦) ومصادر وموارد، وصلت بها جناحي، ومددت أوضاحي، ونبّهت من ذكري (٧)، فأثقلت ظهري، وأوجبت عليّ الشكر دهري، وماتأخرت عن حضرتك لا فحا لغرّتك (٨)، قاضيا حق مبرّتك، إلا عن حال، لايعين على الترّحال، فعذرا عذرا، وغفرا غفرا،

=:=:=:==:=

(١) هو أبو عامر بن أبي الأصبغ عبد العزيز بن الأرقم النميري وزير المعتصم بن صمادح، برع بجهة المرية، ناظم ناثر، ترجمته في القلائد ١ / ٣٦١ والذخيرة ٣ / ١ / ٤٠٣ ولم يفرد له صاحبها ترجمة خاصّة، وانما جاء اسمه خلال ترجمته لأبيه، والخريدة ٢ / ٣٩٨، والنفح ٣ / ٤٩٩.

(٢) في القلائد : من كرم دام عزك - نجمه، وشرف حديثه وقديمه.

(٣) في القلائد بعدها : وأقبل دون ان يستقبل، واضلّ من غير أن يستحلّ.

(٤) في الأصل : منحته نفس توافة! وهو خطأ، والتصويب من القلائد.

(٥) في القلائد : نزاعة الى الاعلى من النحا ونزوا الأسنى.

(٦) في الأصل : وكانت إلى في جانبي مجالس، وفي القلائد : وكانت لك - وصل الله اعزازك في جانب مجالس ومشاهد، والتصويب من القلائد خلا الجملة المعترضة.

(٧) في القلائد : ونبهت من ذكري وما كان خاملا ولكنّ بعض الذكر أنبه من بعض وفي هذا دليل على البتر والاجتزاء التي تعرضت له نصوص هذا الكتاب والله المستعان.

(٨) في القلائد : لا محا لعزتك.

وعندي ود كماء المزن ، وثناء كروض الحزن ، جزاك الله ياسيدى خيرا ، فلأنت الواصل (١) وقد قطع الأنام ، الناصر وقد خذلت الأيام .

ومنه قوله في كتاب كتبه شافعا لرجل يعرف بان الزّريزير :

سيدى أبقاه الله ، والأمكنة بمساعيه فسيحة ، والألسنه بمعاليه فصيحة ، موصله حيوان يصفر كلّ أوان ، ويسفر بين الاخوان ، ينظر من عين كأنها عين ، ويلقط بمنقار (كأنه) من قار (٢) ، يسلي المحزون ، بالمقطّع والموزون ، وينفّس عن المكظوم ، بالمنثور والمنظوم ، مسكيّ الطّيلسان (٣) ، تولّد بين الطائر والانسان ، كما سمعت بسبع الفلاة ، وعمرو بن السعلاة (٤) ، قطع من مطالع الزيتون ، إلى مواقع السحاب الهتون ، فصادف من الجليد مايذهب قوى الجليد ، والحدائق قد أغمضت أحداقها ، وانحسرت أوراقها ، والبطاح قد قيدت الغور (٥) ، بحبائل الكافور ، فمُني اليائس بما لم يعهده ، كما وسم بالزّرزور (٦) ولم يشهده .

---

(١) في القلائد: جزاك الله ياسيدى جزاء الواصل وقد قطع الأنام .
(٢) في الاصل : ويلقط بمنقار من قار .
(٣) الطليسان : ضرب من الأكسية أي الأسود ، قال المرار بن سعيد الفقعسي:
فرفعت راسي للخيال فما أرى غير المطي وظلمه كالطيلس ،
وهي فارسية معربة وهي تالشان . (لسان العرب : ٦/ ١٢٥)
(٤) هو عمرو بن يربوع: تزعم العرب أنه متولد من السعلاة والانسان ، والسعلاة هي أنثى الغول ، أو أخبث الغيلان ، وفي الرجز : عمرو بن يربوع شرار النات . ومعنى النات : الناس ، لغة يمانيه (اللسان ١١/ ٣٣٦)
(٥) الغور : الظباء وهي جمع فائر . (القاموس المحيط : ٥٨٩)
(٦) في القلائد : وسم بالزور ، وما أثبت هو في كثير من النسخ ، وفي هذ الاشارة الى لقب صديقه الذى يكتب اليه هذه الرسالة ، وهى في القلائد بأتم من ها هنا ، وراجع ١/ ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

ولما قال رأيه وأخفق سعيه ، التفت الى عِطفه أشمط ، وإلى أديمه أرقط ، فناح ، ثم سوّى الجناح ، وقد أنكر مزاجَه ، ونسي على الدوح (١) ألحانة وأهزاجه ، واذا أُلقي كتابي اليك ، يُفسّر هذه الجملة عليك (٢)

=:=

(١) عبارة على الدوح ليست في القلائد .

(٢) في القلائد بأتم من هاهنا .

أَبُو
مُحَمَّدُ بْنُ سُفْيَانَ

(١)
ومنهم : أبو محمد بن سفيان : أورد المجرة خيله الظّماء ، واقتحم الفلك لا اليهماء (٢) ونزل جبهة الأسد اعتسافا ، وطرق هودج العذراء وما تجافى ، ومدّ يمينه فحلّ نطاق الجوزاء ، ونزل على هام الكواكب في السماء .

وقال فيه الفتح : بلغت همّته السماء ، وجلت أسرّته الظلماء ،

قلت : ووصف سيادته السماء ، واستعمل التصريح لا الايماء .

ومن نثره قوله مما كتب به الى أبي محمد بن القاسم .

كتبت وماعندى من الود أصفى من الراح ، وأضوأ من سقط الزّند (٣) عند الاقتداح ، وبيننا أذمّة تَجلّ أن تحصي بالحساب ، بيض الوجوه كريمة الأنساب ، لوكانت نسيما لكانت تبليلا ، ولو كانت زمانا لم تكن الا سحرا أو أصيلا .

فأجابه أبو محمد بن القاسم (٤) عنها بقوله :

كتبت عن ودّ لا أقول كصفو الراح ، فان فيه جُناحا ، ولا كسقط الزّند ، فربما كان شَحاحا ، ولكن أصفى من ماء الغمام ، وأضوأ من القمر (في) (٥) التمام .

ومن نظمه قوله : (الوافر)

أبا عيسى (٥) أتذكر حين كنّا ... على هام الكواكب نازلينا

ندوس بخيلنا زهر الثريّا ... ونوردها المجرة ان ظمينا (٦)

==:

(١) ترجم له العماد في الخريدة ٢/ ٥٠٤ نقلا عن القلائد ، وانظر نفح الطيب ٤/ ٣٤ ، ١٥٨ .
(٢) اليهماء : الفلاة لا يهتدى فيها . (القاموس المحيط : ١٥١٤)
(٣) سقط لزند : ماوقع من النار حين يقدح ، باللغات الثلاث أيضا قال ابن سيده : سقط النار ويسقطها ماسقط بين الزند ين قبل استحكام الورى . (اللسان : ٧/ ٣١٦ .
(٤) مرّ التعريف به
(٥) زيادة من القلائد
(٥) هو أبو عيسى بن لبون ، وانظر القلائد ١/ ٣٩١ .
(٦) في القلائد : ان صَدينا .

ونـنزل جبهـة الأسـد اعتسافـا   اذا ما الهدر مرّبهـا كمينـــا

ونطرق هـودج العـذراء وَهْنـا   فنـدخله عليهـا آمنيـنـا

اذا عنّت لنـا الجوزا مـددنـا   لحل نطـاقهـا عنهـا اليمينـا

ومنه قوله : (البسيط)

ياضَرة الشّمس قلبي منك في وهـج   لوكـان بالنّار لم تسكن ذرى حَجـر

أبيت أسهر لا أُغفي فان سنحت   إغفاءة فكمثل اللّمح با لـبصر

أقول مابالُ بازي الصّبح ليس لـه   وقْع وما لـغراب اللّيـل لم يطـر

لا أفقـد النّجم أرعاه وأرقبـه   في الوَصـل منك وفي الهجـران من قمر

أبو محمد

بن جعفر بن إبراهيم

بن الحاج

ومنهم : أبو محمد بن جعفر بن ابرهيم بن الحاج : (١) أطال الكلام فاقتاد عاصيَه ، وارتاد قاصيَه ، فقهر النجوم إذعانا ، وصرف الغيوم بديهه عيانا .

وقال الفتح فيه بعد ذكر أبيه : غدير بيان وغدير فضل ملأ العيان ، لم تزل به الفواضل تجلى ، والفضائل تعلى ، بديهته متسرّعة ، وقريحته عمّا للغير متورّعة ، ولابنه بدائع مائسات الأعطاف ، مستعذبات الجَنى والقِطاف ، ترودها روضة مطورة ، وتخالها كواعب في خيام الأفهام مقصورة .

ومن نثره قوله :

ياسيّدي أبا النصر ، الألمعي العصر ، كيف أساجلك في الأدب ، وأنت تملأ الدّلو إلى عقد الكرب (٢) ، وأنا أمتاح (٣) ... من وشل ، واستنجد بغشل ، وأستعين بنفس قد شعَب الدّهر اجتماعها ، وقصّر باعها ، وهى الأيام حربها للكرام ، ولا أُبعِد وأنت الأمجد الأصيد (تُخلِفك) (٤) فيماتعد والدُّول تتقوّل : لو حلّى عاطلُ أجيادنا ، وتولّى تصريف أجنادنا (٥) وجيادنا ، لكان إشراقنا يروق ، كما طلعت البروق ، فهي تعتزف ، والحظّ لا ينصف ، وعساها تلين ، ولعلّ إسعادها يبين فنستنجز للخُطوة وعْدا ، ونَردُ لنداكَ (٦) ماء عِدّا .

وسيأتي ذكر والده ان شاء الله تعالى .

=:=:==:=

(١) هو أبو محمد عبد الله بن جعفر بن ابراهيم بن أحمد بن الحاج ، من أهل الأدب ، وقد ارتضاه أهل لوقه للقيام بأرضهم ، فلم يرض واستخفي منهم ترجمه الفتح في القلائد ضمن ترجمته لأبيه أبي الحسين جعفر بن الحاج ١/ ١١٤ ، وابن سعيد في المغرب ٢/ ٢٧٦

(٢) الكرب : الحبل الذي يشد في وسطه خشبة الدلو فوق الرشاء ليقويه ج أكراب ، وهو مأخوذ من قول الشاعر : من يساجلني يساجل ماجدا يملأ الدّلو الى عقد الكرب (اللسان : ١/ ٧١٤)

(٣) أتاح : استقى (اللسان : ٢/ ٥٨٨)

(٤) مابين الحاصرتين من القلائد .

(٥) في القلائد : أنجادنا . (٦) في الأصل : وترد بيداك ، والتصويب من القلائد .

أَبُو مُحَمَّد عَبْدُون

ومنهم : أبو محمد عبدون : (١) النائحة الثكلى، والصادحة التي لا تتسلّى سِحر شعره يعير الورى، وخبر مأتم من مآتم النوائب وجرى بحلاوة كَلِم قصّر عنها كلّ أحد دون ابن عبدون، حتى العبدان عبد الرحيم وعبد الحميد، (٢) والشهدان جنى النحل ومراشف الغِيد.

وقال فيه ابن خاقان : منتهى الأعيان، ومنتهى البيان المطاول لسحبان (٣) والمعارض لصعصعة بن صوحان (٤)، نُخبة العلاء، وبقية أهل الإملاء.

ومن نثره قوله :

قد رماني على فوت من بياني بيانك، وقد تولّى إحساني وارجحنّ (٥) إحسانك بعينين من الصناعتين نجلاوين (٦) لوترقى (٧) لنوْ الثريّا لتهلّل (٨) برقهما،

=:=

(١) هو عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهري اليابري، كان ابن بسّام يعتقد أنه رابع أربعة من الكتّاب الممتازين، والثلاثة هم : ابن القصيرة وابن عبد الغفور، وأبو القاسم بن الجد، وقد عوّل على المتوكل صاحب بطليوس ورثى دولته في رائيته الشهيرة، واختلف في سنة وفاته والأرجح أنه بعد ٥٢٥، ترجمته في القلائد ١/ ٤١٧ والذخيرة ٢/ ٢/ ٦٦٨، والخريدة ٢/ ١٠٤ وبغية الملتمس رقم ١٠٦٧ وصلة الصلة/ ٤٢، والمعجب/ ١٣٧، ٢٢٨، ونفح الطيب ١/ ٦٧٣ والمطرب/ ٥٢٧، ١٨٠ والزركشي / ٢٩٨، واحكام صنعة الكلام/ في مواضع متفرقة، والرايات/ ٦١

(٢) لعل الصواب ما أثبتنا وكان في الأصل : عبد المجيد، وهو عبد الحميد الكاتب، كان كاتبا لمروان بن محمد آخر خليفة أموي، وعبد الرحيم هو عبد الرحيم البيساني القاضي الفاضل.

(٣) هو سحبان بن زفر بن اياس الوائلي : خطيب يضرب به المثل في الفصاحة والبيان وسيأتي.

(٤) هو صعصعة بن صوحان العبدي من أهل الكوفة ومن صحابة علي رضي الله عنه شهد صفين معه وله مواقف مع معاوية وكان خطيبا بليغا، انظر الاعلام ٣/ ٢٠٥.

(٥) في القلائد : وارجحن.

(٦) في القلائد : من النظم والنثر.

(٧) في القلائد : لوترقى.

(٨) في القلائد : لتهلّل، وفي الأصل : لونهلل! وهو خطأ، والصواب ما أثبت من القلائد.

واستهل ودْقها ،وفصلَيْن من درّ وياقوت ،بل أصلين من سحر هاروت وماروت(١)

ولئن شرعت الي من البيان رمحا فيه نصلان مامن طرَفيه الى عالية ،رُكّب فيها سنان

قاضٍ ،ولا من شفرتيه الآفارية (٢) ، لا يثبت لها جنان ماض ،فإلى أيّ لأمة(٣)

تسددُ رماحك ،وعلى أيّ هامة تجرد صفاحك ،هل تجد إلا من يمرّ بين يديك في

شخص ضئيل ،وينظر إليك من طرف كليل ؟ وهل تحسّ إلا ضلوعا من ساكنيها

قفلا ،أودموعا من التأسّف على التخلف جِرارا ؟ لا تستعمر الا بالتسليم لسبقك،

والتعظيم لحقّك ،اقتصارا بأدنى لمحة ،من نثير منك أونظيم يبرد (٤) من

الأوهام والأفهام (٥) كل نفحة ،ولوكانت من نار ابراهيم ،وتركد من البصائر

والخواطرر كلّ نفحة ،ولوكانت من الريح العقيم .

ومن نظمه قوله : (المتقارب)

سقاها الحيا من مغان فساح ... فكم لي بها من معان فصاح

وحلّى أكاليل تلك الربى ... ووشى معاطف تلك البطاح

فما أنسَ لا أنس عهدي بها ... وجَرّيَ فيها ذيولَ المراح

ويوم على خُضرات الرياض ... يجاذب بُرديَّ مرُّ الرياح

وليل كرجعة طَرْفِ المُريب ... لم أدرِ له (٦) شَفقا من صَباح

=:=

(١) هاروت وماروت : اسمان لملكين نزلا ببابل علّما الناس السحر ،وهما مذكوران في القرآن سورة البقرة الآية ١٠٢) وهما مسلسلان معذبان في بئر بأرض بابل ،منكسين الى يوم القيامة ، فتنتهما امرأة جميلة ، فاختارا عقاب الدنيا ،انظر العقد الفريد ٨ : ٨٤) والموسوعة العربية الميسرة : ٢/ ١٨٨١) .

(٢) في القلائد : رابية

(٣) اللأمة : الدرع ،وجاء في الأصل : لامدا وهوخطأ ،والصواب ما أثبت .

(٤) في القلائد : يرد ،والصواب ما أثبت .

(٥) في القلائد : من الأفهام والأوهام .

(٦) في الأصل : لم أدره ،وهوخطأ ،والصواب ما أثبت .

ومنه قوله : (الوافر)

دعته ومن سجيّته البدار نفوس أينعت منها الثمار

ليوردها ظماء وهي ماء ويصدرها رواء وهي نار

وتقرضها أياديه لجينا فترجع وهي لو سلمت نضار

ومنه قوله : (الوافر)

أقول لصاحبي والليل داج تنبه انّ شأنك غير شانى

لعلّ الصّبح مولود (١) وقامت على الليل النوائح بالأذان

ومنه قوله : (الطويل)

مررت على الأيام من كل جانب أصعّد فيها تارة وأصوّب

ينير لي الثّغران صبحٌ وصارم ويكتمني القلبان نقعٌ (٢) وغيهب

وقد لفظتني الأرض الاّتنوفةٌ (٣) يحدّثني عنها العيانُ فيكذِب

ومنه قوله : (الكامل)

هل يذكر العهدَ الذى لم أنسَه ومودتي معقودةٌ بصفاء

ومَبيتُنا في نهر حمصٍ والدجى قد حُلّ عَقدُ حباه بالصّهباء

ودموعُ طلّ الليل تجلو أعينا ترنو إلينا من عيون الماء

وقد ذكره ابن بسّام وقال فيه : أعجوبة الليالي ، وذروة المعاني ، ذو لسان يُبدي ظُبة (٤) السيف ، وصدرٍ يسع رحلة الشتاء والصيف ، أفصح من صَمَت

=:=

(١) في الأصل : قد ولي ، وهو خطأ ، والتصويب من الذخيرة .
(٢) في الأصل : ليلا وغيهب ا كذا ، والتصويب من الذخيرة . والغيهب : سواد الليل .
(٣) التنوفة : المفارة أو الأرض الواسعة البعيدة الأطراف ، أو الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس ، وان كانت معشبة . (القاموس المحيط : ١٠٢٧)
(٤) ظبة : ظبة السيف حده أو سنانه وجمعه : أظب وظبات وظبون وظبا . (اللسان : ١/ ٥٦٨)

ونحاق ،وأجمعُ من صلّى وسبق ،ولما صمت ذكر ملوك الطوائف بالأندلس ،طــوى الشعرَ على غَرِّه إلانغثة مصدور أو التفاتةَ مذعور ،وهو اليوم في بلدة يابرة (١) يرتشف فضلَ ثماده ،ويأكل من بقيّة زاده ،وقد أثبتُّ من نظمه الرقيقة حواشيهُ الرائقــةِ أعجازه وهواديه . ونثرِه الغضةِ (٢) مجانيه ، المبيضَّةِ مجاليه ، مايشهدُ لــه بالفضل ،شهادة البرهان على الشكل .

ومما أورد من نثره قـولـه :

فوددت أن أُعار جناحي طائر ،فأكونَ لكعبة ذاك الجلال أوّلَ زائر ،وأقرن هناك حجّة بعمرة ،وأفوز من أملي بنظرة ،وأعشو (٣) إلى ذلك الضياء ،وأرى مجلسي من تلك السماء ،ولله دهر أطلعَكَ أفقُه ماأشرف في الأوقات خِيمهُ ،وأعبق في الآناف شميمه ،وبحقّك أقسم لقد أظهرَ بك شَرفَه وبيّن ،وأخذ منك زُخرفَــه وازّيّن ,وجعلك غُرّةَ بَهيمه ، وغدرة ُملميه ،والحجة على خصومه ،وأناأخطب مودّتــه عقيلةً وأجعل رَحِمَ الأدب والنّسب وسيلة ،والله يعينني على قضله أُوَدِّية ،وحقّه أقضِيه

وقـولـه :

كتبت عن قريحة خمد لهيبها ،ونحيزةٍ ركد هبوبها ،ونفس امّحــت أضواؤه ،وطبعٍ أخوت أنواؤه ،وجنان فلَّ ظبته الكسل ،ولسان عقد عَذَبَتَه (٤) الخجل ، ندبتُه الى الاحتفال فانقطع ،وبعثته على الاسترسال فامتنع ،من طمع في مجاراتك قطف ولوركب البرق ،ومن دفع الى مباراتك تخلّف ولو سبق الخلْقَ ،فقبح الل

=:=

(١) يابرة : مرّ ذكرها في صفحة

(٢) الغضة : الحديث النتاج ،الناضر من أولا البقر . (القاموس المحيط : ٨٣٦)

(٣) أعشو : أقصده لأستيره . (القاموس المحيط : ١٦٩١)

(٤) في الأصل : عقد غدا ،وفي هامشه بياض بالأصل ،وما أثبتناه من الذخيرة (وانظر ٢ / ٢ / ٦٧٤)

العجلةَ فما أسوأ آثارَها وأكثر عثارها ،وأوحش غلطها ،وأفحش سقطها ،من ركبها لم ينج لو أقيلَ من عثار ،ومن صحبها لم يخل لو قُبل من اعتذار .

ومنه قوله :

سلام على من ليس يستفزُّه قال ولا قيل ،ولم تهزّه تلك الأباطيل وبلغني قول من قضى عليّ بالظّنّة ،وحكم بالشُّبهة ،لاسيَّما في خِزية توجب حدّاً ،وتُضرع خدّاً ،وتَفُلُّ من فاضل حدا ،لم يطّلع مُشيعها مني على ريبة ،ولا وقف مذيعها على حقيقة بل افتراء من مُفتر ، وادّعاء من مدّع ،في تلك التى لا أسمّيها ،فاني طلّقتها قبل الدخول ثلاثا ،ونقضت حبلَ وصالها أنكاثا (١) ، قبل هذا والسطان مهاود ، والزمان مساعد ،فكيف الآن وقدعلت الإنسانَ أُبّهةُ الكبير ،ووخَطَته (٢) واعظةُ القتير، وردّ ما استعار من الشباب الى المعير ،وهجر كلّ الهجر من ذاقها شميما ، ورفث (٣) كلَّ الرّفث من لم يكن إلاعلى الحديث نديما ،وأقسم وأعرف بما أقسم لقد تركتها خوفا المعاد ،لارياء للعباد ،فلا تظن أنّ تُنصِّلي لمعذرة أريد قَبولها وأُحبُّ تبليغها وتوصيلَها ،لاوالذي صيّر العقلَ لصاحبه خصما ،وجعل بعض الظن إثما .

ومنه قوله :

كتابي عن عهدٍ طال زمانه واستطال سلطانه ووقت لا يَحزِره حساب، ولا يحصره كتاب ،ولا يحويه حدّ ولا يجمعه ،ولا يحصره عدٌّ ولا يسعُهُ ،وحالت بيننا

=:=

(١) أنكاثا : أنقاضا . (القاموس المحيط : ٢٢٧)
(٢) وخطته : فشاشيبه واستوى سواده وبياضه (القاموس المحيط : ٨٩٣)
(٣) رفث: أفحش في القول ،وقيل : أفحش في شأن النساء (القاموس المحط : ٢١٨)

في الأكثر أقاليم لا يقطعها الإيجاف (١) ، ولا الرَّسيم ولا أقول مجاهل ومعالم بل أقول أقاليم وعوالم لا يفهم الحُداةَ فيها الاّ التراجمُ ، ولا تقطعها الجيادُ يشدّها ولا الركابُ بوخدها ، فهنيئا للحضرة وجميع أهل الملّة حضورُك ، وفي سبيل المجد مقامُك ومسيرُك ، ولولا آلام تناوبت ، وأسقام تعاقبت ، لتلقيت أَوْبتَك السعيدة بقدمي (٢) ، لابعدادي وقلمي .

وما أشد له قوله : (الكامل

وافاك من فلَق الصّباح تبسّمُ	وانجاب من غَسق الظلام تجهُّم
ودموع طلّ الليل تخلق أعينا	يرنو بها من ماء دجلة أرقم (٣)
ياصاحبي بين الصّراة (٤) ودجلةٍ	ودعا العلاقة مسعد ومُتيّم
هل في لحاظِك إنما هي عطفة	زهرٌ على خُضرالرُّبى (٤) أو أنجم
بيض كما ضحكت حواشي روضة	وشّى السِّماك مُلاءها والمِرزم (٥)
خَبطاتٌ بنا وَرقَ الظلام سوابح	ملءُ النواظرِ سَيرُهنّ توهّم
من كل هفهاف العنان كأنّه	نَفَسُ المشوق تعاورته اللُّوّم
ومن المشاهد كالشهود سوامع	ومن الأسنّةِ ألسنٌ تتكلّم

=:=

(١) الايجاف : ضرب من سير الخيل والابل . (القاموس المحيط : ١١١٠)
(٢) في الأصل : لقبلت رويتك السعيدة بفمي ، وأثبت مافي الذخيرة ، وانظر ٢/٢/٦٨٣
(٣) أرقم : أخبث الحيّات ، وأطلبها للناس ، أو ما فيه سواد وبياض ، أو ذكر الحيّات ، والأنثى : رقشاء . (القاموس المحيط : ١٤٤)
(٤) في الأصل : خضر الندى : والتصويب من الذخيرة .
(٥) المرزم : اسم لعدد من النجوم أشهرها مرزمان ، والمرزمان : نجمان مع الشّعريين والغميصاء . (اللسان : ١٢/ ٢٤٠)

ومنه قوله :: (الطويل)

وإن زعزعتهم روعةٌ زعزعوا الدجى | إليها كماةً والرياحَ مذاكيا
ولو أنها ضلّت لكان أمامها | سناعُمَرٍ في فحمة الليل هاديا
إليه أكلتُ الأرض بالعيس (١) سائرا (٢) | وقد أكلتْ منها الذرى والحواميا
حوافيَ لا يُنعلنَ والبُعدُ آذن | على نفسه الآلوجى والدّياجيا
فجاءته لم تُبصر سوى البِشر هاديا | وسلّه ولم يسمع سوى الشكرِ حاديا
إليك ابنَ سيفي يعرب زفّ خاطري | عقائلَ لا ترضى البروج مغانيا
إلى مَن إذا لم تُشكِني أنتَ والعلا | أكونُ بما ألقى من الدّهر شاكيا
فردّ المنى خُضرا ترفّ غصونُها | بمبسوطه تَندى ندىً وعواليا
عوالٍ إذا ما الطعن هزّجذوعها | تساقطت الهيجا عليك معاليا
وعاون على استنجاز طبع بهيّة | تُرقّصُ في ألفاظهنّ المعانيا (٣)
يعزّ على العلياء (٤) أن تُلقيَ العصا | مقيما بحيث البدُر ألقى المراسيا
ومن قام رأيُ ابنِ المظفّر بينه | وبين الليالي نام عنهنّ لاهيا

ومن قوله : (البسيط)

هل عمّروا الأفقَ بالآرام والعُفَرِ (٥) | أم كحّلوا الشّهب بالتّغتير والحَوَر
والنقع قد مدّ جنحَ الليل فوقهُمُ | أم عينُهُم لا ترى التضغيرَ للشَّعَر
والأرض قد أُلبستْ أدراعَ أبحُرها | وجُرّدت فوق أيديها ظُبا الغُدُر (٦)

=:=

(١) العيس بالكسر: الابل البيض يخالط بياضها شقرة . (القاموس : ٧٢٢)
(٢) في الذخيرة . شائرا .
(٣) في الأصل : المعاليا والتصويب من الذخيرة .
(٤) في الذخيرة : وعزّعلى العليا أن يلقى العصا .
(٥) العفر: ظاهر التراب . (القاموس المحيط : ٥٦٨)
(٦) في الأصل : القدر ، وما أثبتنا من الذخيرة .

ماكان في هيئة الأرض القيام لنـا (١) بالليل لو لم تؤيـد بابنها عُمر

أنتم غنى مسلم يا آل مَسْلَمة بالجود اذ لم ينازعه بنو قَطَر (٢)

لولاكم أهلكَ الناسَ استواؤهُم ولم يكونوا سوى دُهْم بلا غُرر

ومن قوله : (البسيط)

سروْا (٣) ومسك الدياجي غير منهوب وطرةُ الشرق غُفل دون تذهيب

والغيم (٤) ينثر منه راحةً خُضِبت بالبرق فوقيَ دُرّا (٥) غيرَ مثقوب

هيهات لا أبتغي منهم هوىً بهوى (٦) حسبي أكونُ محبا غيرَ محبوب

يا دهرُ إن توسع الأحرار مظلمة فاستثني إنّ غَيْلي (٧) غيرُ مقروب

ولا تَخَلْ أنني ألقاك منفردا إنّ القناعةَ جيش غير مغلوب

ما كلّ من سيمَ خسفا عاف موردَه إنّ الإباءَ لظهر غيرُ مركوب

أمشي البَرازَ ولا أُعنى به أثَري (٨) حسبُ العريب ركوبُ القاع ذي اللوب (٩)

==:=

(١) في الأصل : ماكان من منه الأرض القيام بنا ، والتصويب من الذخيرة .

(٢) أراد الشاعر مسلم بن الوليد حين مدح يزيد بن مزيد الشيباني ، وهو قوله

سل الخليفة سيفا من بني مطر أقام قائمه من كان ذا ميل

وبنو مطر : بطن من طاسم من العماليق ، كانت مساكنهم مع قومهم بني طاسم بيثرب الى أن أخرجهم منها بنو اسرائيل (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي : ٣٧٧)

(٣) في الذخيرة : ساروا .

(٤) في الأصل : والغيث ، وما أثبت من الذخيرة ٢ / ٦٩٨ .

(٥) في الأصل : بالبرق فوق ذرا ، والتصويب من الذخيرة .

(٦) في الأصل : هيهات لا أبتغي منهم هوى . . . والتكملة من الذخيرة .

(٧) غيلي ، الغيل بالفتح : الساعد الريان الممتلئ والغلام السمين العظيم . (القاموس المحيط : ١٣٤٤)

(٨) في الأصل : ولا أعلى به أثري ، وأثبت ما في الذخيرة .

(٩) القاع ذي اللوب : القاع الأرض السهلة المطمئنة المعيدة عن الماء (القاموس المحيط ٩٧٨)

ومن قوله : (البسيط)

لئن نَبَتْ حمصُ لي واللهُ يعصمها ... ركبتُها عزمةً تشأى الكواكبَ بي (١)

وللمؤيدِ مدّ الله مدتـه ... رأيٌ يغالطُ شُهبَ الليل في القُطُب

تراه إنْ تدعُه يومَيْ ندىً ووغى ... النارَ في عرفجٍ (٢) والماءَ في صَبَب

إليك مني أعزّ اللهُ نصرَك ما ... أبقتْه أيدي السُّرى والبِيدِ والنُّوَب

جاءتك ترقصُ أردانُ الكلام به ... سوابحٌ تأكل الغبراءَ بالخَبَب (٣)

ومن قوله : (الكامل)

شامتكمُ في المكرماتِ عزائم ... جارٍ على أحكامها التأبيد (٤)

وعلاً نشأتَ مع النجوم وقبلها ... ولهنَّ من بعد النجوم خلود

من معشرٍ أخذوا بأطراف العُلى ... والأفقُ غُفل والليالي سود

جادوا فلا حت في البسيطة أنجم ... وسطوْا فثارت في السماء أسود

لا ذنبَ للآمال إلا أنها ... شهبٌ لها من أن تراك سعود

أكلتْ إليك الأرضَ وهي بحبسها ... إن لم تعُقها من نوالك قيود

ومن قوله : (الوافر)

لقد زرّوا (٥) الضلوع على قلوب ... لو انتضيتْ لقطّ بها الرقاب

ولو بسوى الرشيد جعلتُ هَدْيي ... لضلّ الركب فيها والركاب

=:=

(١) في الأصل : ركبتها عرية نشاه الكواكب . . . والتصويب والتكملة من الذخيرة .
(الذخيرة : ٢/ ٧٠٦)

(٢) العرفج : شجر سُهلي ، واحدته عرفجة ، والمرافج : رمال لا طريق فيها (القاموس المحيط ٢٥٤

(٣) الخبب : ضرب من العَدْو ، أو كالرَّمل ، أو أن ينقل الفرس أيامنه جميعا وأياسره جميعا ، أو أن يراوح بين يديه ورجليه وقيل الخبب : السرعة (لسان العرب : ١/ ٣٤١)

(٤) في الأصل : عزائم على أحكامها التأبيد ، والتكملة من الذخيرة ٢/ ٧٠٧

(٥) في الأصل : لقد ردوا ، وأثبت ما في الذخيرة ٢/ ٧٠٨ .

من الثّغر الأُولى طلعوا نجوما	فمِن أنوائهم فينا انسكاب
ونار فقلت في الغبراء برج	وثار فقلت في الخضراء غاب
لقد عُقِدتْ حُباه على جِلال (١)	ظباه فلا تهاب كما تهاب
كأنَّ عِداهُ في الهيجا ذنوب	وصارمَه دعاء مستجاب

ومن قوله : (الطويل)

طمعت لحمص أن تلين لمطلبي	ولا عجب قد يرشح الحجرُ الصّلْد (٢)
ولي فأسأتُ ،الذنبُ في ذاك لا لها	فمذ توجّد (٣) الجُعلان (٤) لم ينفق الورد

ومنه قوله : (الوافر)

سأطلبُ لا بألسنة اليَراع	سوى ذا الحظّ من أيدى الزماع
وأخبطُ بالسّرى وَرقَ الدّياجي	ووجهُ الموت محدورُ القناع
وأمرقُ من أسارير المواضي	كما مرق الهلالُ من الشعاع
فسلني عن ملوك الارض تسأل	خبيرا فاقض حق الاستماع
عرضتُ عليهمُ نفسي ونفسي	لأوضح (٥) غَبْنَهُمْ عند البياع
فما اتبعوا دليلا في اجتنابي (٦)	ولا سلكوا سبيلا في اصطناعي
كأعضاء بها ألم فقلب (٧)	على ضَعفٍ ورأس في صداع
فما أبقوْا ولاهُمُ وابقيا	ونقل الطبع ليس بمستطاع

(١) في الأصل : جلال .
(٢) الصّلد : الصّلب الأملس. (القاموس المحيط : ٣٧٥)
(٣) في الأصل : فمذ تحضر (الذخيرة : ٢/ ٧١١)
(٤) الجعلان : أعمى الأجرة والثواب. (اللسان العرب : ١١/ ١١١)
(٥) في الأصل : لا يوضح ، والتصويب من الذخيرة.
(٦) في الأصل : احتباى
(٧) في الأصل : فقلت (الذخيره : ٢/ ٧١٢)

ومنه قوله : (المتقارب)

وما أنس ليلتنا والعناق ... وقد مزج الكلَّ منا بكل

إلى أن تقوّس ظهر الظلام ... وأشمط عارضه وأكتهل

ومسّ رقيق رداء النسيم (١) ... على عاتق الفجر بعض البلل

فرحت وذنبي أمير الذنوب ... ودولته فوق تلك الدول

ومنه قوله : (الطويل)

ملكت فأسجح لا أبا لك يا دهر ... أفي (٢) كل عام في العلى فتكة بكر

مضى لم يرث عنه السيادة وارث ... ولولا الساعي (٣) الزهر لانقطع الذكر

فيا ليتني بين العوالي وبينه ... وقد ملكتني من أعنتها فسهر (٤)

لأطبق منه بالعشا حدق القنا ... ضرابي وإن كانت لها الأعين الخزر

قلت : ولقد قال ابن بسام بعد هذه الأبيات كلمات يسخر فيها بابن عبدون ، حيث ادّعو الغناء في الحرب الزبون (٥) ، ولعمري ولقد أطرف .

وهو قوله :

فيا لأبي محمد بن عبدون في الحرب الزبون مجنًّا ليس بحصين ليته كلما شهد وقيعه ، كان كمجن ابن أبي ربيعة (٦) حسبه الكتب من الكتائب ، وكفاه اعتناق

=:=

(١) في الأصل : ومس رقيق النسيم : وقد أكملت الشطر من الذخيرة : ٢ / ٧٠٥)

(٢) في الأصل : ان كل ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبت . (الذخيرة : ٢ / ٧٢٠)

(٣) في الأصل : ولا المساعي ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبت (الذخيرة : ٢ / ٧٢٠

(٤) في الأصل : قهر ، وهو تصحيف ، والصواب ما أثبت ، وفهر هي قبيلة الشاعر التي ينتمي اليها . (الذخيرة : ٢ / ٧٢٠)

(٥) حرب زبون : حرب يدفع بعضها بعضا ، متتالية ومستمرة (القاموس المحيط : ١٥٥٢)

(٦) اشارة الى قول عمر بن أبي ربيعة في قصيدته المشهورة :

فكان مجني دون من كنت أتقي ... ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

القضب من خرط القواضب ،ورأى فِهرا لو ملّكته يوسعف أعنّتها ،وجعلت إليه سيوفها وأسِنّتَها ،لمات ميتةً ضحّاكيّة (١) ،أو حيّ حياة فِهريّة قَطَنِيّة (٢) ، ولخرّ البيت وعموده ،وضاع الرعيل ومن يقوده

انتهى كلامه .

وبالله لقد ضحك منه في موضعه ،وقطع جلده بمبضعه ،وأنكاه بكلمته التي هي أشدّ شدخا من الحجر ،وأحزّ وخزا من الإبر لقد ضربه على أخدعه (٣) ورماه على جنبه لمصرعه ،وأنكاه للسكين إلا أنها التي لا تُذَكّى بها الذبائح ، وغطّاه إلا أنه هتكه بالفضائح ،ومن أين هذا البطل وما ادّعاه وكيف يرى جنانه الجبان لو وعاه ،وماذا تراه كان يمنع والعوالي مطبقة ، والأعادي محدقة ، وأنّى سَمَتْ به همته حتى يتحمّل عن هذا الحائن (٤) الميت حَيْنَه ، ويقول فيا ليتني بين العوالي وبينه .

ثم هو بهذا العقل يروم أن تُملّكه فهر (٥) أعنّتها ،ماحق فِهر على الله أن تُهان ولا أن يطيرَ مع فرع السّحاب منها أبان ،لقد عرّض هذا اللبيبُ نحره للمُدى تَبريه ،وحبّب إلى هذا البطل الموت وهو كريه ،لا بل هو بعض ما يسوّل له ذو الدعوى ويُريه ،لَشدّ ما أظنّ الذئاب وفخر بملبسه الغراب ،وتطاول

=:=

(١) نسبة الى الضّحاك بن قيس الفهري ،أي كما مات .
(٢) نسبة الى عبد الملك بن قطن الفهري والي الأندلس ،وقد طالت حياته ، وانظر ابن عذارى : ٢ : ٣٢)
(٣) في الأصل : أجذعه ،وهو خطأ ،والصواب ما أثبت ،والأخدع : عرق في المحجمتين ،وهو شعبة من الوريد . (القاموس المحيط : ٩٠٩)
(٤) في الأصل : أن يعلكه فهر أعنتها ، والصواب ما أثبت
(٥) الجندل : مكان تجتمع فيه الحجارة . (القاموس المحيط : ١٢٦٦)

الجندل (١) وهو مجلّل في التراب .

ثم أعود إلى بقية مما لابن عبدون ، فمنه من قصيدته المشهورة التي ذكر فيها بكيّاتِ الأيام ، وكثاب الأنام .

ومنه قوله : (البسيط)

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصوّر

انهاك انهاك لا آلوك معذرة (٢)   عن نومة بين ناب الليث والظفر

فالدهر حرب وان أبدى مسالمة   والبيض والسمْر مثلُ البيض والسُّمُر

فلا تغرّنك من دنياك نومتها   فما سجيّة عينيها سوى السهر

ماللياليِ أقال الله عثرتها   من الليالي وخانتها يد الغير

تسُرّ بالشيء لكن كي تغرّ به   كالأيم (٣) ثار الى الجاني من الزهر

بني المظفر والأيامُ ما برحت   مراحلا والورى منها على سفر

سحقا ليومكم يوما ولا حَمَلَت   بمثله ليلة في مُقبلِ العُمُر

ويح السماح وويح البأس لو سلما   وحسرةَ الدين والدنيا على عمر

سقت ثرى الفضل (٤) والعباس (٥) هامية   تُعْزى إليهم سماحا لا إلى المطر

ثلاثة ماارقى النسران حين رقَوْا   وكلّ ماطار من نسر ولم يطر

ومرّ من كلّ شيءٍ فيه أطيبه   حتى التمتعُ بالآصال والبُكُر

=:=

(١) في الذخيرة : موعظة : ٢/ ٧٢١ .

(٢) الأيم : الحيّة . قال أبوخيرة : الأيم والأين والشيطان الذكران من الحيّات ، وهي التي لا تضرّ أحدا ، وجمع الأيم أيوم (لسان العرب : ١٢/ ٤٠)

(٣) في الأصل : سقت الفضل ، والتصويب والتكملة من الذخيرة ، والفضل هو ابن العباس ابن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٤) العباس : هو العباس بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، أسلم قبل فتح مكة وحضر مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح . (طبقات الشعراء : ٣٥٤)

كانوا رواسي أرض الله مذ نَأَوْا عنها استطارت بمن فيها ولم تَقَرِ

على الفضائل الا الصبرَ بعدَهُمُ سلامُ مرتقِبٍ للأجر منتظرِ

يرجو عسى وله في أختها أملٌ والدهر ذو عُقَبٍ شتى وذو غِيَرِ

ابو محمد بن الجبير

ومنهم : أبو محمد بن الجبير (١) ، لفظه الحبير ، وحفظه الخبير ، وحظه نابهٌ ولحظه للنجوم مشابهٌ .

وقال فيه الفتح : الذي بهر بإبداعه ، وظهر على الصبح عند انصداعه ، وعطّل العوالي ببراعه ، وأطلع رائقا ، فجاء متناسقا . (٢)

ومن نثره قوله :

أيّد الله الفقيه الأجلّ ، والغيث الواكف (٣) المنهلّ ، قاضي الجماعة وسيّدها ، وعاضدها ومؤيّدها ، إنه لمّا أذا بثي لفحات الأشواق ، الى تلك الآفاق ، التي تشرقون بها أقمارا ، وتفهقون (٤) فيها بحارا ، وعاينتُها نفسا صَبّة ، وقلبا قد حُشيَ محبّةً ، بمارقتُه لعلاك من برود ، كصفحات الخدود :

(الكامل)

جادت عليه كلُّ عين ثرّة فتركن كلّ قرارة كالدّرهم (٥)

ونظمته من حلالٍ كلاما ، لو شُرب لكان مُداما ، وضُرب به لكان حساما .

=:=

(١) هو عبد الله بن عثمان بن عيسى بن الجبير اليحصبي ، من أهل لوشة ، كان من الأدباء الشعراء من بيت أدب ونباهة ، وله رواية وعناية وتوفي سنة ٥١٨ (القلائد ١/ ٤٤٢) و(التكملة / ٨١٧- ٨١٨)

(٢) في القلائد : فجاء به متناسقا .

(٣) الواكف : الممطر والغزير . (القاموس المحيط : ١١١٣)

(٤) في القلائد : تفقهون وهو خطأ وما أثبته هو الصواب ، وفيهق الاناء (كفرح) فيهقا وفهقا : امتلأ وهذا هو المعنى المقصود .

(٥) في القلائد : دارت ، فتركن كل حديقة .

أَبُو

مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الْغَفُورِ

ومنهم : أبو محمد بن عبد الغفور (١) ، وهو ممن ذمّه الفتح ، وثلمه بالقدح وأكل ولم يَخَفْ إثمه ، وقال :

قد كنت نويت ألاّ أُثبتَ له ذكراً ولا أُعملُ فيه فكرا ، وأَدَعـه مُطّرحا ، وأُقطِعـه الإهمالَ مَسرحا .

ومن نثره قـولـه :

يتردى من قادة (٢) ذويك وإخوتك السّادة (٣) وأقربيك بنجوم رجـال كالجبـال ، أنت بدرها المنير ، ورضوى ماثلا بينهـا أو ثبير (٤) إن دنا من علائـك شيطانُ فتنة ، رجَمْتَه بمشرَعات الأسنّة ، أو زَحَم (٥) ،

(٦) ركن سناؤك مَنكب عظيم اختطفْته بمطوقات (٧) الأعنّة ، تُطيع إقحامَها باللُّجم ، وتفهَم عن أهلها تحت اللُّثم (٨) ، كأنما اقتعدت من صهواتها بروجا ، واعتقدت الى حيث المنـازلُ (المقدّرةُ لأشباهها (٩)) عروجا .

=:=+

(١) هو عبد الغفور ابن ذي الوزارتين أبي القاسم محمد بن عبد الغفور صاحب المعتمد بن عبّاد ، كتب لأمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين ، ترجمه ابن بسام في الذخيرة ٢ / ١ / ٣٢٥ ، والفتح في القلائد ، وابن سعيد في المغرب ١ / ٢٤١ ، والعماد في الخريدة ٢ / ٤٢٤

(٢) في الأصل : من قاته ، وهو خطأ ، والتصويب من القلائد ٢٠ / ٣٢٥ .

(٣) في الأصل : السيادة ، وهو خطأ ، والتصويب من القلائد .

(٤) رضوى و ثبير : ثبير من أعظم جبال مكة ، بينها وبين عرفة ، سمي ثبيرا برجل من هذيل مات في ذلك الجبل فعرف الجبل به ، واسم الرجل ثبير ، وروى أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : لما تجلّى الله تعالى للجبل يوم موسى ، عليه السلام ، تشظى فصارت منه ثلاثة أجبل وقعت بمكة ، وثلاثة أجبل وقعت بالمدينة ، فالتي وقعت بمكة حراء و ثبير و ثور والتي وقعت بالمدينة أحد و ورقان ورضوى . (معجم البلدان : ٢ / ٧٢) .

(٥) في القلائد : أوزاحم .

(٦) في القلائد : حطمته بمقرطات الأعنة .

(٧) في القلائد : وتفهم عن أهلّة لثم .

(٨) ما بين الحاصرتين زيادة من القلائد .

ومنه قوله : جواب كتاب يتضمن الاعتذار عن هزيمة ، وهو : ما بعثناك لتشهد وإنما بعثناك لتجهد (١) ، فإذ الم تفعل ، فلا أقلّ من أن تتجلّد ولا تتبلّد ، وتصبر ، وتحملَ من معك على الصبر ولا تكن أوّل من فرّ ، فتُعدي بفرارك تَثَبّتَ جارك ، ولو كتمتَها من شهادةٍ لَما أَثِم قلبُك فلا تُواتر الكتبَ ، بما يثير عليك العَتْبَ ، ولْتأنف في المستأنف ، من إيثار الدنّيّة على المنيّة (٢) ، والسلام .

ومن نظمه قوله : (مخلّع البسيط)

أشهبُ كالرّجم مُستطـــير كأنّه الشّيب في المفـــارق
خبَّ غداة الرّهان حتّى أجهَد في إثْرِه البـــوارق

==:=:=:=:=:=: : :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) في الأصل : لتجهل ! ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبت .

(٢) بعد هذه في القلائد : ولتكن لك نفس أبية ان شاء الله والسلام .

أبو بكر

بن عبد العزيز

ومنهم أبو بكر بن عبد العزيز: (١) ما نقص من الأدب نصيبه، ولا أجدب خصيبه، تَشِفُّ كلماته نورا، وتُرشف ثغورا.

قلت: وقد ذكره ابن بسّام فقال: سابق لا يُمسح وجهه إلا بهيادب الغيوم وصارم لا يُحلّى غمده إلا ... بأفراد النجوم، وكان نشأ بين يدي أبيه في دولة المعتمد بحيث تفيء عليه ظلالها، ويتشوّف إليه إقبالُها، وانشقت تلك السماء قبل أن ينوب منابَ سلفهِ في سُرُجِها ويحلّ بيت شرفه من أبرجِها ولله هو، فلئن كان نبا به الأوان، وضاق عنه السلطان فلقد نهض به جَنان يتدفّق بالغرائب، ولسان يغري شَبا النوائب وإحسان يملأ أقاصي المشارق والمغارب، وقد أخرجت له ما يخجل به الخدود، ويعطل سوالف الغيد (٢)

=:=

(١) هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز بن محمد بن الحسين بن كميل اللخمي الاشبيلي المعروف بابن المرضي أخذ عن ابو الوليد العتبي وأبي عبيد البكري وأبي الحسين بن سراج، وأ.. بي علي الغسّاني، سكن قرطبة واختص بأميرها المرابطي محمد بن الحاج داود اللّمتوني، فلما توفي يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠هـ رفض ابن الحاج أن يبايع ابنه عليا وانحاز له الملأ من أهل قرطبة ثم ان ابن الحاج نكب وفسد تدبيره ففرّ أبو بكر بن عبد العزيز الي شرق الأندلس حتى اذ ارضي علي بن يوسف على ابن الحاج عاد أبو بكر الي صحبته عندما ولي فاس ثم سرقسطة وبلنسية، وظل في صحبته حتى قتل سنة ٥٠٨، وفي آخر عمره جلس يقرئ الناس الكتب الأدبية، وقد كان محدثا ضابطا متقنا حسن الخط، واستكتبه علي بن يوسف مع أبي الخصال، وروى عنه ابنه الوزير أبو الحكم وغيره وتوفي سنة ٥٣٦، وقال العماد: سنة ٥٤٠. انظر الخريدة ٣/ ٤٣٣، والبغية/ ١ ٢٠، المطرب: ٢٠٧، والقلائد ١/ ٤٧٧، والمغرب ١/ ٣٧، والصلة/ ٥٥٥، والذيل والتكملة ٦/ ٥٠٤ ومعجم الصدفى: ١٣٢، ونفح الطيب ٣/ ٤٥٨، ٥٧٠، والذخيرة ٢/ ٤/ ٥٣٣

(٢) لقد خلط المؤلف بين أبي بكر بن عبد العزيز هذا وأبي محمد عبد الغفور السابق، وهذا الكلام إنما قاله ابن بسام في حق عبد الغفور بن محمد بن عبد الغفور وانظر الذخيرة ٢/ ١/ ٢٢٥-٢٢٦

ومما أورد من نثره قوله :

وصل كتابك فشفى عليلا، وبرّد غليلا، ونسم من روح الظفر بالأمل نفسا بليلا، وماكان لشرب ودك العذب أن يصير صابا، ولا لمحل مجدك الموفي على الشهب أن ينحطّ نِصابا، ولا لِوفاء منك (وقد) رسا ثبيرا (١) أن يذهب مع الرياح هباء مستطيرا عُقدةُ وُدّكَ أحصفُ، وحجابُ مجدك أضفى من أن يُسترقّ وأكثف، بقيتَ لِغمّاء تجلّيها ونعماء تُوليها، وعلياءَ تُنافس فيها، وإن أتبع سيدي فَرَس البِر لجامها، وأردف عارض المسرّة التئامها (٢)، فقد أمكن من الإحضار، وروّى ظِماء آمالي بمنهلّ القِطار.

قال : ومن نثره قوله مما كتب به إلى محمد بن القاسم :

(كيف) (٣) رأى مولاي في عبده مؤاتٍ (٤) يرى الوفاء دينا ومِلّة، ولا يعتقد في حفظ الإخاء مَلّة ادرع العقوق، ولبِسَتِ الحُلّةُ، أيَرُدّه بعيب ماجناه الدهر أم يسمحُ (منبهته الصبر (٥)) بل يسمح ويصفح، ولو كان الغضب يفيض على صدره ويطفح، فله أعزه الله - الفعلُ الأوضح (٦)، والعقل الأرجح، والخلق الأسجح (٧)، والأناةَ التي يزلّ الذنبُ عن صفاتها، ولا يتعلّق العيبُ بصفاتها.

(١) ثبير : ماءة بديار مزينة، أقطعها رسول الله صلى الله عليه وسلم، شريس بن ضمرة، وسمّاه شريحا. (القاموس المحيط : ٤٥٧)

(٢) في الذخيرة : وفرع عارض المسرّة تكاثفها والتئامها ٢/ ٣٢٧

(٣) زيادة من القلائد : ٣٢٥.

(٤) في القلائد : هو أنا مؤاتيها.

(٥) زيادة من القلائد.

(٦) زيادة ليست في القلائد. (٧) الأسجح : الحسن المعتدل (القاموس المحيط : ٢٨٥)

ومنه قوله:

وكتب إليه (مسليا عن نكبته): (١) الوزير الفقيه، أدام الله عزّه، وكفاه ماعزّه (٢) أعلمُ بأحكام الزمان من أن يَرفع إليها طرْفا أو يُنكِر لها صرْفا، أو يطالب في مشارعها مشربا زُلالا أو صرْفا، (٣) فشهْدُها مشوبٌ بعلقم، وروضها مَكمَن لكلّ أرقم (٤)، وما فجعته الحوادث (٥) بنكبةٍ ولاحطّته النائبات عن رتبة، ولاكانت الأيام قبل رفعه بوزارة ولاكتابة، فهو المرء يرفعه دينه ولبّه، وينفعه لسانه وقلبه، ويشفع له علمه وحسبه، وتسمو به همّته وأدبه، ويعنو بين يديه شانئُه وحاسده، ويَنبُت في أرض الكرم (٦) حين يريد أن يجتنيه (٧) حاصدُه، يَقرّ له بالفضل من لا يودّه، وينصره الله بإخلاصه حين لا ينصره سُواعه (٨) ولا ودّه وماهو إلاّ نصلٌ أُغمد ليُجرّد، وسهمٌ سُدّ طريقُه ليُسدّد، وجواد ارتُبط ليُحلّ (٩)، وقطر نأى به سحابُه، وسيسيلُه (١٠) عنانُه، وسينجلي هذا القَتام (١١) عن سابق (١٢) لايدرك مَهَله، ويعتمده المَلِك الهُمام باكرام لايكدّر نَهَلُه.

=:=

(١) في الأصل: فاكتبه إليها أيها الوزير الفقيه، وماأثبت من القلائد

(٢) أي ماغلبه

(٣) في الأصل: مشارعها ولالا أو خرفا! والتصويب والتكملة من القلائد: ٤٨٠.

(٤) في القلائد: لكل صل أرقم.

(٥) في القلائد: ومافجأته ـ أعزه الله ـ الحوادث

(٦) في الأصل: وينبت في أسده في أرض الكرم والتصويب من القلائد.

(٧) في القلائد: يحتثه. (٨)

(٨) سواع، بالضم والفتح وقرأبه الخليل في قوله تعالى ((وقالوا لا تذرُن آلهتكم ولا تذرُن ودا ولاسواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا)) (نوح: ٢٣). وسواع صنم عُبد في زمن نوح عليه السلام، فدفنه الطوفان، فاستشاره إبليس، فعبد وصار لهذيل، وحج اليه (القاموس المحيط: ٩٤٤)

(٩) في القلائد: ليخلي

(١٠) في القلائد: وسيسلمه، وماأثبت من الأصل هو في بعض النسخ المخطوطة.

(١١) في الأصل: واستحلى هذا القيام اوه وخطأ، والتصويب من القلائد.

(١٢) في الأصل: سوابق، والصواب ماأثبت.

أَبُو

جَعْفَرُ بْنُ أَحْمَدَ

ومنهم : أبو جعفر بن أحمد (١) : بيانه أسحر من الحدَق ، وأسحر من ضوء الصباح بالغسق ، لا ينزح من الكلام قليبُه ، ولا يبرح فيه نَفَس السحر أوقريبه .
وقال الفتح : وكانت له نفس عَليّةٌ ، تُزهى بها الجوانح والضلوع ، وسجيّة سنيّة يعبق الفضلُ منها ويضوع .

ومن نثره قوله :

زارنا الورد بأنفاسك ، وسقانا مُدامةَ الأنس من كاسك ، وأعاد لنا معاهد الأُنْس جديدةً ، وزفَّ إلينا من بنات (٢) البرّ خريدةً (٣) ، فاحمرّ حتى خلته شَفَقا ، وابيضّ حتى أبصرتُه من النّور فَلَقا ، وأرِجَ حتى كأنّ المسك في ذُكائه ، وتضوّعَ حتى قلت الورد يقطر من حَيائه (٤) ، فليتصورْ شُكرى (٥) في رُؤاه ، وليتخيّله في نفحته ورَيّاه .

=:=

(١) « أبو جعفر بن أحمد الوزير الكاتب » قال عنه صاحب المغرب نقلا عن المسهب أنه من أعيان كتاب بلنسية ، وأورد له ما في كتاب القلائد ، وانظر المغرب ٢ / ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، والقلائد ١ / ٤٨٦

(٢) في القلائد : فتيات .

(٣) الخريدة : البكر لم تمسس ، أو الخفرة الطويلة السكوت ، الخافضة الصوت المتسترة (القاموس المحيط : ٣٥٦)

(٤) في القلائد وتضاعفت حتى قلت الورد من حيائه .

(٥) في الأصل : سكرى في دواه وليتحيله في رباه ! ، والتصويب من القلائد ، وبعدها زيادة . ان شاء الله عز وجل .

أَبُو عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ الخَضَّالُ

ومنهم : أبوعبدالله بن أبي الخصال (١) : كاتب المغرب بيانه المُنتقى ، طابق ذكره مغربا ومشرقا ، وطوق الربا مُنجدا ومُعرقا ، قطاف القول مُنوّرا ، وقطع نهارالفضل مُبصرا ، وسبق الأوائل ، وماجاء متأخرا ، وسبق الى فروع الجوزاء مثمرا .

قال الفتح فيه : تميّز بنفسه وتحيّز من جنسه ، وظهر بذاته ، وفخر بأدواته وتعلّق بأبي يحي بن الحاج فملك قياد مأموله ، وهبّ من مرقد خموله ولم يزل عاثرا معه ومُستقلا ، ومثريا حينا وحينا مُقِلاّ الى أن تورطوا في تلك الفتنة ، التى ألقحوا حائلها ، وما لمحوا مخائلها ، وطمعوا أن يغتالوا من أميرالمسلمين ملِكا معصوما ، وأبرموا من كيدهم ماغدا بيد القدر مفصوما .

وقال :

ولما نكب الوزير أبومحمد بن القاسم ، خاطبه كلّ وزير (٢) مسلّيا عن نكبته وانتقاله من رتبته ، فكتب اليه هو في جملة من كتب ، ولم يكن نازلا عن تلك الرّتب (٣) برقعة مُستبدعَة ، أظهر فيها محاسنَه وبِدَعه ، وهي :

=:=

(١) هو محمد بن مسعود بن طيب بن خلصة المعروف بابن أبي الخصال الغافقي أبوعبدالله ، (٤٦٥ - ٥٤٠) من بلد فرغليط من عمل شقورة ، له تفنن في العلوم والاداب ووزر للأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ، وله تصانيف كثيرة ، قتل في فتنة ابن حمد بن علو أيدى المصامدة سنة ٥٣٩ أو ٥٤٠ ، ومن مؤلفاته (ظل الغمامة وطوق الحمامة) "وسراج الأدب" وغيرها ، انظر ترجمته في المعجب : ٢٣٧ ، والقلائد ١/ ٥١٨ والصلة : ٥٥٧ وبغية الملتمس : رقم ٢٨٢ والمغرب ٢/ ٦٦ والمطرب / ١٨٧ ، ومعجم الصفدى : ١٤٤ ، وفهرسة ابن خير : ٣٨٦ ، ورايات المبرزين : ٧٤ ، والنفح : ٣/ ٢٦٨ ، ٤٦٦ ، ٥١٩ ، ٦٠٢ والخريدة ٢/ ٤٤٩ ، وبغية الوعاة : ١٠٤ والذخيرة ٣/ ٢/ ٧٨٦ وغيرها .

(٢) القلائد : كل زعيم .

(٣) في القلائد : وان كان نازلا عن تلك الرتب ، ولعل ماأثبت هو الصواب ، وهو في الأصل .

مثلك ثبّت الله فؤادك، وخفف على كاهل المكارم ماآدك، (١) يلقى دهره غيرَ مكترث، وينازله بصبر غير منتكث، ويبسم عند (٢) قطوبه (٣) ويفلّ شباة خُطوبه، فما هي إلا غمرةٌ ثم تنجلي، وخطرةٌ يليها من الصنع الجميل مايلي، والحرّ حيث كان حُرّ، والدرّ برغم من جهله دُرّ، وهل كنت إلا حساما انتضاه قدر أمضاه (٤) فإن أغمده فقد قضى ماعليه، وإن جرّده فذلك إليه، أما أنه ماتثلّم حدّه، وليس جوهر الفِرِند (٥) خدّه، لايعدمُ طَبِناً (٦) يشترطه، ويمينا تخترطُه، هذه الصّصامةُ، تقوم على ذكرها القيامة، ماض طبّقت البلاد أخبارُه، وقامت مقامه في كل أفق آثاره، فأما حامله فنسيّ منسيّ، وعدم منفي، كلالقد بقيت الحقائق، وأنبتّتْ تلك العلائق، فلم يصحبه غيرغرار ومتن عار، كلاهما بالغ مابلَغ، ووالغُ معه في الدّماء ماولغ، وماالحسنُ الا المجرّد العُريان. وماالصبح الا الطالقُ الأضحيان، وماالنور إلا ماصادم الظلام، وماالنَّور إلا مافارق الأكمام، وفي هذه الحال أسَف تردّدَ، وذنوبٌ على الأيام لاتحصى وتعدّدُ.

ومنه قوله وقد طالب الفتح منه من الغرائد مايثبته في القلائد: وأنــــا بنفسي أعلم، وعلى مقداري أحوط وأحزم، والمُعيديُّ يُسمع (٧) به ولايُرى، فشخصُه مقتحم مُزدَرى، وفي الوقت من فرسان هذا الشأن، وأذمار هذا المضمار، من يحسدُ فِقَرهُ الكواكب، ويترجّل إليه منها الراكب، فأما الأزهار فعلقاة في رباها، ولوحلّـــت

=:=

(١) في القلائد: ماأدهى بك وآدك: ماألمّ بك من شدة.

(٢) في الأصل: عند، والصواب ماأثبت.

(٣) قطوبة من قطب: زوى مابين عينية وكلح. (القاموس المحيط: ١٦١)

(٤) بعدها في القلائد: وساعد ارتضاه

(٥) الفرند: السيف (القاموس المحيط: ٣٩١)

(٦) طبنا: الطبن: الفطن والمدبر واللقن. (القاموس المحيط: ١٥٦٥)

(٧) من المثل العربي: (تسمع بالمعيدي خيرلك من أن تراه) وسيمرشرحه في صفحة ٨٩.

عن المسك حُباها ، وصيغت من الشمس حُلاها ، فهي تنظر من الوَجْد ، بكل عين شكـرى لا تكرى ، فاذا كانت أنفاس هذه الأفراد مبثوثة ، وبدائعهم منثوثة (١) ، وخواطرهم على محاسن الكلام مبعوثة ، فما غادرت متردّما ، ولا استبقت لمتأخرها متقدّما ، فعندها يقف الاختيار ، وبها يقع المختار.

(١) منثوثة ، من نثّ الخبر : أفشاه ونشره (القاموس المحيط : ٢٢٦)

أبو
محمد بن مالك

ومنهم: أبو محمد بن مالك (١): سريعُ البديهة، مريع المراتع النزيهة يتدفق الأدب بين جنبيه تدفق الجدول على جانبيه، ويتسرع الكلم عليه، كالقلم بين إصبعيه، كلاهما بارق يقتدح، وسابق الى مايقترح.

قال الفتح: كتبت إليه يوما مودّعا، فجاوبني جوابا مستبدعا، وأخبرني رسولي أنه لما قرأ الكتاب وضع وسوّى، وكتب وما فكّر ولا روّى:

ياسيدي الأعلى جرت الأقدار بجمع افتراقك، وكان الله جارَك في انطلاقك، فغيرُك من رُوّع بالظّعن، وأرقد للوداع جاحم الشّجن فانك من أبناء هذا الزمن، خليفة للخضر (٢)، لا تستقر على وطن، والله يختار لك ماتأتيه وماتدعُه، مُوكّل بفضاء الأرض تذرعُه (٣)، فحسب من نوى بعشرتك الاستمتاع، أن يَعُدّكَ من العواريّ السريعة الارتجاع، فلا يأسف عليه لقلة الثّوى (٤) وينشد: وفارقت حتى ماأبالي من النوى.

=: : =: =: =: : =:

(١) هو أبو محمد عبد الرحمن بن مالك، كان من علماء الفقه والحديث وأهل الأدب والشعر، بوّأه يوسف بن تاشفين أرفع المراتب، وعمل لابنه علي من بعده، والتقى به صاحب القلائد بطرطوشة، وانظر ترجمته في القلائد ١/ ٥٠٠ والذخيرة ١/ ٢/ ٧٣٩ والخريدة ٢/ ٤٤٧ والمغرب ٢/ ١١٧، والنفح ١/ ٦٧٤.

(٢) اختلف فيه فقال قوم هو من أولياء الله الصالحين، وقال قوم هو نبي، والثابت أنه صاحب موسى عليه السلام، وقد زعم أناس أنه معمر محجوب عن الأبصار والحق خلاف ذلك، وممن فند هذا الادعاء الامام البخاري رحمه الله. (الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٧٥٨)

(٣) مأخوذ من قول ابن زريق البغدادي:

كأنما هو في حلّ ومرتحل موكّل بفضاء الله يذرعه

(٤) في القلائد: فلا تأسّف على قلة الثّوى.

أَبُو
القَاسِمِ بْنُ السَقَاطِ

ومنهم : أبو القاسم بن السقّاط (١) : لُجّة آداب تستفاد، وحُجّة ألباب تُستزاد، إذ كان يتلعّب بفصيح المنثور، تلعّب الريح بالمنثور، يُصرّف فيه بيانَه، ويُوليه بنانَه، فيُجيد كتابةً وخطابةً، لموقعهما في القلوب إصابة، بلطف أعبق من ردع النهود وأرق من فيه مستعذب المقاطع، كأنما صُوّر من نور ساطع، يجتليه الدهر بساما، وينتضيه حساما.

وقال وقد ذكره نثره وكتب يشفع لمُدِلٍّ بذمام شباب صُوِّحَ (٢) نَوْرُه وبرّح به غدرُ الزمان وجَوْره :

ياسيدي ومن أبقاه الله لِرُحِم أدبٍ مَجفوّةٍ ينظمها، وحُرمةٍ مقطوعة يلحِمها، الوفاء لمحاسن الأخلاق كالعلم المذهب والخضاب الموشّى لراحة الحسب، تستفيد منه بهجة التكحّل في العين، ورونق التشبيب في مصوغ التبر واللُّجين، فما أحقّه بصدر النّادي، وأسبقه إلى المزيّة بشرف المبادي، رعاية لأواصر الآداب، والمحافظة على الخلة الواشجة في أعصر الشباب وما اسحَبَتِ الليالي في ميادينه من لُبوسٍ نعيمٍ وبوس، وأجنت الأيام في بساتينه (٣) وموصله أبو فلان (٤)، ذاكر مشاهدك الغر الحسان.

ولقد فاوضني من أحاديث ائتلافكما في العصور الدارسة العافية، وانتظامكما في زهرات الأنس وظلال العافية، واتّساقكما في حبرات العيش الرّقاق الضافية، وارتشافكما سلافةَ النعيم المُزّةَ الصافية، بأفانين النجود وزخارف الروض المجود،

=:=

(١) انظر ترجمته في القلائد ١/ ٥٠٥ والخريدة ٢/ ٤٩٤ والمغرب ١/ ٤٣٨ والنفح ١/ ٦٧٥

(٢) صوح : أفل وانتهى : (اللسان : ٢/ ٥٢٠)

(٣) عبارة ساقطة من الأصل، راجع القلائد ١/ ٥٠٨.

(٤) كذا في الأصل، وفي القلائد : وموصله- وصل الله سرّاءك وأتمّ علاءك - ذاكر مشاهدك ...

ومعاطف الطرز بين خيلان الحدود ، ولوألقيت عذوبته على البحر لأصبح عذب المذاق ، ولورقّ بها البدر لوقي بها (آفة) (١) المحاق ، وأزمع أن يسير بنواقح (٢) لواعجه في متكاثف النو (٣) ، ويطير بجناح ارتياحه الى متقاذف ذلك الجو ، لتكحل بالتماحك جفونه ، وتجلو بأو ضاحك دجونه ويحقق بلقائك عهدا أنهج البينُ رسمه ، ويشاهد بمشاهدتك سرورا محت يدُ البعد (٤) رسمه ، فخاطبتُ معرضا عن التحريض ، ومجتزئا بنُبَذ العَرْض ولُمَح التعريض (٥) ، وأنت وليٌّ مايتلقاه من تأنيس ينشر ميّتَ رجائه ، ويُعمِّرُ مُقفِر أرجائه .

ومنه قوله :

يستدعي الى مجلس أنس : يومنا ـ أعزّك الله ـ يوم تنقبت شمسُه بقناع الغمام ، وذهبت كأسُه بشعاع المُدام ، ونحن من قطار الوسميّ في رداء هُدبي ، ومن نَضير النوّار ، على نَضائد النُّضار (٦) ، ومن غُرّ النُّدمان ، بين زهر البستان ، ومن حركات الأوتار ، خلال نغمات الأطيار ، ومن سُقاة الكؤوس ومُعاطي المُدام بين مُشرقات الشموس ، وعواطي الآرام ، فرأيك في مصافحة الأقمار ، ومنافحة الأنوار ، واجتلاء غُرر الظِّباء الجوازي ، وانتقاء درر الغناء الحجازي . (٧)

=:=

(١) مابين الحاصرتين من القلائد
(٢) في القلائد : بنواعج
(٣) في القلائد : في ذلك الدَّو
(٤) في القلائد : البين
(٥) في الأصل : فخاطبت محرضا على التحريض ومتحديا بلمح التعريض ، وما أثبت من القلائد
(٦) بعده في القلائد : ومن بواسم الزهر ، في لطائم العطر .
(٧) بعده في القلائد : موفقا ان شاء الله .

ومن نظامه (المتقارب)

سقى الله أيامنا بالعُذيب (١) وأزماننا الغُرَّ صوبَ السحاب
اذ الحِبُّ يابَثْنَ (٢) - ريحانة (٣) تُجاذبُها خَطَرات العتاب
واذ أنتِ نَوّارةٌ تُجتنى بكفّ المُنى من رياض التصابي
ليالِيَ والعيشُ سهْلُ الجنى (٤) نضيرُ الجوانب طلقُ الجناب
رميتُك طَيرا بذوق الصِّبا وصِدْتُك ظَبيا بوادي الشباب

==:==

(١) العذيب، قال الأزهري: العذيب ماء معروف بين القادسية ومغيثة. وفي الحديث ذكر العذيب، وهو ماء لبني تميم على مرحلة من الكوفة، مسمّى بتصغير العذب، وقيل سمي به لأنه طرف أرض العرب من العذبة وهي طرف الشيء

(معجم البلدان: ٩٣/٤)

(٢) بثن: منادى مرخّم، وهي بثينة بنت حبا العذرية، شاعرة من شواعر بني عذرة اشتهرت بأخبارها مع عشيقها جميل بن معمر العذري (أعلام النساء لكحاله: ١/ ١١٠)

(٣) في الأصل: اذ الحب يامي ريحانه، والصواب من القلائد.

(٤) في الأصل: ليالي والحجاب سهل الحجاب، والتصويب من القلائد.

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ

ومنهم : محمد بن عبد البر (١) : كبير القدر شهير السناء كالبدر توقّـــل رتب العلاء ، وتوقّى سَبَبَ الهلاء ، لو أنجى حذر من قدر ، أورد وردّ عن صَدر ، وكان عُداه قد أوقدوا عليه حطب الأجن ، ورموا عليه شباك المِجسنّ ، وقصدوه قصد السهام للغرض ، وانحاوه نحولَ المرض ، إلا أنه وسّع بفراره خُطوةَ الأَجَل حتى قطع الموت حبل المُهل ، فلما همّ به المعتضد (٢) ابن عباد ، فرّ من قبضتـــه فرار الزّئبق من النّار والخاشع الزاهد من الدينار (٣) وعلى كلامه مِسحة من السِّحر ، ونفحة من السَّحَر .

قال الفتح : وكتب الى أحد اخوانه وقد نال الدهر من امتهانه :

مَن صحب الدّهر - أعزّك الله - وقع في أحكامه ، وتصرّف بين أقسامه ، مـن صحة وسُقم ، وغنىً وعُدم (٤) ، وعند ورودي أُعلمت بما أصابتك به صروف الأيام مـن الامتهان والايلام ، وقد جمعنا حوادث الأيام وصروفها (٥) وإن اختلفت أنواعهـــا

==:=

(١) هو : أبو محمد عبد الله بن الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر النّمري ، كان من أهل الأدب والبلاغة والتقدم في العلم والذكاء ، عمل في بلاط المعتضد بن عباد ، غير أنه نقم عليه فعزله ، توفي سنة ٤٥٨ هـ في حياة أبيه الفقيه ، ترجمته في القلائد ١/ ٥٣٨ والذخيرة ٣/ ١/ ١٢٥ والخريدة ٢/ ٤٧٨ والبغية : ٣٥٤ والمغرب ٢/ ٤٠٢ والصلة : ٢٧٠ ، واعتاب الكتاب ٢٢٠

(٢) المعتضد بن عباد أبو عمرو ، أفضى إليه الأمر سنة ٤٣٣ هـ ، تسمّى أولا بفخر الدولة ثم بالمعتضد ، قطب رحى الفتنة ، كان له من الولد نحو العشرين ذكورا ، ومن الاناث مثلهم .

(فوات الوفيات ٥/ ٤٣- ٤٤)

(٣) الدّينار : يقول القلقشندي : أنه مسمّى لا حقيقة ، وانما يستعمله أهل ديوان الجيش في عبر الاقطاعات ، فكان هذا الدينار يساوي دينارا ذهبيا كاملا بالنسبـــة للأجنـــاد والأكراد والتركمان ، انظر (الصبح : ٣/ ٤٣٨) .

(٤) بعدها في القلائد : وفناء وهرم وبعاد واقتراب ، وانتزاح واغتراب . . وفي الذخيرة مثله الا أن فيه : وفتاء وهرم وهو أقرب الى الصواب .

(٥) المؤلف اختصر العبارة ، ففي القلائد والذخيرة بأتم من هاهنا ، وانظر القلائد ١/ ٥٤٠ والذخيرة ٣/ ١/ ١٢٨ ، ١٢٩ .

وصنوفها ،على أنّ مصابك أثقلُ عبئا وأعظم رُزءا فالله يُعظِم أجرك ،ويجزل ذُخرك ويجعل هذه الحادثة آخر حوادثك وأعظم كوارثك .

ومن نظمه قوله : (الرمل)

بحر سُقم ماج في أعضائه فرمى في جلده بالزبد

كان مثلَ السيف إلا أنه حسدَ الدهرُ عليه فَصَدي

وذكره ابن بسام فقال : كان قد حلّ من كتاب الأقاليم محل القمر من النجوم ،وتصرّف في التأخير والتقديم ،تصرف الشفرة في الأديم (١) ،وله ولأبيه قبله لواء سبق ،ولسانُ صِدق ،ولما شأى (٢) أبو محمد (بالأندلس) الحلبة وتبحّج صدرَ الرّتبة ،تهادته الآفاق ،وامتدتّ إليه الأعناق ،ففاز به قِدحُ عبّاد بعد طول خِصام ،والتفاف زحام ،فأصاخ أبو محمد لمقاله ،وتورّط بين حبائله وحباله ،وكان قد غصّ ابن زيدون بمقدمه ،وجهد زعموا كل جهد في إراقة دَمِه.

ولما رأى أبو محمد أنه قد باء بصفقة خسران ،وأن العَشاء قد سقط به على سرحان (٣) ،أدار الحيلة ،وابتغى إلى الخلاص الوسيلة ،فألقى عصا التّسيار وأخذ في الضياع والديار ،حتى ظنّ عبادٌ أنه رضي جواره ،واستوطن داره ،فاستنام إليه بإرساله إلى بعض حلفائه بالجزيرة ،فجعل يتغادى منها ،ويتثاقل عنها ،حتى انسلّ من يد عبّاد انسلال الطيف ،ونجا واسأله كيف .

ثم جعل يتنقل في الدول وقد جمع التالد (٤) إلى الطارف (٥) ،وكتب عندنا

=:=

(١) الأديم: البشرة والوجه (القاموس المحيط : ١٣٨٩)
(٢) شأى والشأو : السبق (القاموس المحيط : ١٦٧٤)
(٣) سرحان : الذئب (القاموس المحيط : ٢٨٦)
(٤) التالد : القديم (القاموس المحيط : ٣٤٤)
(٥) الطارف : الحديث وهو خلاف التالد (القاموس : ١٠٧٤)

عن أكثر ملوك الطوائف .

ومما أورد له من نثره قوله :

قد انتظمنا انتظام السلك ،وضرحنا عن مشارب الحان الجامعة لنا قذاة كل إفك وشك ،وظهر الحق المبين من المَيْن (١) ،وتبيّن الصبح لذي عينين ،وأُنفذت الهدية المقتضاة ،محفوفة بالحرم والمحارم ،مكنوفة بالكرائم ، ثم بالأعلام الأكارم ،وأنا أسأل الله في مُتوجَّهها ومنقلبها الرعاية الموصولة بك والكفاية المعهودةَ منك ،حتى يفيْ عليها ظِلّك ،ويُبوئها مثوى الحفاية محلّك ،ويحميَها حوزُك ومكانك ،ويُؤويَها عِزُّك وسلطانك .

ثم حسبي عليها كَرَمُك وكَنَفُك ،وخليفتي عليها بِرُّك ولطفُك ،فهي إلى الآن ملكك ،وأنت الكريم المُسجح وبضاعة متجري منك وأنت المُربح المُنجح ،فإنك والله يبقيك ويعليك ،ويشدّ قبضتك على رقاب أمانيّك ،وأرجئك ذخر الأبد ،وعتاد الأهل والولد ،وعندك ثمرةُ النفس وفلذة الكَبِد ،فارقتها عن شدة ضَنانة ، وأسلمتها بعد طول صيانة ،وما زُفّتْ إلا إلى كريم يحملها محمل الأمانة ،ويقضي فيها حقّ الديانة ،ويرعى لها انقطاعها عن أهلها ،واغترابها عن ملأها ومَنشئها وهو حكم الله الواجب ،وقَدَرُه الغالب ،وسنّته المشروعة ،ومشيئته المتبوعة ، ولنا في رسول الله أسوة حسنة ،وفيما قاله في مثل هذه قدوة يُقتدى بها وسنّة يُحتذى عليها إذ تلا قوله تعالى: ((وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الماءِ بَشراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وصِهْراً)) (٢) وقال عليه الصلاة والسلام: ((إنما فاطمة بضعة مني ،فمن أكرمها فقد أكرمني ومن أهانها فقد أهانني اللهم بارك لها

=:=

(١) المَيْن : مان يمين : كذب ،فهومائن وميون ميّان . (القاموس المحيط : ١٥٩٥)

(٢) سورة الفرقان : الآية ٥٤ .

لهـا وبارك عليهـا)) (١)

وقـولـه :

من أخرى في ذكرها ، وقد توغلّتُ معك في أسباب الأُلفة ، وهتكت بيني وبينك أستار المراقبة والكلفة ، وأنا أستريح إليك بخفيّات سِرّي وأجلو عليـك بسنيّات صدري ، خروجا إليك عما عندي ، وجريا معك على ما يقتضيه إخلاصُ ودّي ، وجلاء لشواغل بالي ، واستظهارا بك على حالي ، وشفاء لمضض نفسي ، واستدعاء لما شرد ونفر من أنسي ، كما ينفث المصدور (٢) ، ويتلقى بردَ النسيم المحرور ، وكما تفيض النفس عند امتلائها ، وتجود العين طلبا للراحة بمائها أو دمائها .

وكنت أشرت في كتابتي بتوجّه من توجّه مِن قِبَلي ، ممن كان رَوْح نفســي وريحان جَذلي (٣) ، وأنسي ، إلى أن أقرع ماقرع من لوعة الفراق ، ولذع ما لذع من روعة الاشتياق ، وأنا أظن أنّ ذلك عاقبةُ الصبر تغلبُه ، والجَلَد يَعقبُه ، وأن انصرام الأيام يُنسيه ويُذهبه ، فإذا هو قد أفرط وزاد وغلب أو كاد ، حتى نفى السُّلُوَّ ومنع الهُدُوَّ أو كاد ، وتعدى اللّذع إلى الإحراق ، وتجاوز الروع إلى الإطباق ، فالأفق داجٍ مظلم والنهار عندي ليل مستبهم ، وكلّ من كنت آنس به متوارٍ بالحجاب ، مستخفٍ بنقاب ، وإني لأُستخفُّ لما أجده حلمي ، واستضعفُ عزمي ، واستنهض للنائبات تأييدي وحزمي فينزعُ الإشفاق المستولي ، ويترجم الزفير المستعلي ، ويتصوّر لي أنّ قطعة مني باتت منفصلة عني ، وأن جزءا من أجزائي ، ذهب بصبري وعزائي ، حتى إذا تفكرت

=:=

(١) جاء في الصحيح عن المسور بن مخرمة حديث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وهو يقول : إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم إلا أن يحبّ ابن أبي طالب أن يطلّق ابنتي وينكح ابنتهم ، فإن ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها)) . انظر صحيح مسلم ٢ ١٩٠٢ ٩٣ (٢٤٤٩)

(٢) المصدور : من بلغ العرق صدره ، أمن صدر عن الماء (لسان العرب : ٤ / ٤٤٦)

(٣) جذل : فرح وسرور (القاموس المحيط : ١٢٦١)

في خروجها إليك ، وأمت من أنت تراجعت وتماسكت ، وإذا ذكرت تعريسها بـــك ، وحالك حالك تصبّرت وتمالكت ، والله يطلعني من سلامة الوصول ، وكرامة الحلول على مايُقرّ العين ، ويَسُرّ النفس بمنّه ويُمنه .

قال أبو الحسن : كناية أبي محمد عنها بالهدية كناية سرية ، وإنما احتذى في ذلك حذو بلغاء المشرق .

ذكر أبو منصور الثعالبي (١) قال : لما زفّ بختيار (٢) بنته إلى أبي تغلب بالموصل ، كتب عنه الصابي (٣) فصلاً في معناها استحسنه البلغاء وتحفّظوه وأقرّ له كلّ بليغ بالبراعة فيه ، وهو :

قد توجّه أبو النجم بدر الحرمي ، وهو الأمين على مايلحظه الوفي بما حفظه يحمل الهدية ، وإنما انتقلت من وطن ومن مُعرّس الى معرّس ، ومن مأوى برّ وانعطاف الى مأوى كرم وألطاف ، ومن منبت دَرّت له نعماؤه ، الى منشأ تجود عليه سماؤه ، وهي بضعة منّي انفصلت اليك وثمرة جنى قلبي حصلت لديك ، وما بان عنّي من وصلت حبله بحبلك ونحلت له بارع فضلك ، وإنما ألم الصابي .

=:=

(١) الثعالبي : هو عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري (أبو منصور) أديب ناثر ، ناظم ، لغوي ، اخباري ، بياني ، من تصانيفه الكثيرة : (سر العربية) و (سحر البلاغة وسر البراعة) و (يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر) انظر (عيون التواريخ : ابن شاكر الكتبي : ٣/ ١٧٩) و (ابن شهبة طبقات النحاة واللغويين : ٣٨٧- ٣٨٩) .

(٢) بختيار بن الملك معز الدولة بن بويه الديلمي . صاحب العراق ، تزوج الطائع لله ببنته شهناز كان شديد البأس ، مسرفا ، جرت بينه وبين عضد الدولة حروب في شوال سنة ٣٦٧ فقتل في المصاف . (سير أعلام النبلاء : ٦/ ١٦/ ٢٣١)

(٣) أبو اسحق الصابي : هو ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن هارون الحرّاني ، صاحب الرسائل المشهورة والنظم البديع كان كاتب الانشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه الديلمي . انظر (ابن خلكان : ١/ ٥٢) وكانت وفاته في سنة ٣٨٤هـ . (يتيمة الدهر : ٢/ ٢٤١ و ٣١١) .

في هذا أيضا بفصل لابن ثوابه (١) كتبه عن المعتضد إلى ابن طولون (٢) في ذكر ابنته قطر الندى (٣) ، المنقولة إليه أيضا ، يقول فيه :

وأما الوديعة فهي بمنزلة ما انتقل من يمينك الى شمالك ، عنايةً بها ، وحياطةً لها ، ورعاية لمودّتك فيها ، فحكى أن الوزير عبدالله بن خاقان انتقد الفصل على ابن ثوابة ، وقال له : ما أقبح ما تفاءلت لامرأة زُفّت الى الملك بتسمية الوديعة ، فالوديعة مستردّة ، وقولك من يمينك إلى شمالك أقبحُ لأنك جعلت أباها ابنَ طولون اليمين والشمال أمير المؤمنين ، ولو قلت على حال :

وأما الهدية فقد حَسُن موقعها منّا ، وجَلّ خطرُها عندنا ، وهي وإن بَعُدت عنك بمنزلةِ من قَرُب منك ، لتفقدنا لها وسرورِها بما وردت عليه واغتباطها بما صارت إليه .

فكتب الكتاب يومئذ على ذلك ، وكان من جملة من تحمّل قطرَ النّدى يومئذ إلى المعتضد أبو عبدالله بنُ الجصّاص (٤) ، وكان آيةً من آيات خالقه في الجهل والغباوة ،

=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) ابن ثوابة : هو محمد بن أحمد بن ثوابة البغدادي (أبو عبد الله) من الكتاب كان يكتب للمعتضد بالله العباسي ، وتوفي في حدود سنة ٢٩٥ هـ . من آثاره كتاب الرسائل .
(هدية العارفين للبغدادي : ٢ / ٢٢)

(٢) ابن طولون : هو أحمد بن طولون استقل بمصر سنة ٢٥٥ هـ على عهد الخليفة المعتمد ، ثم انه أغار على الشام سنة ٢٦٤ هـ ليضمها الى ملكه ، وفي أثناء غيابه بها عصى عليه ابنه العباس بعد أن حسن له جماعة كانوا عنده أخذ الأموال والهرب الى برقة . وفي أفريقية هزم العباس وجماعة أمام الياس بن منصور رئيس الاباضية هناك وبعد هزيمته هذه سير اليه والده العساكر فقاتلوه وأسروه ومن كان معه وذلك سنة ٢٦٨ هـ . (انظر الكامل لابن الأثير : ٧ / ١٠٧)

(٣) قطر الندى : هي قطر الندى بنت خمارويه ابن طولون ، من ربات الحسن والجمال والرأي والعقل ، خطبها المعتضد بالله لما اصطلح مع خمارويه صاحب مصر وتزوجها على مهر يبلغ ألف ألف درهم وتوفيت في بغداد في قصر الرصافه (الموسوعة العربية الميسرة : ٢ / ١٣٨٨)

(٤) أبو عبد الله بن الجصاص : هو أبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن الحسين التاجر الجوهري المعروف بابن الجصاص ، توفي سنة ٣١٥ ، وكانت فيه غفلة . (وفيات الأعيان : ٣ / ٧٧)

مع وفور الجاه والنعمة ، ونوادره في النُّوك (١) مأثورة مذكورة .

حدّث أبو إسحق العاذَرائي قال : خرجنا الى الشماسيّة (٢) مع الوزير عبيد الله بن سليمان (٣) ، نستقبل ابن الجصّاص وقد وافى بغداد بقطر النّدى ، وبالمعتضد يومئذ عِلّة كبرت معها خصيتاه ، فلما سألناه عن خمارويه (٤) وعن الحرّة قطر الندى ، قال : أما الأمير ففي عافية ، وأما العروس فأنا جئتكم بزُبد على ورق ، والله مايضع الخليفة فرزُخصيته عليها إلا قَتلها ، فأضحك من حضر .

ومن أخباره أنه كان عند الوزير ابن الفرات (٥) يوما ، فذكروا (له) هزارا جارية ابن المعتز ، (٦) وأنها تزوجت بغلامه سريعا بعده فقال ابن الجصّاص لابن

=:==

(١) النوك : الحمق ، قال قيس بن الخطيم :
وداء الجسم ملتمس شفاء وداء النوك ليس له دواء . (لسان العرب : ١٠/٥٠١ح

(٢) الشماسية ، منسوبة إلى بعض شماسي النصارى ، وهي مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد واليها ينسب باب الشماسية وفيها كانت دار معز الدولة بن بويه
(معجم البلدان : ٣/ ٣٦١)

(٣) عبيد الله بن سليمان بن وهب الحارثي أبو القاسم كان وزيرا من أكابر الكتّاب ، وزر للمعتمد ثم للمعتضد ، وبقيت وزارته للمعتضد عشر سنين وتوفي سنة ٢٨٨ .
(وفيات الوفيات : ٢/ ٤٣٤)

(٤) خمارويه : مَلك الشآم ومصر بعد أبيه أحمد بن طولون وذلك سنة ٨٨٤م ، فوسع نطاق دولته ، وتزوج منه ابنة الخليفة المعتضد . (الموسوعة العربية الميسرة : ٢/ ١١٦٧)

(٥) ابن الفرات : هذا إمّا أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن الفرات توفي سنة ٢٩١ أو أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات ، وزر للمقتدر العباسي ثلاث دفعات أولاها سنة ٢٩٦ وكان كاتبا خبيرا وقتل سنة ٣١٢ . انظر ترجمته في (الوزراء للصابي : ١١) وفيات الأعيان ٣/ ٤٢١ وترجمة الأول في (وفيات الأعيان : ٣/ ٤٢٤)

(٦) ابن المعتز : هو عبد الله بن محمد بن الخليفة المعتز بالله . شاعر ، وبلاغي ولد وقتل ببغداد ، ونشأ بمكة وتولى الخلافة يوما واحدا . كان حسن المعرفة بالأدب ألّف (طبقات القراء) أبان أن البديع ليس فنا مبتكرا ، اتّسم شعره بالسهولة كان عالما بصناعة الغناء والكلام على النغم له كتاب (الجامع في الغناء) . (الموسوعة العربية الميسرة : ١/ ٢٢) .

الفرات : أعزّ الله الوزير، لا تثقنّ بقحبة ولو كانت أمّك ، فتبسّم الوزير وانقلب المجلس ضحكا .

عدنا الى الكتاب الوارد ، وأجاب أبو تغلب يومئذ بختيار عن كتابة برقعة من انشاء أبي الفرج الببّغاء (١) ، يقول في فصل .

وأما أبو النجم بدر فقد أدّى الأمانة الي متحملها ، وسلّم الذخيرة الجليلة إلى متقبلها ، فحلّت محلّ العزّ في وطنها وأوت من حِس الأُسود إلى مستقرّها وسكنها ، متنقلةً عن عَطَن (٢) الفضل والكمال ، إلى كنف السعادة والإقبال ، وصادرةً عن أصل ولادة ونسب ، إلى أشرف اتصال وأنبه سبب ، وفي اليسر من لوازم فروضها وواجبات حقوقها ماعاق رغبتي عن الوَصاة بها ، وكيف يُوصى الناظر بنوره ، أم يُخصّ القلب على حفظ سروره .

قلت : وبهذه الكناية عن الامراء كنيت في كتاب كتبته عن تَنكِز (٣) وقد أُهديت ابنة إلى ابن بَكتَمُر السّاقي (٤) ، ولم تكن الكلمة شهد الله صافحت سمعي ولا بصري

=:=

(١) أبو الفرج الببغاء : هو الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي الشاعر المعروف بالببغاء ؟ ذكره الثعالبي - في يتيمة ١ : ٢٥٢ - وقال : هو من أهل نصيبين ، شعره جيد ومقاصده فيه جميلة ، وكان قد خدم سيف الدولة ابن حمدان مدة ، توفي سنة ٣٩٨هـ . والببغاء : لقب به لحسن فصاحته ، وقيل : للثغة كانت في لسانه .

(٢) العطن : المكان والوطن (القاموس المحيط : ١٥٦٦)

(٣) في الأصل : ينكر وهو خطأ ، والصواب ما أثبت . وتنكز : هو تنكز بن عبد الله الحسامي الناصري المتوفي سنة ٧٤٠هـ . وكان دخوله الى دمشق نائبا عليها يوم الخميس في العشرين من ربيع الأول سنة ٧١٢هـ في سلطة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة . انظر (فوات الوفيات : ١/ ٢٥١) والجوهر الثمين : ٢/ ١٥٢)

(٤) ابن بكتمر : هو عبد الله بن بكتمر الحاجب ، وكان المذكور من أمراء الطبلخانات بالقاهرة .

(السلوك للمقريزي : ٢/ ٣٥٧ ، برقم ١٢٩)

بل هوشيّ أفرغتُه في ذلك الوقت (الماضي) وجاء فتوحا في الوقت الحاضر، وكتبت في سنّ صبيّ لا يُنظَر ماأقوله بعين ، فأنكرها مشائخ الكتّاب في ذلك الأوان ،

وازدروها وصغّروها وماأكبروها ، حتى لقيني أبو بدرالدين عبدالله بن العطّار ، فسألني عماكان ، فذكرت له الفصل ، ومنه :

وقد جهز المملوك بالمطلوب ، وهي وديعة كرمه ونزيلة حَرَمه ومولانا أولى من أولاها برَّه ، وأسبل عليها ستره ، والمملوك مطمئن باحسان مولانا التي متى دعته أجابها ، واثق بصلته التي يودّ المجرّة لوكانت حجابها .

فقال ابن العطّار : مليح والله مليح ، وحَسَن والله حسن ، وإنما كتبت بماكتب به المتقدمون ، فسُررت بقوله إنّ المتقدمين كتبوا بها ، وقلت مَن ؟ فقال : الصّابي فقلت : أُحِبّ أن أقف عليه ، فذهب فأوقفني عليه من خطّ أبيه العلاّمة كمال الدين ، فأوقفت عليه أولئك الجَهلة ، فكأنما قذفتُهم بالأحجار ، وألجمتُهم بلجام من نار.

عدنا إلى صاحب الترجمة ونثره

ومنه ماكتبه المعتضد إلى أبيه أبي عمر (١) :

إن كنّا لم نتعارف ترائيا ، ولم نتلاق تدانيا ، ففضلك في كلّ قطر كالمشاهد ، وشخصك في كل نفس غير متباعد ، فأنت واحد عصرك وقريع دهرك ، علما بيدك لواؤه وفضلا إليك اعتزاؤه ، وكنت كذلك والناس موفورون ، والشيوخ أحياء يرزقون ، فكيف وقد درس الأعلام والكُدَى (٢) ، وانتزع العلم بقبض العلماء فانقضى ، والله يبارك في

=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:== == ==:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) أبوعمرهوابن عبد البر النمري والد المترجم وهويوسف بن عبد الله بن عبدالبر ، فقيه حافظ مكثر عالم بالقراءات وبالخلاف في الفقه وبعلوم الحديث والرجال ، له من الكتب : (التمهيد) توفي بشاطبة سنة ٤٦٠

(بغية الملتمس : ٤٨٩)

(٢) الكدى : كناية عن الأموات

(القاموس المحيط : ١٧١١)

عمرك ، ويعين كلاً على برّك والى ذلك من مشهور حالك ، فبيننا من وكيد الذمـــام السالف، وشديد اتصال التالد والطارف ماأنت له جِدّ ذاكر ، وبه حقّ عارف ، ورعاية مثل هذا منك تُقتبس ، ولديك تُلتمس ، ولم تزل نفسي إليك جانحة ، وعيني نحوك طامحة انجذابا إلى العلم ورغبة فيه ومنافسة في قضاء حقوق حامليه ، والناس عندنا إلى ماعندك ظماء ، ولدينا الأدواء وأنت الشفاء ، فاجعل للمغرب منك نصيب المشرق فهو أولى بك وأحق ، وعندي لك من الإكرام والإعظام مايضاهي حالك ويسامي آمالــك وقد صار عندي جزء منك متحكما فيه على المنصور - أيده الله - وعليك ، وإرادتـي أن أجمع شملكما وأصل حبلكما .

وله عنه من أخرى إلى ابن هـود :

من اعتقدك عمادا له وظهيرا ورآك عتادا وذخيرا طالعك بحاله وأمـره وأطلعك على حلوه ومره ، وخرج إليك عن جهرة وسره وناجاك بمختلجات صدره ، ومعتلجات فكره ، مستريحا إلى الشكوى ، بالغا عذر نفسه في النجوى (١) ، واثقـا بقضائك الفصل فيما يورده ، وبحكمك العدل فيما تعدده ، راضيا بانصافك فيمـا يقدره لديك ويمهده ، والله لايعدمني الاستظهار برأيك أعشوا اليه سِراجا ، وسعيك احتذي عليه منها جا ، وقد علمت صورة حالي مع المدبرين لقرطبة ، وصبري لهـم في الخطير والجليل ، وانجراري معهم الزمن الطويل مُغضيا لهم على مايوحش ويريب ، مغمضا لهم على بوادر لاتزال تنوب وتثوب ، على أنها جنايات القَعَدَة (٢) لانكايات المردة ، وأنّ وسعهم لايتعدى هذا الحدّ وطوقهم لا يتجاوز هذا الجدّ .

==:=

(١) في الذخيرة : مستريحاالى النجوى ، بالغاعذر نفسه في الشكوى

(٢) القعدة : هم الخوارج ومن يرى رأيهم . (القاموس المحيط : ٣٩٧)

وفي فصل منها :

فلم تزل عقارب سعيهم تَدِبّ ، وريح جنايات بغيهم عليّ تهُبّ ، وأنـا في كلّ ذلك أقابل تخشينَهم (١) بالتليين ، وأتلقّى غَلي مراجلهم بالتسكين ، أتغاضى عما يُردني منهم مرّة ، وأغالط نفسي في التأويل تارة ، ولا أقارضهم عن شيء مما يطالبهني به مساترة ومجاهرة ، مع إمكان المعارضة سرا وعلانية طاعة مني لعواطف النفس فـي الإبقاء على الجنس ، وما وجدت إلى الإبقاء سبيلا عليه وكنت معينا ، وكنت أرجـو مع ذلك أن يثوب ثائبُ استبصار ، ويخطرَ خاطرُ إقلاع وإقصار ، فلا والله ما يزدادون إلا تماديا في الاصرار .

والعجب كل العجب أنهم يمالئون على أعدائهم المنابذين (٢) ، وواتريهم (٣) الطالبين الذين صيّروا ملأهم بِدَدًا (٤) ، وعصاهم قِددا ، واستباحوا دماءهم وأموالهم ، وغيّروا آثارَهم وأحوالَهم ، وجاهدوهم جهاد الكفّار ، وساموهم سوم أهـل الذّلة والصَّغار ، فكففتُ عنهم غربَهم ، وشغلت عنهم بنفسي حربَهم ، ولو أغمضت فيهم ولِنت لواتريهم ومطالبيهم لما كانت صدور مجالسهم ومجامع أنديتهم لأفراسهم إلا مَرابط ، ولا عاد آهلُ دراهم وعامر أفنيتهم لخيلهم الآمسارحَ وبسائط ، فما ظنّـك ببصائرُ تَقلّب في طلب الثأر ، ومنابذة العِدى الفجار - الطبائع (٥) ، وتغلّب في مهاجرة الخوارج المرّاق الروافض الفسّاق - الشرائع ، فاعجب لهذا الاغتزاء (٦) بالمخالفة ، والانتهاء في المكاشفة .

=:=

(١) في الأصل : محسنهم ، وهو خطأ ، والتصويب من الذخيرة .
(٢) في الأصل : أعدائهم المتأيدين ، وهو خطأ ، والتصويب من الذخيرة
(٣) في الأصل : واترتهم وهو خطأ ، والتصويب من الذخيرة .
(٤) أي بددوا شملهم وفرقوهم .
(٥) في الأصل : العدى الفجار فبالله كيف تتقلب الطبائع ، والتصويب من الذخيرة
(٦) في الأصل : الاغراء ، وما أثبت من الذخيرة .

ومنه قوله :

وماظنكم معشرالمسلمين وقدرأيتم الجوامع والصّوامع (١) بعد تلاوة القرآن ،وحلاوة الأذان مطبقةٌ بالشرك والبهتان ، مشحونةً بالنواقيس والصُّلبان ، قدعلَت فيها كلمة الكفر بعد التوحيد والذكر ،واقتعدت المنابرَ شيعةُ (٢) الشيطان بعد شيعة الرحمن ،والقَوَمَةُ والمؤذّنون تجرّهم الأُعلاج (٣) كما تُجرُّ الذبائح إلى المذابح ،يُكَبُّون على وجوههم في المساجد صاغرين ثم أضرمت عليهم نارا فصاروا رمادا والكفر يضحك ويُنكي ،والدين ينوح ويبكي ،فياويلاه وياذُلاّه ،وياكرباه وياقرآناه وياممّداه .

ألا ترى ماحلّ بحملة القرآن وحَفَظَة الإيمان وصوّامِ شهر رمضان وحجاج بيت الله الحرام والعاكفين على الصلاة والصّيام ،والعاملين بالحلال والحرام،فلو شهدتم معشر المسلمين ذلك لطارت أكبادكم جَزَعا ،وتقطعت قلوبكم قِطعا ، ولاستعذبتم طعمَ المنايا ،لموضع تلك الرزايا ، ولهجرتْ أسيافكم أغمادَها ،وجَفَتْ أجفانكم رُقادَها امتعاضا لعَبَدَة الرحمن وحفظة القرآن .

=:=

(١) الصوامع جمع ومفرده صومعة : بيت للنصارى . (القاموس المحيط : ٩٥٤)
(٢) الشيعة : تقول شيعة الرجل أي أتباعه وأنصاره ،والفرقة على حده ،ويقع على الواحد والاثنين والجمع،وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا وأهل بيته ،وحتى صار اسمالهم خاصّا ومنهم من نقل الإمامة من بيت علي إلى العباسيين ،وهم فرق مختلفة .
(الموسوعة العربية الميسرة : ٢/١١٠٦)
(٣) الأعلاج مفردها العلج : الرجل من كفار العجم ،والأعلاج : جماعة العصاة .
(القاموس المحيط : ٢٥٤)

أَبُو بَكْرِ بْنُ قُزْمَانَ

ومنهم: أبوبكر بن قُزمان (١) أديب مبرز ولبيب متحرز ،له تفنن في القريض وركوب سائر البحور والأعاريض ،ولم يكتف بالمستعملات ،حتى ذلل صعاب المهملات ، واخترع أوزانا أخرى ،وابتدع مالا يعدّ نظما ولا نثرا ،إلا أنه موزون ظفر منه بدُرّ مخزون ،ورد عن صدر مخزون ،واذا وقع على السلحين (٢) ، وقسم بهازمانه في كل حين ،يظهر مزحوفه (٣) وموزونه ،وسالمه ومخبونه (٤) ، الا أن كتابنا لا مجال فيه لإيراده ،ولا مركض فيه لخبب جواده .

ولم يذكر الفتح له نثرا ،على أنه طالما أغرى به وأثرى ،وقال فيه :

وأخلاقه هي التي فلّت من غَربهِ وكانت سببا لطول كربه ،فإنها كانت تحتدم في جوانحه احترام القيظ ،وتكاد تتميز من الغيظ ،وكان طاهر الأثواب من كل دَنَس ،ظاهرَ الصواب متى نَبَس .

=:===

(١) هو محمد بن عبدالملك بن عيسى بن قزمان أبوبكر (وهو غير ابن قزمان الزّجال) من أهل البيان والبلاغة ،وذكر ابن بسّام أن المتوكل صاحب بطليوس أول من اتخذه كاتبا ،وساءت حياته في آخر عمره حتى توفي سنة ٥٠٨ ،ترجمته في القلائد ١/ ٥٥٥ والذخيرة ٢/ ٢/ ٧٧٤ والخريدة ٢/ ٤٦٥ والنفح ٤/ ٧٤ والمغرب ١/ ٩٩ والصلة : ٥٤٠ .
(٢) السلحين : السيف وآلة الحرب .
(٣) الزّحاف في الشعر: سمي بذلك لثقله ، تخصّ به الأسباب دون الأوتاد الا القطع فإنه يكون في أوتاد الأعاريض والضروب ،وهو سقط مابين الحرفين حرف فزحف أحدهما الى الآخر .

(لسان العرب : ٩/ ١٣١)

(٤) مخبون : حذف ثانيه من غير أن يسكن له شيء اذا كان مايجوز فيه الزحاف ،كحذف السين من مستفعلن ،والخبن هو التقليص ،قال ابن اسحق : إنّما سمّي مخبونا لأنك عطفت الجزء ،وان شئت أتممت .

(اللسان : ١٣/ ١٣٦)

وقد ذكره ابن بسّام فقال فيه :

وأبوبكر من كتّاب الوقت والأوان ، ومن أهل البلاغة والبيان والمتوكل أول من اتخذه كاتبا واقتدح زنده فأورى شهابا ثاقبا (١) ، ومما أورد له قوله :

واتصل بي دخولك بعقيلة أترابها وبيضة خدرها وربة محرابها ، ورابني التواؤك ، وقدح في نشاطي إبطاؤك ، وساءني ان يستمطر من الأمل جهاما ، ويسترهف لدى ذلك العمل كَهاما (٢) ، ويجد صاحبك مُعرِّدا (٣) عن المناجزة ، لائذا بالمحاجزة : (الرجز)

تريد هو ويريد بَسرّا   كأنما أُسعِط شيئا مُرّا (٤)

قلت : لعله قد حظي بما جُنِيَ له ، فافتتح الحصن الذي نازله قسرا ، وأفضى به الصَّدعُ إلى التئام والشَّعبُ إلى التحام ، فان يكن ذاك فهناك ، وظفرت يداك ، وإن يكن .. ماعداه ، ويكفي الله ، فمع اليوم غد ، وفي اللَّمِّ خلال ذلك متعلّل .

وكذلك قوله أيضا كالجواب عنه ومنه :

وردني كتابك ، وقد وقفت على مقطعه ، وعجبتُ من التفرغ لمود .عه فلئن كنت مُندِّرا فليخفّ وقْعُك ، أو حَذِرا على الحقيقة فليُفرِخ رَوْعك . فالحمدُ (بحمد) لله ماضٍ ، وكلا الفريقين راضٍ على بطش الماضي ، وعنف التقاضي ثم لا بأس ولا إبلاس ، لو عَرَت نبـوَةٌ ، وعرضتْ دون المرام كبوة : (الطويل)

=:=

(١) ابن بسام : الذخيرة ٢ / ٧٧٤ .

(٢) الكهام : الكليل الحد ، وكهم الرجل كهامة : بطؤ عن النصرة والحرب ، فهو كهام وكهم السيف : كلّ . (القاموس المحيط : ١٤٩٢)

(٣) معردا : أي مستنكفا (اللسان : ٣ / ٢٨٩)

(٤) أسعط : أدخل في أنفه فاستعط . (القاموس المحيط : ٨٦٥)

وسيفُ بني عبسٍ وقد كان صارما نبا بيَدَيْ ورقاءَ عن رأسِ خالد (١)

ولله أخوك ، الذي لا فرق عندكما بين ما يعروه ويعروك ، ولو لقيتَ أعداءَك بمثل صاحبه مضاءً وإقداما ، وتسرُّعا واستقداما : (السريع)

طعنتَهم سُلكَى ومَخلوجةً كرَّكَ لأمينِ على نابلِ (٢)

وقال الفتح : وقد أثبتُّ له ما يُعلم حقيقةُ قَدْره ، ويُعرَف كيف أساءَ الزّمان إليه بغدره ، فمن ذلك قوله : (الكامل)

رَكبوا السّيول من الخيول وركّبوا فوق العوالي السُّمرِ زرقَ نِطافِ
وتجلّلوا الغدران من ماذيِّهم (٣) مُرتجّةً إلا على الاكتافِ

ومنه قوله : (الطويل)

وشمسٍ كسوناها ببيدٍ رصيانة وقد عاد وجه الأرض أسودَ حالكا
أطرنا بها طيرَ الدّجى عن بلاده إلى أن رأتْ عيناي فيها الصالكا
حججنا بها بيتاً من اللهو لم نزل عكوفاً (٤) به حتى قضينا المناسكا

=:=

(١) القائل الفرزدق ، وسببه أن سليمان بن عبد الملك أمره بقتل أحد الأسرى الروم وأعطاه سيفا فنباعنه وضحك القوم فقاله معتذرا ، وورقاء هو ابن زهير بن جذيمة العبسي ، ضرب خالد بن جعفر وخالد مكبّ على أبيه زهير فلم يصنع سيف ورقاء شيئا ، وانظر ثمار القلوب : ٢٢٠-٢٢٢ وشرح النقائض : ٣٨٣- ٣٨٤ .

(٢) القائل امرؤ القيس ، وانظر ديوانه : ٢٠١ وروايته : نطعنهم ، وجاء في الاصل : طعينهم وأثبتنا ما في الذخيرة .

(٣) في الأصل : مأدبهم : والتصويب من القلائد والذخيرة ، وماذيهم : الدرع اللينة ، أو البيضاء (القاموس المحيط : ٤٣٢)

(٤) في الأصل : علوقا ، والتصويب من القلائد .

وقد ذكر صاحب اللمعة له من رقعة يصف فيها مرتع روضة، أسرع إليها باكر الغمام بَوْضَهُ، وأترع فيها حَوْضه وهمَّ بجدولها النسيم وما استطاع خوْضه، وهي :

ونزلنا بروضة باكرها الوابل، وأودعها ماعنده إلى قابل، فغادر غديرها يفهق امتلاء، وزهرها يسُرّ الناظر اجتلاء، وقد تقابلت أنوارها صفوفا، ولبست اقطارها الربيع صنوفا، فضاحك أقحوانها (١) خزاماها (٢)، وحدّث ظِباها نَماماها، وحفّ بها جدول ريّان لايكتم القَذاةَ (٣) قرارُه، ولا ينسخ بليل الظل نهارُه، فذكرنا في كريم معاهده، وقد تم مشاهدة أيام صبوة خلعنا عن مناكبنا أذاها، وأرقنا عن نواظر (قد) أغفاها، زمانا كانت فيه لِمَمنا أمثالَ صحائفنا وأيامُنا أشباهَ مفارقنا لم يعد من ذلك عيدٌ إلاّ إلمامةُ ذكرى، وهيمان خاطر لا يكرى.

=:=

(١) أقحوان : هو القراص عند العرب، وهو البابونج والبابونك عند الفرس، وهو نبت تشبه به الاسنان، من نبات الربيع مفرّض الورق دقيق العيدان، له نور أبيض كأنه ثغر جارية حدثة السن. (الموسوعة العربية الميسرة : ١/ ١٨٥)

(٢) خزام: نبت طيب الريح، واحدته خزامة، وقال أبو حنيفة : الخزامى عشبة طويلة العيدان صغيرة الورق حمراء الزهرة طيبة الريح، لها نور كنور البنفسج (لسان العرب: ١٢/ ١٧٦)

(٣) القذاة مفرد ها قذى وهو مايقع في العين والماء والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك (القاموس المحيط : ١٧٠٦)

أَبُو

بَكْرِ بْنُ الْمُلَحِّ

ومنهم : أبو بكر بن الملح (١) : هو للكلام كآنية الملح في الطعام لا يصلح طعام إلا بمذاقه ، ولا يخرج شيء من وفاقه ، وكان نافعه باس ، وطاهره بعد أناس أدناس

قال فيه الفتح : إنه أقام مدة لم يأنس إلا بنشره ، ولم يتنفس فيها إلا عن صَبْوة ، والدين يلحظه بطرف كَلِف ، والقلب عليه مؤتلِف ، إلى أن اقتصر باطله ، واستبصر مسوِّفُه وماطلَه وممّا أورد له قوله : (الكامل)

والروض يعبث بالنّسيم كأنما ... أهداه يضرب لاصطباحك موعدا

سكرانَ من ماءِ النعيم وكلّما ... غنّاه طائره وأطربَ ردّدا

يأوي إلى زهرٍ كأنّ عيونه ... رقباءُ تقعدُ للأحبّة مَرْصدا

قد خفَّ موقعُه عليه وربّما ... سمحَ النسيمُ و(٢) بعطفِهِ فتأوّدا

ومنها قوله :

قد ظلّ أنفُ الدهر أخنسَ أرعفا (٣) ... (منه) (٤) وطرفُ النجم أخزر أرمدا

=:=

(١) هو أبو بكر محمد بن اسحق اللخمي من أهل شلب يعرف بابن الملح وابن الملاح كان له ابنان هما أبو القاسم أحمد وأبو محمد عبد الملك قد رويا عنه ، انظر ترجمته في القلائد ١ / ٥٥٨ والذخيرة ٢ / ١ / ٤٥٢ والذيل والتكملة ٦ / ١١٨ والنفح ٤ / ٧٠ ، ١٤٨ ، ٢٦٣ ، ٣ / ٤٦٦ والمعجب : ٢٨٣ .

(٢) في القلائد : النعيم ، وما أثبته من الأصل يوافق الذخيرة

(٣) في القلائد : أحسن راعفا .

(٤) ما بين الحاصرتين من القلائد

وأقتمَّ يثأرُ للغدير (١) كأنمــــا   ســال النّجيع (٢) خلالَه وتولّــدا

ومن نثره قوله مالم يضع في القلائد عقيانه ، ولا اتصلت بعيون الفوائد أعيانه (قوله):

إن خفّ عليك أطال الله بقاءك الانتظام معنا ، والالتئام بنا على شاطىء النهر ، وقد طرز الزهر كمه، والنسيم في ذلك الميدان مخلي العنان ، يركض في ذلك الصفيح ، ويجيء بريّا منفسج وشيح ، من جنى البر والخضراء وسقيا النهر والمطر ومافينا من يثقل عليك موقعه ، ولا يضيق بك موضعه ، ومابيننا تكليف ، حتى ولا في زيادة رغيف ، غيرما يكفي من خبز نضيج ، ولحم طير من كل زوج بهيج ، وشراب أصفر لايجحد حقّه ولا يكفر له شعاع ، عندكماته خيوط مدت باليد ، ينزل النسيم صحيحا وتبعث إلى الميت روحا ، فماهي بأول بدلك تعتدُّها ، ولا بآخر عارفة ، دمت أطال الله بقاءك تستمدها .

وهذا آخر من ذكرته من رجال القلائد ، ممن هو من أزهى من أمثالها في أعناق الولائد ، وأُثبتُ في أثناء ماقلتُ في كل ترجمة بعض مقال مؤلّفِهِ فيما ترجمتُه وصرّحتُ في كل مكان باسمه لأبيّن كلامه من كلامي وإن قال لايخفى إلاعلى الأعمى أو المتعامي ، وأين أنا من ذاك ، وهل استفدت الإمن هناك ، وأين مجاري السَّمَك من السِّماك ، وذكرتُ قولَ غيره في بعضِهم تذييلا ، وسقتُ فيه بالقمر والنجوم قَبِيلا .

=:=

(١) في الأصل : وأحمرنسيان الغدير ، وهوخطأ ، والتصويب من القلائد .

(٢) النجيع : الدم ، وقيل : هودم الجوف خاصة ، وقيل : هوالطري منه وقيل ماكان الى السواد . (القاموس المحيط : ٩٨٩)

الْوَهْرَانِيُّ

ومن كتاب المغاربة المجيدين : الوهراني (١) : أديب اخترع طريقا وافترع عذراء لم تكن رحيقا، طلعت شمسه من المغرب، ولم يغلق للرحمة باب، ولاكانت من مقدّمات النذر للألباب، وقدم والدولة الصلاحية قد استعلت، ويد تصرّفها على البلاد قد استولت، والمجلس الناصريّ معمور بالأجلاّء، مأهول بالقاضي الفاضل وأقرانه من الفضلاء، وريحُ الأدب قد هبّت، ووفود الخواطر إلى تلك المشاعر قد لبّت، والحظ الفاضل قد أخذ معه حظ كل واحد من الكل ولم يترك لهم إلا الفاضل وكان يغادر علي كل بيت فكر، ويرى أن لا ينصبَ لغيره على مُحيّاه خِدْر .

وكان الوهرانيّ لوذعيا لألاؤُه، وألمعياً تُريه البصيرةَ آراؤُه، فخاف نَفَثات ذلك الصِّلّ (٢)، وصَبَوات ذلك السيف الذي لا يكِلُّ، فمال إلى السُّخف، إذ كان لا مُحسَّد على تَلبُّبه (٣)، ولا يُنافس في ترديّه به وتجلببه، وجعل هذا سببا لاظهار ماعنده من الاحسان، وتكلم ولم يَخَفْ عثرةَ القلم ولا زلّةَ اللّسان، فرَفْرف عليه جانبُ من الحنو الفاضلي، ورقّ عليه كما يَرِقّ غَسَق البابلي، وهنئت له نُغْبَةٌ من العيش قدر عل...يه رزقها، وقرر له رفقها،

==:=

(١) هو أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب ركن الدين، وقيل جمال الدين أحد الفضلاء الظرفاء، قدم من بلاده إلى الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين، وفنه الذي يمتّ به صناعة الانشاء، فلما دخل البلاد ورأى بها القاضي الفاضل وعماد الدين الأصبهاني الكاتب وتلك الحلبه علم أنه ليس من طبقتهم، فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل، وعمل المنامات والرسائل المنسوبة إليه، وأقام بدمشق زمانا وتولى الخطابة بداريا، وتوفي سنة ٥٧٥، والوهراني نسبة الى وهران بالمغرب الأوسط، ترجمته في وفيات الأعيان ٤/ ٣٨٥ والوافي بالوفيات ٤/ ٣٨٦، والعبر ٤/ ٢٢٥.

(٢) الصّل من صلّ صليلا : صوت الحديد، وهنا الحيّة، أو الدقيقة الصفراء، والداهية (القاموس المحيط : ١٣٢٢)

(٣) تلببه : فحش وسوء (لسان العرب : ٢/ ٤٣١)

وولي خُطابة المسجد الجامع بداريّا (١) ،وقيل له : الآن أنت وحيُّ ليلى وداڑريّا

وكان إلو هذا ليس له من حاظر الدّين مايَزَعُه ،ولا من من حاضرِ العقل مايردَعُه ،

فرداّهُ سوءُ التّجري من شاهِقِهِ ،وألقاه عدمُ التحري لقىً لهوائقه ، وأطلق لسانــــه

فعثر في ظُلَعِهِ ،وكبّه في طَبَعه ،وتخرّصَ المنام الذي أتى فيه بالاكاذيب ،وحسّن

باطله بحُسن الترتيب ،وذكر فيه الملائكةَ الكرامَ ،وانتهك عِرضَ السّلَف الحرام ،وغيرَ

ذلك من كبائره التي لاتطاق ومنكراتِه التي لايُصبَر عليها .

وقد ذكرت بعضها هنا ،وإنما ذكرته لئلا أُخليَ هذا الكتابَ منه ،وهــــو

المشموعُ بها والمسؤولُ عنها ،وأنا أستغفرالله مما ذكرتُ من دَرِه وأوردت من أباطيله

وعقدت البنان على القلم حين تستطير أضاليلُه ،وإن كنت لم أوردْها إلاكالصد (٢)

الحالي ،وأنا فيه ناقل لاقائل ،ومن الله العصمة ،وبه السلامة .

=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=: :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) داريّا : قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة ،والنسبة إليها داراني على غيرقياس وبها قبرأبي سليمان الداراني وهوعبدالرحمن بن أحمد بن عطيــــة الزاهد .

(معجم البلدان ج٢/ ٤٣١)

(٢) كذا في الأصل .

ومن نثره الرقعة التي له عن جامع دمشق :

لمّا حكمت يد الضّياع في مساجد الضّياع ، وأُرتج بابُ العدل وغُلّق ، ونُبذ كتابُ الله وأخلق ، فزعت المساجد إلى جِلّق (١) ، وهو يومئذ أميرُها ، وعليه مدارُ أمورها ، فلما دخلوا عليه من بابه ، واجتمعوا تحت قُبّته ومحرابه ، كتب لهم جامع النيرب (٢) قصةً إليه ، وتوصلوا إلى من عَرَضَها عليه ، فكانت الرقعة مسطورة ، على هذه الصورة : المماليكُ مساجد الكورة (٣) يُقَبّلونَ الأرضَ بين يدي الملك المعظم ، الرفيع المكرم ، كهف الدّين جمال الإسلام والمسلمين ، بيت الأتقياء والصالحين ، مدفن الأنبياء والمرسلين ، معبد الملّتين ، صاحب الدّولتين ، بنية أمير المؤمنين ، أعلى الله منارَهُ ، وأيّد أنصارَهُ ، وعَمَرَ بالتوحيد أقطاره ، وينهون إليه مايقاسون من جَوْر العمال ، وتضييع الأعمال ، ونهب الوقوف ، وخراب الحيطان والسّقوف ، قد أَلِفَهم الظَّلَمة والظّلام ، وأنكرهم المؤذّنُ والإمام ، فلا تسمع فيهم إلاّ أذانُ البوم وتسبيحَ الغراب ، قد ركعت أركانها ، وسجدتْ سقوفُها وحيطانُها ، تبكي عليها النّواقسُ ، وترثي لها البِيَعُ والكنائس ، ياويحَ من يرثي له الشامتُ ، وقد قرعنا أيها الملك إلى بابك ، وأوينا تحت جنابك ، فافعل بنا ماهو الأهل بك والسلام .

ولما وقفت على هذه الحكاية ، وفهمت مقتضى هذه الشكاية ، استوى جالسا في مقعده وضرب بيده على يده وقال : وكيف ؟ أم للانسان ماتمنّى ، ثم رفع رأسه وغنّى :

(الطويل)

=:=

(١) جلق : لفظة أعجمية ، ومن عرّبها قال : هو من جلق رأسه إذا حلقه : وهو اسم لكورة الغوطة كلها ، وقيل بل هي دمشق نفسها ، وقيل جلق موضع بقرية من قرى دمشق ، قال حسّان بن ثابت الأنصاري : لله ... عصابة نادمتهم يوما بجلق في الزمان الأول .

(معجم البلدان لياقوت الحموي : ٣/ ١٥٤)

(٢) جامع النيرب : النيرب : قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين ، يقال فيه مصلى الخضر عليه السلام . (معجم البلدان : ٥/ ٣٣٠)

(٣) الكورة : جبل بالقبلية في مصر ، وتأتي بمعنى المدينة . (القاموس المحيط : ٦٠٧)

وماشرب العشاق إلا بقيتي ولا وردوا في الحب إلا على وِردي (١)

ثم أشرف عليهم من إيوانه، بين حفدته وأعوانه، وأقبل يُقلِّبُ طرْفَه في المجموع ويُكفكف ابتدارَ الدموع، لما يرى من اختلالهم، وفساد حالهم، فابتدر جامع المِزة (٢) للمقال، فتقدم بين يدي الملك وقال: الحمد لله الذي قضى علينا بالخراب، وصيّر أحوالنا كالسراب، وجعلنا مأوى للبوم والغُراب، أحمدُهُ حَمْد من كان فقيرا فاستغنى، وأدركه بمال الوقف ماتمنّى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، شهادةَ عالمٍ عامل، متحمّل لثقل الأمانة حامل، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطيبين الأكرمين، أما بعد، أيها الملكُ السعيد، ثبّت الله قواعد أركانك، وشيّد ماوهى من بُنيانك، فإنّ الخراب قد استولى على المساجد، حتى خلت من الراكع والساجد فاصبحت جوامعُ الغوطة (٣) غيطانا (٤)، لا سقوفَ لها ولا حيطان، ومشاهدُ البقاع (٥) صفصفا كالقاعِ (٦) ومساجد حوران (٧) مخازن وأفرانا (٨).

=:=

(١) مأخوذ من قول عشرقة المحاربية:

فما لبس العشاق من حُلل الهوى وما خلعوا إلا الثياب التي أُبلي

وما شربوا كأسا من الحُبّ حلوة ولا مُرّة إلا وشربهم فضلي

(٢) المزة: قرية كبيرة غنّاء في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ، وبها كما يقال قبر دحية الكلبي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقال لها مزة كلب.

(معجم البلدان: ٥/ ١٢٢)

(٣) الغوطة: الوهدة في الأرض، وهي مدينة دمشق. (القاموس المحيط: ٨٧٨)

(٤) غيطان: المطمئن، الخرب والواسع من الأرض. (القاموس: ٨٧٨)

(٥) البقاع: مكان قرب دمشق به قبر الياس عليه السلام (معجم البلدان: ١/ ٤٧٠)

(٦) القاع: أرض سهلة مطمئنة، قد انفرجت عنها الجبال والآكام، وجمعها قيع وقيعان.

(القاموس المحيط: ٩٧٨)

(٧) حوران: كورة وأرض واسعة مابين الأردن والشام. (معجم البلدان: ٢/ ٣١٨)

(٨) في الأصل: مخازن وأفران.

فكم من بنية لعب الجَوْر بأربابها ونسج العنكبوت وكم من بيوت للـــــه أُغلقت دون أصحابها، فعشّش الحمام في محرابها، ((وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا)) (١) وقد بخل العمال أيها الملك علـــى الوقوف، بحُجّة العمارة والسُّقوف، فاتّفقتْ علينا الأهواءُ واختلفت فينا الأمطـــار والأنواء، فلايزال ينهار وتأخذه السيول والأمطار حتى يَمّحِيَ رسمُه، ولا يبقـــى منه إلا اسمه، وأنت أيها الملك عاذُنا، وإليك بعد الله معاذُنا، فالتفـــت أيها الملك إلي مالنا، وانظر الى مصالح أحوالنا، يصلح الله أحوالَك، ويسدِّد أقوالَك وأفعالَك والسلام.

ثم جلس فقال الملك: هؤلاء المساجد فماباُل المشاهد؟ فبرزَ مشهــدُ بَرْزَةَ (٢)، متوكِّئًا على مشهد الأرْزة، وهو يُصلْصِل ويصول، ويلطمُ ويقول: (الرمـل)

كلّما حاولت أشكو قصّتـــي لاأُلاقي غيرَ ذي قلـب جريـــــح
يتشكّى مثلَ شكوايَ لـــــه ياالقَوْمِ ماعليها مستريـــــــح

أمابعد، أيها الملك السعيد، أدام الله جمالَك، وبلّغك في العدو آمالَك، فإن مقام إبراهيم (٣) أصبح في كل وابـــــــــــــــــيم

=:=

(١) سورة البقرة: الآية ١١٥.
(٢) برزة: قرية بغـــــــوطة دمشق، وإياها عنى ابن منير بقوله:

سقاها وروّى من النيربيـــــين إلي الغيضتين وحمور يـــــــة
إلى بيت لهيا إلى بـــــــرزة دلاح مكفكفة الأوعيـــــــة

وهي قرب دمشق، مشهورة ببساتينها (معجم البلدان: ١/ ٣٧٢)
(٣) إبراهيم: رأس سلالة العبرانيين ومثال للرجل الصالح المخلص لله في سفره إلي كنعان، وإذعانة لأمر الله عند ماطلب منه تقديم ابنه أضحية، وهو مؤسس اليهودية، وعده الله أرض كنعان لنسله من ابنه اسحق الذي أنجبه في شيخوخته (سفر التكوين: ١-٢٥)
أطلق عليه المسلمون لقب خليل الله ويعدونه جد العرب عن طريق ابنه اسماعيل وهو الجد الأعلي لمحمد، صلي الله عليه وسلم، ذكرت قصته في القرآن غير مرة، مطولة تارة ومختصرة أخرى (الموسوعة العربية الميسرة لمحمد غربال: ١/ ٣)

ومغادرة الدّم (١) ، لاتستفيق من الذّم ، ومسجد الكهف ، لايفتُر من اللّهْف ، وقبر شيثَ (٢) ، قد استأصله الخبيث ، وقبر نوح ، يبكي وينوح ، وقبر حيله ، مالنا في عمارته حيلة ، وقبر إلياس ، قد أعرضنا عنه باليأس ، فأمست المشاهد كلها كأربا بها ، وأصبحت رميما كأصحابها ، قد مَحَتْها الغوادي ، وحدابها الحادي : (الكامل)

جَرَت الرّياحُ على رسوم دِيارِهم فكأنما كانوا على ميعاد (٣)

فقال الملك : رُبَّ طارقٍ على غير وعد ، وفي كل وادٍ بنو سعدٍ ، ثم استفتح المقال ، بأن قال : الحمد لله الذى لا يُحمد على المكروه سِواه ، نَصَب صراطَ العدل وسوّاه ، وأمدّه وقوّاه ، فمن أضلُّ ممّن اتّبع هواهُ وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه ، أحمده على ما رزقني من الإجمال ، وأشكره على ذهاب العِرض والجاه والمال ، وأشهدُ أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً سيّد الأولين والآخرين رسول الله ، أما بعد ، معشر المتكلمين ، وطائفة المساجد المتظلّمين ، فإنه واللهِ مايصل إليكم من الجور إلا مايفضل عنى ، ولاينتهي إليكم الآ مايُستعار مني ، ولولا أن أركاني سليمة ، وبنيتي قديمة ، لأصبح

=:==

(١) مغارة الدم : في جبل قاسيون ويقال بها قتل هابيل أخاه هابيل وهناك شبيه بالدم يزعمون أنه دمه باق إلى الآن وهو يابس وحجر ملقى يزعمون أنه الحجر الذي فلق به هامته .

(معجم البلدان : ٤/ ٤٩٦)

(٢) شيث : هو شيث بن ابراهيم بن محمد بن حيدرة ، أبو الحسن ، ضياء الدين المعروف بابن الحاج القناوي : اديب ، من العلماء . مولده بقفط ، عمي في كبره ، له تصانيف ، منها (الاشارة بتسهيل العبارة) في العربية وكان ملوك مصر يعظمونه ويجلون قدره ، على كثرة طعنه عليهم ، واستهانته بهم . وله مع القاضي الفاضل مكاتبات ورسائل (نكت الهميان : ١٦٨) .

(٣) القائل : الأسود بن يعفر النّهشلي من قصيدة له في المفضليات : ٤٤٥ - ٤٥٧ ط : اليسوعيين و ٢/ ٦/ - ٢٠ ط : دار المعارف ، وفيها : جرت الرّياح على مكان ديارهم .

جامع أُميّة (١) ،يُغنّى عليه : يادارَ ميّة (٢) وقد واللهِ شرقتُ بغُصّتكم وحرت في قصتكم ،إن رفعت أمركم إلى الملك العادل (٣) ،ردكّم إلى الشيخ العاذل ، فلا يرعى لكم حُرمة ، ولا يراقب إلاًّ (٤) ولا ذِمّة ،شكوا لجريح إلى الغربان والرّخَم(٥

والرأي عندي (أن) تكتبوا للشيخ قصّة ،ولا تتركوا في صدوركم غُصّـة ، وأن تجعلوا في الكتاب أنواعا من الكذاب ،فإن التأم رأبه برائكم ،وإلا فالسلطان من ورائكم ،أقول قولي هذا وأستغفرالله لي ولكم .

فبادر الغلام بالدواة والأقلام ،فقال : استعذ بالله من الشيطان الرجيم واكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، من ملك الجوامع بجيرون (٦) ،إلى أبي سعدبن أبي

=:=

(١) جامع أمية أوالجامع الأموي : بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكان الابتداء بعمارته في سنة ٨٧هـ . وقيل : ٨٨هـ ويضرب به المثل في الحسن . انظر (معجم البلدان : ٢/ ٤٦٥ و(صورة الأرض : ١٦١) .

(٢) إشارة إلى اول بيت في معلقة النابغة الذبياني .
يادار مية بالعلياء فالسّنـــد أقوت وطال عليها سالف الأمد
(شرح المعلقات للزوزني : ترجمة النابغة)

(٣) الملك العادل : هوالملك الأشرف ، موسى بن محمد العادل ، من ملوك الدولة الأيوبية بمصر وسورية ،قام بغزوات كثيرة ضد الصليبيين ،واتّسع نطاق ملكه ،أقام بالرقا ،نزل للسلطان الكامل عن بعض أجزاء مملكته وأخذ منه دمشق . ومن آثاره (دار الحديث الأشرفية) بسفح قاسيون . (الموسوعة العربية الميسرة : ٢/ ١٧٤٢)

(٤) إلاّ : عهد أو حلفا (لسان العرب : ١١/ ٢٥)

(٥) الرخم : نوع من الطير ، واحدته رخمة ، وهوموصوف بالغدر وقيل بالقذر . . .
(لسان العرب : ١٢/ ٢٣٥)

(٦) بجيرون : حصن عند باب دمشق ، وبابمن أبواب الجامع بدمشق
(معجم البلدان : ٢/ ١٩٩) .

عصرون (١): (الـوافـر)

لقـد أسمعـت لو نـاديت حيا ولكن لا حياة لمن تنـادي (٢)

أما بعد، ياغدار فقد هيّجت الألم، وأبهمت الظُّلَم، ومن استرعى ظالما فقد ظلم، كم تغاضينا عن خياناتك، وتغافلنا عن جناياتك، حتى اكتنزت الأموالَ وادّخرتها وجمعت الذخائر واختزنتها، لكن من أجل هذا كانت سياحتك، وبسببه طالت نياحتك، ولأجله كنت تسبح وتصبح، حتى غبَطك المسيح.

لقد عجبتُ أيها الشيخ من حالك، في ابتداء حالك، ومن فساد أمرك في آخر عُمُرك، صليت بالمسوح (٣) والقيد، حتى ظفرت بأنواع الصيد، وقلّدت الأمور العظام، حتى تقلّدت الذنوب العظام، إن كنت في العمل إلا كماقيل في المثل: (البسيط)

صلّى وصام لأمر كان يأمله حتى حواه فماصلّى ولا صاما

=:=

(١) في الأصل: إلى أبي سعيد، وهو خطأ، والصواب ما أثبت، وهو شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون، كان مولده بالموصل سنة ٤٩٢ وتوفي سنة ٥٨٥، الخريدة - قسم الشام: ٢ / ٣٥١ ووفيات الأعيان ٣ / ٥٣ وطبقات الشافعية ٧ / ١٣٢، ونكت الهميان: ١٨٥، والدارس في معرفة المدارس ١ / ٣٩٩، وغاية النهاية ١ / ٤٥٥، والشذرات والنجوم ومرآت الجنان في أحداث سنة ٥٨٥ وهو في السير ٢١ / ١٢٥، وفيه عزو لمصادر أخرى مطبوعة ومخطوطة.

(٢) هذا البيت يعزى إلى كثيرين والأغلب أنه مجهول القائل

(٣) المسوح: احتراق باطن الركبة لخشونة الثوب، أو اصطكاك الرّبلتين، وهو مس باطن إحدى الفخذين باطن الأرض، فيحدث من ذلك مشق وتشقق، وهنا ما يلبس في القدمين. (اللسان: ٢ / ٥٩٤)

عرّفني أيها الشيخ المفتون والبائع المغبون ،لم بعتَ الباقية بالفانية ، والقاصية بالدّانية ،إن فعلت ذلك إلالِعِلّة ،أو لتحقيق ملّة ،إما أن تكون قد استطبت السّكباج ، (١) ،واستلينت الدّيباج ،وإما أن تصدّق أهل الأحقاد في أنك نُصيريّ (٢) الاعتقاد ،لاتقول بالنجعة ،ولا تصدّق بالرجعة (٣) ، وكلاهما أنت فيه ملوم ،ومعاقب ومذموم وحسبك أنه قدبلغني ماأنت عليه من قلّة الوفاء ،مع هؤلاء الضعفاء ،فاحسِمْ عنهم أذاهم ،ولاتُمكّن منهم أعداهم ،والسلام .

فلما وصلت الرّقعة إليه ،وقد تمّ ماانطوت عليه ، فكّر وقدّر ،فقتل كيف قدّر ، ثم نظر ،ثم عبس وبسر ،ثم أدبر واستكبر (٤) ،وشتم المساجد وبانيها ، ولعن المشاهد وقانيها ،وقلب الرّقعة وكتب فيها :

وصلت رقعتك أصلحك الله ،كأنها ضربة موتور ، نفثة مصدور ،تخلط فيها الهزل بالجِدّ ،وتبدي غيظ الأسير على القِدّ ،وأيم الله لقد قذفت سريًا ، وجئت شيئا فريًا ،فاشدُدْ من عقالك ،وتأيد في مقالك ،فماكل شخص يُذمّ شكلُه ،ولاكل طائر يجوز أكله ،ولوكان لك عقل يهديك ،أو رأي يُجديك ،لَواريْت أوارك ، وسترت عُوارك ، أليس قداشتهر عندالدّاني والقاصي ،بأنك قطب المعاصي ،حتى لقّبوك بسوق الفسوق ،وميدان المردان ،ورحاب القحاب ،

=:=

(١) السكباج :كلمة أعجمية معربة ،وهولحم يطبخ بخل . (معجم اللغةالعربية ١/ ٤٣٨)

(٢) النصيرية هي نحلة خبيثة ترجع الى موجدها محمد بن نصيرمن أهل القرن الثالث ،وهم يقولون بتناسخ الأرواح ويستبيحون الفروج واللّواط و يقولون بألوهيّة علي ،وانظركتب الفرق . (الملل والنحل للشهرستاني : ٢/ ١٨٨)

(٣) الرجعة : الرجوع إلى الدنيابعد الموت . (القاموس المحيط : ٥٣٠)

(٤) إشارة الى قوله تعالى ((إنه فكّروقدّر . فقُتل كيف قدّر ثم قتل كيف قدّر ثم نظر . ثم عبس وبسر ثم أدبرواستكبر)) سورة المدثر : الآيات ١٨- ٢٣

حتى قال فيك الشاعر: (المتقارب).

تجنَّب دمشقَ ولا تأتِها ... وإن راقكَ المسجدُ الجامعُ

فَسُوقُ الفُسُوقِ به قائمٌ ... وفجرُ الفجورِ به طالعُ

لا جرم أن الله قطعك بالطريق، وعاقبك بالحريق، وجعل البَيْضَ (١) على أبوابك، والزُّطَّ (٢) في قبلة محرابك، فلو أنك البيتُ المعمور لهُجِرت، أو بيت مكة لَما حُجِجْتَ، فتوقَّفْ عند مقدارِك، وانظر في إيرادك وإصدارِك والسلام.

فلما وقف الجامع على رقعته، قام وقعد، وأبرق وأرعد، وقال: اكتب ياغلام: بسم الله الملك العلاّم: من العاتب الواجد إلى الملك الزاهد، قال الحائط للوَتِد: لِمَ تَشُقُّني؟ قال: سَلْ من يَدُقّني، لم يتركني الحجر الذي من ورائي أما بعد أيها الملكُ العادل، أدام الله أيامك ونشرفي الخافقين أعلامك، فان الله شرَّف بنيتي وحرَّمها، وطهَّر بقعتي وكرَّمها، طالما زوحمت بالمناكب، لما كنت هيكلا للكواكب، وكم أصبحت مشكاة للأنوار، وبيتا لا ينطفئُ من النار، ثم انتقلت إلى اليهود، بعد انقراض مِلَّة هود (٣)، فأنست بالزَّبور (٤)، والأنبياء في القبور ثم جاءت دولة الصُّلبان فقربت بالقربان ومعاشرة الرُّهبان، ثم جاء الاسلام، فتشرفت بدين محمد عليه السلام، فأنا المظَّم في كل زمان، والمقدم في كل قران، وكيف يسَعُك

---

(١) البيض: الموت الذي يأتي فجأة. (اللسان: ٧/١٢٧)

(٢) الزط، بالضم: جيل من الهند، معرب جت بالفتح، والقياس يقتضي فتح معربه أيضا، الواحد زطي، وتنسب اليهم الثياب الزطية. (لسان العرب: ٧/٣٠٨)

(٣) هود: هو هود ـ عليه السلام ـ ابن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد: بني عربي، من قوم عاد الأولى (وهي مثل ثمود) من سكان الأحقاف (شمالي حضرموت) وفي نسبه أقوال كان يتكلم بالعربية، وقيل: انزل عليه: (ياهود، ان الله قد أثرك أنت وذ ريتك بسيد الكلام)) وكان قومه وثنيين فدعاهم الى الله، فكذبوه واتهموه في عقله، فأنذرهم، وحذرهم غضب الله (الاعلام لخير الدين الزركلي: ٨/١٠١)

(٤) الزبور: الكتاب بمعنى المزبور جمع: زبر وهو كتاب داود عليه السلام (لسان العرب: ٩/٥٠٩)

أيّدك الله ـ التغافلُ عن حالي ،والتحسين لنهب أموالي ، ويدُك مبذولة في البـــلا د ومتحكّمة في رقاب العباد ،وأي شي* يكون جوابك يوم النشور ،اذا بُعثِر مافي القبور ،ووقفت موقف الذليل بين يدي الملك الجليل ،وأقول يارب سل هذا ،ا .. لم أهملني ،وسلّمني إلى من أكلني ،ولا تردّ يومئذ جوابا ،ولا تحير خطابا ،ولا آخذ منك جميلا ولا كفيلا ،ولا أقبل عنك شفيعا ولا وكيلا ،فتقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ،ياليتي لم اتّخذ فلانا خليلا ،لقد أضلّني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا (١)

فقدّم أيها الملك لنفسك ،ماتجدُه غدا في رَمسِك ،وخذ هذا المذكـور بالحساب ،قبل يوم الحساب ،تبرأ من الشناعة ،وتدخل في أهل الشفاعة ،والسلام على من عَمَّرَ مساجد الاسلام ورحمة الله و بركاته .

فلما وقف نورالدين على كتابه ،وتجرّع كأسَ عتابه ،التفت إلى المساجـــد فرّش لهم ،وسدّد أحوالهم ، ((وَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ)) (٢) ثم نظـــر إلى ابن أبي عصرون فأنزله ،واعتزله عن بابه واختزله ، وألقاه في سجن الصُّدود ،وخلّده فيه إلى يوم الخلود ،وقرأعليه : ألا بُعْداً لِمَدْيَنَ كمابَعِدَتْ ثمودُ (٣) ،والسلام. (٤)

==:=:=:=:=: :=: :=:=:=:=

(١) اشارة الى قوله تعالى ((ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتى ليتني لم اتخذ فلانا خليلا . لقد أضلّني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا))

سورة الفرقان : الآيات ٢٦ ـ ٢٩

(٢) سورة يوسف ، الآية : ٧٧

(٣) النقد على لسان المساجد جيد والأسلوب طريف وهذا الغزل الساخر أشدّ تأثيرا وفتكا من الجد وهو نقد اجتماعي يتوجه به صاحبه ضد عامل من أكبر عمال الدولة . وقد سار على غرار الوهراني في هذا النقد الشاعر الدمشقي ابن عنين في (مقراض الأعراض) . والحق أنّ الوهراني فتح فتحا جديدا في النثر العربي .

(٤) القرظ : ورق السّلم ، أو ثمر السنط ، ويعتصر منه الأقاقيا (القاموس المحيط : ٩٠٠)

المملوكة ريحانة بغلة الوهراني تقبل الأرض بين يدي عزالدين ،حسام أمير المؤمنين ،نجّاه اللهُ من حرّ السعير ،وعظم بذكره قوافل العير ،ورزقه من التبن والحب والقرط والشعير وَسْقَ (١) مائة ألفِ بعير ،واستجاب فيه صالح أدعية الجمّ الغفير من أهل الخيل والبغال والحمير ،وتُنهي إليه ما تُقاسيه من مواصلة الصيام ،وسوء القيام ،والتعبِ في الليل والناسُ نيام ،قد أشرفتْ مملوكتُه على التلف وصاحبُها لا يحتمل الكُلَف ،ولا يقول بالعَلَف ،ولا يوقن بالخلف ،لأنه في بيته مثل المسك والعبير ،والإطريغل الكبير أقل من الأمانة في الأقباط ،والعقل في رأس قاضي سنباط ،فشَعيرُه أبعدُ من الشِّعْرى (٢) العَبور ،ولا وصول إليه ولا عُبور ،وأعزُّ من قُرْطِ مارِيةَ لا تخرجه صدقة ولا هِبَةٌ ولا عاريَّة ،والتبنُ أحبُّ إليه من الابن ،والجلبانُ (٣) أعزّ عليه من دُهن البان ،والقضيم (٤) من العِقد النَّظيم ،والقضَّة (٥) أكمل من سبائك الفضة ،والفولُ من دونه ألفُ باب مقفول ،فما يهون عليه أن يعلف الدوابَّ إلا بعيون الآداب ،والفقه اللُّباب والسؤال والجواب ،وما عند الله من حُسن الثواب ،ومعلوم أن البهائم لا توصفُ بالحُلوم ،ولا تعيش بسماع العلوم ولا تطرب إلى شعر أبي تمّام (٦)

=:=

(١) الوسق : الحمل والموسق ستون صاعا ،أوحمل بعير (القاموس المحيط : ١١٩٩)

(٢) الشعرى : كوكب يقال له المرزم يطلع بعد الجوزاء ،وطلوعه في شدة الحر ،وهما الشعريان : العبور التي في الجوزاء ،والغميصاء التي في الذراع . الشعرى العبور طائفة من العرب في الجاهلية ،ويقال : انها عبرت السماء عرضا ولم يعبرها عرضا غيرها ،فانزل الله تعالى : ((وأنه هو رب الشعرى)) ،أي رب الشعرى التي تعبد ونها (لسان العرب : ٤/ ٤١٦)

(٣) الجلبان : عشب حولي من الفصيلة القرنية تؤكل بذوره (المعجم الوسيط : ١٢٨)

(٤) القضيم : السيف القديم المتكسر الحدّ (القاموس المحيط : ١٤٨٥)

(٥) القضه : اللؤلؤة المثقوبة (القاموس المحيط : ٨٤١)

(٦) أبوتمام : هو حبيب بن أوس الطائي ،ولد بقرية جاسم بقرب دمشق على الطريق منها إلى طبرية ولد سنة ١٩٠ حسب قوله ،شعره زاخر ،فقد انقض على معارق عصره انقضاضا حتى تمثلها تمثلا دقيقا ،ومن أشهر قصائده (فتح عموريه) توفي في الموصل سنة ٢٣١هـ . وشعره يملأ نفس قارئه فتوة وقوة ،وقد دأب على وصف أسفاره بالغرابة وباللآلىء الفريدة . (العصر العباسي الأول لشوقي ضيف : ٢٦٨- ٢٩٦)

ولا تعرف الحارث بن همام (١)، ولاسيّما البغال التي تشتغل في جميع الأشغال، وشكيّة من الفصيل، أحب إليها من كتاب التحصيل، وقَتَّة من الدّريس أشهى إليها من فقه محمد بن إدريس (٢)، لو أكل البغلُ كتابَ المقامات لمات، ولو قيل له أنت هالك إن لم تأكلْ موطّأ مالك (٣) ما قبل، وكذلك لا يتغذّى بشرح أبيات الجُمل، وحزمة من الكلا، أحب اليه من شعر أبي العَلا، وليس عنده طيب شعر أبي الطيّب (٤)، وأما الخيل فلا تطرب إلاّ إلى سماع الكيل، ولو أكلت كتاب الذّيل ماتت بالنّهار قبل اللّيل، ولا تستغني الأكاديش عن الحشيش، بل ما في الحماسةِ من شعر أبي الحريش وإذا أطعمت الحمارَ شعرَ أبي عمّار، حلّ به الدمار، وأصبح منفوخا كالطبل على باب الاسطبل. ومع هذا كله فقدراح صاحبها إلى العلاّف، وعرض عليه مسائل الخلاف، وطلب من تبنه خمس قفاف، فقام إليه بالخفاف، فخاطبه بالتقمير، وطلب منه وزنه شعير، فحمل على عياله ألف بعير، فانصرف الشيخ مكسور القلب من السّبّ

=:=

(١) حارث بن همام: هو الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان، وأمه هند بنت ذهل بن عمرو بن عبد بن جشم. (جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي: ١/ ٢/ ٣٢٥).

(٢) الدّريس: جرب البعير أو الأثواب الخلقة (القاموس المحيط: ٧٠١)

(٣) محمد بن ادريس: هو محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس، أبو عبد الله: مؤرّخ من أكابر العلماء بالجغرافية من أدارسة المغرب الأقصى. توفي سنة ٥٦٠ هـ ويلقّب أيضا بالقرطبي، نسبة الى قرطبة التى تعلم فيها، ومن مصنفاته (كتاب روضة الأنس ونزهة النفس). انظر (الاعلام ٧/ ٢٤١) ودائرة المعارف الاسلامية: ٢/ ٤٨٨).

(٤) مالك بن انس، عالم الدين، عربي الأصل عاش بالمدينة تلقى عن كثيرين من التابعين، وأخذ فقه الرأى عن ربيعة الرأي، ويحيى بن سعيد كان محدثا وفقيها، يتحرى في الرواية، وله كتاب الموطأ جمع فيه ما صحّ عنده من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وفقه الصّحابة انتشر مذهبه في مصر، وشمال افريقيا والأندلس وبعض بلاد المشرق
(الموسوعة العربية الميسرة: ٢/ ١٦٣٠)

والثّلب (١)، فالتفت إليّ، وقد حنق عليّ، وقال: إن شئت تكدي، فلاذقت شعيرا ما دمت عندي.

فبقيت المملوكة حائرة، لا واقفة ولا سائرة، فقال لها العلاّف: لا تجزعي من خياله، ولا تلتفتي إلى سِباله، ولا تنظري إلى نفقته، ولا يكن عندك أحسن من عَنْفَقَتِهِ (٢)، هذا الأمير عزالدين، سيف المجاهدين، أندى من الغَمام، وأمضى من الحسام، وأبهى من البدر ليلة التمام يرثى للمحروب، ويفرج عن المكروب، وهو من بني أيوب، لا يردُّ قائلا، ولا يُخيّب سائلا فلما سمعت المملوكة هذا الكلام، جذبت الزّمام ورفضت الغلام، وقطعت اللجام وشقّت الزّحام، حتى طرحت خدّهـا على الأقدام، ورائه العالي والسلام.

عبد مولاي قاضي القضاة الأجل الفاضل أدام الله جَدّه، وأهلك ضِدّه من السرور بقُربه، والدخول في سِرْبه، كماسرَّ مهجور بوصل الحبائب، ومن الارتياح إلى جلاله، والورود على زُلاله، كما ارتاح ظمآن لعذب المشارب، ومن الاعتذار لمعانيه والاعتكاف على حفظه، كما نظم الدُّر المفضل ناثر، ولولا أن عبدَه أخفشُ البصير والبَصَر يغلبه لكنه الحصر، ويضعف عن مقابلة الشمس والقمر، للازمه السعد لِبابه، والتوفيق لأحبابه، لكنه الخفاشُ (٣) يعشو عن الأنوار، والجُعَلُ يتأذى برائحة النّوار، ولا يغترّ المولى بزخارفه، وتنميق مخارفه فالعودُ أطيب من ثراه، والكلام

=:==

(١) الثلب: اللوم والعيب (القاموس المحيط: ١/٨)

(٢) العنفقة: خفة الشيء وقلته، والعنفقة: مابين الشفة السفلى والذقن منه لخفة شعرها، وقيل: العنفقة مابين الذقن وطرف الشفة السفلى، كان عليها شعر أو لم يكن. (لسان العرب ١٠/٢٧٧)

(٤) الخفاش: بضم الخاء المعجمة وتشديد الفاء، وبالشين المعجمة، ويجمع على خفافيش، وهو طائر غريب الشكل والوصف لا ريش عليه، وأجنحته جلدة لاصقة بيديه، وقيل لاصقة بجنبه، وسمي خفاشا لأنه لا يبصر نهارا، وبه سمي الرجل أخفش، والعامية تسميه الوطواط.

(الموسوعة العربية ١/٧٦١)

أحسن ممّن افتراه ،ولأن تسمع بالمُعَيْديّ خير من أن تراه (١) ،ولولاه نسب خادمه أقبح من النسيب ،وخروجه إلى المدح أوحش من الخروج ،وقريضُه تـ أوجع من القريض،وفقده أشدّ من الفقر ،وقرائنه كالقرين السوء لأرسلها كالأفراس ،وأسكت بهاصياحَ الأجراس ، والسلام .

إلى الأثير ابن بنان : لوأن بعض الفضلاء المتقدمين ،والفصحاء المتكلمين خاض أوديةَ الأوهام ،على بنات الأفهام ،وغاص في بحار الأفكار ،على المعاني الأبكار ،يمدح به السبعةَ الدّراري ،ويجعل النجومَ الجواريَ لها كالجواري ،ويصفها بما يشرّفها في أفلاكها ،ويجمّلها في عيون مُلاّكها ،لما وَجَدَ لها أجملَ من صفات سيدنا القاضي الأجل الأثير أدام الله عُلوّه ، وكَبَتَ عَدُوَّه ،وعلم علما يقينا أنّ الفَلَكَ الأثير لا يحتوي على مثل القاضي الأثير ،حتى لوأن شاعر الفَلَك وهوالشِّعْرَى العَبور قصدها وحلّها ممتدحا لها ،فوجدرجلا بثبات سيدنا وأناته ،ونسب المشتريَ إلى ديانته وأمانته ،واستعار للمِرِّيخ حزمَه وعزمَه ، وأثنى على الشمس بسياسته ورياسته ،ومدح الزُّهَرة بِبِشره ونشره ،وذكر عُطاردَ ببراعته ،وأثنى على القمر بانجازه ونِجاره ،لجعلوا عليه غلائلَ المجرة ،وكلّلوه بنجوم الاكليل ،وأنزلوه في الفراقد ،وأنعشوا له جماعة بنات نعش (٢) ،وأوقدوا على رأسه ——————

=:=

(١) في المثل : (تسمع بالمعيدي لا أن تراه) ويروى أيضا : (أن تسمع بالمعيدي خيرمن أن تراه) والمثل للنعمان بن المنذر.
يضرب لمن اذا وصف له رجل على الغيب ثم رآه فاحتقره وازدراه . والمعيدي : هوضمرة بن جابر ،والمعيدي تصغيرمَعَدّي .
وأصل المثل أن رجلا من تميم كان يغيرعلى ثغور النعمان بن المنذر حتى إذا عيل صبر النعمان كتب إليه أن ادخل في طاعتي ولك مائة من الابل ، فقبلها وأتاه ، فلما نظر اليه ازدراه وكان دميما ، فقال المثل . (جمهرة الأمثال : ١/ ٢٦٦ و (أمثال العرب للضبي : ٥٥)
(٢) بنات نعش : هي سبعة كواكب ،أربعة منها نعش ،وثلاث بنات وكذا الصغرى (القاموس المحيط : ٧٨٤)

نجومَ الثريّا (١) ، ونثروا عليه كواكب النَّثرَة (٢) ، وأنعموا عليه بمنزله النعائم ، وأقطعوه بلاد البلد ، وأمروا سعدَ الذابح أن يذبحَ له الجديَ ، ويملأ له الدّلو ، ويقليَ له الحوت ويشويَ له الحَمَل ، وأن يطبخ له الثورَ كله سِكباجا (٣) ، وأن يحملَ من خبزالسُّنبلة ومن ثمرة الجوزاء مايضعُف ميزانُ الفَلَك عن حَمْله ، ووكلّوا السِّماكَ الرامح أن يرعاه برمحِهِ من ذُنَيْب السَّرطان ومن شَوْكة العقرب ، ومن ذراع الأسد ، ومن سهام القوس ، حتى يعودَ إلى فلكِه وهو أسعد النجوم ، وحقيق بمن هذه خلاله أن يُمدحَ جلالُه ، ومن هذه صفاتُه أن تتفجّرَ صَفَاته ، ومن هذه أوصافه أن يُحمَد وصافُه ، لاسيّما ابن سبيل طالت به في الشأم الغَيْبَةُ ، وعوّقته عن الإستبراع الهيبة ، حتى اكتال من اكتال وانكسرت الوَيْبه (٤) ، والمرء يسعى ورزق الله مقسوم ، هذا بعدماركب الليل جملا ، واحتذى أديم النهار نَعْلا ، وجر من باب الجابية (٥) إلى رأس الطابية ، متلذّذا بالعَنا ، طامعــا في اليسار والغِنى ، وإنما يقطع أعناق الرجال المطامع ، فوصل الى القاهـــرة

=:=

(١) الثريا تصغير ثروى ، والنجم لكثرة كواكبه مع ضيق المحل (القاموس المحيط : ١٦٣٥)

(٢) النثرة : عنقود عن النجوم في صورة السرطان ، وهو الثامن من منازل القمر . سعد الذابح : وهو كوكبان صغيران بينهما في رأي العين أقل من قدر ذراع ، أحدهما مرتفع في ناحية الشمال والآخر منخفض في ناحية الجنوب ، سمي سعد الانهمال الأمطار في ايام طلوعه فتموت المواشي ببرده . (لسان العرب : ٥/ ١٩٢) .

(٣) السكباج : كلمة اعجميه معربة ، وهو لحم يطبخ بخل . (المعجم الوسيط : ١/ ٤٣٨)

(٤) الويبه : مكيال للحبوب سعته سدس الإردب ، اثنان أو أربعة وعشرون مدا بمد الرسول صلى الله عليه وسلم . (القاموس المحيط : ١٨٢ و ١٢٣١)

(٥) باب الجابية : بدمشق منسوب الى الجابية ، وهي قرية من أعمال دمشق ، وروي عن ابن عبّاس ، رضي الله عنه ، أنه قال : أرواح المؤمنين بالجابية من أرض الشام وأرواح الكفار في برهوت من أرض حضرموت . (معجم البلدان : ٢/ ٩٠-٩٢)

كالعاشر من خيول الحلبة والتاسع من أولاد الكلبة، ليس له طبي يخصّه (١)، ولا بزيمصّه، فوجد الأمور قد تغيّرت عن كيانها، والقصور تبكي على سكّانها، ومن ذا الـــذي ياعزّ لا يتغيّر.

فلولا الاخوان لعاردته أسوان (٢)، ولولا الأصحاب، لضاقت به الرّحاب، إنّ المعارف في أهل النّهى ذمم، واجتمع يوما ببعض المعارف الراسخين في المعارف فسأل عن أسعار الأشعار، فأخبره عنها بالكساد والفساد، وعن أهلها بالخرف، وقال كلّ كلام مسجوع لا يسمن ولا يغني من جوع (٣)، وصاحب القصيد كالباســـط ذراعيه بالوصيد (٤)، وماعند الأمراء أحسن من دقوق الشعراء، فلوبشّر أحدهم ببشّـــار، وهنّأه ابن هانئ (٥)، وقصده أبوالعلاء (٦)، ونزل به صريع الدلاء، ومدحه الدؤلي (٧)

=:==:

(١) في الأصل: طي يخصه، والصواب ماأثبت والطبي بالكسر والضم: ج: أطباء، وهي حلمات الضرع التي من خف وظلف وحافروسبع. (القاموس المحيط: ١٦٨٤)

(٢) أسوان: وهي مدينة كبيرة وكورة في آخر صعيد مصروأول بلاد النوبة على النيل في شرقيه وقال الحسن ابراهيم المصرى بأسوان من التمور المختلفة وأنواع الأرطاب.
(معجم البلدان: ١/ ١٩١)

(٣) إشارة إلى قوله تعالى ((لا يُسمن ولا يُغني من جوع)) الغاشية: الآية ٧

(٤) إشارة إلى قوله تعالى ((وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لواطّلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا))
سورة الكهف: ١٨

(٥) ابن هانئ: هومحمد بن هانئ بن محمد بن سعدون الأزدي، الأندلسي (ابوالقاسم) أديب شاعر. ولد بقرية سكون من قرى اشبيلية، اتّهم بمذهب الفلاسفة. من آثاره: ديوان شعر كبير. (معجم المؤلفين لكحالة: ١٢/ ٨٨)

(٦) أبوالعلاء المعرى: هـــــــو أحمد بن عبد الله بن سليمان بن قضاعة التنوخي اللغوي الشاعر، كان متضلعا في فنون الأدب، وله التصانيف الكثيرة المشهورة والرسائل المأثورة ولد سنة ٣٦٣هـ بالمعرة وعمي من الجدري أول سنة ٣٦٧هـ، ودخل بغداد سنة ٣٩٨ هـ، توفي سنة ٤٤٩هـ بالمعرة، انظر (وفيات الأعيان: ١/ ١١٣) ومعجم الأدباء: ١/ ١٨١) و(الأعلام: ١/ ٥٧)

(٧) الدؤلي: هو ظالم بن عمرو الدؤلي الكناني، واضع علم النحو. توفي بالبصرة سنة ٦٩ هـ. (الأعلام: ٣/ ٢٣٦).

بدالّيته ،والطائيُّ (١) بطائيتِهِ ،والواوي بواويّته لماأجازه على ذلك بجوْزة ،ولاأثابه على ذلك بثوب خليع ،وردُأمس الذّاهب أهون عليه من أخذ ذهبه ،وخلعُ الأكتاف أهونُ من خِلعه ،وحنوط الغاسل أقرب من حِنطته ،والشّعرى العَبور أقرب من شعيره وقُرْطُ مارية أقرب من قرطه ،والتّبن عنده مثل التّبر يعلمُ عليه بالمداد والحبر ويقاس بالشبر ،فليس لابن سبيل على مالِهِ سبيل .

فلما سمع الخادم حديثه ،وفهم قديمه وحديثَه ،رمى بأقلامه ودواتِهِ وكتم جميع أدواتِهِ ،إلى الأمير نجم الدين بن مصاد ،كتب هذه الأحرف عبد مولاي المفضل الأمير نجم الدين علم الموحدين ، جواد لم ركبه ضحوة من باب النصر ،قاتل معه الحلبيين قبل صلاة العصر ،فلا والله ماشوق رجل من أبناء الملوك طلعته كالشمس عند الدُّلوك ،له نضرة ونعيم ،وهوبالرياسة زعيم لبس الخزّ والأرجوان ،ورُثِيَ في جنازة بَرْجوان (٢) ،بحيث يناله من القصر بهجة أُنواره ،ومن الكافوري نسيم نوّاره ،فيضيق

=:==

(١)الطائي :هوحاتم بن عبد الله الطائي ،توفي سنة ٣٥٧٨ ،شاعرجاهلي ،ولد ومات بنجد بين المدينة والشام ودفن بجبل عوارض . كانت أمّه كريمة ،فشبّ فارساجواداكريم الأخلاق وكان مظفرا ،اذا قاتل غلب واذا أسرأطلق ،واذا غنم أعطى واذا سئل وهب ،قدم الشام ،وتزوج مارية بنت حجرالغسّانية ،ضرب المثل بجوده ورويت عنه الأخبارالحقيقية والخيالية .
انظر (الموسوعة العربية الميسرة : ١/ ٦٨٤) .

(٢)برجوان خادم العزيز ،الأستاذ أبوالفتوح برجوان الذي ينسب إليه حارة برجوان بالقاهره كان من خدّام العزيزصاحب مصرومدبري دولته ،وكان نافذ الأمرمطاعاوكان أسود وقتل عشية يوم الخميس السادس والعشرين من شهرربيع الآخرسنة ٣٩٠هـ في القصربالقاهره بأمرالحاكم (وفيات الأعيان لابن خلكان : ١/ ٢٧٠)

مربطه بالهماليج (١)، ويزهو مطبخه بالأباليج (٢)، لا يعرف طعمَ البوس، ولا يدري ماخشونة الملبوس، يرتاض في طرفي النهار على شطوط الأنهار، وينام في الليل مع الحور بين التّرائب والنّحور، وينصرف عن المقيل، إلى العارض الهطيل، في ظلّ ممدود وطلح منضود، وفاكهة (كثيرة)، وماء مسكوب (٣)، فَعَبَر بهذه الأحوال، مدّة من الأحوال، إلى أن صرف الدهر إليه عنانه، وصوّب إلى صدره سنانه فخذفه بيده الشمال، وألقاه إلى العدو إلى بلد الشمال، بحيث لا يعرف قرارا، ولا يذوق النوم الاغرارا ولا يُنزعُ له ساق عن قدم، ولا يشربُ الماء الآبدم : (الطويل)

يقارع اتراك ابن خاقان لَيلَه إلى أن يرى الإصباحَ لا يتلعثم

فيُصبح من طول الجلاد مخبّلا وكان قديما دائما يتنعَّمُ

فعوضه الدهر عن لباس المعتق الجديد، بلباس الحديد، وعن عمائم اللاّذ (٤) بطراطير (٥) الفولاذ، وعن أكل الغراريج والدّراريج، بلحوم الجزارين والبراذين (٦) وعن شم الرياحين الطريّة إذا وافت بروائح المنزلة اذا جافت،

=:=

(١) الهماليج ومفردها هملاج : هو الخفيف في الحاجة السريع من الانسان والحيوان (لسان العرب: ٢/ ٣٩٣ و ٣٩٤)

(٢) الأباليج جمع أبلج : وهو الأبيض الظاهر المضيء النقي (لسان العرب: ٢/ ٢١٥)

(٣) إشارة الى قوله تعالى ((وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . في سدر مخضود . وطلح منضود وظل ممدود . وماء مسكوب وفاكهة كثيرة)) (الواقعة : ٢٧- ٣٢)

(٤) اللاّذ مفرده لاذة : وهي ثوب حرير أحمر صيني . (القاموس المحيط : ٤٣١)

(٥) الطراطير مفردها طرطور : وهو القلنسوة الدقيقة الطويلة (القاموس المحيط : ٥٥٣)

(٦) البراذين ومفردها برذون من الدواب ماهو دون الخيل والعراب وأقدر من الحُمُر.

(البستان : ١/ ١٢٨)

وعن سماع الطيور الأنيقات ، بتقعقع أصوات المنجنيقات ، وعن تقليب متاع البزّاز ، بالتقلب تحت قلعة أعزاز ، وعن مقابلة تجار الدكاكين بمعاركة السكاكين ، يظلّ نهاره عرضا للمهام ، وللجيش اللهام : (مرفّل الكامل)

وإذا غفا سلّت عليـ ـه سيوفها الأحلام (١)

فضجّ من عمل البيكار ، وانقطع إلى الوسواس والأفكار ، فذكر يوما بمنزله وداره ، وهو في أعمال مدينة دارة (٢) ، وحنّ إلى تلك الصُّفف والمجالس ، وهو قريب من مدينة بالس (٣) ، وتصور الطبقة والروشن ، (٤) وهو علو سطح جبل جوشن (٥) ، وتخيّل مرتعه وحماه ، وهو في الشوق إلى مدينة حماه ، فتمنّى أن يطير إلى تلك الأوطان من تل السلطان ، وإن ثبت من باب الجابية (٦) ، إلى رأس الطابية (٧) ، ثم تصور المسافة الطويلة ، دون باب زويلة (٨) وأنشد : (الطويل)

==:=

(١) مأخوذ من قول أشجع السلمي في هارون الرشيد :
وعلى عدوّك يا ابن عمّ محمد رَصَدان ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبّه رُعته وإذا هدا سلّت عليه سيوفك الأحلام
وانظر الأغاني ١٧ / ٣٠١ وما بعدها .
(٢) قال ياقوت: دارات العرب: وهي تنيّف على ستين دارة . (معجم البلدان : ٢ / ٤٢٤)
(٣) بالس بلدة بالشام بين حلب والرقّة (معجم البلدان ١ / ٣٢٨)
(٤) روشن : وهو لفظ فارسي ، بضم الراء وفتح الشين ، بمعنى الكوّة والنافذة . وتكون أيضا بمعنى الشرفة . انظر (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ١ : ١١٨)
(٥) جوشن : جبل مطلّ على حلب في غربيها (معجم البلدان : ٢ / ١٨٦)
(٦) باب الجابيه من أبواب دمشق إلى الجنوب منها ، وقد مرّ ذكره اصفحة

(٧) أظنه من الأماكن القديمة بدمشق .
(٨) باب زويله من أبواب القاهرة (معجم البلدان : ٣ / ١٦٠)

أحِنُّ إلى أهلي وأهوى لقاءَهم   وأينَ مِنَ المشتاقِ عنقاءُ مُغرِبِ (١)

فتصعّدت حينئذٍ زَفراتُه، وتضاعفت حَسَراتُه، فأكبَّ على تعضيض يديه، وبكى حتى خرَّ مغشيًّا عليه، بأشقَّ من شوق الخادم إلى لقائه، وتطلُّعه إلى مايرد من تلقائِهِ، فيسأل الربَّ الذي هو بالإجابة جدير، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير (٢) أن يمتّعه بنظرة عن قريب، إنه سميع مجيب، ولا يعتقد المولى -أدام اللهُ عزّه- أن الخادم أساء في صدر هذا الكتاب إليه، ولا أنه وصفه بالحال الذي هو عليه، لعلمه بأنَّ عنده من المحبة لسلطانه، مايُسليه عن أوطانه، ومن الغرام بأميره، مايُلهيه عن سميره، وأن حديثه أحبُّ إليه من الخدم السَّنيَّة، وملازمته أشهى إلى قلبه من العيشة المرضيّة ولاشكّ أن أسعد الناس رجل يتصبّحُ بوجه الملك الناصر (٣)، ويُقبّل يديه التي هي كالعناصر، ويخدُم ركابَه الذي تتشرّفُ بخدمته الأملاك، ويمتثل أوامره التي تنفذُها الأفلاك، فيسأل الذي جلّت قدرتُه، أن يمتّعَهُ بأطول الأعمال، ويبسطَ له خدَّ كلِّ مُعاندٍ جبار بمنّه وكرمه.

كان عبد مولاي الأمير أدام الله عزّه، قد أخذ نفسه فيما مرّ من قرائن هذه الرقعة بلزوم مالا يلزم، فمرَّ في ذلك الهَذَيان مثل الفرس الجواد إلى أن عنَّ له أن يُضيفَ إلى ذلك فصلا آخرَ منسوجا على ذلك المنوال، شرح فيه قصّتَه مع ابن ظفير وما دهي به في ذلك العام، فوالله ما الحق أن يمرّ بخاطره مرورا حتى يُنشِبَ الأنامل

=:=

(١) العنقاء: الداهية، وطائر معروف الاسم مجهول الجسم. (القاموس المحيط: ١١٧٨)

(٢) الشورى: ٢٩.

(٣) الملك الناصر: هو أبو الفتح الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون ولد سنة ٦٨٤هـ وولي سلطنة مصر والشام عقب قتل أخيه الأشرف سنة ٦٩٣هـ. وعمره تسع سنين فخلع منها سنة ٦٩٤هـ لصغر سنه، ثم أعيد إليها سنة ٦٩٨هـ، ولكنه بقي في القلعة محجورا عليه، بحيث انحصرت الأعمال في يد بيبرس، فأظهر العزم على الحج وترك السلطنة فقدم الكرك وظلّ فيها مدّة، ثم قدم دمشق، وهيّأ نفسه لدخول مصر فدخلها وقتل بيبرس بيده خنقا وعاد إلى عرشه سنة ٧٠٩هـ فاستمر في الحكم إلى أن توفي سنة ٧٤١هـ. انظر (فوات الوفيات: ٤/ ٣٥-٣٦) و(الاعلام: ٧/ ١١)

ويُنشفَ اللسان، وجمد الخاطر وتبلّد الحِسّ، وانقلب الكيموس (١)، وصعدت الصفرة الصفراء إلى دماغه فاستحكم الفساد، وبقي بعد ذلك ثلاثة أيام يتكلم بكلام مخلط غيرمفهوم، وهو إلى الآن في عقابيل (٢)، ذلك، ألا ترى أنه قال البارحة لجماعة من جلسائه الذين يبيتون معه: من منكم يحفظ قول النابغة الذبياني (٣) في سيف الدولة حمدان (٤) لما شتمه المعتصم بمحضر من أبي هريرة (٥) رضي الله عنه

(الوافر)

جزاك الله يا ابنَ ظُفير عني	وأطعمك الهريسة بالقرين
قعدت على الطارف والحَشايا	فلا غثٌّ لديك ولا سمينُ
وجئتَ إليَّ بالأسحار تسعى	فلا ذهبٌ تركت ولا قماشا
نصرت علي باخوالفَ نصر	بصحنِ حلاوةٍ من سمِّ موت

=:=

(١) الكيموس: الخلط، وهي سريانية، وتعني الطعام في حالة هضمه وقبل خروجه من المعدة.

(الملحق بلسان العرب ليوسف الخياط ونديم مرعشلي: ٣/ ٨٧)

(٢) عقابيل: الشدائد والدواهي (القاموس المحيط: ١٣٣٧)

(٣) النابغة الذبياني: هو زياد بن معاوية بن جناب بن يربوع، وأمه عاتكة من بني أشجع، فهو ذبياني أبا وأما، لقب بالنابغة وبه اشتهر وذلك لنبوغه في شعره وتفوقه فيه، وكان من أشراف قومه، لم يعش طويلا حيث توفي سنة ٦٠٤هـ. (الاغاني: ١١ ٣)

(٤) سيف الدولة الحمداني: هو أمير حلب، أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان، موسم الأدباء وحلية الشعراء، اذ لم يجتمع بباب أحد من الملوك - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر. كان اديبا شاعرا محبا الجيد الشعر، وأخباره كثير مع الشعراء خصوصا مع المتنبي ولد سنة ٣٠٣هـ، وتوفي سنة ٣٥٦هـ بحلب. انظر (يتيمة الدهر: ١/ ١٥- ٣٤) وتاريخ بغداد: ٤/ ١٠٢).

(٥) أبو هريرة: هو عبد الرحمن بن صخر توفي سنة ٦٧٦م. من أكبر رواة الحديث نزح من اليمن إلى المدينة لازم النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى توفاه الله ولي في عهد عمر ولاية البحرين، ثم آثر حياة الهدوء متفرغا لجمع الحديث وروايته، ينسب إليه حوالي ٣٥٠٠ حديثا. من أجود الحفاظ وأكبر الرواة وكان يصوغ روايته أحيانا في قالب فكه.
الموسوعة العربية الميسرة لمحمد غربال: ١/ ٤٠)

وأشمتَ الأعادي بي قسرا ولا سِيَما أبو اليُمْن الكِندي (١)

يُعيِّرني ويضحك من بكائي كأنَّ الدَّهرَ أعطاهُ الأمانا

فأصبحتُ كما قد كنت بِحِسا أُكَدّي الناس بالشعر الركيك

وأُكَدّيهم بشِعرٍ مثلِ هذا فيُعطوني الجزا وسط الذُّقون

وارجع للنساجة من جديد وهذا بعد ما ضعفت جفوني

فيالهفي وحزني على ذهيب أَصولُ به على الدهر الخَئون

لقد شادوا بني شادي بالي (٢) بعشرات المواهب والعشرين

وقد ملأوا من النُّعمى جرابي فقطَّعه الجِرابُ على جبيني

براكمة الزمان بحارُ جود بدورُ التِّمِ آسادُ العرين

لقد منُّوا عليَّ وخلَّصوني من الأيام والرزق الحَرون

ولكن الحرانَ صديقُ بحي يطالبني مطالبةَ الدُّيون

يُخلِّصُني من ابن ظُفيرَ يوما سجد تُلـه على مرّ السنين (٣)

==:=

(١) أبو اليمن الكندي: هو تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن الكندي البغدادي المقرئ النحوي اللغوي الحنفي، ولد في شعبان سنة ٥٢٠هـ: علامة ومفتي، شيخ الحنفية وشيخ العربية وشيخ القراءات، ومسند الشام، حفظ القرآن وهو صغير مميز، وقرأه بالروايا العشر، توفي يوم الاثنين سادس شوال سنة ٦١٣هـ

(سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢٢/ ٣٤-٤١)

(٢) بنو شادي، أو شار: بطن من بلي من القحطانية، مساكنهم فيما فوق اخميم من صعيد مصر. ذكرهم الحمداني وقال: الأمره كانت فيهم، ثم قال: ويقال أنهم من بني أمية نزلوا القصر الخراب المعروف بقصر بني شادي، قال: وزعم قوم انهم من بني العجيل بن الديب وكان العجيل قد تزوج أخت ابراهيم بن شاد فولدت منه ولدا سمي شاديا، وشادي هو جد السلطان صلاح الدين بن أيوب (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي: ٢٧٦)

(٣) كذا جاء هذا الشعر، ولا يخفى ما فيه من ضعف.

ثم قال إلى الكيس الذي فَرَّغه ابن ظفير في كُمّه ،وفيه الدنانيرُ،وَتَركَه فارغا ،فملأه الخادم بفلوس النحاس ومثاقيل (١) الرصاص ورؤوس المسامير حتى صار مسبطرًا (٢) مثل ماكان ،ثم أضجعه معه في الفراش ، وضمّه إلى صدره وقال: لا إن شاء الله ،ماضاع لي شيء ،هذا رحلي معي ،الشيطان حياه الله أعقل من أن يوسوس إليّ باتلاف مالي عندما ضعفت القوّة ،وكثرت العائلة ،ولا يزال يَتَلَهّى بلحيته حتى يثورَ إليه عقله ،وهويعلم أن هذا هو المحال ،فيخرج الكيس من الفراش ،فيجده بين يديه ،ويُقعِدُه عندراسه مثل القتيل ،ويُنشد:

(مجزؤ الوافر)

سراة الليل مافعلوا	أحبتنا الذي رحلوا !!
تراهم ذاكرين لنا	ولكن غيرَنا وصلوا
لقدشطّ (٣) المزارُ بهم	فلا كُتُبٌ ولا رُسُل
وقد شفّ الهوى كَبِدي	وقد ضاقت بيَ الحيل

يكرّرُ هذه الأبيات ويبكي ،ويلطم ساعة ،ثم يُفرغ الكيس بين يديه ،فيقعُ الخرا في وسط لحيته ،فيضرطُ بفمه ضرطة (٤) عظيمة صافية ويقول في نفسه

=:

(١) مثاقيل ومفرده مثقال :عرّفه المقريزي بأنه اسم لماله ثقل ،سواء كبر أوصغر ،صار في عرف الناس اسماللدينار ،وتحدد وزنه في العصر الأموي على يدي الخليفة عبد الملك بن مروان بعد اصلاحه للسكة الاسلامية ،اذ جعل المثقال أي الدينار يزن ٤،٢٥ جم ،ضبط وزنه عن طريق الصنج الزجاجية (الموسوعة العربية الميسرة :٢/١٦٤٦)

(٢) مسبطراً من سبطر بمعنى تمدد واستقام . (القاموس المحيط : ٥١٨)

(٣) شطّ : بَعُد (القاموس المحيط : ٨٧)

(٤) رغم صحة هذه الكلمات وورودها في معاجم اللغة العربية وفي كلام العرب ،إلا أنني أرى أن المؤلف كان باستطاعته الاستغناء عن هذه الأمثلة ،وهذه الكلمات والتي بدورها تقلل الرغبة في الاقبال على دراسة مثل هذه الكتب .

في أول شارب لقيتُ ،ثم يسيل الكيس فارغا بيده ويقول مثل ما تقول النائحة : (المجتث)

هذي العمائمُ عندي أين الرجال أَوَاهُ

ويكرّر هذا ساعة ثم يبكي ويقول : (الهزج)

ديـاري غاب سكانك وهدّ الدّهر أركانك

ثم يكرّر هذا ساعةً ويقول : دنانير كلّموني ،دنانير كلّموني ،

دنانير كلّموني ، هكذا ألف مرة ،فمرّت به عينه ،فرأى فيما يرى النائم

كأن المولى صلاح الدين ثبّت الله سعده واقفٌ على باب سعادة مستندٌ إلى

الباشورة (١) ،وأبو الفتح بن خاقان القابض عن يمينه ،وأبوسعيد البدلسي وأبونصر

التكريتي (٢)عن يساره ،فجئت حتى وقفت بين يديه وقرأت عليه : (إنّافَتَحْنالَكَ فَتْحاً

مُبِيناً) (٣)إلى آخرها ،فقال حفظه الله : أين حاجة الوهراني الزنديق (٤)فقلت:

من يُصلي ويصوم الاثنين والخميس ،ويقرأكل يوم السبع ولم يتجاوز إلى مكروه مايكون

زنديقا ،فقال سلّمه الله : لورأيتك تمشي على الماء مارأيتك الا في صورة زنديق ،فقلت

له : المستعان بالله ،ومالي في القضاء حيلة ،وأردت الانصراف ،فقال : ارجع وانت

=:=

(١)الباشورة :هي أن يكون أمام كل باب أوخلفه بناء ذوعطف حتى لا تهجم عليه العساكر وقت الحصار ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة (ابن تغري بردى : ١٦١)

(٢)أبونصرالتكريتي :هويحي بن جرير ،أبونصرالتكريتي : طبيب ،له اشتغال بالفلك . من أهل تكريت (بين بغداد والموصل) سكن بغداد . وصنف كتبا منها " من كتب الفلكيه ،ورسالة في " منافع الرياضة وجهة استعمالها))

(كشف الظنون : ١٦٢٤)

(٣)سورة الفتح : الآية : ١

(٤)الزنديق وبالكسر: من الثنوية ،أو القائل بالنوروالظلمة ،أومن لا يؤمن با لآخرة وبالربوبية أومن يبطن الكفر ويظهر الايمان .

(لسان العرب : ١٤٧/١٠)

برصيص العابدُ أيش (١) حاجتك ؟ فقلت : يامولاي ،جميع ماأنعمت به عليّ أنت وقرابتك أخذه مني ابن ظُفير في ساعة واحدة ،فقال أيّده اللهُ : أطعمك شيئا من حلاوته ؟ فقلت له : الكثير الطيب فـليته كان آخر رزقي ،فقال : صدقت هي شبكتُه الـتي يصطاد بها أموالَ العنابير ،ثم التفت إلى ابن القابض فقال : رُحْ معه إلى ابن الإصبهاني يدفع له مائةَ رمانةٍ مَلّيسي (٢) ،وندفع له نحن من سِنْجار (٣) مائتي رمانة أُخرى حتى يتخلّص فرحاً إلى ابن الإصبهاني ،فدفع إليّ مائتي مقيري فقلت له : ماهذا الذي عليها ياأباالحسن ؟ فقال :هذه أوساخ الناس وما أظنّك تأخذها وهي على هذه القضية (فقلت) آخُذُها ولوكان فيها خَرَاهم ،ثم قبضتُها منه وانتبهت ففسرتُ المنامَ على خلاصي من ابن ظفير على يد الملك الناصر خلّد ملكه ،واستخفّني الطمع إلى أن كتبت هذا الكتابَ ،وهو أدامَ اللهُ عُلُوَّه يعلم أن العرب قالت في أمثالها : لاعطر بعد عروس (٤) وماأحسن يدهنك فـــــــي السُّوار

=:=

(١) أيش: لفظه عامية مختصرة من أي شيء تريد ؟

(٢) مليس: منسوبة إلى الإمليس وهي الفلاة ليس بها نبات . (اللسان : ٦ / ٢٢٢)

(٣) سنجار، بالكسر: مدينة مشهورة على بعد ثلاثة أميال من الموصل (معجم البلدان : ٣ / ٢٦٢

(٤) لاعطر بعد عروس: أسماء بنت عبد الله العذرية اسم زوجها عروس ،ومات عنها ،فتزوجها رجل أعسر أبخر بخيل دميم ،فلما أراد أن يظعن بها ،قالت : لو أذنت لي رثيت ابن عمر؟ فقال : افعلي : فقالت:

أبكيك ياعروس الأعراس	ياثعلبا في أهله وأسدا عند الناس .
مع أشياء ليس يعلمها الناس	فقال : وماتلك الاشياء ؟ فقالت :
كان عن الهمة غير نعـــاس	ويعمل السيف صبيحان ابـــنا س
ثم قالت :	ياعروس الأغر الأزهـــــــر
الطيب الخيم الكريم المحضر	مع أشياء لا تـــــــذكـــر
فقال : وماتلك الاشياء ؟ قالت:	كان عيوفا للخى والمنكـــــر
طيب النكهة غير أبخر	أيسر غير أعـــسر

فعرف الزوج أنها تعرض به . فلما رحل بها قال : ضمي إليك عطرك ، وقد نظر إلى قشوة عطرها مطروحة . فقالت : (لا عطر بعد عروس)

اوتزوج رجل امراة فهديت إليه فوجدها تفلة . فقال : أين عطرك ؟ فقالت خبأته . فقال : (لا مخبأ لعطر بعد عروس) يضرب لمن لا يؤخر عنه نفيس (الأمثال للميداني)

بعد السبعين (١) ،وإذا صرالقش فماتصنع دعد بالشوق .

وأما أمثال العامة (فهي) (٢) إنماتخبأُ للشدائد ، وماخدمك الوهرانيّ طول هذه العدة إلاّ الآن يستعينَ بك وقت الشّدة ،اللهم إلاّ أن تكونَ حقدتَ عليه كونه يغلبك في الشّطرنج (٣) كلّ وقت ،فهو يتوب إلى الله تعالى من ذلك ومايرجعُ يَغلبُك أبدا ،وربما خدمك الحظّ فينغلب لك في الدّسوت القائمة ،نعم وتندس في رَحِم عياله .

كان عند ابن ظُفير خمسُ مائة دينار ،أخذ منها مائةً ،تبقى عنده أربع مائة ،وهو يقنع منها بمائتي دينار ويجعله في حل من البقية ،إن رأيت أن تتفضل بحسن توصّلك وفاضل عنايتك وسعادتك وتشفع له عند الملك الناصر أدام الله أيامه بأن يوقع له بمائتي دينار على ديوان الزكاة بالقاهرة إنعاما عليه واحسانا إليه ، فهو المقصود ونهاية المأمول ،وتكن من المولى أدام اللهُ عزّه ، كمن نجّاه من الموت، واصطنعه من القتل ،وخلّصه من الشّنق ، وأنزله من الصلب ،واستوهبه من ضرب الرقبة ،وافْتكّه من الأسر ،وأَعتَقَه من العبودية ،واستنقذَه من ماضغي الأسد ، وانتزعه من التمساح ،وَقَلَعَه من شِدْق التّنّين ، ونجّاه من الحريق ،وخلصه من الغَرَق ،

==:=

(١) من أمثال العرب ،وسببه أن الحارث بن عباد كان قد اعتزل حرب البسوس ،ثم مالبث أن حارب مع بني بكر بعد قتل بُجير ،فقال : أتراني ممن وضعته الحرب ،فأجابه سعد بن ضبيعة بهذا الكلام الذي ذهب مثلا ،وكان سعد قد عيّر قوم الحارث بقوله :

يابؤس للحرب التي وَضعتْ أراهط فاستراحوا (الأمثال للميداني)

(٣) زيادة لازمة للسياق .

(٤) الشّطرنج ،ولا يفتح أوله :لُعبه ،والسين لغة فيه ،من الشّطارة،أو من التشطير ،أو معرب (القاموس المحيط : ٢٥٠)

وأطلقه من الهاوية، وأدخله الجنة من النار، ويكون الوهراني بعد هذا العبدَ القِنّ (١) الملازم لباب داره حتى يموت، وكان الخادم قدعزم على مخاطبة القاضي الفاضل فذكر قول المتنبي : (الوافر)

أتيت فوادها أشكو إليه فلم أخلصْ إليه من الزحام (٢)

فتوقف عن ذلك، ثم حمله الحرص والطمع على الكتابة، فلما تناول القلم وكسر الورقة أَحسَّ في عظامه بالفتور، وأصابه الزَّمَع (٣) والهيبةُ مثل ما يصيب الحمارَ الصغيرَ إذا واجه الأسد الكبير، أو الرجل الجبان إذا لقي البطلالشجاع فتَطَلَّس ذهنُه، ونفر عنه ماكان يأتيه من المعاني الرفيعة في الألفاظ السخيفة، ثم ثاب إليه عقله بعد ذلك فقال يخاطب نفسه: أيهاالرجل الرقيع! بأي شئ تريد تخاطب هذا الرجل الرئيس؟ ماأنت من النُظراء ولاأنت من الأكفاء فتكتبَ إليه تسأله عن حاله وتستطلع طلْع أخباره، فلو فعلت ذلك لكنت من الأغبياء المجانين، ولاأنت من خاصّته وجلاّسه فتكتب إليه بوصف الشوق المُبَرّح والحنين، فلو فعلت ذلك لقال: هذا الكلام غيرصحيح، قدكان معي في بلد واحد، ماكنت أراه في خدمة الباب، إلاّ مرّةً واحدة في الزمن الطويل، ولاأنت من حاشيته وخدّامه فتكتبَ إليه تعرّفه بأخبار البلد وماجرى فيه من العجائب من الخواصّ والمُقدّمين، فلو فعلت ذلك إثر هذا الإنبساط البارد ومن سأله عن هذا الحديث واللهِ فُضُولٌ عظيم، ومن

---

(١) القِنّ: عبد ملكهو بواه، وجمعه أقنان وأقنة، أوهوالخالصالعبودية أوالذي ولاعندك ولا تستطيع إخراجه عنك. (القاموس المحيط: ١٥٨٢)

(٢) صواب الرواية: أبنْت الدهر عندي كلّ بنت فكيف وَصَلْتِ أنت من الزّحام (وانظر ديوان المتنبي: ٤٨٤)

(٣) الزمع: شبه الرعدة تأخذ الانسان (القاموس المحيط: ٩٣٧)

سأله عن هذا الحديث فتكتبَ إليه تسأله أن يصطنعك بعنايته وتدبير أمرك من ابن ظفير فيكون ذلك تتمة السعادة أو فعل يقارنه التوفيق .

ألا تراك سلّمت عليه في القاهرة ، فزوى وجهه عنك كأن الشمسَ طلعت من جبينك ، أو كأنك شاركت الكِنديّ في قتل ابن وبني عثمان في مجاهدتها ومجاهرعها بأسباب العداوة على رؤوس الأشهاد ، وصل كتاب المولى الأمير الأجلّ الصاحب تقي الدين مصطفى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، حتى يتوب المخلص من القيادة ، وينقطعَ المعتدي إلى العبادة ، وأدام عزّه ونماءه حتى يستقرّ المولى في موضع واحد ، ولا يبقى مصبا بالمنى (١) والأخذ بألفاظ أحسن من فتور الألحاظ ومعانٍ أحسن من ترجيع الأغاني ، وكان ذلك أجمل في عينه من الروض غِبَّ (٢) السحاب وألذ من الصفع بخفاف القِحاب (٣) ، لا ، والله أعذب من محادثة السُّمّار ، وألذ مما سكّه الخمّار ، لا والله أحلى من مطابقة الزامر للعوّاد ، وأشهى إلى النفس من أحاديث العُوّاد فطرب فلان لكتابه ولا طرب فلان الغُلاني لمّا اجتمع بفلان في عودة فلان ليلة السبت العشرين من محرم هذه السنة ، وغنّت له بالدُّف : (البسيط)

ماغيّر البعدُ وُداً كنت أعرفه ... ولا تبدّلتُ بعد الذكر نِسيانا

ولا ذكرتُ صديقا كنتُ آلفُهُ ... إلا جعلتك فوق الكل عنوانا

=:=

(١) كذا في الأصل ، ولم أتبينه .

(٢) الغبّ: عاقبة الشيء (القاموس المحيط : ١٥٢)

(٣) القحاب ، جمع قحبة: الفاسدة الجوف من داء ، والفاجرة لأنها تسعل وتتنحنح (القاموس المحيط : ١٥٧)

فإنه لما سمع ذلك قام وقعد، وصاح ولطم وفتل شعر عَنْفَقَتِهِ (١)، وأدار شربوسه على رأسه، وخرق غِلالته، وطرح خمستي قطيطتي (٢) كانت عليه، وجرى إلى الشمعة ليحرق لحيته فيها، فلم يُترك كذلك، فحلفَ بحياة الجماعة لَيَسْكُبَنّ قَدَحَه في سُرّتها، ويتلقاه بفمه من أشفارها بحيث تكون لحيته ستارة على باب ثقبها، فلم يتركه عشقها في هذه الأيام، كذلك فحلف برأس الملك المعظّم، ليشربَنّ بخفّها ثلاث دركانات، فقال: هذا هين ولو أردت أن أسقيك بالخف ثلاث مائة في ساعة واحدة فعلت وأحسنُ من هذا كله لو كان لهذا الطرب ثمرُه معجرد (٣) يبقى أو ثوب حريري، فتغافل وتساكر ولا زال يعبُّ في الخُفّ إلى أن وقع، لا والله إلا طرب أتى الرئيس فلان بن فلان في دعوة فلان ليلة الثلاثاء العاشر من صفر لما غنّت له فارس الشام: (الطويل)

أرى بيتَ لبني أصبح اليوم يُهجَرُ ومن أجل لُبنى ذلك البيتُ يُشكر

لقد كان فيها للأمانةِ مَوْضِع وَللسِّرِّ كتمانٌ وللعين منظرُ

فإنْ تكُن الدّنيا بِلُبْنَى تَقَلّبتْ عَليّ فلِلدّنيا بُطون وأظْهُرُ (٤)

فإنه لما سمع بذلك طرب طربا عظيما وضرب بعمامته وجه المغني وخلع ثيابه، وبقي عُريانا بالقفص، وأقبل يمشي على أربعة وفي ثقبه جزرة ريحان، وهو ينبح ألوانا من النُّباح، ويقول أنا كلب ابن كلب اصفعوني بالنِّعال.

=:=

(١) العنفقة: خفّة الشيء وقلته، والعنفقة: ما بين الشّفة السفلى والذقن منه لخفة شعرها وقيل: العنفقة ما بين الذقن وطرف الشفة السفلى، كان عليها شعر أو لم يكن
(لسان العرب: ١/ ٢٧٧)

(٢) كذا في الأصل وخمستي: خمس المال، وقطيطتي: نصيبي.

(٣) المعجرد: العريان، الجريء والمتجرد. (القاموس المحيط: ٣٨٠)

(٤) الأبيات لقيس بن ذريح.

لا والله ألا طرب التاج بن العقلع لماشرب في دعوة فلان ليلة الأحد النصف من صفر وغنت الحبوبيّة (١) صوتَها المشهور الذي أُتلفت عليه الأموال، وخربت به البيوت العامرة : (الوافر).

أنا الباز المطلُّ على نمير أُتيح لها من الجو انصبابا

فغضّ الطّرف إنك من نُمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا (٢)

فلم يبق في المجلس من المصريين أحد إلاّ خرّ ساجداً على وجهه ،وأما فلان بن فلان ،فإنه لما سمع ذلك طار عقلُه وزهق لُبُّه ،وأقبل يصيح صياح الديوك والغربان ،وينهق نهيق الحمير والبغال ،وأقسم برأس فلان لَيُقَبِّلَنَّ حجَرَها ولَيَمَصَّنَّ بظْرَها ،وأمسكت له حتى فعل بها ذلك بعد أن حسا في كسها عشرين دينارا وفي ثقبها عشرة دنانير .

لا والله ،ألا طرب الصوفية في عوم ابن زين البحار في ليلة عيد الأضحى من هذه السنة ،وقد حضر عندهم مرتض المغني معشوق العماد والكاتب وقد أسبلوا شعره على أكتافه ،وأمسك أبو شعيب الشمعة بين يديه وهو يغني لابن رشيق القيرواني : (٣) (البسيط)

فتورُ عينيك ينهاني ويأمرُني وورد خديك يُغري بي ويُغريني

أما لئن بعتُ ديني واشتريتُ به دُنيا فمابعتُ فيك الدينَ بالدونِ

سبحان من خلقَ الأشياءَ قاطبة تراه صوَّرَ ذاك الجسمَ من طين

استغفرُالله لا واللهِ مانفعَتْ من سِحرِ مُقْلتِه آياتُ ياسين (٤)

==:==:==:==:==:==:==

(١) في الأصل : الحيونية ولعل ماأثبت هو الصواب

(٢) القائل جرير من قصيدة يهجو بها الراعي النميري ، وانظر ديوان جرير ٦٤- ٨٠

(٣) ابن رشيق القيرواني : هو أبو الحسن بن رشيق القيرواني ،أديب ،ناقد ،باحث. توفي سنة ٤٦٣هـ أشهر كتبه " العمدة في صناعة الشعر ونقده) انظر (الأعلام: ٢/ ١٩١) .

(٤) إشارة إلى سورة ياسين في القرآن الكريم .

فإنهم لماسمعوا ذلك هاجوا وماجوا وزعقوا ونَعَقوا وقَفَزوا إلى السماء، ونزلوا إلى الأرض، وضربوا بأرجلهم حتى انخسف ببعضهم الموضعُ الذي كانوا فيه، فَنَبشوا تحت الرَّدْم أمواتا، فغُسلوا وكُفّنوا ودُفنوا وبعضهم برقصُ لايعلمُ ماجرى حرفا واحدا، لاوالله الاّطرب، فلان لماحضر دعوة ابن العميد وغنّى له الكيكي : (البسيط)

نسيمه يتلقّاني بزورته	مبشّرا لي من قبل يلقاني
سألتُه قُبلةً تحي النفوسبها	فضمّني ضَمّ مشتاق فأحياني
يامعشر الناس ماأحلى شمائلَه	لوكان يُنصفني لوكان يرعاني

فإنه لماسمع ذلك طرب طربا شديداً، ونتف جانب لحيته الأيسر وقام إلى باب المجلس فلطم رأسه باللّوالك إلى أن تقطّعتْ اللّوالكُ وقفاه، ثم حلف ليَرْكبَنّ الكيكي على قفاه، ثم لايبرحُ حتى يشربَ قدَحا ويغنّيه صوتا، ففعل به ذلك ومافرغ حتى كاد يموت .

وبعد ذلك كله فالذي فعل مولى تقي الدين أدام اللهُ ظلّه من لقاء الجمع الكثير بالعدد القليل عين الخطأ وضد الصواب، لأن المُعزر ليس بمحمود وإن سَلِم فاللهَ اللهَ، الحذرَ ثم الحذَرَ، لايكون لها مثوبة أبدا، ولايرجع المولى ويلقى ألفا وست مائة فارس إلا أن يكون في خمسة وثلاثين ألف فارس من خيار أصحابه بشرط أن يكون خيالة العدو مثل حميرة الزّامر وعثمان الجنكي وأبي علي العوّاد وعزيز البَربَطي ومثل هؤلاء الفرسان، ويكون أصحابك أنت فلان بن فلان وفلان بن فلان الذي مااجتمع الملوك بواحد قطّ، إلاّ تحشى في وجهه سكاكين وسيوف

ويزعم أنه بقرقس (١) الحديد، والرأي عند المملوك الوهراني غير هذا كله، وهو ان يستقيل من الخدمة وينقطع في القابون (٢) وينكث التوبة ويترك الصلاة ويجمع عُلوقَ (٣) دمشق وقِحابَ المَوْصِل وقوادي حَلَب ومغاني العراق، وتلذذ حواسُّكَ الخمس ولا تُبصر إلا الوجهَ المليح ولا تسمعُ إلا المغني المُطربَ ولا تشمَّ إلا الذكيَّ الرائحة ولا تذوق إلا الطعامَ الطيِّبَ، ولا تلبَسُ إلا الثوبَ الليِّنَ وتقطع بقية عمرك علي هذه الحالة، وَتَتَكلُ في جميع ذلك على العفو الغفور الرحيم، وتعلم أن يوماً واحداً من أيامك في دمياط (٤) أو ساعة من وقوفك يوم الرملة يكفر عنك ما أشار به عليك المملوك والسلام.

وهذا الذي أشار به عليك المملوكُ هو المحكُّ والمعيارُ، وهو الفرق بين الصحة والمرض، إن قَبِلَه المولي وعمل به، علم المملوك صحيح المزاج سالم العقل نقي البدن من الأخلاط السوداويَّة، وإن ردَّ هذا الرأيَ ولم يقبل هذه المشورة وَلَعَنَ وهرانَ وكلَّ من جاء منها، علم المملوك أن المولى منحرف المزاج قد غلبت عليه الأخلاط السوداويَّة فيأخذ على بركة الله وعونه:

=:

(١) يقرقس الحديد: يجمده (لسان العرب: ٦/ ١٧١)

(٢) القابون: موضع بينه وبين دمشق ميل واحد في طريق القاصد إلى العراق. (معجم البلدان: ٤/ ٢٩٠)

(٣) العلوق: الفاسدون أصحاب الفواحش والرذائل وما يعلق بالرجل من صفات نتيجة أعماله. (لسان العرب: ١٠/ ٢٦٠)

(٤) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل، مخصوصة بالهواء الطيب وعمل ثياب الشرب الفائق، وهي ثغر من ثغور الاسلام، ومن شمالها يصب النيل إلى البحر الملح، طولها ثلاث وخمسون درجة ونصف وربع وعرضها إحدى وثلاثون درجة وربع وسدس. (معجم البلدان: ٢/ ٤٧٣)

إهليلج (١) كابلي وأسود من كل واحد درهمين

أفتيمون (٢) إقريطي عشرين درهما

بسبائج (٣) وسنامكي (٤) من كل واحد عشرة دراهم:

غارقسون (٥) وحريق ابيض وملح هندي من كل واحد خمسة دراهم

أيارج (٦) فيقرا خمسة عشر درهما

يشرب الجميع آخر الليل، ويقضيه (٧) بعد العصر، الغذاء مرقه

اسفيذباج (٨) نافع ان شاء الله تعالى، وإن فعل المولى هذا ونقى بدنه من

السوداء، علم أن نصيحة الوهمراني هي الصواب والسلام.

=:=

(١) الاهليلج، بفتح اللام الثانية وقد تكسر، والواحدة إهليلجة: ثمر، منه أصفر، ومنه أسود وهو البالغ النضيج، ومنه كابلي من الخوانيق، ويحفظ العقل، ويزيل الصداع.
(المعجم الوسيط: ١/٣٢)

(٢) أفتيمون: عشبة غبراء لها زهرة حمراء وهي طيبة ولها كلأ يابس.

(٣) سبائج: حجر يجلوا به الصيقلي السيوف، وتجلى به الأسنان (القاموس ١/٢٠٢)

(٤) سنامكي: نبات خالط المسك وهو أعشاب أو شجيرات واسعة الانتشار في المناطق الدافئة
(الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٠١٨)

(٥) غاريقون: أو أغاريقون: أصل نبات، أو شيء يتكون من الأشجار السوسة ترياق للسموم، مفتح، مسهل للخلط الكدر، مفرح، صالح للنساء والمفاصل، ومن علق عليه لا يلسعه عقرب.
(صبح الأعشى في صناعة الأنشا للقلقشندي: ٢/١٤٤)

(٦) أيارج، معرب: إيارة، وتفسيره: الدواء الالهي. (اللسان: ٢/٢٠٨)

(٧) في الأصل ويقطيه، ولعل الصواب ما أثبت

(٨) اسفيند باج: لحم يطبخ بالخل.

إلى مجد الدين بن المطلب وهو بالشام صحبة المولى تقي الدين :

عبد مولاي الوزير الأجلّ السيد الأوحد مجد الدين شرف الاسلام شمس الخلافة ، بهاء الملّة أوحد الرؤساء ، سيد العراقين أطال اللهُ بقاءَه وأدام اعزَّه ونعماءه وكَبَتَ حَسَدَتَهُ وأعداءه ، كتب هذه الأحرف على حال عجلة شديدة ، وعنده من الأشواق والحنين مثل ماعند أهل الفيوم (١) ، وإنما علم المملوك حقيقة ذلك لأنه صعد إليها في هذه الأيام ليتفرج على صنعة يوسُف بن يعقوب ، (٢) انشاء ابن أخي يوسف بن أيوب ، فشاهد من محبة أهل البلد للمولى الصاحب المخدوم مايجاوز الحد والصِّفَة ، فلو أن امرأً عبد من دون الله لعبده .

(٣)

ولما قرب الخادم من مدينة الفَيّوم ، وأبصر المركب الذي طلع عليه لا يسير إلاّ في ظل النخيل وبين أغصان الأشجار والكروم ، وطرب الخادم على حسّ الدّواليب وتغريد الأطيار ، فافتتن وفضّلها على كل موضع مليح أبصره في الزمان ثم لما ترك في المدرسة وحطّ رحله في الرّوْشن (٤) الذي على النهر الكبير والدار الصغيرة وتفرّج على علو الهمة وحسن الترتيب ، ثم إنه تمشّى وحده إلى الحمام الصغير الذي في زاوية الدار فاستطابَ الموضعُ لخلوته وشدة برده في قائلته

=:=

(١) الفيوم: موضع بمصر ، ولاية غربية بينها وبين الفسطاط أربعة أيام بينهما مفازة لا ماء بها ولا مرعى مسيرة يومين وهي في منخفض الأرض ويقال إنّ النيل أعلى منها ، وهي تقابل بني سويف في الغرب منها . (معجم البلدان ٤/ ٢٨٦)

(٢) يوسف بن يعقوب : هو النبي يوسف عليه السلام وقصته في القرآن الكريم ، ألقاه أخوته في الجب غيرة منه ، فمرت سيارة فأخرجته من الجب ، وحمل إلى مصر ، وبيع لأحد أشرافها ، وراودته زوجة سيده عن نفسه لشدة جماله ، فأبى وافترت عليه ، فسجن وبعد تأويله لحلم فرعون أطلق سراحه وأصبح حاكم مصر ومد برشؤونها . وفي عام جدب أرسل يعقوب أولاده إلى مصر ليحصلوا على قوت ، فعرفهم يوسف ، ودعاهم إلى الاقامة معه وسورة يوسف في القرآن الكريم .

(انظر (الموسوعة العربية الميسرة : ٢/ ١٩٩١)

(٣) الفيوم: مرّ ذكرها صفحة

(٤) الروشن : اسم عين أو الكوة (اللسان : ١٣/ ١٨١)

نصف النهار ،فجلس فيه مفكّرا ومعتبِرا لماكان فيه من الأنس و ماصار إليه من الوحشة فخنقته العَبْرة شوقا إلى صاحب المكان فلم يشعر إلا والحائط الشماليّ قد انشق ، وخرج منه شخص عجيب الصورة وليس له رأس ولارقبة البتة ،وإنما وجهه في صدره ،ولحيته في بطنه مثل بطنة الناس ،في يده اليمنى زُرْبولٌ و في يده اليسرى شمشك عتيق ،فقمت إليه هيبة له وخوفا منه وقلت له ،من أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا أبو خطرش من بني الدّردبيس (١) الساكن في هرم مهدوم ،جاوبني عن كل بيت ألقيه عليك وإلا قطعت قفاك بهذا الزّربول ،فقلت له : لست بشاعر والله ياسيدي ولا أجوز في هذا الباب ، فقال : تكذب في جوف لحيتك أنا أعرفك تتكدّى الناس بالشعر منذ ثلاثين سنة في هذه الديار ،فقلت له : أنا أسيرك افعل ماتريد ،قال : أجز وأجز : (الكامل)

لمن الديار بساحة الغيوم ِ

فقلت: ضَحِكَ الصّدى فيها لنوح البوم ِ

فقال : وتبدّلت من بعد عين كالمَهَا

فقلت : وولائدٍ كاللؤلؤ المنظوم

فقال : وَبباسل (٢) مثل الِ شادي أرْوَعٍ

فقلت : مثلِ الحسام الصارم الملثوم

فقال : بنواعب الغربان تضحك دائما

فقلت : وحمائم تبكي لفقد حميم

---

(١) بنو الدّردبيس: هم الجن وفيهم يقول أبو العلاء :

مكّة أقول من بني الدردبيس فما الجنيّ فيها من حسيس

(اللسان ٦ / ٨١)

(٢) الباسل : الأسد . (القاموس المحيط : ١١٤٨)

فقال : بكت السّما من بَعْدِهنّ البُعْدِهم

فقلت : بسحائب مُنهلّة وغيوم

فقال : طلبوا دمشق فعوضوا عن أرضنا

فقلت : بالنيّربين (١) وقصر أمّ حكيم (٢)

فقال : تغسا وموشه وصنوفر (٣)

فقلت : بُصرى (٤) وصَرْخد (٥) في جوار الروم

فقال : وسألت رسم الدار لما جئتها

فقلت : وجميعها كالمعجز المرقوم

فقال : أيُّ الملوك سمت بهم همم العلا

فقلت : حتى كساكَ بأطلسٍ (٦) وطميم

فقال : قالت تقيّ الدين أعني ذا النّدى

=:=

(١) النيربين : قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين وموضع يقال فيه مصلّى الخضر عليه السّلام ، قال أبو المطاع وجيه الدولة بن حمدان :
فما ذكرتها النفس إلا استخفني إلى برد ماء النيربين حنين (معجم البلدان ٥/ ٣٣٠)

(٢) قصر أم حكيم : بمرج الصفّر من أرض دمشق ، وهو منسوب إلى أم بنت يحي ، ويقال بنت يوسف بن يحيى . وإليها ينسب أيضا سوق أم حكيم بدمشق وهو سوق القلاّئين ، وكانت معاقرة للشراب (معجم البلدان : ٤/ ٣٥٥)

(٣) لم أتبينها وصورتها تغسا وموشه وصنوفر .

(٤) بصرى : بالشام من أعمال دمشق ، وهي قصبة كورة حوران ، مشهورة عند العرب قديما وحديثا .
(معجم البلدان : ١/ ٤٤١)

(٥) صرخد : بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق ، وهي قلعة حصينة وولاية واسعة ، ينسب إليها الخمر ، قال الشاعر : ولذ طعم الصرخدي تركته بأرض العدى من خشية الحدثان
(معجم البلدان : ٣/ ٤٠)

(٦) الأطلس : الثوب الخلق . (القاموس المحيط : ٢/ ٢١٤)

فقلت : عمر بن شاهنشاه (١) ردّ رسومي

فقال : وإليه أكبادي تطيرُ تشوُّقا

فقلت : وعليه أجفاني ذوات كلوم

فقال الشيخ أبو خطرش : أحسنت والله أنت إن كان هذا شِعرُك على البديهة ، فكيف يكون على الرَّوِيَّة ، مالله تتعانس الشعر ، فقلت : ما أريدُ أن أتعب ، أنا أعمد إلى أحسن قصيد الشعراء المتقدمين أخذها وأمدح بها وأقضي حاجتي ، وإن كذبني حملت الكلاب على عياله ، فقال : دعني من هذا مافعلتَ بِغُنيماتك التي أمَرَك بها المولى تقي الدين ، فقلت يا : ياشيخ أبا خطرش ، طلبتها الخولي ثعلب أن يُعطيني إياها سِمان الظهور كبار اللوايا مثل علوق الاسكندريّة وقحاب القاهرة فأعطاني إياها مثل اقحاب المهجورين وعباد الله الصالحين الذين يصومون النهار ويقومون الليل ، فقال : وما السبب في ذلك ؟ فقلت له : كان الفقيه البهاء أراد أن يشتريهن مني بالدُّون الطغيف حتى يأخذ هو من غنم المولى بشموريه كبارا ، فلم أجبه إلى البيع فأنحسني كماترى ، فقال : سعادةُ المولى غلبتْ عليه ، والله لو اشتراها منك لأَخَذَ كل فحل في غنم الأمير ، فقلت له : صدقت يا أبا خطرش ماتقول في الفقيه عبد الله ؟ فقال : لي : الساعة ما أبدلت له خير كُلْفَتُهُ كثيرة ودخله قليل ، قد حصل بين حاذف وقاذف

فأما الحاذف فالقاضي العجمي ، قد تخيل منه ، فهو يرميه في كل يوم بداهية ، وأما القاذف فالفقيه بهاء الدين ، قد ثقل عليه مكانا من يوم تسلّم هذه المواضع لوقدر

=:=

(١) عمر بن شاهنشاه : الملك المظفر تقي الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه ، وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين ، رحمه الله تعالى ، كان شجاعا مقداما منصوراً في الحروب مؤيدا في الوقائع ومواقفه مشهورة مع الفرنج . له في أبواب البر كل حسنة ناب عن عمه صلاح الدين بالديار المصريه في بعض غيباته عنها . توفي على قلعة مناز كرد سنة ٥٨٧ هـ ونقل إلى حماة ودفن بها . (مرآة الزمان : ٦٨٤)

(الشذرات : ٢٨٩/٤)

عليه لقطّمة إرْباً إرْباً ،ألا ترى أنه يستعير منه الآلات التي للوقف ولا يردها عليه ،
ويأخذ منه للفقهاء الذين طلعوا منه دينارا لكل واحد في رأس كل هلال ولا ينطق
بكلمة واحدة ،فقلت له : قد سلم وقف الفيوم ألا يرجع الأمر فيه فيلحقه بوقف منازل العز
الذي دخله في كل سنة تسع مائة دينار والنفقة عليه في جميع أحواله ثلاثين دينارا ،
ويأكل البقية خضماً (١) وقضماً (٢) لا يخاف من الله ولا من الناس ،فقال الشيخ
أبو خطرش: سمعت الناس يقولون : إنه يدفع للصاحب في كل سنة خمس مائة دينار
يسكته بها عنه وإلا فهو أذكى الناس ،وقد بلغه أن المدرسة ليس فيها مؤذن ولا إمام
فقلت لا : حاش لله وأعوذ بالله ولا والله ،ولكن غلط غلطةً عظيمة وردّ النظر إليه
وأشهد عليه الشهود بذلك ،وأخذ الخليفة على ذلك خط خليفة ببغداد في هذه
الأيام ،فما بقي يلتفت إلى المولى ولا إلى غيره ، فقال الشيخ أبو خطرش : أنا أقول لك
في هذا الأمر ،فقلت له : وما هو ؟ ،فقال : اعلم أن الله تعالى ما خلق منازل العز والروضة
إلا للفسق والفسّاق فما يقدر المولى تقي الدين يعاند الله في قضائه ويجعلها للعلم
والعلماء ،قد اجتهد جهده وما قدر يخرجه عن قضاء الله وقدره ،ثم إن الشيخ أبا
خطرش تحوّل للرواح فقلت له : تعاهدني يا أبا خطرش في منازل العز ، فقال : السمع
والطاعة وغاب فما رأيته إلى الآن ،وقد انقطعت عن الخادم ،كتب المولى مجد الدين
وأرجوا أن يكون ذلك لخير ،وقد استشعر المملوك من ذلك ،هذا مع اتصال كتبه
إليه مع كل نجاب ،وكان قد سمع أنكم ترجعون إلى ديار مصر ،فَنَذَرَ لله تعالى صيام
شهر تموز ثلاثين سنة إن صحّ هذا الكلامُ ،فأما غير ذلك ،فإن الموضعَ الذي يسكنُ
فيه المملوك لحسن سعادتك وبركة توسطك وسعادتك ،قد تداعى جميعه بحيث

---

(١) الخضم: الأكل بأقصى الأضراس، أو ملء الفم بالمأكول ،أو خاص بالرَّطب. (القاموس : ١٤٢٤)
(٢) القضم : الأكل بأطراف الأسنان ،أو أكل يابسا (القاموس المحيط : ١٤٨٥)

أن يكون الساكن فيه مرتكبا خطرا عظيما ، وقد سألت الفقيه أن يساعدني في العمارة فلم يفعل وتنفس أنفاساً مشئومة دَغِلةً (١) ، وأنا فما يمكنني أن أعمره بجملة كثيرة ، وإذا فرغت منه يقول : قم اخرج ، وما أقدر أقول له كلمة ، وقد سألته أن يحكرني إياه ، وقصدتُه بالناس وتشفعت إليه بكل أحد فلم يفعل ، وقد تزايد حرصه وكَلَبُه على الدنيا أضعاف ماتعرف ، وقد اشتهيت (أن) (٢) يحتال لي حيلة يحكرني بها الموضع الذي في يدي والسلام .

وقد حفر في هذه السنة خليجا إلى ضيعة فبلغ ارتفاعها ألف دينار لأجل ذلك . ، ولكنه قد كان مر بخليجه في أرض لأيتام ابن اللهيب فسأله وكيلهم أن يعمل لها قنطرة بفلقتي نخل يساوي خمسة دارهم يعبروا عليها إلى أرضهم ، فلم يفعل فشكوه إلى السلطان فأمر بسده عن أرضهم تجري عليه من الغزع على الضيعة مثلما تعرف ، وانشدوا ماحقيقة أخبار المولى فماتريد تسأل لأنا نعرف ذلك بأفعال دون الأقوال ، والذي في القدر المغرفة تخرجه ، وإذا استقرت القاعدة على شيء سمعنا به لولا العجلة لكتبت إليه من العجائب والغرائب مايرقصه طربا ، والخوف والخرف من آفات الكتب أشد ، إن رأيت أن يظهر المولى الصاحب من هذا الكتاب على شيء من أخبار أبي خطرش غير الشّعر فافعل به ، فإنه محب إليها محبّةً مفرطة ، ولا يقال لمن يحبُّ فيمن يحبُّ إلا مايحبُّ ، فالله تعالى يكشف له ماهو عليه من الخيانة ورقة الدين ويكشف هذه النعمة على يديك والسلام الأتمّ عليك ورحمة الله وبركاته

: (الطويل)

==:

(١) دغلة : مفسدة خفية حاقدة . (القاموس المحيط : ١٢٩١)

(٢) زيادة لازمة لاتّساق المعنى

أيا نفحةً أهدَتْ إليّ تحيـــةً ينمّ عليها العَرْف من أمّ سالـــم

مشتْ في (من وادي) الأراك (١) فنبّهت به كُلَّ نشوان المعاطفِ ناعـــم

ألا انما أحكي بدمعي ولَوْعـــتي بُكاءَ الفوادي وانْتِحاب الحَمائِـــم

وصل كتاب مولاي الشيخ الامام الحافظ جمال الدين أطال الله بقاءه ،

وجعل خادمه من كل سوء وِقاءه ،وكان أحسنَ من النار في عين المقرور ،وأعذبَ من الماء البارد في صدر المحرور ،وتناوله فكان في قلبه أحلى من الدراهم وأنفعَ لجراحِ البصر من المراهم (٢) ، فلما فَضّ خِتامَه وحطّ لثامَهُ أبصر فيه خطّاً أجملَ من عياض الميطور (٣) ،ولفظاً أرقّ من نسيم الروض المعطور ، قد استفتحه سيدنا بكـــل لفظٍ مُذْهِب ، وذهب فيه من التعاظم إلى كل مذهب ،وأرجوله ذلك من الله بحسن العون فإنه يقال إن القال مقدمة الكون ،على أنه وجد بين جوانح الخادم من نار الشوق أجنُحاً لو أن النار التى كلست الكلاسة واشتملت على الحائط الشمالي وغرست في الغروس ، وأذّنت بهلال المؤذنين ،وأهلّت لغيرالله بدار ابن هلال يكون مثلَها لما اقتصرت علـــى المقصورة ولا يردنها البرادة حتى يُصحَن الصحنُ وينسَر النّسرُ وتُجرّد القبةُ من رصاصها وتكبتها من عِراصها ،وترميكم بالخَطْب الفادحِ في الخطيب ، ويحرمكم إيـــاه في المحراب فلا ينبري إلى المنبر أبداً ،ولو أحفظ ذلك الحافظ ثقة الدين ،وأغراه بمراثيه الى يوم الدين ،فاين ذات الطوق عن التغريد على هذا الشوق ، وأين حمام

=:=

(١) في الأصل : مشت في واديك من الأراك فنبهت ! فاختلّ الوزن و المعنى ، ولعل الصواب ما أثبت ،والأراك : شجر معروف وهو شجر السواك يستاك بفروعه ، وقال ابن شميل . الأراك شجرة طويلة خضراء ناعمة كثيرة الورق والأغصان خوّارة العود تنبت بالغور تتخذ منها المساويك . (معجم البلدان : ١/ ١٣٥)

(٢) مراهم مفردها مرهم : دواء مركب للجراحات. (القاموس المحيط : ١٤٩٨)

(٣) الميطور : من قرى دمشق ،قال عرقلة بن جابر بن نمير الدمشقي :

وكم ليلة بالماطرون قطعتها ويوم إلى الميطور وهو مطيـر

(معجم البلدان : ٥/ ٢٤٤)

عن النياحة على طول البين ،وأين شحرور منين عن الساعدة بالحنين ،

لا والله مارحل من ما دات بني سرايا شرّده عن وطنه الغارات والسرايا ، كان قدربا في السروج ،ونشأبين المروج ،يتردد من حصن اللبوة إلى بساتين الربوة (١) ،ويرتاد من عين سَرَدى إلى وادي بَرَدَى (٢) ،ويصطبح في سوق آبل (٣) ،ويغتبق في كروم المزابل ،ويقيلُ في عين حور ،ويبيتُ في الشاجور (٤) ،وهذه المواطن كما علمت رابعة الجنان وراشحة الحنان ،فرماه الحظّ بالدهر المنقوص ،وطَرَحه إلى أرباض مدينة قُوص (٥) ،يتقلى في حرّ السّعير ،ويتمنى خبزَ الشّعير ،إدامه البصل والصيّر ،(٦) وفراشه الأرضُ والحصير فألَحّتْ عليه الهواجر في آخر شهرناجر (٧) ، فتمنّى على الله ريح صَبا تهبُّ من نحو بلاده وأولاده ،فهبّ عليه من صحراء عَيْذاب (٨) ، بكلّ نقمة وعذاب فطلعتْ روحُه إلى التلاق ،وقيل من راقٍ ،فمدّ يدَهُ إلى الماء ليبردَ كبدَه ،مما يكابدُه ،فوجده أحَرّ من ماء الحمّام وزبل الحَمّام ،فتذكر حينئذٍ ماخلّفَهُ من الربوع ،وحنّ إلى تَسَلْسُلِ الماء في الينبوع ،واشتاقَ إلى الجداول الساقية من عيون عرق ،فعَظُم حينئذ مُصابه ،وتزايدت أوصابه وعلم أن سفره عن السفيرة

=:=:=:=:=: :=: :=:=:=:=:=:

(١) بساتين الربوة أي ربوة دمشق .

(٢) وادي بردى : نهر يخترق دمشق ينبع من غربها . (معجم البلدان : ١ / ٣٧٨)

(٣) سوق أبل : المقصودة هنا هي آبل السوق وهي قرية كبيرة في غوطة دمشق .
(معجم البلدان ١ / ٥٠)

(٤) الشّاغور ، محلة بالباب الصغير من دمشق مشهورة وهي في ظاهر المدينة . معجم البلدان : ٣ / ٣١٠ ، وقد جاء في الأصل : الشاجور ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبت .

(٥) قُوص : مدينة كبيرة وهي قصبة صعيد مصر تقع في أقصاه . (معجم البلدان : ٤ / ٤١٣)

(٦) الصّير : (بالكسر) : الماء يُحضَر ، وصاره الناس : حضروه . (القاموس المحيط : ٥٤٨)

(٧) شهرناجر من شهور القيظ .

(٨) عَيْذاب : بليدة على ضفة بحر القلزم - ما يسمونه بالبحر الأحمر اليوم - هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد .

(معجم البلدان : ٤ / ١٧١)

والكرى هي الطامّةُ الكبرى ،وعدم الصبرَ والسّلوانَ عن دير سلوان (١) ،وقال نفسه :

ترى الذي خَلَقَني وَبراني يُعيدني إلى جنه الزّبَداني (٢) ،إني أؤثره بجمع شملـــي

في كفر عامر ،بالسادات من بني عامر ،أتراني أمُرُّ بالشّيح والحوذان (٣) ،عند حورتي ودّان ،تمنّيت أن أكون كالقِنّ والقين وأعبر تحت أبيات بُقّيْن (٤) ثم إنه اتى مهجور وتَنَفّس عن صدرٍ مسجور وأنشد : (الطـــويل)

ألا لَيْتَ شِعري هل أرَى ساعةَ (الهَنا) (٥) بآخرِ ليلٍ إذ يطول سيـــــــري

وهل أرِدُ الماءَ الذي عند ديــــره أصِيلا وَحَوْلي ناصرُ بنُ مُنيـــر (٦)

ثم أقبل على لطم خديه وتعضيض يديه ،وبكى حتى وقع مغشيا عليه بأشدّ من شوق الخادم إلى لقائه وتطلعه إلى مايرد من تلقائه : (البسيط)

واللهُ يطوي بساطَ الشّمْلِ عن كَثَبٍ حتى يُرى الشّمْلُ (فيه) (٧) وهو مُلتَـــئِم

=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=: :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) سُلوان : محلة في ربض مدينة بيت المقدس ،ودير سلوان في نفس البلده . (معجم البلدان : ٤/ ١٧٨)

(٢) الزبداني : بفتح أوله و ثانيه : كورة مشهورة معروفه بين دمشق و بعلبك . (معجم البلدان ٣/ ١٣٠

(٣) الشيح والحوذان : نبات صحراوي . (القاموس المحيط : ٢٩٠ و ٤٢٤)

(٤) بقين : قرية في شمال دمشق ،تبعد عنها أربعين كيلومترا ،ومشهورة بينابيعها وأشجارها وهي مصيف في الشام .

(٥) في الأصل : ألا ليت شعري هل أرى ساعة ،ولا يستقيم الوزن الا بما أضفت ،ولعله هو الصحيح وانظر التعليق (٦) .

(٦) مأخوذ من قول بن رباح رضي الله عنه :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفجّ وحولي إذ خِرٌوَجَليـــل

وهل أردن يوما مِيَاهَ مَجَنّـــة وهل يَبْدُون لي شامه وطفيـــل

فانظر الفصاحة في هذين البيتين اذا ماقارناهما بالبيتين المذكورين .

(٧) في الأصل : حتى يُرى الشمل وهو ملتئم ،وهو غير مستقيم وزنا ،ولعلّ ما أضفته هو الصّواب ،به يستقيم البيت .

وإلى هذا الموضع انتهى قمش (١) الكتّاب وَهَذيان الشعراء، ويريد الخادم أن يُطلِقَ يده وقلمَه ويسابق لسانَه وفمه، فإنه قدلحقه من الضّجر والكلال ما يلحقُ الجحشَ الصغير اذا حمل أحمال البغال القُرّح، وانضاف إلى ذلك استعجالُ حامله وتوثبُه للرواح، فتناول حينئذ كتابَه الوارد وكرّر نظرَه في أولاده، ليجاوبَ عن الفصول المضمّنة فيه، فوجده صِفراً من الأنباء التي من غرائب أخبار البلد، عاريا من طرائف أحوال الإخوان، قداستفتحه بطلب الثأر من مزاح الخادم معه في كتابه المتقدم إليه، فمن ثلاث سنين في أول هذا الكتاب قام الدليل على بطلان قوله أنه أنفذ إليه عدة مكاتبات، لأنه لوكان ما ادّعاه من ذلك حقا لماقدم على هذا الفصل شيئا في أول كتابٍ أنفذه غليانه في قلبه، ثم ينهاه أدبه وفضله بعدهذا عن تكرار ذلك المعنى بعينه في أول كتاب آخر، فصحّ بطلان قوله بالدليل والبرهان، وعجب الخادم من تكسن ذلك الحقد من قلبه واستيلائه عليه، وثباته له بين الحشا والترائب لم يخرجه من صدره، جرالقعود في دمشق والبطالة فيها مع الزمان ولا طول المشقة ولا بعد الشُّقة إلى العراق ولا مكابدة الجمّالين والحمّالين في الطريق، ولا قذارة المساكن والمسالك ببغداد، ولاكرب دخانها وحالها في طريق النهار، ولا وخم غبارها وآثارها في الأصائل، ولا عيون المها وسوالف الآرام في سوق الجوهر، ولا دَخْمَسَةَ (٢) التجار ومطل الحاكة بالمتاع ولا تعذر السفر والرفقة والرجوع إلى الشام، ولا قطع المسافة من الجزيرة والمعشوق فلا الخوفُ من غارة خَفَاجة (٣) وسارٍ ماغرّته، ولا الحَذَرُ من عيّاري السّواد وحَرَاميّة الأرض ولا تغيّرُ المُلْكِ والامارةِ بالشام، ولا انقلابُ الدولةِ وانتقالُها من قوم إلى آخرين، كأنما لَصِق صدرُ كتابي في صدرِه بأمراس (٤) أوكأنما سمّرتْه بمسمار وثيق، وأظنه

---

(١) القمش: الرديء والسيء. (القاموس المحيط: ٧٧٨)

(٢) دخمس: الخبّ (القاموس المحيط: ٧٠١)

(٣) خفاجة: أي العرب، حي من بني عامر. (القاموس: ٢٣٨)

(٤) في الأصل: بأشراس، وهوخطأ، والصواب ما أثبت والأمراس: الحبال (القاموس: ٧٤١)

لوماتَ والعياذ بالله قبل أخذه لثأره لمزّق الأكفان ونَبَش المقابر ورجم أهل الآخرة بالحجارة ،ولقد فكّر الخادم ليلة وصوله في سوورأيه فيه وشدة حقده عليه ، وبقي متفجعا من مطالبته له بالآثار الهزلية بعد الزمان الطويل وامتنع عليه النوم لأجل هذا إلى هزيع من الليل ثم غلبته عينه ، فرأى فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت والمنادي ينادي هلموا إلى العرض على الله ، فخرجت من قبري ألم (١) الداعي إلى أن بلغت إلى أرض المحشر ، وقد ألجمني العَرَق ، وبلغ مني التَّعَب والغَرَق ، وأنا من الخوف على شرّ الأحوال ، وقد أنساني جميع ما أقاسيه عظيم ما أعانيه من شدة الأهوال فقلت في نفسي : هذا اليوم العبوس القمطرير (٢) وأنا رجل ضعيف النفس خوّار الطباع ولا صبر لي على معاينة هذه الدواهي ، كنت أشتهي على الله الكريم في هذه الساعة رغيفا عُقيبيا (٣) وزُبديّة طباهجة (٤) ناشفة ، وجبن سناري وفخارة نبيذ حَلبوني ، والحافظ العليمي ينا ديني عليها بأخبار خُوارزم (٥) وفخر الدين بن هلال يغني له : (الكامل)

يا أهل نَعْمان إلى وَجَنا تِكُم (٦) تُعزَى الشّقائِقُ لا إلى النُّعمان

وأبو العزبن الذهبي (٧) (يغمز) بعينيه ويسقيني الصِّرْف من الغَضَارة

==:=

(١) كذا في الأصل .
(٢) قمطرير : شديد . (القاموس المحيط : ٥٩٩)
(٣) عقيبي : نسبة إلى عُقاب : اسم مكان بدمشق . (معجم البلدان : ١٣٣/٤)
(٤) طباهجة : اللحم المشرح . (القاموس المحيط : ٢٥٢)
(٥) خوارزم : خوارزم شاه : لقب حكام خوارزم قبل الفتح العربي وما بعده والمرجع الوحيد لمعرفة نسبهم هو الآثار الباقية للبيروني .
(الموسوعة العربية الميسرة : ٧٦٧/١)
(٦) نعمان (بفتح النون) : هو نعمان الأراك ، وهو وادٍ بين مكة والطائف .
(معجم البلدان : ٢٩٣/٥)
(٧) أبو العزبن الذهبي هو محمد بن أحمد ، مؤرخ ومحقق تركماني الأصل ولد بدمشق ورحل إلى القاهرة ، وطاف كثيرا وكف بصره . تصانيفه كثيرة منها (دول الاسلام)
(الموسوعة العربية الميسرة : ٨٤٦/١) .

حتى يفرق جسمي وأغيب عن الوجود ،فتنفض عني الشداود في غير معقول ،فما انقضت أمنيّتي حتى طلع عبدُ الواحد بن زيد (١) من جانبي وقال لي : الساعة رأيت عدة جوارٍ يَطلُبنك مع بعضهنّ أولاد يزعمن أنهم منك ،قد نَفَيتهم عنك ،وبعضهن يدعين أنك بعتهنّ لغيرك وهنّ حَبالى منك ،فقلت له ،هوّن عليك ولا يكون عندك أحسن منهن : (مجزوء الكامل)

قدْ باعَت الأسْباطُ قَبْـ ـلي يُوسُفاً وهُمُ هُمُ (٢)

فَوَجمتُ من كلامه ساعةً ،وقلتُ لو أني مثلُ الحافظ العليمي الذي لا يقتني إلا الغلمان الذكورَ ، وكلما التحى واحد باعه واشترى آخرَ ،ماحلّت بي هذه المصيبة فقال لي ابنُ بدر: ورأيت الحافظ العليمي يقلبُ عليك الأرض فقلت له : وأين أجدُه ؟ فقال : هو هذا واقفٌ مع النَّبيه المَوْصلي يمسح أفخاذَه من البَوْل ،فقلت : وأيُّ شيء أصابَه المسكين ،فقال : إنه سمع انشقاق سماء الدنيا فخرى على أفخاذه من شدة الزَّمَع (٣) فقلت له ،معذور وسرت نحوك وناديته فأقبلت إليّ تجري وما كلمتني كلمةً دون أن لكمتني لكمةً موجعةً وشتمتني وقلت لي : ياعدوّ الله ماكفى أنك تخاطبني بنون الجمع وكان المخاطَب دون أن ذكرت اسمي بغير كُنية ولا لقب ، والله لأتوَصّلَنّ إلي أذيّتك بكل طريق ،فقلت له : ياكافرَ القلب! أما ترتدِعُ أما ترعَوي ،أما ترى السماء تتفطرُ مثل فطائر المِزَّة (٤) في الكونين ،أما ترى الملائكة منحدرة من السماء زرافات ووحدانا ،

---

(١) عبد الواحد بن زيد البصري الزاهد ،شيخ الصوفية وأعظمهن لحق الحسن وغيره ،يقال أنه صلى الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة ،وقال حصين بن القاسم : لو قسم حديث عبد الواحد على أهل البصرة لوسعهم ،وكان مجاب الدعوة ،كان من أهل الحديث ،ولكنه كان متهما في حفظه ، كثير الوهم . (لسان الميزان لابن حجر : ٤ / ٨) و(الفهرست لابن النديم : ٢٦٠) و(البيان والتبيين : ٣ / ١٧١)

(٢) القائل أبو محمد القاسم بن علي الحريري ، وانظر المقامات ص: ٣٠٣ المقامة الزّبيدية .

(٣) الزمع الخوف والدهشة . والازماع : الاسراع . (القاموس المحيط : ٩٣٧)

(٤) المزة : قرية كبيرة غنّاء في وسط بساتين دمشق . أقول وموقعها في الجنوب منها وهي اليوم امتلأت مباني وسكانا . (معجم البلدان : ٥ / ١٢٢)

أما ترى الميزان يرتعد بمافيه مثل المحموم اذا أخذه النافض يوم البُحران (١)،

أماترى الصراط يرقص بمن عليه رقصَ القَلوص (٢) ولا يزال مستعجلا ،أما ترى مالكاً

خازنَ النار قد خرج منها محلق العينين في يده اليمنى مصطيجة ،وفي يده اليسرى

السّلسلة المذكورة في القرآن ،وهو يدور في الموقف على اللاّطة والقُوّاد من أمة محمد

صلى الله عليه وسلم ،ونحن متّهمون بذلك ،بالله اترك ديار القفار وهون عليك هذا

الأمر واتركنا لمانحن فيه ، فقلت له: والله،ماهو شيءٌ هَيِّنٌ عليّ فأُهَوِّنَه ،ولا أسامحك

به ،ولا أفارقك حتى افارقك إلى كمال الدين الشَهْرُزُوري (٣) ينكّل بك تنكيلا يردعك

عن الاسخان في كل مكان ،فقلت وأي شيء بيني وبينك وبين كمال الدين من المودّة ،

وأنا أعرفك أبغض البال فيه ،فقلت له : ياجاهلا بأحكام السَّفَر ،إني لما سافرت معه

إلى العراق واجتمعت به في الطريق وحدثته بأيشم حديث خُوارزم ،وانشدته طرفا

من شعر ابن بابَك ،فتأكّد مابيني وبينه وصرت عنده من المقربين ،فقلت له : وأي

شيء لكمال الدين في هذا الأمر اتبعنا أحكامه إلى هذا المكان فيقول :نعم عَرَضوا

اليوم صحائف أعماله بين يدي الحق سبحانه وتعالى وهي شيء عظيم مثل جبلي

ثبير(٤)

=:=

(١) البحران : هوالتغيير الذي يحدث للمريض من الأمراض الحادة ،وقد مرّت وسبق التعريف بها (القاموس المحيط : ٤٤٢)

(٢) قلوص، جمعهاقلاص: وهي الفتية المجتمعة الخلق من الابل ،والقلوص أيضا ولد النعام وفرخ الحبارى ،وتجمع أيضاعلى قلائص.(الوسيط : ٧٥٥)

(٣) كمال الدين الشهرزوري : قاضي دمشق الأجل ، مشهوربالتقدم ، ووفور العلم ،وصفاء النفس ،والمعرفة بقوانين الأحكام ،وشروط استعمال الانصاف والعدل ،والنزاهة عن الاسفاف ،وتجنب الهوى والظلم ،وحكم بين الرعية بأحسن حكم ،وقد عينه العادل نورالدين بطلب من القاضي زكي الدين ابوالحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي قاضي دمشق. (تاريخ دمشق لابن القلانسي : ٥٤٨) .

(٤) ثبير : جبل بظاهر مكّة ،أي خارجاعنها ،وقد مرذكره صفحة ٥٩ .

ولبنان ،فقالت الملائكة :أي ربّ ،أشغالنا في هذا اليوم كثيرة ،وجاء هذا الرجل بأمر عظيم ،وقد سبقه أمم من الناس وهو يريد يومَ قيامةٍ وحدَهُ لا يُحاسَبُ فيه سواه وموازينَ لا يشركُه فيها غيره ،فقال الباري عزوجل : ((مَا خَلْقُكُم وَلا بَعْثُكُمْ إِلاّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)) (١) سلّموه إلى الروح الأمين ،فيقول جبريل عليه السلام :هذا شيخ من شيوخ الاسلام ومن عظماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ،وله من أعمال البر مايوفي عنه مظالمَ العباد ،أو وقفوا أمره وأحيلوه عليّ بالمطالبات ،فدخل في زمرة الرُّوح الأمين (٢) فما لأحدٍ عليه من سبيل ،وهو يحضر المقام المشهود في كل يعمل فيه دهليزات يتمُّ فيها مايريد وقد قدم مقدمات لابن عصرون (٣) ردته ما أظنه من عقده بنكاح .

وبينما نحن في المحاورة ،اذا نحن بمالك خازن النار وقد هجم علينا وقبض عليّ وسَحَبنا خلفه فارتعنا لذلك ارتياعا عظيما ،فقلت له : هذا الذي كنت أُخوّفك منه وقد وقعنا فيه ،فقلت : أنت ياسيدي مالك اسمع مني كلمتين لوجه الله تعالى ،فقال: كيفَ أسمعُ منك وقد حذفتَ رُبُعَ اسمي في النداء ،فقلتُ : والله ما حذفتُهُ للترخيم الجائز عند النُّحاة وإني لفي شُغُلٍ عن ذلك ،وماحذفتُه الآلشدة

=:=

(١)سورة لقمان : الآية ٢٨ .

(٢) الرّوح الأمين : جبريل عليه السّلام .

(٣) ابن‌عصرون :هوعبد الله بن محمد ،شرف الدين أبوسعد :من أعيان فقهاء الشافعية، توفي سنة ٥٨٥هـ . (الاعلام :٤/ ١٢٤١).

الهلع وانقطاعِ مادّة الكلام ،فيقول : هاتِ كلمتك ،فيقولُ ياسيّدي هذا رجلٌ مغربي من أهل القرآن وأنا رجل محدّثٌ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فبأي جُرْمٍ تأخذنا قبل العرض على الله تعالى واستعلام مايعلمنا به الكريم ،فقال له : ياخبيث انت كنت من المغتين في اللّياطة (١) ومن المتنصّرين فقلت له ،أنا ؟ وكيف ذلك ياسيدي ،فقال : هذا كان يفسقُ بأولاد المسلمين ويُثبتُ أسماءَ هم في جريدةٍ على حُروف المعجم حتى لم يبق عليه إلاّ القليل ،وسمعتُ أنه أدْخَلَ أمْرَدَ إلى خِزانة مُظلمة ،ونوّمه تحت ضَوْء الرّوزنة (٢) ، فلما لم يطابق الضَّوْءُ حِجْرَهُ قال له : تعطّفْ ياسيّدي وقدمها إلي بفضلك ياخنزير وأيُّ فضلٍ لأمردَ منكوحٍ وسمعت أنه أخذ يحي المُطَرِّز ،وماقام عليه فتركه . (٣)

فلما كان بعد ذلك بمدّة اجتمع به فطالبه بالتّمام ،ولو أعدتُ عليه ماقيل لي لطال الزّمان وأما أنت فرجل قوّاد لا شكّ فيه ،فاستشطتُ عند ذلك غيظاً وأظهرت القلق العظيم وقلت : أمثلي يقال هذا الكلام ؟ فقال لي مالكٌ : لعل مولاي يريد أن يهجوني بشعرٍ مثلَ مارأيتُ في صحائفه اليوم ،أويعمل فيّ مقامة مثل فعله في بني آدم ،والله لأُلَطِّمَنَّكَ بالقلعِ حتى تبولَ العبدُ لاوي على ساقيه ، واشتهيتُ أن أعلم سببَ ذلك وغيظك علي ،تقدر أن تقول أنك ماكنت تقود على رفيقك هذا في دار الغواره بجيرون (٤) في شهور سنة ثلاث وخمسين وخمس مائة ؟

==:

(١) اللياطة من لاط: يعمل عمل قوم لوط عليه السلام . (لسان العرب : ٧/ ٣٩٦)

(٢) الروزنة : الكوة (القاموس المحيط : ١٥٤٩)

(٣) ليت المؤلف لم يكثر من نقله عن مثل الواهراني هذا

(٤) بجيرون : حصن عند باب دمشق ، وباب من أبواب الجامع بدمشق . (معجم البلدان :٢/ ١٩٩

قلما سمعنا ذلك خرسنا وأبلسنا وعلمنا أن الناقد بصير ،لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاكَبِيرَةً إلاّ أحْصَاها (١) ، فرجعنا حينئذ إلى المُلاطفة ،وقلنا له: سألناك بالله لا تعجلْ علينا فنحن صائرون إليك بعد قليل ،و مالنا عنك من محيص فتَرَكْنا بعد الجهد فدخلنا في غُمار الناس ، فقلت له : ياأخي قد طيَّر هذا عقولَنا ، ومرّت بناساعةٌ صعبة بسبب الوِلدان ،اطلعْ بنا إلى جبل الأعراف نشرفْ منه على الموقف ونتفرّجْ منه على بساتين الجنان ،فنستريح و ترجع إلينا أرواحنا في ذلك المكـــان فقالت لي : ولِمَ ؟ قلت : لأنَّ يأسَنا من الجنة أكثرُ من رجائنا فيها ،ومتى رأينـــا أشجارَها وأنهارها وَفاتَنا دخولُها تضاعف علينا الحَسَرات والأحزان ،وعدمُ ذلـــك في التَّخَيُّل خيرٌ من وجوده في العِيان ،وإنه يقال في المثل : عين لاترى قلـــبٌ لايُوجع ،فتحول مني التفاتةً فأرى أبا المجد بن عبد الحكم عائدا وفي يده رقعـــة حمراءُ مذهّبةٌ وهو رائحٌ بها يُهرولُ ،فسلّمنا عليه وسألناه عن حاله ،فقال: لولا ملازمةُ الصلاة كنت من الهـالكين ،فقلت له : أين تريد ؟ قال: أرُدُّ هذه الرقعة على صاحبها ،فقلنا له : وأيُّ شيء في الرقعة ومنْ صاحبها ؟ ، فقال: هـــذه الرقعة المؤيد بن العميد بَعَثَها معي إلى رضوانَ (٢) يطالب منه كمثرى سابوريّا (٣) ورمانا دبيقيّا (٤) لايوجد إلاّ في الجنّة ،ولقد لقيني أبو الحسن بن منير فخطف الرقعة

==:=:==:

(١) إشارة الى قوله تعالي (ووُضع الكتابُ فترى المجرمين مشفقين ممّا فيه و يقولون ياولبتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الاّ أحصاها ووجد واماعملوا حاضرا ولا يظلم ربّك أحدا) (سورة الكهف :الاية ٤٩)

(٢) رضوان : خازن الجنة (القاموس المحيط : ١٦٦٢)

(٣) سابوريّا : منسوب إلى سابوركورة بفارس من قرى بغداد . (معجم البلدان : ٣/ ١٦٧)

(٤) دبيقيا : منسوب إلى الدبيقيّة من قرى بغداد (معجم البلدان : ٢/ ٤٣٨)

من يدي وَقرأها ،وقال: هذه رقعة رجل دهّان عارف بالأصباغ وإنزال الذهب لكنه جاهل بصناعة الكتابة ظاهر التكلف فيها ،يريد أن يتمّ بعض الصناعة ويسترُ عوارَها بالألوان المشرقة والأوراق المصبغة ،والتذهيب الرائق ،ومع هذا لا يجوز أن يُكاتبَ بمثل هذه الرقاع إلا القحابُ المتعاشقات والظراف المُتساحقات،فكن عاقلا وردّها على صاحبها قبل أن يلطمَ على باب الجنة عشرة آلاف زربول ،مثل هذا المَلك يخاطَبُ في مثل هذه الرقاع ،هذا طلائع بن رُزيِّك (١) مع سخافة عقله وسكره من خمر الولاية قال يوما في مجلسه لما عرض عليه الشبروي (٢) قصائد الشعراء والمكدين (٣) من أهل الشام وفي جملتها رقعة ابن العميد فيها سطْر بالأخضر اليانع ، وسطر بالأصفر الفاقع ،وسطر بالأبيض الناصع في الورق الأحمر القاني مُطَرّز الجوانب بالذهب الابريز من صاحب هذه الرقعة يازكي ؟

فقال: رجل من رؤساء دمشق ومقدميها أحذق الناس بالتزويق في الأوراق والتصحيف للألفاظ ومعرفة أصناف الفواكه والثمار ،فقال له ابن رزّيك: ماأدري ماتقول غير سلبته فضل الفضلاء ونسبته إلى الفلاحة والرُّعُونه (٤) والجنون ومع هذا فهي تدل على جهل قائلها ومهانته ،ألا ترى الناس يتوصّلون إلى الثريا (٥)

==:=:=:=:=: : :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:

(١) طلائع بن رزيك: الملقب بالملك الصالح ،وزير عصامي يعد من الملوك أصله من الشيعة الامامية في العراق ،ولي الوزارة الخليفة الفائز الفاطمي سنة ٥٤٩هـ ،واستمر في وزارة العاضد (الأعلام: ٣/٢٢٨).

(٢) كذا في الأصل.

(٣) في الأصل: والمكذبين ،ولعل الصواب ماأثبت.

(٤) الأرعن: الأهوج في منطقة ،والأحمق المسترخي. (القاموس المحيط: ١٥٥٠)

(٥) في الأصل: سريا ،ولعل الصواب ماأثبت.

بالفضل والبراعة وتوصّل هذا الرجل بلعب البنات وزخارف الصبيان ،لوكتب هذا الكلام الذي في رقعته على خروف سمين وأُلقي في الطريق لأنِفَت الكلابُ من أكله، ثم ناولها لبعض الفراسين وقال: ارفعها لجارك الفقاعيّ يلصقْها يستجلب بها الزّبون ،ثم التفت الى الناس وقال: هؤلاء أهل الشام ورؤساء الدمشقيين ،قال أبوالمجد: أنا والله ماستجرىء أوصلها إلى رضوان بعد أن سمعت هذا الكلام وأنا رائح أردها عليه ،قلت له: ادفعها إلى أقربها بإخوتها فإني قدوصلت من رقاعه إلى ملوك المصريين خمس رقاع .

وبينما نحن في المحادثة عليها وإذا بضجة عظيمة من جنس المحشر والناس يُهْرَعون نحوها مستبشرين ،فملنا جميعا إليها وإذا بحلقة بعيدة الأقطار فيها من الأمم مالا يُحصى ،كلهم يصفقون ويلعبون وثلاثة في وسطهم يرقصون إلى أن سمعوا ووقعوا إلى للأرض ،فسألنا بعض أولئك الحاضرين عن الفرح وعن الثلاثة يرقصون فقال: أما الثلاثة فعبد الرحمن بن ملجم (١)

=:==:=:=:=:=:=:=:=:-: :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) عبد الرحمن بن ملجم: قاتل علي بن أبي طالب ،رضي الله تعالى عنه وقد أعدّه الخوارج بطلا مجاهدا واعتبروا عمله وسيلة تقربه إلى الله تعالى وتضمن له الجنة ،وفي ذلك يقول عمران بن حطان أحد شعراء الخوارج:

ياضربة من منيب ما أراد بها	إلا ليبلغ عند العرش رضوانا
إني لأذكره يوما فأحسبه	أوفى البرية عند الله ميزانا

(الملل والنحل للشهرستاني: القسم الأول/ ١٠٩).

وشمر بن ذي الجوشن (١) والحجاج بن يوسف الثقفي (٢) مجرموا هذه الأمة

وأما الفرح الذي ألهاهم عن توقع العقاب حتى أرقصهم الطرب مع ماكانوا عليه من رجاحة العقل ونزاهة النفس، فهو الطمع في رحمة الله بعد الإياس منها، والسبب في ذلك كون البارى عز وجل غفر للفقيه المجبر والمهذب بن النقاش، فخذوا رحمكم الله بحظكم من الفرح والسرور، فقلت: وأيُّ شيء ينالُنا نحن ثَمَّ من نجاة هذين الرجلين ومن فوزهما بالرضوان ونحن إلى الحزن أقرب منا للسرور؟ فقال: قد أُجمع الناس أنه لم يُولد في الاسلام مولود قطّ أرقّ دينا من هذين الرجلين ولا أقلّ خيراً منهما، فإذا غفرلهما فما عسى أن تكون ذنوب الحجاج وأصحابه في ذنوب هؤلاء، إن يكن ذلك إلا كالشّعرة البيضاء في الثور الأسود، فقال أبو المجد بن أبي الحكم: فالعشرة دنانير التي لك عند ابن النقاش إلى متى تتركُها؟ الحقها قبل أن يدخلَ الجنة، فما ترجعُ تراه أبدا، وأقوم وأغدوا ملء فروجي وأنتم خلفي إلى أن انتهيت إلى جماعة كبيرة من الملائكة والناس وهم ينظرون إلي ويقولون: هذا هو قد جاء، وأخالطُ ذلك الجمعَ وأُتخلّلُهم إلى صدر ذلك الملأ، وإذا بملك عظيم تَقْشَعِرُّ من

==:==:=

(١) شمر بن ذي الجوشن. هو شمّر بن ذي الجوشن (واسمه شرحبيل) ابن قرط الضبابي الكلابي، أبو السابغة: من كبار قتلة الحسين الشهيد - رضي الله عنه - كان في أول امره ذوي الرياسة في هوازن موصوفا بالشجاعة وشهد يوم (صفين) مع علي رضي الله عنه. ثم أقام في الكوفة يروي الحديث، إلى ان كانت الفاجعة بمقتل الحسين، فكان من قتلته قتله رجال المختار الثقفي وألقيت جثته للكلاب وذلك سنة ٦٦هـ، ورحل بعض أبنائه إلى المغرب، ودخلوا الأندلس.

(الأعلام لخير الدين زركلي: ٣/ ١٧٥- ١٧٦)

(٢) الحجاج بن يوسف الثقفي: سيمر ذكره بالتفصيل ان شاء الله تعالى.

نظاره الجلود وتشمئزّ من طلعته النفوسُ ، والمهذّب بن النقاش قائمٌ بين يديه يكلّمه بالعجمية وهو مقبل عليه بجملته ، فلما أحسّ بيَ المَلَكُ قال : اذكر سعيدا تَرَهُ (١) ، والتفت ابن النقاش وقال : اذكرْ الكلبَ واستعدّ له بِعُصًا ، أيش تعمل معي في ايشم الذهب الذى لك في ذمتي قدعوتني عن دخول الجنة لأجله ، فقلت له : طيِّب والله طيّب ، ويبدو لهم إن شاء الله فيك ويردُّونَك إلى الجحيم ، أريدُ الساعةَ آخذُ من حسناتك بعشرةِ دنانيرَ مايساوى خمسةَ عشرَ دينارا أورُحْ أنت إلى حيث شئتَ ، فما أشعرُ الا بضرطةٍ عظيمةٍ هائلةٍ جاءت من خلفي رنّت لها أكناف المحشر (٢) فالتفتُّ عن يساري فاذا بجماعة من أصحابنا قيام يضحكون فاتّهمت بها الصفيّ بن كريم المُلك واغتظت عليه وتوعدته ، فحلف أن ماصفالي (٣) إلا التاج بن أبي الصقر فحردت واغتظت وقلت لكم : يا قوم ! هذا وقت المجون ؟ فقال ابن أبي الصقر : نعم اذا رأينا واحدا منحوسا يطلب من ابن النقاش بعشرة دنانير حسنات مانخرطُ في ذقنه ، أي والله ونخرى في لحيته ، ويلك يا أبله ، يعطيك من أوراده بالليل أو من تهجّده بالقرآن في السَّحَر ؟ أو يعطيك من صيام الاثنين والخميس ، أومن مواصلة الثلاثة أشهر؟ أو يعطيك حجّة مبرورة من حجّاته ؟ ماتستحي تتكلم بهذا الكلام ؟ قلت : ياقوم افما أتهستوا له شيئا من غزواته مع نور الدين ؟ فقال : ماكان

=:=

(١) أصل المثل (اذكرغائبا تره) ويروى : (اذكرغائبا يقترب) قال أبوعبيد : هذا المثل يروى عن عبد الله بن الزبير انه ذكر المختار يوما وسأل عنه ، والمختار يومئذ بمكة قبل أن يقدم العراق فبينماه وفي ذكره اذ طلع المختار فقال : ابن الزبير : (اذكرغائبا تره) .
(مجمع الأمثال للميداني : ٢/ ١١)

(٢) لقد بلغ السخف من هذا الوهراني حدّا لا يطاق ، حتى راح يسخر من يوم القيامة و بغيته أن يضحك الناس ، فعليه وزره ، وانا نشهد الله أنانبرأ من هذا القول ومن كل قول فيه زندقة أو مزدكة أومجون ، أوخروج عن الأدب والخلق السليم .

(٣) كذا في الأصل .

الرجل يخرج من بيته بنية الجهاد والأعمال بالنيات (١) ،قلت : فمافعلت صدقاته؟

فقال : جميع ماوجد له خمس قراطيس على يدك لابن الجليس الخروبي ،وهم فيهما على قولين فان كانت الشمال قال : روائحها منتنة وأظنها تشريخ (٢) ، وقال تلك اليمين اسمه الصدقة عليها مكتوب وهي موقوفة إلى الآن ،فصلاته أيش فعل الله بها؟ قدكان يصلي المغرب في بعض الليالي اذا قامت بغتةً وهو في وسط الجامع ، فقال : وجدوا له ثمانين صلاة في ستين سنة فيهما ثمان وعشرون بغير وضوء، والاثنتين وخمسين مثبتة لك بارك الله لك فيها باثنين وخمسين قرطاساً كل صلاة بستة فلوس ،قلت له : فلم يبق الا أن أحطّ من سيأتي بقيمة عشرة دنانير على سيئاته ،فيقول ذلك الملك المهيب بحميّة وتعجب : هذا رجل مغفور له لاتنا ط بهالسيئات ،فقلت له : فادفعوا بالعشرة دنانير موضعا في الجنة صغيرا مثل اقطاع العز المكي في البحيرة (٣) ،فقال الملَك : ماهذا إلينا هذا إلى الحق سبحانه وهو الجواد الكريم وأنت إما أن تحلّله من دَيْنك بطيبة من قلبك وإلا أضرب برأسك الحيطان ،فأهجّ على رأسي وأعدو ملء فروجي وأصيح بجميع حلقي : دعوة مظلوم باكريم فلحقتمولي أنتم وأمسكتموني وقلتم : أنت مجنون ،أتعرف من تخاطب ،فقلت : لا ! فقلتم : هذا عزرائيل ملك الموت وهو يعني بالمهذّب عناية عظيمة ،وهوالذي شفع فيه وخلصه من العذاب الأليم ،فقلت لكم : ومن أين هذه المعرفة بهن

==:=:=:=:=:==:=

(١) حديث نبوي شريف . (عن اميرالمؤمنين أبي حفص عمربن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إنما الأعمال بالنيات، وانما لكل امرىء مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله و رسوله فهجرته الى الله ورسوله ،ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو لمرأة ينكحها فهجرته الى ماهاجر إليه) . رواه البخاري و مسلم

(٢) كذا في الأصل ،ولم أتبين صحتها .

(٣) البحيرة : محافظة بمصر ،في غربي الدلتا . عاصمتها دمنهور ،عرفت بهذا الاسم منذ بداية العصر العربي .كانت كورة صغيرة ثم ضمت اليها كل الكور الواقعة في غرب فرع رشيد ،وأولى المناطق التي عرفت نظام الري الدائم في الوجه البحري وتشتهر بحلج القطن .
(الموسوعة العربية الميسرة : ١/ ٣٣١) .

المهذّب (١) وبين عزرائيل ،فقال لي أبو المجد بن الحكم من جهة الطب : أما علمت أن المهذب كان من أعيان ملك الموت في دار الدنيا ،ما دخل قطّ على عليل إلاّ وأَنْجَزَه في الحال وأراح مَلَك الموت من التردد إليه وشمّ الروائح الكريهة والنظر إلى شخصِه المزعج وخلَّصه من الانتظار الطويل فهو يرعاه لأجل ذلك ويُحبّه من ذلك الزمان ،وأمّا أنا فما أقدرُ أقعُ في عينه ولا يبصُرُ لي رقعة وجه أبدا لأني كنت أضارِبُهُ على العليل مضاربةً حتى أخرجَه مِن فكّه وأُخلّصه بعد اليأس ،فلاجرمَ أنه ما أمهلني ،ثم الأرعنُ الذي ابتدأ به ولا تركني أتملّى بأمّ الحكم ساعةً .

فقلت لي : قم وارجع إلى الملك قبِّلْ يده وقل له : قد تركت هذا المقدار لأجلك فافعل ماتريد ،قال الجماعة كلهم: هذا هو الصواب انهض على بركة الله ،فقمتُ معكم إلى المَلَك وحاللتُ الرجل من الذي عليه ففرح مَلَكُ الموتِ عزرائيل بذلك ،وقال : ماأقدر لك على مكافأة إلا أني أُبشّرُك أنه تعيش بعد المهذب عشر سنين لكلّ دينار سنة ،فسررت لذلك وضيت له وقمت وأنا له من الشاكرين .

فقلت لي أنت بعد انفصالنا عنه : قد تعبنا يافلان من المحاورة والوقوف واشتدّ بنا العطش والظمأ ، هل لك في الحوض (٢) فيمن عنده بالعلم والقرآن لعلّهم

=:=:==:=:=:=:=:=:=:=:=:=:-:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) المهذب: هو المهذب أبو عبد الله بن نوفل الحلبي توفي في دمشق وكان كاتبا للأميرالاسفهلار أسد الدين ،ووزيره ،وهو موصوف بالخيرية محمود الأفعال ،مشكور المقاصد ،في جميع الأحوال والخلال ،واستخدم ولده في منصبه . (تاريخ دمشق لابن القلانسي : ٥٤٠) .

(٢) الحوض: وهو الحوض الذي يلقى عنده محمد أمته يوم القيامة ،ولا وجود لهذه الفكرة في القرآن ولكنها توجد في الحديث .ويأتي الحوض بعد الميزان مباشرة .

(دائرة المعارف الاسلامية : ٨/ ١٥٠)

يسقوننا شربةً لا نظمأ بعدها أبدا ،فقلت له : سِرْبنا ،فتوجّهْنا نحوه ،وابنُ بدر معنا ،حتى إذا قربنا منه رأينا أبا القاسم الأعور وحوله جماعةٌ من الأشراف ينتفون شعر رأسه بالدلاء والتوسيم (١) ويقولون : يا خنزير ارْجِع إلى يزيد بن معاوية (٢) يَسْقِك الماء ،فوقفنا ساعة وأحجمنا عن الاقدام خوفا من سوء الأدب ،فرآنا تاج الدين الكندي (٣) فجاء إلينا وسلم علينا فسألناه عن حاله فقال: لواتَّبَعْتُ مذهب أئمة الحنابلة في التشبيه هلكتُ معهم ،ولكني كنت أُسِرُّ الأشعريّة وأُضمِرُ العنبريّة ،وقد

==:=

(١) كذا في الأصل : والتوسيم جمع وسمة : ورق النيل ،أو نبات يخضب بورقه .

(٢) يزيد بن معاوية : هو يزيد بن معاوية وأمه ميسون الكلبية ،تزوجها معاوية قبل أن يلي الخلافة أعادها معاوية إلى أهلها بسُوريا تنشأ في البادية حيث أجاد اللغة والأدب والصيد ، أشار المغيرة ابن شعبة عليه بأن يطلب المبايعة له فأخبر أباه فوافق .استمر حكمه حوالي ثلاث سنوات فقط ومات وهو في شباب غض،لم يهنأ يزيد بالخلافة يوما واحدا فقد ثارت في وجهه الأحداث،فعالجها بقوة . (موسوعة التاريخ الاسلامي لأحمد شلبي : ٢/ ٤٦) .

(٣) تاج الدين الكندي : هو أبو اليمن زيد ابن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندي الملقب تاج الدين البغدادي المولد والنشأ الدمشقي الدار والوفاة ،المقرىء النحوي الأديب،كان أوحد عصره في فنون الأداب وعلو السماع ،لقي جلّة المشايخ وأخذ عنهم. دفن بجبل قاسيون (وفيات الأعيان لابن خلكان : ٢/ ٣٣٩- ٣٤١) .

(٤) الأشعرية : نسبة إلى أبي الحسن الأشعري مؤسس المذهب الكلامي الاسلامي الذي ينسب إليه ويعرف باسمه ،تعارض المعتزلة ،أصبح مذهبا لأهل السنة ولا سيما الشافعية منهم. وهم تلاميذ الأشعري ،انتشروا في مختلف البلاد الاسلامية ،لا يوجد للعقل عندهم ماله من شأن عند المعتزلة ،فحققوا لا يوجب شيئا من المعارف ،ولا يقتضي تحسينا ولا تقبيحا ،ومعرفة الله بالعقل تحصل وبالسمع تجب . (الموسوعة العربية الميسرة : ١/ ١٦٦)

وعدني الإمام الشهيد سيبويه (١) بأن ينفعني اذا رآني عند الميزان وأنتم الكـــــرام لاتتقدمون فتسلّمون على أمير المؤمنين وتأخذون اذنه في الورود ، قد أذِنَ اليوم لجماعه من الأدباء أنجسَ منكم بكثير ، ولعلكم خفتم مما وقع فيه قسيم الأعور مـــن اللطام ، فقلنا له : نعم ، فقال: حاشاكم أنتم من هذا ، كان قسيم رجلا فضوليـــا يكاشف الأشراف ويؤذيهم في كل مكان .

فتقدمنا إلى أمير المؤمنين فوجدناه على شفير الحوض وحوله جماعـــة من الهاشميين كأن الشمسَ تطلع من وجوههم ، والمقداد بن الأسود الكندي (٢) قائم على رأسه في يده لواء أخضرُ من سُنْدس (٣) الجَنّةِ منشورٌ ، ومنير الدولة يخاطبه في بني سَرايا ويقول له : ياأمير المؤمنين ماكان ظنُّنا بك هذا ، فقال : ماأوثقكم وأوثق أمركم الامعز بن حسن بكثرة مارفع عليكم من العظائم ، وإلاّ كنت قد خلصتكم

=:=

(١) سيبويه : هو عمرو بن عثمان توفي سنة ٧٩٦م . امام نحاة البصرة ، ولد بالبيضاء ، من مدن شيراز ، واختلف في موضوع وفاته وتاريخها ، والأرجح أنه مات بشيراز نشأ بالبصرة ، ودرس النحو على الخليل ، ويونس بن حبيب وعيسى بن عمر ، ورد بغداد ، فناظر امام نحاة الكوفة الكسّائي فحكم بانتصاره عليه ، فأسف وعاد الى موطنه وألّف كتابه ، الذي يعدّ أصل النحو واشهر كتبه واعتمد عليه نحاة المدارس جميعا ، وألفو حوله الشروح والملخصات والتكملات والتعليقات والنقود ولا زال محتفظا بمكانته . (الموسوعة العربية الميسرة لمحمد غربال : ٢/١٠٤٥)

(٢) المقداد بن الأسود الكندي : هو المقداد بن عمرو ، ويعرف بابن الأسود الكندي البهراني الحضرمي ، أبومعين ، أو أبوعمرو : صحابي من الابطال ، هو أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهر الاسلام . وهو أول من قاتل على فرس في سبيل الله وشهد بدرا وغيرها وسكـــن المدينة وتوفي على مقربة منها ، فحمل اليها ودفن فيها ، له ٤٨ حديثا .

(الاعلام للزركلي : ٧/٢٨٢)

(٣) السندس بالضم : ضرب من البزيون ، أوضرب من رقيق الديباج ، معرب بلاخلاف .

(القاموس المحيط : ٧١٠)

من أول النهار ،فيقول له حاتم : ياأخي ياأمير المؤمين شتّتَ شملنا في الدنيا وأوثقتنا في الآخرة ،فهو المشئوم الطلعة في كل حين ،فقال له : والله ياأميرالمؤمنين لَتَسْمَعَنَّ في صحيفة أعماله من الفضائح مالم يسمع بمثله لمخلوق سواه ،أوّل مافيهما أنه أخذ طفلا من الفلاحين اسمه يوسف فَفَسَقَ به حتى التحى وفرغ من الصبيان ، فَعَقَد على أختهم عقدا فاسدا وفسق بها حتى ملّها ،وعبرت يوما أمُّها فكشف الريحُ عن ساقيها وقطعت عجيزتها (١) فأمسكها وغَصَبها على نفسِها فلم يسلم من أهل البيت الا شيخُهم الكبير بمصيره إلى التراب ،فشكر أمير المؤمنين من سماع هذا الحديث ،وثقل عليه حتى ظهر ذلك في وجهه ،والتفت إلينا وقال: أنتم ماتريدون ؟ فقلت : أنا ياأميرالمؤمنين نحن قوم من أهل العلم والقرآن ،وقد بلغ بنا الجهد من شدة العطش ،ونسألك أن تنعم علينا وتطلق لنا الورود ،فقال لي صلوات الله (عليه) مسترسلا إليّ يهزأ بي ويمجن معي : أيُّ آيةٍ في كتاب الله فيها مائة وأربعون عينا ؟ فقلت : أعرفها والله يا أمير المؤمنين ،فقال : وأيُّ آية وزنها أربعة عشر درهما ؟ فقلت : أعرفها ياأمير المؤمنين ،قال: صدقت .

فقيل : يا أمير المؤمنين من أين عرفت صدقه ولم تسأله ،فقال : بشاشة المعرفة بها ظهرت في عينيه ،ثم قال صلوات الله عليه : هذا الحوض بين أيديكم رِدوا كيف شئتم ،فصاح قسيم الأعود من بعيد: الله الله ياأميرالمؤمنين ، لا يتمّ على أمير المؤمنين مُحالُهم ،والله أشدُّ الناس كفراً ونفاقا وأشدهم نَصْبا وجُرْأة، وهم عبيدُ يزيد ،فقلنا له يكذب والله يا أمير المؤمنين علينا ، ولقد رمانا

(١) عجيزتها : مؤخّرتها . (القاموس المحيط : ٦٦٢)

بالافك والبهتان ،فقال : هل لكم من يعرفكم بغير الذي يقوله؟ فقلنا نعم يا أمير المؤمنين الشريف الدويره الروّاسُ والشريفُ العصيدةُ رسولُ القاضي ،والشريفُ زقارقُ الـــذي يبيع اللحم في القبّة ،والشريف فقيقا من الذي كان ضامن الخُمُر والعُناب في دمشق ، هؤلاء أولادك وذريّتك صلوات الله عليك يشهدون ببراءتنا من هذا الملعــون ، واغتاظ الحسين (١) صلوات الله عليه من ذكر هؤلاء وصفّق بيديه وقال: لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم اليوم يشمتُ بنا بنو أُميّة .

فالتفت أمير المؤمنين إلينا وقال: لا شكّ أنكم من عبيد يزيد ، قد شرعتم تسبُّوننا بطريق لطيف ،هؤلاء الذين ذكرتم من ذرية إبليس اللعين ومن أولاد الشيطان الرجيم ،إن كان لكم ثقة تشهد ببراءتكم وإلا فلا تقربوا هذا المكان ،فيقول محمد بن الحنفيّة (٢) : اغتنموا أنفسكم قبل البارد في الإحراق ،فننصرف من بين يديه ونحن لا ندري كيف الطريق .

=:=

(١) الحسين بن علي : هو الحسين بن علي سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يبايع يزيد في حياة معاوية ، فخرج على يزيد بعد وفاة معاوية ، قرر السير الى الكوفة ، فنصحه أصحابه بعدم الخروج ولكنه أصرّ وخرج في أخريات سنة ٦٠هـ بأسرته ونسائه وأطفاله وخدمه وقليل من مريديه وكان عددهم اثنين وتسعين . وفي الطريق لقيه الفرزدق وعبد الله بن مطيع ونصحاه بالعودة ولكنه أبى . وفي منطقة ذي الحسم التقى الحسين بالحر بن يزيد والحصين وعمر بن سعد ، وأخيرا يقتل الحسين ويحمل رأسه الى ابن زياد الذي أرسله الى يزيد فعندما رأى هذا الموكب والرأس بكى وبكت معه نساء بني أميّة ، واكرم مثواهم وردّهم الى المدينة .
(موسوعة التاريخ الاسلامي لأحمد شلبي : ٢/ ٤٦) .

(٢) محمد بن الحنفية : توفي سنة ٧٠٠م، وهو محمد بن علي بن أبي طالب . أمه من بني حنيفة واليها ينسب . قضى أغلب حياته في الحجاز بين مكة والمدينة ، ولم يذهب الى الشام الا زائرا للخليفة . عرف بالفقة والتقوى والميل الى الهدوء ، فلم ينافس في الخلافة بعد وفاة الحسن وموت الحسين نافسه ابن الزبير في الحجاز ، والمختار الثقفي في العراق ، ومع هذا أبى الكيسانية اتباع المختار الا أن يقولوا بامامتة بعد أبيه لأنه دفع الراية إليه يوم الجمل . ويعتقدون أنه حي لم يمت يقيم بجبل رضوان بجوار ينبع ، وانه هو المهدي المنتظر . (الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٦٥٩

فقلت لكم : هلم بنا نطلب الشريف أبا العباس النقيب ،فما لناولالهم مثله ،فخرجنا في طلبه فلقينا زين الدين بن الحكيم ومعه أممٌ من النساء لا يحصيها إلا الله تعالى وهم يسحبونه إلى عرصات (١) القيامة والقصاص وملك النجاة رائح

خلفه يحرضهم ويغريهم به ويقول له : ما يخلّصك اليوم من هؤلاء لا شعرُك الركيكُ ولا رسائلك الباردة ، ولابُدّ لك من الاجتماع بأبيك الرابض في أمك الهاوية وهو يقول لك : خرب بيتك ،أي شيء بيني وبينك ،هجوتك وهجوتني وشتمتك وشتمتني ،وقد راح هذا بهذا ،ونحن من أهل العلم ،ولا يليقُ بنا الا المحاللةُ والاستغفارُ لأنك في موقف صعب ،وأنارائح إلى رب كريم رجائي به حسن وظني به جميل ،فانكسر ابو نزار ورجع عنه خجلان .

ثم ترتفع الضوضاءُ واذا بموكب عظيم مقبل من المقام المحمود كأنهم الشموس والأقمار ركبانا على نجائب من نور يردون المشرعة العظمى من الحوض فسألناهم عنهم فقيل : هذا سيّد البشر صلى الله عليه وسلم في أصحابه وأهل بيته ، فنجري خلفه ونُجهدُ أنفسَنا في طلبه فلم نصلْ إليه من شدّة الزّحام ،فصعدنا على تل مشرف من جبل الأعراف (٢) حتى عبر علينا وعن يمينه ويساره أبو بكر وعمر،

===:=:=:=:=:=:=:=:=:==:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:

(١) عرصات: العرصة: كل بقعة بين الدوروا سعة ليس فيها بناء ، وهنا تعني ساحات (القاموس المحيط : ٣/٣٠٨).

(٢) جبل الأعراف : قال تعالى : ((وعلى الاعراف رجال)) ، الأعراف في اللغة جمع عرف وهو كل عال ومرتفع ،قال الزجاج : الأعراف أعالي السور ،قال بعض المفسرين : الأعراف أعالي السور بين الجنة وأهل النار ،واختلف في أصحاب الأعراف ،فقيل : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ويجوز على الاعراف : على معرفة أهل الجنة وأهل النار هؤلاء الرجال ،وقيل أصحاب الأعراف أنبياء وقيل : ملائكة . (لسان العرب : ٩/ ٢٤١)

وبين يديه أولاده الصغار مع الحسن والحسين ومن ورائه حمزة والعباس وجعفر وعقيل وبقية أصحابه بشَرَفٍ مع المهاجرين والأنصار ،وهو يُصغي تارة إلى حديث علي وتارة إلى عثمان ، وهما فيما بين أولاده الصغار وبينه والناس يضجُّون بالبكاء ويشيرون إليه بالأيدي ويستغيثونه من كل مكان .

فلما انتهى إلى شاطئ المشرعة وقف عندها فانحاز إليه الصُّوفيّة(١) من جميع الأقطار يقدّمون إليه الأسنان والشيشات ،فسئل عنهم فقيل له : هؤلاء قوم غلب عليهم العَجْزُ والكَسَلُ على طباعهم في الدنيا ، فهربوا من كدّ الصنائع والأعمال إلى زوايا المساجد والمشاهد بحجة العبادة والانقطاع ،فلا يزال أحدهم يأكل وينام حتى يموت ،قال : فبأي شيء كانوا ينفعون الناس ويعينون بني آدم ؟ فقيل : والله لا شيء البتة ولا كانوا إلا مثلَ شجر الخروع في البستان يشربون الماء ويضيقون المكان ،وليس لهم ثمره ،فيكاشر عنهم فيأخذون شيشاتهم وينصرفون .

ثم يأتي أسدا الدين ونجم الدين راكبين على فرسين كالعروسين وعلى كل واحد منهما خلعتان : خلعة الحج وخلعة الجهاد تساوي مُلك الأرض سبعين مرّةً، وأسد الدين رائح يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم خلعة فتوح مصر، ونجم الدين يقول : لا تذكره بمصر فهو موغَرُ الصّدر لأجلها ،فيقول له أسد الدين :قد ذكر العلماء بالنسيان مابين ملوكها وبينه قرابة وكتبوا خطوطهم في المشاريح وبعد

---

(١) الصوفية : فرقة من الفرق الاسلامية ظهرت قديما ،أخذت من الثقافات والفلسفات اليونانية والفرسية والهندية فبرزت نظريات ومصطلحات غريبة عن الفكر الاسلامي كالفناء على يد البستاني توفي سنة ٢٦١ ،والحلول على يد الحلاج توفي سنة ٣٠٩ ،واصبح للتصوف مدارس منظمه يتخرج منها المريدون بعد أن كان سلوكا فرديا في القرنين الأول والثاني (نشأة التصوف الاسلامي : ١١٤- ١١٥)

هذا فما أذكرها لـــــه .

وانتهى إليهما صلاح الدين (١) فأخذاه وأوصلاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأمراه بتقبيل يديه ورجليه ،ففعل ذلك ومسح على رأسه ودعـــا له بالنصر والتأييد وأوصاه بالضعفاء والمظلومين ،ونزلوا على المشرعة العظمى وأقاموا عليها ساعة زمانية ثم انصرفوا إلى المقام المحمود ،وأقبلنا نحن نطلـب الشريف النقيب إلى أن وجدناه واقفا مع جماعة من البوابين يسألهم عـــن بطليموس (٢) الحكيم هل يصح عنده أن الكواكب السبعة طالعة أم لا فلــما رآنا قطع الكلام والتفت إلينا فسلمنا عليه وقلنا له: نظام الدين عسى تتفضـل علينا وتمشي معنا ساعة تشهد لنا عند أمير المؤمنين بالبراء مما قذفنا به مــن النّصْب والانحراف عن أولاد فاطمة عليها السلام ،فقال لنا : والله في هذا الوقـت بنفسي وعليّ أن شهادتي ماتنفعكم عنده لأني رميت في مجلسه بالفلسفة والعمل بأحكام النجوم ،وقد غرّني ذلك عنده وَزَوَى وجهه عني ،وأنا من ذلك في خطر كبير.

==:=:=:=:=:=:=:=:=:-:=:=:=:=:=:=: :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:

(١) صلاح الدين الأيوبي بن يوسف توفي سنة ١١٩٣م مقاتل وبطل مسلم، ومؤسس الأسرة الأيوبية بمصر ،والخصم الأكبر للصليبيين ولد في تكريت من أصل كردي ،عاش عشر سنوات في دمشق في بلاط نور الدين بن سلطان السلاجقة حيث درس المذهب السني رافق عمه الأمير شيركوه في حملات ضد الفاطميين أسس الأسرة الايوبية سنة ١١٧١م ،وبدأ أعماله الحربية بفتح اليمن وفلسطين ،أصلى الصليبيين حربا صامتة حامية وهزمهم في معركة حطين الفاصلة ١١٨٧م، كان رجلا مقاتلا مثقفا يحب العلم ويشجع العلماء ،عمر المساجد وأصلح الري وبنى القلعة وبعض اسوار القاهرة . مات بدمشق ودفن بها (الموسوعة العربية الميسرة: ١١٢٨/٢) .

(٢) بطليموس ،كلوديوس بطليموس: عالم فلكي ،ورياضة ،وجغرافيا وفيزيقا ومؤرخ ،يوناني مصري . نشأ بالاسكندرية في الربع الثاني من القرن الثاني الميلادي ،اكتشف علم انتظام حركة القمر، له مكانة في تاريخ العلوم ناقدا ومفسرا له كتاب "المجسطي" يبحث في الفلك والرياضة (الموسوعة العربية الميسرة : ١/ ٣٨٠)

فبينا نحن كذلك ،وإذا بالأعور البغدادي قد جاء إلينا وقال: كيف رأيتم فساني بكم أُنحَسُكم أم لا؟ أنتم تحقروني وتطّرحونني وأنا منحوس كبير ثم أخذ يعتذر ويتنصّل مما جرى علينا ويقول: والله ماأردت بذلك القول إلا أن تُصفعوا بالدلاء والتواسيم كما صُفِعتُ أنا ،لأني علمت (أنكم) قد شَمِتُّم بي وكنتم بذلك مسرورين ،وأما اذا قدسلمتم من ذلك فأنا أدُلّكم على من يسقيكم الماء من هذا الحوض ولايخرجكم إلى شيء من هذا الصداع الطويل ، اتَّبِعوني أَهْدِكُم سَبِيلَ الرَّشَاد (١) ، فتمتنع أنت من ذلك وتقول: (الوافر):

إذاكان الغُرابُ دليل قومٍ فلايهدو بهم طرقَ الخرابِ

الموت بالعطش ولا أتّباع هذا الأعور الملعون ،فقلت لك: بالله اتركنا من خَنْفَسَتِك فليس هذا وقت الصَلَف (٢) ولاالأَنَفَة أما سمعت قول الشاعر: (البسيط)

لاتعجبّن لخير إن أتاك به فالكوكبُ النحسُ يسقى الأرضَ أحيانا

ومشينا معه مقدار أربعة فراسخ ،وإذا بجمع عظيم يحتوي على شيوخ وشباب وكهّال ،قدحفّ مجلسُهم بالسكينة والوقار ،وجلالةُ المُلك والرئاسة تلوحُ على

==:==:=

(١) إشارة إلى قوله تعالى ((وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد)) (سورة غافر ،الآية: ٣٨)

(٢) الصّلف: هنابمعنى الشدّة في الحق ،قياساعلى الأصلف ،وهوالصّلب من الأرض. (انظر اللسان: ٩/ ١٩٨).

وجوههم ،فسألنا عنهم ،فقيل لنا : هؤلاء السادةُ والقادةُ من بني عبد شمس (١) فدخل قسيمٌ الأعور حتى دخل بين عظيمهم ، فقال له : ياخال المؤمنين ياكاتبَ وحي رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن قوم من مُحبّيكم قد طُردنا عن الحوض من أجلكم ،ونحن هالكون من شدةّ العطش بسببكم ،فقال : ألك بيّنةٌ تشهد بما تقول ؟ قال : نعم جماعة من شيعتكم ومحبيكم الأكراد ، فقال : ابعث معي رجلا من أجلاّء وزرائك يساعدْني عليهم ،فبعث رجلا شاميا فتخلّلَ الناس ونادى بأعلى صوته : ياعبد الملك بن درباس (٢) قاضي قضاة مصر في أيام الملك صلاح الدين ، فلم يجبه أحد ،فوقع ابن بدر إلى الأرض مغشيا عليه من شدة الأوام (٣) ،فقعدنا

=:==

(١) بنوعبد شمس: هم بنوعبد شمس بن عبد مناف بنوأمية بن عبد شمس ،قال الناظم:

لعبد شمس عدة منهم الشتهر أمّية الأكبر سيد النضر

وهو أبو العشر فعيص العاص وآخران وهم الأعياص وأمهم بنت أبان بن كليب ابن ربيعة بن عامر الحسيب . (اكمال تحفة الألباب في شرح الأنساب لأحمد الشنقيطي : ٣/٢٩) .

(٢) عبد الملك بن درباس: قاضي الديار المصرية الامام الأوحد صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس بن فهير بن عبدوس الماراني الكردي الشافعي . مولده بأعمال الموصل في حدود سنة ٥١٦ تقريبا . رحل في طلب الفقه إلى حلب ودمشق ومصر . كان مشهورا بالصلاح والغزو، وطلب العلم ، يتبرك بآثاره للمرض. كان من جلة العلماء وفضلائهم . توفي في خامس شهر رجب سنة ٦٠٥ هـ (سير أعلام النبلاء للذهبي : ٢١/ ٤٧٤-٤٧٥) .

(٣) الأوام: العطش، وقيل : الحر ، وقيل : شدة العطش وأن يضج العطشان ،قال ابن بري . شاهده قول أبي محمد الفقعسي :

قد علمت أني مروّي هامها ومذهب الغليل من أوامها

(لسان العرب : ١٢/ ٣٨)

عند رأسه وسألنا : هل عندكم من قطرة ماء نبل بها حلقه ؟ فقال : لا والله لـو تقدمتم قليلا لما احتجتم إلى هذا كله ، فقلنا له : وكيف ذلك ؟ قال: لأن أم حبيبة (١) زوج النبي صلى الله عليه وسلم تبعث إلى أخيها معاوية كلّ يـوم خمس ثلجيات مُزمّلات ،كل ثلجيّة مثل جبل الثلج عشرين مرة فيها الماء الخاص من عين النسيم يدفعُ واحدة منها إلى عمرو بن العاص والأخرى إلى زياد بـن أبي سفيان والأخرى إلى سعيد بن العاص وذويه ويقسم الواحدة في آل سفيان ، وماكان بأسرع من أن حضر القاضي في جماعة من الأكراد ، فتقدّموا إلى معاويـة فسلّموا عليه ثم التفتوا إلى ابنه يزيد فقالوا : السلام عليك ياإمام العدل ،السلام عليك ياخليفة الله في الأرض ، السلام عليك يابن عم رسول الله ،السلام عليك يـا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ،نفعنا الله بطاعتك وأدخلنا في شفاعتـك ورفع درجتك في الجنة كما رفعها في الدنيا ،فردّ عليهم ردّا حسنا .

وقال القاضي صدرالدين : الحمدلله الذي جعل في شيعتي وأصحابي من يصلحُ ألا يكون قاضي قضاة المسلمين ،فقال له القاضي : كل ذلك ببركـة الفقيه عيسى ضياء الدين فقال له : أوصيك بأصحابك الأكرا د خيرا ،فانهـم أولى بحسن تدبـيرك من سائر الناس ،فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، مـا أحتاج فيهم وصية ،هذا وأنا قدوليت القضاء لجماعة منهم أعرفُهُم في بلادنـا

=:=

(١) أم حبيبة : هي رملة بنت أبي سفيان بن حرب الأموية ،أم المؤمنين ،أم حبيبة ،مشهورة بكنيتها ،ماتت سنة اثنتين أوأربع ،وقيل تسع وأربعين ،وقيل وخمسين .

(تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني : ٢/ ٥٩٨)

لا يعيشون إلا من لُصوصة النغر في الليل وسرقة الحمير بالنهار ، ولم أفعـــل ذلك إلا لأني التزمت باستقضاء قوم أنحس منهم بكثير ،فلما رأيت ذلك رجعت إلى قولهم في المثل : اذا كان حولا محولا ربة البيت أولى ،وأنا استغفرالله من ذلك وأتوب إليه ، فقال : تعرف هذا ؟ وأشار إلى أبي قسيم الأعور ،فقال : نعم يا أمير المؤمنين أعرفه حوسا (١) فقال : وما الحوس ؟ فقال : الذي يُعمـــل منه المناحيس ،قال : فانه كان يدعوا إلى النار ويترضّ عنا ،فقال : هو يفعـــل ذلك مكسبا ومعيشة ،فلو أن اليهود جعلوا له جعلا على سبّ النبي صلى الله عليه وسلم لبادر إليه ومايصدُّه عنه لاتقىً ولادين ،فيأمر به فيشرَّد عن تلك الرحاب.

ثم قال يزيدُ (٢) للقاضي : من هؤلاء ؟ فقال : أما هذا فهو رجـــل عليمي ،وهو فخذ من كلب بن وبرة (٣) أخوال أمير المؤمنين (٤) ،وأما هـــذا فهو مغربي حضرت معه دعوة فيها جماعة من الأعيان وجرى حديثك فترضّ عنــك ،

=:=

(١) حوسا : انتشار الغارة والقتل والتحرك في ذلك ،والضرب في الحرب وتعني أيضا الطلب والدوس ،وحوسا : الرجل الجريء لا يرده شيء

(لسان العرب : ٦/ ٦٠) دار صادر بيروت .

(٢) أي يزيد بن معاويه بن أبي سفيان .

(٣) كلب بن وبرة بن تغلب : قبائل ضخمة ،وله من الأولاد ثور ،وكلد وأبوحباحب ،ومن بطونها : بنوكنانة بن بكر بن عوف بن زيد اللات (جمهرة أنساب العرب لابن حزم: ١/ ٢/ ٤٥٥- ٤٦٠)

(٤) القبيلة التي منها أم يزيد واسمها ميسون بنت بحدل .

وسأل الله أن يحشره معك ، فقال: وجبت ،ثم استدعى عبيد الله بن زياد (١) ، وقال: خذ معك ألف رجل من السكاسك والسكون ، واقصد المشرعة التي عليهـا سهل بن حنيف (٢) في جماعة طي وهمذان ،فاضربهم بالسيف حتى تزيلهم عنها وأورد هؤلاء الرجالَ حتى ينالوا بغيتهم من الماء وينصرفوا ريّانين ،وإن أتاك الأشترُ النخعي (٣) في نخعه مددا للطالبين ،فانزل على المشرعة واثبتْ لـه حتى تتصل بك الجيوش ،فقال له معاوية : لاتبعث ابن زياد فأنه ممن يُهيجُ القومَ ولكن قدّم ذا الكلاع الحِميَري (٤) فربما انتفعوا هناك باليمانية وكسرت عاديـة الشرّ وحِدَّةُ القتال .

=:=

(١) عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان من كبار قواد الأمويين وولاتهم ،ولي البصرة لمعاوية وليزيد ، وعلى يده كان مقتل الحسين رضي الله عنه بكربلاء مات مقتولا بمعركة الخازر بينه وبين جيش المختار بن أبي عبيد الثقفي ،وكان على رأسه ابراهيم بن الأشتر النخعي ،ترجمته في (أنساب الأشراف ٤/ ١ ٢٧٣- ٤١١)

(٢) سهل بن حنيف : من صحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ،اشترك في حرب صفين (الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ٥٨)

(٣) الأشتر النخعي : هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي ،المعروف بالأشتر ،أدرك الجاهلية ،وأول ماعرف عنه انه حضر خطبة عمر في الجابية ،وسكن الكوفة وشهد اليرموك وذهبت عينه فيها ولاه علي مصر فقصدها فمات في الطريق فقال علي : " رحم الله مالكا فلقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم" توفي سنة ٣٧ هـ .
(الاعلام: ٥/ ٢٥٩)

(٤) ذو الكلاع الحميرى : من صحابة معاوية بن أبى سفيان ،

اشترك في حرب صفين ، (حرب صفين :نصر بن مزاحم)

فما استتم القول حتى استَلأَمَ(١) القوم وتقدّموا بين أيدينا يرفُلــون في الحديد لايَلوو ن على شئ ،فقلت له : كانت وقعة صِفِّين في الدنيــا على دم عثمان ،ووقعة صفين في الآخرة حتى نشربَ نحن سمَّ الموت ، ويسمع النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فيخرجنا من الشفاعة ،فيقول النبي صلى اللــه عليه وسلم :أجل من هذا؟ وبعد أن نَروى من الماء مانبالي ، ورآنا أبوالقاســم فعدا إلينا وقال : خذوني معكم وإلا أنحسُكم وهيجت عليكم قبائل العراق ،فقلت له : خذه معنا أي شئ علينا منه فقلت لي : والله لاصَحِبتُه أبدا في طريقه ، ولا تركتُه يذوق منه قطرة أبدا ، فصاح علينا : إلى أين يابقر الشام ياشيعة الطاغوت ياعبيد الطلقاء ،هذا لاتزع البطين (٢) بين أيديكم ،إلى أين تذهبون ؟ ،وغاب عنا وصمدنا صمد الساميين فلم يشعر بنا الا ونحن في وسط الماء سابحون ،فطاروا إلى عُدَدِهم وجاءوا إلينا مرعوبين ،فلما أبصروا بني أبيهم في كتيبة لا ترام أمسكوا وتراطنوا بالحميرية ساعة ثم اختلطوا فلم يقع بينهم قتال .

وأقبلنا نحن نشربُ ونستريحُ وتقولُ لي أنتَ : أين أنت من عين مــاء الديباج ،كنت اشتهي الساعة قطعة صابون رَقّي (٣) ،وقليل تراب مَراغي (٤) أغسل بها لحيتي فإنها قداتّسخت من الغبار والعَرَق ،فقلت له : ما تحتاج إلى شئ من هذا الساعة تستريح منها ، فقلت لي : وكيف ذلك فقلت له : لاشك

=:==

(١) استلأم القوم: أي لبس كل واحد لأمته وهي الدرع. (القاموس المحيط : ١٤٩٢)

(٢) كذا في الأصل ، والبطين تصغير بطن ، وانما صغّر فرقا بينه وبين بطن الحوت .

(٣) الرّقي : منسوب إلى الرّقة وهي مدينة مشهورة على نهر الفرات (معجم البلدان : ٣/ ٥٨)

(٤) المراغي : نسبة إلى المَراغة من أشهر بلاد أذربيجان (معجم البلدان : ٥/ ٩٢)

إن كنتَ من أهلِ السعادة لاتدخل الجنة الاّ أجردَ أمرد ، وإن كنت من أهل النار فالزبانية يحملون منها الفتائل توقدُ ليلة الميلاد ، فتيلة على باب جَهَنَّم .

فبينا نحن في أطيبِ عَيْش وأهنأِه واذا بضجة عظيمة قدأقبلت وأصحابنا يتطايرون لايلوي أحد على أحد ،فطارت عقولنا وبقينا حائرين لاندري إلى أين نروح ،وقلنا : ياقوم ماهذا ؟ فقالوا هذا عليّ عليه السلام قدأخذ الطرقات على الشاميين وجاءَ نا سَرَعان الخيل فيها محمد بن الحنفيه (١) يزأر في أوائلها مثلَ الأسد الهصور ، فلما انتهى إلينا صاح بنا صيحة عظيمة هائلة وصمّمَ إليّ بالسّنان ليطعنني فوثبت بين يديه فوقعت من سريرالنوم ، فانتبهت خائفا مذعورا ، وَلذةُ ذلك الماء في فمي ، وطنين الصيحة في أذني ورعب الوقعة في قلبي إلى يوم ينفخ في الصور ،ولي حينئذٍ عذاب شديد وأصلى سعيرا وأدعو ثبورا ، وصلى الله على سيدنا محمدنبيه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

وله تقليد لأبي الثناء محمود بن يحي بن أفلح اللخمي المعروف بأنكو: من قاضي الفاسقين : الحمدلله الذي تجاوز عن كل غي ،ووعد بالمغفرة لكل حي ،فقال تعالى : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (٢) ، أحمده حمد الثرى للمطر والمحب

=:=

(١) هومحمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية ،نسبة الى والدته خولة من بني حنيفة ، وهوالذي تدعيه الكيسانية ،توفي سنة ٨١ ،ترجمته في طبقات ابن سعد ٥ : ٦٦) و(وفيات الأعيان : ٤/١٦٩)

(٢) اشارة إلى قوله تعالى ((واكتب لنافي هذه الدنياحسنة وفي الآخرة إناهُدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوة والذين هم بأياتنا يؤمنون))

سورة الأعراف : الآية ١٥٦

على بلوغ الوطر (١)، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توصل إلى الولدان وتجمعني في الجنة مع المردان، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الوفي بذمته، والشفيع للمذنبين من أمته صلى الله عليه وعلى الأئمة الطاهرين من عترته.

هذا ما عهد قاضي قضاة الفاسقين وناصر دين العاشقين وإمام العصاة والمنافقين، جمال البدود (٢) والدّساكر (٣)، ورئيس الحانات والمواخر، فخر العلوق والمساخر، ذو القرنين الحاضر، مسخرة غلام نقاط أمير المؤمنين أبقاه الله للقيادة يتلو صحفها ويصفي تحفها، وللّياطة يفضحُ عُلوقها ويفتح مغلوقَها، وللبدود يغذي قحابَها ويحمي رِحابَها، وهو يومئذ متولي قضاء الفسق في الاسلام، نافذ القول في الأغشام، ماضي الحكم في المغرب والعراق والشام إليك أيها القاضي الأجم، فخر القيادة وتاجها، قطب المعاصي وسراجها، عز العلوق وعمادها، ركن اللّياطة وزنادها، جمال الفَسَقة وعينها، شرف الزُّناة (٤) وزينها، أبو الثناء محمود بن أفلح اللخمي أدام الله لك السرور، ومتعك بالغفلة والغرور، ولا زالت همّتُك مصروفةً إلى المحاب، وأكنافك مصطبة لخفاف القحاب، ومنزلُك معمورا بالعلوق وعارضك مُصَفَّرا بالخلوق، تقضي بالحقوق وتنهى عن العقوق أبدا إلى يوم يُنْفَخُ في البوق.

=:==

(١) الوطر: الحاجة أو حاجة لك فيها همّ وعناية، فإذ ابلغتها، فقد قضيت وطرك وجمعها: أوطار. (القاموس المحيط: ٦٣٤)

(٢) البدود ومفردها بد و بد: بيت فيه أصنام وتصاوير، وهو معرب من بت بالفارسية. (لسان العرب: ٣/ ٨٢).

(٣) الدساكر، جمع دسكرة: بيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي. (القاموس المحيط: ٥٠١)

(٤) في الأصل: الدباة، ولعل الصواب ما أثبت، وهو يوافق ما في السياق.

ولما انتهى إلينا أيها القاضي الأجم أطال الله قرونك ، وأدام في الخمر رهونك ، ماأنت عليه من سوء الخلائق ودميم الطرائق وانهماكك في المعاصي، وصونك بالمخاصي وتنيصك بالأداني والأقاصي مثل الذيب ، استخسرت الله تعالى وقدمتك على القضايا السرية بثغر الاسكندرية (١) ، فاحذر من الاضطهاد وشمر عن ساق الاجتهاد ، ولا تترك شيئا أمورالفسق مطلقا ولا بابا من أبواب المعاصي مغلقا ، فأول ماأذكرك أيها الأذلّ التقوى التي دخلت فيها بلاشيء استعجلتَ بالعذاب في الحياة الدنيا وحطمك وأهرمك وقطع لذاتك وحرمك ، فجانبْه مجانبةَ الأسدِ الكاسر، واجعلهُ بمنزلة العدو الباسر (٢) ، لاتُلمّ به إلا من بعيد ولا تذكره إلا في يوم عيد ، وحسّن ظنّك بالله العظيم وثق بعفو الغفور الرحيم ، فإنه لايُتوصل لجنّتِهِ الابمِنّتِهِ ولايُتخلص من عذابه إلا برحمته ، فاذا أرادالله أمرا يسّره وإذا كَرِهَ شيئا عسّره ، فصل من المعاصي ماقطعت واحمل على شفاعة نبيك مااستطعت ، فإنك لاتقوى على حمل التقوى وأخّر التوبة إلى وقت النهبة : (الوافر)

وكثّر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدومُ على كريم (٣)

وآمرك في أول الأمر أن تنظر في أبواب الخمر، فمن صرفها فصرفه في

=:=

(١) الاسكندرية: مدينة بمصربناها الاسكندربن فيلفوس الرومي ، وزعم قوم إلى أنها إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وفيها المنارة المشهورة وقيل ان أول من عمرها امرأة يقال لها دلوكة بنت ريا . (معجم البلدان : ١/ ١٨٢- ١٨٨)

(٢) الباسر: القاهر، الكاره . (القاموس المحيط : ٤٤٦)

(٣) هذ البيت الشائع يتداوله كثيرمن الجهلة ، وهويخالف قول الله تعالى ((ان عذاب ربك كان محذورا)) .

اهمالك ومن قتلها فاقتله بنعالك ،ومن كاس (١) في جرياله (٢) ونقص من مكياله فاجعل خراك في سباله وحمّل الكلب على عياله ،واحكم في مجالس الشراب بهواك ،ولا تتكل فيه على سواك ،ولا تنادم المعربدين والأتغال ،ولا تسامح في نقل من الأثقال ،وتلق علاج السكران بكمله ،وافده بأبيك وأمك ،ولا تؤاخذ نديمك بتجافيه ولا تعوّلْ في السُكر على تصافيه ، واطو بساط الخمر بمافيه ، وآمُرُك أن تنظرَ في أمر الولدان والصغار من المردان فمن بلغك أنه مقصّرُ ،أو أعمى لا يُبصِرُ فخذوه بالملاطفة ،واحذر عليه من المخاطفة ،وَصبّغه بالخِنصر (٣) وَدرّجْهُ إلى البِنصر (٤) ،فإذا ارتقي إلى الترويس وانتهى إلى درجة التنكيس ،فألصقه بالحَص ،وأدخِل عليه إلى الخُص ،وآمُرك أن تجمعَ بين الصغار والكواسر (٥) ، وأن تطرقَهم إلى دخول القماسر ،وازجرهم عن الجدال ،واضربهم على الهدال ، وعرّفهم أنهم يرتقون من الوجارة (٦) إلى التجارة وأنّ في البغاية ،نيل الغاية

=:=

(١) كاس ،الكوْس في البيع: اتّضاع الثمن ،والوكس فيه . / القاموس المحيط: ٧٣٦)

(٢) جريال ،بالكسر: صبغ أحمر ،وحمرة الذهب ،وسلافة العصفر وما خلص من لون أحمر وغيره ولخمر (القاموس المحيط: ١٢٦١)

(٣) الخِنصر: الإصبع الصغرى أو الوسطى ،مؤنث. (القاموس المحيط: ٤٩٧)

(٤) البنصر: الاصبع بين الوسط والخنصر ،مؤنثة . (القاموس المحيط : ٤٥٢)

(٥) الكواسر ،ومفرده كاسر: العقاب ،ويقال: باز وعقاب كاسر ،وانشد كأنها كاسر في الجو فتخا* والعقاب الكاسر ،هي التي تكسر جناحيها وتضمها إذ أرادت السقوط (لسان العرب: ٥/ ١٤١)

(٦) الوجارة: الطعن والاقتتال . (القاموس المحيط : ٦٣٢)

لأنها داء الملوك وعلّة الكُتّاب (١) ،وآمُرك ان تنظرَ في الأجاريش والعلوق النكاريش فمن نتف شعره أو رفع على العشاق شعره أو تجاوز حدّه ،أو حَلَق بالزجاجة خدّه، فحذّرْ منه العاشقين ،واسحقه في مَلأٍ من الفاسقين ،واكتبه في ديوان المنافقين وآمُرك أن تنظر في أعداء الدين من فقهاء القوارير (٢) ، فمن بلغك أنه شرح درهما من عاشق ،أو تلهّى برجل فاسق أو شهد له بالزور أو دلاّه بالغرور فاصفعْ قفاهُ ،وأعطِهِ من التنكيل أوْفاه ،وآمُرك أن تنظرَ في باب الصفاع وتذكرَ مافيه من الانتفاع ، وأنه يحلّلُ الاخلاط ويسهل الضراط ،فتقدّمْ إلى أصحابك باستعماله ومُر أتباعك باحتماله ،وانظر في مشكلات نوازله وترتيب منازله ،واحكم في التخيير بالتجبير ،والتعمير بالغرور ولا تُفتي في الملحمة بالمبطنة ،ولا في المكشوفة بالمبطنة ،ولا تأمر باستبقاء العقراوية إلا في مكانها ولا في الهِفَاقية إلا في أعكانها (٣) وبعد هذا فإني من الجهل بفقه هذه المسألة ،وأنت من ذوي الألباب بفقه هذا الباب ،فسهُ

==:

(١) هذه وغيرها من مصطلحات أهل الفسق والفجور ،وكم في كلام هذا من غثاثة ورقاعة ،وكان من الأفضل أن يترفع الأديب والكاتب المسلم عن قول مثل هذه الكلمات لأنها تقلل من هيبته وتؤثر على دينه وتغلف قلبه بغشاوة الظلام .

(٢) القوارير: قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأنجشة وهو يحدو بالنساء: رفقا بالقوارير أراد ، صلى الله عليه وسلم ، بالقوارير النساء ، شبههن بالقوارير لضعف عزائمهن وقلة دوامهن على العهد ، والقوارير من الزجاج يسرع إليها الكسر ولا تقبل الجبر ، وكان أنجشة يحدو بهن وركابهن ويرتجز بنسيب الشعر والرجز وراءهن ،فلم يؤمن أن يصيبهن ما يسمعنه من رقيق الشعر فيهن أو يقع في قلوبهن حداؤه ، فأمر أنجشة بالكف عن نشيده حذار صبوتهن إلى غير الجميل . (لسان العرب : ٥/٨٧) .

(٣) أعكان ، جمع عكنه ، وهي ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا .

(القاموس المحيط : ١٥٦٩)

تحملك وفهمك ، وانظر فيه بفاضل علمك وآمُرك أن تنظرَ في أمر السُاحقات والقحاب المتعاشقات ، فإنهنَّ اذا تُركن لذلك اشتغل البعض بالبعض واستغنى بالناقلة عن الغرض ، فيكون ذلك سبب الفساد وداعية الكساد ، فارد عنهم بالتكميل واحذر من التواني والتشكيل وحسبنا الله ونعم الوكيل .

نسخة خط القاضي بين سطور التقليد

قلّدتك أيها القاضي البليد جميع ماتضمنه هذا التقليد استجلابا لأُنسك وتشريفا لك على أبناء جنسك ، عندما بَلَغَنا أن الملك الناصر أيده الله صفعك ولم يلتفت إلى الخطوط التي معك ، فضاقت لذلك صدورُنا ، وأظلمت له بدورُنا ، اذكنت من ثِقاتِنا ، ومن كبار طبقاتنا ، فَجَبَرْنا ماانكسر من قلبك وأمَّنَّا ماارتاع من سِرْبِك ، فتلقَّ هذه الموهبة بالقبول وقابلْها بالسُكْرّ الصافي الدبول (١) ، وأشرِف بها على قومك وولدك وافخر بها على أبناء بلدك وطالع الديوان الفاسقّ بمايشكل عليك ، ويشتبه من النوازل بين يديك ، والسلام .

وله كتاب كتبه على لسان قاضي الفاسقين بدمشق حين رحل عنها قاضي الفاسقين إلى ديارمصر:

فخبّره بماصارت إليه الأحوال بعد توجُّه المملوك النائب عن مجلس الفسق الوضيع بالشام أوله كل من في الوجود نحس إلا واحداً أطال الله بقاء قرون مولاي القاضي الأجمّ قاضي الفاسقين المعرفانيّ الطرب ، إمام اللاّطة

=:=

(١) الدبول : جمعه بالأصابع ، والدبول : اصلاح الأرض لتجود ، وجداول دبول أي تنقى وتصلح . (القاموس المحيط : ١٢٨٩)

وأدام له العزّ والسرور ومتّعه بالغفلة والغرور ولا زالت يمينه مصلبة لفصوص القَراح وفَلَكا لشموس الأقداح ،منزله مأهولا بالوِلدان ،معمورا بالقحاب والمردان ، ونغانغه بمجون القحاب معمرّة ،وأحداقه بلكامهم مخضرّة، وخيول اللهو إلى فنائه متسرّعة ،وصحائف النفع من ربوع أكتافه مقلعة ،ولا جعل لسلطان الدرّة على قفاه سبيلا ،ولطوارق القلع إلى رأسه دليلا .

كتبتُ إليه بسرّالله في معاصيه ،وبارَك في مخاصيه أشكو اليه ما عندي من الارتياح إلى طلعته ورقاعته وصلعته ،والحنين الى قامته وهامته ،والتطلع الى قاعته ،وشوقي إليه شوق اللائط إلى المباعر ،والمنقطع إلى لحوق الأباعر ،وحنيني اليه كحنين الجُعل (١) إلى الروث ،والصّبيّ المغصوب على نفسه من الغَوْث ،وارتياحي إليه كارتياح رأسه إلى النّعال ،والأرملة إلى لذة التّعالِ ،وأُقْسِمُ له بالعصر اذا استوى ،والحقف (٢) وما احتوى ،والصُّدْغ إذا التوى ،لوحَطَّ بعضُ شوقي إليه على وجوه الحسان لكَفَها وعلى رُبى الأكفال لنَسَفَها ،فأسأل اللهَ الذي قضى بالبين أن يؤلّفنا بالبين بين ،و الذي قضى بالصدود أن يجمعنا في الهدود بمنه وكرمه .

وأما غير ذلك فلا تسأل عما أقاسيه من جور العلوق ، وانتقام المشوق ، وبعد مابين القهوة والحلوق ، وماقدابتلينا به من القضاة المخالفين والأئمة المخسفين ،من إقامة الحدود ،وتعطيل الهدود (٣) ،وتحريم الزّمْر ،وتعطيل

=:=

(١) الجُعل : بضم الجيم وفتح العين : دُويبة تكون في القذر ، وقد مرّشرحها صفحة ٥٥

(٢) الحقف : مرحال مستطيلة بناحية الشحر، وأصل الجبل . (القاموس المحيط : ١٠٣٤)

(٣) الهدود : مرّذكرها صفحه ١٧٧

أبواب الخمر ،وجلدهم السكران ولوأنه الحكيم ابنُ مطران ،وأخذهم العهودَ على النصارى واليهود ،حتى صارت الخمر أقلّ من أخلاط الجسد ، وأعز من جبهة الأسد ،لاتُبصَرُ في الليالي ، إلاكطيف الخيال ،ولا في النهار إلاّ عند إراقتهـا في الأنهار ،ونحن وسط الشدة ،إلى أن تنقضي هذه المدة ،وعند التناهـي يكون الفَرَج ،وكلما تَزَايد انكارهم ،وتفكرت التقريرَ أفكارُهم ذكرت أعزّك الله تعصُّبك ووقارك ،وماكنت تردعنا بقضائك وقيامك على السلطان ،وتعصُّبك لحزب الشيطان فأُنشِدُ ممثلا في ذلك : (الكامل)

أُنبئتُ أنّ النارَ بعدَكَ أُوقِدَتْ ... وَاسْتَبَّ بعدَكَ يا كُليبُ المجلسُ
وتكلّموا في أمر كُلِّ عظيمـةٍ ... لوكنتَ شاهدَهم بها لم يَنبِسُوا (١)

وأما العلوقُ ردّ الله كيدَهُم في نحورهم ومكّن رماحَنا من ظهورهـم ، فإنهم لما علموا سَفَرَك ،وأمنوا من بوادر ظَفَرِك ،استبدّوا بنفوسهم ،وركبوا في الجور على رؤوسهم ،يعذبون العشاقَ ويهجرون المشتاقَ ،ويهلكونهم بالتشريخ ، ويصقلون أقفيتَهم بالتمريخ ،ويتعامَون على العاشق عند الإدخال ويُجيرون أيورا كالأضغال ،ويُباكون مع الغير بالفلوس ،ويبخلون على الهائم بالجلوس ،وأقسِمُ ياسيدي بمداسك وراسك ،وحقّ النّعل إذا طَنّ ،والدّنّ (٢) إذا رنّ ،لوكنتُ كالأمير ،لأشهَرْتُهم على الحمير ،وحرّمتُ عليهم نتفَ الذقون ، وكذلك السّيقان والبُطون ،حتى يريحنا الشعرُ من الصُّداع ،ويبقى أحدهم على أكلة الوداع ،

=:==:=

(١) القائل : مهلهل التغلبي وكان قالهابعد أن قتل أخوه كليب، قتله جسّاس بن مرّة من بني بكرفهاجت على أثرذلك حرب البسوس ،وانظرالحماسة ١١٥١ ٣٨ .

(٢) الدّن : الراقود العظيم ،له عسعس لا يقعد إلاّ أن يحفرله .(القاموس المحيط : ١٥٤٥)

وأَعْجَبُ من هذا ياسيدى ماحدثني به بعض من سُمّي إلى هوى أبي بكر الخيمي أن شعره اليوم وقزعته محلوقة كخده لماكانت له دبوقة (١) ،وهذا من النعم التي يجب أن تكفر من الذنوب التي لا يجوز أن تُغفَر ،فلو نتفتَ أصلحك الله سِبالَك ومزقتَ من الغيظ سربالَك (٢) لما وصلت إلى بغيتك ،ولوعملت الخرا في لحيتك ،

وأشد من ذلك ياسيدي كون النساء يتعاشقن ،والقحاب يتساحقن ،وقد شَقّوا على العصا ، فتركوني أمَضّ(٣) من الحصى ،وأنا بينهم مثل الخُصى ،فلاجَرَم أن الله ابتلانا بالخسوف ،ورمانا بالكسوف ، ورّعنا بالزلازل ،وأخرَجنا من المنازل ،وإن كنت راغبا في ولايتك فاطلع علينا برايتك من قبل أن يسلوَ العاشقون ويتوبَ إلى الله الفاسقون ، فيفسد الهندام وتكسد أسواق المعاصي بالشام ،ومتى عزمت على الإياب ،فأكثِرْ من النفقة والثياب لئلا تندمَ على الرجوع ،وتموتَ بالبرد والجوع ، ولا تطمع في التكسُّب بالشعر ،فقد راح ذلك السعر ،ولو قلّت اليوم الحماسة ، مما حصل لك بالكناسة ولو أنك امْرؤ القيس (٤) ،صفعوك بجلد التَّيس ،ولو أنك

==:=

(١) دبوقة: الشعر المضفور (القاموس المحيط: ١١٣٨)

(٢) سربال بالكسر: القميص ،أو الدرع ،أوكل مالبس (القاموس المحيط: ١٣١١) .

(٣) أمضّ: أشد ألماً. (القاموس المحيط: ٨٤٣)

(٤) امرؤ القيس: من قبيلة كنده ،ومن بيت السيادة فيها ،أبوه حجر قتلته قبيلة بني أسد ،يكنّى بأبي وهب وأبي زيد ،ويلقب بذي القروح والملك الضليل وأشهر ألقابه امرؤ القيس، أمه فاطمة بنت ربيعة ،ولد في اوائل القرن السادس الميلادى ،هو الذى نهج للشعراء الجاهليين في بكاء الديار والغزل القصصي ووصف الليل والخيل والصيد ،والحق انه يعد أبا للشعر الجاهلي بل للشعر العربي جميعه فقد استوى عنده في صورة رائعة ،سواء من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها ،أو من حيث قدرته على الوصف والتشبيه . انظر (الاغانى ٩ / ٧٧) ف و(الاشتقاق (طبعه جوتنجن ٢ / ٢١٨) ،و(الشعر والشعراء لابن قتيبة طبعة دار المعار

ابن منير ،لحملوا على عيالك بالحمير ،لأن الجود قد استقل ،والنّدى قد انتقل وقد وصل إلى قليوب (١) ، طالبا بني أيوب ،ونحن اليوم كما قال الوهراني :
(الكامل)

أمستْ بنوشا دي (٢) بمصرَ وأهلها ... فبكتْ دمشقُ عليهم والشـام
رَحَلَ النّدى والجودُ يوم رحيلهم ... وتخلّف الحِرْمانُ والإعـدام
كانوا لنا كالوالدَيْنِ تعطُّفـا ... فاليومَ نحن لبُعدهم أيتامُ

وأما ما يزيّل به ممن ساهم ابن بسّام والفتح بن خاقان (٣) في ذكره وقاسم يمين الفتح في شكره ،مع من تفرّد به ممن وقع في قسمه ،وقرع المسامعَ باسمه من أكْبَرَ في الذخيرة الاعلاقَ من جواهره ،وعصر الأوراق على أزاهره ،مقتصرين على المشاهير والمختار لهم .

==:

(١) قليوب: بلدة تقع إلى الشمال من القاهرة بقليل ،وهي الآن مركز لمحافظة تعرف بالقلوبية .
(حرف القاف من الفهرس) .

(٢) في الأصل : بنوشا دي ،وهو خطأ ، والصواب ما أثبت. وهم آل الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ،وهم من الاكراد . (الكامل في التاريخ : ابن الأثير)

(٣) يعود المؤلف ابن فضل الله العمري إلى اتمام نقوله عن كتابي الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني وقلائد العقيان للفتح بن خاقان بعد انقطاع استغرقته ترجمة الوهراني وقد أكثر المؤلف من النقل عنه ،وكان يجزئه الشيء اليسير ،وأظنه فعل ذلك للترويح عن النفس ولكي يعطي صورة أخرى عن المجتمع غير الصوره التي عرفها الناس ،فالمجتمع فيه الأخيار وفيه الأشرار ، ولا يخلو مجتمع من هذين الصنفين . والله أعلـم .

أبو

حفص بن برد

ومنهم : الوزير الكاتب أبو حفص بن برد (١) : بردُ شيخة وكهولٍ ومُرد ، وناسجُ كلّ حَبِرَةٍ تُنسبُ إلى بُرد ، لم يزل باجراء الكلام رائضَ مُسَوَّمَةٍ جُرْد ، وخائضَ معاركِهِ كُمْتٍ وجُرْد ، فجاءت جياده سابقةً تمسح وجوهها وأعطافها ، وتتبارى بجدورها ونطاقها ، فورد جِماما ، وسقى الثريا كأسا والبدرَ جاما ، وكان اذا اقتدار على البيان ، وسحرٍ فيه يُخيّل للعيان ، بلطائف تستلين الحديد ، وتُبينُ قَدْرَ عبد الحميد ، وآداب لو غامَزت لكان لحاظا مِراضاً ، أو بارزت لانْبَرَتْ سهاما وأغراضا .

قال ابن بسّام : كان في ذلك الأوان واسطةَ السِّلك ، وقُطْبَ رحى المُلك ، وقلّدَ ديوانَ الإنشاء بعد ابن الجَزيري (٢) ، ثم كتب عن المستعين وغيره من أمراء الفتنة ، فأَسْمَعَ الصُّمَّ بيانا ، واستنزلَ العُصْم (٣) إبداعا وإحسانا ، وكانت وكانت وفاته بسَرَقُسْطَة (٤) سَنَةَ ثمانَ عشرةَ وأربعِ مائة ، وقد نَيَّفَ على الثّمانين .

=====:=

(١) هو أبو حفص أحمد بن برد الأكبر ، والأخبار عنه قليلة ، وله ترجمة موجزة في الجذوة : ١١١ والبغية رقم : ٣٨٧ ، والصلة : ٢٤ ، وذكر في البيان المغرب لصلته بالكتابة عن عبد الملك المظفر بن المنصور ثم عن غيره حتى عهد يحى بن علي بن حمود .

(٢) هو عبد الملك بن ادريس الجزيري (توفي سنة ٣٩٤) كان كاتبا في دولة المنصور بن أبي عامر ثم حبس في احدى القلاع الاندلسية ، وله رسائل وأشعار كثيرة . انظر (الجذوة) و(المطمح : ١٣) و(اعتاب الكتاب : ١٩٣) و(اليتيمة : ٢/ ١٠٢) .

(٣) العصم : الغرسان ، والأعصم : أحمر الرجلين تفسير اللحديث لا يدخل الجنة من النساء الا قدر هذا الغراب في هؤلاء الغربان ، وكان قد رأى غرابا أعصم : أحمر المنقار والرجلين .
(اللسان : ١٢/ ٤٠٦، ٤٠٧)

(٤) سرقسطة : بلدة مشهورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال تطيلة ، ذات فواكه عذبة ولها فضل على سائر فواكه الأندلس ، مبنية على نهر كبير ، منبعث من جبال القلاع ، انفردت بصناعة السمور وهي الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية صارت بأيدى الافرنج منذ سنة ٥١٠ .
(معجم البلدان لياقوت الحموي : ٣/ ٢١٢-٢١٣)

ومن نثره قوله :

ولا أحسب الذي غرّهم بنا وجرّأهم علينا إلاّ ماوهب الله لنا مِنَ الحِلْم مع المقْدرة والكَظْم عند الحفيظة ، فكم من غَصَصٍ في شهيِّ الغِذاء (١) ، ومن شَرَقٍ في نَمير الماء (٢) .

ومنه قوله :

إن الله تعالى قسم لأهل بيتنا بني أميّة من السلطان الموْصول بخلافة النّبُوّة ماحازه لهم من بين سائر قريش ، وسراة رجالها وافرة وبيوت شرفها عامرة وكان أوّل من أجمع عليه خيار الصحابة بالشورى والاختيار عثمان بن عفّانَ (٣) أميرُ المؤمنين وصهر نبيّه مرتين ، فلم يُنْكِرْ فضْلَه هاشميٌّ ولا دافعَ إمامَتَه قرشيٌّ ، ولا نازَعه الخِلافةَ عربيٌّ ولاعجميٌّ ، ثمّ غَلَبَ الشّقاءُ على أقوام فنالوا منه ماانفَتَح عليه باب الفتنة إلى يوم القيامة ، فيالها مصيبة صَدَعَتْ شمْلَ المُسلمين ، وأوْهَتْ قوى الدين ، وافتَرقَ أهلُ الإسلام بعده فِرْقَتَيْن ، ثم لم تجْتمعا إلا على رجل منّا ولم يجدوا غَناءً عنا ، وقدآن أن تثوبَ الحلومُ فتعودَ السيوفُ في أغمادِها والنّبالُ في كنائِنها ، ونحن نعاهدُ الله أن لانُؤاخِذَ أحداً بذنب ، ولانطوي له على

=:=

(١) في الأصل : وكم من عصيص في تنهي الغذاء ، والتصويب من الذخيرة .

(٢) انظر الذخيرة لابن بسّام : ١/١/١٠٦ ، ونمير الماء : بحر

(٣) عثمان بن عفان : الخليفة الثالث . يلقب بذي النورين لأنه تزوج من اثنتين من بنات الرسول صلى الله عليه وسلم . تزوج أولا رقية ، فتوفيت خلال غزوة بدر ، وتزوج بعدها من أختها أم كلثوم وهو أموي من فرع أبي العاص كان من السابقين الى الاسلام ، وهاجر هجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة . وهو من الستة الذين توفي الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو عنهم راض ، وكان في سعة من العيش ، أنفق ماله في سبيل الله ، قتل سنة ٦٥٥م

(الموسوعة العربية الميسرة : ٢/١١٨٧ - ١١٨٨) .

إحنَةٍ (١) ،بل نزيدُ كم في العطاء وتترككم بمواضِعِكم التي ارتضيتموها تدور عليكم جباياتها (٢).

ومنه قوله:

ومتى بَلَغَكُم عن عَبْدٍ ثَرَّبَ (٣) على مولاه فأفلح ،أو سمعتم بجُنْد شَغبٍ على مُدبِّرِهِ فأنْجَح ،والحقُّ لا يضرُّه قِلّةُ أهلِه ،والباطلُ لا ينفَعُه كثرةُ جمْعِه فإنّ العاقبةَ للمتّقين وحزب اللهِ همُ الغالِبون ،وقد رأيتم نتيجةَ آراءِ السّفهاء، وسوءَ عاقبة من تعرّض إلى البلاء ،والله تعالى ودينه وخلافته في غنىً عمّن عَنَدَ عليه وحادّه، وألحَدَ في الإسلام (عنه) وشاقّه ،وشقّ عصا الأمّة ،واستخفّ بحقوق الأئمة ،ولو لا أن أمير المؤمنين يعلم أنّ مَلأَكم لم يجتمع على هذا الكتاب، ويوقنُ أن أهل الألسنكم لم يرضوا بهذا الخطاب ،لكان لكم في ذلك نظرٌ يُقيم الأَوَد (٤) ويَعْدِلُ المَيْل ،ومع أن الكَظْم من أخلاقه ،والحِلْم مما ضَرَبَ في كريم أعراقه ،ولو كُشِفَ لكم الغطاء ،واجُتلِيَ عليكم الغيب لعلمتم صفاءَ سريرة أمير المؤمنين (٥).

ومنه قوله:

وإن كنتَ بحمد الله ومَنّه كاملَ الأدوات كثيرَ الحسنات ،ولكن الزّيادةَ من فضلِ الله محبوبة من النُّجَبا ،مطلوبةَ من النُّبلاء ،وأنت صَدْرُهم السابق ،

==:=

(١) إحنة: شدة وضاغنة والحقد والغضب. (القاموس المحيط: ١٥١٦)

(٢) في الأصل: جناياتها! وهو خطأ ،والصواب ما أثبت من الذخيرة ١/١/١٠٩

(٣) ثرب: لام وعيّر بالذنب. (القاموس المحيط: ٨٠)

(٤) الأود: الاعوجاج. (القاموس المحيط: ٣٣٩)

(٥) في الذخيرة بأتم من هاهنا ١/١/١١٣.

وسهمُهُم الراشق ، وهاديهم المبرِّز ، وعاديهم المحرز (١) ، وقد نَبَذْنا إليك مع فلان نُبْذَةً في كتابنا لم نَضَعْها دون غاية البيان ونهاية الإحسان ، ولم يَسَعْنا (٢) إلاّ إيضاحُ الدّليلِ قامةُ السبيلِ ، وقد توالت المحن وطالت الفتن ، ونَجَم النّفاقُ ، وشاع الخِلافُ ، وطمع فينا من لا فضلَ فيه عن نفسه ، ولا قرار له دون رمسه ، وأكثر الآفات سيئات آرائنا ، وأقوى دواعي أطماع أعدائنا اختلافُ أوليائنا ، وقد علمت الكافّة ما أولاه أمير المؤمنين فلاناً من إحسانه ، وأفاضه عليه من معروفه ، فرَفَعَه من الحَضيض ، وانتَعَشَه عند الجريض (٣) ونوّه به بعد الخمول ، وكَثّرهُ وهو قليل ، فلم يشْكر له نعمة ، ولا وفى له بذمّة ، وظل يبني الغَدْرَة على غير أُسٍّ فخرّبنهانه ، ورمى الرّمياتِ في غير هَدَف فأخطأت سهامُه حتى اتّسع عليه الخَرْقُ ، وأعضلَهُ الفتقُ ، وأسفر له عن وجه الخذلان ، وأسلمه غروره إلى الشيطان (٤) ، وقرّب المواعيدَ الزُّور ، ولَبَّسَ الأمورَ وليس أميرُ المؤمنين بأوّلَ من أحسنَ فضاع إحسانُه وسدّد فنكب سنانه (واصطنع فسقطت صنائعه) (٥) ، وفي الله عِوَضٌ من كل فائت ، وخَلَفٌ من كل مائع ، وللأيام عُقَبٌ تُديل المكروهَ بالرّضا ، والشدةَ بالرّخاء ، وقد علم من عَرَفنا وأيقن من أنصَفَنا أننا كنا في عيشٍ هَنيّ ولُبَبٍ رَخِيّ ، وعطنٍ واسع ، ومالٍ متتابع ، وجندٍ مطيع ، وحصنٍ منيع ، وفي دونٍ مُقْنَعٍ ، وأيسرُه ممتع .

=:=

(١) ليست في الذخيرة .

(٢) في الأصل : ولم يشغلنا وأثبت ما في الذخيرة ١/١/١١٦ .

(٣) الجريض : الغصّة ، واختلاف الفكّين عند الموت . (القاموس المحيط : ٨٢٣)

(٤) في الذخيرة : وأسلمه غرور الشيطان ١/١/١١٧ .

(٥) ما بين الحاصرتين زيادة من الذخيرة ، والمؤلف انما يختصرنها اختصاراً شديداً فلا يتطابق النص ، وفي أحوال كثيرة يبتر المعنى فيظل مبهما .

ومنه قوله :

وقد قيل إن الشُكْرَ وإن قلّ، ثمنَ لكلّ نوال وإن جلّ، ولو نظرت في أخبار الماضين، وكشفت عن سير الأوّلين، لوجدت ملوك الأمم على قديم الزمان قد تعاملتْ بالتّعاون، وتواصتْ بالتّرافُد، هذا وإن تنا[illegible]تْ ديارُها، وتخالفت أديانُها، والدهر أطوارٌ، والأيام دول، ومع اليوم غد (١).

ومنه قوله:

وليعلم أنّا أخذناه من الحَضيض الأوهد، وانتشلناه (٢) من العَيْش الأنكد، فرفعنا خسيسته (٣)، وأتممنا نقيصته، وخوّلناه صنوفَ الأموال، وصيّرنا حالَه فوق الأحوال، وبوّأناه من النعيم عليه ماأحوجَ الخاصّة والعامّة إليه، فلم يقُم لله بحق، ولا قابلَ إحسانَه بصدق، ولاعامل وديعته الرعيّة برِفْق، ولا تناول فريضةَ الله عليه خِدْمَتَنا بحذْق، حتى إذا مَلكَهُ الأشَرُ، وتناهى به البَطَرُ، وغَلَت به الأمورُ، وغرّهُ بالله الغَرُور، اجتجنَ حرامَ الأموال، واستمال طَغامَ (٤) الرجال فَصَرَعَهُ بَغْيُه وأسْلَمَهُ غَدْرُهُ، وأَخَذَهُ اللهُ بما اجْتَرَحَ، وأوْبَقَهُ بما اكتَسَبَ، فأعْجلناهُ عن تدبيرِه، وطار إلى سقره وسعيره (٥)

=:

(١) من قطعة أطول من هذه، وانظر الذخيرة ١/١/١٩٩-١٢١)

(٢) في الأصل: وأنبشناه، والتصويب من الذخيرة. ١/١/١٢١

(٣) في الأصل خشيشه، وهو خطأ، والصواب ماأثبت ١/١/١٢١

(٤) الطّغام: الأوغاد من الناس والأراذل والحمقى. (القاموس المحيط: ١٤٦٣)

(٥) انظر الذخيرة ١/١/١٢١.

أبو
جعفر بن اللمائي

ومنهم : أبو جعفر ابن اللّمائي : (١) دوحةُ علم مثمرة ،وشرارة فهم مُضمرة ،سَحّ سحابُه فأغدَقَ ،وساح بحرُه فأغرق ،وجاء وأيام الأدب في رَأْدِ (٢) ضُحاها ،وأغصان الأدباء في رداء لِحاها ،والناس على الفضائل متوافرون ،وعلى الفضائل (٣) متضافرون ،وعصر المغرب عصر لتحليّه بأصائله وتردّيه بكرم خصائله فجرى في آفاق ذلك المغرب مجرى الأصيل ،وسرى مسرى البرْ من العليـــــل فكان شهابَ سمائها ،وشبابَ سائِها ، فطَلَع طلوعَ هلالِها العليّ،وأنار إنارةَ نجومِها في العشيّ ،وكانت المسامعُ تختطفُ حَلْيَهُ اختطافَ البروق الأبصارَ ،وتقتطف جَنـاهُ اقتطاف الأيدي النُّهْدَ الأبكار .

قال ابن بسام: أحد الأئمة الكتاب ،وشُهبِ الآداب ، ممن سُخِّـرَتْ له فنون البيان ،تسخيرَ الجنِّ لسليمان (٤) ، وتصرَّف بمحاسن الكلام تصرُّف الرياح بالغمام ،طَلَع من ثناياه ،واقتعد مَطاياهُ ،وله انشاءات سِرّ ّية في الدولــــة

=:==:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=::=:=:=:=:=:=:

(١) هو أحمد بن أيوب اللمائي المالقي ،أديب وشاعر ،عمل كاتبا لدى الناصر لدين الله علي بن حمود ،وتولى تدبير ملكه ،وأحرز لذلك صيتا شهيرا ،ثم عرض له داء النسمة وتمادت علته ، ولم ينجح شيء في علاجها حتى كانت سبب وفاته سنة ٤٦٥هـ بمالقة ونقل منها الى حصن الورد فدفن فيه بوصية منه ،وكتبت على قبره أبيات من نظمه ،
ترجمته في الجذوة: ٣٧٠ ،والمطمح: ٢٠٩ ،والبغية (١٥٢٠) ،والمغرب ١/ ٤٤٦ والذخيرة ١/ ٢/ ٦١٧ ،والذيل والتكملة ١/ ٧٣ومابعدها ،والنفح ٣/ ٥٤٧ ،والرايات : ١٢٧والاحاطة ١/ ٢٤٠ .

(٢) رأد : ارتفاعه وعلوه وازدهاره . (القاموس المحيط: ٣٥٩)

(٣) كذا في الأصل .

(٤) سليمان بن داود ،نبي ،وملك اليهود ،اتّسم الجانب الزاهر من حكمه بالسلام والنشاط التجاري ،وتوثيق العلاقات التجارية ،وفي عهده بني الهيكل بالقدس. له يعزى بعض كتب العهد القديم ،كالامثال والجامعة ،والحكمة ،ونشيد سليمان . ذكر في القرآن ست عشرة مرة بين نعمة انعم الله عليه . (الموسوعة العربية الميسرة: ٢/ ١٠٠١)

الحمّودية (١) ،اذكان علمَ آدابها والمضطلع بأعبائها ،وقد أخرجتُ من براعته، مايشهد له بالفضل في صناعته ،على أكثر جماعته

فمن نثره قوله :

ريحُ وُدي لك صَبا ،وزمن إقبالي فيك صِبا ، فأنا شاربٌ ماء إخائك، مُتفَيّءٌ ظلال (١) وفائك ،جانٍ منك ثمرَ فرْعٍ طَابَ أُكُلُه ،وأجتاني البِرّ قديما أصله ،فسقاني برقُه ورواني وَدْقُه (٣) ، وأنت الطالع في فِجاجه ، السالك لمنهاجِه، سهمٌ في الكنانة صائب ، وكوكبٌ في السماء ثاقبٌ ، وعلى الحقيقة فلساني يقصُرُ عن جميلِ أُسِرُّه ،ووصف وِدٍ أُضْمِرُهُ ،وموصل كتابي هذا اختل ماأعهدُه من أمره وطمس عليه بحُردهره ،فإن سَبَحَ غَرِقَ وان شرب شرِقَ ،وله أصلٌ يوصلُه إلى استقلالِه بك واعتلاقه بسببك .

ومنه قوله:

روض العلم في فِنائك مونِق ،وغصن الآداب بمائك مُورِق ،وقد لفظَ بحرُ العلم دُرَرَهُ (٤) ،وأَطْلَعَ روْضُ المجدِ زَهَرَهُ (٥) فأهدى

=:=

(١) الدولة الحمودية : نسبة إلى علي بن حمود العلوي الحمودي أول ملوك الأسرة الحسينية المحمودية ،بقرطبة ،ولاّه سليمان بن الحكم سبتة وطنجة سنة ١٠١٢م. بايعه العصاة أهل البادية بالخلافة فزحف بهم إلى قرطبة فدخلها عنوة . قتله الموالي الصقالبة.
(الموسوعة العربية الميسرة : ١/ ٧٤٠)

(٢) في الأصل : خلال ، وماأثبت من الذخيرة ، وفي المطمح : ظل . انظر الذخيرة ٦١٨/٢/١

(٣) الودق : المطر. (القاموس المحيط : ١١٩٨)

(٤) هذا يوافق مافي الذخيرة ،وفي المطمح : بحرالهند! انظرالذخيرة ٦١٩/٢/١ .

(٥) ماأثبت من الذخيرة ،وفي الأصل : روض الخرم ،وفي المطمح : وبعث روض نجد زهره .

هذا مع فلان (١) نفيسَ أجناسِه ،وبعث هذا بنسيم أنفاسه ،فهو لؤلؤُ أدب و نُوّار طَرب يسقيك جَنانُه عُقارَ اعتنائِه في كأسٍ ودادِه ،إلى ثَمرِ معانٍ من بدائعه لا تُجتنى ،فوق شَجَر بيانٍ مِن غرائبه لايرتقى ،فإذا لاحظها الفكرُ أنِسَ ، وإذا رامها يَئِسَ ، ولم يناد مجدَك (٢) إلا لتُجيبَه ،ولم يرم بك (دهرَه) (٣) إلاّ ليُصيبَهُ ،فأمطِرْ رجاءَه بَعْضَ طَلّك ،وَوَسِّد جوازِئَهُ أبْرَدَي (٤) ظِلّك فما ما ؤُك بِوَشل ،ولا ورْدُك بِنَهَل ،وفيه أجرٌ ،ولديه شكر.

ومن شعره قوله: (الكامل الأحذّ)

قدقلت إذ سار السَّفينُ بهمْ … والبينُ يَنهبُ مُهجتي نَهْبا
لوأن لي مُلْكا أصولُ بِهِ … لأخذتُ كل سفينةٍ غَصْبا (٥)

ودخل عليه بعض أصحابه في علّته التي مات فيها ،فجعل يُروِّحُ عليه فقال : (المنسرح)

روَّحَني عائدي فقلتُ له … مَهْ لاتَزِدْني على الذي أجِدُ
أما ترى النار وهي خامدةٌ … عندَ هبوبِ الرياح تتّقِدُ

==:=

(١) هوالمنشد أبومحمد كما في الذخيرة .

(٢) في الذخيرة : ولم يناد بحمدك .

(٣) ليست في الأصل ،واكملت من الذخيرة .

(٤) أبردي : الدخول في آخرالنهار (القاموس المحيط : ٣٤١)

(٥) إشارة إلى قوله تعالى ((أمّا السّفينة فكانت لمساكين يعملون في البحرفأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا))(سورة الكهف : الآية ٧٩)

وله قصيدة قال فيها : (الكامل)

يا سيدي وأخي الوفيّ وما أخي — منه إلى قلب الإخاء بأقرب

وإذا غدا العلم المُشرِّفُ أهلَه — نسباً يؤلّفنا فنحن بنو أب

أخفتنيَ الأيام في لهواتها — وسجنَّني فيها فكيف شعرتَ بي

وكتبت عن وُدٍّ وقد كُتِبَ الإخا — بين النفوس صحائفاً لم تُكتب

بأرقّ من دمعِ المشوقِ فؤادُهُ — وألذّ من ريق الحبيبِ وأعذب

صبحٌ تدرّعَ من سوادِ مدادِه — ليلاً كفعل الزائر المترقِّب

خفيت معانيه على أفهامنا — فالفكرُ بين مُصدِّقٍ ومُكذِّب

أذكى من المسكِ الفتيق نسيمُهُ — أرجاً وأصفى من لُعاب الجُندُب

أَبُو عَبْدُ اللهِ البَرْلُبَانِي

ومنهم: أبو عبد الله البِزْلياني (١): محقِّقُ نقول، وملقح عقول، ولم يزل مورد عذب صافٍ، ومعهد عدل وانصاف منوع أفنان، ومنور جِنان، فقلَّدَتْهُ تلك الدولُ عِقدَ جِيدِها، وردّت تلك الليالي والأيام بجديدها، وكانت الملوكُ تودُّ لو شدّت به في أفنيتها، والدولُ لو شادت دعائمَ أبنيتها، وتنفسُ منه شذى المسكِ الأذفر (٢)، وتتنافسُ فيه منافسةَ الهادي والرشيد في زبيدةَ بنت جعفر (٣)، فلا تزالُ تتنسَّم ريحه وتتبسّمُ لمقدمه حتى حلَّ ضريحَهُ.

قال ابن بسّام: ممن أدار الممالِك ودبّرها، وطوى المسالِك ونشرها، قال ابنُ حيّانَ: ولما قبض عبّادَ على البكريين، جعل مكانهم ابنه محمداً، فاستكتب ابنَ البزْلياني، فصارت إليه مصايِرُه ودارت إليه دوائِرُهُ.

ومن نثره قوله:

من النصح تقريعٌ، ومن الحفاظ تضييع، ولكل مقام مقال، إذا عُدِّي به عنه استحال، ووصلَ منك إليَّ كتابٌ أومأتَ فيه إلى النُّصح، ودَلَلتَ على سبيل النُّجح، وكان بالجملة أوَّلُه سِبابٌ وآخِرُه اعجابٌ، والسِّبابُ لا ينطِقُ به كريم والإعجاب لا يرضو به حليم، وما أحسن قول القائل: (الطويل)

=:=

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد البزلياني، أصله من مالقة، وكان في خدمة حبوس الصنهاجي ثم انتقل إلى اشبيلية وخدم بني عباد، وقد عزا إليه ابن حيان صاحب المقتبس دوراً في ثورة اسماعيل بن المعتضد على أبيه. (الذخيرة: ١/٢/٦٢٤)

(٢) المسك الإذفر: الجيد إلى الغاية. (القاموس المحيط: ٥٠٧)

(٣) زبيدة بنت جعفر الهاشمية العباسية زوجة هارون الرشيد الأمين. اسمها أمة العزيز وغلب عليها لقبها زبيدة. توفيت سنة ٢١٦هـ. (الأعلام ٣/٤٢)

وَتَجْهَلُ أيدينا وَيَحْلُمُ رأيُنا ونشتِمُ بالأفعالِ لا بالتكلُّم (١)

فان كنتَ أردتَ أن تستصْلِحَ مني فاسدا ، وتقرِّب مني متباعدا ، فما هذه شِيَمٌ يقضي بها الفضلُ ، ولا سياسةٌ يحكم بها العقلُ ، وإن كنتَ أردت التحريف والابعاد ، والإبراق والإرعاد ، فقد كفاني قول الكميت : (مذيّل الكامل)

أرْعِدْ وأبرِقْ يا يَزِ يدُ فما وَعِيدُك لي بِضَائِرْ (٢)

وأما ماذكرته من الذي وقع بين الطائفتين من بني عمنا بالعُدْوة ، فكلُّ أمر بقَدَرٍ وَلِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ ، والدنيا أحوال ، والحرب سجال ، وأكثر الوبال واقع على الظالم و نازل بالجارم (٣) .

ومنه قوله :

من رَغِب عن الفضل فَنَفْسَه ظَلَم ، ومن فرّ من الليل أدركه حيث خيّم ، ومَنْ لِكُلِّ ظمآن بعذب زُلال ، ولكلِّ آملٍ بنيل آمال ؟ (٤) ، وماكلُّ مُستسق (يُمطَرُ)(٥) ولا كلُّ طالب يظفرُ ، وماضاق عُذْرُ من وسعه حِلْمُكَ ، ولا خُذِلَ من نَصَرَه عزمُك ، وما أحسنَ العافيةَ ولا كَحُسْنِها بعد البلاء ، وماألذّ السعادةَ ولا كَلَذَّتِها بعد الشقاء

=:=:=: : :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:: :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:

(١) القائل معبد بن علقمة المشهور باسم معبد بن أخضر المازني ، وانظر الحماسية رقم (٢٥٣) شرح المرزوقي : ٧٥٠ ، والسمط : ٣٤٣ .

(٢) انظر ديوان الكميت بن زيد ١/٢٢٥

(٣) انظر الذخيرة ١/٢/٦٢٦

(٤) في الأصل : ومن أكل ظمآن بعذب الزلال ولكل أمل بنيل المراد ، وهو خطأ والتصويب من الذخيرة والكلمة الأخيرة لا تتفق مع السجع (الذخيرة : ١/٢/٦٢٩)

(٥) مابين الحاصرتين من الذخيرة ١٠/٢/٦٢٩

وما أنقعَ الوِرْدَ لغلّة الخوامس (١)، وأطيبَ الظّلَّ للضّاحي الشامس، ومن عَـدِمَ الشفاعةَ شفعت له فضائلك ومن قَسا عليه الزمان لانت له شمائلك.

ومنه قوله:

والشمس بعد السَّحاب أبهى، والإمكان بعد التعذُّر أشهى، وأنـا أحسد قرطاسي على ملاقاتك، وأغبطُ أنفاسي على مناجاتك، فإن مُنِعَتْ منك عيني فقد رأتكَ في كل حسنٍ تراه، وإن حزنتُ للبعد عنك، فقد سررت بما مِن لقائك أتمنّاه.

ومنه قوله:

ولمثلك تنفع التذكرة، وقد تهزُّ الصوارم فتَقُدُّ الدروع، وتُهاجُ الضراغمُ فتفُضُّ الجموعَ، وجمالُ الإسلام فكيف يُباح (٢)، ووجارُك وركنك الايمان فكيف تزاح، وجارُك الأدب فكيف يُهتَضَمُ أو تعبرُ عليه عين الوَقاح.

ومنه قوله:

هذا الوقت الذي كنت أتأيّاه (٣)، والحِين الذي مازلتُ أتمنّاه، والزّمان الذي قاسيت فيه تَعَبَ الانتظار، وقطعتُ إلى بلوغه مسافة الليل والنهار، فلا يجتمع رجاؤك واليأسَ في قلب، ولا تحِلُّ محبّتك والحرمانَ في خِلْب.

=:=

١) الخوامس: إبل خوامس، وهي أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع والخامس.
(القاموس المحيط: ٦٩٨)

(٢) في الأصل: فكيف مزاح!! وهو خطأ والتصويب من الذخيرة. ١/٢/٦٣٠

(٣) في الأصل. أباياه! والصواب ما أثبت، وأتأياه بمعنى أتمناه.
(الذخيرة: ١/٢/٦٣١)

ومنه قوله :

والكبرياء رداء الله الذي من جاذبه إياه قصمه (١)، والتقى حبل الله الذي من تعلق به عصمه ،وما يتكبر متكبر إلا من جهله ،وعُجْبُ المرء أحد حساد عقله ،وجئتك زائرا فكأني جئتك آملا ،وأردت مصافحتك فما مددت يداً ،وطلبت معانقتك فخلتك مقعداً ،وبعد أن همت بالنهوض أقعدك الكسلُ ،كأنك غادةٌ أثقلها الكَفَلُ (٢)، وجعلت تشيرُ بالحاجب ،وتلوي بالشَّفَةِ ،وتدعي بالجهل في كل شيء معرفة ،فما كان ضرك حين أخللت لوكنت أجللت ،وماكان يسوؤك حين نظرت لو أجملت ،وماكان ينقصك إذ حكمت لوعدلت ،وما أبرىء نفسي

=:==:=

(١) اشارة الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم
عن ابن عباس قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((يقول الله سبحانه :الكبرياء ردائي والعظمة إزاري . فمن نازعني واحدا منهما ،ألقيته في النار))
روى هذا الحديث ابن ماجه واللفظ له ٢/ ١٣٩٨ رقم الحديث ٤١٧٥
طبعة دار احياء التراث العربي ١٩٥٧ م
وكذلك رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ١٦ واحمد ٢/ ٣٧٦، ٤١٤
وقال الألباني في تخريج سنن ابن ماجه :صحيح ٢/ ٤٠٥ .
(٢) في الأصل :كأنها غادة أثقلها الكفل ! والتصويب من الذخيرة ١/ ٢/ ٨٣٣ والكفل هو الذي يحكم في كل مايحكم فيه السلطان ،ويعلّم في التقاليد والتواقيع والمناشير ، وجميع نواب الممالك تكاتبه فيما تكاتب فيه السلطان .

من زلَّة ،ولا أعصِمُها من خَلَّة ،فالأدب يجعل للأديب مخرجا ،ولا يجعل لـــه باب العذر مُرْتَجا ، هيهات ،غلبكَ على الحق أهلُه ،ونفاك عنه جهلُه ،وستحصدُ مازرعتَ وتعلمُ ماصنعتَ .

ومنه قــوله :

كتبتُ ومشارب الآمال قدتكدّرت ،ووجوه المحاسن قد تغيّرت ،إلاّ أن يَتَلافى اللهُ الخِلَّ بسديد نظركما فيرتقَ المنخرق ،ويجمعَ المتفرّق ،فتعودَ الأيدي متأيّدة (١) ، والنفوسُ متعاضدة ،والأنحاءُ واحدةً ،والدماءُ محقونةً ،والعافية مأمونة ،واتصل بي ماوقع بينكم وبين فلان من التنازع الذي أخافُ أن يُفضيَ بكما إلى التقاطع ،وورد عليّ كتابكما في ذلك بما ترقّبت انصرام أجلــــه ، (وتنظّرتُ) (٢) انحسام عِلّه ، حيث خشيتُ أن يتمادى بكم اللّجاجُ ،ويتعاصى في أموركم (العلاج) (٣) ، فلم أرَنفسي في سَعَةٍ من إهمال التذكِرَة ،وإغفال التبصِرَة ،والله يُعيذُ الكُلَّ من الشتات والشمات ، ويعيدكم إلى المواساة والمواتاة ،وقد علمتم مافي صلاح ذات البين من دَعَة الأجسام والرَّعَةِ (٤) عــن الآثام ،والحربُ مشتقةٌ من الحَرَب مع ضَنْك المُنقَلَب ،تويتمُ الاطفالَ وتلتهم الرجالَ ، ماضيهم نادم ،وباقيهم واجم ،مع الذين يحملون من أوزارهم ويحتقبون مــن

=:=

(١) في الأصل : وتعود الأيادي متسايدة ويمكن أن نقرأ ،متساندة ،وماأثبت من الذخيرة ١/٢/ ٦٣٧/٢/١

(٢) في الأصل : انصرام أجله وانصرام علله ،وماأثبت من الذخيرة ،ومابين الحاضرتين ليس في الأصل ١/٢/ ٦٣٨

(٣) مابين الحاصرتين ليس في الأصل ،وأكملناه من الذخيره .

(٤) الرعة مهملة ،والزّعه معجمة ،وكلاهما جائز ، وتعني السكون والطمأنينة (القموس: ٩٣٣)

أوضارهم (١) بالاستظهار بالنصارى على المسلمين يقتلون ويأسرون، فالأموالُ مستهلكة والحرماتُ منتَهَكَةٌ، والدماءُ مهراقة، والنساءُ مُستاقة، وعقد الدين مفسوخ، وعهد الإسلام منسوخ، وإن نفذ هذا وأعوذ بالله، فهي حال مؤذِنةٌ بالذَّهاب، وجزيرة صائرة إلى الخراب، ولم نأمن من أن يظهرَ لهم من الخلل في بلادنا والقِلّة من أعدادنا ما يُجَرِّئُهُمْ علينا، ويجذِبُهُم إلينا، وتلك الواقعة التي لا ينتعش عثورُها، والقارعة (التي) (٢) لا ينجبرُ كسيرُها.

ومنه قوله:

الحَسَبُ في مواطنه، كالذَّهب في معادنه، والشَّرَفُ في الأشراف، كالدُّرر في الأصداف، والمجدُ في أهله كالفرع في أصله، ومن حازت له آفاقُ (المعالي) (٣) تُجيبُ، وورث السِّيادة نجيباً عن نجيب، وكان الكرم فيه كالفِرِنْد في القواضب، والضياء في الكواكب، والصفاء في الماء، والروح في الأحياء، وإن لم يحْظَ بك العيان ولا أسْعَدَ بقربك الزمانُ، فالرؤية بالقلب لا بالعين، والقرب بالنفس على الدُّنوِّ والبين، ومن كان مثالُكَ نورَ ناظرِه، وخيالُك سميرَ خاطرِه، فقد قاربك مقاربة الارتياح (للأرواح) (٤)، ومازَجَك ممازجةَ الماء للراحِ، وأنا أحمَدُ يوماً وصلني بمعرفتِك، وأذُمُّ دهراً قطعني عن صلتك.

==:

(١) أوضارهم: أوساخهم. (القاموس المحيط: ٦٣٣)

(٢) زيادة من الذخيرة، وانظر النص كاملا فيه ١/٢/٦٣٧-٦٣٩

(٣) ليست في الأصل، وأكملناها من الذخيرة ١/٢/٦٤١-٦٤٢.

(٤) مابين الحاصرتين ليس في الأصل وأكملناه من الذخيرة. صفحة ١/٢/٦٤١-٦٤٢.

أَبُو حَفْصٍ

عُمَرُ بْنُ الشَّهِيدِ

ومنهم : أبو حفص عمر بن الشهيد : (١)

شهد من شهيد ، كان صاحبَ مطارف ، وصاحب معارف ، يدنو ثمره لقاطف وتجلو غروره غررا ومعاطف ، وكان في الأفق الغربي مسرح صِباه ، ومهب قَبول أدبه وصَباه ، تنبه به ، والأندية عامرة ، والأبنية لعقل النجوم مسامرة ، وتلك المعاهد معاهد جياد تَسْتبق ، ومعالم أجود تصطبحُ (٢) الكَرَم وتغتبقُ (٣) ، حتى نعق فيها غراب البين بالشَّتات ، وطلَّق الأمنُ عرسها الطلاق البَتات .

قال ابن بسام: وهو وإن لم يَزِر لِمُلك ، ولم تَدُرْ عليه رحى فُلْك ، فليس بمتأخر عن طبقات المحسنين ، ولا بسُكيت في حَلَبات المُجيدين ، وقد أخرجتُ له مايشهدُ برسوخ أعلامه ، وشهرة أيامه .

ومن نثره قوله :

أُنبئك أُحْدوثةَ (٤) عَجَبٍ تُضحِكُ سِنَّك ، فمازالت النوادرُ مُستغربةً وسيَّما نوادر غِايَةِ (٥) الكُتَّاب ، وجهتَ فلاناً إليّ بكتاب ، وكنتُ - علم الله - حين موافاتي بمنزلي حليفَ ألم أطَلْتُ عليه التَّململَ ، وأسهَرني ليلي الأطولَ وقد انفضَّ عنّي مَن كان عندي رجاء إغفاءةٍ أستشفي بها وأسترِدُّ بعضَ مُنَّتي في أطراف هُدْئها فقرع الباب قرعا منكراً يتمثل الحرج فيه ويبدو الضجر في تواليه ، فَتَداخلَ الخادم

=:=

(١) هو أبو حفص عمر بن الشهيد التّجيبي ، كان من فرسان النظم والنثر ، ذكره الحميدي في الجذوة : ٢٨٣ والبغية (١١٦٥) وقال إنه كثير الشعر مقدم عند أمراء بلده ، وكان لقاؤه هما بالمرية في حدود سنة ٣٣٠ ، وراجع نفح الطيب ٣ / ٣ ٤١ ، والذخيرة ١ / ٢ / ٦٧٠

(٢) الاصطباح : الشراب في الصباح . (القاموس : ٢٩١)

(٣) الاغتباق : الشراب في المساء . (القاموس : ١١٨٠)

(٤) في الأصل : أنبئك بأحدوثة عجب ، وما أثبت من الذخيرة

(٥) في الأصل : زغلة الكتاب ، وما أثبت من الذخيرة .

رعب ،وقالت : هو خَطْبُ ، ثم خرجتْ على تمامُل بروْعةِ جَنان ولَجْلَجة لسانٍ ، تنقل قدميها إليه على وَجل ، كما يمسُّ بظهر الحية الفَرِق ثم قالت : مَن الرجل ؟ فَأنْغَضَ (١) رأسَهُ نحوها وقبض على لحيته بيمينه وأحدَّ النظر إليها وتنهَّدَ وقال: أوَّه على طموس رسم الأدب وتمثَّل : (البسيط)

إني لأفتحُ عيني ثم أُغلِقُها على كثيرٍ ولكن لا أرى أحـــدا (٢)

ثم التفت إلى الخادم وقال : يالكعاء (٣) ، كسيت في تَرَفُّهِ العيش وفـي ذلك لم تحفظي بيتا من الشعر يحسن به أدبك ويَحْجُرُكِ أن تقولي : مَن الرَّجُـل؟ أين أنت يالكعاء من قول أبي تمام : (البسيط)

تحميه لألاؤه أو لَوْذعيَّتُهُ من أن يُذالَ بِمَنْ أو مِمَّن الرَّجُلُ (٤)

وأقسمُ لو أنك امرأةٌ من الأزْد أُسْد الباس ومقاديم (٥) الناس،لرأيت لألاَءَ الأزديَّةِ في أسِرَّة وجهي ،ولولا تحقُّري (٦) للأمر الذي وردتُ لـــه

=:=

(١) أنغض : حرّك وأمال . (القاموس : ٨٤٥)

(٢) القائل دعبل الخزاعي ، وانظر ديوانه : ٥٧ ، وروايته : حين أفتحها ، وانظر العقد ١/ ٢٨١ ، ٢/ ٢٩٥

(٣) لكعاء ولكع للرجل ولَكاع للمرأة ، على سبيل التحقير . وفي حديث عمر أنه قال لأمة رآها : يالكعاء ، أتشبّهين بالحرائر؟ وقال أبو الغريب النصري :

اطوف ما أطوف ثم آوي إلى بيت قعيدته لَكاع . (اللسان : ٨/ ٣٢٣) .

(٤) ديوان أبي تمام ٣/ ١٥

(٥) في الأصل : وتقادم ، والتصويب من الذخيرة .

(٦) في الأصل : ولا تحقري ، والتصويب من الذخيرة .

لكان لي ولك خَطْبٌ ، ولأعطيتك قانونا في الفِراسة والزَّجر ، ونبذت إليك علما من علوم الدهر ، لا يلتبسُ عليك معه الشريفُ أيام عمرك ، ياهذه قولي لربِّ هذا المنزل يترمرمُ لإنفاذ هذا الكتاب ، فقالت له الخادم : عافاك الله ، إنه عليل ، ومن وَصَبِهِ ثقيل ، وقد برّح به السَّهَرُ ، ولان لِغَفْوَتِهِ السَّمر ، ولابدّ من التخفيف فجَرْجَر جَرْجَرَةَ العَود الدَّبِر ، وتَرَبَّدَ من الحَرَج والضَّجَر ، وقال بَسْلٌ (١) علينا معشرَ الأزد أن نَعْرِيَ ولا نَخلق (٢) ، أو نَتَوَجَّهَ في أمرٍ فلا نُحَقق ، ياهذه ليس هذا إيوانُ كِسرى (٣) فنتزوَّدَ لإنجاح الحاجة به : المالَ والصبر والعقل ، ومن العَجَب وقوفي معكِ منذ اليوم أضربُ لك الأمثالَ وأُصَرِّفُ لك المقالَ ، وأنست لاهية (عني) (٤) ، لا يَعنيكِ أمري ، أترين صاحبك شرب من الخمر أقداحا ، وسمع نوباتٍ ، فلما اعتدلَ مِزاجُه وتوارت وجوهُ النوب عنه قال للدهر أدرْ دوائِرَكَ فإني لا أعبأُ بِكَ ! ؟ قدعلمتُ علَّتَه ، أقسِمُ لو أنَّ به ألفَ علّة ، تكونُ حياته من جميعها مُختَلَّةَ ، لينفُذَنَّ هذا الكتاب . (قالت له الخادم) : (٥) ويحك ما أجفاك من وافد

==:=

(١) البسل : الشدة والصعوبة

(القاموس : ١٢٤٨)

(٢) في الأصل : سيل علينا يا معشر الأزد أن يعرى ولا يحلق ، والتصويب من الذخيرة .

(٣) إيوان كسرى : بالمدائن ، مدائن كسرى ، تعاون على بنائه عدّة ملوك ، وهو من أعظم الأبنية واعلاها ، مبني بالآجر طول الواحدة نحو ذراع في عرض أقل من شبر وهو عظيم جدا ، هدمه المنصور عند ما أراد بناء بغداد .
ولما أراد كسرى بناء ايوانه أمر بشراء ما حوله من مساكن الناس وارغابهم بالثمن الوافر وداخله في الايوان ، وفي جانبه قبّة العجوز التي رفضت بيع بيتها .

(معجم البلدان لياقوت: ١ / ٢٩٤)

(٤) زيادة من الذخيرة

(٥) مابين الحاصرتين عبارة ليست في الأصل ، وهي لازمة لتبيان المعنى أكملناها من الذخيرة .

الأزد! أين منك رقة الحجاز وفصاحة نجد ؟ ماأقبحَ هذا العقوقَ بمن شرب ماء العقيق، وأسوأ هذا الأدب، ممن ينتمي إلى ذؤابة (١) العرب، فقال: ياكُعا، إنك لتجد اليمني عن نسبي ؟ وحياة مانقلتُه من الخُطى وتجشّمتُهُ من الخَطر، لَيَنْفُذَنَّ هذا الكتاب، أو لأشْهَدَنَّ عليه بالعصيان والتكاسل، والتواني والتثاقل، فمثلي لا يَرِدُ إلا بِحَزْم (٢)، ولا يَصْدُرُ إلا عن فضل، فقالت له الخادم: ماأسوأ تقديرك للأمور! لئن كان مخموراً خُمارَ وَصَب (٣)، فهؤلاء الشهود معهم شُرِبَ، وعندهم طَرَبَ، وصاحب المدينة منه بنَسَب، وعلى صلة سَبَب، فأين تذهب؟ فشمخ بأنفه، وكَسَر من طَرْفه، ومدّد الزَفْرة، وردّد التلهُّف والحسرة، ثم قال: أفٍ للدنيا فماتزال تُعَسِّتُنا بمثل هذه الهَنَاتِ، فلما شدّ على شِسْعه (٤)، للانصراف، أقبل على الخادم فقال: (الوافر)

قِفي قبل التَفَرُّقِ ياضُباعا ولا يَكُ مَوْقِفٌ منكِ الوداعا (٥)

أما إنك لولا أن تكوني باهلية الضِّنْضِئِ لعرفْتُك، ولكن سأودعُ (٦) عندكِ أرَجًا (٧) يدلُّ على موقفي في هذه البُحْبُوحة، أنا العَتِكيُّ (٨) الحَسَب والنَّسَب،

=:=

(١) ذؤابة: أصل. القاموس: ١٠٨)

(٢) في الأصل: لا يجرد إلا بحرم: والتصويب من الذخيرة ٦٧٣/٢/١

(٣) وصب: وجع و مرض وتعب وفتور في البدن. (القاموس المحيط: ١٨١)

(٤) شسعه: الشسع: سَيْرٌ يُشَدُّ به النعل (القاموس المحيط: ٩٤٧)

(٥) القائل القطامي وانظر ديوانه: ٣٠

(٦) في الأصل: الضيضي أحرقتك ولكن سأدع عنك! وهوخطأ، والصواب ماأثبت

(٧) الأرج: شيء ما في الحساب (القاموس: ٢٢٩)

(٨) العتكي: الكريم، والخالص، والراجح من حال إلى حال (القاموس: ١٢٢٤)

وذو الهمّة والأدب ،فمن سألك فقولي بماشهرت ،وحدثي عما عانيت ،وما أراك تجدين ظاهرا تقيمين به فرضَ الثناء عليّ ،اذهبي لامحفوظة ولا مكلوءة (١) ثم انحدَرَ فما علمنا ماكان منه

ومنه قوله:

ولم تزل الجياد تَمْعَجُ (٢) بكُماتها ، والشمسُ تنتقل في درجاتها ،حتى أشْرَفنا على عين كالدّنيار ،كأنما هُنْدِست بالبركار ، ذات ماءٍ ريّان من الشَّنَب(٣) والخَصَر (٤) ،وحصباء كالأسنان ذواتِ الأشر ،وقد حفَّ بها النباتُ حفيفَ الشارب بفم الأمرد ،وتزينت بخضرة كالمرآة الصقيلة طُوّ بالزَّبَرْجَد (٥) .

وقوله :

فأصغيتُ فإذا بضرب ناقوس ،في دير قِسّيس ،وقريةُ (آنة) (٦) كلُّهـــا

=:=

(١) في الأصل : وماأزال تجدين ظاهرا يقيمين فرض الثناء على أوهى لا محفوظة ولا مكلوء !! ،وهي عبارة متهافته لا معنى لها ، والصواب ماأثبت من الذخيرة .

(٢) تمعج : تسرع في السير (القاموس المحيط: ٢٦٣)
(٣) الشنب : الرقة والعذوبة (القاموس : ١٣٢)
(٤) الخصر ،بالتحريك : البرد (القاموس : خصر)

(٥) الزبرجد : وهو حجر أخضر يتكون في معدن الزمرد ،ولذلك يظنه كثير من الناس نوعا منه الا أنه أقلّ وجودا من الزمرد وأجوده الأخضر المعتدل الخضرة ،الحسن المائية ،الرقيق المستشف الذي ينفذه البصر بسرعة . لسان العرب : ٣/ ١٩٤)

(٦) مابين الحاصرين من الذخيرة - ١/ ٢/ ٦٨١

ان نظرنا إلى اطّراد صُفوف ،من أعطاف خَنِثة وخصور هِيف ، وشموس وأقمار على أفلاك جيوب وأزرار ،لا سيوفَ إلاّ مِن مُقَل ،ولا دَرق (١) إلاّ من خَجَل ، ولا عارضَ إلا من خَلوق (٢) ، ولا صناعة غير تخليق ،ولا اسم غير عاشق ومعشوق ، فتسقّعَ (القسيس) (٣) بحسن خدودهم ،وأقسم بنعمة قدودهم ، إلا أجزلتم الرِقّة ، وتَثَنيتُم الأعنّة ، تعريجا إلينا ، وتحكما في المال والوَلد علينا ،فكرمت الشفاعة ، وقلنا السمع والطاعة ،وجُلنا جَوَلان الزنابير (٤) على هِيف الخصور ،نَغُضُّ بمابقي من الطريق ،غضَّ الدماليج (٥) بخِدال (٦) السُّوق ،حتى وافينا الباب ، وأنَخنا الركاب ،وتولّى تَوَلِيَ الحُرِّ ضروبا من البر ،غير أنه قنع بالدَّنّ وجه مدامِه، تقنُّعَ الورد بأكمامه ،وقضانا من الإكرام نافلة وفرها ،وشددنا الجياد عنه ركضا وسرنا حتى رُفع لنا في طريقنا جـــــــــدر ،فإذا كنيسة عارية الأطلال من الجمال ،إلاّ تَعِلّةَ المُتَوسِّم (٧) ، للتخيُّل والتوهمّ ،كالثوب الكريم أخلقه ابتذالُه أوكخدّ الأمرد تغشّاه سبالُه ،فهيّج ذكرا وأجدّ فكرا فأنشدت : (الكامل)

=:=

(١) الدرق ومفردها الدرقة : وهي الترس من جلد ليس له خشب ولا عقب .
معجم الوسيط : (٢٨١) .

(٢) خلوق : السّحابه المستوية المخيلة للمطر .
(القاموس المحيط : ١١٣٧)

(٣) القسيس : رئيس النصارى في العلم .
(القاموس : ٧٢٩)

(٤) الزنابير جمع ومفرده زنبور : ذباب لا سع .
(القاموس : ٥١٤)

(٥) دماليج جمع ومفرده دملج ، ويقال للحلقة التي تجعل في أنف البعير إذا كانت من صفر أو نحوه من جواهر الأرض.
(لسان العرب : ٢/ ٢٧٦)

(٦) خدال السّوق : العظيم الممتلئ ، ممتلئة السّاقين والذراعين ، والمستدير فكأنما طويت طيّا
(القاموس المحيط : ١٢٨١)

(٧) في الأصل : إلاّ بغلة المتوسم !! وهو خطأ ، والصواب ما أثبت .

وكنيسةٍ أخذ البلى منهاكما	أبصرت فيئاً في مُغارٍ يُنْهَبُ
نمّت علينا في السّفارة نفحةً	من ماء كرمٍ كان فيها يُسكب
أهوى إليها بالمطيّ تخيّلٌ	منّا بَريءٌ والأماني تكذب
فتواقف الركبانُ (١) في عرصاتها	كلٌّ بها متحيّر متعجّب
أنى تأتّتْ لابن آدم قُدْرَةٌ	حتى استقام وتمّ ذاك المنصبُ (٢)
من أي أرضٍ كان رائع مَرْمَرٍ	كسواعدِ الغزلان فيها يُجْلَب
كم صاد إبليسٌ بها من تائب	بحبائل ألقى بهنّ ترهّب
وكم ابتنى القِسّيسُ فيها منبرا	من جوْذَرٍ بدا عليه يَخْطُبُ
سقيا لها من دارِ غَيٍّ لم يزل	فيها كريمٌ بالصلاح مُعَذَّب
كلا وما زالت نجوم مُدامةٍ	فيها بأفواه النّدامى تغرُبُ
بئس المُصلّى إن أردت تعبُّدا	فيه ولكن كان نعم المشرَبُ

ثم أغذذنا سيراً (٣)، وكأننا نُنَفِّرُ طيرا، حتى نظرنا من السائمة تسرحُ في مروجها، كالعذارى تميس في دبابيجها، كَلأٌ نَضير، وماء نمير، ومازلت أُروى هناك بالرائب (٤)، والمَيْس، حتى كاد كياني ينقلب إلى كيان التّيس، ثم رحلنا وتذكرنا الطّراد، فمشت الجياد، وتواثبت الآساد، (واستُعِدّ ببازٍ وكلاب

=:=

(١) في الأصل: فتوافت الركبان، وما أثبت من الذخيرة.

(٢) في الأصل: أنى ثابت، حتى استقام ثم، والتصويب من الذخيرة

(٣) في الأصل: ثم اعددنا سيرا، تصحيف، والصواب ما أثبت

(٤) الرائب والربيئة والربيء: الطليعة الذي يرقب العدو من مكان عال لئلا يدهم قومه: والجمع ربايا.

(اللسان: ١/ ٣٩٨)

فإذا بحر من بِرَك (١) ،يخرقه سفين من بُرَك (٢) ،وفي السيور صقور إذا نظرت، وليوث إذا جُرِّدت) (٣) ، تنظر من أمثال الدنانير ،وتتخطّف بأشباه المرهفة الذكور ،فأرسلناها إرسالَ سهام الأحداق ،إلى قلوب العشّاق ، فلم نرَ إلاّ ريشا محلوجا ،ونسرا يُحسِنُ تدبيجا ،ووردنا ماءً في رقّة النسيم ،ولذاذة بنت الكروم فشربنا وطعمنا ، وقرّبْنا سباعَ الفلاة ،مما فضلَ عن الكماة ، ونقشتُ على مَرْمَرَةٍ بيضاءَ ،ساعة وردنا ذلك الماء : (السريع)

يارُبَّ ماءٍ عازبٍ مَجّه	مُزْنٌ هزيم الوَدْق في سَبْسَب
زبَرْجَد جَلّلَهُ مُكْثُهُ	غِشاءَ ديباجٍ من الطُّحْلُب
إن كان فيما قدمضى مَوْردا	فللعطاش الأسد والأذؤب
باكرتُه مع كلّ ذي هِمّةٍ	لا يرتضي الأفلاك عن مركب
ولَغَطُ الطيرِ بأرجائِه	كلَغَطِ الصِّبْيةِ في المكتب (٤)
فانقضّ من أيمانِنا كوكبٌ	ذو ناظرٍ أنورَ من كوكب
مُكحَّلُ الآماق ذو مِنسَر (٥)	يسترزِقُ الرحمنَ من مِخْلَب
فاستشعرَ الطيرُ هروبا وهل	عن نازل المقدور من مَهْرَب
فصاد ماأوسعَ صَحْبي قِرىً	وفاض في الأبعد والأقرَب
صَيْدٌ لَعَمري لم يَعِبْهُ سوى	أن لم يكن نُقْلاً على مشرب

=:=

(١) بِرَك بكسر الباء جمع مفردها بِركة : الحوض (القاموس المحيط : ١٢٠٤)

(٢) بُرَك بضم الباء : ضرب من السفن . (القاموس المحيط : ١٢٠٤)

(٣) مابين الحاصرتين ساقط من الأصل ، وأكملناه من الذخيرة

(٤) في الأصل : ولغظ الطير ،كلغظ الصبيان ، والتصويب من الذخيرة .

(٥) في الأصل : مكحل الآفاق ،وهوخطأ ، والصواب ماأثبت .

ثم لم نزل نسري النجوم في الدياجي ، إذ تلقانا شابٌّ كما ذُهِّبَ عقيق خدَّيه ، ونمَّ شاربه بالتذكير عليه ، متقلّدٌ حسام كأنما طبع من لحظه لا من لفظه ، على جواد ظمآن الأسافل كخصْرَيْه ، ريّان الاعالي كَرِدْفيه ، تستعيذُ عيون البَرَرَة من النظر إليه ، وتزدحم أطماع الفَجَرَة حواليه : (السريع)

ذو مقلةٍ شهلاءَ روميَّةٍ وذو لسانٍ عربيٍّ مبين

قلتُ وقد عِيبَ بتثليثهِ مقال ذي رأيٍ وعقلٍ رصين

طلعته الدنيا وقلَّ قلَّما يُجْمَعُ للإنسان دنيا ودين

فلما بلغنا ، قبَّل عُرْفَ جواده ، وعَبَراتُه تنسكِبُ على نِجاده ، قلنا : مالك لا أبالك ؟ فقال : منفلت من السجن ، وآبقٌ من أهل الحِصن ، وعائذ من ظلمات الغَواية ، بنور الهداية ، ومن ذل عبادة الأوثان ، إلى عزِّ عبادة الرَّحمن ، ولي خبر أريدُ أن أقصَّه ، ويمتنُّ الفقيه وفَّقه الله أن يسمعَ نصَّه ، فخرج إليه الإذن ، وقيل له ادْنُ ، فقضى فرض التحية ونافِلَتَها ، ثم قال : أيها الفقيه ، للأشياء غاياتٌ تنتهي إليها ، ومقادير تجري عليها ، (أما والخلَّاقِ العليم ، والفاطرِ الحكيم) (١) ، الذي أسعد قوما بالهداية وأثابهم عليها ، وأشقى آخرين بالضَّلالة وعذَّبهم عليها ، لقد أنْحَلَتْني عبادةُ الطواغيت ، فعبدتُ الصليب ، وقرعتُ الناقوس ، وفعلت كلَّ ماقرَّت به عين إبليس ، قَدَرٌ لم يكن ليخطِئَني (٢) ولا يتخطَّاني إلى أن استنقذني ربي وهداني وأنا أشهد أيها الأشهاد أن الله

---

(١) مابين الحاصرتين ساقط من الأصل ، أكملناه من الذخيرة .

(٢) في الأصل : ليحظى ، والصواب ما أثبت .

إلهٌ واحد ، ليس له وَلَدٌ ولا والد ،كان ولم تكن الأكوان ، لا أرض ولا ماء ولا دخان ،مخترعُ الكلِّ ومنشئه ،ومعيدُه ومبدئُه ،(له المَثَل الأعلى ،والأسماء الحسنى)(١) .

ومن شعره قوله : (الكامل)

أبْدى علىيّ فرحةً بمحمدٍ	أبدت سالكه في الصفاء جلالا
سبط الدين كأن كلَّ غَصامة	قد رُكِّبتْ في راحتيه أناملا
لا عيشَ إلاّ حيثُ أنتَ وانما	تمضي ليالي العمرِ بعدك باطلا
لاعطّلتْ منك الحياةُ فإنّها	لولاكَ ماسَرَّتْ لبيبا عاقلا

وقوله : (الطويل)

جوادٌ كأن الأرضَ جمعاءَ راحةٌ	له وبحور الأرض خمسُ أنامل
لِيَهْنِ تُجِيباً (٢) أنّهاعند ماغتدت	قبيلا له سادت جميعَ القبائل

وقوله : (البسيط)

دون الظّباء ظُبىً جدّ الصّليلُ بها	والرّعدُ والبرقُ دون الشمسِ والقمر
وفي الهوادج أبشارٌ كأنَّ لها	وجوه جَدْوى أبي يحيى على البشر
مَلِكٌ له سِيَرٌ في المُلك فاضِلةٌ	أعيتْ على كُتُبِ الأخبارِ والسِّيَر
إذا أنا بِلُه ضُمَّتْ على قَلَم	يَوَدُّ مُهْرَقُهُ لو قُدَّ من بصر

=:=

(١) زيادة من الذخيرة .

(٢) تجيب: اسم قبيلة من كندة ،وهم ولد عدي وسعد ابني أشرس بن شبيب بن السكون ،وهو كنده ،وأمهما تجيب بنت ثوبان من مذحج ، لهم خطة بمصر سميت بهم ،نسب إليها قوم .
(معجم البلدان لياقوت : ٢/ ١٦) .

وقوله : (البسيط)

أنظرْ وبارك على حاسٍ (١) ومعتصر ماذا تَوَلّدَ بين القار والخَزَف

كأنما كأسُها نجمٌ على فلَقٍ وريحُها نَفَسٌ في روضةٍ أُنُف

ألقيتُ في رَتّها الدنيا بأجمعها فليس عن صرفها قلبي بمنصرف

ولا الأمير أبو يحي بمُنْتَقِل عن عادة البر والإجمال واللّطف

كنتَ في الكون حتى لُحْتَ منه لنا فردَ الجمال كَمُوْنَ الدرّ في الصّدَف

مكارم لم تزل تجرى لغايتها كالسّهم سدّده الرامي إلى الهدف

وقوله : (الكامل)

فشربتُها كَلِفَ الفؤاد عميدا راحاً وكانت مرّةً عنقودا

وتُوسّيتْ فكأن صفّ دنانها في الحان أصحاب الرقيم رُقودا

صَهْباءُ ألبسها التّوَرّدُ مُجْسداً عَجَباً وقلّدها الحبابُ عقودا

فإذا شممت فمِسْكة مفتوقة وإذا لحظت فبارقاً معقودا

وقوله : (البسيط)

في صُحبة الناس في ذا الدهر معتَبَرُ لا عين يؤ رُمنها لا ولا أَثَرُ

فلا يَغُرّنْكَ من قولٍ طلا وتُه فإنما هي نُوّار ولا ثَمَرُ

لو يُنفِقُ الناسُ مما في قلوبهم في سوق دعواهُمُ للصّدق ما تَجَرُوا

=:=

(١) في الأصل : جاش، تصحيف، والصواب ما أثبت، وحاس يحيس إلم يبرح مكانه حتى ينال حاجته وهذا المعنى أورده الأزهري وانفرد به . وحاس هنا : في أرض المعره ، وقال ابن ابي حصينة :

ايام قلت لذوي المودة اسقني من خندريس حنا كها أو حا سها

(لسان العرب : ٦/ ٦١) .

عبد الملك

بن محمد بن شماخ

ومنهم : الوزير عبد الملك بن محمد بن شمّاخ : (١)

قمر سدف (٢) ، وآخر سلف ، مُطلقُ جياد تتبارى ، ومطلع نجوم تتجارى ، لو أن أباه الشّمّاخ المعروف لعذر انسحب ، وعرف أنه في جمرة البروق قد نُفخ ، ولَعلِمَ أنه ما سار حتى رسخ ، ولا أسمع أهل الآفاق إلا وهو في آذانهم قد صرخ ، إلا أنه مع إكثاره قليل الغوص على الدُرّ لا يكادُ يُخرجُه ، ويقنعُ بالبُرْد يُطيلُ ذيلـه وينسجُه ، وكان جودُهُ يتطفّلُ عليه كلّ عالم ، ومجدُهُ لا يُتوَقّلُ إليه بالسلالم ، بذهنٍ أبطَلَ من البرق كلّ نابض ، وأطلّ على السماء والسّرطان والأسد فزاحم البدر في منازله ، وحام العرزم (٣) حول المجرّة على ساحله ، فأحلّته ذات الأخبية حجَمَها ، وحثّت إليه قلائص الكوكب نجمها ، ومربحلبا قل الليل فداس على حوذانها (٤) وأتاها أبيٌّ السّهيل فصاغ شَنْفَ (٥) الثُريّا لآذانها .

=:=

(١) عبد الملك بن محمد بن شماخ : هو أبو مروان عبد الملك بن محمد بن شمّاخ الغافقي أخو أبو جعفر ، روى عن أبي جعفر البطروجي ناظم ناثر .
(انظر (الذخيرة : ١/٢/٨٢٧) و (الذيل والتكملة : ٥/٣٣)

(٢) السّدف : ظلمة الليل ، والجمع أسداف ، والسّدفة من الأضداد ، فهي في لغة تميم تعني الظلمة . وفي لغة قيس الضوء . (لسان العرب : ٩/١٤٦) .

(٣) العرزم : نجم مع الشعرى . (القاموس المحيط : ١٤٣٨)

(٤) الحوذ : نبت الطلب ، السهد الشديد ، يحوز ويحافظ ، السوق السريع وهنا شجر عظام ينبت نبتة الرمث ، لها غصن كثير الشوك ، حاذ وحوذ ، وهو من شجر الحمض يعظم ومنابته السهل والرمل وهو ناجع في الإبل تخضب عليه رطبا ويابسا ، وهو نوع من الشجر تألفها بقر الوحش . (لسان العرب : ٥/٣٣٩)

(٥) الشنف : القرط الأعلى ، أو معلاق في ثقب (أعلاه) الأذن ، أو ما علق في أعلاها ، وأما ما علق في أسفلها فقرط .
(القاموس المحيط : ١٠٦٧)

قال ابن بسّام : كان باهرَ الضوء ،صادق النَّوء ، يوفي على أنواع البديع إيفاءَ نيسانَ على محاسن فصل الربيع ،إلى علم أعذبَ من الماء ،وأكثرَ من حصى الدَّهناء (١) ،وقد أجريت له (من نظمه ونثره) (٢) مايشهد باسمه،ويدلُّ على سَعَةِ علمه .

=:=

(١)الدهناء :الفلاة

(القاموس : ١٥٤٥)

(٢)زيادة من الذخيرة ،وليست في الأصل .

فمن نثره قوله من رقعة كتب بها إلى قاضي الجماعة أبي عبدالله محمد بن حمدين : (١)

أمثال أضربها عليك مالها أمثال، وسَلسالٌ أمزُجُهُ لديك يحيا به الصّلصال يا أيها الفرع الذي ثبت أصله فوق السما، وشمخ سِنْخُهُ (٢) بناصية الجوزا : (الطويل)

اذا ثبتتْ فوق السماءِ أصولُه فأين أعاليه وأين الذوائبُ

لو اقتصرت على مابنى لك أوّلُك، لسبق جهد السابقين مَهَلُك، فلوفُضّت خواتم الطين، عن آبائك الأكرمين لهَصَرتَ بعظامهم تهتزُّ وهي رميم، إعجابا بما أهداه إليها سعيُك الكريم : (المتقارب)

فقد يُضحِكُ الحيَّ سنُّ الفقيد فتهتزُّ أعظُمُهُ بالعـــراء

خطبت ودّك، فإن ترني كُفُواً بلغت المبالغ الشاسعة عفواً، سألمعُ لك في شأني بلُمْعَة واختصر، فقد يُروي - وان قلَّ - الزُّلالُ الخَصِر (٣).

فأجابه القاضي برقعة : (في فصل منها) :

==:

(١) أبوعبد الله بن حمدين : هوأبوعبد الله ابن أبي القاسم أحمد بن علي بن حمدين التغلبي : واسمه محمد، وعمه أبو جعفر حمدين الذي تولّى قضاء قرطبة سنة ٥٢٩، وأبوه قاضي الجماعة المتوفي سنة ٥٢١، (الذخيرة: ١/٢/٨٣٩) و(القلائد: ٢/ ١٦١) و(الخريدة: ٢/٥٠٧).

(٢) السنخ : الأصل. (القاموس المحيط : ٣٢٣)

(٣) في الذخيرة بأتم من هاهنا وانظر ١/٢/٨٢٨- ٨٢٩، والخصر : البارد.

تدعو نَزالِ ، وتتنجّزُ ردَّ السؤال : (١) (الوافر)

بَيانٌ لم ترِثْهُ تُراثَ دعوى ... ولم تُنْبِطْه من حِسْيٍ بَكِيٍّ (٢)

أهلا به طائرٌ وداءٌ وَقَع ، وبلبلٌ وادٍ سَجَعَ (فرجّع) ، وهيّج داءً دفينا ، فذكّر بعض ماكنا نسينا : (الوافر)

فضضتُ ختامه فتَبَلَّجتْ لي ... غرائبُه عن الخَبَرِ الجَلِيّ

إن هو إلا سحرٌ يؤثر ، ودرٌّ يُنثرُ ، (إلى) أغراض كقطع الرياض ، ومعان كأبكار الغواني أُدْرِنَّ قدودا ، وكسين (من وشي الكلام) مجاسدا وبرودا ، سمير الآذان ، وحديث الركبان ، نادى شخصَ طللٍ أبس (٣) ، وكلّم ربع رسم دارس ، صَدِيَ حتى بَلِيَ ، ودُهِيَ حتى فَنِيَ ، بمثله وقف جميل ، واستعبر يقول : (الطويل)

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ القَوَاءَ فينطِقُ ... وَهَلْ تُخبِرَنْكَ اليومَ بيداءُ سَمْلَقُ (٤)

فكان حَيَاً جَلْجَل رعدُه ، وأَسْبَلَ وَدْقُه ، بأكناف جوّ مَحَلَ واديه ، وأجدبت بواديه ، فَلأْياً مالان مَدَرُه ، وانبجس حَجَرُه ، وطلع نجمه ، (وأشرق زهره) شتان بين الغَثْرِ المَعين ، ووَشَلٍ ينضحُ بمثل رشح الجبين ؟ في كل شجر نارٌ ، واستمجدَ المَرخُ (٥)

=:=

(١) انظر الذخيرة ١/٢/٨٣٤

(٢) البيت والذي بعده لأبي تمام ، وانظر ديوانه ٣/٣٥٥-٣٥٧

(٣) أبس : جدب لا حياة فيه . (القاموس : ٦٨٢)

(٤) القائل جميل بن معمر وهو المعروف بجميل بثينة ، وانظر ديوانه : ١٤٤ والبيداء : الفلاة ، وسملق : القاع الصفصف .

(٥) المرخ : شجر سريع الوَرْي . (القاموس : ٣٣٢)

والعَفار (١) ،وماهي إلاحُلى فضائلك خلعتها عليّ ،وخمائلُ شمائلك أضفتَها إليّ ،والشّفقِ والغَسَق ، ولوامعِ الفَلَقِ ،إنك لصاحب الراية ،ومحرز أمد الغايـة .

قال ابن بسام: وهذا الفقيه القاضي ابن حميدين (٢) ،له صدر يسعُ الدّهرَ كلّه ،ولسانٌ يخلق السحرَ لواستحلّه ،وهووان كان اليوم بالحضرة العظمى قرطبة ،يعسوبَ (٣) الإسلام ،ومدار الأنام ،تصدّيتُ لإقامة أوَدِه بهذا الديوان ، وقد رفعتُ له على عَلَمه نار ،فضُربتْ له في حَرَمه أرواق وأستار ،وسارت على ألسنة الركبان من كَلِمِه (رسائلُ وأشعار) (٤) أجزلُ من ذكرِ أبَان ،وأحسنُ من الحديث عن جَنان ،وأوضحُ من عُذْر قريش في حب عثمان ،ولم أظفر له عند الفراغ من هذا الكتاب ،إلابهذا الجواب ،وفيه دلالة في الأدب كافية ،وعلامة من الفضل غير خافية .

عدنا إلى ابن شمّاخ ..

ومما أنشد له (الطـويـل)

بعثت بها يعنُولها كُلُّ ناظـرٍ (٥) ويَعيا بما ضَمَّنْتُها كُـلُّ قـارضِ

جعلتُ حياتي أجرَ من قال مثلَها فمن شاءُ عمْراً طائـلا فليقـارضِ

=:=

(١) الغفار: شجريتخذ منه الزناد ،والعفاربالفتح : تلقيح النخل واصلاحه . والعفر: أول سقيه سقيها الزرع. قال ابن الاعرابي . العفارأن يترك النخل بعد السقي أربعين يوما ولا يسقى لئلاينتفض حملها ،ثم يسقى ثم يترك إلى أن يعطش.
(لسان العرب: ٤/ ٥٨٩)

(٢) ابن حمدين : مرت ترجمته صفحة ١٥١

(٣) يعسوب: ملكة النحل ،وهي أنثى ،وكان العرب يظنونها ذكرا لضخامتها ويقال : هويعسوب قومه أي رئيسهم وكبيرهم ومقدمهم .
(لسان العرب : ١/ ٦٠٠)

(٤) مابين الحاصرتين من الذخيرة . انظر ١/ ٢/ ٨٣٩

(٥) في الذخيرة : ناشر ،وأثبت مافي الأصل . ١/ ٢/ ٨٤١ .

وقوله : (البسيط)

أطال شُغْلي فراغي مذْ حَلَلْتُ به إن الفراغَ من الأشغال أشغالُ
إن أبقَ في حمص تَبْقَ النار في حَجَرٍ (١) وإن أسِرْ سارَ في الآفاق سلسالُ

(١) في الأصل في حجري ، والصواب ما أثبت .

أبو حفص

عمر بن الحسن

الهوزني

ومنهم الوزير أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني : (١)

وهَوْزن الذي نسب إليه ،وغلب اسمه عليه : بطن من ذي الكَلاع الأصغر: طَوْد رسى شامخها ،وغُرَّة أيام سالَ في وجه الظلماء شارخها ،وباني مجد قديم لم تُغيِّرهُ الحوادث ،وباقي جَدّ كريم لم تُحصر في غيره المورث ،وحاطب ليلة الفَرَق الليلاء، وصاحب خيل الفرقة الخيلاء ،وهو جيش تلك الدَّولة وعديدُها ، ورأس تلك المِلَّة وعميدها ، فلما علم آخر الأمر من أوَّلِهِ ،وعرف مابعد كسر الباب وفتح مُقَفَّلِهِ ،توارى تحت ظل الخمول ،وجعل طلب البقاء قصارى المأمول ،فظلّ فضلّ يتقلب بين زَعْزَعٍ ،ورُخاء و يتعلَّلُ بين شِدَّة ورَخاء متوقّياً من المعتضد مساورة الأرقم ، ومتوقعا مساقاة العلقم (٢) ،إلى أن استراح ابنُه ، وأراح منه حينَه .

قال ابن بسّام : أفضى أمرُ إشبيلية (٣) إلى عباد ،وأبو حفص يومئذٍ

=:=

(١) هو أبو حفص عمر بن الحسن بن عبد الرحمن بن عمر بن عبد الله أبي سعيد الداخل بجزيرة الأندلس (٣٩٢- ٤٦٠) ،وطلب العلم على شيوخ الأندلس، ثم ارتحل سنة ٤٤٤ ،وأخذ عن علماء المشرق ،وأصبح متفننا في العلوم ،ولما قتله ابن عباد بيده أمر بدفنه بثيابه وقلنسوته ، وهيل عليه التراب الذخيرة ٢/ ١/ ٨١ ،والمغرب ١/ ٢٣٤ وترتيب المدارس ٤/ ٨٢٥ وغيرها

(٢) العلقم: الحنظل ،وكل شيء مر. (القاموس : ١٤٧٢)

(٣) اشبيلية : مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس أعظم منها تسمّى حمص أيضا ،وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره ،وبها كان بنو عباد ،ولمقامهم بها خربت قرطبة وهي قريبة من البحر يطل عليها جبل الشرف ،وهو جبل كثير الشجر والزيتون وسائر الفواكه ،يزرع فيها القطن ،وهي على شاطئ نهر عظيم قريب في العظم من دجلة أو النيل ،وتسير فيه المراكب المثقلة .
(معجم البلدان : لياقوت الحموي : ١/ ١٩٥)

ذاتُ نغبها ، وإياةُ شمسها ، وناجذُها الذي عنه تبتسمُ ، وواحدُها الذي (بيده)(1)

يَنقُضُ وَيُبْرِم ، وكان بينه وبين عبّاد قبل إفضاء الأمر (إليه ، ومدار الرّياسة

عليه) (٢) ، ائتلاف الفرقدين ، وتضافر اليدين ، واتصال الأُذُن بالعين ، فلما

ثبتت قدم المعتضد أوجس منه ذعراً ، وضاق بمكانه (من الحضرة) صدْرا ، وأحسّ

بها أبو حفص وكان ألمعيا ، وذكيا لوذعيا ، لو أخطأ الحازمَ أجَلُهُ ونفعت المحتالَ

حِيَلُهُ ، فاستأذن المعتضد في الرحلة ، فصادف غِرّتَه ، وكفيَ إلى صحّ معرّته ، والمحتلّ

صقلية(٣) تضيقُ عن فخره الآفاق ، وتهادى عجائبَ ذكرِهِ الشامُ والعراق ، ثم حجّ وروى

في طريقه كتاب (الترمذي) (٤) وعنه أخذ أهل المغرب ثم رجع إلى الأندلس ، ثم

=:=

(١) مابين الحاصرتين ليس في الأصل ، وانما أضيف من الذخيرة .

(٢) صقلية : من جزائر بحر المغرب مقابلة أفريقية ، وهي مثلثة الشكل ، هي جزيرة خصبة كثيرة البلدان والقرى والأمصار ، وفي وسطها جبل يسمى قصريانه ، وهي أعجوبة من عجائب الدهر ، وهي شاهقة في الهواء والأنهار ، كثيرة المواشي جدا وليس فيها سبع ولا حية ولا عقرب ، وفيها معدن الذهب والفضة ، وفيها ينبت الزعفران عمّرها المسلمون لما فتحوها .
(معجم البلدان لياقوت: ٣ / ٤١٦ ، ٤١٧)

(٣) استدرك من الذخيرة ، والترمذي : هو أبو جعفر محمد بن احمد بن نصر ، الفقيه الشافعي ، لم يكن للفقهاء الشافعية في وقته أرأس منه ولا أورع ، وكان يسكن ببغداد ، وكان ثقة من أهل العلم والفضل . توفي سنة ٢٩٥ هـ . (وفيات الأعيان : ٢ / ١٩٦) .

(٤) مرسية : مدينة بالأندلس من أعمال تدمير اختطها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن معاوية بن عبد الملك بن مروان وسمّاها تدمير بتدمر الشام ، وهي ذات أشجار وحدائق محدقة بها ، وبها كان منزل ابن مرذنيش وانعمرت في زمانه حتى صارت قاعدة الأندلس ، وإليها ينسب أبو غالب تمام بن غالب اللغوي المرسي يعرف بابن البناء ، صنف كتابا كبيرا في اللغة .
(معجم البلدان لياقوت : ٥ / ١٠٧)

سكن مُرْسِيَة (١) ، فلما غلب الروم على مدينة بَرْبُشْتَر (٢) ،استأذن المعتضد أين يسكن

فأشار عليه بالرجوع إلى بلده ، لا بل استدرجه إلى مَلْحَدِه ،فأذهله عما كان استشعر

وأنساه ما كان حَذِر ، (فاستقرّ) (٣) بإشبيلية ،ولقيه المعتضد فأعْلى المحل ،

وعوَّل عليه في العقد والحل ،ثم أُحضره للقصر ،وقد غلبَ - زعموا - عليه السُّكر ،

وأمر خادمين من فتيانه بقتله ،فكلاهما أشفقَ من سوء فعله ،وفرَّ،لا يبالي أسيمةَ

عبَّادَ أو سرّ ،فقام إليه هو بنفسه ،وباشر قتله بيده ،فلم يَنَلْ عبَّادَ بعده سولاً ،

ولا مُتِّعَ بدنياه إلاّ قليلا .

==:=

(١)كان ذلك في سنة ٤٥٦ كما بين ذلك ابن حيان في المقتبس ،وعنه نقل ابن بسام في الذخيرة ، وبربشتر بين لاردة وسرقسطة من الأندلس ،وانظر تفاصيل الحادثة في الذخيرة ٣/ ١/ ١٧٩

وبربشتر : مدينة عظيمة في شرقي الأندلس من أعمال بربطانية ،وقد صارت للروم في صدر سنة ٤٥٢ ،ولها حصون كثيرة ،منها حصن القصر وحصن الباكة

(معجم البلدان لياقوت : ١/ ٣٧٠)

(٢)في الأصل : حزر أتى أشبيلية ،والتصويب من الذخيرة .

أَبُو

القَاسِمِ بن مرزقان

ومنهم : الوزير (أبو)القاسم بن مرزقان : (١)

لسان مناظرة لا يعيا ، وإنسان محاضرة لا يموتُ جليسه ولا يحي ، بنوادرٍ حاضرة ردّت الشّوارد ، ووردت الموارد ، وصوّت بها الحادي والملاّح وصوّب التاجر والفلاح ، وجالت في الخافقين ، وحانت مابين الساقين ، فتَمَرّ من المقاصد مايُجنى وعمّر بيوتا عليها القصائد تُبنى ، إلى أدب رق سَلْسَالا ، واندفق فجرى استرسالا ، فلم يتكدّر ماؤُه ولم يتأشّر بداء الحاسدِ دواؤُه .

قال ابن بسّام : هو أكثرُ القوم قولا وإصابة ، فإنّه يُوفّقُ في إصابة الأغراض ، وكلامه سهل قريب ، فمّا أخرجتُ من شعره في أصناف شتى قوله في وصف شمعه ، محكمة الصنعة ، على صورة مدينة ، أهديتْ إلى المعتمد : (السريع) .

مدينةً في شمعةٍ صُوّرت	قامت حُماةً فوق أسوارِها
ومارأينا قبلَها روضةً	تَتّقِدُ النارُ بنُوّارِها
تصيّرُ الليلَ نهارا إذا	ماأقبلَتْ ترفلُ في نارِها
كأنها بعض الأيادي التي	تحت الدُّجى تسرى بأنوارِها
من ملكٍ معتمِدٍ ماجدٍ	بلادُه أوطانُ زُوّارِها
أكفُّ ذات الشعر تغنى به	وشعرُهُ حَلْيٌ لأشعارِها

وأصبح المعتمد على الله على حال راحته في القصر المبارك ، ودخل إليه الرشيد ابنه ، فتبادل الأنس معه ، ثم أمر باحضار من جرت عادته بمشاهدة المجلس

=:=

(١) هو الوزير الأديب أبو القاسم بن مزوقان ، له شعر رائق ، وانظر ترجمته في الذخيرة ٢/ ١/ ٥٢٠ والمغرب ١/ ٢٦١ وبدائع البداهة : ١١٤ والنفح ٢/ ٢٦٤، ٦١٤ و٤/ ١٢٤
وجاء في الأصل : الوزير القاسم وهو خطأ والصواب ما أثبت .
الذخيرة : ٢/ ١/ ٥٢٠

الكريم من الأصحاب ،فحضروا ،فقال (لهم (١) المعتمد بعد كلام (حذفناه للاختصار طلبا للمعنى) (٢) : قلت (البارحة) (٣) بيت شعر وهو : [الوافر) (٤)

بعثنا بالغزال إلى الغـزال ... وبالشمس المنيرة للهـــلال

وذلك أن المعتمد كان قد أمر بصناعة غزالين من ذهب ،فصنعا معـا من سبع مائة مثقال خالصة ،فأهدى أحدهما إلى الرشيد ابنه ،والآخرَ إلى السيّدة العروس بنت ابن مجاهد فقال في ذلك البيت المذكور ،وأحبَّ أن يُذَيِّـلَ ، فذيّلَ هذا البيت جماعة ممن حضر المجلس (ذلك اليوم) (٥) وممن لم يحضُرْه منهم أبوالقاسم ابن مزرقان ،وأصاب الغرض ،فقال : (الوافر)

بعثنا بالغزال إلى الغـزال ... وبالشمس المنيرة للهـلال
فذا سَكَني أُسَكِّنه فـؤادي ... وذا نَجْلي أُقَلِّـدُه المعالي
شَغَلْتُ بذا وذا خَلَدي ونفسي ... ولكنّي بـذاك رَخيُّ بال
زَفَفْتُ إلى يديه زِمامَ مُلْك ... مُحلّىً بالصّوارم والعَوالي
فقام يُقِرُّ عيني في مَضَـا ... وَيَسْلُكُ مَسلكي في كل حال
فَدُمْنا للعَلاءِ ودامَ فينا ... فإنّا لِلكِفاح ولِلنِّزال

== : = :

(١) مابين الحاصرتين ليس في الأصل واستدركناه من الذخيرة .
(٢) مابين الحاصرتين ليس في الأصل واستدركناه من الذخيرة .
(٣) ليس في الأصل واستدركناه من الذخيرة .
(٤) ليس في الأصل واستدركناه من الذخيرة
(٥) مابين الحاصرتين ليس في الأصل واستدركناه من الذخيرة .

ورفع أبو القاسم بن مرزقان قطعة شعر في مثل ذلك أيضا وهي :

(الرّمل) :

حاطِني القهوةَ مثلَ الجلّنارْ (١)	حَمَلتْها أكؤُسٌ مثلُ البَهارْ (٢)
وأدِرْها بين زَهْرٍ عَبِقٍ	واسْقِني وُدكبيرٍ بكبارْ
ملكٌ إن قلتُ من ربُّ العلا	فإليه كل مخلوقٍ أشارْ
لخميٌّ (٣) ماجدٌ معتمِدٌ	كلُّ عسرٍ حين تلقاه يسارْ
ما دجا ليلٌ على آملِهِ	كلُّ ليلٍ بأياديه نهارْ
بين كفّيْه وفي نادِيّهِ	ظبيةٌ ريقتُها صِرْفُ العُقارْ
عَجَبي منها وهذا أسدٌ	كيف لا تبعُدُ عنه بنِفارْ
أنِسَت من أنّها مُرْسَلَةٌ	باتّصالِ الوَصْلِ من أشرفِ دارْ
في حدودٍ تتهادى وبها	سترى في حَرَمٍ ذاتِ الفقارْ
لا عدت موضعَ لهوٍ وَدَدٍ	فلقد تنهض في خير سفارْ

=:=

(١) الجُلنار، بضم الجيم وفتح اللام المشددة: زهر الرمان، معرّب: كلنار

(القاموس: ٤٦٨)

(٢) البهار: نبت طيب الرائحة: وكل حسن منير.

(القاموس المحيط: ٤٥٣)

(٣) حركت للضرورة وهي من الضرائر القبيحة، إذ هي نسبة لقبيلة لخم بسكون الخاء والنسبة إليها: لخميٌّ.

ابو عبد الله

محمد بن ايمن

ومنهم : الوزير الكتاب أبوعبدالله محمد بن أيمن : (١)

سحبُه سواكب ، وأدبه لاتدافعه النجوم بالكواكب ، كان قيس زياد ، وقسهس رأي لايقابل بالعناد ، وفارسَ أدب ، يَنْكلُ عنه من انتدب ، فيرجع كل مقاوم وصَعْدتُه (٢) مكسورةً ، وأسرته مأسورة ، وهمّته قدظهرَ فتورُها وَعزْمتُه قدعتمّ صباحُها ديجورها ، وطريقه سهلٌ ، وبيتُهُ لغريب الدار أهلٌ .

قال ابن بسّام : وكان بأفقنا أعجوبةَ الدهر وَفَرْدَ العصر ، اشتهر في حَمَلة الأقلام ، اشتهارَ البدر في السماء ، وتلاعَبَ بغرائب الكلام ، تلاعُبَ الأفعال بالأسماء ، ولما صرف المتوكّلُ ذا الوزراتين أبا الوليد بن الحضرمي عن خدمته ، وقَبَض يَدَهُ عمّا كان يتصرّفُ فيه من تدبير دولته ، لم يُفوّضْ بعده إلى وزير ، ولاألقى إلى أحدٍ بأزِمّةِ ذلك التدبير ، غير أنّ ابن أيمن كان بمنزلة الرقيب من الحبيب ، لايحظى بَشَرٌ بنواله ، ولايطمعُ أحدٌ معه في وصاله ، ولما احتلّ الوزير أبو المُطَرِّف بن الدبّاغ حضرةَ بَطَلْيُوس ، خاف ابنُ أيمنَ أن يمحوَ سناهُ ، ويستولي على مداه ، فاشتعلت بينهما نارٌ مَلأ الآفاقَ شعاعُها ، وأخذ بعنان السماء ارتفاعُها . (٣)

==:=

(١) هوأبوعبدالله محمدبن أيمن الكاتب الأندلسي ، كان أديباًشاعراًناثراً ، وكان وزيراًللمتوكل ولماصرف ذاالوزارتين أباالوليدبن الحضرمي عن خدمته لم يفوّض بعده إلى وزير ، غير أن أباعبدالله كان من وزرائه ، ترجمته في الذخيرة ٢/٢/٦٥٢ والمغرب١/٣٦٦

(٢) الصعدة : القناة المستوية ، اتنبت كذلك .
(القاموس المحيط : ٤٧٤)

(٣) انظرالذخيرة : ٢/٢/٦٥٢ .

ومن نثره قوله :

لمّا وضحتْ في الصلاح معالمك ، ووقفت على الجهاد عزائمك ، وَجَبَ أن تُسْتَدعَى لما أعضل من الداء ، وتُستغاثَ لما أحاط بالجزيرة من البلاء ، فقد كانت (طوائف العدو المطيفة بها) (١) تُلاطَفُ بالاحتيال ، وتُسْتَنْزَلُ بالأموال ، ويُخرَج لها عن كل ذخيرة ، وتسترض بكلّ خطيرة حتى استصفى الطريف والتلاء وأتى على الظاهر والباطن (النفاد) (٢) ، وأيقنوا الآن بضعف المِنَن وقويت أطماعُهم في افتتاح المدن ، واضطرمت في كل ناحية نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسِنَّتُهم وشِفارُهم ، ومن أخطأهُ القتلُ منهم فإنما هم بأيديهم أسرى وسبايا ، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا ، وقد همّوا بما أراد ومن التَوَثُّب ، وأشرفوا على ماأمّلوه من التغلُّب ، فيالله وياللمُسْلمين !! أيسطو هكذا بالحق إفك ويغلبُ التوحيد الشِّرك ، ويظهرُ على الايمان الكفر ، ولا يكتنِف هذه الأمّة النصر ؟! ألا ناصرَ لهذا الدين المُهتضَم ، ولا حاميَ لما استُبيح من حمى الحرم ، وإنّا لله على مالحق عَرْشَهُ من ثلّ (٣) وعزّه من ذُلّ ، فإنها الرَّزيَّةُ (٤) التي ليس فيها عزاء ، والبليّةُ التي ليس مثلُها بلاء .

ومن قبل هذا ماكنتُ خاطبتك - أيّدكَ الله - بالنازلة في مدينة

=:

(١) في الأصل : فقد كانت الأعداء تلاطف . . . ، وأثبتنا مافي الذخيرة .

(٢) مابين الحاصرتين من الذخيرة ، وهي لازمة لاتمام السجع .

(٣) الثّل : السقوط ، وذهاب الملك (القاموس المحيط : ١٢٥٧)

(٤) الرزيّة : المصيبة . (القاموس : رزي)

قورية (١)- أعادها الله - وأنها مُؤذِنةٌ الجزيرة بالخلاء، ومن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم مازال ذلك التخاذل يتزايد، والتدابُرُ يتساندُ، حتى تخلّصت القضيّة، وتُعُجّلتِ البليّة وحصلت في يد العدو- قصمه الله- مدينة سُرْتَه (٢)، وعليها قلعة تجاوزت حدّ القلاع، في الحصانة والامتناع، وهي من المدينة كنقطة الدّائرة وواسطة القلادة، يُدْركها من جميع نواحيها، ويستوي في الاستضرار قاصيها ودانيها، وماهو إلا نَفَسٌ هافت، ورَمَق زاهق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالا، وتتداركوها رُكباناً ورجالا، وتنفروا خفافا وثقالا، وما أحُضُّكم على الجهاد بمافي كتاب الله تعالى فإنكم له أتلى، ولا أحرّضُكم على التّسَرّع إليه بما في حديث رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنكم إلى معرفته أهدى.

وكتابي هذا جملة، والشيخ الفقيه الواعظ يُفصّلها، ومشتملٌ على نكتة هو يُوضّحُها ويُبيّنُها، فإنه لمّا توجّه نحوك احتسابا، وتكلّف المشقّة إليك طالباً ثواباً، عوّلتُ على بيانه، ووثقتُ في عرض الحال عليك بفصاحة لسانه، وأنت بفضلك تستوعبُ مايؤدّيه استيعابَ المستوفي، وتُصغي إلى ماينهيه إصغاءَ الواعي، وتجِدُ منه مَضَضَ المرتَمِض (٣)، ؤ تتحرّكُ له تحرّكَ الممتعِض. (٤)

=:=

(١) قورية: مدينة من نواحي ماردة بالأندلس كانت للمسلمين وهي النصف بينها وبين سمورة مدينة الأفرنج. (معجم البلدان لياقوت: ٤/ ٤١٢)

(٢) سرته: اسم أعجمي ليس من أوزان العرب مثله: وهي مدينة بالأندلس متصلة الأعمال بأعمال شنت برية، وهي شرقي قرطبة منحرفة نحو الجوف، وقال الأندي: هو بجوف الأندلس.
(معجم البلدان لياقوت: ٣/ ٢٠٦- ٢٠٧)

(٣) المرتمض، الفعل ارتمض: اشتد عليه، وأقلقه.
(القاموس: ٨٣٠)

(٤) المتعض، الفعل معض: غضب وشق عليه.
(القاموس ٨٤٤)

ثم لم يزل يستشري الدّاء ، ويعمُّ أقطارَ الجزيرة البلاء ، وأمير المسلمين وناصر الدين مشغول ببقيّة حرب طوائف البرابرة المتغلّبين - كانوا - على أقطار العُدوة(١) ، فلم يزل يحيطُ أذاها ، ويضرحُ قذاها ، حتى سُلِكَتْ سبيلـهـا وطاب مستقرُّها ومقيلها ، وكان من أشدّ تلك الطوائف أيداً ، وأمتنها كيـداً ، العزّنشكاّت ، المتغلب - كان - على مدينة سَبْتَة وماوالاها ، فإنه جاهر بالخلاف سماعا وعيانا ، وشَغَلَ أميرَ المسلمين - رحمه الله - عن تلافي هذه الجزيرة زمانـاً ، إلى أن بلغ الكتابُ أجلَه ووقتَه ، وفُتِحَتْ على يديه سَبْتَة.

=:=

(١) العدوة : مدّ البصر ، اسم موضع في قول القتال الكلابي ، أنشده السكري فقال :
أنى اهتديت ابنة البكرين ام   من أهل عدوة أو بـرقـة الخـال .

(معجم البلدان لياقوت الحموي : ٤ / ٩٠)

أبو الحسن

صالح بن صالح

الشنتمري

ومنهم : أبو الحسن صالح بن صالح الشّنتمريّ (١)

سحابٌ هَطَل سافحاً ، وسحاطلٌ زهرِه فتوقّد نافحاً بصوت أدب كأنّ نوءه الغمامُ دالحا (٢) ، وكان أبوه الإمام صالحا ، فأثمر غصنُه وأوْرَق ، وتوقّد ذهنه وأحرق فشَبّ دون السوالف حريقا ، وشاب بِرُضابِ الغيد (٣) سلافاً رحيقاً ، وتهادت الشّرْبُ كؤوسَه ، وأطلع في غُرَرِ الأيام شموسَه فسَطَعَ نهاراً ، وجمع ماءً وناراً .

قال ابن بسّام: شَنْتَمَرِيُّ الأفق ، شاعر ، ناثر ، وله من المعرفة بلسان العرب حظ وافر ، وكلامُه في المماثلة والسّجع ، جارٍ على الطبع ، من رجلٍ شديد الحياء كثير الانقباض والانزواء ، يرى الكتابةَ عليه من أشقّ الأشياء ، لا لنبوِّ طَبْعٍ وقلةِ أدب ، بل لضعف عَصَب ، وفيما أثبتّ من قِسمي كلامه في نثرِه ونظمه ، شاهدٌ على ما وصفتُه به ، ومُنبّهٌ على فهمه وأدبه .

وأورد له من نثره قوله :

وله من رقعة عتاب : إنّا لله ، لقد غرقتُ من غِشّكَ في بحر عميق ، وامتُحِنْتُ منك بعدو في ثياب صديق (٤) : (الطويل)

ومن نكد الدنيا على الحُرِّ أن يرى   عَدُوّاً له مامن صداقته بُدُّ (٥)

=:=

(١) أبو الحسن صالح بن صالح الشنتمري نسبة الى شنتمرية بالأندلس أديب ناظم ناثر ، انظر ترجمته في الذخيرة ٢/٢/٥٧٤ والمغرب ١/٣٩٧ ، ورايات المبرزين : ٣٥

(٢) دالح : كثير الماء ، وجمعه : دلح . (القاموس المحيط : ٢٧٧)

(٣) الغيد ، جمع غادة : الحسان (القاموس : ٢٨٩)

(٤) مأخوذ من قول الشاعر أبي نواس

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت   له عن عدو في ثياب صديق

(٥) القائل المتنبي ، انظر ديوانه : ١٨٤

وقد كنت خاطبتك - لامسّك خطبٌ، ولا فُلّ لك غَرْب - (١) جارياً -علم الله - إلى التحقيق، آخذاً بما يلتزمه الصّديق للصّديق، غيرَ ملتفتٍ إلى تلك البوادر التي كانت الدعابة تجريها، وإدلالُ الوداد السَّبَبَ فيها، وماكان في كتابي شيء يقهمُهُ من أخلص نيّة، وأوى إلى حُسْن طويّة اللهم إلا إن كان ماضمّنته من التّبجيل، قدحرّفْتَهُ عن الوجه الجميل، وتأوّلته أقبحَ التأويل. (٢)

قال ابن بسّام: ومما لوّح فيه بالعتاب وزُخرِفَ بالتصنّع ظاهر الخطاب رقعة خاطب بها من أحوجته الأيامُ إلى مصانعته، وقدبدت منه بوادٍ، صوّب فيها وصعّد، وقام وقعد، قال فيها:

معلوم - أعزّك الله - أن لكل مقام مقالاً، ولكلّ حالٍ تناولا وحوالا، وكما لا يصلحُ الاكثارُ في كل خطاب، فكذلك الاختصارُ لا يسوغُ في كل كتاب، وفي النفس كوامنُ لا يمكنُ تبيينُها عليك، وتقريرُها لديك إلا بالتطويل، وإن أصار إلى التثقيل، وأنت بعُلاك تصرفُ إليها بالك، لما وُهِبَ لك أيها العماد من عِرْفانك ماوُهِبَ، وسُبّبَ من التّعلّق بك ماسُبّب، رأيتني قد رقيتُ إلى جوار الأفلاك، وجعلت الأخمصَ على ذروة السّماك، لما رجوت من الاعتزاز بجانبك العزيز. (٣)

وفي فصل منها:

وإني بحمدالله لمّن إذا عُلِم أُكرِمَ، وإذا جُرِّب قُرِّبَ، وإذا خُبِرَ ادُّخِرَ،

=:==

(١) الغرب: السهم. (القاموس المحيط: ١٥٣)

(٢) انظر الذخيرة: ابن بسام: ٥٧٨/٢/٢

(٣) انظر الذخيرة: ابن بسام: ٥٧٩/٢/٢

أما الإكرام فلما أحمله من الأدب ،الذي به يُرتقى إلى عَليّاتِ الرُتَب ،وأما الإدّخار فلا عتدالي في أحوالي ،وثقة جعلها الله في خلالي ،وعندي من الآلات التي تبعثُ على اتخاذي واستعمالي : أني أقولُ من الشّعْر أبْدَعَه ،ومن النثر أرفعَه ،وأنقدُ النقدَ الذي قلّ من يُجاريني فيه ،ويباريني في التكلّم على معانيه ، وإن كان خطّي لا يلحق بالخطوط القويّة الكتابيّة ،فإن ضَعْفَهُ لتَهمةٌ على جيد حظي ونَصيحةٌ على ذكاء فهمي واتّساع حفظي ، فمن المعلوم المعروف ،أنّ العلماء مخصوصون بضؤولة الخطوطِ ولطافة الحروف ، فكلٌّ يشهدُ أني أنهض إلى المطوّلات ،وأقتدرُ على المخاطبات السُّلطانيات ،وما أنا ممن يفتخر بخدمة الزمام ويجعلها ذريعةً إلى الإكرام : (الطويل)

معاذ إلهي إنني وعشيرتي (١) بنفسيَ عن ذلك المقام لراغب

ولكنني أفتخر - عند الاضطرار إلى الافتخار- أني حاملُ رواياتٍ وحافظُ لغاتٍ ،وذو شمائلَ تُنْسَبُ إلى مكرمات ،وما تطارحتُ قطُّ على زاهدٍ فيّ ،ولا أظهرت حرصاً على غير حرص عليّ ،بل كنتُ أُقابل الإباءَ بنظيره ،وأُظهر الاستغناء بظهيره ،وأنشد : (الوافر)

ولست بساقطٍ في قِدْرِ قومٍ وإن كرموا كما يقع الذُّباب

ورائيَ مذهبٌ عن كلّ ناءٍ بجانبهِ إذا عزَّ الذَّهاب

ولست أضرب المثل في سقوطي عليك ،وانجذابي إليك ، (ولكني أقول)(٢) : إني أسقطُ سقوطَ الطّلّ على الرياض وأتزيّنُ بخدمتك تزيُّنَ الجمال بالبياض .

=:=:=:=:=:=:=:=:=:=: :=:=:=:=:=:=: :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:

(١) في الأصل : إنني بعشيرتي ،وهوخطأ ،والصواب ماأثبت

(٢) مابين الحاصرتين ليس في الأصل أكملناه من الذخيرة .

وقوله في صفة القلم :

بخطّ البراعة ، ينال خطّ البراعة ، وأفضلُ أقلام الكتّاب ، المنتخبة للكتاب ، مالم يكن في طوله تعوّج ، ولا في صلابته ترجّج ، وكانت خصوصية العنصر الذي نماه ، وسجيّة المنبت الذي إليه منتماه ، وقد أخذتْ به مابين الدّقة المتناهية التي لاتُستَحْسَنُ ، والغِلَظِ المفرطِ الذي يُسْتَخْشَنُ ، وأقرّتْهُ على المقدار الذي لايقع اختيار الكاتب على سواه ، ولا يتعداه ، اقتراحُهُ ولا يتخطّاه ، ثم انتحى بَرْيَهُ ذو يمينٍ رفيقةٍ ، وسكّينٍ رقيقة ، فأجاد الشقّ وأحكم القَطّ ، وجاء به غيرَ شاق ولاعاق ، سلس الجَرَيان اذا أُرسِل ، موافقاً للبنانِ اذا أُعمل ، مُعْطياً لقيادِهِ غيرَ بخيلٍ بمدادِهِ : تَتَبّاه الأناملُ فَتَرْأَمُهُ (١) ، وتواصلُ العملَ به فلاتسأمُهُ .

قال ابن بسّام : ومن البديع في وصف القلم ماحكاه العتّابيُّ (٢) عن نفسه قال : سألني الأصمعيُّ (٣) فقال : أيُّ الأنابيب أصلحُ للكتابه وعليهما

==:-:=

(١) ترأمه : تقومه . (القاموس المحيط : ١٤٣٤)

(٢) هوكلثوم بن عمرو أبوعمرو العتّابي الكاتب الشاعر المصنف ، من أهل الشام سكن بغداد ، ومدح الرشيد واختص بالبرامكة ثم صحب طاهر بن الحسين وتوفي سنة ؟؟ ترجمته في الشعر والشعراء : ٧٤٠ ، والأغاني ١٣/١٠٧ ، ومعجم الأدباء ٦/٢١٢ وتاريخ بغداد ٢/٤٨٨ .

(٣) الأصمعي : هو عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي الأصمعي أبوسعيد توفي سنة ٢١٠هـ . صاحب النحو واللغة والأخبار والملح . وكان أتقن الناس لغة وكان متحرزا في التفسير .
(اشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين : عبد الباقي اليماني : ١٩٥) ، (وفيات الأعيان : ٣/١٧٠)

أصبر ؟ قلت مانَشِف بالهجير ما ؤه، وستر عن تلويحه غِشاؤه ، من التِّبرية القشور، الدُّرِّيّة الظهور ، الفِضِّيَّة الكسور ، قال : فأي نوع من البَرْي أكْتَبُ وأصْوبُ؟ قلت : البَرْيَةُ المستويةُ القَطّ ، عن يمين سِنّها بَرْيةٌ تأمنُ معها المَجَّةَ عند المَطّ ، الهواء في مَشَقّها فتيق ، والريح في جوفها خريق ، والمدادُ في خرطومها رقيق ، قال : فبقي الأصمعيُّ شاخصاً إليّ ضاحكاً لا يُحيرُ مسألةً ولا جوابا .

ومن شعره الطيّار المليح ، المتناهي في خفة الروح :

قوله : (الكامل)

أسنى ليالي الدّهر عنديَ ليلةً	لم أُخلِ فيها الكاسَ من إعمالِ
فرّقتُ فيها بين جَفْنيَ والكرى	وجمعت بين القُرْط والخلخالِ

وقوله : (الكامل)

للهِ ماصنعَ الحياءُ بصفحةٍ	لم تُبقِ عندي للتّجَلُّد مَذْهبا
كان البياضُ بها لُجيناً خالصا	فأحاله فغدا لُجَيْناً مُذْهَبا

وقوله ، مما أبهم فيه وإنما يكني عن قدح فَخّارٍ مُزَفّت ، قد اتخذ للمشروب : (الطويل)

وَخِلّ إذا قلّ المجيبونَ لم يزل	إلى كلّ ما أدعو إليه مجيبي
غدوتُ أخا التوفيق لما اتّخذتُهُ	أديبَ السّجايا وفق كلّ أديبِ
تخيّرتُه من نَجْر (1) آدمَ خالصاً	فكان أخي في نَجْرهِ ونسيبي (2)

(1) النجر: الأصل (القاموس : 616)

(2) انظر ابن بسام: الذخيرة : 2/2/584

وقوله أيضا (الكامل)

أملي من الدنيا تيسّر خلوة	أبكي بها وأبثّ سرّ هواكِ
حولي وحولكِ أعينٌ وسماعٌ	أخفي الهوى عنهنّ عند لقاكِ
حذراً عليكِ فديتِ بي ومخافةً	أن يقصروكِ ويحجبوا مسرآكِ
لولا الحياء وأن تشيع سريرتي	لنثرتُ شمْلَ الدمع حين أراكِ (١)

وقوله، يصف شرط المروءة ومكارم الأخلاق: (الطويل)

أحبُّ من الأقوام كلَّ نجيبِ	شريفٍ زكيِّ الوالدين حسيب
وإني لذو علم صحيحٍ يقينُه	بأنّ صديقَ الصّدق غيرُ غريب
ومِنْ خُلقي أني إذا ما وجدتُه	شددتُ عليه منه كفَّ رغيب (٢)
وإنّ نصيبَ الجار عند احتياجِه	إلى العون في مالي لَمِثْلُ نصيبي
وإنّ بعيدَ القوم ينزلُ ساحتي	ويأوي إلى ركني لَمِثْلُ قريبي
لحا اللهُ وهّاباً بطيئاً حِباؤُه	يجيءُ الذي يُعطيه بعد لُغوب (٣)
ولكنّ وهّاباً يهبُّ إلى الندى	كما هبّ عضْبٌ في يمينِ ضروبِ (٤،)
يحاذرُ أحداثَ الليالي وقلّما	خلا مِن توقّيهنّ قلبُ لبيبِ
ويرتابُ بالأيام عند سكونها	وما ارتابَ بالأيّام غيرُ أريب
وما الدهر في حالِ السكونِ بساكنٍ	ولكنّه مُستجْمِعٌ لِوُثوب

=:=

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٢ / ٥٨٤

(٢) في الأصل: شدد، والصواب ما اثبت

(٣) لغوب: لغب لغبا ولغوبا فهولاغب وهن لواغب: التعب الشديد والاعياء.
(القاموس المحيط: ١٧٢)

(٤) العضب: السيف القاطع.
(القاموس المحيط: ١٤٨)

وقوله في مثل ذلك : (الطويل)

حبيبٌ إليَّ الدهرَ اعطاءُ سائلي | وإكرام قُصّادي وعونُ خليلي
أهزُّ طباعي بل طباعي تَهُزُّني | إلى الجود لا أرضى طباع بخيلِ
وراحٍ كما افترَّ الصباحُ سَبَأْتُهـا | لطارقِ ليلٍ ماعَلَيَّ جليلِ (١)
نضوتُ بها عنه جلا بيبَ ليلةٍ | فعُوِّضَ من تعريسِهِ بمقيلِ
وما زلتُ أسقيه وأشربُ فَضْلَهُ | وكأسَ الكريمِ الفضلِ ذاتُ فضولِ
إلى أن تناهى طيبُهُ ونعيمُهُ | ومالت به الصهباءُ كلَّ مميلِ
فوطّأتُ مثوى جَنْبِه وكَنَنْتُهُ | بضافٍ (٢) لِصِنبِّرِ الشتاءِ قتولِ (٣)
وقلت له لمّا تعاظمَ عندهُ | صنيعي به ،هذا أقلُّ قليلِ
حَلَلْتُ بنا ليلاً وقد قسّم القِرى | فلم يَبْقَ فيه مَقْنَعٌ لأكيلِ (٤)
أقِم عندنا تستوفِ ما أنت أهلُهُ | فأنت لدنيا أهلُ كلِّ جميلِ
وإني لَمَّن تعتريه كآبةٌ | إذا آذنت أضيافُهُ برحيلِ

وقوله : (الكامل)

أبدى الحبيبُ تَعَجُّباً من طولِ مُكْـ | ـثِ الوَزْرِ عندي عندما أهداهُ
لم يَدْرِ أن دَوامَهُ في منزلي | مِنْ أجل أنَّ مَدامعي سُقْيا هُ

=====================================

(١) سبأتها : شربتها . (القاموس : ٥٣)

(٢) في الأصل : وكتبية بضا ف ، وهو خطأ ، والصّواب ما أثبت، وهو فيضان و كثير

(٣) صنبرو جمعه صنابر ، شدة البرد في الشتاء أو الريح الباردة (القاموس : ٥٤٨)

(٤) في الأصل : فلم يبق منه لأكيل ، والتصويب من الذخيرة .

وقوله : (الوافر)

وصافية كمعتقد الصديق	لها في الكأس ايماض البروق
كأنّ بكأسها ماتشتهيه	قلوب العاشقين من الحريق
إذا قبضت يد الساقي عليها	رأيت له أناملَ من عقيق
شبت وصاحبي عذب الثنايا	يعلّلني لما على الرحيق

أَبُو

أَصْبَغُ بْنُ أَرْقَمَ

ومنهم : الوزير أبو أَصْبَغ بن أرقم : (١)

مجرّع شُهدٍ وعلقم ، ومجرّبُ درياق (٢) وسُمّ ، ولا يُنكر أن ابن الأرقم طالما مدّ ظِلّهُ وأسبَغ ، وَحَالَ لونُ الدهر وأبو أصبَغ أبو أصبغ ، وكان ممهد مثوى ، جناب ومأوى ، جناه لقطوف الفضائل ، وجفاة الفواضل ، جرى طلقا في عنانها ، وسرى برقاً في عنانها .

قال ابن بسّام : أحدُ كتاب الجزيرة المَهَرَة ، والنَّقَدَةِ الشَّعَرَة ، ممن نهض في الصناعة بالباع الأَمدّ ، وأخذ فيها بالساعِد الأَشدّ ، وارتاض في طرقها معيداً ومُبديا ، ورمى إلى أغراضها مُصيبا ومُخطياً ، حتى تدرّجَ في مدارجها ، وخرج على جميع مناهجها ، واطّلع من ثناياها ، وأشرفَ على خباياها .

=:-:=:

(١) هو أبو الأصبغ عبد العزيز بن محمد بن أرقم النميري الوادياشي ، سكن المرية وأقام دانية مدة عند إقبال الدولة علي بن مجاهد ثم صار إلى المعتصم محمد بن صمادح ، وكان من وجوه رجاله ونبهاء أصحابه ، وقد توجه عنه رسولا إلى المعتمد بعد سنة ٤٦٠ هـ بصحبة أبي عبيد البكري والقاضي أبي بكر بن صاحب الأحباس وله «الأنوار في ضروب الأشعار» واختصره باسم "الأحداق" ، توفي في إمارة المعتمد بن عباد .

(انظر (الذخيرة : ٣/ ١/ ٣٦٠) و(التكملة : ١٧٣٥)

(٢) درياق والدراق والدرياقة ، كله الترياق ، معرب أيضا ، قال رؤبة :

قد كنت قبل الكبر الطلخم
وقبل نحض العضل الزميم
ريقي ودرياقي شفاء السم

وهو دواء السموم لغة في الدرياق ، والعرب تسمي الخمر ترياقا وترياقة لأنها تذهب الهم

(لسان العرب : ١٠/ ١٣٢)

وأورد له من نثره قوله من رقعة عن علي بن مجاهد (١) إلى المعز بن باديس (٢) صاحب افريقية :

أطال الله بقاء الملك الأجل ناظر عين الزمان، وروح جسم الأمان، وحسام عاتق الاسلام، وحلي جيد الأنام، ومهدي طوالِ الآمال، ومأوى شارد الإنعام والافضال، مُخلّدةً في الأنام دولته، مؤيّدةً مع الأيام مدته .

أنا - أيده الله - أمتُّ إلى دولته - خلّدها الله وأيّدها، كما وطّدها ومهّدها - بما أبأى به على الأقران، وأكافح كلَّ زمان، وأُفاوِحُ كلَّ بستان، وأُحرزُ كلَّ ميدان، (إلى) (٣) أن ارتقيت إلى سمائها، وصعِدتُ في سَوائها، مستسهلاً وعِرَ المرتقى، لسهل الملتقى، ومستعذبا مُرَّ المجتلى، لحلو المُجتنى، فشافهتُ

=:=

(١) علي بن مجاهد : هو علي بن مجاهد بن يوسف العامري : صاحب دانية "بالأندلس" وليها بعد وفاة أبيه سنة ٤٣٦هـ وتلقب بالموفق واشتهر بحبه لأهل العلم، والاحسان إليهم، وكان حسن السياسة، لين السعر بكة ونشبت فتنة بينه وبين المقتدر بن هود سنة ٤٦٨هـ فغلبه ابن هود وامتلك دانية، فخرج علي إلى "سرقسطة" فأقام فيها إلى أن توفي .

(الاعلام للزركلي : ٤/ ٣٢٢) .

(٢) المعز بن باديس : هو المعز بن باديس بن المنصور الصنهاجي : من ملوك الدولة الصنهاجية بافريقية، ولد بالمنصورية "من أعمال أفريقية" وولي بعد وفاة أبيه سنة ٤٠٦هـ وأمّره الحاكم الفاطمي "صاحب مصر والمغرب" ولقبه بشرف الدولة وساد الأمن في أيامه وبنى بنايات ومساجد أنفق عليها أموالا وافرة، وقرب العلماء وأكرمهم توفي بسبب ضعف الكبد، وهو أول من حمل الناس بافريقية على مذهب مالك وكان الأغلب عليهم مذهب أبي حنيفة .

(الأعلام للزركلي : ٧/ ٢٦٩- ٢٧٠)

(٣) مابين الحاصرتين أضفناه من الذخيرة .

بدْرَها ، وتسبوأتُ حِجْرَها ، وارتضعتُ دَرَّها ، على حين أجفانُ الفضل كليلةٌ ، وأقدامُ المجد معقولة ، وأيدي النصر مغلولة ، وإن قعدتُ عن مناسك فرضها ، فإني مُعيرُها ضميرا كما انبلجَ النهار ، وشكرا كما أَرِجَ (١) النوار ، وهل أنا الأحدُ أبنائها ، وشُهُب سمائها ، وشيعةِ علائها ، وحماةِ أرجائها ، وإن جَذَمَ(٢) نأي الدار كفّ الخيار ، ففي البعد اعتذار ، وفي الجهد إعذار وإنّ مع التجاور ليعمّ العيان ، ومع التحاور ليطمئنّ البرهان ، ومع التزاور لترود الأحوال ، ومع التقارب ليقع الإخلال ، والقوى المخلوقاتُ قريبةُ الانحلال ، سريعة الانفعال ، والنيِّرات على وفور ضيائها ، وظهورِ سناها وسنائها ، فيما لا يُقابل كليلةٌ ، وعندما لا يسامت عليلة ، وفيما لا ينال ظليلة .

وفي فصل منها : وقد عَلِمَ مبتلي السّرائر ، وحافظ البواطن والظواهر ، أنها بصيرتي التي أستشعرُ ، وسريرتي التي أُضمرُ ، وحقيقتي التي أخفي وأُظهِرُ وشريعتي التي بها أُسِرُّ وأَجْهَرُ ، وأنّ مقالي كفيلُ فَعالي في موالاة سيدنا - خلّد الله ملكه - على طول المدى ، وشطّ المنتأى ، وبُعْد المرمى ، ولما وقف الأمرُ على الحدّ الذي قدّمتُهُ ، والقصد الذي ذكرته ، والرّسم الذي أثبتّه ، لم استبدّ من إعلامه واستئماره ، ولم أقعد من استئذانه وإشعاره ، ولم أُنفذ إلا بعد استخباره (٣)

وقوله :

والحضرة العليّة معنًى هو شرحُها ، وشمسٌ هو صبحها ، وإن وهو

==:==

(١) أرج : توهج وأضاء . (القاموس المحيط : ٢٢٩)

(٢) الجذم : القطع . (القاموس المحيط : ١٤٠٤)

(٣) انظر ابن بسام : الذخيرة ٣/١/٣٦١

قرطها ،وجيد وهو عقدها ،ومِعْصَمٌ وهو سوارُها ،وعين وهو نورها ،ورأسٌ وهو عينها ،ومَبسم وهو ثغرها ،وَكَفٌّ وهو بَنَانُها ،ورمح وهو سنانُها ، وحسام وهوغِرارُها ،وسماء وهو بدرُها ،وروض وهو زهرُها ،وساق وهو قدمها ، ذلّل لها المستصعبات ،وفتح لها المبهماتِ ،وأوضح لها المشكلات ،وأضاء لها الظلمات ،وأن انتظامها به ، وكمال بهجتها بخدمته ،وتمام سعادتها بولايته ،وأَرَجَ نشْرها بمظاهرته ،وبروزَ سَبْقها بموازرته .

وكان للموفق أبي نَهْج بمُداخلتها ، ومفتتَحٌ لمراسَلتها ،لم يفارقْه -رضي الله مثواه- إلى فارق دنياه ،فكنتُ أبا عُذْرتها ،وفائقَ أكمتها ،وفاتحَ مُرْتَتَجها ،وسالكَ منهجها ، فبرزت بين أبناء مغربي في مداخلتها ، وعَرض صافيتي عليها ،وتوفير مكاتبتي ومراسلتي إليها في مركبي الذي أعلمتُه حالا في صفحة البحر ،وسويداء في مقلة العصر ،ووصلت بمكاتبتي من هولها كفو ،ولي ظهير ونشأ ،من أبناء أهل الخطر ،وذي الشرف والقدر ،ومن له الشِّيمُ الهادية ،والريحُ الساكنة ،والمناصحة البالغة ،فلان ،(أحد أبناء الحضرة ،وذوي السرْو والقدرة) (1) إلاّ أنّ أهلَ مغربنا مرتضعون العجمة ،مُدَّرِعون الجِشْمَةَ ، الثغور الخشنة ،ومجاذَبَة الألسن الثقيلة ، وممازَجة الأمزجة الكليلة ،فمن دُفِع منهم بعدُ إلى خدمة الخلافة العليّة ،وجاور الألسِنَة العَضْبة ، وشافَهَ النفوس الرَّطْبة ،وداخلَ الأمزجةَ العذبة ،وارتقى إلى سماء تلك العزّة ،فعذرُه مقبول ،وأمرُه على الاجتهاد الأصيل والاعتقاد النبيل محمول ،وما الأقلام وإن مَدَحَتْ ،ولا الأقوالُ وإن جَمَحَتْ ،ولا الأوصاف وإن سَمَحَتْ ،بمعبِّرات عما عنده من حسن الصاغية ،وخلوص الناحية ،والممالأة

=:=

(1) ما بين الحاصرتين استدركناه من الذخيرة

الصافية ، والمناصحة الزاكية ، والخدمة الوافية ، وإن بَعُدَ مثواه فلم يبعدْ من كانت الضمائر وسائِلَهُ ، والرياح رسائله ، ولا تكتمُ النيِّراتُ عن حَدَقِه ، ولا تنحرفُ أفلاكُها عن أُفُقِه ، ولا تتجافى مسالكُها عن طُرُقه . (١)

وقوله :

حضرة سيدنا أيده الله قلائد يروق على نحر الخلافة نظامها ، وتخفق على عاتق الثريّا أعلامها ، تبرئُ الأسماعَ من صممها ، وتشفي الصدورَ من وَحَرِها (٢) وتصحّ الجسوم من وَصَبِها ، وتريح النفوس من نَصَبِها ، كما تصكُّ أسماعَ العِدا ، وتخلع قلوب من ناوا (٣) ، وتقضُّ جسم من عصى ، وتقطعُ وريد من اعتدى ، فهي حياةٌ ورَدى ، وشهبٌ وقُضُبٌ (٤) ، ونجوم ورجوم ، لا بَرِحت تمطر الوَليَّ ربيعها ، والعدوَّ نجيعها ، ولا زال سيدُنا حسامَ عاتق المُلْك ، وواسطةَ ذلك السِّلْك ، وخالصةَ ذلك السَّبْك ، فإنه سرى إليَّ من مآثر حضرته ماأخجلَ المسكَ رياهُ ، وكَسَفَ الشمسَ محيّاه .

==:=

(١) انظر ابن بسام : الذخيرة ٣/١/ ٤٠٠

(٢) وحرها : حقدها وغلّها . (القاموس المحيط : ٦٣٢)

(٣) أي : ناوأ ، والتسهيل لإقامة السجع .

(٤) القضب : و مفردها القضيب : وهو السيف اللطيف ، والقضيب من القسي : عملت من غصن غير مشقوق أنشد الأعشى :

سلاجم ، كالنحل ، أنحى لها قضيب سراء قليل الأبن

(لسان العرب : ١/ ٦٧٨)

ابو عبد الله

محمد بن مسلم

ومنهم : أبو عبد الله محمد بن مسلم : (١)

مُزنة أنواء غِزار، ومَزيّةُ أنوار لا يلم بحقبها غِرار، قُرْطُ عقائل المعاني وقرطقُها (٢)، وتاج معاقل المعالي ومنطقُها، بأدب كم أبْدَعَ غديرا، وأكْرَعَ غزيرا، وجرى ذهنه مندفقا، وجوزي فبلغ الغاية مترفقا، إلى محاسنَ كم وهبت الكحلَ أجفانا، وأنهبت قرى الخواطر أحواضا دوافق وجفانا.

قال ابن بسّام : آية الزمن، ونهاية الفطنة واللّسَن، نفث بالسحر، واغْتَرَفَ من البَحر، ونظمَ الدُّرَر بلألاء من الدر، ولم أظفر عند وضعي لهذا الديوان، بشيء مما له من الاحسان، إلاّ بفصول من رسائل، سمّاها "طي المراحل" سَبَق في ميدانها عفوا، وتصرّف بين حسنها وإحسانها تصرّفاً حلوا، وقد اقتضيتُ من فصولها، مايشهدُ بتفضيلها وحذفتُ سائِرَها لطولها، دللتُ بها على فضل مُنشيها، دلالةَ الشمس على ما يليها.

وأورد له من نثره قوله :

(٣)
حتى وصلنا إلى دار منفرجة الأقطار، مستوقدة الأنوار، (متدفقة الأنهار) هواؤها جلاء للغم، وزيادةٌ في العمر، وضياؤُها شفاء للكظم، وانشراح للصدر، وكأنّ مياهها تنبعثُ من بنان سيدها، فصارت عينا سلسبيلا، وكان مزاجُها

=:=

(١) هوأبوعبد الله محمد بن مسلم الدّاني الكاتب الوزيرالأديب، كان رسولا إلى بعض ملوك الطوائف عن إقبال الدولة بن مجاهد حين نازعه المقتدر أحد الحصون.
(ترجمته في (الذخيرة: ٣ / ١ / ٤٢٧) و(المغرب: ٢ / ٤٥٠) وغيرها.

(٢) قرطقها : هونوع من اللباس، والقرطق في حديث منصور: جاء الغلام وعليه قرطق أبيض أي قباء، وهوتعريب كرته، وقد تضمّ طاؤه.
(لسان العرب : ١ / ٣٢٣)

(٣) مابين الحاصرتين أضفناه من الذخيرة.

زنجبيلا (١)، أو كأنما مسّتْ عَيْنا حيواناً، فأنبتت الزَّبرجدَ ريحانا، ومن الزمرد شجراً فينانا، وجَعَلتْ من النّارنج (٢) عِقيانا، ومن زهر الآس لؤلؤا ومرجانا، وميل بنا إلى "التاج" وهو موضوع على مغرق القصر، من جانب البحر، مُرّدٌ من قوارير وألبس الصبح المستنير وقُلّد قلادةَ الطاوس، ونقّط نَقْطَ العروس، فمن يقول هو قبةُ الفلك، ومن يقول هو السماء ذات الحبك، وإنهم ((لَفِي قَوْلٍ مُخْتلِفٍ، يُؤْفَكُ عنه مَنْ أُفِك)) (٣) ونظرنا في صدره من الملك الهُمام، كالشمس تجلّت من الغمام، فقضينا فرض السلام، وأخذنا مراتب القعود إلى الطعام، يطاف علينا بصحاف من فضة وذهب، وجفانٍ كالجواب أُترعتْ من كلّ أرَب، فلما أتينا على الرّيّ قمنا إلى الوضوء، فجيء بطساسٍ (٤) من التبر، وأباريق رُصّعت بالدُّرّ، ووضئنا بماء قوامه بلور ومزاجُه كافور، ثم قمنا إلى المصنع "الزاهر" (٥) وهو نظير "التاج" من الجانب الآخر لما أُعِدّ فيه للشراب، مابَهَرَ الألباب، فألفينا موردا عذبا، ومحلا رحبا، كأنّ أطباقَه مُقَلُ الجفون، مُلئت من قرّة العيون، وأكوابُه مراشف الحور، تُعَلّ بنُطَفِ الثغور، طَلَعَتْ منها شجرةٌ مباركة

=:=

(١) إشارة إلى قوله تعالى ((ويُسقوْن فيها كأساكان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمّى سلسبيلا)) الانسان : ١٧-١٨

(٢) النارنج : ويسمى أيضا : البرتقال المر، اسمه العلمي "سترس اورانتيوم"، من الفصيلة السذبية موطنه شرق الهند شجرة متوسطة الحجم، شائكة زهرته بيضاء عطرة، ثمرته أشبه بثمرة البرتقال العادي ولكن سطحها خشن، ولبها مرمز، يستعمل قشره في صناعة المربى .
(الموسوعة العربية الميسرة: ٢/ ١٨١٥)

(٣) إشارة إلى قوله تعالى : ((والسّماء ذات الحبك . إنكم لفي قول مختلف . يؤفك عنه من أفك)) الذاريات : ٧ - ٩)

(٤) الطاس: الطست (القاموس المحيط : ٧١٤)

(٥) الزاهر: سمي بذلك لبياضه، والزهرة في الفلك الثالث من القمر، وهو منسوب اليه .
(اللسان ٤/ ٣٣٢)

النوى ((أصلُها ثابت وفرعها في السّماء)) (١) صـــــــــيـــــــــغ عودها من الحلي المنبل، وقام عمودُها كأنبوب السّقي المُذَلّل، والتفّتْ بأغصانها التفافَ الذوائب الجعدة، والتقَتْ أفنانُها التقاء الصَّعْدَة (٢) بالصَّعْدة، فبينا نـــحن نعجب من شأنها، ونستغربُ مناظر زهرها وأفنانها، انسطع من جُرثومَتِها (٣) دخان المجمر، وارتفع من خلال لبسها غبارُ العَرْف المعطرّ، من دون أن يبدوَ إلى العيان نارها، ويُعْلَمَ أين يوقدُ هنديّها وغارها، فقلنا: تبارك الله كيف تحرق نارتخالها هامدة، وتورق أشجار تحسبها جامدة، إنّ الذي أنطق الجذع والحصى، وخلق الحيّة من العصا وأطفأ النار بعد أن كانت ضراما، وقال: كوني علـــى ابراهيم بردا وسلاما (٤)، لقادر على أن يورقَ الصلاد (٥) كما أُنطق الجماد، وعلى أن يُعطِلَ النار في الخمود، كما أبطلها عند الوقود، وقام بالجريال (٦) ساقٍ جعل المنديل مكان حمائل السيف الطويل، وأدار نجوما بُروجُها أيدينا، وشموسا تطلُع منه وتغرُبُ فينا، ولما كنتُ لا أشربُ إلا مُشْتَبهَ الشّراب، كالمِزر (٧)

=:

(١) إشارة الى قوله تعالى ((ألم تركيف ضرب الله مثلاكلمة طيبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء)) (سورة ابراهيم: ٢٤)

(٢) الصعدة: القناة المستويه. (القاموس المحيط: ٣٧٤)

(٣) جرثومتها: أصلها (القاموس المحيط: ١٤٠٥)

(٤) إشارة إلى قوله تعالى: ((يانار كوني بردا وسلاما على ابراهيم)) الأنبياء: ٦٩

(٥) الصلاد: الصلب اليابس الذي لاينقدح. (القاموس: ٣٧٥)

(٦) الجريال: صبغ أحمر كحمرة الذهب، وسلافه العصفر، وما خلص من لون أحمر وغيره وكذلك الخمر، وهنا الخمرة التي هذا لونها. (القاموس المحيط: ١٢٦١)

(٧) المزر: الأصل، ونبيذ الشعير والحنطة والحبوب، وقيل نبيذ الذرة خاصة، والمزر والتمزر: الترويق والشرب القليل، وقيل: الشرب بمرة (لسان العرب: ٥/ ١٧٢)

والدّوشاب، قُدّم إليّ قعْبٌ (١) من نبيذ الأزاذ (٢)، ومصري الدّاذ (٣)، فرفع نديمي شبهًا بًا، وأبرزتُ أنا غرابا. (٤)

وأوحى إلى المزمار أن يَنْطِق، وإلى الأوتار أن تَخْفِق، وإلى الغناء أن يذيبَ القلوب، ويشقّ الجيوبَ، ويحثّ الشّمول، ويكفي الساقي أن يقول، وقد أُشبِلت على بهو السماع، وقبة الغناء قطعةٌ من الخسراوان (٥) اللازورديّة الحرير، قد أُلهِب بالذهب نحورها (وحواشيها) (٦)، وقُرِنتْ بالعسجد (٧) أسافِلُها وأعاليها، وكحلت بأسلاك الجوهر خطوطُها ورُسُومُها، ووُصِلت بالياقوت الأحمر دوائرُها ورقومها، كطرّة (٨) الصباح نُقِّطت (بالنجوم) (٩)، ولَبَّةِ الفجر رُصِّعتْ بغير كواكب الرجوم، فاندفعت منهـا بلابل الدراري تغرِّد، وحمائم الأوتار

=:=

(١) القعب: القدح الضخم الجافي أو الذي يروي الرجل، وجمعه أقعاب. (القاموس: ١٦٢)

(٢) نبيذ الأزاذ: نبيذ التمر. (القاموس المحيط: ٤٢٢)

(٣) الداذ: شراب للفساق كثير الجوز. (القاموس: ٤٢٥)

(٤) ابن بسام: الذخيرة ٣/١/٤٣١.

(٥) الخسروان: نوع من أنواع القماش أو الثياب.

(٦) ما بين الحاصرتين ليس في الأصل، استدركناه من الذخيرة، وهو لازم لاقامة السجع.

(٧) العسجد: الذهب، والجوهر كله، كالدر والياقوت. (القاموس: ٣٨١)

(٨) الطرة: الناصية. (القاموس: ٥٥٣)

(٩) أكملت من الذخيرة.

تَصوِّب وتُصَعِّد، وأطيارُ المعازف تتجاوب، وأصناف الملاهي تتناوب، وأقْبَلَتْ نجومُ الطاس (١) تتكدر في الصدور، وقلوبُ الناس تنتشر في الحجور، ومابقي عقل لم يقع في شَرَك، ولا جيبٌ كان في شقّه من دَرَك. (٢)

وقوله:

وإني فصلتُ عن تلك الحضرة بعد أيام كأيام الشباب، وليالٍ كذوائب الكَعاب (٣)، سكنّا منها في السّواد من القلوب، وسلكنا بين المخانق والجيوب، أُنقلُ من يد الى يد، وأُحْمَلُ بين جفن وخَلَد، إن ظمئتُ سُقيتُ بردَ السرور على الأكباد، أو طربتُ أُطعمتُ حلاوةَ الوداد في الأخلاد، ولله يوم "التاج" و"الزاهر"، عند الملك الماجد الباهر، فياله من أنسٍ وطيب، بين الخَوَرْنَق (٤) والكثيب (٥)، في مجلس كأنما أُلِّفَتْ قواريرُه من خدود وثغور، وثاره من نهود ونحور، صعدنا فيه إلى العلياء، وصرنا كأننا من أهل السماء، نشرب النجوم بالأقداح، ونحي الجسومَ بالأرواح، فبتنا فاكهين فرحين، نزمر بالكؤوس، ونرقص بالرؤوس، ونثاقف الإخوان، ونواقف الندمان، مواقفة الكرام، بشرب المُدام، لا بحدّ الحسام، نسقي وُدَّ الصديق للصديق، ونطلبُ الصَّبوحَ بثأر الغَبوق، حتى أَخْجَلْنا الشمس بضياء الراح، وقمنا نقُدّ السراج من ضوء الصباح، وقلنا: بدين المسيح، يعبُدُه كلُّ مليح، فطفناحول

= : =

(١) الطاس: الإناء يشرب فيه. (القاموس: ٤ (٢١٤)

(٢) انظر ابن بسام: الذخيرة ٣/١/٤٣٤.

(٣) الكعاب بفتح الكاف: اصطلاح للشرف والمجد. (اللسان: ١/٧١٩)

(٤) الخورنق: قصر كان بظهر الحيرة، أمر ببنائه النعمان بن أمرئ القيس ابن عمرو بن لخم بن عدي بني الخورنق في ستين سنة، بناه له رجل من الروم يقال له سنّمار.
(معجم البلدان لياقوت: ٢/٤٠١)

(٥) الكثيب: قرية لبني محارب بن عمرو بن ربيعة من عبد القيس بالبحرين.
(معجم البلدان لياقوت: ٤/٤٣٨)

الدّنان ،بمصابيح الرهبان ،وما زلنا نسمعُ باقتراح ،ونشربُ على كل ارتياح ،ونصلُ اقتباقاباصطباح ، حتى شبّت مصابيحنا لقُفّال (١) ،وحال أوانُ ظعن وارتحال فخرجت كالمقلة استلّتْ من الأشفار (٢) ، والنفس انتزعت من فلوذ أعشار (٣) ، ثم ارتحلتُ من الغد عن مقام كريم ، إلى عذاب أليم ، لا أملِكُ فيه أدمُعي ولا أجد نفسي (معي) (٤) ، وسرنابين جبالٍ وحشةٍ ،ومياه دهشة ،فَصَارَدَتْنا (٥) من ريح عاد ، ذات صِرّ وأبراد ،أَضْرَمَتْ نارَ البُرَحاء (٦) ، وكظمت أنفاس الصُّعداء ،ومن أُخِذَ بكظمه كيف يرجو الحياة ، ومن أطبق بفمّه أين يجد النجاة ؟ وما شكّ غمامُ الثلج المنثور ،أنّي من أصحاب القبور ،فجعل يُهدي إليّ حَنُوطا (٧) ،وذروراً (٨) ويندفُ عليّ قطنا وينثر كافورا ،فلما تمّتِ الأكفانُ ،وصحّ الاندفان طلعتْ إليّ غُرّةَ الحاجب سيف الدّولة أبي الفتوح (٩) ،فقمت وقد انجلت عني المِحَنُ ، وانتفضت فطار القبر والكَفَنُ ، ومدّ إليّ يدَ الرضوان ،وغمسني في نهرالحيوان ،فجعلت أطرف كما يطرف الفجر في سُدْفَةِ الليل ،وأنبتُ كما تنبتُ الحبّةُ في حَميل السيل ،ورأيت ملكا تقرأ النفاسةَ بين عينيه ، وتبصر الرياسة طَوْعَ يديه ،حُلّيَ

=:=

(١) القفّال : الرفقة القفال ،والمبتدئة في السفرتفاؤلا بالرجوع . (القاموس المحيط : ١٣٥٥)

(٢) الأشفارجمع مفرده شُفر : أصل منبت الشعرفي الجفن . (القاموس : ٥٣٦)

(٣) أعشار : مكسرة على عشرقطع ،أوعظيمة لا يحملها الاعشرة . (القاموس: ٥٦٥)

(٤) أضيفت من الذخيرة

(٥) صاردتنا : وجدنا البردسريعا . (القاموس : ٣٧٤)

(٦) البرحاء : الحمى والريح الحارة في الصيف . (القاموس : ٢٧٢)

(٧) الحنوط : كلّ طيب يخلط للميت . (القاموس : ٨٥٦)

(٨) الذرور : العطر . (القاموس : ٥٠٧)

(٩) سيف الدولة الحمداني : مرت ترجمته صفحة ٦٤

السيفُ باسمه فرقّتْ مضاربه ، وتّوجَ المُلْك مفرقَهُ فَعزّتْ جوانبه ، جواد يَنْدى في كفه الجماد ، وتقدح بنبله الزناد ، ويُقْتَبَسُ من وجهه الكوكب الوقاد ، وعلى أعراقها تجري الجياد ، كيف يُعْجَبُ للسيف أن يقطعَ ، ومن حديد الهند طُبِع ، وللبدر أن يُشّرِق ، ومن نور الشمس استُرق ، وللبحر أن يزخر ، وعن الريح المرسلة أخبر . (١)

وقوله :

ومرّت لنا الأيام لا نستطيع بَراحا ، ولا نلَذُّ غدُوا ولا رواحا ، فلما انقضت ليالٍ خمس ، التفتتنا الشمسَ والتفات البِكْر ، من خلال السِّتْر ، وصَمَت الماءُ من خريره ، والهواءَ من صَرِيره ، فقلنا : قد يكونُ الرضى صُماتا ، والإذنُ التفاتا ، وأخذنا في التفويض وأسرعنا بالنهوض ، ومازلنا في مسلكنا نموت ونحيا ، ونتَقلّبُ بين الآخرة والأولى ، حتى اصطلينا بنار الحاجب سيف الدولة أبي الفتوح ، فقابل بوجهٍ طَلْق ، وخُلُقٍ سمح ، فلما صرنا في ذَراهُ ، وكَنَفَتْنا نُعماه [أنشدنا : (المتقارب)

فقل للسماء أرعدي وابرقي فانا رَجَعْنا إلى المنزل] (٢)

=:

(١) انظر ابن بسام : الذخيرة ٣ / ١ / ٤٢٥

(٢) مابين الحاصرتين ساقط من الأصل ، وأكملناه من الخيرة : ٣ / ١ / ٤٣٩

وقولـه :

ثم توجهت تلقاء مَدْيَنِ الأصعد ، (١) ، وموطن السُّؤدد ، حضره المعتضد بالله وكان طريقي إليها على قرطبة (٢) ، وكثيراً ماكنت أفرحُ بإتيانها ، وإن كانت على هَرَمٍ ، وأتمنى وقفة ولو على قَدَمٍ ، وأرغب في زيارتها ولو لِمَاما ، وأودُّ رؤيتها ولو مناما ، لِأَلْمَحَ دارَ الخلافة ، وأرى بيت الرئاسة ، فخرج إليَّ أبو الحسن بن يحيي الوزير الجوهري (٣) ، فأراني بِحُسْنِ سَمْتِهِ وكلامه ، ورجاحةِ عقلـه وتمامه ، مراتـبَ

==:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=: :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) مدين الأصعد : مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى ، عليه السّلام ، لسائمة شعيب ، عليه السّلام ، ومدين اسم القبيلة ، وهي مدينة قوم شعيب ، عليه السّلام ، سميت بمدين بن ابراهيم ، عليه السّلام ، قال القاضي أبو عبد الله القضاعي : مدين وخيرها من كورة مصر القبلية وقال الحازمي : بين وادي القرى والشام ، وقيل : مدين تجاه تبوك بين المدينة والشام ، وقيل مدين هي كفرمنده من أعمال طبرية .
(معجم البلدان لياقوت : ٥ / ٧٧ - ٧٨)

(٢) قرطبة : قاعدة الأندلس أم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها ، وهي في ذاتهـا مدن خمس يتلو بعضها بعضا ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفيها المسجد الجامع الذي ليس في مساجد المسلمين مثله تنميقا وطولا وعرضا .

(معجم البلدان : ٤/ ٣٢٣)

(٣) أبو الحسن الجوهري : هو علي بن الجعد بن عبيد الهاشمي ، الجوهري ، البغدادي (أبو الحسن محدث ، حافظ ، من أهل بغداد .

(شذرات الذهب ٢ / ٦٨)

الوزراء المتقدمين ، ومناصبَ الفضلاء السابقين ، فلما أدّيتُ الرّسالة ، جعلتُ

أسلكُ في منازِلِ المدينة ، وأنظر إلى تلك المشابهة المبينة ، فإذا برسومها قائمة

الأعلام ، ورموزِها مفهومةُ الكلام ، ونُصُبها ماثلةُ الشكل والقيام ، إلاّ أنها كَرَداحٍ

مُسَنَّةٍ زَمانةٍ (١) ، ورَبحلَةٍ (٢) ، أدركَتْها من السّنّ مهانة (٣) ، لم يبق منها إلا

رسومٌ من الحسن كانتشاء الطّرفِ ، وإن مالت أجفانٌ ، وخطوط من الجمال كاعتدال

الأنف وإن سَقَطَتْ أسنانٌ ، لكنّها لم تفارقْ عِطرَها ، وإن كانت بَعْدَ عروس ، ولا تركت

بزّها ، وإن لم تطمعْ بِعَسِيس ، ولا دنّسَتْ ثيابَها ، وإن كانت أسمالا ، ولا عفت شبابها ،

وإن تجاوزت اكتهالا ، فوقع بين قلبي ورَوْنقها سِفاح (٤) لم يصدّقْه نكاح ،

وأمتع شجّي بِعَبقِها لصوق ، لم يلْحَقْه رَفَث ولا فسوق ، ووقفت بالقصر المرواني ،

وطفت على المصنع القحطاني ، وانتبذت إلى المَنْزَه العبدي الرحماني ، فإذا

الثلاثُ الأثافيّ (٥) والديار البلاقع ، فأخذت بالسنّة في ديار ثمود (٦) ، واسكب

الدموعَ وأُجَدِّدُ المعبودَ ، فقال قريبُنا : هنا كانت قصورُهم ، وهناك هي قبورُهم ،

=:=:=:=:=:=:=: :=

(١) رداح مسنة زمانة : بيت أصيب بعاهة (القاموس: ٢٨٠)

(٢) في الأصل : مشتهى زمانه وربحله : وهوخطأ ، والصواب ما أثبت ، والرّبحلة : المسنّة جيده الخلق . (القاموس المحيط : ١٢٩٦)

(٣) السفاح : الفجور . (القاموس المحيط : ٢٨٧)

(٤) الأثافي جمع أثفية : العدد الكثير : القطعة من الجبل يجعل الى جنبها اثنتان ، فتكون القطعة متصله بالجبل . (اللسان : ١٠٢٢)

(٥) ثمود : قوم من قدماء العرب باد واقبل عصر النبي صلى الله عليه وسلم مثل عاد جاء في القرآن كثيرما حل بعاد وثمود ، كان لثمود نبي يدعى صالح بن عبيد ، كان هلاك ثمود فيما بين عامي ٤٠٠-٦٠٠ م . انظر (الموسوعة العربية الميسرة : ١/٨٢) .

قد صارت مفاصلُهم ترابا ، ومساكنُهم يبابا (١) ، وقد عادوا يسكنون القبور ، وكانوا يستهجنون القصور ، وظلوا يعتنقون الجلمود (٢) ، وكانوا يسترهفون النهود ، وصاروا يلزمون الطين ، وكانوا يعلّون حشايا اللّين . فقلت : أين من كان هنــا من القيول الأبيّة ، والملوك الأمويّة ، ذوي التيجان ، المنظومة بالمرجان ، والملابس المرقومةِ بالعقيان ، والفُرش المرفوعة إلى السّماك ، والعُرُش الموضوعة على السّماك وقد نُضّدَتْ بالنمارق (٣) ، ومُهّدت على الأرائك ، وحفّت بالجنود ، عند القعود للسلام والأحكام ، وأين أسرابُ تلك الجواري الكُنّس (٤) ، في مُروط السّنْدس ، كأنها ما استعارت من الكُثبان أكفالا ، ولا من الأغصان اعتدالا ، ولا من الرّوض أردانا ، ولا من الظباء أجفانا ، ولا رَنَتْ إحداهنّ عن جَفْن هَمّ بالتّهويم ، فتَنَبّهَهُ النّديــم ، ونظر نظرة في النجوم ، فقال إني سقيم ، والآن : قد كُحِلَتْ تلك العيون بالتراب ، وكان كُحْلُها كَحَلا ، ولصقتْ تلك الخدود بالكثبان وكان تقبيلها أملا ، وانهالــت تلك الأدعاصُ (٥) ، في الصعيد ، وكان التفاتها جَذَلا ، فوقفتُ معتبرا ، وما أبقيت عَبْرَة إلاّ ارسلتُها ، ولا دمعةً الاّ أسْبَلْتُها ، بكاءً على المآل ، لا على الأطلال ، وعلــى

=:=

(١) يباب : خراب . (القاموس المحيط : ١٨٦)

(٢) الجلمود : مأخوذ من قول امرئ القيس في معلقته :

مكر مفر مُقبل مُدبر معـا — كجلمود صخر حطّه السيل من عـــل

والجلمود : الضخم الشديد . (لسان العرب : ٣ / ١٢٩)

(٣) النمارق : الوسائد . (القاموس المحيط : ١١٩٦)

(٤) الجواري الكنس : هي الخنس لأنها تكنس في المغيب ، كالظباء في الكنس ، أو هي كل النجوم ، لأنها تبدو ليلا وتخفى نهارا

(القاموس : ٧٣٦)

(٥) الأدعاص ومفردها دعص : القطعة المستديرة من الرمل ، أو الكثيب منه المجتمع والصغير . (القاموس : ٧٩٨)

المصار ، لاعلى تلك الديار ، وعلى فقد الأحباب ، لاعلى الخراب . (١)

ثم جئنا إلى المسجد الجامع ، ونظرت من تلك المصانع ، فرأيت بنيانا بديعا ، وإيوانا رفيعا ، شاده ذو عزم وتأييد ، وبناه أولو قوة وأولو بأس شديد ، فكأنما أرسَتْه عاد ، أو بَنَتْه ملائكةٌ غِلاظ شداد ، ومشينا من رُتبة إلى رتبة ، ومن قبّةٍ إلى قبّة ، حتى انتهينا (إلى) (٢) المقصورة ، فألفينا سُقُفا من فضة ومعارجَ إلى الجنة قد قرّط سَمْكُها بالذهب الأحمر ، والفلِزّ الأخضر ، وبُلّط سَطْحُها بماء الجوهر ، وكافور العرمر ، فكأنّ قبابَها قد عُقِدتْ بالجفون الدُّعْج (٣) ، والحواجب البُلْج (٤) ، وكأن درجاتِ منبرها تكاسيرُ الشعور ، مالت على متون الحُور ، أو مناطق الأعكان ضمّت على الخصور اللّدان ، أُلّف من عاج كالمباسم ، نُقِش نَقْشَ الدارهم ، وأبنوسٍ (٥) كالغدائر ، طبع طبع الدنانير ، وصندلٍ (٥) كأطراف البنان ، كُتِبتْ

==:=:=:= =:=:=:= =:=:=:=:=:=:==:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) انظر ابن بسام: الذخيرة : ٣/ ١/ ٤٤٠ .

(٢) اضافة من الذخيرة ٣/ ١/ ٤٤٢

(٣) الدعج : السود (القاموس المحيط : ٢٤١

(٤) الأعكان : جمع عكنة ، وهي ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا . (القاموس المحيط : ٥٦٩)

(٥) الأبنوس : خشب قاتم جميل لونه أسود ، وهو الخشب الصميمي لعدد من الأشجار الاستوائية التي تنتمي غالبا إلى جنس " ديهيروس " وهو خشب فائق الصلادة ممتاز الصقل ، وهو منتشر في آسيا وأفريقيا .

(الموسوعة العربية الميسرة لمحمد غربال : ١/ ٣٠)

بمهذب الأجفان ثم اعتمدنا إلى المحراب ، فكلٌّ خرَّ راكعا وأناب ، وجيّ بمصحف عثمان ذي النورين ، يحمل على المفرق واليدين ، فلما خُلعتْ مطارفُه ، وفُتِحتْ صحائفه ، إذا بمُدْرَج من فردوس الجنات أنبت نباتا أخضر ، وطُرِّز كخدود الولدان كما اطلعت الشعر وكأنما خُطّتْ بمجارس (١) النحل ونُضّدت من روادف النصل ، فاستمدّ مِدادُها من قسملوب الكافرين ، وخُلِقَ خَلوقُها من عيون الشهداء والصِّدّيقين ، فلذلك لم يحتج بيانه إلى ضَبْط ونَقْط ، ولا افتقر قرآنه إلى أكثر من وَرَق وخطّ ، جرى فيه كاتبُه على سجّية لسانه فأمِنَ اللحن ، وأخذ بسنّة أهل زمانه فترك العَجْم والشَّكْل ، وآمن بقول رب العالمين ((إنّا نحن نَزّلنا الذِّكْرَ وإنّا له لَحافظون)) (٢) فألصقته بكبدي ليُبْرِد ذلك الأُوار ، وأمْرَغْتُ فيه خدّي عسى ألاّ تمسَّه النارُ ، ولمحتُ أثرَ دم الشهيد ، فجئتُ من دمعي بأربعة شهود ، وقلتُ : ألا فُضَّ فمُ الحسام كيف قَصَفَ لحمَهُ ، وأُرْغِمَ أنفُ السِّنان كيف استرعف دمه ، وتبا لعبيد الدار كيف أغمدوا شِفارَهم ، وعجبا من بقيّة الأنصار كيف ضيّعوا انتصارهم ،

=:=

(١) الصندل : يقول النويري : إن منه عدة أنواع متميزة . ويستخدم معظمها ، وخاصة الأنواع البيضاء والصفراء والحمراء في صناعة المساحيق العطرة بسبب رائحتها الزكية ، وهي تستخدم أيضا في الطب . وهناك أنواع أخرى يستخدمها الخراطون وصانعوا الأثاث ، كما تستخدم في صناعة بيادق الشطرنج وغير ذلك .

(دائرة المعارف الاسلامية : ١٤/٣٤٤)

(٢) مجارس النحل : جرست الماشية الشجر والعشب تجرسُه وتجرّسه جرسا : لحسته وجرست البقرة ولدها جرسا : لحسته ، وكذلك النحل اذا أكلت الشجر للتعسيل قال أبو ذؤيب يصف نحلا :

جوارسها تأوي الشعوف دوائبا وتنصب ألهابا مصيفا كرابها

وجرست النحل العرفط اذا أكلته ، ومنه قيل للنحل : جوارس .

(لسان العرب : ٦/٣٦)

((فلا أُقسمُ بمواقعِ النّجومِ ،وإنّه لَقسمٌ لو تعلمو ن عظيم)) (١) ،لو شاهدتُ ذلك البرح ،لصار القلم في يدي كصدر الرمح ،وأضحى المقطّ (٢) في يدي أبيض مثل المسيّف ، ولكانتْ سكيني هناك حساما ،ويميني عَمْرا (٣) وصمصاما ،وقلبي على لينه جمادا ،وسعيي على ضعف حُويله جهادا ،حتى أرمي من رمى في المقتل ،وأُقتَلُ دونه قِتْلَةَ المُكبّ المُقبل .

ثم خرجنا وقد صَدِئَتْ نفوسُنا ،ووَجِلَتْ قلوبُنا ،وخَلَتْ من الدّمع عيونُنا ،ولم يتّسعْ يوم الإقامة لأكثر من هذه المقامة ،(ثم) باكرت الرحيل ، ويمّمت في الغدِ الملكَ الجليل ،الذي ضارع به المشرقَ والمغرب ،وسادت ـ لَخْمُ (٤) سائر العرب ،فلما فَصَلْتُ عنها ،ورأيت من حسنها وجمالها ، واتصال مساكنها وظلالها ،ماحبس عليه ناظري ،وجُذِبَ إليه خاطري ،فقلتُ : (البسيط)

=:=

(١)سورة الواقعة :الآية ٧٥-٧٦ .

(٢)المقط : الحبل المفتول المشدود . (القاموس المحيط : ٨٨٢)

(٣)عمْرا : سيف أبرهة بن الصباح العماري . (لسا ن العرب : ٤/٦٠٦)

(٤)لخم: قبائل عربية ،أصلهم من اليمن ،رحل بعضهم في القرنين الثاني والأول قبل الهجرة شمال الجزيرة العربية ،وإلى العراق وفلسطين وسوريا ،أسسوا مملكة اللخميين في الحيرة ونافسوا الغسانيين في الغرب ،كانوا يدينون بالولاء لفارس،أسلموا ،وكانوا مسيحيين .

(الموسوعة العربية الميسرة : ١/٤١٦)

سقى جديداً من الأيام قُرطُبة (1) ... ماءُ الشباب وريقُ البارد الخَصِر

وقفا بمدّ النّدى في روضه شَرَقا ... من الغمام مع الآصال والبُكَر

كأنَّ فيه والإمساء بسَطْته ... رداءَ الغَين قد صارا إلى وَطَر

حتى اذا شيبَ كافورُ الصباح به ... أضحت تصعّده نارٌ من الزَّهَر

وبين هذين من لين ومن لُطُف ... روح يقيمُ سجود النجم والشَّجَر

والليلُ فيه سواد يستهامُ به ... كأنه في سواد العين والشَّعَر

وللنهار سناً يحكي تبلُّجه ... نورَ البصيرة مقروناً مع البَصَر

كأنما شمسُنا تحت الغمام سنا ... وَجْهٍ تنفّسَ في مرآته نَضِر

والطَّلُّ فيها غداةَ القطر تحسبُهُ ... حَلْياً سقى زَهَرَ اللَّبّات بالدُّرَر

وصَفْحةُ النّهر الغضّ مَبْسِمُه ... في روضها مثلُ خيط الفجر في السَّحَر (2)

ثم نفذت لطيّتي (3) وأخذت في وجهتي وكان لاعهدَ لي بلقاء المعتضد بالله - تخوّل اللهُ الدين والدنيا ببقاه، وأدامَ به على الزمان بهاه - وله من بُعْد الصّيت ورفعة الشان، وفخامة الذكر وعزة السلطان، ماتهاب النفوسُ سماعَه،

=:=

(1) قرطبة: كلمة أعجمية رومية ولهافي العربية مجال يجوزأن يكون من القرطبة وهوالعدو والشديد وهي مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها وكانت سريرا لملكها وبها كانت ملوك بني أمية ومعدن الفضلاء ومنبع النبلاء من ذلك الصقع، وبينها وبين البحرخمسة أميال حصينة بسور من حجارة ولهابابان مشرعان في نفس السور الى طريق الوادي من الرصافة، وبعد ظهور المتغلبين بالأندلس وقويت شوكة بني عبّاد وغيرهم وخلت ربة من سلطان يرجع إلى أمره.
(معجم البلدان لياقوت الحموي: ٤/ ٣٢٤)

(2) انظر ابن بسام: (الذخيرة: ٣/١/٤٤٤)

(3) الطّيّه: النية (القاموس: ١٦٨٧).

كما تألف الجفونُ اطلاعه ، وتُجِلُّ القلوبُ مكانَه ، كما تستلِذُّ العيون عيانه ، فأدركني من توهُّم لقياه وتخيُّل سناه ، مايدرك راكب البحر قبل نشر الرياح ، وشارب الخمر قبل امتزاج الراح بالراح .

ثم لقيته من الغد فقابلْتُ من وجهه بدْرا تأخذ منه البدور ، وقبَّلتُ من كفّه بحرا تَغْرِفُ منه البحور ، ولاغَرْوَأن تغترِف من بحر بحار ، وتستمدّ من نور أنوارٌ ، فإنّ مادّة البحور ، من البحر المسجور ، وعلّةَ الأنوار ، شمسُ النهار ، وشاهدتُ منه منظرا استمال عيني حتى عَقَدَ به أطرافها ، ومخبرا استهوى نفسي حتى كَرَّهَ إليَّ انصرافَها ، وظلّ ينفثُ من نَبْله سحرا أُضْبِطُه بذهني ، وينثر من لفظه دُرّاً أَلْقُطُه بأذني ،

حتى صارت لي الثُّرَيّا قُرْطا ، والمجرّةُ بُرْطا (١) ، وأخذتُ في الرسالة ، فلما سامَعَ الأدب ، وساعدَ المذهب ، قلت ! أيّدَكَ الله ، إنّ من أرسلَ رسولا في مهمٍ تطلّعَ ، ومن رجاصديقا لدفع مُلِمّ توقّع ، لاسيّما إن رجاه شِفاءً من الخطب ، واستهداه هِناءً لموضع النَّقب ، فقد تعلمُ كيف نَظَرُالسقيم إلى العائد ، وناهيك إن كان طبيبا ، والتفاتُ المقيم إلى الوارد ، ويكفيك إن أَوْرَدَ محبوبا ، وإن رئيسو معظما - أرسلني إليك وانتظر ، وأوفدني عليك ثم استمطر ، وقد رأى أنّ إسعادَك مُرادُه ، وانجادَك مَرادُه ، فلوى عنك ماأبطأ السَّبّاق ، وعاق دونك ماأخّرَ اللّحاقَ ، حتى تطاول الزّمان ، وحالت الأحيان ، وفي ذلك من تعذيب نفسِهِ ، وإرجاء أُنْسِهِ ، مايدعو إلى إشفاقِك من شُغْل بالِهِ ، وارتماضِك من نَكَدِ حالِه ،

=:=

(١) البرط : الكساء من صوف أو خز .
(القاموس المحيط : ٨٨٧)

ان لا يَلَذَّ بحال حتى يدريَ ماله عندك ،في حُلوِهِ ومُرِّه ، ولا ينعم ببالٍ حتى يجتليَ ماتنهيه إليه من جدّك ،في يُسْرِهِ وعُسْرِه ،فَلَكَ الفضلُ في إيشاك إيابي ،وإراحة مآبي ،حتى أسرع بسرّائِهِ ،وأقطعَ بمايزيدُ في مضائِهِ ،فخاطبتُ مما اقتضيته من إيجابي ،وألفيته من سريع أطلابي (١) ،وكتبتُ إلى الوزير أبي الوليد بن زيدون (٢) برقعة أقول فيها : لم أزل منذ فارقت الشّرق ،وتخلّفت ذلك الأفق ، أتقلّب بين ثلج يُكَفِّنُ ،وَوَحْل يَدْفِن ،وريحٍ تبعثُ منْ في القبور ،ورعدٍ ينفخُ في صور النّشور ،وبرقٍ يرمقُ أصحابَ الجحيم ،ويُريهم صورةَ العذاب الأليم ، إلى أن وصلتُ محلَّ العليا ،ومنتهى سِدْرة الدّنيا ،حضرة المعتضد بالله وقلتُ : ((فنعم عُقبى الدار)) (٣) مايُنْكَر لأهل الجنّة السلوك على متن النار ،وكنتُ أسمعُ أنباءَهُ فأستغربُ ،وأنزعُ تلقاءَه فأستدني وأستقرب ، حتى رأيتُ عيانا ،واستوضحت بيانا ،فإذا الخَبَر أزرى بالخَبَر ،والعيان قد أربى على الأثر ، وقلت : بحقٍّ سأل الكليمُ (٤) رؤيةَ الرّب ،وقال ابراهيم ((بلى ولكن ليطمئنّ قلبي)) (٥) وإني

=:=

(١) انظر الذخيرة : ٣/ ١/ ٤٤٥ .

(٢) ابن زيدون هو أحمد بن عبد الله ... بن زيدون المخزومي القرطبي، ولد بقرطبة عام ٣٩٤ هـ وتوفي باشبيلية عام ٤٦٣ هـ ،وكان من أبناء وجوه الفقهاء ،كانت لعلاقة مع ولادة بنت المستكفي ،سجنه أبو الحزم بن جهور فاستعطفه ابن زيدون ثم ذهب الى اشبيلية حيث المعتضد ، توفي في اشبيلية عام ٤٦٣ .

حياته مليئة بالمتاعب والمصاعب، ومع ذلك فهو يوضع على رأس شعراء وكتّاب عصر ملوك الطوائف . (وفيات الأعيان ١/ ٤٤) ،و(الذخيرة ١/ ٢٩٠)

(٣) إشارة إلى قوله تعالى ((سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)) (الرعد : ٢٤)

(٤) الكليم : المقصود موسى عليه السلام .

(٥) إشارة إلى قوله تعالى ((واذ قال ابراهيم ربّ أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤ من . قال بلى ولكن ليطمئن قلبي .)) (البقرة : ٢٦٠)

رأيتَ مَلِكاً لا يصْعَدُ الطرف إليه إجلالا، ولا تُطيق النفوسُ عنه انفصالا، قد جمع مهابة العدل، إلى ودادة الفضل، وجلالةَ المنصب، إلى لطافة الأدب، وركانَةَ القُعْدُد (١) إلى بشاشة التَوَدُّد، وبرق الحسام، إلى وَدْق الأيادي الجِسام، إن رَمَق الأعداء فأجفانُ نِصاله طارِقةُ الشِّفار، أو وصل الأوِدّاءَ فأنداءُ بنانِه آلفةَ الأوطار، ضالّتُه الحكمةُ، وشريعتُه الحُجّةُ، وإن رأى حقيقةً أنصَفَ، وإن رمى بحجةٍ أهْدَف، يصيب بذهنه حَدَقَ الغيوب، ويعلمُ بظنّه خائنة الأعين والقلوب:

(المنسرح)

الألمعيُّ (٢) الذي يظنُّ لكأنْ قد رأى وقد سَمِعا (٣)

والمعتضد بالله لا يَدَعُ في ذلك تأنيسي بكل تحفة يهديها مع الأحيان، وطُرْفَةٍ يوليها مع كل دقيقة من الزمان، ولقد تاحفني يوما عند ماطرأت الأشابيل (٤) في النهر، وانسَرَبَتْ من البحر، بعدّة أسماك منثنية الذّوائب متمكّنةِ الحياة، لَدْنةِ النقل والحركات، فظلّت في مائها تطيرُ سابحة، وتسبح طائرةً، وأقبلتْ تأخذ مرةً جائية وأخرى سائرة، وقد تختّمت بالعقيان في جفونها، وتَتَوَّجَتْ بالجُمان في عرانينها، وتَطَوَّقَتْ بالمرجان في عثانينها (٥)، وعُذِّرت بالريحان فوق

=:==

(١) القعدد: بعيد الآباء من الجد الأكبر. (القاموس المحيط: ٣٩٧)

(٢) الألمعي: الداهي الذي إذا ظنّن الأمر يخطئ، وقيل الذي إذ المع له أول الأمر عرف آخره (اللسان: ٣٢٧/٨)

(٣) القائل: أوس بن حجر، وانظر الديوان: ٥٣

(٤) الأشابيل: ولد الأسد إذ أدرك الصيد. (القاموس: ١٣١٥)

(٥) العثانين: شعيرات طوال تحت حنك البعير. يقال: بعير ذ وعثانين كما خالط لمفرق الرأس مفارق، أبوزيد: العثانين المطر بين السحاب والأرض واحدها عثنون، وعثنون السحاب: ما وقع على الأرض، وعثانين السحاب: ماندلّى من هيدبها وعثنون الريح: هيدبها إذا أقبلت تجر الغبار جرا وعثانينها أولها. (لسان العرب: ٢٧٦/١٣)

متونها ، (وشابت قبل الأسنان من بطونها) (١) ،وأرَبَتْ على النَّشْوان في اضطرابها وَلِينها ، فأعملتُ فكري في شذوذ هذه الصّفات ، وغرابة هذه الآيات ،حتى عرفت تعليلها ،وفككتُ تأويلها ،فإذا بها قد شَرِبَتْ ماء نَداهُ فلم يُعْدَمْ حَيَوانُها ، ورأت محيّاهُ فَخَصَّتْ بالحلية أجفانُها وقبّلتْ بساطَ مثواه فُطُوِّقَتْ بالدّرّ مراشفها .

وأما ماتذيّله عليه ،ونُميلُه إليه لِيأخذَ بعضُهُ ببعض ولايفوتُ آخره ماتقدّمَ بين يديه ،وذلك ما حدّثني به الكاتبُ الأديبُ أبوعبدالله محمد بن عبد الواحد العقيليّ البيريّ ،وسأذكره بأسمائه ،وأترجم لها كما فعلت فيما تقدّم وأوافُ درّةَ الفرائدِ والتوأم .

=:=

(١) مابين الحاصرتين ساقط من الأصل ، وأضيف من الذخيرة .

أَبُو

جَعْفَرُ بْنُ عَطِيَّة

الطَّرَطُوشِيّ

فمنهم أبو جعفر بن عطيّة الطّرطوشي : (١)

تصدّر في دولة عبد المؤمن، وبلغ فيها نهاية المحسن، جازوه بالاحسان إحسانا، وأحلّوهُ في النواظر إنسانا (٢)، وأولوه بِراً لاَيُنْزَفُ، وَأَحَلُّوه وقاراً لايُنْسَفُ ولأدبه نشأة الرّوض المجود، لابل نشأة المدامة بنت العنقود.

ومن نثره قوله :

أما بعد فإن الأيدي قد امتدت، ودواعي التّعدي فيه اشتدت، وأموال الناس تُنْهَب، وزواجر كتاب الله لا تُرهب، وأنت تنام عن كفّ هذا الانتهاب، وتلين عند السطوة والإرهاب، وتعكف على الراح وراحاتها، وتقف بين بُكرتها وراحاتها، وقديما أفسدت الرّاحُ الأحوالَ، وجَرّتْ إلى أهلها الأهوال، فَلْيَنُبْ (٣) عن سَوْطك سلك، حتى يُرْهبَ خيالك وطَيْفك والسلام.

=:=

(١) أبو جعفر بن عطية بن أبي احمد جعفر بن محمد بن عطية القضاعي الطّرطوشي، كان أحد وزراء عبد المؤمن الموحدي، له اعتناء بالعلم والأدب.

(انظر المغرب : ٢/١٥٦)

(٢) انسانا : المثال يرى في سواد العين.

(القاموس : ٦٨٣)

(٣) في الأصل : فلينت، وهو خطأ، والصواب ما أثبت.

عقيل

بن عطية الطرطوشي

ومنهم : أخـوه عقيـل بن عطيّة (١)

أغضّ من أخيه فنّاً ،وأغنى أدباً لا يفنى ،وثيق البناء ،عريق السّناء ،جرت مذاكيه علا ،وجلت معانيه علا ،وأشبه أخاه ،إلاّ أنّه ماواخاه لمكان أحبّه في الدّولة المؤمنيّة التي عذب القرنا ،ووجدت به الغِنى .

ومن نثره الذي أخذ بأطراف البديع ،وأوصاف الدُّرِّ الصنيع ، قوله :

وردكتاب ملك الروم مهدّدا متوعدا ذاكرا أنّ أبا زكريا أذعنَ ،ومال إلـى المسالمة وركَنَ ،ولسنا مثله وعندنا من حماة المسلمين ،المشاهير المعلمين مَنْ يقاومُ جمعَك الذي تَعْجَبُ بسَوادِه ،ويهدّد منبرَ دعواك الذي تعتصم بأعوادِه ، ودين الاسلام يعلو ولا يعلى عليه ،وإذا اتّفق أهلُه فلا (أحد) يتطرّق إليـــه، وقد أعددنا لك ولقومك أولا توبة الله التي تنصر أولياءها ،وتُحيي بالسعادة شهداءها ،وتسعد في الدارين أحياءها ،وهوبطَوْلِه يُفْرِغُ على قلوبنا صـبرا يُثَبِّتُ الأقدام ،ويوجِبُ الإقدامَ ،ويوهِنُ كيدَ المعتدين ،وينصرُ هذا الدين ((وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الذين آمنوا ويمحقَ الكافرين)) (٢) ، و((كَم مِنْ فِئةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فِئةً كثيرة بإذن الله واللهُ مع الصابرين)) (٣) ،ولا تحسبنّ كلّ بيضاء شحمة ،ولاكــلّ حمراء لحمة ،بل إن بياضنا في غمائم (السيوف) برقها ،وفي لمح الأسِنّة زرقُها ،وقد أعددنا لك وقعها وخطبها ،وأردنا بساحتك فيما سلف قطبها ،ونعِمنا في ثـرى
بلادك

==:=:=:=:=:=:= :=: :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) هوعقيل بن عطية بن أبي أحمد جعفر بن محمد بن عطية القضاعي الطّرطوشي أبوالمجد ،روى عن أبي القاسم بن بشكوال وغيره ،كان فقيهامتصرفافي فنون من العلم متقناله ،له تأليف أسماه " فصل المقال في الموازنة بين الأعمال" وليَ قضاء غرناطة وسجلماسة ،وبهاتوفي فـــي صفر سنة ٦٠٨ (صلة الصلة : ١٦٠ ،والتكملة : (١٩٤٦)

(٢) سورة آل عمران : آية ١٤١ .
(٣) سورة البقرة : آية ٢٤٩

وأكلنا يابسَها ورطبَها، ولطالما أثَرْنا فيها النَّقْعَ، وخَرقْنا مالا يَقبلُ الرَّقْعَ، أتظنُّ

أنّنا نتساقط لتهديدك، ومقدمات الوعيد (و) (١) ننفر من قعاقع سنانك

كلا ولانحفِلُ من تخبيل شنآنِك، ولانتركُك وإطلاق عنانك، وكأنكم وقد زَفَفْنا إليكم

بنتَ الأقدام، وسقينا كم سُكرَ تلك المُدام، ومن حق مِثلِكَ الاعتراف، وتركُ هذا

الإسراف حدِّثني متى اتفقت المسلمون فبرَقَتْ بكم ببلادكم بارقة، أو كانت لكم معهم

سوقٌ نافقة؟ نحن ننكِحُ حريمَكُم ونستخدِمُ أبناءكم، ونسكُنُ مع مرّ الأزمنة بناءكم،

ولولا مافي كتابِك من الادِّعاء، وإراقةِ مافي الوعاء، لم نُذكِّرك بمانسيتَ، حتى تتحرك

مما به اكتسيتَ.

=:=: :=

في الأصل: ومقدمات الوعيد تنفر! والصواب ما أثبت.

أَبُو

الفَضلُ بنُ مَحشَرَة

ومنهم : أبو الفضل بن محشرة : (١)

وله كلم بالفضل مُحَشَّرَة ، وكأنّها عرائسُ مَجْلوّةٌ ، ومدارسُ آياتٍ متلوّة ، بين خفِرات محلوّة ، وعَطِرات تتضوعُ بالأُلُوَّة (٢) ، ومن نثره زُهْرٌ لا يعتريها الأُفول ، وزَهْر لا يتعدّى عليه الذّبول .

ومنه قوله :

وأن يعلموا أنّ الرعيّةَ عيالُ الله (٣) كما جاء في الأثر المأثور ، وأنّ الذّبّ عنها من آكدِ الأشياء عندنا ولهم الأمور ، وألّا نوجد لظالم إليها سبيلا ولا نَتْرُكُ عليها واليا جائرا مستطيلا ، فقد قال عليّ رضي الله عنه : والٍ عادلٌ خيرٌ من مطرٍ وابلٍ ، وأسدٌ حطومٌ خير من والٍ ظلوم ، فامشوا فيها على عرضها واسلكوا في حفظِها سُنَنَنا ، وأَخّروا كلّ من لم تُشكَرْ طريقَتُه ، ولم تُحمَدْ خليقَتُه و طهّروا جانبكم من الظلم فإنّ مرتعَه وَخيمٌ ، ومآله ذميم ، وقد أنهي إلينا أن الوُلاةَ يريقون الدماءَ ، ويتّبعون الأهواءَ ، وقد بعثنا إليكم فلانا لحسم هذه الأهواء ، وتفريج هذه الأنواء ، فأعينوه على ذلك أكملَ الإعانة ، ووالوهُ بما يوجبُ لكم عنده الحُظْوَةَ والمكانة .

=:=

(١) من الكتّاب الذين انفرد المؤلف بترجمتهم . ومن الصعب الترجمة للأعلام وخاصة اذا لم يذكر الاسم صريحا فالمؤلف ، رحمه الله ، يكتفي أحيانا بذكر الكنية أو النسبة .

(٢) الألوّ: العود يتبخر به ، فارسي معرب ، والجمع ألاويه (القاموس المحيط : ١٦٢٧)

(٣) والحديث رواه احمد عن أم سلمة بلفظ ((وأمّا العيال فإلى الله ورسوله)) أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ٣٠٧

أَبُو
الْقَاسِمِ الْقَالَمِيِّ

ومنهم : أبو القاسم القالمي : (١)

متوسط الكلام ، متبسط المجال في مدارج الأقلام ،متسلّط القريحة على بدائع الفكرة الصحيحة ،لكنّه لم يلجّج في الغوص لمجاني الدرّ الغائق ، ولا يخرج في تحصيل المعاني الدّقائق .

ومنه قوله :

وقد أنهى إلينا من سداد أحوالكم ،وصلاح أعمالكم ، وإيثاركم الواجب ،وسلوككم السَّنَنَ اللاّحِب ،(٢) ،ماوقع منّا موقع الإحسان ،وعَدَدْناكم في الرّعيل الأوّل من الأعوان ،وقدوفد رسولكم إلى بابنا ،وأنهى ماأنتم بصدده من التّمسّك بأسنائنا ،والانخراط بالنّيّة الصحيحة ،والعقيدة الصّريحة ،في حلبة جموعنا وأحزابنا ،وقد شاهد رسولُكم المشائر التي حَلَّت جِيدَ الزمان وانثيال رؤوس الملحدين على حضرة الموحدين من كل مكان ،واجماع الأمّة على هذه البيعة التي هي بيعة الرّضوان (٣)

=:=

(١) أبو القاسم القالمي : من الكتاب الذين انفرد المؤلف بترجمتهم ، وقد بحثت كثيرا في التراجم فلم أتبينه .

(٢) اللاحب: الطريق الواضح (القاموس المحيط : ١٧١)

(٣) بيعة الرضوان : قال ابن اسحق : حدثني عبد الله بن أبي بكر ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : "لا نبرح حتى نناجز القوم" فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم - الناس الى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الموت ، وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على ان لا نفر ، فبايع الرسول - صلى الله عليه وسلم - الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها الا الجد بن قيس أخو بني سلمة .
وكان النص: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عند الناس عشر سنين يأمن الناس فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشا عن مع محمد صلى الله عليه وسلم - لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا اسلال ولا اغلال .

(السيرة النبوية لابن هشام : ٣ / ٣٦٤ - ٣٦٨ ، تحقيق محمد عبد السيد)

ابو الحسن
عبد الملك بن عياش

ومنهم : أبو الحسين عبدالملك بن عيّاش : (١)

ذو زيٍّ ورياش ، وريٍّ للعطاش، لا يفارق حضرة مَلِك ولا يفارق مَسَرَّة منهمك، بل لا يزعُهُ من دينه وازع ، ولا ينزعه إلى غير يقينه منازع، ولا ينازعه في تمكينه في الصناعة منازع . ومن حر كلامه ودُرّ نظامه قوله من نثره .

وقد كانت أقوام خاضت أفكارُهم في بحور الأوهام ، وأزالتهم عن الحق والأفهام ، فخلّدوا في العالم صحائف مالها مِنْ خَلاق ، مُظلمةَ المعاني مُسَوَّدَة الأوراق ، وهم يتسمّعون في القضيّة الواحدة فِرَقا ، ويصيرون فيها الشواكل طُرُقا ، ذلك بأن الله خَلَقَهم للنار وهم بعَمَلِها يعملون ، لِيَحملوا أوزارَهم يومَ القيامة ألا ساء مايزرون . (٢)

ونشأ منهم في هذه الملّة شياطين إنس ، ((يخادعون اللهَ والّذينَ آمنوا ومايخدعون إلاّ أنفسَهم ومايشعُرُون)) (٣) ، ((يُوحي بَعضُهم إلى بَعْضٍ زُخْرفَ القَوْلِ غُرورا وَلَوْشاءَ ربُّك مافَعلوه فذَرْهُمْ ومايَفْتَرون)) (٤) ، وكانوا أضرّ علينا من أهل

=:=

(١) أبو الحسين عبد الملك بن عيّاش: من الكتّاب الذين انفرد المؤلف بترجمتهم .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى ((ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم ألا ساء مايزرون)) النحل : ٢٥

(٣) سورة البقرة : آية ٩

(٤) إشارة إلى قوله تعالى ((وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجنّ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولوشاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون)) .
سورة الأنعام : آية ١١٢

الكتاب ، وأَبْعَدَ عن الرُّجعى إلى الله تعالى والمآب ،لأنَّ الكتابيَّ يجتهد في ضلال ، وَيكِدُّ في كَلال ،وهو لا مقصودهم التعطيل ،وشأنُهم التخريب والتحليل ،دبَّتْ عقاربُهم في الإيمان ،برهةً من الزمان إلى أن أطْلَعَنا اللهُ على رجال كان الدهر قد سالَمَهم على حروبهم ،وعفا عنهم على كثرة ذنوبهم ،وماأملى لهم إلا ليزدادوا إثما ،وماأُمهلوا إلاّ ليأخذَهم الله الذي لا اله إلا هو وسع كلّ شيئ رحمة وعلما ، فليتقدّم بحرق كتبهم ،وتقليل عُصَبهم ،مَنْ عُرِف بديانةٍ ،وصحّةِ أمانةٍ وتعدٍ عن معاملة الله في دينه بالخيانة .

ومن شعره قوله : (الطويل)

عَصَيْتُ هوى نفسي صغيرا فعندما ... رمتْني الليالي بالمشيب وبالكِبَرْ

أطعتُ الهوى عكس القضيّة ليتني ... خُلقتُ كبيرا ثم عُدْتُ إلى الصِّغر

وكان ابنه أبو عبد الله ممن له يد في الصناعتين إلا أنه في النظم أمهرُ بدارا ، وأظهرُ اقتدارا ،وأدق حيلة ،وأرقُّ من بكاء الطَّلّ على الخميلة ،والغرند في سرالحميلة ،ولما سمع بيتي أبيه العقدَّ مِنْ الذكر ، المُعْلَمَي الطرفين من حُلل الألفاظ الراقل فيها ذلك المعنى البكر ،استَعْذَبَ جَناهُما ،وَعَقَّبَ ببيتين في معناهما ، وهما :

وإني أقول القول في البَدوِ والحَضَرْ ... وخَلّدَهُ في الصالحين وماغَبَرْ

هنيئاً له اذلم يكنْ كابنِه الذي ... أطاعَ الهوى في الحالتين وما اعتذرْ

أَبُو

الْبَاسِمُ الْمَرْخِيُّ

ومنهم : أبو القاسم المُرْخِيّ : (١)

فكره حسنُ التّوخيّ ، وبحره بالدُّرِّ يسخي ، كان سهلَ الطريقة كهل التصرف في المجاز والحقيقة ، وله في النثر منازعُ دقيقة ، ومقاطع ما للرّياض فيها شقيقة .

ومنه قوله :

يا سيدي ما إن لعصا النوى أن تتصدّعَ ، ولطوارق هذا التفريق أن ترتدعَ ، وللأيام أن تُنشيْ سوى ماهي عليه ، وتبتدعَ أشدّ ما العَبَثْ بنا من حال إلى حال ، وأرتنا الحقيقة في صلاخ المحال ، وكان يكفيها (ما) نَثَرَتْ (من) نظم ذلك الشَّمل الذي كنتم واسطةَ عِقدِه ، والرسمَ الرائقَ في بُرْدِه ، فدعاني الاقتصار ، إلى أن أرسلت عناني في ميدان الاختصار ، وسلكتُ شِعابَ القول على غير استبصار .

ومنه قوله :

وأما الشوق إلى لقائكم فلا أصِفُه ، ولو قلت ما عسى لا أُنصِفُهُ ، ولعلّ لقيا يقعُ بها التَّشَفّي ، وتمحو دارَ البعادِ وتُعفي ، وما ذلك ببعيدٍ ، من لُطْفِ المدى البعيد .

=:=

(١) جاء في الفوات : ابن المُرخي المغربي : محمد بن علي بن محمد عبد العزيز اللخمي الكاتب من أهل اشبيلية ويعرف بابن المرخي بخاء معجمة بعد الراء ، كان أبوه أبو الحكم كاتبا وأمّا جده أبو بكر فنظير ابن أبي الخصال في بلاغته وبيانه ، وبيته عريق في النباهة والكتابة ، توفي سنة ٦١٦ له كتاب في الخيل ، وكتاب " حلية الأديب في اختصار الغريب المصنف "
انظر فوات الوفيات ٤ / ١٥٧ ، بغية الوعاة / ٧٥ .

(٢) ما بين الأقواس زيادة لازمة لاتساق المعنى

أَبُو
عَبْدُ اللهِ القَبَّاجِي

ومنهم : أبو عبد الله القباحي : (١)

لا يُهملُ كثيره ولا قليلَه ، ولا يقلُّ حقيرُه ولا جليلُه ، كأنّما يكاتبُ البربر (٢)
أو يخاطبُ الناسَ وعمّا في نفوسهم يُخبر كُلُّ كلامه نُكتٌ ، وهي النجومُ أوّلها حكَتْ.

ومن نثره قوله :

وأنْ يعلموا أن تلكم البلاد لدينا أثيرةُ الشأن ، خطيرةُ المكان ، وأنّ الاعتناء بها لا يفارق البالَ والنظر في مصالحها مقدّمٌ على كلّ أمر ذي بال ، ولكم مُدّة لم تعاملونا بأمورها ، ولا خاطبتمونا بأحوال خاصّتِها وجمهورها ، فلتحفاظوا عليها ، ولْتَصْرفوا عنان الشّهامة والحزامة إليها ولْتعوّلوا على الأبناء بالأنباء ، والأخيار بالأخبار ولتحرصوا على مايزيدكم لدينا حظوة ، ويُرقيكم ذي الوجاهة ذِرْوة فذِرْوة .

==:

(١) أبو عبد الله القباحي : من الكتّاب الذين انفرد المؤلف بترجمتهم .

(٢) البربر جيل ، جمعه البرابرة ، وهم ، بالمغرب ، وأمّة أخرى بين الحبوش والزنج يقطعون مذاكير الرجال ويجعلونها مهور نسائهم ، وكلهم من ولد قيس عيلان ، أو هم بطنان من حمير صنهاجة وكتامة ، صاروا إلى البربر أيام فتح أفريقيش ملك افريقية .

(الموسوعة العربية الميسرة : ١/ ٣٤٢)

أَبُو
بَكْرٍ بْنُ مُعَاوَزَ

ومنهم : أبو بكر بن مغاور : (١)

غدير بيان ، وغدير حصباؤه جُمان وصافٍ لا يخطئُ مرادَه ، ولا يُعطي شيئاً حقّه من الوصف فيقال أنه نقصه ولا زادَه يقعُ على المقاصد ، ويضعُ على الطريق المراصد ، ما شبّهَ بشيءٍ إلا كان كأنّه هو ، ولا حذا طريقةَ قوم إلا كان كأنّه مما نطقوا به وتَفَوّهوا

[وصف الكلاب]

ومن نثره قوله (في) (٢) رسالة يصف فيها الكلاب وهي :

أطال اللهُ بقاءَ سيدي يحتمي ذماره وجنابُه ، ولا تهرُّ دون طارق الأضياف كلابُه ، ولا زالت سائمتُه رانعة في مرابض الأساود والأسود آمنة في الذادي والليالي السُّود ، يمنعها أهْرَتُ (٣) الشّدقين متنمّرُ الإهاب ، سريع الجيئة والذّهاب ، محرق عند انتساب الكلاب ، مفرح للنّباح ، مانعٌ للحريم المباح ، إن رَبَضَ حمى الرَّبَض ، وإن سَرَح قتل أو جرح ، خفيف الوثبة ، ثقيل الوطأة ، يفترُّ عن مُدْيَة ، وينظر عن جمرة ، يميزُ بأنفه في الليل البهيم ، بين العدوّ والصديق الحميم ، إن شَعَر بالضيف بَصْبَصَ وهَمَسَ ، أو باللّصّ أطْرَقَ وعَبَسَ ، ووثب وافترس ، إذا نام الرعيانُ سَهِر وتطوّفَ وأنذر بنباحه وخوّفَ ، وإن أغفلوا السّخْلَةَ حَرَسَها ، وقام عليها ولَحَسها ، وربما انتزح عن صاحبه غيرَ بعيد ، أو بسط ذراعيه بالوصيد ، ثم اجتمع وانقبَضَ وتلمّظ احتيالا لا من الكَسَل ، وكشف عن مثل أطراف الأسَل ، ثم يمشي الهُوينى قليلا قليلا ،

=:=

(١) هو أبو بكر عبد الرحمن مغاور ، كتب عن أبي الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن سلطان المغرب الأوسط ، كان بقية مشيخة الكتاب وجلة الأدباء المشاهير بالأندلس ، ولد بشاطبة سنة ٥٠٢ وتوفي سنة ٥٨٧ .

ترجمته في التكملة : ٥٧٨ ، وزاد المسافر : ٣٧ ومعجم الصفدي : ٢٤٣ والمغرب ٢ / ٣٨٥ .

(٢) زيادة لا بد منها (٣) أهرت : واسع (القاموس المحيط : ٢٠٨)

ويطأ الثرى برفق كأنه آس يجس عليلا (١)، وتارةً ينصب مُقعيا على ذنبه ،متزحزحا عن قسرى العقتاد لهبه ،مصغٍ بأُذُن مؤلّلة إلى ما يُوحى إليه ويؤمَرُ به ،يجود نحو الأكل مطره ،ويذكي إليه بَصَره ،ويلتقف مايُلقى إليه ،التقاف ثعبان موسى صلواتُ الله وسلامه عليه ،بفمٍ كالغار الأجوف ،أوكالخرق في البرد المُفوّف (٢)، يزدرد (٣) الطعامَ ازدراداً، وينزل بها وقد استحال من حرِّ النار رماداً، إلى فطنة بالرّمز والإشارة ،يميزها بين النّعِيّ والبِشارة ، لايفارقُ بين دخان الشّيّ ودخان نار الكيّ ، ويكاد يعرفُ الرُّشْدَ من الغَيّ ،يصيدُ السِّرْحان (٤)، ويقتلُ الثعبانَ ،ويقهر الظّليم (٥) وإنْ بَعُد عنه وبان ،فان عَرَض له الصّيد ،فذو خِفّة وأيْدٍ ،وهوله أجلٌ وَقيد ،لوكان مع خداش تجمّع ماتفرّق من الظّباء عليه ،أومع واشق (٦) ماأقعص صاحبُه لديه ،ثم لاتراه كائنا إلاّ قدّام الغَنَم طليعةً أومن ورائها كامنا ،وكأنما كان لأصحاب الكهف والرقيم ثامنا ،ففي كلِّ حالاته عجبٌ وعِبَر ،إذا التوى وانعطفَ فبارقٌ حثّ به المطر ، ،وإذا وقف واعتدلَ فقوسٌ أعْوَزه الوَتر ، أوجرى ووَثَبَ فسَهْمٌ أرسله القَدَرُ ،وقدتخيّرْتُ لسيدي من هذا النّسل جِروا زكيّ النّصل ،مُرْهفا كالنَّصْل ، إذا جَرَّبْهُ حمِدَ منابَه ، وشكر عند مكافحته الذُّبابَ ظُفُرَهُ ونابَه ،وإنه لسريعُ الاجابةِ عند الصفير، وجِدّ

==:=:=:=:=:=:=:=:=: :=: :=:

(١) مأخوذ من قول المتنبي :

يطأ الثرى مترفقا من تيهه كأنه آسٍ يجس عليلا

(٢) مفوف :رقيق ،أوفيه خطوط بيض. (القاموس : ١٠٨٨)

(٣) يزدرد الطعام : يبلعه (لسان العرب : ٣٦٤)

(٤) السّرحان :الذئب. (القاموس المحيط : ٢٨٦)

(٥) الظليم: الذكر من النعام. (القاموس المحيط : ١٤٦٤)

(٦) واشق : القليل من اللبن ،والذاهب العضو ،وهو اسم كلب . (القاموس: ١١٩٩)

بصير بَعضّ الخنازيرَ ،بأسنان كالأشفية (١) أو كالخناجير ،إذا أقبلتْ عليه خادَعَهـا وأخْلَدَ إلى الأرض ،وإذا أدْبَرت عنه رَكِبَ أعجازَها للقبض ،فمن مُجَنْدَلٍ هنـاك هالك ،ومن هارب ضاقت عليه المسارحُ والمسالك ،أعجزه لاشتغاله بغيره لَحاقُه، فأقام يغطُّ غطيطَ البَكْر شُدَّ خناقُه فاقتنيته - أدام الله عِزّك للزّرْع والضّرْع ،فاقتناء مثله حلال مباح في الشّرع ،فالله تعالى يقرّلك به أذنا وعينا ، ماكان هذا الحديث كله زُورا ومَيْناً .(٢)

[وصف جرو]

وذكرت بهذه الرسالة رسالة كنتُ كتبتها في هذا المعنى وهي :

هل لك - أعزّك الله - في جِرْوٍ يكفيك مؤونةَ الغَزْو بمايُراوغُ من الصّيود، ويُراوِد على الجلود ،مما يحُوش ،من الوحوش ، أحفظَ للصاحب من صاحبه ،وأُحفى منه بحراسة جانبه ،يتيمّنَ صاحبه بمايتطيّرُ به اللصّ من شومه ،لإبطال ظلم غشومه إن نزل ترك والإلفَ ذنبه على خيشومه ،من كرائم مخبورة ،قتّلاها في البطـون

==:=:=:=:=:=:-:=

(١) الأشفية ، ومفردها الاشفى : وهو المثقب ،حكى ثعلب عن العرب: ان لاطمته لاطمت الاشفى ،ولم يفسره قال ابن سيده : وعندي أنه انما ذهب إلى حدته لأن الانسان لولاطم الاشفى لكان ذلك عليه لاله -. والإشفى : الذي للأساكفه ،قال ابن السكيت: الاشفى ماكان للساقي والمزاود والقرب وأشباهها ، قال ابن بري: ومنه قول الراجز:

فحاص مابين الشراك والقدم   وحزّة إشفى في عطوف من أدم

(لسان العرب : ١٤/ ٤٣٨)

(٢) الميْن : الكذب (القاموس المحيط : ١٥٩٥)

مقبـــــــورة، تملأ القُدورَ لحما عبيطا ، (١) والأفنية فرسا ربيطا ، من جنس الكلاب ، أوثق من الكُلاّب ، يمتدُّ بوثبته لمثل يوم الكُلاب (٢) ، ويفتخر بنسبتـــه بنو كلب وبنو كلاب ، ذوات شيات معلمات ، وليست بأعوجيّات مُطَهَّمات (٣) ، أحدَّ نابا من الحباب ، وأجدَّ جلبابا من الشّباب ، ذو ساعد مفتول ، وعينٍ كأنها ســـراج مشعول وآذانٍ كأنها خوصة (٤) ، وغُرَرٍ كأنها عقيصةٌ معقوصة ، وذنبٍ كذنـــب الأسد ، وبطنٍ خالٍ وظهرٍ أسدَّ (٥) ، زَوْرُه عريضٌ ، ودوره في الحديث يستفيض، حضره محضر ، كأنه مرمر ، إما أسود كأنه قِطْعُ ليل ، أو قطع يُصبُّ به على الوحوش الويل ، أو أحمر من كثرة شدخٍ من الظّبا ، وتلطّخ بالدّماء ، أو أصفر لا تكُفُّ شرارَهُ نار وبرازة نَوّار ، أو أنورُ قد جمع إهابه وشمّر عليه من النَّقْع المُثار بقايا الغبار ، أو أرقطٌ لم ترعينَ مثلَه قطُّ ، لبسَ حلّة الأرقم ، ماتدثّر ولاتدرّهم ، أو أخرسُ وماهـــو في بني كَلْب الأبرش ، ما أثار ولا أعطش ، مسكيُّ الجِلْدِ أغْبش، كأنه سحر أوانـــه تحار فيه وقت المغرب ، ولم يجرِ كأنه ماءٌ كدِر ، أو لابس مرقات جلد النَّمِر ، أو أبيض

=:=

(١) عبيط : قال ابن بزرج : العبيط من كل اللحم وذلك ماكان سليما من الآفات إلاّ الكسر ، قال : ولا يقال للحم الدّوي المدخول من آفة عبيط وفي الحديث : فقاءت لحما عبيطا ، قال ابن الأثير : العبيط : الطري غير الناضج . (اللسان : ٧ / ٣٤٥) .

(٢) يوم الكلاب بين بني بكر وعشائر من تميم وضبّة بقيادة شرحبيل بن الحارث الكندي وبين تغلب والنمر وبهراء بقيادة أخيه سلمة . ويوم الكلاب الثاني بين تميم وبني عبد المدان النجرانيين . (العصر الجاهلي شوقي ضيف : ٦٥)

(٣) مطهمات : التام من كل شيء والبارع الجمال . (لسان العرب : ١٤٦٤)

(٤) خوصة : ورقه النخل (القاموس المحيط : ٧٩٨)

(٥) أسدّ : أصاب السداد . وهنا المستقيم . (القاموس المحيط : ٣٦٧)

بجسد من نور ،أو لبس مجسدا من كافور ،من بني وَبْرَ ة (١) ،طويل الزّوبرة (٢) ، لاتهدى له غيره ،من جنس في الكلاب كريم ،كم طار مذعورا منه هائم كريم ،لا يعرف اذا جلس ،الا أنّه الحرس ،ولا يدع إن جرى ،سهلا ولا محجرا ،ولا يُخلّي في الثرى لسيد أثرا ،إن خلّيته حول البيت أقعى ، وإن طَلَبْتَه جال يسعى ، في النهار كأيسره ،وفي الليل حارس ،يطرد أيَّ الوحوش قفيته به ،وماهو إلاّ فارس ، ولا فرس لأي جهة كفل كفاها ،وأي عظيمة كُلّفَ وَقّاها ،يُبَصْبص للضّيفان بِذَنبِه ويؤنسُ اليقظان في غيْهَبه ،إذا تخيّل المريب يهرُّ ويعبس ،ويكفهرّ ويَمْعَجُ (٣) ،وهكذا الكلب إذا رأى الهرّ لاينبحُ الضيفَ إلاّ مرّةً ،ولا يصبح الاسكران وماشرب خمرة ، يسهرُ للنيام ويتيقّظ للنّيام ،يدافع طوارقَ الليل ،إلاّ طارقا يطرقُ بخير ،لاخير يرتد من غوى ،إذا عوى ،يعلم إذا نَبَــح ، أنّ حِماهُ لم يُبَحّ ،لا يداخلهُ الأهواء، ولا يراسلهُ العواء ،لا يقطع النباح ،حتى الصباح ،وإن خُلّيَ مع الغنم ، لم ينـم ، أو تُركَ في السّائمة ،تركها وادعةً نائمةً ،يحمي سَرْحَها ،ويكشف ساق من يقصـد صرحها ،أرأفُ على موبر السّخْلة ،من المؤبر (٤) على النخلة ،لا يطرق معـــه

=:=

(١) بنو وبرة : هم ولد تغلب بن حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة ،وأسل والنمر وكلب وقبائل ضخمه هم بنو وبرة .

(جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي : ١/ ٤٥١٢)

(٢) زوبرة : الشعر المجتمع بين الكتفين .

(لسان العرب : ٤/ ٣١٧)

(٣) في الأصل : ينتحج ،ولا وجه لها ،ولعل ما أثبت هو الصواب، ويمعج : يسرع .

(٤) المؤبر : الذي يصلح .

(القاموس المحيط : ٤٣٤)

الذيب ،ولا يطرأ على نظره التكذيبُ ، إما كلب غَنَم أو زَرْع ،لا تفص به خزانة نبات ولا ضَرْع ، تحاماه العربُ تحامي المُريب ويفورُ به اللّصُّ الخارب ،كالنّجم الفارب ، لا يتصوّر له شيطان ،ولا يُتَسَوَّرُ معه حيطان ،وإما كلب صيد ،له اذا كَلَّبَ عليها كيد ،إما من السّلاق ،طوع السباق ،يحمل الأوقـــــــــ(١) ، شـبَّ عمرو عن الطوق ،أعجلُ في الطرد ،من الكميت (٢) الوَرْد ،وأضبط للقَنْص ،من القفص ، وأمْسَكُ للصيد ، من القيد ،وأقدر على اللّوابد ،من الأوابد (٣) ،وأعجل في المهامّ ،من السّهام ،تَتَشكّاهُ الأرض من الرّكْض ،وتتظلمُ منه إن جَدَّ ، قوّة الشّدّ بثير لوابدَ الأرض إثارةَ المحراث ،ويطيرُ وماله أجنحةٌ مثنى ولا ثلاث ،أرقطُ وماهو زُهلول (٤) ذو سنونة زُرْق، وماهنّ أنيابُ غول ،عينه على الصيد حمراء ،يسطـو بتربته سمراء (٥) ، يفتدي منه الثعلب بجلدته ،والأرنب بحطته ،فأما الظبي فيبيـت منه على مثل رَوْقه (٦) ،ويلتفتُ إليه لا من شوقه ،بل خوفا في العَجَل ،من الأجل

*:=

(١) الأوق : الشؤم ،والثقل (اللسان : ١٢/١٠)

(٢) الكميت: هو الكميت بن زيد الأسدي ،شاعر وخطيب كوفي .اشتغل بتعليم الصبيان بالمسجد أول أمره عالم باللغة وأخبار العرب والمثالب. تعصب للشيعة على الأمويين ،وللمضريين على القحطانيين ،حتى كاد الخليفة هشام يقتله ،لولا شفاعة ابنه مسلمة . أدّى تعصبه إلى أن قتله الجنود اليمنيون. قال الشعر في مدح العلويين والأمويين . اشتهر شعره الأول بالهاشميات .كان مولعا بالغريب من الألفاظ والاستعارة من القرآن والشعراء القدماء ،وكان أصم قبيح الصوت رديء الانشاء .

(الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٤٨١)

(٣) الأوابد : الوحوش . (القاموس : ٣٣٧)

(٤) الزهلول : الأملس الناعم . (القاموس : ١٣٠٧)

(٥) كذا في الأصل .

(٦) روقة : الشيء اليسير المسيط (القاموس : ١٤٧)

كأنما وَجأَ (١) عُنُقَه الوَجَل ،طالما لَحِقَه وأراقَ على الأرض من دمه حُمْرَةَ الخَجَل كم غزا من غزال ، واطَّرَحَ حُرْمَته عند العشّاق وأزال ،وماقدرت إِبَرُ رَوْقيه ،أن تُخيطَ له سَرْداً لاتصِلُ بهِ العنونُ إليه ،سَلوقيٌّ يَتلظّى يَتَفَرَّى (٢) به الأديم ، ويتشظّى لو بمحل علّم بقراط (٣) علمه فَصْدَ الأكحل ، لم يبق من مَكْنَسِ الِاكْنَسَ، ولا نجم طريدةٍ إلاّ خَنَسَ ، يرسلُ مُرْسِلُهُ منه بطلا ،يروع كلّ أمّ خِشفٍ (٤) وطَلا ، إذا وقف على الماء فرالسَّربُ ،من الشُرْب ،لا يكسر الصيد ولا لمرسله ،ولا يؤثر النشاط الاّ لِكَسَلِهِ .

هذا من جنس السُّلوقية (٥) ، وأما أخواتها الشقائق ،الداخلــــــة في مالاتقدر عليه أخواتها من المضايق ،من حداد الزّغاريّة (٦) ، التي لا يمتنــعُ

==:=

(١) وجأعنقه : ضربه . (القاموس المحيط : ٧٠)

(٢) في الأصل : يتفرد ! وهو خطأ ،والصواب ماأثبت .

(٣) بقراط أو أبقراط : توفي سنة ٣٧٠من .م . ،طبيب يوناني يعرف بأبي الطب ،يظن أنه ولد بجزيرة قوص ودرس بأثينا ،فصل الطب عن الخرافات والفيبيات ،له (الحكم الأبقراطية) و(الأهوية والأمواء والأماكن) وكلّهامترجمة إلى شتى اللغات .
(الموسوعة العربية الميسرة : ١/٧)

(٤) أم خشف : الداهية ،قال الشاعر:
بحلق عنقاء وعنقفيرا وأم خشاف وخنشفيرا
ويقال لها أيضا : خشّاف بغير أم (لسان العرب : ٩/ ٧١)

(٥) السلوقية : وهي من كلاب الصيد التي تتبع فريستها بالرؤية وليس بالشم.
(الموسوعة العربية الميسرة : ١٤٧٠) .
وقال صاحب "المصايد والمطارد" : السلوقية منسوبة إلى سلوق : بلدة من اليمن .

(٦) الزغارية : نوع من الكلاب ألطف حداً من السلوقية .
(لسان العرب : ٤/ ٣٢٤)

عليها في الأرض خبيّة ،وهي التي من نسلها انتجت ،ومن فصلها وهبت ،فإنّها تزيد على أخواتها في النفع ،وإن قلّ ،وتَرْسَل ولاتدِلّ وتجالسُ بالنهار ولاتضجر وتمساك بالليل الشمع ولاتَملّ ، تعرف بالشمّ، ما اشتمل عليه الوكر وضمّ ،أدلُّ على الأوكار ،من الدائرة على البزكار ، وأعْرفُ فيها بالمطالب ،من كلّ طالب ،صغير الجِرْم ،كبيرُ النفع في المهمّ ، كأنه ضاحك فتحَ فاه وتعزّز ، عاوي لاينسب إلى زغرز ،وعزّهُ بنسَبه إلى عزة ،تستعينُ به الصقور ،على إخراج مافي الوكور ويرتفق به البازي ولايقتصد على مافيهر ،ولايقتصر على ذوات الوَبَر ،حتى يُخرج كوامنَ ذوات الجناح ،ويُسلّطَ عليها كواسرَ الطير ولايخاف الجُناح ، أما (اذا) لم يصل بأيْده إليها ،توصّل بكيده ودلّ عليها ،كأنه يرتاح ،إذا سبّب لهاالأجلَ المتاح ،وقدبعثت إليك منها بزغاري عظيم الحرارة ،وفي مطبخ الوزارة ،مايضر مقتنيه أن لايُنكر عليه راعيه بالحلاب ، ولايغضُّ طرفه وإن كان من شر وحوله كعب وكلاب ،سعر وردشعر ،وشعور كأنما هوجِرْوُ جَرْوَل (١) أوابن الكلبي الأوّل ،فكم نَبَش ذلك الزّغاري ، الكاسي العاري من ذات وَبَرٍ وريش ،وكم استنشق من روائحِ صيد اختفى في نَفَقٍ واختبأ في حشيش ،من حَجَلٍ وقَبْجٍ ، وقَطاةٍ ودُرّجٍ ،وقنبر وقط (٢) ،ومافي البرّ والشطّ ،فإن جدت لك ـ أعزّك الله ـ بجِرْوَين من الزّغاري والسّلوق ،ضَمّخَ الأرضَ بالخلوق ،وبينهما في النّسَب ،قَدْرُما يكتسب ،وفي النّسَب قَدْرُ ما أظهره جوهرُ الحسب ،فإن الزّغاريّة وإن نحفتْ جسما ،

=:=

(١) زيادة ليست في الأصل ،وهي لازمة لابدّ منها

(٢) جرول : الحطيئة .

(٣) الحجل والقبج والقطاة والدرج : أنواع مختلفة من الطيور .

وخفّت السلوقيّة حجما ،فإنها معها محسوبة ،وإليها في عنصر الكلاب منسوبة، وهي مخلوقة من طينتها ،ومخلوطة بها في رُتبتها ،فهي من فواصل ماطبع من تلك السيوف سكاكينُ ،ومن بقايا ماوُضع في تلك الأسنّة نصالُ سهام حُنين .

وها أنا مدّالله في بقائك وَظَفرك ،مثلُ ظفر هذه في الصيود بأعدائك مرتقب لأمرك في تجهيز بعض هذه الجِرا ،فَصِدْ فيها لماترى ،متيقّنٌ بما تضمّنه فِراها أن كلّ الصَّيْد في جَوْف الفَرا .(١)

ومنه قوله مما كتبه في السجن يعرف بحاله المبهم ،ويصف قيده ويوري عنه بالأدهم .

ولهذا ضمّنها ذكر الخيل وشياتها ،وأوصافها وهيئاتها ، وهولايُعِدُّها لحربه ولالصيده ،ولايريدها إلا أدهمَ قيده ،وقدأبدع فيها كلّ الإبداع ،وأبدى فيها دقائق الابتداع ،وهي : (الخفيف)

رُبّما تكْرَهُ النفوسُ من الأمـ ...... ـرِ لَه فُرْجَةٌ كحلّ العِقال (٢)

مازلتُ ـ أيّدَ اللهُ الامير ـ أقسم في رضاه البرى وأُرَقِّقها (٣) ، وأتخير (روائع) الكَلِم وأُنَقِّها ،فاحكم بمقتضى الشّيات والألوان ، بالسابق في الميدان ،

=:=

(١) ((ان كلّ الصّيد في جوف الفرا)) مثل قديم ,وأصله أن قوما خرجوا للصيد ،فصار أحدهم ظبيا وآخرأرنبا وآخرفرا ،وهوالحمارالوحشي ،فقال لأصحابه : كل الصيد في جوف الفرا" أي جميع ماصدتموه يسير في جنب ماصدته وقد تمثّل به رسول الله صلى الله عليه وسلم . (الجمهره ١٦٢/٢) .

(٢) البيت منسوب الى أميّة بن أبي الصلت ،وانظراللسان (فرج) ،وهوكذلك في الحيوان ٣٩/٣ مع نسبته إلى أمية .

(٣) في الأصل : وأنيقها ،وهوخطأ ،والصواب ماأثبت ،ولعل مابين الحاصرتين يتم السياق .

فأقول : الأبلق (١) لا يركبه إلا الشجاعُ الأخرق (٢) ،وأما الأشهب (٣) فإني عنه لأرغب ،ودونه مذهب لا يصبر على الغيظ جِلْدُه ، ولا يبلغُ الغايةَ شدُّه وجِدُّه ،وأما الأشقر فمجتهد لا ينكرُ، إذا قصر إلا وسبق وظَهَرَ . وإذا طال ونى وقصّر ، وأما الوَرْدُ ،(٤) فله الشكر والحمد ،لا أذمُّ النسرة ،ولا أهجرُهُ إلا لتحريم الخمرة ،وأما الأصْدى (٥) ،فلا أتعرّض له ولا أتصدّى ، وقديماً كرهتُ الصدا والصّدى ،أو ما أذهب هَدَراً وتُرك سُدى ،لكن قرِّبْ كُميتاً ،وإن كان ميتا ،فهناك الصبر والاحتمال ،والصّدّم في المجال ،وإن كان أغَرَّ مُحَجّلا فذاك الجمال .

فبينا أنا - أيّدالله الأمير أرقِي وأرتاد ،وأركب يمينا وأقتاد ،اذ قرب لي من مربط العين ،أهْرت (٦) الشّدقين ،إذ هو بهيم ،لا يُغرى به صَبٌّ ولا بَهيم، حَرونٌ بَطِيٌّ ،لا ذلول ولا وَطِيٌّ ،يتطامن الكاهل والتّليل ،غنيٌّ عن الصّهيل بالصليل، لا يُنصبه النغز ولا يُهزِلُهُ ولا يُقلقهُ الهمز ولا يُعجلُهُ ،إذا حُرّكَ أَنَّ ،وإذا نُزل (عنه) (٧) اضطجع واطمأن ،صعبٌ لا يقبلُ الرياضةَ والتدريب ،ولا يعرفُ الخَبَبَ والتقريب ،

[المنسرح]

=:=

(١) الأبلق : هو الفرس السبّاق ،وهو الأسود والأبيض . (القاموس المحيط : ٣/٢٢٢)

(٢) في الأصل : وأما الأخرق ،والصواب ما أثبت ،وهو يوافق السجع .

(٣) الأشهب : شهب الشهب والشهبة : لون بياض يصدعه سواد في خلاله ،وأنشد :
وعلا المفارق ربع شيب أشهب . وقيل الشهبة البياض الذي غلب عليه السّواد .
(لسان العرب : ١/٥٠٨) .

(٤) الورد : اسم فرس وهو بين الكميت والأشقر . (القاموس : ٤١٥)

(٥) الأصدى : اسم فرس . (القاموس : ٦٧٩)

(٦) الأهرت : الواسع . (القاموس : ٢٠٨)

(٧) زيادة لازمة .

قرّطةُ العين من دجى الغَسَق ذو حَلَق يستدير في حَلَق

كأنه الصِّلُّ حين أقْصَرَهُ الطّلُّ فخلاّه خافتَ الرّمَق

فهِبْتُهُ - أيّدالله الأمير - مركبا وعِراً ،واستهجنته ظهرا ،ثم مددتُ يدَ الاستسلام ،ومسحت جفنيَ من شَبا الأقلام ،فإذا المركبُ حيةٌ تسعى ،ليست بأفعى ،صماء لاتسمع الوَحَى (١) ،التَفّت على ساقي التفافا ،وأجمعت أوساطا وأطرافا ،وعضّت على عَقِبي عَضّاً ورضّت ماهنالك رَضّاً ، فلا أستطيع شَدّاً ولا ركْضا ، فلو لم أحتل حيلا ، لسميته كبلا ، الله أكبر هذاالخبر ،لكنّي أتسلّى وأتصبّر ، سمّيْتُهُ بغير اسمه ،وأضفتُهُ إلى غير قِسمه ،وأنسبه إلى غير جنسه ،وهو يُعرب عن نفسه بلمسه ومسّه ،وهل هو إلا جَمادٌ يُرْكبُ ،إلا أنّه يُتَجَنّبُ ،وحديدٌ يُقْرَع، لا شجاعٌ أقرعُ : (٢)

---

(١) في الأصل الوقى : والصواب ماأثبت ،والوحى : الصوت .

(٢) إشارة إلى حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم :
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من آتاه الله مالا فلم يؤده زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهمزيه (يعني شدقيه) ثم يقول أنا مالك ،أنا كنزك ،ثم تلا : لا يحسبن الذين يبخلون .. الآية .
رواه البخاري واللفظ له ،كتاب الزكاة باب اثم مانع الزكاة جزء ٢ / ١٣٠ طبعة داراحياء التراث العربي .

ورواه مسلم في كتاب الزكاة ،والنسائي في كتاب الزكاة ،وابن ماجه في كتاب الزكاة ، ومالك في الموطأ والدارمي في كتاب الزكاة والامام أحمد في مسنده .

(الطـــويــل)

وَمِن عجبٍ أنّي إذا قمتُ قانتـــاً لِرَبِّي أنادي بالصلاةِ فأُعلِـــــنُ
يقعقع في رجلي الحديدُ كأنّــــه يعارضُ صوتي في الأذان فيَلْحن
فقلت اعتباراً بين قَيْدي ومِقْولـــي أذلك ناقوسٌ وهـــذا مؤذّن

فَشَلَّت يمين العين ،لقد أبعدت البازي يحمل الساقين ،بل تَرِبَتْ يداه، فهل غير عبدٍ حسِدَ على مولاه وحَصن،وصَنَعَ فأتقَنَ ،علم أيّدَ اللهُ الأميرَ - أنّي عبده الناشزُ إباقا (١) ،فأَحْكِمْهُ وَثاقا، وها أنا إذاً أسيرٌ ولا أسير ،وساعة لا أراه فيها كثير.

ومنه قوله مماكتبه إلى بعض الأعيان يرغّبه في أن يُخدِمَه رجلا كان يُلَقَّبُ بالوَطواط وهوالخفاش:

[وصف الوطواط]

انْتَصَرَتْ لك ياسيدي الطير طَوْعا ،والتَفَّتْ حولك جنساً ونوعاً ،وأتتك سَقْياً ،وبَذَلَ لها سُقيا ورَعْياً ،لما أردت إلى وطنها الاسفار ،وألقيت في عَطَنها عَصَا التَّسْيار ،رَغِبَ في خدمتك من الطّير ،صِنْوُ الجُرْذِ وأخو النُّفَيْر (٢) ،يصفّ مع الطيور الصَّوافّ ،يحتاج (وهو) ضاف (٣) ،ليس له قوامٌ ولا خوافٍ ،ويَدِرُّ رِسْلُه مع ذوات الأخلاف،

=:=

(١) إباق : الاستخفاف ثم الذهاب (القاموس المحيط : ١١١٦)
(٢) في الأصل : وأخو التفير : ،وهو خطأ والصواب ماأثبت ،والنّفير: تصغير نفر، وهو العصفور الصغير . (القاموس : ٦٢٤)
(٣) في الأصل : يحتاج صاف ،ولعل الصواب ماأثبت .

وليس بذي أخفاف ولا أظلاف، يُكشِّر مع السِّباع غيرَ ناب، ويُحلِّق مع الطير في اليَبا ب، لا يلغظ مع العصافير حَبّاً، ولا يَرعى مع السَّوام أبّاً، لا يبيضُ وإنْ أفْرَخ، ولا يصدَحُ وربما نَفَخَ، يُميتُه الصُّبحُ المُسْفِر، وتُكحِّلُه الدَّياجي فيُسفِر، فله في الظلام هجمات، فأنّى ذوات الإبَرِ الداعيات إلى الضُّمر فَتَكات، وكأنما يَطْلُبُهُنَّ بِذُحولٍ(١) وتِرات، فإن رضيتَه خادماً وقبلتَه فلكَ دونك جُيوشَها، ووقاكَ تخميشَها، فَيُطَيِّبُ نَوْمَك، ويطابق في الدَّعَة ليلتَكَ ويَوْمَك، لا يسألُك أجْراً، ولا يَسأَمُك شُكراً، والله يسخِّرُ لك أصنافَ الأمم، وجنودَ الضِّياء والظُّلَم.

=:=:=:=:=: :: :=:=:=: :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) الذحول، مفرده الذحل: الثأر.
(القاموس المحيط: ١٢٩٤)

أَبُو القَاسِمُ بنُ أَزرَق

ومنهم : أبو القاسم بن أزرق : (١)

لا هو بالمكثر ولا بالمُقِلّ، ولا بالمُطَوِّلِ ولا بالمُخِلّ، هو في الرُّتَب الوسطى، لا يزداد ولا ينقصُ قِسْطا، وغايته أن كلامُهُ مقبولٌ، وإلمامُه حُلوٌ غيرُ مملول، لأنّه رقيقُ الدِّيباجة في الرَّجاجة (٢).

ومن نثره قوله :

قد كان المستعين خاطب أباك يُرَغِّبُه في الهُدُوِّ والاستعانة على العدوِّ، فأقام وأقمنا معه مرتاحين من تعب النفاق، فرحين بإشراف الهدنة في الآفاق، ثم دَهَمنا من جهتكم داهمٌ أبدى صفحته، ونسيم أهبَّ صفحته لانفحته، ولا يمكنُنا تسليمُ أيدينا إليكم يتحكمُ فينا الإذلال، ويتحكّم علينا الإخلال، وقد كان لكم فيما فعله أبوكم أسوةٌ حَسَنَةٌ، وأيام كانت بيننا وبينكم مُحسِنَة، وسيعلمُ مبرمُ هذا الرأي عندكم سوءَ مَغَبَّتِه، وعظيمَ ما أخذ الفسادُ من أُهْبَتِه، وأيقظ له بارقَ هبَّتِه، والله حسيبُ مَنْ بغى، وأوقد لنا الفتنة وابتغى.

=:=

(١) أبو القاسم بن أزرق : هو أبو القاسم بن مرزقان مولى المعتمد بن عباد، قتل يوم دخول الملثمين اشبيلية، وآل أزرق أو أزراق هم من وادي الحجارة بالأندلس.

ترجمته في المغرب ١/ ٢٦٦، والذخيرة ٢/ ١/ ٥٢٠، والنفح ٣/ ٢٦٤

(٢) الرجاجة : الضعاف من الناس وغيرهم.
(القاموس المحيط : ٢٤٣)

عَبدُالحَكِيم

بنُ عَبدَالعَزِيز

ومنهم : عبد الحكم بن عبد العزيز : (١)

كاتب تَطَلَّع إلى رواية الأخبار، وتلقى المعرفة بمابين الأندلس والأنبار، ولا يعمأ بالوفيات، ولا دقق في استطلاع الخفيّات، وعبّر عنها بعبارات حلتها واخبارات بثياب العصب حَلَّلتُها، أبعدَ فيها التّقفية والتّصريع، وأبدعَ التوشية والتّوشيع، فردّتْ مجْلوّةً في أحسن الصُّوَر، مقلوّة لاكالسُّوَر، مكْلوّة مما يعرضُ من الملك لاعادة السّمَر .

ومن نثره قوله :

فجأنا من الثغور من أعلم أنهم يجهزون نحوها، فَتأهَّبنا للقائهم، وتواثبت البلقاء بهم، فوافقونا في البلاد التي يريدون غنائمها، وفي ظنّهم أنّهم يريدون يستغيدون مغانِمَها، ويُبيدون قاعدَها وقائِمَها، ويعيدون تحت قبضة السيوف مُتيقّظَها ونائمُها، ولماتراءى الجمعان، وترامى الصدعان، نُكِسَت شاطين دعواهم على أعقابها، وارتقَبَت الموتَ من أنقابها، وانهزم القوم وسيوفنا تجزم أعناقهم، وتُكذّبُ اختلاقَهم، حتى ألجأهُم الذّعرُ إلى قلعة تحصّنوا بأوْعارها، وتحصنوا في ذروة السّماء بالاعتصام بمنارها .

ومنه قوله :

ووافاه الكتاب وقد أدخلته الرّعِيّة مدينةَ فلانة (٢)، وحسبوا أن لاتكون فتنة فعَموا وصمّوا، وجاءهم الفساد حين قربوا من عرضهم وحمّوا، وأقام

==:=:=:-:=

(١) عبد الحكم بن عبد العزيز: هوأبو الحكم علي بن أبي بكربن عبد العزيزمولده سنة ٥١٩ ووفاته بمراكش سنة ٥٨٤، وانظرفي ترجمته الخريدة : القسم الرابع / الجزء الثالث : ٤٣٩. وفيه عزو الى المطرب .

(٢) كذا في الأصل .

العدوُّ يطوي البلادَ ،طيَّ السِّجلِّ للكتاب (١) ،والعتب يستعمل حيث لا ينفعُ العتاب ،ولا حديثَ إلا للرمح المَشْرَفي والمهنَّدِ القِرْضاب (٢) .

****

(١) إشاره إلى قوله تعالى : ((يوم نطوي السّما* كطيّ السّجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنّا كنّا فاعلين))
(سورة الأنبيا* :آية ١٠٤)

(٢) القرضاب : الذى لا يدع شيئا إلا أكله .
(القاموس : ١٥٩)

أَبُو الحَسَن

عَلِيُّ بنُ محمَّد

الرُّعَينِيُّ

ومنهم : أبو الحسن علي بن محمد الرُّعيني : (١)

لطيف المنزع ،مطيف العناية في المفزع ،أشد اقطافاً للرؤوس من البيض، وأسرع اختطافا للأبصار من الوميض ،فإذا وبَّخ وقرَّع ،خلتَ البلادَ بالبلاد تُرمى والنَّبْعَ (٢) بالنَّبْع يُقْرَع ،وأدبه مما يُسْتَبْدع ،ولايُستلحق في طريقه ولا يُستتبع ،هو فيه أُمّةٌ فَرْد ،ماسكٌ بأعجاز بعضه بعضا كأنه حَلَق السَّرْد ،لا يقابَلُ بالعكس ولا بالطَّرْد .

ومن نثره قوله :

سمعتم بالعدو فقَلِقْتُم كلّ القَلَق ،وأشفقتمْ على تلك الخلق ،وظننتم أنه قدأُحيط بكم من الجوانب ،وتخيّلتم الفضاء قد غصّ باصطفاف المواكب ،فحادت الطّباع ،وضاق الاتساع ،وملأ أفئدتَكُمُ الجَزَعُ والارتياع ، أبمثلكم تُسَدُّ الثغور ، وبآرائكم تُسَدُّ الأمور ،أم بكم وأنتم على هذه النِّيات المدخولة يُبتغى الظُّهورُ،أحين نُدِبتم (٣) إلى حماية إخوانكم المسلمين لفَّقْتم الأعذار المكذوبة ،وجررتم

---

(١) هوأبوالحسن علي بن محمد بن علي الرّعيني ويقال له ابن الفخّار من بني الحاج ،من أدباء الأندلس نشأ في أشبيلية وتعلم بها ،واستقضى في مور وقربها ،وغلبت عليه الأعمال الديوانية ،وتوفي بمراكش سنة ٦٦٦ وكانت ولادته سنة ٥٩٢ ،له مصنفات منها "برنامج شيوخه"

و(الايراد) و(اقتفاء السنن) ،ترجمته في صلة الصلة : ١٤٠

(٢) النبع : القوس المأخوذ من الشجرالذي ينبت في قلة الجبل (القاموس : ٩٨٨)

(٣) في الأصل :حين ناديتم :وهو خطأ،والصواب ماأثبت .

الأقوالَ وهي بالباطل مَشوبةٌ ،قدلَقِيتم ،(١) من الدَّعَة ،ما أعجزكم عن حلب السَّعَة وطلب المنفعة ،ثم تزعُمون أنّ لكم في الأرض مجالا وساعا ،وأقساما تتفرّقون عليها أوْ زاعاً (٢) ،أتبتغون نَفَقاً في الأرض أوسُلَّماً في السَّماء (٣) ،أين المَفرُّ وأمْرالله يُدْرِكُكم ، وطَلَبُه الحثيث لا يترككم ، فامحوا نَزْعة هذا النِّفاق من خواطركم ،قبل أن يمحوَ السيفُ مقالكم ،وتُستبدلوا قوما غيرَكم ثم لايكونوا أمثالكم (٤) .

=:=

(١) في الأصل :قدالقيم ! وهوخطأوالصواب ما أثبت .

(٢) أوزاعا :جماعات . (القاموس ٩٩٥)

(٣) إشارة الى قوله تعالى ((وإن كان كبر عليك إعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أوسلّما في السّماء فتأتيهم بآية . ولوشاء الله لجمعهم على الهدى فلاتكونن من الجاهلين))
(الانعام : ٣٥)

(٤) إشارة إلى قوله تعالى ((.... وإن تتولّوا يستبدل قوما غيركم ،ثم لا يكونوا أمثالكم))

سورة محمد : آية ٣٨

ابو الحسن

بن أبي الحسن بن علي بن

محمد الرعيني

ومنهم : أبوالحسن بن أبي الحسن الرّعيني : (١)

بلغ من البلاغة أفضلها ، وملك طريقة أبيه وربما فضلها ، وحذّر غيره عن العيان ، وأنذر فكأنما كان النذيرَ العُرْيان ، بقولٍ يُجري ماء الحديد ، ويوري سماء العديد ، ونثرٍ له نظم الغمام ونَضْحُ السّهام .

ومنه قوله :

وأهل هذه البلاد لا يبلغون من الأعداء أقلّ أعدادهم ، ولا يَفي مجموعُهم بأهل بلدٍ واحد من بلادهم ، وماهو إلا أن تُستنفَر الجماهير ، ويَستجيب الجمعُ الغفيرُ ، والذي يتعيّنُ الآن العمل به في كل مكان أن يأخذَ أهلُه بالتأهّب والاستعداد ، وارتباط الجياد ، والاستكثار من آلات الجلاد ، ونحن قد أمرنا بهذا أهلَ السواحل وما اتّصلَ بهم ، وأريناهم كيف قد أقبلت الحرب العَوان في يَلَبِها (٢) وجاءت تَهِرُّ وتَلُفُّ خيشومها على ذنبها وأنتم قد عرّفتمونا بما عندكم من الحزم العتيد ، والعزم الشديد ، والرأي السديد ، والاستبصار في الجهاد الذي يُعلي اللهُ به كلمةَ الاسلام وإيثار العدم للنصارى الكَفَرَة ، فإنهم وإن كانوا من أهل الكتاب هم بتصاوير كنائِسِهم من عَبَدَةِ الأصنام ، وقد حمدنا لكم بهذا أفضل أعمالكم

==:

(١) هو قاضي المرية أبو الحسن مختار بن عبد الرحمن بن سهر الرّعيني ، قاضي المرية وعالمها ورئيسها في الأمور الشرعية ، كان جامعا لفنون العلم والمعرفة وكان حسن السيرة عندما استقضي ، ولد في ربيع الأول وتوفي باشبيلية في جمادى الأول سنة ٤٣٥ . له تصانيف في القرآن .

انظر (الضبي ، بغية الملتمس ٣٠٥) و(السيوطي : بغية الوعاة ٢٦٦) و(الصلة : ابن بشكوال ١ : ٢٣٣) و(طبقات الامم : ١١١

(٢) اليلب : الشديد العظيم .
(القاموس المحيط : ١٨٦)

لعقد صفقة البيع من الله تعالى بأنفسكم وأموالكم ، وهذا شيء يجب أن تشيعوه في جهاتكم ، وتصدقوه بعزماتكم ، ليرتد عدوكم بالله ولجهادكم صاغرا ، وينقلب خاسراً ، وكونوا على نغير من استجاشتنا لعال الاسلام وفي بوادر من تقدم لنصرة الإمام ، وانصروا الله مرة ينصركم على الدوام .

ابو

اسحق بن حاتم

العبسي

ومنهم : أبو اسحق بن حاتم العبسي : (١)

ورث من كفى نسبه عنترة العبسي (٢) أن يتقدَّمَ ،ومن سمى ابنه حاتم الطائي أن يتكرَّمَ ، فلهذا شقَّ بكتُبه الكتائبَ وما خاف ،وأنْفَق ذَهَبَهُ جِزافاً وماخَشِيَ الإسراف ،حتى الكلام عصا وجلا وجهه مُبْيَضّاً ،وله نثرٌ لا تضمُّ على مثله المُقَلُ أجفانَها ،ولا تربى لشبيه سرة الكروم خفَّانَها (٣) .

وله قوله :

وان تعلموا أن فلاناً معضود جانبه ،مكبوت معاديه ومجانِبُهُ ،مُيَسَّرَةٌ من الله لباناته ومآربُهُ ،مبصرة في البر والبحر مذاهبه ،مدَّ اللهُ صفيحتَه على مراكبه ،وقد توَجَّهَ في أمورٍ مهمَّةٍ،وأحوال يعوذ بها عائذ نعمة ، فبادروا حين وصوله إليكم بالنظرله في زورق حيث أراد به خلق ،وبأي حبل أراد من الماء فعلق ، وأعِدّوا قطعتين اثنتين جيِّد تين متخيِّر تين ، فإذا آب اصحبوهما له إلى العرس الذي يحلو له منه الطلوع ،أوان الرجوع ،وقد أعلمناكم وفي الوقت مهلة فعَجِّلوا فيها الشروع .

==:=

(١) أبو اسحق بن حاتم العبسي : هو قيس بن زهير بن جذيمة العبسي أمير عبس وداهيتها ،وأحد السادة القادة في عرب العراق ،كان يلقب "بقيس الرأي" لجودة رأيه ،توفي سنة ١٠ ﻫ
(الاعلام : ٥/٢٠٦)

(٢) عنترة بن شداد العبسي ،توفي سنة ٦٠٠ م ،شاعروفارس،من أهل نجد .كان ابن جارية حبشية ،فلم يعترف به أبوه ،ولكن ما أظهره من بطولة في حروب داحس والغبراء جعل أباه يعترف به ، فزوجه عمه من حبيبته عبلة التي حرم منها طويلا . وقتل في إحدى الغارات كان جوادا شجاعا عفيفا ،تمثّل فيه الخلق العربي البدوي ،فاتخذه الأدب الشعبي مثالا للبطل العربي ،وأدار حوله ملحمة من أجمل الملاحم العربية له ديوان أكثره من الشعر المصنوع وله معلقة تدور كشعره كله حول حبه عبلة وفخره ببطولته الحربية .
(الموسوعة العربية الميسرة : ٢/١٢٤١)

(٣) الخفان : استرخاء البطن .
(القاموس : ١٥٤١)

أَبُو

بَكْرِ بْنُ الْبَنَّا

ومنهم : أبو بكر بن السَّبتّا : (١)

حصل له المراد وتهنّى ، ووصل الغايةَ لا يتمنّى ، قريحتُه للمعاني العقيمة وَلود ، أُلينَ له الكلام كما أُلينَ الحديد لداود ، يتسرّع به من الإحسان إبطاؤهُ ، ويتسدّد من البيان أخطاؤه ، فكان فكره يمتاح ، من قليب لا يغور ويلتاح ، في حلته شموس وبدور ، أحكم صناعته وأتقنها ، وأحكم صياغته وأحسنها ، فراقت شرباً ، وترقرقت ماءً عذبا .

ومن نثره قوله :

إن مثل سيدي أبقاه الله والآمال في مشارع فضله تكرعُ ، ولواقع (١) وبله (٢) تتبع ، لجدير في شرف نصابه ، وكرم انتسابه ، ورعايته ذمام كلّ ماثلٍ ببابه ، متقرب إليه بوسائل من انتمى إلى جنابه ، أن يتلقى الأمل بقبوله ، ويرحب بضيف الرجاء عند حلوله ونزوله ، وأبو فلان أحدُ من أمل غشيان بابكم الفسيح ، وآثر في قصدكم اللُّججَ الزواخر والمهامِهَ الفِيح (٣) ، واستقبلكم برجاء ملء يقينه ، وأمينه قدر أن يأتيه بكل مراد في جنبه وهو بما تسدون إليه حقيق ، وبما تصنعون إليه خليق ، فإن له طلبا مبينا وأدباً معينا ، وطريقة لا يسلكها إلا من سلِم دينا ، وانثوى الخير خزينا ، وقد أزعجه عن وطنه مزعجُ المقدار ، وواقَعَ الخطوبَ الكبار وائلكم بشيء تنحون لقيام أوَدِه (٤) ، وإحسان تفسحون له في أمَدِه وتفتحون له قصد جَدَده ، فصنيعُكم فيه يصيبُ طريق المصنع ، ويصادف أجدر الجِدّ بارتياد جنابكم الأمرع ، والله يبقي مجدَكم يصطنعُ الأحرارَ ، ويهدي كلَّ من تاه في ليلة القصد وحار .

==:

(١) الواقع : العطاء . القاموس المحيط : ٩٩٨)

(٢) وبله : الكثير . (القاموس : ١٣٧٨)

(٣) الفيح : خصبة الربيع مع السعة . (القاموس : ٣٠٠)

(٤) الأود : الاعوجاج وعدم الاستقامة . (القاموس : ٣٣٩)

أَبُو
المُطَرِّفِ بنُ عَمِيرَةَ

ومنهم : أبو المُطَرِّف بن عُميرة : (١)

وأزهد من الفضيل ، وأشعرُ من عامر بن الطُّفيل (٢) ، وأجمع شملا من ابن شُميل (٣) ، وأوسع رواية من ابن قُريب بأبانَيْن (٤) أو بذات الأثيل (٥) ، قلّدته الملوكُ أمورها والسلوك شذورها ، فوجدت بان عُميرة ، أنفع ميرة ، وبأبي المُطَرِّف أبدعَ مِطْرَف ، إذا سمعته تحرك عود الطيب ، وعود الخطيب ، وآخر ثالثها للطرب

=:=

(١) هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي البلنسي ، حامل لواء المنظوم والمنثور، أكثر من سماع الحديث وأخذه عن مشايخ بلده ، روى عن أبي الخطاب بن واجب وأبي الربيع الكلاعي وابن نوح والشلوبيين وغيرهم ، وعنه ابنه أبو القاسم وابن الأبار وأبو اسحق التلمساني وغيرهم ، تولى قضاء سلا ثم تبسة ثم الأربس ، له الشعر الرائق والنثر الفائق ، مولده بجزيرة شقر سنة ٥٨٢هـ وتوفي بتونس سنة ٦٥٨ أو ٦٥٩ . أنظر (شجرة النور : ١٩٥) .

(٢) عامر بن طفيل : توفي سنة ٦٣٢م شاعر عاش بنجد ، وكان فارسا شجاعا قاد قومه في غارات كثيرة على غطفان ومذحج ، وزاحم علقمة بن علاثة على زعامة بني عامر بن صعصعة ، ونافره إلى حكام العرب ، واشترك فيها كثير من الشعراء وفد على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأبى ان يقبل الاسلام إلا بشروط رفضها معظم شعره في الفخر و صف ما خاض من الحروب . له ديوان مطبوع . أنظر (الموسوعة العربية الميسرة : ١١٧٢/٢ ، ١١٧٣) .

(٣) ابن شميل : النضر بن شميل بن خرشه بن يزيد المازني التميمي ، أبو الحسن : أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة ولد بمرو من بلاد خراسان" وانتقل إلى البصرة مع أبيه سنة ١٢٨ وأصله منها ، عاد الى مرو وولي قضاءها ، اكرمه المأمون العباس وقربه منه توفي بمرو سنة ٢٠٣هـ من كتبه " الصفات" في صفات الأنسان والبيوت والجبال والابل والغنم والكواكب وكتاب " الأنواء " .

(الاعلام للزركلي : ٣٣/٨) .

(٤) أبانين : تثنية لفظ أبان ، وقد روى بعضهم ان هذه التثنية هي لأبان الأبيض شرقي الحاجر لبني فزارة وعبس ، وأبان الأسود لبني فزارة قال الأصمعي : وادي الرمة يمر بين أبانين ، وهما جبلان يقال لأحدهما أبان الأبيض وأبان الأسود .

(معجم البلدان لياقوت الحموي : ٦٢/١ و ٦٣)

(٥) ذات الأثيل : قال شراح ديمه : واد لبني شيبة وأثيل منها مشترك وأكثره لبني ضمرة . قال وذو الأثيل واد كثير النخل بين بدر والصفراء لبني جعفر بن أبي طالب .

(معجم البلدان لياقوت الحموي : ٩٣/١ و ٩٤) .

وباعثها على اجتلاء عروس عليها عِقدٌ من الحَبَب ،ونثره البعيد البديع المطبوع الصنيع.

وجاءت مخاطبتكم معربة عما استطعتموه من الصَّفاء ، وأظهرتموه من الوفاء ، وبذلتموه من النَّصائح التي صَدَعت بالحقّ ،وأخذت بالأوجب الأحقّ ،وقد قوبلت بالاستحسان ، وتحقّق منكم ماتساوى فيه السِّر والإعلان ،ومهَّد لكم سبيل الإحسان ،ولكم المحافظة على ما أحرزه قديمكم من الرتب التي ورثتموها عن السّلف وأثمرتموها في الحال والمؤتنف (٢) ،واعلموا أن مكانتكم لدينا بالسفوف مخصوصة وآثاركم عندنا بلسان الشكر منصوصة ،وشأنكم لا يلحق ،وجانبكم الجانبُ الذي لا يزال يُلحظُ بعين البرِّ ويُرْمَقُ ،فطيبوا نفساً ،واستَجِدّوا أُنساً ،ومدوا خُطوة آمالكم ،وأيقنوا بالخير الذي لا يلِتكم شيئا من أعمالكم . (٣)

ومن نظمه ماأنشد شيخنا الحافظ أبو حيان (٤) له وهو : (الطويل)

وقالوا تَلَهَّ فالشّبابُ قدانقضى ... وعُمُرك قدوَلَّى ولم يبقَ طائـل

فقلت أصيلُ العمر ماقد بلغتُـه ... وأطيبُ أوقات الزمانِ الأصائـل

=:=:=:=:=: :==

(١) الحبب : العنب . (القاموس المحيط : ٩٠)

(٢) المؤتنف : القادم والتالي . (القاموس : ١٠٢٥)

(٣) إشارة إلى قوله تعالى : ((وإن تطيعوا اللهَ ورسولَه لا يلِتكم من أعمالكم شيئا ،انّ الله غفور رحيم)) . (سورة الحجرات : آية ١٤

(٤) أبوالحافظ ابن حيّان : هو حيان بن خلف بن حسين بن حيان الأموي بالولاء ،مؤرّخ ، بحّاث .من أهل قرطبة ،كان صاحب لواء التاريخ في الأندلس ،أفصح الناس بالتكلم فيه ، واحسنهم تنسيقا له .من كتبه "المقتبس في تاريخ الأندلس" ،وله " المبين " في تاريخ الأندلس أيضا ،وكتاب في "تراجم الصحابة"
(الأعلام للزركلي : ٢/ ٢٨٩)

أَبُو

عَبدُ اللهِ العِمرَانِي

ومنهم : أبوعبدالله العمراني : (١)

أفق بهاء لم يجفّ جماله ، ولم يخف كماله ، ولم يصف إلا مورده ولم يطف من الدر ، الا ماكتبت يده ، موف لصنعه بالبدور ، ومخف ببديعه للشذور

ومن نثره قوله :

جاءت كتبكم تعتذرون في ضعف الحال بالمحال ، بقلة الرجال ، مما يُلحقكم بربّات الحِجال (٢) ، ولا يطرقكم إلا بالنُّوب السّجال ، فطاشتْ ألبابكم خورا ، وعاد صَفْوكم كَدِرا ، وتنسَّمْتم ريحَ الموت وَحِيّا (٣) وَصَدَرا ، لقدآن لكم أن تنبذوا ذوابل الخِرصان (٤) ، لمغازل النسوان ، وتستعيضوا سوار المعصم من غِرار المِخْذَم (٥) ، فمالكم ولصهوات الخيول ، وإنما على الغانيات جرّ الذّيول ، ولا والله بمثلكم تُسَدُّ الثغور المهمّة ، ولا تنجلي الخطوبُ المُدْلَهِمَّة .

=:=

(١) أبوعبدالله العمراني : من الكتاب الذين انفرد المؤلف بتر جمتهم . ومن الصعب على الباحث أن يجد ترجمة لعَلَم من الأعلام إذا لم يذكر اسمه صريحا ، فالمؤلف يكتفي في تراجمه بذكر اللقب أو الكنية أحيانا .

(٢) ربات الحجال : النساء صاحبات الخلاخيل . (اللسان : ١٤٦/١)

(٣) في الأصل ويحا ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبت ، والموت الوحي : أي السريع .

(٤) الخرصان : الرماح . (القاموس المحيط : ٧٩٥)

(٥) المخذم : السيف القاطع . (القاموس : ١٤٢١)

ابن
عبد الحميد

ومنهم : ابن عبد الحميد (١)

من ولد عبد الحميد بن يحي ، وله الذكرُ الحميدُ به يُحي ، نَجَحَ بوسائله وَنَجَحَ برسائِلِهِ ، ورَجَحَ بما جرى له من مسائله ، على أنه لو عاصَرَه ، لصانف في مجال العربية الوسيعة وحَاضَرَه ، وَشَحَ بالقرآن الكريم أعطاف كلامه ، وأدنى قطاف البيان من أكمامه ، غَلَبَ قَلَمُهُ السُّيوفَ (فهي) (٢) كَهَامَةٌ ، وانتمى في دوافق السُّيول إلى كرامة .

ومن نثره الذي أطلع كوكبه كتابٌ كَتَبَه إلى رجلٍ كان في طاعة الموحدين، ثم نزع منها يده ، وخلع من بين السّمة ماتقلّده ، وهو:

إلى أبي بكر أيقظ الله بصيرته من نوم ضلالِهِ ، وفَاءَ به إلى كَنَــفِ التوحيد وظلاله ، من المبتهل إلى الله في صلاح حاله ، وسلامة مآله ابن عبد الحميد ، أما بعد :

فياليتك لم تُخلق بشرا سويّا ، وقد صرت للشيطان وليا ، تركتَ ماكان عليه المرحوم من الاغتباط بهذا الأمر الذي لم تزل به حفّيا ، وقد مهد فيه لعقبه صراطا سويا ، ((فَخَلَفَ من بعدِهم خَلْفٌ أضاعوا الصَّلاةَ واتّبعوا الشَّهوَاتِ فَسَوفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)) (٣) ، نقضتَ بيعةً ونكثتَ عهداً ، وصرتَ لأهل اللئام بعد فئة

=:=

(١) ابن عبد الحميد : من الكتّاب الذين انفرد المؤلف بترجمتهم ، فلم أجد له ترجمة في تراجم الرجال ، وخاصّة انه لم يذكر اسمه صريحا .

(٢) مابين الحاصرتين زيادة لازمة .

(٣) سورة مريم : آية ٥٩ .

التوحيد عبدا ، واستبدلت من علو الهمة خَبْتاً (١) ، فازددتَ من الله بعداً ومقتاً تبرأت منك بسكورة (٢) وأعزز بها عشيرة وقبيلا ، ((يَسْألون عن أنبائكم ولوكانوا فيكم ما قاتلوا إلاّ قليلا)) (٣) ، أيَسُرُّك أن أورثك ضلالك عن الرشاد وَسَنا ، وقَنَى بك إلى وَحلِكَ (٤) عِنانا ورَسنا ، ((أفَمَنْ زُيّنَ له سوءُ عمله فرآه حَسَناً)) (٥) ، هبك بنعمة من الله ثم من نعم هذا الأمير إلا في بحار الأفضال غريقاً ، وَبَوّأك التوفيق في المناصحة له طريقاً ، يطأُ عَقِبَكَ الأحرار ويلحظك بعين الاغتباط الأبرار يجل لمكانك الجبار ، ويطيعك أهلُ الجبال الشامخات ، والذي قد نظمتك عناية هذا الأمير مع أولاد أهل الجماعة ، ليوث البسالة والشجاعة الوارثين عن آبائهم مناهج البر المستبينة المستمسكين بعُروة الحق المتينة ، فخلعت من عُنقِك رِبْقَةَ (٦) الاسلام ولمّا دعاك الشيطان أظهرت له الاستسلام ، ومحوت بسيئاتك ما كتب في صحفك من إخلاص ونصيحة ، وخدمة مشكورة صحيحة ، فأنت باخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الشيطان تركض ، ولعرى الدين ومعالمه تَنْقُض ، كفرت أيادي الموحدين وإلاهُم ، وبسطتَ يدك في المسلمين تقتلهم وتمزق أشلاءهم وتُجرّعهم

=:=

(١) الخبت : الحقارة المهانة . (القاموس المحيط : ١٩٣)

(٢) بسكورة أو بسكرة : بلدة بالمغرب من نواحي الزاب ، بينها وبين قلعة بني حمّاد مرحلتان ، فيها نخل وشجر وقسب جيد ، بينها وبين طبنة مرحلة ، وهي ذات أسواق وحمامات ، وأهلها علماء على مذهب أهل المدينة ، وبها جبل ملح يقطع منه كالصخر الجليل .

(معجم البلدان : ١/ ٤٢٢)

(٣) إشارة إلى قوله تعالى : ((يحسبون الأحزابَ لم يذهبوا ، وان يأت الأحزاب يودّوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ، ولوكانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا))

سورة الأحزاب : آية ٢٠

(٤) الوهل : الضعف والفزع . (القاموس المحيط : ١٣٨١)

(٥) إشارة إلى قوله تعالى ((أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسنا ...))

سورة فاطر : آية ٨

(٦) ربقة الاسلام : عرى الاسلام . (القاموس : ١١٤٣)

من غُصص اعتذارك مايقطع أمعاءهم ، ((أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم)) (١) باعجبا لك كيف رَكَنت لأهل اللئام الجُفاة والطّغام أهل البغي والفجور ، واستبدلت الغبا في عوضاً من مشيدات القصور ، واقترفت كبار الكبائر و رفضت ادّخار الأجور ، ((ومايستوي الأعمى والبصير . ولا الظُّلُماتُ ولا النُّورُ . ولا الظِّلُّ ولا الحَرُور)) (٢) ، فاعلم أن الله بالمرصاد ، أول النحل وآخر صاد ، وبادر مبادرة منيب ، وتُب من قريب ، وسارع مسارعة مخلص بمَتابه ، وأتِ الأمر من بابه ، قبل أن تلمعَ لك السيوفُ بوارقَها ، وتبعثَ لك الحتوفُ بواشِقَها (٣) فقد نهض الموحدون (٤) بنفوس عليك وعلى أوليائك حَنِقة ، وقلوبُهم للمنايا معتنقة ، وكأني بك وقد ضاق بك البراح ، ونقض عزيمتك الكفاح ، ورفضتك أن تكون ممن قال الله فيهم : ((إِنَّ هؤلاءِ يُحِبُّونَ العاجِلَةَ ويذرونَ وراءَهم يوماً ثقيلا)) (٥) ، فإنالله وإنا إليه راجعون ، كيف أشْمَتَّ بنفسك وأهلك العِدى ، وعَرَّضت للمحنة أهلا وولدا وقطعت بمُباينة هذا الأمير ساعداً شديداً وعَضُداً ، وركبتَ هوى نفسك فكنتَ أضعفَ ناصرا وأقلَّ عددا : (البسيط)

فَداوِنفسكَ والأدْواءُ ممكنةٌ   وان ظنَنْتَك قدألقيتَ إليكَ يَدَا

=:=

(١) سورة محمد : آية ١٤

(٢) سورة فاطر : آية ١٩ - ٢١

(٣) واشق : اسم كلب . الوشيق : القديد وكذلك المشنق . قال الليث : الوشيق لم يقدر حتى يقب وتذهب ندوته ، ولذلك سمّي الكلب واشقاه اسم خاص له .
(لسان العرب : ١٠ / ٣٨٠)

(٤) الموحدون : دولة اسلامية قامت في شمال أفريقيا والأندلس . أسسها زعيم من البربر اسمه محمد بن تومرت ، كان ثوري النزعة ، زار المراكز الدينية في الشرق الاسلامي وقرطبة ، وتشبع بالروح الصّوفية ، وعاد الى المغرب ينشر دعوته ، فانضمت اليه القبائل ، وتألف منها جيش أصبح دعامة الموحدين . انهارت دولتهم عقب انتصار الاسبان عليهم في معركة لاس نغاس .
(الموسوعة العربية الميسرة : ٢ / ١٧٧٢)

(٥) سورة الدهر : آية ٢٧

ولا يُقنِطْك من العَفو ماوقعت فيه من الجُرم ، وجَنَيْتَه على نفسِك من الظّلم ، فان بادرتَ الإنابةَ ، ألفيتَ عند أمير المؤمنين كريمَ العفو وجميل الاجابة ، وكنتَ ممن لم تغلبْ على حسناتِهِ سيّئاتُه ، ولا ممن غرستْ لديه الصنائع فحنظلت (١) نَخَلاته ، وقد سبقت لك خدمة مشكورة ، فأتبعها الآن بتوبةٍ مبرورةٍ ، تكن الهفوةُ التي بينهما بمشيئة الله مغفورةً ، فالسعيدُ مَنْ بادر بالمتاب قبل التَّلف ، واقصد طلب العفو فان ذمته (لمن) (٢) ازدلفَ ، واغسل بالتوبة ماعلى وجهك من الكَلَف ، قال الله : ((قُلْ للذين كَفَروا إنْ ينتهوا يُغْفَرلهُم ماقدسَلَف)) (٣) .

=:=

(١) حنظلت :من الحنظل ، أي أصبح طعمها مرا .
(لسان العرب : ١٨٣/١١)

(٢) مابين الحاصرتين زيادة يتم بها السياق .

(٣) سورة الأنفال :آية ٣٨ .

أَبُو عَلِيّ بْنُ الْقَطَّانِ

ومنهم أبوعلي بن القطان : (١)

شأنه مقارب ، وبيانه ما يوارب ، مع أنه أزكى من غيره منبتا ، وأزكى مسكا على القرطاس مفتتاً ، ربما اتصفت له رياض أثائث (٢) ، واتصلت به حبال رثائث .

ومن نثره المبهج ، ونشره الأرج قوله :

والثقة بأن الله تعالى في محاولات هذا الأمر أسرار يُسَلِّم لها المسلِّمون ، وتبتهج (من) (٣) مباهجها المسلمون ، ثقة من فضل الله ، يوضح مشكلها لأوليائه المسدَّدين ، ويفتح مُقْفَلَها لعباده المشدَّدين ، بحيث لا يمسُّهم فَـزَعٌ ولا نَصَبٌ ، ولا ينالهم ألم ولا وصب (٤) ، ولا يمنعهم بالله بصر ، ولا ينالهم ولا خبر ، ولا بُدَّ مع التسليم إلى الله في أمره من حدٍّ يُبلي فيه أهلُ الجهاد عُذراً ، ويُضحي الصِّفاءُ شُكراً ، وتتكفَّل السيوف بأنها إذ تَقْرى ، لا تجوع ولا تَعْرى ، والنِّبالُ بأن الأدواءَ بُرْءاً حيث حُشيت تبراً .

=:=

(١) أبوعلي بن القطان : هو الحسن بن علي بن محمد القطان أبوعلي ، عين الزمان المروزي : طبيب له علم بالحكمة والهندسة والأدب . أصله من بخارى ، ومولده و وفاته بمرو ، قبض عليه الغزّ لما تغلبوا على مرو ، فجعل يشتمهم وهم يلقون التراب في فمه حتى مات . له "الدوحة" في الأنساب ، ورسائل في "الطب" وصنف بالفارسية "كيهان سياحت" في الهيئة .

(تاريخ حكماء الاسلام ١٥٦)

(٢) رياض أثائث : رياض ملتفة لكثرة أشجارها ، وهو أثيث ، ويوصف به الشعر الكثيف ، والنبات الملتف ، قال امرؤ القيس :

أثيث كقنو النخلة المتعثكل . (لسان العرب : ٢/ ١١٠)

(٣) زيادة لا تمام السياق .

(٤) الوصب : المرض . (القاموس المحيط : ١٨١)

أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ

ومنهم: أبو جعفر الطّبري . (١)

يضرب في مجر المجرّة بأعطان (٢)، ويأوي في مجرى النجوم لأوطان، نَزَعَ عن الأسد وَفْرَته، وقلع عن إهاب الحمل فَرْوَته، فاختفى سهيل كأنّه يترقّب، ورمى سُوَيداء قلب العقرب، ونَثْرُه أرفع من النَّثْرة (٣)، وأدفعُ من الكثرة.

ومنه قوله:

وكثُرت الخوارج (٤)، وثجّ ماء السيوف على المناهج، إلّا من فاء إلى تلك العصبة الخائفة، ثم كان معهم تحت يد الامتهان، وكنتُ - والله - أحمدُ على مذهب صحيح، ومتجر ربيح، فأبيت المقام على الذّلّة، والانجبار إلى من خالف جمهور المِلّة،

=:=

(١) هو احمد بن محمد بن يزداد بن رستم أبو جعفر الطبري النحوي، سكن بغداد وحدّث بها عن نصير بن يوسف وهاشم بن عبد العزيز، قال ابن النديم وله من الكتب كتاب "غريب القرآن" و"المقصور والممدود" و "المذكر والمؤنث" ترجمته في معجم الأدباء ٤/ ١٩٤، بغية الوعاة: ١٦٩ وطبقات المفسرين: ٣١

(٢) أعطان، جمع عطن، وهو الوطن والمكان . (اللسان: ١٣/ ٢٨٦).

(٣) النثره: كوكبان بينهما قدر شبر، وفيهما لطخ بياض كأنه قطعة سحاب .
(القاموس: ٦٥١٦)

(٤) الخوارج: وهم قوم ممن كانوا مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حملوه على أن رضي بالتحكيم بينه وبين معاوية، وأشاروا باقامة أبي موسى الأشعري حكما عن علي، وإقامة عمرو بن العاص حكما عن معاوية، فخدع عمرو أبا موسى. فخلع علي، ولم يُخلع معاوية فأنكروا ذلك. ورفضوا التحكيم، وكفّروا عليا ومعاوية ومن كان معهما بصفين. والخوارج، لون جديد من الحركات الفكرية والثورية التي حدثت في الدولة الأموية، اشتق اسمهم من الفعل "خرج"، ويطلقون على أنفسهم "الشراة" أي الذين شروا آخرتهم بدنياهم، و(الحرورية) نسبة الى حروراء، و(المحكمة) أي الذين يقولون لا حكم الا لله. وقد عدّوا عبد الرحمن بن ملجم بطلا مجاهدا. (موسوعة التاريخ الاسلامي لاحمد شلبي)

والله فتح وجيز ، ((وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ من يَنْصُرُهُ إنّ الله لَقويٌّ عزيز)) (١) ، وما يرد من السيّارة مشرقين ، ولا تدنو القافلة متغرقين ، فأنا الباحث عن أحوالك ، والسائل عن خلالك ، فما أعيا خَبَرٌ ، ولا أعْوَزَ دفعُ ضَيْرٍ ، فأما ماكنتُ أذكرُ من الخوارج ، وضر من قعودهم (٢) على المدارج ، فيمّا فُتحتْ به الأُحْدُوثةُ ، وساءت الأُشنوعة المَوْروثة ، لطول عمر لياليها الدادي ، وغصص نواحيها بخيول الأعادي ، فلايسمع إلاّ من فَرَّ(٣) وأبرق عليه بَرْقُ الصادم الذَّكَر أَوْهرّ ، فأخضعت ألسنةُ الجِنّان ، وقصمت المخافة زِرَّ البراعَة مما ضمّت عليه عُروةُ البَنان .

= : =

(١) سورة الحج : آية ٤٠

(٢) في الأصل : قعدهم ، والصواب ما أثبت .

(٣) في الأصل : من نرى ! والصواب ما أثبت .

ابو حفص

عمر بن صاحب الصلاة

ومنهم : أبو حفص عمر بن صاحب الصلاة : (١)

كان رضيع مدامة ، ومطيع هوى لا ملامة ، فلما توفي أبوه تعطّلت أعواد منبره ، وسلب مجلس قضائه فريد جوهره ، فلما وضع في لحده ، ومنع من أن يتقدّم أحد من بعده نهضوا جميعهم إليه ، فوجدوه صريع عقاره ، وضجيع عُواره ، فأقبلوا على عذْله ، لافتقار المنصب إلى مثْله ، والنوبة ترنو إليه بعين معازله ، ويقطعوا إليه بجدّ مجده لا هازله ، فسألهم أن يدعوا عنايته ، ويتركوه ليلتَه ، فبات والأناة تسامره ، والمراجعة تشاوِره ، فباتت يغالبها وتُغالبُه ، ويجاذبها طرفَ ردائها وتجاذِبُه ، إلى أن حيت الغزالةُ لمحياها السّافر ، وألقتْ ذُكاءُ يمينها في يد كافر ، عمد إلى قوس صبا بته فنَزَعَها ، وإلى أثواب نَشْوَتِه فخلَعها ، وإلى أباريقه فأراحها ، وإلى برنانِه فأسال أرواحها ، بتوبة نصوح لم يَشِنْها ارتياب ، وإقلاع فجاءه كالسحاب المُنْجاب ، ثم طفقت مجامرُ القرائح بعبق وَقودُها ، وأوهان الآداب يتيقّظ رَقودُها ، يسري بها ذَميلا (٢) ، ووَخْدا ، ويومئ بها طرْفًا ساحراً وخدّاً .

ومنه قوله يوصي بكتب أودعها بعض أصحابه لا يقرظها الفار ويذكر الهرّ ، وهي :

[وصف الهر]

في علمك ما استودعتُه ديانَتك ، واستحفظته صيانتُك من كتبي التي هي

=:=

(١) هو أبو حفص عمر بن يحيى بن الفضل بن صاحب الصلاة ، من أهل باجة الأندلس ، روى عنه عقيل بن العقل الباجي الشلبي ذكره الشيخ في الذيل ، وكان حيّا سنة ٥٢٠ .
(انظر صلة الصلة : ٦٢

(٢) الذميل : السير اللين .
(القاموس المحيط : ١٢٩٥)

أنفس أعلاقي وأغلاها ،وأحقها بالصّيانة وأولا ها ،ولا شكّ أنها منك بِبالٍ ،وبمكان مُهِمٍّ منك وإقبال ،ولكن ربما طَرَقَها من مَرَدَة الفار طارق ،وغاب فيها كما يغيب الفاسق المارق ،فيتحيّفُ مالَها قَرْضاً ،ويجول فيها طولا وعرضا ،إلى أن يطوفَ عليها هِرّنبيل ،ينتمي من القطاط إلى ألحف قبيل ،له رأس كمجمع الكفّ ،وأُذُنان قد قامتا في صفّ ،ذواتا لطافة ودِقّة ،وسَباطة ورِقّة ،يقيمهما عند التّشوّف ويُضجعهما عند التحرف ،وعينان كأنهما مقتطفانِ من الزجاج المُجَزّع ،وكأنّ نواظرَهما من عيون الباقلّي تنزع ،قد استطال الشعرُ فوق أحداقِه ،وحولَ أشداقه، كإبَرٍ مغروزةٍ على العيون ،كما تبري (١) أطرافَها القيون ،وبَنَا ن كَحَدّ المِطْـرَدِ، ولسان كظهر المِبرد ،وأنف أخنس ،وعنق أوقص (٢) ،وخلق سوى غير منتقص ، أهرَتُ (٣) الشدقين ،مُوَشّى الذراعين والساقين ،ململم اليدين والرجلين ،رَحّل بهما وَبَرَهُ برجيل ذوي الهمم ،لمّا نشفت (٤) من اللّثم ،وينفض مالَصِق به من الغُبار، وَعَلِق من الأوبار ،حتى يجلوَ جسمَه جلاءَ الصّيقل للحُسام ،والحِمام للأجسا م ، فينتفي قذاه ،ويُواري أذاه ،ويُقعي إقعاءَ الأسد إذا جَلَسَ ، ويثبُ وثبةَ النمر إذا افترس ،له ظهر شديد ، وذَنَبٌ مــــديد ،يَهُزّه هزّ السَّمْهَرِيِّ المُثقّف ،ويطويـــه طي (البُرد المُفَوّف) (٥) ،ويلويه ليَّ الصولجان (٦) المعقّف ،يكب الماءَ حــين

=:=

(١) في الأصل : تبرد ،وهوخطأ ،والصواب ما أثبت .

(٢) أوقص: قصير . (القاموس المحيط : ٨١٨)

(٣) أهرت :واسع . (القاموس المحيط : ٢٠٨)

(٤) نشفت: سالت . (القاموس المحيط : ١٠١٩)

(٥) في الأصل : ويطويه طي ويلويه : ومابين الحاصرتين أضيف لاستقامة الكلام والسجع .

(٦) الصولجان بفتح الصاد واللام : المحجن جمعه : صوالجه .
(القاموس المحيط : ٢٥١)

يلقه ، ويُدني منه فاه ولا يبلغُه ، ويمدُّ من لسانه رشاءً ودلواً يعلم به الماء إن كان مُرّاً أو حُلواً ، فتسمع للماء خضخضةً من قرعِهِ ، ويُرى للسان نَضنضة من جَرْعِهِ ، يحمي داره حماية النقيب ، ويحرسها حراسة الرقيب ، فإن رأى فيها كلبا هَرَّ عليه ، وإن رأى فيها هرّاً زحف إليه ، مكفهرا أنفه على جنابه ، أن يطرق ، وغيرة على حجابه أن يخرق ، فيدافعه بالساعد الأشدّ ، وينازعه منازعة الخصم الألَدّ ، فأما إذا طال مناوضته ، وأدام مراوضته ، أبرز بُرْثُنَه (١) لمبادرته ، وجوشنه (٢) لمبادرته ، فشدَّه شدّةً ، وضمّه من غير مودّة ، وأطار وبره أنسالا ، وأرسل دمه أرسالا ، بأنياب عُصْلٍ (٣) ، أمضى من النّصل ، ومخلب كمنقار الصقر ، درب للاقتناص والعَقْر ، ففرَّ قِرْنُه ممزّق الإهاب ، مستنفرا للذهاب ، قد أفلتَ من بين أظفار وأنياب ، ورضيَ من الغنيمة بالإياب ، هذا وهو يُخاتله دون جُنّة (٤) ، ويقاتله بلا سيوف ولا أسِنّة ، وإنما جُنّتُه مُنّتُه ، وسِنانُه أسنانُه ، وشِفاره أظفاره ، إذا سمعت الفارةُ منه مُغَاءً لم تستطع له إصغاء ، وتصدّعت قلوبُها من الحَذر ، وتمزّقت شَذَرَ مَذَرَ (٥) ، تهجع العيون وهو ساهر ، وتستترُ الشخوص وهو ظاهر ، يسحرُ من عينيه بنَيِّرَيْن وَضّاحَيْن ، تخالُهما في الظلام مِصباحيْن ، يشوف الأركان ، ويطوف بكل مكان ، لم يغفلْ إذا نام ، ويتمطّى إذا قام ، ولا يكون للنار مستدفيا ، ولا للقدر مُكفيا ، ولا للرماد مضطجعا ، ولا للجـــار

=:=

(١) برثنه : الكف من الأصابع . (القاموس : ١٥٢٢)

(٢) جوشنه وجمعها جواشن : وهومثل الزرد يلبس على الظهر والفرق بينه وبين الزرد أن الزرد يكون من حلقة واحدة فقط والجوشن يكون حلقة بتداخل فيها صفائح رقيقه من التنك .
(هامش الطبعة الأميريه : ٣/ ٤٧٣) والجوشن هنا : الصدر .

(٣) العصل : المستزقه ، وقيل منبت الشعرمن الجلد والعظم .
(اللسان : ١/ ٥٥٩)

(٤) جنّة : غطاء واق . (القاموس المحيط : ١٥٣٢)

(٥) شذر مذر : إربا إربا ، أوتفرقوا في كل وجه . (القاموس : ٥٣١)

مُنتجعا ، بل يقنع بكيده ، و يقتصرُ على صيده ، قد يقوت بقتل الحناش (١)

والخشاش ،(٢) وافتراس الطير في المسارح والأعشاش ، ثم يكمن للغارة ويلتصق بالأرض ، وينطوي بعضُـــــه على بعض ، حتى يستوي منه الطول والعرض ، فإذا

تَشَوَّفَت الغارةُ بابراز نحرها ، وأشرفت بإتلاع صدرها ، دبَّ إليها دبيبَ الصِّلِّ (٣) ،

وامتدَّ إليها امتداد الظِّلِّ ، ووثب في الحين إليها ، وجلب الحَيْن إليها ،

فأثخنها جراحا ، ولم يُعطها براحا ، فضاقت من شدّة أسره ، وقوّة كسره ، وكلما

كانت صِحَّتُها أحدَّ ، كانت قبضتها عليها أشدّ ، حتى تستأصل أوداجها فَرْيـــا ،

وعظامَها بَرْيا يدعها مجروحة الذّماء مُضَرَّجة بالدّماء ، فان كان جُرَذا (٤) ، مُسنّاء

لم يضع عليه سِنّاً ، وان كان صغيرا فَغَرَ عليه فاه ، وقبض مترفّقا على قفاه ، وتلاعب به

تلاعب الفرسان بالأعنّة ، والأبطال بالأسنّة ، ليزداد إليه تشهّيا ، وبه تلهّيا ، فإذا

أوْجَعَه عضَّ ، أو رَفَعَهُ فَضَّ ، أجهز في الفور عليه ، وعمد بالأكل إليه ، وظهر بالا

لتفاق بنكره ، وأعمل في غير فكره ، ورجع إلى حيث أثاره ، وتتبعَ فيه آثـــارَهُ ،

واحتال إلى أن يجده في رباعه ، نائيا عن أتباعه ، فيُلحقه بصاحبه في الرّدى ،

حتى يُفنيَ جميع العِدى ، وربما رجع عن هذه الفوائد ، والتقط الفُتات حول

الموائد ، إبلاغا في الاحتماء ، وبرا بالنعماء ، فعاله على فَعاله ثمنّ ، ولا بما بعسائله

الزمن ، وقد أوردتُ - أدام اللهُ عزّك - في وصفه فصلا معه مُغرِباً ، وهَزْلاً مُطرِباً ، على

=:===

(١) الحناش: الحية ، وقيل الحية ، وقيل : الأفعى ، وبها سمّي الرجل حنشا ، وفي الحديث: حتى يدخل الوليد يده في فم الحنش أي الأفعى ، وهذا هو المراد من الحديث . وقال ذو الرمّة :
وكم حنش ذعف اللعاب كأنه على الشرك العادي ، نضو عصام .
(لسان العرب : ٦/ ٢٨٩)

(٢) الخشاش: حيّة الجبل . (القاموس: ٧٦٤)

(٣) الصّل : الحية الداهية . (القاموس : ١٣٢٢)

(٤) جرذ : ضرب من الفأر . (القاموس : ٤٢٣)

أني لو استعرت في وصفه لسان أبي عبيد ،وأظهرت في وضعه بيان أبي زيد ،ماانتهيت في النّطق إلى شاكلة فعله ،ولا احتويت في السبق قطّ إلى وصف قطّ مثله .

[مجاورة البحر]

ورأيت بخط القاضي الفاضل (١) رحمه الله تعالى نسخة كتاب كتبه ابن صاحب الصلاة أيضا إلى بعض اخوانه يعلمه بجواره البحر ،ويصف مالقي من حوادث الدهر ،وقد أوردته هاهنا بكماله ،لغرابة أسلوبه في أمثاله ،وذلك حين أجرى سفينته ،واللُّجّة هادية ،وسريرة البحر على صفحته بادية ،فهبت ريح زعزعت جوانبه ،وأرسلت من أفواج الماء مقانبه ،فشوّهت منظره ،وطمست في دارة العمق قمره ،وفتحت أفواهها أوديته الفواغر ،ونكست أعناق الصواري صواغر ، ثم من بيده ناصيته يصرفها وطَرْفُهُ يُنكرُها ويعرفُها ،وجلا تلك الغمّاء ،وسجر في مستقرّه ذلك الماء ،وأخذ بعنان ريحه الجامع ، وردّ طَرْفَه موجها الطامح ،حتى غادره سحبا تنشرها الرياح ،ومتن البحر هاديا كصفحة الراح ،ثم اذا صافحته يد الهواء ،رأيت به مثل نطاح الظّباء ،وتجلّت ذُكاء (٢) والضوْ قد أشرق ،وبدت في سمائها كوجه المليحة في الخمار الأزرق ، وأشرقت بازغةً تدنو وترتفع وتبدو كسبيكة الزجاج الحمراء ،الذائبة ينفخها فتتّسِع ،وهو : (البسيط)

=:=

(١) القاضي الفاضل : هو عبد الرحيم بن علي البيساني ،ولد في عسقلان سنة ٥٢٩ هـ وكان والده قاضيا فيها ،ألحقه والده بديوان المكاتبات ليتخرج هناعلى كبار المنشئين ،فأرسله الى مصر أيام الحافظ الفاطمي . جعله صلاح الدين الأيوبي وزيراً له . وقال صلاح الدين في حقه "لا تظنوا ملكت البلاد بسيوفهم بل بقلم الفاضل" .
(تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي لأنيس المقدسي : (٢٨٩ - ٢٩٠)

(٢) ذكاء : الشمس . (القاموس : ١٦٥٨)

لا يبعدُ الله أقواما صَحِبْتُهم   لم أدرِ بعد غداةِ البَيْن ماصَنَعوا

يصنع الله أيها الصاحب الوفي ، والخليل الصّفي ، أحسن الصنع وأجمله ، وأتمّ البرّ وأكمله ، وأبقاكُ في أوفر نعمة ، وأبهر نعمة ، وأبرد حال ، وأنْبَه بال ، لما كنّا - أعزّك الله - مرتضعين بلبان الصّفا ، ومُستبقين في ميدان الوفا ، فارقتُك بمدينة سبتة (١) - حرسها اللهُ تعالى - حين أخذتَ للسفر عُدّةَ الحزم ، وشددتَ له عقده العزم ، وأنا أجدُ من وَداعك أشدَّ بأسٍ ، وأجرع من فراقِك أمرّكأسٍ ، والليل مستورٌ ، ولواء الشمس منشور ، قد أنار وجه الأرض رونق الضحى ، ودار خطّ الظّلّ دور الرّحى ، فانتظمتَ مع السّفْر في سِلْك ، وركبنا على اسم الله في ظهر الفُلْك ، في شأن عظيم الشان أُنشِئ من أطول القصب وأقومها ، وأصلب الخُشُب وأدومها ، فأصدقت به النطق أحداق الحيازيم (٢) ، وأمسكته إمساك الأبازيم ، ثم يتبع خلله حدداً على ألواحه من الانخلاع ، فاتصلت بقرابيسه (٣) اتصال الجلود بالأضلاع ، ثم جلل سربالا من القار ، وضُمّخ بالشحم في الثُّدِي والغُفار(٤) ، فامتاز بأغرب منسم(٥) ،

=:=

(١) سبتة : مدينة على ساحل البحرين افريقيا والمغرب ، وهي في لحف جبل شاهق وفي قبلتها جبال كانت قاعدة ملك بني حمّاد وهي مفتقرة إلى جميع البلاد لا يخصّها من المنافع شيء ، انما هي دار مملكة ، تركب منها السفن وتسافر إلى جميع الجهات.
(معجم البلدان : ١/ ٣٣٩)

(٢) الحيازيم ، مفرده حزيم : موضع الحزام من الصدر ووسطه والظهر كله ما استدار يقال قد شمرّ وشدّ حزيمه ، وأنشد :

شيخ ، اذا احمل مكروهه   شدّ الحيازيم لها والحزيما

(القاموس : ١٤١٢)

(٣) قرابيس ، مفردها قربوس : وهو حنو السرج . (القاموس : ٧٢٨)

(٤) في الأصل : والقفار ، والصواب ما أثبت .

(٥) المنسم : العلامة . (القاموس المحيط : ١٥٠٠)

وعاد كالغراب الأعصم (١)، وحَسُن في منظر ومخبر، كأن الكافور قد قرن لــــه بالعنبر، له من التماسيح أجنابُها، ومن الخطاطيف أذنابُها، قد استقلّت أرجُلــه بغراشها كاستقلال السهام برياشها، وقام فيها قضيبُ الخيزُرانة، كعمود الاسطوانة ثم رأيت قلاعَه تعلى، (كا) كالعروس على المنصّة تُجلى، وقدمّ ذراعيه ملتقيا وفودَ الرياح بالمصافحة، مستهديا من أنفا سها منافحه، واهتزّ منها لنَفَس كليــل، ومسٍّ قليل، متوسّدا على دقّته في حال ثِقَلِهِ وخِفّتِهِ، ليتفاءل أهلُه بالأمان، ويحسنوا الظّنّ بالرحمن، لا يجد لطول المسير ملالا، ولا يشكو منه كَلالا، بل يصلُ التصعيد بالتصويب، ويجمع بين الاسآد (٢) والتأويب (٣)، دون همز لمراكلِــه، ولا ضَرْب لشواكله، تقلّد السكمّ رائس (٤)، ماهرٌ في البحر سائسٌ، ذو تيقظ واستبصار، واستدلال على الأعماق والأقطار، بقدر الأوقات تحرره، ويكيل البحر في مَدِّه وجَزْره، مع معرفته بدليل الهواء، ومخايل الأنواء، ونكوب الرياح عــن مهبّها، ووقوع الأنهار في مصبّها، يهتدي بالنجوم اذا سرى، ويستدلُّ بالمياه إذا جرى، قد جعل الماء مرآة ينظر فيها، ويحذر من دَخَن يوافيها، فــإذا أصدأها الظلام بحنادسه، (٥) صقلها الصّباح بمدارسه، يسبح الله في مصبحــه ومساه، ويبتهل في مجراه ومُرساه، ويذكر ربّاً يحفظُه ولا ينساه، قد اتّخــذ

(١) الأعصم: الشديد، الذي في رجليه بياض وسائره أسود. (القاموس: ٤٧٠)

(٢) الاساد: السير ليلا بلا تعريس. (اللسان: ٣/ ٧١)

(٣) التأويب: السير جميع النهار. (القاموس: ٧٦)

(٤) رائس: والي. (القاموس: ٧٠٥)

(٥) حنادس جمع حندس: الليل المظلم. (القاموس: ٦٩٥)

فتيةً مواتية ، من حذّاق النواتية (١) يفهمون عن رئيسهم بالايماء ويتصرفون له تصرف الأفعال بالأسماء ، بأشخاص لطاف ، سريعة التلفت والانعطاف ، ينزفون الماء حتى ينضب ، ويصلون الحبال (٢) عند التقضّب ، ويتعلقون بها تعلق الحرباء بالتّنضب ، ويترنمون عند الجذب والدفع ، والحط والرفع ، بهينمة تبعثهم على الحمام ، وتؤذنهم في عملهم بالتّمام ، فجرينا ونفخ الريح نسيم ، ووجه البحر وسيم ، وراحة الريح تصافح أعتابه مصافحة الخلّ ، وتطوي جنابه طيّ السّجلّ ، وتحول من لججه أبسرادا ، وتصوغ من حبكه ، كأنما رسم في الأديم رقشا (٣) ، أو فتح في الفصوص (٤) نقشا ، فتراه كمثل الفرند (٥) على سيوف الهند ، فمن صارخ بتلاوة القرآن يطيب ما لا يطيب الماء البارد للظمآن ، ومن مخبر بما سمع ورأى من الفوائد العجائب ، ورواية الغرائب ، والعيش رخاء .

ولما توسّطنا ثبج البحر ، وضربنا بين السّحر والنّحر ، صحت الريح من سكرها ، وخارت من وكرها ، سمعنا من دوي البحر زفيرا ، ومن حبال الشاني صفيرا ، ورأينا البحر يزبد ويضطرب ، كأنه بكأس الجنون قد شرب ، فعلقت عليه

=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=: :=:=:=:=:=: :=:=:=:=:=:=

(١) النواتية ، من النّية والفعل نوى بمعنى قصد وعزم ، وقد وردت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرئ مانوى . . .

(٢) في الأصل : الحيال ، تصحيف ، والصواب ما أثبت .

(٣) الرقش : النقش . (القاموس المحيط : ٧٦٧)

(٤) الفصوص : الفصول . (القاموس : ١٠٧)

(٥) الفرند : بكسر الفاء والراء : السيف وجوهره . (اللسان : ٣٩١)

تعائم ،من غير الغمائم ، واستقبلنا منه موجة بأثر (موجة) ،وطارت من أمواجـــه

عِقبانٌ (١) كواسرُ تلتطم وتصفق ،وتختلف ولا تتّفق ، كأن الجوّ يأخذ بنواصيها،

و يحدٌ بها من أقاصيها ،حتى يكاد وجه الأرض ينكشف من خلالها ،وتختطـــف

عِنان السحاب في استقلالها ،والشاني تلعب به أكفُّ الموج ،ويفحص منها بكَلْكَلِه

فوجا بعد فوج ،كأنما ينسلخ من دهنار ،ويستقيلُ من عِثار ،ويتحوّل منها بين

أنجاد وأغوار ،وخنادق وأسوار ،وطاقا ـــــــــ وأحراف ، كأنهـــا

سواق حبال تُنقَدّ ،وسوامق جبال تنهَدّ ، ونحنُ قعودٌ ،كدُودٍ على عودٍ ،قد

نَبَتْ من القلق أمكِنَتُنا ،وخرست من الفَرَق ألسنتُنا ،والرّشّ يكنِفُنا من كل جانب ،

ويسيل من أثوابنا سيلَ المذانب ،ونحنُ لانطيقُ نقْضَه ،ولا نستطيع رَفْضَه ،كأنما

خُشينا من الرُّعب شذرا ، ومسَّ أعضاءنا حَذَرا ،والمعد تهيج بمرّتِها ،وتموج

بدُرّتها ، فَشَمِمنا ريحَ الموت ،وأيقنّا بالتّلَف والفَوت ،وانتظرنا فراقَ الصّحب ،وقضاء

النَّحْب ،وبقينا في همٍّ ناصب ،وعذاب واصب ،حتى انتهينا إلى كنف الجون (٢)

وصرنا في كِنٍّ مصون ،وهدأ من البحر ماالستشرى ،وتنادينا بالبُشرى ،ثم وافينا الجزيرة

الخضراء (٣) ،واقتضينا من السلامة النعمة الغضراء (٤) ،يقلُّ لها عتقُ الرّقـــاب ،

=:=

(١) العقبان ،و مفرده عقاب بضم العين : طائر من العتاق مؤنثه ،وقيل : العقاب يقع على الذكر والأنثى ،إلا أن يقولوا هذا عقاب ذكر ،والجمع أعقب وأعقبة ،عن كراع ،وعقبان و عقابين : جمع الجمع ،قال عقابين يوم الدجن تعلوو تسفل . (لسان العرب : ١/ ٦٢)

(٢) الجون : النبات يضرب إلى السواد من خضرته . (القاموس : ١٥٣٣)

(٣) الجزيرة الخضراء : مدينة مشهورة بالأندلس ،وقبالتها من البر بلاد البربر سبتة ،وهي شرقي شذونة وقبلي قرطبة ،ومدينتها من أشرف المدن وأطيبها أرضا ،وسورها يضرب به ماء البحر ،ولا يحيط بها البحر كما تكون الجزائر ،ومرساها من أجود المراسي للجواز وأقربها من البحر الأعظم وبينها و بين قرطبة خمسة وخمسون فرسخا ،وهي على نهر برباط .
(معجم البلدان لياقوت الحموي : ٢/ ١٣٦)

(٤) الغضراء : الطيبة الخضراء . (القاموس : ٥٢٩)

وصيام الأحقاب ، وكان القلاعُ انحطّ سحابة سارت أو بركة غارت ، وأيقظنا من كان منا نائما ، فاستوى على نفسه قائما ، وحططنا في الزّوارق رحلنا ، ووضعنا فيهما أرجلنا ، فلم نابث إلاّ كنبضة عرق ، أوكومضة برق ، ووطئنا الأرض جُدُدا ، ولبسنا أثواب الحياة جُدُدا ، ولكنني بقيت سائر يومي نِضْواً (١) ، لا أكادُ أُقِلّ عضوا من جهة المشقّة ، لامن بُعد الشُّقّة ، فياله من يوم عصيب ، لم آخذْ فيه من الحياة بنصيب .

ولعلّ من لا يدري ما أصِفُ ، يقضي بظنّه ولا يُنصِف ، فحسب ذلك قِصَرا في باعي ، وخَوَرا في طباعي ، فأقول له : إنّ الله تعالى جعلَ البحرَ إحدى الكُبَرِ والعُظمى من العِبَرِ ، فذكره في آياتٍ جمّةٍ ، وأهلكَ فيه كثيرا من الأُمّة ، يستوي فيه الرفيع والأنزل ، ، والشّاكي والأعزل ، اذ لاكَمِيٌّ يضارِعه ، ولا قويٌّ يصارعُه ، جعلنا اللهُ بآياته مُعتبرين ، وعلى طاعاته مصطبرين ، وقد كان لسانُ الوَصْف أفصح ، ومكانُ القول أفسَح ، قال عليه السلام : حدّث عن البحر ولا حرج (٢) ، ولكنني رُميتَ الغرضَ القريبَ ، وأدّيتُ النبأ الغريبَ ، ويكفي من السيفِ ذُبابُه (٣) ، ويغنيني عن القِشْر لُبابُه ، وماقلّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى .

وكتبت آخراً في هذه بين سفر متعجّل ، وتقصير مخجل ، فإن مددتَ لقولهِ

(١) في الأصل : نضرا ! تحريف قلب المعنى ، والصواب ما أثبت ، والنّضو : المهزيل الضعيف . (القاموس : ١٧٢٦)

(٢) حدّث عن البحر ولا حرج : قال العجلوني في "كشف الخفاء ومزيل الالباس" : قال النجم : مثل وليس بحديث . (٢ / ٤٣١)

(٣) ذباب السيف : حدّه ، أوطرفه المتطرف . (القاموس المحيط : ١٠٩)

راحتك ، ومهّدتُ لقبولهِ ساحتك كانت زاد الماشي والراكب ، وحملت على الرؤوس والمناكب .

ومنه قوله يصف جامع قرطبة :

[وصف جامع قرطبة]

إني شخصت لجامع قرطبة منشرحَ الصدر ، لحضور ليلة القدر ، والمسجد الجامع قدّسَ اللهُ بقعتَه ومكانَه ، وثبَّت أساسَه وأركانَه ، قد كُسيَ بُردةَ الازدهاء ، وحلي في معرض البهاء ، كأنّ شرفاته فتولٌ في سِنان ، أو أشَرٌ (١) في أسنان ، وكأنما ضُرِبتْ على سمائه كِلَلٌ (٢) ، وخُلعت على أرجائه حُللٌ ، وكأنّ الشمس قد خلفت فيه ضياءها ، ونَسَجَت على أقطاره أفياءها ، ترى نهاراً أحدق به ليل ، كما أحدق بربوة سيلٌ ، ليل دامس (٣) ، ونهار شامسٌ ، قد نزعت من السّليط كؤوسُها ، ووصلت لمحاجن (٤) الحديد رؤوسُها ونصبت بسلاسلَ كالجذوع القائمة ، أو كالثعابين العائمة ، عصبت بتفاح الصفر ، كاللقاح الصفر ، بولغَ في صَقْلها وجلائها حتى بهرت بحسنها ولألائها ، كأنما حليت باللهب ، أو أُشربت ماء الذهب ، إن سمتَها طولا رأيت رياض شَقيق ، أو معادنَ عقيق ، وإن جلتَها عَرْضا رأيتَ منها أفلاكا ولكنها غيرُ دائرة ، ونجوما ولكن ليست بسائرة ، تتعلّقُ تعلّقَ القُرْط من القُرْقد ، وتَبسُط شعاعها بَسْطَ الأديم حين يُقَدّ ، والشمسُ

=:

(١) أشر الاسنان : التحزيز الذي فيها يكون خلقة . (القاموس : ٤٣٨)

(٢) كلل : ستار رقيق . (القاموس : ١٣٦١)

(٣) دامس : شديد الظلام . (القاموس المحيط : ٧٠٨)

(٤) المحاجن : المعطوفة المعوجة . (القاموس المحيط : ١٥٣٤)

قد رفعت على المنابر رفع البنود ،أوعُرضت عليها عَرْض الجنود ،لتجتلوَ طلاقة

رُوائها القريب والبعيد ،ويستويَ في هداية أضوائها الشقيّ والسعيد ،وقد

قوبل منها مبيضٌ بمحمّر ، وعورض مخضر بمصفرّ ،تضحك ببكائها ،وتبكي لضحكها

وتهلِكُ بحياتها ،وتحيى بهلاكها ،والطيبُ يعبق أفواحُه ، وتتنسَّم أرواحُه

قد فتر من البلنجوج (١) والنَّدّ ،وما يستزجه من روح الحياة ماشَرَد ونَدّ ،فسي

صفوف مجامرَ ، بكفوف مُقامر ،وظهور القباب مؤلّلة (٢) ،وبطونها مُهلّلة ،

كأنها تيجان ربيع فيها لؤلؤ ومَرْجان ، قُوِّس محرابُها أحكمَ تقويس ،ووُسم

بمثل ريش الطواويس حتى كأنّه بالمجرّة مُقَرْطَق (٣) ، وبقوس قزح منطق ،وكأنّ

اللازورد (٤) ،حول رسومه ،وبين وسومه ،نيف من قوادم الحمام ،أوكشف

من ظلّ الغمام ،على توابيت علويه ،ومظانّ مكتوبه ،أبناء صِيدٌ ،وأقمارٌ غِيد ،

تشرق أنوارُه بوجوههم تحت أبراج التاج ،كتقويس الأساور على دُمى العاج ،

كأنهم نجوم في الأفلاك ، أوظباء في شباك ،والناس مابين رُكّعٍ وسُجّد ،وأيقاظٍ

وهُجّدٍ ، ومزدحم على الرّقاب يتخطّاها ،ومقتحم على الظهور يتمطّاها ،كأنهم

برد حلا . قطار ، أوحروف في عرض سَطْر ،تسمع تكبيرهم كدَوِيّ النّحل في

=:=

(١) البلنجوج : عود البخور (مايتخربه ،نافع للمعدة المسترخية .

(٢) المؤلل : المحدد . (القاموس : ١٢٤٣)

(٣) مقرطق : ملبوس . (القاموس المحيط : ١٨٨)

(٤) اللازورد : من الأحجار غير النفسية التي لا يلتفت الملوكُ إليها .

(الموسوعة العربية الميسرة: ١٥٣٩/٢)

في مجاجه ،أو اليمّ في ارتجاجه ،حتى إذا قرعت أسماعهم روعة التسليم ،تبادروا بالتكليم ، وكأنّ قد حركها زلزال ،أو الجنّ قد مسّها خبال ،يتجاذبون بالأثواب ويتساقون بالأكواب ،كأنهم حضور طال بهم غياب ،وأحباب نالوا منهن التهاجر والعتاب ، وصقيل من إخوان صِدق ،تنسكب العلوم بينهم انسكابَ الوَدْق (١) متهادين لرياحين الملاطفة ،متباينين عن معاريض المصارفة ،في مكان كوَكْرالعُصفور ، أو ككِناس اليَعفور ،(٢) كأنّ إقليدس (٣) قَسَم بينهم مساحته .

ومن شعره قوله : (الطويل)

أتلهو وقد ناداك بالبين هاتف	وسَيُزْك من بعد المناداة آزِفُ
يساقرعنا كل حين إلى الرَّبى	طوائفُ تمشي إثرَهُنَّ طوائف
فيا أيها الموتُ الذي جلَّ خَطْبُه	وأعيتْ على الألباب منه اللطائف
تبيد بني الدنيا وتفني جميعَهُم	ولستَ بِمُسْتَبْقٍ كأنك خائفُ

==:

(١) الودق : المطر : (القاموس : ١١٩٧)

(٢) اليعفور : ظبي بلون التراب . (القاموس المحيط : ٥٦٨)

(٣) أقليدس أو أوقليدس ،بالضم وزيادة واو: اسم رجل وضع كتابا في هذا العلم المعروف (الهيئة والهندسة والحساب)

(الموسوعة العربية الميسرة : ١/ ١٨٦)

أَبُو الحَسَن

عَلِيّ بْنُ مُوسَى بْنِ سَعِيدٍ

العَمَّارِيُّ

ومنهم : أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العَمّاري : (١)

مكمل كتاب المغرب في حلى المغرب ، من ولد عمّار بن ياسر (٢) رضي الله عنه ، أديب مبدع ، ولبيب ممتع ، من بني سعيد ، وكانوا من بيت مُلْك لا يُنْهِنه بالوعيد كان لهم قصر سعيد بالأندلس وهو حِصْن خيّم على الغيوم ، وتختّم بالنجوم ، ونافح الرياح ، وصافح بكفّه الثريا راحاً براح ، وعلا فطالع الإ فق ذيل أفقه الصّباح ، ولا اشتَعَلَ المرّيخ في شرفاته الا دون أدنى مِصباح ، وقدِم أيام الناصر بن العزيز الشا مَ ، واختصّ به خصوصيّة الكلبي (٣) بهشا م ، وهام بأدبه هيام الكَلِف بذات الوِشام (٤) وهو صاحبي الذي أوافقه في هذا الكتاب تارة أوْ اخِذه ، ومرّةً أُنابِذه ، وكان أجمّ من البحر مدا دا ، وأسجَمَ من القَطْر عِهادا ، أوله الكلام الضّافي

=:=

(١) أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العمّاري : هو الذي نهض باخراج كتاب المغرب في صورته الأخيرة وألّف "المشرق في حلى المشرق" و((رايات المبرزين وغايات المميزين)) و"الغصون اليانعة" ، وقال فيه المقري : أديب زمانه غير مدافع ، ورحل مرتين الى المشرق فاستفاد وأفاد ، ثم رجع الى تونس وأمضى فيها بقية حياته حتى وافاه القدر سنة ٦٨٥ وكانت ولادته سنة ٦١٠

(الدليل الشافي على المنهل الصافي لابن تغري بردى : ١/ ٤٨٦)

(٢) عمار بن ياسر توفي سنة ٦٥٧م ، كنناني من الصحابة ، ومن الولاة الشجعان ذوي الرأي . جاء في الحديث : "ما خير عمار بين أمرين الا اختار ارشدهما" ، من السابقين الى الاسلام ، أول من بنى مسجداً في الاسلام ، ولاّه عمر الكوفة ، شهد وقعتي الجمل وصفين مع علي وقتل في صفين .

(الموسوعة العربية الميسرة : ٢/ ١٢٣٣)

(٣) الكلبي : هو محمد بن السائب الكلبي ، أبو النضر ، نسابة ، راوية ، عالم بالتفسير والأخبار وايام العرب . من أهل الكوفة ، توفي سنة ١٤٦هـ

(الأعلام ٦/ ١٣٣) .

(٤) الوشام ، من الوشم : وهو غرز الإبرة في البدن ، وذر النيلج عليه ، والنيلج : دخان الشحم يعالج به الوشم ليخضر . (القاموس : ١٥٠٦)

في البرود ، الصافي العبرود ، وماتسيرُشواردُه ، وتُنيرمثل الكواكب فرائدُه .

[خطبة كتاب المغرب]

ومن نثره في خطبة كتاب المغرب قوله :

الحمدلله الذي جعل العباد من البلاد ، بمنزلة الأرواح من الأجساد ، والأسيافِ من الأغماد ، وحلّى بحلية الأدب منهم من شرفت حاشيته ، ولطفت ناشيته بحلية الأغصان بأزهارها وأوراقها ، والحمائم بألحانها وأطواقها ، فاهتزّتْ بمحاسنهم أعطاف الوجود ، اهتزاز المطروب برنّة العود ، والكريم بنعمة الجود ، جاعل المغرب في الحُلو الأدبية كالمشرق ، بمثابة شمس الأصيل من النهار المُشرق ، الذي نطق كتابه العزيز بالسير في الأرض والمشي في مناكبها ، وأعلن بالصلاة على مصطفاه الذي أفاض أنوار دعوته على مازوى له من مشارقها ومغاربها ، محمد الذي اختاره على خير أمّة ، وبعثه رحمة (للعالمين) القائل إنّ من البيان لسحرا ، وان من الشعر لحكمة (١) ، المثيب حتى بالجنّة لمن ارتضى نظمه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين خلدوا من مآثرهم مايبقى على صفحات الأيام ، كالغُرّة في وجوه الجياد والأعياد في الأعوام .

=:=

(١) الحديث ، عن زيد ابن اسلم سمعت ابن عمر يقول : جاء رجلان من المشرق فخطبا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((إن من البيان لسحرا)) (البخاري كتاب النكاح ، باب الخطبة : ٢٥/٧)
(احمد : ١/ ٢٦٩) و (موطأ مالك : ٩٨٦) وسنن أبي داود : ٥٠٠٧) و (مسند أحمد بن حنبل ٤ : ٢٦٣) و (السنن الكبرى للبيهيقي ٣ : ٢٠٨) و (مستدرك الحاكم ٣ : ٦١٣) و (شرح السنه للبغوي ١٢ : ٣٦٣) و (مشكاة المصابيح للتبريزي : ٤٧٨٣) و (اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٤ : ١٨٢) و (حلية الأولياء لأبي نعيم ٣ : ٢٢٤) و (مجمع الزوائد للهيثمي ٨ : ١١٧) و (التمهيد لابن عبد البر ٣ : ٢٥٠) و (تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٠ : ٣٤٩)

ومنه قوله :

لايستطعم ثمرة غرس مالم يكن جنى هذه الخمائل ، ولا يرغب في زهره حياه مالم تكن من حُلى الفضائل ،إنّ هذا الفنّ الأدبيّ متطفّل على سواه ، متوشّح بغيره من الفنون توشّح اللّبلابة (١) بالدّوح من أسفله إلى أعلاه ،ولذلك احتجنامع الاستضلاع من صميم فنّه ، إلى مطالعة غيره من الفنون التي من جانبها بها مَزْجَ الصّهباء بالماء ،وعلقناها به تعلق الحروف بالأفعال والأسماء ،ولم يزل جمعُنا بذات (٢) ،في جميع العرض من هذا الشأن ،لايعتري أحدا منّا كَسَل ولاسامه ،كلما احتُضِر المورو ث،أوصى الوارثُ في ذلك بعهد الامامة ،إلى أن أوقرنا ركائب الطّلب ،حتى امتلأ الحوض وقال قدني (٣) ،ونادى بلسان الضّجر والانتهاء كفاني منكم وكفاكم منّي ،وهمنا فيما اجتمع مصرفه إلى الوصيّة الحكميّة في تقييد العلم بالكتاب ،مجتهدة في إقامة صورة تغني صورنا وهو باق في الأعقاب مقيد في ساعة ماجمعته متفرّقات الأحقاب ،لاسيّما اذا تأنّق في عرسه حتى ينتهي إلى اطعامه ،وفي تغذيته ليشرف على فطامه ،وآن له أن يخرج خروج البدر من ظلامه ،ويبرز الدرّ من أصدافه والزهر من أكمامه ،رافلا مع عتقه في حلية الشباب مشبها المُدامَ التي تَحلّت وهي عجوز بحلية الحباب ،جنت له بالموارثه ثمرات الكتب

=:=

(١) اللبلابة : حشيشة ،واللبلاب:نبت يلتوي على الشجر ،واللبلاب:بقلة معروفة يتداوى بها الناس .

(اللسان : ٧٢٥/١)

(٢) كذا في الأصل .

(٣) في الأصل : قضي : وهوخطأ ،والصواب ماأثبت ،وقدني : أي حسبي .

وُمخّضَت فيه بالمطاولة زُبْدة الحقب ،فلم تقصرْ يدُه عن عصر من الأعصار ، ولا قصرت خطاه عن قطر من الأقطار ،فجاء كتاب راحته فرتعيت فيه الأسماع والأبصار ،والأيدي والأفكار ،وأفنيت على إظهاره إلى الوجود وظائف الأعمار ، ولم يزل يقرن بسواده ، وبياضه سواد الليل وبياض النهار ،جمعه بالموارثة في مائة وخمس عشرة سنة ستّة من أهل الاعتناء بالأدب ،وتنافسوا في نظامه تناسقَ نجم الثريّا ، وتنادموا على ريحانه بكؤوس الحميّة لابكؤوس الحُمَيّا ،وماَبرحت نارالقرائح تحص لتخليصه ، وصوائد الأذهان تذكى لتخليصه ،حتى أبرزت حلاه الذهبيّة كالذهب الإبريز(١)، ووقفت في موضعه التبريز (٢) ،وطبقته العليا إنْ لم يوردْ فيه الآماكان بمنزلة الوسائط من العقود ،والأعلام من البرود ، والخيلان من الخدود ،مايحاكي شعشة الشمس على صفحات الأنهار ،ورقرقه الطّلّ في لحظات الأزهار ،قدودمعان فُصّلت عليها ثياب ألفاظ ،ومحاضرات تجري كالدهان على ألسن الحفّاظ ،بجِدّ يتنزل منزلة الكرام وأهل العفاف ، وهزل يحلّ منها محلّ الفُتج من الظّراف ،ولما اكتمل شباب هذه الحسناء ، وبرزت في حُلل السّناء ، دعاها كما لُها ،إلى أن تزفّ لمن يفترِع منها بكرًا لم تُعرضْ على خاطب ،ولاعرضت حينما سلكت للأيدي المطالب ،فمن يكون في الملوك بمنزلة الواسطة من السلوك ،الملك الناصر

=:=

(١) الذهب الابريز: الذهب الخالص. (القاموس : ٦٤٦)

(٢) تبريز: أشهرمدن أذربيجان ،وهي مدينة عامرة حسناء ذات أسوارمحكمة بالآجروالجص ، وفي وسطها عدّة أنهارجارية ،والبساتين محيطة بها ،والفواكه بهارخيصة ،وعمارتهابالآجر المنقوش والجص على غاية الاحكام ،نجت من التتارسنة ٦١٨ بعدأن بذل لهم أهلها البذول (معجم البلدان لياقوت الحموي : ٢/ ١٣)

عبد العزيز عمّر الله بالدعاء له جميع المعمور ، ونظم في سلك طاعته قلوب الجمهور .

ولما وصلت الرسالة الصّاحبيّة إلى الديار المصرية ، ثم أتت لحقني منها اعتناءً لم تمنَّ به الأمنيّة ولا خاب فنهضت بي نهوض الفني بالأماني ، وفات على بوارق الظلال داني القطوف حلو المجاني ، فلم أزل في طريقي في صلاح حال تحشدها الرياض التي أضحكتها عيون السحائب عن ثغور الأزهار ، وتغيظها في الأقدار في مَراها أمنه من الخسوف والسِّرار ، والأمانيُّ تسايرني والبشائر تصاحبني وتسامرني ، إلى ان خيمت ذرى الشهباء ، حيث تحسدني شهب السماء .

ومنه قوله :

ونظرت إلى الأمداح لا تُنْفَقُ إلاّ لديه ، وبضائعها لا تجهز من آفاق المشارق والمغارب إلاّ إليه ، خيّمت بظلّه الظليل ، وقلت للمطايا حللت بموطن يحرم عنه الرحيل ، وجعلت أمدح ويمنح ، وأجد ويجود ، إلى أن توالت الأعوام وزاد العشق في دولة الغرام .

ومن نظمه ما اختاره لنفسه قوله : (المنسرح)

كأنّما الدهرُ صَفْحَةٌ كُتِبَتْ	أَسْطُرُها والنَّسيمُ يَنْشُرُهـــا
لما أبانتْ عن حُسْنِ مَنْظَرِه	مالَتْ عليه الغُصونُ تقرؤهـــا

ومنه قوله : (الطويل)

وَبلّغَهُ ما أَلْقَاهُ من أَلَمِ الجفَـا	وَطارِحْهُ (اسباب)[1] الهوى وَلَكَ الأجْرُ
وَسائِلَهُ عمّا أوْجَبَ الهَجْرَ بيْنَنَـا	وَإنْ لم تَجِدْ عُذْراً فعندي لَهُ عُذْر

==:=

(١) في الأصل : اشهاب ، ولعل الصواب ما أثبت .

ومنه قوله : (الكامل)

وَعلامَ يلحاني العَذُولُ وقد رأى ... أنّي لِشِدّة عَذْلِه لا أفْتَرُ

وأبيكَ ما خَطَرَ السُّلُوُّ بخاطري ... فعلام تعتبُني وكم ذا تهجرُ

ومنه قوله : (الخفيف)

طَلَبُ الوَصْلِ منك عَيْنُ المُحَال ... فإلى كم أُغَرُّ بالآمالِ

ما أُبالي اذا وَعَدْتَ بِوَعْدٍ ... وَخَدَعْتَ المُنى بِطُولِ المِطَالِ

يا بخيلا بوَصْلِه كيفَ بالغتَ فما جُدْتَ لي بوصل الخيالِ

لم تَجُدْ بالكَرى وَجُدْتَ بروحي ... إنّ هذا لغايةٌ في الضّلالِ

ومنه قوله : (الكامل)

أنا إن بكيتُ فقد علمت صَبا بتي ... يا لَيْتَ شِعري لم تَحِنَّ الأينقُ (1)

دَعْ كلّ ذي شَجْوٍ ينوحُ بشَجْوِهِ ... فَلَرُبَّ حالٍ من لسانٍ أنْطَقُ

ويحَ الشَّجيّ من الخليّ فضائعٌ ... سلوى أخي عِشْقٍ لمن لا يعشقُ

يشكو ولكن أين من يُصغي له ... ويقولُ لكن ما أراه يصدُقُ

ومنه قوله مماكتبه عند تصوير" المغرب في كتاب المغرب" (مجزوء الكامل) .

هذي بلادُ الغَرْبِ قد ... بَسَطَتْ إليك المعذِرَهْ

لمّا نأت أقطارُها ... جاءت إليك مُصَوَّرَهْ

=:==

(1) الأينق ويناق وناقان وأنواق وأونق ، جمع الجمع : أيانق ونياقات، والمفرد ناقة .

(القاموس : 1117)

ومنه قوله : (الكامل)

وقد هبّت صَبالها من جُنوب الفيد أذيالٌ ،على غدير أرقّ من الجِريال[1] ،

فثنى الغصون وَمَيَّلَها ،وأوحى الى الغُدُرِ وقبّلها ، وهو: (الكامل)

الريحُ أقودُ مايكون لأنّها	تُهدي خفايا الجسم والأعكان[2]
وتميّل الأغصانَ حتى أنّها	في الدّوح تلثمُ أوجُهَ الغدران
وكذلك العشاق يتّخذونها	رُسُلاً إلى الأحباب والأوطان

ومنه قوله : (المتقارب)

وَلاتُصغِيَنّ إلى عاذلٍ	فما آفةُ الحبِّ إلاّ العَذَلْ
وجازِ بما شئت غير الجفا	وعذّبْ بما شئت إلاّ المَلَل

ومنه قوله : (البسيط)

اذا الغصون بدت خفّاقة العَذَب	فاسجدهديت إلى الكاسات واقترب
وطارح الوُرْق في أدواحها طَرَبا	وَمِلْ إذا مالت الأغصانُ من طَرَب
وانهضْ إلى أمّ أنسٍ بنت دسكرة	تُحْتَثُ عليك بإكليل من الذَهَب[3]
وانظرْ إلى زينةِ الدنيا وزُخْرُفها	في روضةٍ رقّمتها أنملُ السُحُب
وللأزاهير أحداقٌ مُحدّقةٌ	قد كَحّلتها يمين الشمس بالذهب
وللأصيل إشاراتٌ بذي (...)	خلّ المرادَ وهات الكأسَ وانتهب[4]

:=:

(١) الجريال : صبغ أحمر .
(القاموس : ١٢٦١)

(٢) الأعكان جمع عكن : ماانطوى وتثنى من لحم البطن سمنا . (القاموس: ١٥٦٩)

(٣) اكليل : التاج ،و شبه عصابة تزين بالجوهر ،وجمعه أكاليل .
(القاموس : ١٣٦١)

(٤) كلمة غيرمقروءة رسمها : سحلي !

ومنه قوله : (السريع)

من فضّل النّرجسَ وهو الذي | يرضى بحكم الورد اذ يرأسُ
أما ترى الوَرْدَ غدا جالساً | وقام في خدمته النَّرْجِسُ

ومنه قوله : (السريع)

ومُسجديّ اللون أعددتُهُ | لساعةٍ تُظلمُ أنوارها (١)
كأنّه في وهجِ شمعةٍ | مصفرّةٍ غرّتُهُ نارها

ومنه قوله : (الطويل)

وقد أغتدي والليلُ قد سل صحبه | بليلِ الحليات الصباح الملثّما
وأحسَبُهُ حلّ الثريا لجامَهُ | فصيّر هاديه إلى الأفق سُلَّما

ومنه قوله : (الطويل)

تقلّبتُ في النُّعمى كطيرٍ بدوحة | على أيّ غصن لاحَ يشدو ويطربُ
ستبقى على مرّ الزمان بمدحةٍ | مُذَهَّبةٍ في الخافقين وأذهبُ

ومنه قوله : (الكامل)

جُدْ لي بما أُلقى الخيالَ من الكرى (٢) | لابدّ للطيف المُلِمّ من القِرى (٣)
واخْجلتي منه ومنك متى أنم | غيّرتني ومتى سهرت تنكّرا
أسَفي على يوم يمرّ وليلةٍ | لا أنت تلقاني ولا طيفُ الكرى

=:=

(١) العسجد : الذهب ، والجوهر كله كالدر والياقوت . (القاموس : ٣٨١)

(٢) الكرى : النعاس . (القاموس : ١٧٠٦)

(٣) القرى : الأطعام .

ومنه قوله : (الكامل)

يامَنْ بيوم قرىً له قد أضرمت … نارالخدود أتيح على وادى القِرى (١)

ومنه قوله : (البسيط)

ذو صورةٍ تأخذ الأيام زينتها … منها وتَغْرَقُ في لألائها الصُوَرُ

إن هزّه المدحُ فالأموالُ في بدد … والغُصنُ ماهزّ الإبدد الثَمر

ومنه قوله (البسيط)

وأمّ يوسُف والدّنياله تبعٌ … ولم يقم عند رسم للوفاء عفا

ودّت ثغورُ العذارى أن تكون على … أسواره (زَهرا) لو سَمَتْ شَرَفا (٢)

ومنه قوله : (الكامل)

هذا الذي هذا المرسّلُ شعرُه … لما أتى في فترة السلوات

ياحُسْنَ صورة يوسف في صورةٍ … تتلوعليك بدائع الرّحمن (٣)

=:=

(١) هو واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثيرالقرى .
(المعجم البلدان ٥/ ٣٤٥)

(٢) في الأصل : اسواره لوشرفت شرفا .

(٣) يوسف : ابن يعقوب ، الأثيرلديه ، ألقاه اخوته في الجب غيرة منه ، فمرّت سيارة فأخرجته ، وحمل الى مصر ، راودته زوجة سيده عن نفسه فأبى ، سُجن ، وبعد تأويله لحلم فرعون أطلق سراحه ، وأصبح حاكم مصر ومدبرشؤونها ، وفي عام جدب أرسل يعقوب عليه السلام أولاده الى مصر ليحصلوا على قوت ، فعرفهم يوسف ودعاهم الى الاقامة معه .
(القرآن الكريم : سورة يوسف)
(الموسوعة العربية الميسرة : ٢/ ١٩٩١)

ومنه قوله : (الوافر)

مليك كلما حَدَّثْتَ عنه	ملأتَ به الوجود نَدَىً ونَدا
بعزٍّ مثالَه إنْ شئتَ وَصْفا	ويُعوِزُه وصفُه إن رُمْتَ عَدّا
تقدّم في الوغى أسداً هصورا	بثعلب رمحِه يصطاد أُسْدا
اذا اطردت به الغدرانُ بيضا	أبت الإتصيدَ البيضَ وردا

ومنه قوله : (الطويل)

تقاسمه الوُرّاد من كل وجْهَة	ولا أثَرٌ يبدو لذاك التَقَسُّم(١)
فلولاهُ ما جادَ الغمامُ بعَبْرة	ولا الرّوضُ أضحى مظهرا للتَبَسُّم

ومنه قوله : (مرفّل الكامل)

بدرٌ نقصْتُ وزادَ تَمّاً (٢)	أشكو له فيزيدُ ظُلْما
يا دعاذلي في حبّه	إنّي أصَمُّ وأنتَ أعمى
أنا لا أُطيق سوى الذي	أبصرْتَه وكفاكَ عِلْما
وإذا بَدا لي مَنْ أُحِـ	بُّ أسَرْتُه لثماً وضَمّا
يوم يمُرُّ ولا أرى	فيه حبيبي لا يُسَمّى
ياعاذلي إنّي شقيـ	تُ بحبِّه وأراه نُعمى

ومنه قوله : (البسيط)

لا أنس ليلةَ وافانا لموعِدِنا	والكأسُ دائرة والغصنُ معتنقي
فقلتُ (وَهْوَ) يُسقّي الشّمسَ من قَدَحٍ (٣)	من ذا الذي صَاغها قُرْطاً على الأُفُق

=:=

(١) في الأصل : ولا أثر يبدو به للتقسيم !!
(٢) في الأصل : بدر نقصت د بما أشكو !
(٣) في الأصل : فقلت أدب أسقى الشمس .

أَبُو الْعَبَّاس

أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ النُّورِ

ومنهم : أبو العباس أحمد بن عبد النور. (١)

وصل في زمن الظاهر بيبرس (٢) من افريقية رسولا ، ووصل بالمنيا (٣) رسولا ثم عاد الى جهة مرسله وقد ازداد على إكرام رسله وألان القول ، وأبان مقدار ما وجده من الطَّوْل ، فأنس ما كان بينهما تَوَحَّشَ ، وحسن ما كان على لسان من قبله بينهما قد تفحّش ، فانتسجَ بينهما بُرْدُ الود ، ورأى ما دعى من المحافظة على مدى العهد ، ثم كتب الى الصاحب فخر الدين بن لقمان (٤) ، رئيس ديوان الانشاء في ذلك الزمان ، رسالة بديعة تتعلق النفوسُ بلباناتِها وتغنُّ كمائمها عن باناتها .

=:=

(١) أحمد بن عبد النور: هو أحمد بن عبد النور بن أحمد بن راشد (أبو العباس) المالقي المالكي ، المشهور بابن عبد النور ، الأديب المنشئ ، النحوي ، المقرئ ، العارف بالعربية ، كان فصيح العبارة جزلها ، كان صاحب ديوان انشاء صاحب أفريقية في عهد الظاهر بيبرس ، ولد في رمضان ، وتوفي بالمرية في ٢٧ ربيع الآخر سنة ٧٠٢ هـ من تصانيفه "رصف المباني في حروف المعاني" و"شرح المغرب في النحو"

انظر ترجمته (أخبار غرناطة للسان الدين الخطيب : ١/ ٧٩-٨٣)
و(معجم المؤلفين لكحالة : ١/ ٢/ ٣٠٥) و(بغية الوعاة للسيوطي : ٣/ ١٤٣-١٤٤)
و(ايضاح المكنون البغدادي : ١/ ٣٦٨)

(٢) الظاهر بيبرس: مولده بأرض القبجاق ، أسر فبيع في سيواس ثم نقل الى حلب ومنها الى القاهرة فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار ، وبقي عنده ، اتفق مع الجيش على قتل قطز ، وتولى بيبرس سلطنة مصر والشام سنة ٦٥٨ هـ ، وله من الوقائع الهائلة مع التتار والصليبيين وله الفتوحات العظيمة ، توفي سنة ٦٧٦هـ . (الأعلام ٢: ٧٩)

(٣) المنيا : هناك عدة أماكن بهذا الاسم وكلها في مصر ولعل المقصودة هنا منية الشيرج ، وهي بلدة كبيرة طويلة ذات سوق ، بينها وبين القاهرة فرسخ أو أكثر قليلا على طريق القاصد الى الاسكندرية .

(معجم البلدان : ٥/ ٢١٨)

(٣) فخر الدين بن لقمان : هو ابراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد الشيباني ثم المصري ، أبو العباس فخر الدين ، وزير ، من الكتّاب الشعر ، تتلمذ للبهاء زهير بمصر ، ولي ديوان الانشاء بها للأيوبيين وكان رئيس الموقعين ، وولي الوزارة مرتين ، وهو الذي حبس في داره سنة ٦٤٨هـ القديس لويس التاسع ملك فرنسة توفي بالقاهرة سنة ٦٩٣هـ

(النجوم الزاهرة ٦/ ٣٦٦) و(السلوك للمقريزي : ١/ ٣٥٦)

ومنه قوله :

سيّدنا أبقاه الله منوطةٌ به أسباب الرّغائب ، محوطة عليه سيئات المراتب ، ملقى نواشئ الإسعاد من كل جانب ، مفاتح حضرته التي هي خطيرة المكارم وحاضرة بحور العلم الخضارم ، تتزيّن بخضابها ، وتعرض عقائل المجد على خطّابها ، ثم معرفتها ذمّة ، والخلوّ منها مَذَمّة ، والتّحلّي بمواصلتها هِمّة ، ولا شك أنّ هذى الوسيلة قد بلغ لديها محله ، وأن السودد والفخر يتم فيهما الحجّ والعمرة لله ، وماوردَ هذا الصُّقْعَ متحليا بهذه الصناعة ، ومستبضعا إليها عروس هذه البضاعة ، عوّلت على أن أخاطب بلسانها ، وأن توالي المطالب بإنسانها ، فوجدتني أغتدي بها عن جناح مهيض ، وأتابع النظر بجَفْنٍ غضيض ، وكأني أستنبطُ عنصرها في الأسباط ، وأعرب بها بين الأنباط (١) ، إلى أن نمي إليّ أنّ سيّدنا سدّدْ عصابتها ، والرامي عن قوس إصابتها ، وأن القلم الفخري له الفخر فيها والسيادة ، ولإحسانه الحسنى وزيادة ، فتنوّر الأدب من أذرعاته (٢) ، وعزم على أن يـــــفــــض

=:=:=:=:=: :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) الأنباط : ظهروا لأول مرة في القرن السادس قبل الميلاد ، قبائل بدوية في الصحراء الواقعة في شرقي مايسمى اليوم بشرق الأردن . وفي القرن الرابع قبل الميلاد كانوا قوما رحلا يعيشون في الخيام ويتكلمون العربية ولا يهتمون بالزراعة وفي القرن الثالث تركوا حياة الرعي الى حياة الاستقرار ثم تحولوا الى مجتمع منظم ، وكانت البتراء عاصمة لهم

)الموسوعة العربية الميسرة لمحمد غربال : ١/ (٢٣١) .

(٢) أذرعات : بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان ، ينسب إليه الخمر ، وقال الحافظ أبو القاسم أذرعات مدينة بالبلقاء .

(معجم البلدان لياقوت الحموي : ١٣/١)

من عرفاته (١) فهو أكرم من أن يسدّ عليّ، وعزم ألّا يغيض من عُرفاته، أو يطمعني مع مابين الورى من طَوفاته، فخاطبته مخاطبة من يتهدي بهديه، ويستنجح بسعيه، وأبى الاختيارُ إلاّ أن أقصدَه، وعزم عليّ الأدب إلاّ أن أُنشِدَه : (الكامل الأحذّ)

إنّي بحُبّك واصِلٌ حَبْلي وَبِريشِ نَبْلِك واصِلٌ نَبْلي

لاتخذه ذريعة إلى النُّجح، ونورا أهتدي به إلى سورة الفتح، اذكل من يستفتح لأم النُّجح يجيب، وإن احتيج إليه فالحاجات عند أبي خبيب، وأما الآمال فقد أطرتها بحرالك وأرسلتها فيه العرالُ، ليعمل فيها أبدى العون، ويكرُّ فيها على الفساد بالكون، فتصرخ هي أيضا بالثناء صراخ رافعي العقائر، وتعتد عليك مايتضمّن حط المحامد من الضمائر وانما هي خطوة مجرد دعوتُ لها ساق حرٍّ واستسعت بدمها الأسعى لدفع ضُر، فتفضل بقدر لاغُضّ، وتعمل مقولا لافُضّ، ليثني عليه الشاكر أطراف المحامد كما أثنى ويأثرعنه أنه فعل وأفعل في اتفاق المعنى وأنهى إلى علم سيدنا أنه فَرَطَت في هذه السّفارة فوارط لم يطل إليها يدُ استدراك، ولم يكن في عواقبها النظر الحزم كبير إدراك، لم توقعها خيانتي، ولم تنسب إلى تصريحي ولاكنايتي فلما اصطُليت بنار لم أَشُبّها، ورُميتُ بعلّةٍ لم أستطع

=:=

(١) عرفات، وعرفه وعرفات واحد عند اكثر أهل العلم وليس كما قال بعضهم ان عرفة مولد، وعرفه حدّها من الجبل المشرف على بطن عرفة الى جبال عرفة، وقيل في سبب تسميتها بعرفة ان جبرائيل، عليه السّلا م، عرّف ابراهيم، عليه السلام المناسك فلما وقفه بعرفة قال له : عرفت؟ قال : نعم، فسميت عرفة، ويقال : بل سميت بذلك لأن آدم وحواء تعارفا بها بعد نزولهما من الجنة، ويقال : ان الناس لعيترفون بذنوبهم في ذلك الموقف

(معجم البلدان لياقوت الحموي : ٤/ ١٠٤)

أن أطبّها : (الطويل)

ظَلِلْتُ ردائي فوق رأسي قاعِداً   أُعدُّ الحَصى ماتنقضي عَبَراتي

ياله خَطْباً وَلَجَ القلبَ وَلَجاً ، وشجىً في الحشا وَشَجَ ، وأوقفني على روق الظبي ، واستسعاني وأين موضع السعي ، فنفرتُ في رقتي هذا من خلائقه العوج ، وأرقت لأخلاقه الهوج ، وندمت على حركتي إلى هذه الجهه ندماأودى بالأنامل والعمور ، وتركت ورائي رأيا وددت لوجعلته من عزم الأمور ، ولوقصصت على الحضرة الفخرية خبري ، وبثثتها عُجَري وبُجري (١) للفتح مجلسه الأعلى فوهج ذاك سمومه ، وزال مع كل لحظة خصوصه وعمومه ، وأرسل من العبرات صوب أفق ماطر ، وكلما فطرت اللوعة قلبي تصعّدت الصّعداء بالحمدلله فأطرى وقدأعوز الآن من تستنجد اعتناءه ، وتستجدي غناءه في المآرب أوعناءه ، خلا سيدنا وخلاء ثم وهو إذا قلّ الفضلاء فالعددبه ، وقد ذكرلي أن الجد من عادِه ، وفحصت من الصدق فاذا هوذاتي في ميعاده ، ومابرح كلُّطامٍ يستمطر قَطْره ، وحيث كان فيما يُوَلّي وجهَ أمله إلا شطره ، ولاسيما إن أسند إليه تفريج الهمّ ، وعوّلَ عليه في الحادث المُدلَهِمّ ، فإنه يقرعُ في كل مستند اليه ظُنبوب (٢) الاعتزام ، ويدل عليه تبحّه بالتضمين والمطابقة والالتزام ، ويجود باهتمام فيجيد ، ويبدى في ابداعه ويعيد ، ويمدّ الى الغرض الأقصى يده الطّولى ، ويعمل على النظر فيه تلو صلاة الأولى ، وهو أسعد الله جدّهُ أيقظُ من أن يكتحلَ بسينه على وتيرته

=:=

(١) عجري وبجري : أي عيوبه ، وأموكله . (القاموس المحيط : ٥٦١)

(٢) ظنبوب : حرف الساق من قدم ، أوعظمه ، أو حرف عظمه ، ومسار يكون في جبة السنان ، وقرع ظنابيب الأمر : ذلله . (القاموس : ١٤٢)

الحُسنى ،وأَعمَلَ فيها مقصده الأسنى لم ينفق ذخائرَ الجودِ الأعلى المجد ،ولكن يتعرض

يتعرض منها شاني سورة الحمد ،تتكر الحسن بن سهل (١) فاستوقف الشاكر

إليك (٢) ،ثم قال ياهذا الجاه زكاة الشرف وانما نعد شفاعتنا زكاة مروآت ،

فسوى سؤدد سيدنا يُعرض عن تعرُّض محاويج إخوانه إلى زكاته ،ويصد عن تصدّيهم

و مثله يُذكي لهم من رأيه الأصوب الأسمى سراجا يسعى نوره بين أيديهم ومن

وجدوا جاهته يبدل ان شاء الله ثم البضاعة وفي خصائص شرقه شَرف الصناعة

وبيضه النجح لايصح الابانشائه والامتياح من رَكِيَّتِهِ لاتكون الابدلوه ورشائِه ،أبقاه

الله مستنجحا في مُهمّات المطالب ومستنجحا للرغائب ،ولا زال الدواعي على الإجابة

للداعي ،وموقوف المحامد على شرق المساعي .

=:=

(١) الحسن بن سهل : وزيرالمأمون العباسي ،اشتهربالذكاء المفرط والأدب والفصاحة توفي في سرخس سنة ٢٣٦هـ .
(الاعلام ٢/١٩٢)

(٢) في الأصل :باليك ،وما أثبت هوالصواب .

أَبُو الحَسَن بن فَضِيلَة

ومنهم : أبو الحسن بن فضيلة (١)

قاض أقطع من السيف وأنفذ من السيف مضاؤه ، وخطيب يرفع الطرف إغضاؤه ، وتحرف رياح الوعيد ومضاؤه ، وكاتب يرضو ارتضاؤه ، ويغني عن النوء اقتضاؤه ، كلامه أسهل من الدهان ، وأسلم من التصور في الأذهان ، وأسبق من الجياد يوم الرهان ، وله رسالة كتبها الى بعض أصدقائه وقد عُزِل عن القضاء وأُريح :

مرهف قلمه من طول الانتضاء ، وخفف عن فسيح رجائه وقفاف الركائب الأَنْضاء ، ماخلا فيها من ابداع لاتنهض في خلافها حجة نزاع :

أخي وسيدي أبقاه الله وشمسه طالعة لم يَعُقْها غروب ، ونفسه واسعة لم تضيقها خطوب وبعد فاني كتبت إليكم كتب الله لكم عزة باقية ، وعصمة وافية ، عن الود الذي يفهم ، والخلوص الذي لايمرض بحول الله ولايسقم ، والاعتقاد الذي يجب لذلك الاخاء ويلزم ، والشوق الذي يهيج بالبعاد والفراق ويضرم ، والله تعالى يصون لنا من الوداد ماعقد ، ويحفظ لي ولسيدي ما اعتقدت من ذلك وما اعتقد ، ويطفئ من نار الشوق ماأضرم واتّقد ، وإنه وافاني خطابكم الأثير معرفا بالانفصال عن تلك الخُطّة التي كونها في سالف الأيام ، لقدوة الأعلام ، وفرضها صالح الأنام من لَنابهم الاقتداء والائتمام ، فسرى ذلك لكم وشاني للخلق ، وشكرت الله على انفصالكم منها عزيز النفس واقفا مع الحق ، وان تقلدتها يا أخي عزيزا كريما

=:=

(١) هو أبو الحسن علي بن فضيلة الخطيب ، كان امام الجامع الأعظم بغرناطة ، مولده سنة ٦٠٧ ، وتوفي في أوائل ٦٩٦ .

(درة الحجال : ٣/٢٣٨)

لأنت اليوم أكرمُ وأعزُّ ، ولئِنْ حزتَ منها سَبْق رُتبةٍ لأنتَ اليومَ أحرزُ للفضل وأحْوَزُ ،

فالحمدلله الذي جعل النهاية خيرا من البداية ، وصيّر هذا العزلَ أفضلَ من الولاية ، فما بفضل الله هات الإمن ضعف في الحق ولان ، ولااتّضَعَ الآ من انقاد الباطل وخضعَ ولاعُزِل الإمن حُطّ عن الشرف الذاتى وأُنزِل ، فأما من وقف مع الحق حيث وقف ، وتصرّف معه حيث انصرف ، واتّصف من العلم والمعرفة وحميد كل صفة بمثل ما تجمّل به سيدي واتّصف ، فهوأمين وحاكم على كل حاكم ووالٍ من في كريم رتبته وعظيم خَطْبه من العُزل والزوال ، فأما المراتب العرضية التى تُنال بالحق والباطل ، ويتقلّدها الحالي والعاطل ، ويتصرّف فيها الجائرُ والعادلُ ، مما يعنى به الكريم الفاضل ، ولا يرتفع بوجدانها ، ولا يتّضِعُ بفُقْدانها العاقلُ الكاملُ ، أما ان الله ماصَرَفَها عنكم الآ شِينٌ لأنها شيبت ، وذمّت بلسان الشرع وعيبت ، فحرّك ياسيّدي السّلسلةَ وانظر لمن يستتد ، واعلم أن من وجد في غيرالاسلام فقد فُقِد ، ومن حيل بينه وبين تلك الخُطّة في هذه الأيام فقد سُعِد ، وهل فصلوك ياأخي الآ عن فصل خصام ، وبين رَعاع (١) وطَغام (٢) ، ومعالجة أحكام بين عوام وسفهاء أحلام أو عُبّاد صليب وأصنام ، والصون هذا عندكل عاقل منزه واعظام ، فما انتزع النازع ولكن أفاد ، وما أساء ولكن أحسن وجاد وأجاد .

فاحمدوا الله على ماوهبكم من هذا الصون ، واعرفوا مابين الخطر والسلامة من البون ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون (٣) ، واعلموا أن الذي شرفتم بأنبائه ،

---

(١) الرعاع : الأحداث الطغام ، ومن لا فؤاد له ولاعقل . (القاموس : ٩٣٣)

(٢) الطغام : أوغاد الناس وأرذالهم . (القاموس : ١٤٦٣)

(٣) اشارة إلى قوله تعالى ((ولا تهنواولا تحزنواوأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)) آل عمران : آية ١٣٩

وعلوتم مرتبة سَنائه ، لاتمتد إليه بالعزل أيدي الولاة ،ولا بالنزع أيدي العداة، ولا سبيل إليه لمقتضب ،ولا طمع فيه لمنتهب ،ولا حيلة فيه لمستلب ،وهذا أوحد ماأوتيت من شرف الرتب العَليّة والخُطّة العلمية ،فعضّ عليها بالنواجذ (١) ضَنانة (٢) وخذ بأحسنه كماتقتضيه الفضيلة والديانة ،وتعزز بعزه مايلحقك بحول الله هضم ولا إهانة ،ولاتمدَنّ عينيك إلى ماتمتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا (٣)، واقنع بماأوتيت فقد فُزْتَ بالقِدْح المُعلّى (٤) في الدرجة العليا ،واعرف مقدار النعمة وعش عزيز النفس عظيم الهيبة ،واشكرالله على ماحطّ من أعباء وأماط من كُلَفٍ وعناء ومعاناة ورام الجمع بين النار والماء .

=:=

(١) النواجذ : أقصى الأضراس ،وهي أربعة ،أوهي الأنياب ،أوهي الأضراس كلها جمع ناجذ . (القاموس : ٤٣٠))

(٢) الضنن : الشجاعة . (القاموس : ١٥٦٤)

(٣) اشارة الى قوله : ((ولا تمدّن عينيك إلى مامتعنابه أزواجامنهم زهرة الحيوة الدّنيا لنفتنهم فيه ،ورزق ربك خيروأبقى))

سورة طه : آية ١٣١ .

(٤) القدح المعلى : السهم والنصيب الأول والأحسن .

(القاموس : ٣٠١)

الدجاني

ومنهم : الدّجانسي : (١)

من بيت مامنهم الاكاتب مطيق ، دائب فيه لا يحمله طَوْد ولا يُطايـــق ، وهو من أعيانهم ، وزين عيانهم ، فصيح منطيق ، فسيح بأدبه لا يضيق مضيـــق .

وكتب عن وزير إفريقية إلى الصاحب الوزير فخرالدين أبي حفص عمرابـــن الخليلي الدّاري (٢) رحمه الله كتابا ضمنه وصف مصر، وكان قدورد إليها حاجا وعاد عنها .

وأحلام الأماني تُحيل له اليها معاجا (٣) لما وجده في كف سلطانها من إحسان ، أوْقَرَ ركائبه فوق طاقتها وألزم أجياد مطاياه في المقام بها طَوقَ إعاقتها وذكر من رأى فيها من فتنة التُّرك ، وقبّة الملك ، وهيئة الأقمار ، وهالاتهم السّرقّ ، وبروجهم القلاعُ ذات البُروج أجاب به عن كتاب كان كتبه ابـــن الخليلي إليه متوددا ، وجَاب إليه الأرض لايهاب فَدْفَدا (٤) ، ويعرض لروضـــه حتى نعمه طيبة الإهاب ، ولَمَزَ فيه حتّى لَحِقه مطرُه الصّابُ ، فأتى الجواب المغربي بمالا يغُرب نجمه ، ولا يغير العقد إلا نظمه ، وهو مما تناقلت الأيدي نسخه ، ونفضت على زعفران الأصيل أردانه المضمخة ، وهي حفظ الله مجد المقر ، ولا زالت محامده

=:=

(١) الدجاني : من الكتّاب الذين انفرد المؤلف بترجمتهم ، وهونسبة إلى داجون بيت دجن حاليا - بفلسطين .

(٢) هو الوزيرفخرالدين عمربن الشيخ مجد الدين عبد العزيزبن الحسن بن الحسين الخليلي التميمي الدّارمي ، تولّى الوزارة في دولة الملك السعيد بن الظاهربيبرس ثم عدها غيرمرة الى أن عزله الملك الناصر ومات معزولا سنة ٧١١ بالقاهرة ، وكان مولده سنة ٦٤٠ وكان فاضلا خيرا (النجوم الزاهرة : ٩ / ٢٢٠)

(٣) معاجا من معج : أسرع . (القاموس المحيط : ٢٦٣)

(٤) الفدفد : الفلاة ، والمكان الصلب الغليظ . (القاموس المحيط : ٣٨٩)

متداولة عند جميع الأنام مدى الأيام ،ومدائحه كنائحة متعرفة من بطون الكتب وأفواه المحابر وألسنة الأقلام ، سلام مودة الصفاء وعده الكريم وفاء ، وعهده الصميم احتفالا واحتفاء يخص جلاله ويعم خلاله ،ويسلم أركانه المحترمة وخلالة نار تحيّته القائه ،يشرف مُحيّاه وسجّيته من تلقائه ،يعبق ريّاه من ماحض (١) لوداده فارض لاعتقاده ، لايبرحُ مبيناً ببيانه عما في جَفانه ،ومُنبيا عن قدمه وكيلي قلمه ولسانه .

فالآن وقد وصل الكتاب الكريمُ ،والجواب الذي من حقه التعظيم والتكريم فكان (وصولُه)(٢) وصولَ البرء للعليل ، وحصولُه حصولَ الرّيّ للغليل ،نظم ألفاظه فريد ،وحسن معانيه عن سواه شريد ،بل تُجْد لدُرَره الأسماع ملتقطة ،وروض بزهره الأجفان مغتبطة ،فلله دَرُّ ناثره أي درنثر بيانه وكاتبه أي زهر أظهر بيانه ،ينظر الفصحاء إلى مذهبه فيه فيَبْهتون ويخرسون ويذهب البلغاء مذهب مهذبه فيحفظون ويحرسون ،فنحن كلّما قرأناه رجعنا عوْدا على بَدء (٣) فابتدأناه ،وكلما وضعناه عدنا الى اعادته فرفعناه ،ولو أنا وصفنا في جمال براعته أكمل وصف ،ورصفنا في إجلالنا عنه أجملَ رَصْف ، ورأينا أنّا بلغنا الغاية ،وانتهينا لنهانا حسن مراجعته فرجعنا وانتهينا ،ولما تحققنا رتبَته ، وتيقنّا منزلته الرفيعة ونسبته سميناه معجز الكتاب اعجابا ، بنسخه

=:=

(١) ماحض : محضه وخالص . (القاموس : ٢ : ٨٤٢)

(٢) سقطت من الأصل واستدركناها ،وهي لاغنى عنها لاتمام السياق .

(٣) عودا على بدء : لم يقطع ذهابه حتى وصله برجوعه .
(القاموس : ٣٨٦)

الرفيع ،واستعذابا لما فيه من البيان والبديع ،وقد صدر منكم من الاحتفال بقضاء المآرب . والاهتبال ،بمالو وُجِّه الكتب فيه من المطالب ما ألسنة الثناء عنه عاجزة وعظائم منته عن استيفاء شكره حاجزه ،وأي أمل لا يسبقه ذلكم الفضل ، وأي رجاء لا يعرفه لكم الوَبل (١) ، فلساني باعتماد شكركم قائم ،وجناني لاعتقاد فخركم لازم ، ومن أكرم الآمال عليّ ،وأعظم الأمانيّ لديّ ،ما يسدونه من النعم ، بما تشرفون به من الخدم ،فما أعلى شَرَفَها ، وما أحلى كُلَفَها ،لقد تقع مني موقع الزلال البارد ،من الظامئ إلى الموارد ، ويؤنسني ايناسَ الأمل الحاصل بعد الشرود ،ويتلقى تَلَقّيَ الحبيب الواصل بعد الصدود ، ولوفي ذلك الصدود لجهة المحروسة تشيُّع قديم ،وعندي في ايثار المآثر النفيسة تخصيص وتقديم ،مَغانٍ لها عندي مَعان ،وأماكن لسُكناها النفوس سواكن ،والترك (٢) أنجدهم الله - أمةٌ شريفةُ القدر ،شريفة البدر ،جميله الذكر ،جليلة الشكر ،عظيمة المُلك ، فاضلة السيرة ،خالصة السريرة ،رائضة الأخلاق ، فائضة الأرزاق ، جمهوريّة السياسة ، أوليّه الايالة والرّئاسة ،عريقة المجد ،ماجدة الأعراق ، خليقة بالحمد ، حميدة الأخلاق ،شَرَّفوا ناسا ،ولقوا كربا وبأساً ،فهم في الجَدْب غيوث ساجمة ،وفي الحرب ليوث هاجمة ، فإن كفت أكفهم تبسّطها قبض العداة ،

---

(١) الوبل : المطر الشديد الضخم القطر ،أي المطاء . (القاموس : ١٣٨٧)

(٢) الترك : اصطلاح يطلق في معناه الواسع على الشعوب التي تتكلم اللغة التركية في تركيا وروسيا السوفيتية ،وتركستان الصينية وشرقي ايران ،يربطهم الاسلام واللغة برباط وثيق واكبر الظن أن الترك الأصلية عاشوا أولا في جزيرة سيبيريا ، وفي تركستان وظهروا في ايران في القرن العاشر ،أقاموا بقيادة عثمان الأول الامبراطورية العثمانية المترامية الأطراف في القرن الرابع عشر ،ويدعو شعب تركيا الحديث : الاتراك العثمانيين .
(الموسوعة العربية الميسرة لمحمد غربال : ١/٥٠٥)

وكَفّتْ بعد ماوَكُفتْ (١) بقبضها على السيوف بَسْط العداة، حكمت حكم القسط في حالتي القبض والبسط ، وترفق في الأولى دعوى عُفاتها ، وتدفع في الأخرى عَدْوى عُداتها ، فتارة تفوق لسقياها ، وتُغيق برقياها ، وتارة تمرُّ على الهام مرّ الكهام (٢) وخير الحال ماجمعت بين البأس والندى ، و وقفت سببا للحياة والردى ، يوماهم يومُ تقدم للسماح ، ويوم إقدام على الرماح ، فان تقدّموا للعطا ، تقدموا الله تقدّم الانعام ، وإن اقدموا على الأعداء أجفلوا إجفالَ النعام ، وليس يفضي إلى نداء من فرّ منهم قضاء ، ولسيوفهم مضاء ، يقضي لحتوفهم له قضاء ، ولِنَبْلِهم حفيف يُسمع من عَلٍ ، ويرمي بالعجز كلّ رامٍ من بني ثُعَل (٣) ، وإن كان مُليحا كَفَيْه في وَتَره ، وإن طعنوا فطعنُ ابن حجر ، أو سُلّتْ سيوفهم فحرب جناة ومن تحجّر ، تعد أنهم بِعُدّتهم هلكى ، وطعناتهم بين مخلوجة (٤) وسُلْكى ، لبيضهم وسُمْرهم شَغَفٌ بالمُهَج ، وكَلَفٌ إذا حمي الوطيس (٥) بذلك الرّهج ، ولذلك أعادها الصبر الذي عاده أهله ، ونحلها الهوى الذي أنحله حلّه ، وحالت أحوالها فجرت دموعها دما ، وكادت تتأجّج نارا وتموج ماء ، ولكشفها عن الغيوب ، وبحثها عن غامضات القلوب ، تُراوحَ الأرواح وتعاديها ، وتحترق الأجساد وتُناديها ، ثم تهيجُ لها قصد الكريم الهيجاء ، وتبصر الجوارح جوانح فلا تقابل رجاها بالأرجاء ،

=:==

(١) وكفت : اشتدت . (القاموس المحيط : ١١١٣)

(٢) الكهام : البطيء الذي لاغناء عنده . (القاموس : ١٤٩٢)

(٣) بنو ثعل : بطن وليس بمعدول اذ لوكان معدولا لم يصرف ، وفي الصحاح : وثعل أبوحي من طيء وهوثعل بن عمرو أخونبهان ، وهم الذين عناهم امرؤ القيس بقوله :

رب رام من بني ثعل مخرج كفيه من ستره .

(معجم البلدان : ٢/ ٧٩)

(٤) مخلوجة : الطعنة ذات اليمين وذات الشمال . (القاموس : ٢٣٩)

(٥) حمي الوطيس : اشتداد الحرب . (القاموس : ٧٤٨)

تستقري هي أزواجها وتغري أشائب النسور، وعصائب الطيور، شبانها وأشياخها فتجمع الصنفين سماحة وبأسا، وبتحلّى بحليتيهما الشريفتين لباسا، فحيّاها الله من أمة شرفت في الأمم أوصافها، وصفت بالهمم أشرافها، وحلا في الأفواه ذكر حلاها وعلا عن الأشياء شكر علاها، وانتزت مفخر الدول دولها، واعترت عن الأُخَر مع الأُوَل حولها، لملوكها في الملوك، مااللفرائد في السلوك، فهم من أعز ملوك الإسلام المختصين بسماحة الأكف ورجاحة الأحلام، فمن سَبَرَ (١) أحوالَهم، وخَبَرَ أقوالَهم وأفعالهم فقد رأى وشاهد، وأحمد تلك المشاهد، وقد اجتليت شموسهم طالعة من شرقها، وأنوارهم السنيّة ساطعة من أفقها، زمان رحلت لأداء الفريضة، وجُلْتُ في تلكم الأرض الأريضه (٢)، وعاقني عن أدائها شدة مرض، لم أتوصل إليها إلى تمام غَرَض، فلقيت من المولى السلطان الملك المنصور سيف الدين قامع أعدائه، الحاسم بحسامه، ماكان أزْمَنَ من آدائه، معز الاسلام وأهله، ومجتث الكفر من أصله من مصرفات النعم التى ألقت في المبادئ والخواتم، ومصنفات الكرم التي ألقت زاد المسافر، وتحفة القادم ماأوجب عليّ أن أذكره شاكرا لهممه، وأشكره ذاكرا لذممه، وكذلك لقيت من أكابر دولته المتكرمين بكرمه، المتوصلين بصَوْلته، ماهو فرْع من أصله، ونحت من فضله، فللترك شكرهم بذلك الطول على اليد الطولى وتلكم المنن التي أسداها إليّ مشكورة في الآخرة والأولى .

وكنت أسمع من ملفوظة حامدهم، ومحفوظة حافظهم، ماهو بغية للسامع

=:=

(١) سبر : امتحن . (القاموس : ٥٠٧)

(٢) الأريضة : الزكية، معجبة للعين، خليقة للخير. (القاموس المحيط : ٨٢٠)

وحليةً للمسامع، فلما رويت من مكارمهم الذي رُويتُ، استصغرتُ ماسمعتُ لعظيم مارأيت، وعلمت أنها إحدى الكُبَر، لمجيءِ العيان زائدا على الخَبَر، وأين ما سُمِعتْه أذناي، مما عاينته عيناي، فبالله مارأيتُ أكملَ من ذواتهم، ولا أحفلَ من أدواتهم، ولا أزينَ من لقائهم، ولا أحسن من إلقائهم، ولا أفضلَ من معاملتهم ولا أجمل من مجاملتهم، ولا أحلى من محادثتهم، ولا أجلى من منافثتهم، ولا أجمع من شجاعتهم، ولا أندى من أكفّهم، ولا أكفأ من نداهم، ولا أجدى من وفائهم، ولا أولى من جداهم، قومٌ خيّرتهم المحاسنُ في أنفسها، فاختصّوا بأرفعها وأنفسها وحكّمتهم السيادة في معاليها، فحَلّوا من الأوامر والأمور عاليها، إلى تطارف يُواجِهك بالوجه الوسيم، وتلطف يجاذبك مجاذبة النسيم، فأنا بعد ماحجب البعد مغانيهم، وإن لم يحجب الودُّ معانيهم، لم أذكر بأوصافهم وأفكر في حمد يقوم بأوصافهم، فأوصافهم شَرَكٌ للعقول، وشرف القائل والمقول، ولكَمْ قمت بها خطيبا، وأوحيت من ثنائها طيبا، وكثيرا ماتشوقني إلى الكثرة، وتشوقني إليها المرة بعد المرة، وقد تنجز الأيام في تقريب المزار وَعْدها، ويفعل فعل العزم، والحركة الناشئة بالحزم على تلكموا الديار بعدها فيدرك المحب من القرب إليكم ماكان يهواه، ويقيم الجسم للقلب لديكم حجة على دعواه إن شاء الله لا ربَّ سواه، وان مما زان الأيام وكساها عزة، وزاد عندي في التشوق والتشرف، هذه ماأعظمتهم به البشر والبشرى، وأعلمتم بالأعلام به خلع ذلكم المجد الأسرى المولوي السلطان الملك المنصور، حسام الدين لاجين أبقاه الله كنزا للراجين، وحرز اللاجين، ولازالت الدنيا تتصرف بجنده لزمامها والعليا تتشرف بأخذه في أحكامها، وأقررتم بأن الملوك والممالك مقرة بمولويته، ومجمعة في أعلى أوليته في الفضل وأولويته فهو سامي الصدور، وحامي الثغور، ومالك أزمّة الأمور، ومطيق أرجاء المعمور، عقد

النفاسة والتكبير وعقد السياسة والتدبير، تزهو بأسمه المنابر، وتعز بوسمه الأكابر، وتدور بأدوار سعادته الأفلاك وتنير بأنوار سيادته الأحلام في حلومته وصفوه ورد العطاش، وفي مجموحلمه وعفوه ود العقل المطاش ولسيبه احجاب الغيث السكوب بعدراره ولسيفه اعجال الليث عن الوثوب إلى قراره، صفات أعجزت الواصفين بلاغتها عـــن بلوغ شأنها، وحجزت الراصفين صياغتها عن صوغ بيانها، فالمجيل خيل نبامه فيها مغير لامعتر، والمطيل فضل لسانه كي يسبق فيها مقصر ومقصــر، فهنأ الله المسلمين من حولهم من أناليه ومنحهم من سماحته وبسالته فهم قدنالــوا الأماني من كرمه والأمان في حرمه وحماه وقدعمّ الهنا به شرقا وغربا، وشمل السرور بمملكته عربا وعجما وأقبل المسافرون على محبته مجمعين وقد اختصصت من ذلك بما عمّهـــم أجمعين، فالملك قطب مدار الرعية عليه، وأصل من جمع تفاريع الأحوال إليه ومنزلة الملك في زمنه منزلة القلب من بدنه فصلاحه يصلح الوقت ويقتبل، وبعدله يقـــوم وزن الزمان ويعتدل، وقدصالحت بحمد الله الأحوال مشرقا ومغربا وأصبح الدهر عن مملكي الجهتين المحروستين معربا واتصل من الفتح والنصر، والمنهج الشامــل لأهل العصر ماوقع ماله مثال لمثالكم، والهناء عام به هنا وهنالكم ان شاء الله تعالـى، وهو المسئول أن يجزيك من نعمة مايترادف، ويتوالى ويطوّل عزّتكم، ويحوط بكلاءته حوزته ويشكر ارتياحكم للمآثر المشكورة وهزّتكم، والسلام الأزكى عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب شيخنا حجة الأدباء شهاب الدين أبو الثناء محمود (١) رحمه الله جوابا بما صغر قدر هذا الكتاب، وتوارى به هذا البيان في التراب، فأبطل سحره المؤتلف، وألصق بحره بقرار مَجرى الفلك، وجاوز الفلك.

وهو حرس الله مجد الجناب، ولا زالت وفود السعود تأوي إلى حرمه، وتروي أخبار الندى عن كرمه، وتُحلّي المسامع بما منحته من لآلئ كلمه، وتنقل إلى رياض الآمال الطامنة من شاهده من دوام دومه، ويحدث ولاحج عما وردته من بحر نعمه، ويصف كيف تتصرف الآجال والأرزاق بين الماضيين من سيفه وقلمه، ولا برحت مكارم الأخلاق وأخلاق الأكارم تشام من برق شِيَمه، وأحرار المحامد ومحامد الأحرار تُعَدّ من إمائه وخدمه، حتى تبلغ زينته في العُلا مرام أوليائها، ويتزحزح عن ذروة المجد من وقف في طرق اعيائها بالكرم واعتلائها، ويردي شانئي شأنها العالي رد أعدائها، ويعسي في الهدى والندى كالنجوم التي تُرى بأنوارها ويُرتوى بأنوائها.

المملوك يهدي بحبه ماء الروض تولاه الوليّ ووسمه الوَسْميّ (٢)، وَجَشّمته نسماتُ الرياح، وأظلّتْه وابلاتُ الصّباح وغازلت كواكب الفجر عيون نرجسه الوَقّاح،

=:=

(١) شهاب الدين أبو الثناء محمود: هو أبو الثناء شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد الحلبي الحنبلي صاحب ديوان الانشاء عند الملك الظاهر بيبرس، وله كتاب "منازل الأحباب ومنازه الألباب" في الغزل العذري، و"حسن التوسل الى صناعة الترسل" في الانشاء. أديب، لغوي كاتب، ناظم، شاعر ولد بحلب، وسمع الحديث، وأخذ الفقه عن شمس الدين بن أبي عمر، والعربية عن جمال الدين بن مالك، بقي في ديوان الانشاء نحوا من خمسين سنة بدمشق ومصر. وولي كتابة السر بدمشق، توفي بدمشق ٢٢ شعبان سنة ٧٢٥هـ.

(الدرر الكامنة لابن حجر: ٤/ ٣٢٤)

(٢) الوسمي: مطر أول الربيع، وسمي بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات فيصير فيهم أثرا في أول السنة.

(لسان العرب: ١٢/ ٦٣٦)

،وبادرت الصَّبا بتقبيل ثنايا نَوْره من قبل أن ترشفَ شمس الضحى ريق

الفوادي من ثغور الأقاح ، بألطف من نَشْرها المطوي ، وأظرف من خبرها المروي ،

وأعطرَ من أَرَجها النَّدِيّ ، وأزكى من تبسم عرفها الندي في الندى ، وأعرف منها

بآداب أدائها ، وأدرى بمواقع البلاغ عمن خدم بإهدائها ، ويبدي بنا أعبق من

نشر اللّطائم ، وأعذب في المسامع الطامية من حب الغمائم ، وأطرف من غيث أنامل

النسيم يحل ازار الكمائم ، وأحسن من اتّساق اللآلئ في سِخابها (١) ،

وأشرف من ابتسام ثغور البروق لبكاء سحابها ، غير أنه وان لم يقض حتومه إلا لديه

محلولة النُّطُق ، مبثوثةً في الأفق ، مقصورة على مجده الذي اذا حلي بُدرره قيل

ماكان يصلح هذا الطوق إلاّ لهذا العنق ، وينهي ورود مشرفته الكريمة ، بل

دِيمته التي أربت بدوام الندى على الدِّيمة ، بل جوهرة الترف التي لو قرنت بها درة

التاج لم تسم بقيمة ، بل صفحة الكرم التي ما انطوت على آيات فضله إلا لتقدر في

جيد المفاخر بقيمة ، وتلقاها الملوك تلقيّ وفد السعد ، والحبيب الزائر على غير وعد

وتلقى الطلوع في أيمن طالع والغمام المقبل بعد الصدود على وجه الثرى الخاشع ،

وقصها المطوك على رياض هدى وحيا من ندى ، وعقود برٍّ ووفود كرم ، صدرت

عن بحر نوال برقلم يدر أبردٌ أم بُرود ، أم نفذ بطرفه على مجالس جود أو مجالس

سجود ، أم هو دُرَرٌ فتصيرها عقوداً أو دَراري فتصيرها في فلك العلى سعوداً لها

=:=

(١) السخاب ، بكسر السين المهملة وبالخاء المعجمة : قلادة من مسك وقرنفل ومحلب ، ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء وجمعها سُخب ، ككتب .

(لسان العرب : ١/ ٤٦١)

ولوامع فتجتلى أنوارها ،أو توابع زهر فتجتني نوّارها ،ثم لم ترتب في أنها ان كانت نورا فقد تركب من نور ،أو نحو مافقد تألّفت من شموس وبدور ،أو دُررا فإنها أجل ماتهدي البحور إلى البحور .

لكن عاد المملوك عن هذا التشبيه به وعاد بالاغضاء عن التقصير فيه ، وقال ابن برقة : هذه البلاغة من الدرر وهو جماد ،من الماء وكلها عذب ومنه الملح والثماد ،ومن النجوم وهي تطلع أبدا وتلك شغور ومن النيّرين وهي آمنة من الكسوف التي تعترى الشموس ،والسِّرار الذي يغتال البدور،وأين نقع الروض من هذه المعاني التي كل منها ربيع وافي العقود كل حسن ماشتملت عليه هذه الفِقَر من صحة السّبل وجودة الترصيع .

وحينئذ شرع في اجتلاء غُرر الكلام واجتناء ثمر الأقلام ،واقتناء درر المعاني التي تسبق إلى القلوب ألفاظها ،وادخار لآلئ تلك السطور التي اذا تأملتها العيون قيدت ألحاظها ،فعلم أن الله تعالى آتى سيدنا مقاليد هذا الشأن ،وملك بنان فضله أعِنّة المعاني وأزِمّة البيان وأقام من البنان ،واكرمه بأخص ما فضل به البشر من التعليم بالقلم ، ووهبه شرف الحلال بماجمع من خلال الشرف ،وجعل شرفه في الخير حجة على من قال لاخير في الشرف .

وانتهى إلى ماأشار إليه المولى من ذكر الديار المصرية وأنه كان زارها ، فشرّف مزارها ،وحلّ دارَها ، فرفع مقدارها ،وأقام بأوطانها مختصا باحسان سلطانها ،وانه إذذاك نظرها بعين الرضى ،وشكر لأهلها وداً رآه تبرّعا ورآه مقترضا ،فشكرالله لبحر حل مرابعها موقع نداه ،ولبدر حكى مطالعها مطالع هداه ،فلقد فارقها تمامه وكل أفق منها منير ،وأقلع عنها غمامه ، وبكل أرض منها

روضة وغدير ، وما أحذر نحله باب ربها تأنيا لمحياها (١) ، وأقدر كرمه علـى انها لها آنفا مالم تزل تتشوق إليه من التعطر برياه لبرد أهلها من فضله بحر علم انفجر وما انسجر (٢) ، وتورد من رأي سعادة معالمها بحلوله ان السعادة لتلحظ المحجر .

. أما ما أطلق فيه عنان البلاغة من وصف طائفة الترك أعزهم الله تعالى ،

فلقد وصف طائفة أدال الايمان دولتها وأذال الطغيان صولتها ، ليس لمولودهم مهد إلا لبده ولا جواد ، ولالسهامهم هدف إلا إليه بحر أو حبة فؤاد ، قد ألفوا الخيول حتى كأنهم ولدوا على صهواتها ، واجترأوا على المتون حتى انتزعوا أشلاء الأمة من لهواتها ، إذا صدموا جشيا لم يبق الآ جماجمه ، وان حصروا حصنا لم يلق إلا آثاره ومعالمه ، وان حَمَوا ثغرا لم يُشَم برقه ، وان رَمَوا قطرا لم ينشقّ عن بحر لمقر شرقه ، لايطربون لغير وقع البيض (٣) على منابت اللّمم ، ولا يفهمون في الوغـى لغير ألسنة الأسنّة كلاما ، ولا يشربون إلا على نغم الظُّبى من طلا الطُّلى مُداما ، ولا يَهْوون الحرب إلا اذا شاب وليدها ، وتقلّدَ بمواقع الأسنّة وريدها ، ولا يرضون الروض إلا اذا كان له من يثني الرياح شمائل ، ومن يلوي البنود خمائل ، ومـن إشراق السيوف من

=:=

(١) كذا في الأصل .

(٢) انسجر : سجره يسجره سجرا وسجورا وسجّره : ملأه . وسجرت النهر : ملأته وقوله تعالى : ((وإذا البحار سجّرت)) فسّره ثعلب فقال : ملئت ، وسجر يسجر وانسجر : امتلأ وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، يقول المسجور بالنار أي مملوء .

(لسان العرب : ٤/ ٣٤٥)

(٣) البيض : السيوف .

(القاموس : ٨٢٣)

الغُمود وغروبها في اللسمع غدوات وأصائل ، قد مَرَّنتهم على الوقائع ملوكُهم ، وسلكتهم المتامع سلاطينُهم فحسن فيها سلوكهم ، وخصوصا مولانا السلطان حسام الدين فإنه ليثُ غابهم ، وغيث سحابهم ، وبحرُ فُلْكِهم ، وآيةُ مُلكهم ، ومادّةُ شجاعتهم وحادّةُ خشوعهم لربهم وطاعتهم ، قد فتحوا الممالك الممتنعة باسمه ، وأذلوا جباه الكفر المرتفعة بوَشْمه ، فمواكبُه خالية وبهم تزهو الكواكب ، ومراكبه حالية فيهم بليوثٍ تزاحمُ على اقتناص المُهَج بالمناكب .

ولقد وجد المولى من مناقبهم دُررا فنظمها ، ومن مفاخرهم غُرراً فوَسَم بها جياد فضله وسومها ، ومن محاسنهم بدورا فأطلعها في أفق طِرْسه ، ومن مكارمهم بحورا فأمدَّها بماغرَس من الثناء لسقيا غرسه ، ولكن ماكل من أطرى أطربَ، ولاكلُّ من أعرى القلوبَ بحب طائفة أعربَ ، ولاكلُّ من وجد دُرَرا صيَّرها عقوداً ، ولاكلّ من رأى رتب المعالي أطاق إليها صعودا .

لا والله ، بل هي البلاغة التي تدنو كالشمس ، وتبعد عن اللمس ، فتقرب كاليوم وتنأى كالأمس ، فمتعه الله منها بماأعطاه ، وملأه بكثرةِ البيان الذي طلبه غيره فأخطأه ، فلقد تصرّف في البلاغة تصرُّفَ مالكها ، وأوضح طرق أفانين البراعة فأنارت لسالكها ، وأخذ من الصفا طريقا كلما لاقاه صفاء الملوك فيها قال ، وله جاءت على قَدَر سالمةً من تكلُّف الشواهد ، دالة من الجانبين على مافي ضمير الغائب بالشاهد .

وقد علم الله تعالى أن المملوك يدين بحبه ، ويستروح بادرات أُنْسه على قلبه ، ويرتاح إلى لقائه ، ويلتاح (١) لشارقةِ بَرْقٍ يومضُ من تلقائه ، وإذا

---

(١) يلتاح : يبدو ويظهر . (القاموس : ٣٠٧)

كان التناجي بالقلوب ،فان رسائل الأشواق لاتنقطع ،ورسائل الود لاترتفع ، ورسل الصفاء لاتحتجبُ عن القلوب ولا تمتنع ،ومظاهر الأحوال الظاهرة لاتعوق ، ولوامع الأنس الباطنة أسرى في القلوب وأسرعُ من لمحات البروق ، فليكتف عن شرح الشوق بألسنة الأقلام ،إلى ماتمليه الضمائر ،وتبلى فيه السرائر ،واذا لم يكن بين القلوب حجب فالأنس على الأبد حاضر ،والقلب مع الدوام إلى روض الأنس الناضر ناظر ،والود ساكن في الجوانح ،وحسن اللقاء دانٍ في المعنى وان غدا وهو في العيان يلوح ،ويسأل عن حسن المآب في بلاغ سيده وسنده ،وذخره الذي يرجو بركته ليومه وغده الشيخ أبي محمد المرجاني أعاد الله من بركته سلام المملوك وارتياحه إلى وفاء نَذْره بتقبيل يديه ،واطلاع علمه الكريم على أن كلَّ نسيم خاضه أَرَجُ رسول شوق من المملوك إليه ،ويتمنى كل وقت أن يلهمه الله المسير ،ويتلو إذا طال عليه أمد اللقاء : ((وَهُوَعلى جَمْعِهِمْ إذا يَشَاءُ قدير)) (١)

=:=

(١) إشارة الى قوله تعالى : ((ومن آياته خلق السموات والأرض وما بثّ فيهما من دابّة وهوعلى جمعهم اذا يشاء قدير)) .

(سورة الشورى :آية : ٢٩)

وأما من هو منهم حي ماذوى له غرس منبت، ولا محى له طرس مثبت، ولا أكل المحاقُ هلالَه، ولاغال الخسوف كالبدر كمالَه، فسآتي بما شق سمعي خبرُه، أو متّع طَرْفي نظرُهُ، ممن قدم مصر فرأيتُه، ودنا لي اقتطافُه فَجَنَيْتُه، وهم إلى آخر ما علمته حين صنفت هذا الكتاب وعملته أحياءٌ يرزقون، وأغنياءُ لا ينفَدُ من كنوز البلاغة ما ينفقون قول من حقق أخبارهم وصحَّحَها، وبيَّن آثارَهم وأوضحها، على ما يأتي شرحه ويوافي بمكنون الحقائب نفحه ويمضون (من) الحقائق ما يجلوه صبحه.

عَبْدُ المُهَيْمِنِ الحَضْرَمِيّ

فمنهم : عبدُ المهيمن الحَضْرَمي : (١)

رحل عن الحظّ رَمِيّ ،أصله من سبتة (٢) ثم استوطن مدنية فاس (٣)، واستوطى عقبه العقيم والرأس ،وصاب غماما هاميا في أوطانها ، وأطاب مقامـــا عالياً في حضرة سلطانها ،وصرّف ببيانه القلم الأعلى ،وبَنانه الكرم الذي شيـــد بناء ، وعلا ،حفظ كتاب سيبويه ،ولقط دُرر البحر الذي بين جنبيه ،وهو اليوم كاتب الدولة المرينية غير مزاحم في تصريفها ،ولا مُزَاحٍ عن عطفه حُلّةٌ تشريفها ،يمسح عن جنبيها الرحضاء (٤) ، ويرهف بيمينها المضاء ،وينطق بلسان ناطـــــق

=:=

(١) عبد المهيمن الحضرمي : هوعبد المهيمن بن محمد عبد المهيمن أبومحمد الحضرمي صاحب القلم الأعلى بفاس،كان غزير العلم بالأدب والعلم والتاريخ ،ولد بسبتة سنة ٦٧٦هـ ونشأ بها وولى كتابة الانشاء لأبي الحسن المريني بفاس ، قال ابن القاضي : تقدم في علم الحديث وضبط رجاله ،توفي بتونس بالطاعون سنة ٧٤٩هـ

انظر ترجمته في (الجذوة : ٢٧٩) و(فهرس الفهارس: ١/ ٢٥٨) و(الاعلام: ٤/ ١٦٩)

(٢) سبتة : من الاسبات ،أعني التزام اليهود بفريضة السبت المشهور: وهي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ،ومرساها أجود مرسى على البحر ، وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس وهي مدينة حصينة تشبه المهدية التي بافريقية .

(معجم البلدان لياقوت الحموي : ٣/ ١٨٢)

(٣) فاس: مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر ، وهي حاضرة البحر وأجل مدنه قبل أن تختط مراكش ،فيها عيون كثيرة ،فيها يصبغ الأرجوان والأكسية القرمزية ،فيها قلعة يشقها يسمى الماء المفروش اذا تجاوز القلعة أدار رحى هناك ،وفيها ثلاثة جوامع يخطب يوم الجمعة في جميعها .

(معجم البلدان لياقوت : ٤/ ٢٣٠)

(٤) الرحضاء : العرق إثر الحمى ،أوعرق يغسل الجلد كثرة .

(القاموس المحيط : ٨٢٩)

بالإحسان ،صادق بما يحدث عن مقاتل الفرسان ،ترد إلى سلطاننا شرّفه الله تعالى الكتب من انشائه ، وقت ظهور ركائبه ومنشآته ، رحل معه في فتوح تلمسان (١) ،ماقرّط آذانَ الحسان ،وهو متسلم باب ملكه ، ومُتَسَنِّم هضاب فُلكه ، وفي النثر لسانه أقولُ ،وبيانه أطولُ ،على أنه في النظم درمقوَل ،لايقاومه ابن أبي خالد الأحول ،ولا يقاوله الفرزدق ولا جَرْول ،وقد وجد بحسن ترسّله وبمَنِّ توسّله ،ماوجده عند ابن زنكي الكاتب الأصفهاني ،وحَظِي به عند ابن أيوب الفاضل البَيْساني ،ورآه الطُغْرائيُّ (٢) من ذوي مَلِك شاه ،والنسوي (٣) من

=:=:=: :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=: :=:=:=:=:=:=:=:=: =:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) تلمسان : بلدة بالمغرب ،قال ياقوت : وهما مدينتان متجاورتان مسورتان ،بينهما رمية حجر ، احداهما قديمة والأخرى حديثة ،والحديثة اختطّها الملثمون ملوك المغرب واسمها "تافرزت" فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان ،وأصناف من الناس"واسم القديمة" أقادير" يسكنها الرعية فهما كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر .

(معجم البلدان الحموي : ٢ / ٤٤)

(٢) الطُغرائي : هو الحسين بن علي بن محمد الأصبهاني الطغرائي ،شاعر من الوزراء الكتّاب ، وأشهر شعره لامية العجم" ومطلعها : أصالة الرأي صانتني عن الخطل" . توفي سنة ٥١٣ هـ (الأعلام : ٢ / ٢٤٦)

(٣) النسوي : هو أبو الحسن علي بن أحمد ،عالم رياضة عربي ،ظهر في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي ،أيام السلطان البويهي . له كتاب"المقنع في الحساب الهندي" شرح فيه الكسور المركبة وغير المركبة وطرق استخراج الجذور التربيعية والتكعيبية ،شرحا قريبا من الطرق الحديثة ،وله كتب أخرى في فروض أرشميدس ،والملاحظ أنه استبدل الكسور العشرية بالنظام الستيني الشائع في ذلك الوقت.

(الموسوعة العربية الميسرة : ٢ / ١٨٣٣)

خُوارزم شاه (١) .

ومن نثره قوله :

... الذى يسْلُبُ الحَمَيّا نَشوتَها ويَحِلّ مع الثُّريّا نَجْوتها ، فأما تشوّق ذلك الأخ لمواصلة الكتب بسارّ الأنباء ، فإن من أقربها وأغربها حديثا يهادي ويهدي ماكان من أمر العاق قاتل أبيه ، الحال من إقليم تلمسان وما إليها بالمحل النبيه ، وذلك أن أسلافه بني زيّان (٢) ، كانوا قد استولوا على هذه المدرة في سالف الزمان ، ولم يزل بينهم وبين أسلافنا المحتوين على ملك المغرب الأقصى مواقعُ توردهم الحِمام وتذيقهم الموت الزؤام ، فَيَدّعون المنازعة ، ويعودون للموادعة ثم لم يلبثوا الذين سكتوا ولم يصبروا أن يعذروا إلى أن كان من حصار عمنا المقدس المرحوم أبي يعقوب قدّس الله (روحه) (٣) ، برقته اياهم ، وماكثر موتهم وكدّر محياهم ، وتمادى بهم الحصار تسع سنين ، وما كانوا غير شرذمة قليلين ، وهنالك اتصلت بينكما المراسلة ، وحصلت الصادقة المواصلة ، ثم ختم موته ، وتم فوته رحم الله يومه ، ورضوانه يشمله ويعمه ، فنفس خناقهم ، وعاد إلى الأبدان مخافهم وصرف إليهم القائم الحسن ماكان هو رحمه الله تعالى قد طوعـــــــــــه

=:=

(١) خوارزم شاه : هو علاء الدين شاه بن علاء الدين تكش سابع شاهات خوارزم من أتراك بلاد ماوراء النهر ، حكم من سنة ٥٩٦ هـ إلى سنة ٦١٧ هـ في عهد الخليفة العباس الناصر (انظر تاريخ الاسلام : ٤/ ٩٨) .

(٢) بنو زيان : قام بنو زيان بتلمسان بالمغرب الأوسط على أثر الضعف الذي دبّ في جسم الموحدين عقب هزيمتهم في موقعة حصن العقاب بالأندلس ، وكانوا ولاة للجزائر من قبل الموحدين ، فلما ضعف الموحدون أعلنوا استقلالهم واتخذوا تلمسان عاصمة لهم ، وهم من قبيلة بني عبد الواد ويجمعهم نسب معهم بني مرين ، وزعيمهم يغمران .
(العبر لابن خلدون : ٧/ ٧٢)

(٣) مابين الحاصرتين سقط من الأصل .

من بلاد مَغْراوة (١) وتحسن فاتسعت عليهم المسالك ، وملكوا مالم يكن فيه لأوائلهم طمعٌ من الممالك ، لكن أتى هذا الحائن وعمه كانا ممن أثارته الفتنُ ، وغمرته فيه عوام المِحَن ، وسلكا مسلكَ أسلافِهما في إذاعةِ المهادنةِ والرَّوَغان عن الإعلان والمعانية .

ولما سَوَّلَ الشَّيطانُ لهذا العاقِّ قتلَ والدِهِ والاستيلاء على طارفه وتالدِهِ ، ثم تقدَّم عمه على إشخاص رسالة إلى حضرة مولانا المقدس المرحوم أبي سعيد قدس الله مثواه وجعل الجنة مأواه في السلم راغباً ، وللحكم بموادعته طالبا فاقتضى النظر المصلحي حينئذٍ موافقة غَرَضِهِ ، وإن كان باطنه مطويًّا على مَرَضِهِ ، ففشا أمره ، وضرى ضرُّه ، واستشرى شرُّه ، ووجد تحت الرَّمادِ جمره ، وسرى إلى بلاد جيرانه الموحدين داؤه ، وطال عليهم تضييقُه واعتداؤه ، ولم يدرِ أنَّ فوقَ سببِ السماء رَبًّا ، وباطن جماعة من عرب افريقية وبعض من يُحَدِّثُ نفسَه بالانتزاء ، على مابين المعتدين يُجَرِّؤه عليها ، وجروه بمثل الأضباع إليها ، وأقام عشرين سنة يشُدُّ على بِجَاية (٢) ، الحصار ، ويشنّ على

=:=

(١) مغراوة : قبيلة بربرية في المغرب الأقصى والأوسط .
انظر (جمهرة أنساب العرب ٤٩٨)

(٢) بجاية : مدينة على ساحل البحرين أفريقية والمغرب ، كان أول من اختطها الناصربن علناس بن حماد بن زيري بن بلكين ، في حدود سنة ٤٥٧ ، كانت قاعدة ملك بني حماد ، مفتقرة الى جميع البلاد ، هي دار مملكة ، تركب منها السفن وتسافر الى جميع الجهات . بناها محمد بن البعبع رسول تميم بن باديس إلى ابن عمه الناصر بن علناس .

(معجم البلدان لياقوت الحموي : ١/ ٣٣٨- ٣٣٩)

أحواز تونسَ (١) المُغارَ، حتى كان من تغريمه جيشه لصاحبها ماكان .

=:=

(١) أحوازتونس : ماانضمّ إليها من البلاد ، وتونس مدينة كبيرة محدثة بافريقية على ساحل بحر الروم ، عمّرت من أنقاض مدينة كبيرة قديمة بالقرب منها يقال لها قرطاجنة وكان اسمها قديما ترشيش بينها وبين سفاقس ثلاثة أميال ، يشرب أهلها من الآبار، وهي في سفح جبل أم عمرو ، ويدور بها خندق حصين ، ولها خمسة أبواب وهي من أشرف بلاد أفريقية وأطيبها ثمرة وأنفسها فاكهة .

(معجم البلدان لياقوت : ٢/ ٦٠- ٦٢) .

أبو عبد الله

محمد بن عبد الواحد العقيلي

اليثربي

ومنهم : أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد العَقيلي اليثربي : (١)

من ولد عقيل بن أبي طالب (٢) رضي الله عنه ، كان قد بلغني صيته ، ثم سوّغني الدّهر أني لقيته ، فرأيته عذب الجنى ، حلو المنى ، الا أنه ذو مخاريق تحار بها العقول ، ويسلب بها درة الدرهم المعقول ، أمورا علمها الأعراب ، وتعلمها من مكر الغراب ، وراوغ بها مراوغة الثعلب ، وغاوَر في طلبها مغاورة السلوقي (٣) للأرنب ، قدم مصر بوفرٍ من البلاغة عميمٍ ، ووقر من الإفك ما ومن أولاده به الله عليم ، وسحره سحروا به أعينَ الناس واسترهبوهم ، وَخَلّوهم في وسط بيوتهم ، وسلبوهم ، وأتوا من ذهب الأدب بمايشرى به كلّ عديم ، وخلطوا بيانهم بالمخاريق فجاؤا بسحر عظيم .

وحدثني أنه كتب لأبي علي عمر بن السلطان أبو سعيد ، وأنه غَمَرَهُ بإحسانٍ ماعليه مزيدٌ ، وبقي معه حتى ظفر به أخوه السلطان أبو الحسن علي وأسكنه قِيد ثلاثة أذرع في البيد ، وأمسك العَقيليّ هذا واعتقله وأوثقه بالحديد

:=:

(١) لم أجده ، وهو من معاصري ابن فضل الله العمري أي أنه من أهل المائة الثامنة ، والملاحظ أن المؤلف رحمه الله قد تفرّد بتراجم لا توجد في غيره وان وجدت ففي مصادر شحيحة أو مازالت مخطوطه ، والله المستعان .

(٢) عقيل بن أبو طالب ، توفي سنة ٦٨٠م هاشمي قرشي ، كان أحد أربعة تحتكم اليهم قريش في منازعاتها ، ويقال أنه كان أعلم قريش بأيامها وأنسابها ، شهد بدراً من المشركين ، واسلم بعد الحديبية ، ثم هاجر إلى المدينة ، شهد مؤته ، ولم يشارك في الفتح ، وثبت يوم حنين ، خالف أخاه علياً في خلافته وفد على معاوية في دين له كف بصره آخر أيامه ، أملس في مسجد المدينة الأخبار والأنساب ، مات أيام معاوية أو ابنه يزيد ، وفي أطراف حلب اليوم قوم ينسبون اليه . (الموسوعة العربية الميسرة : ٢/١٢٢٢)

(٣) السلوقي : نوع من أنواع الكلاب وقد تقدّم الكلام عنه .

ثم أمر بتسريحه وأطلقه من معتقل ظنّه باطن ضريحه ،وأطبقه في التراب تحت صفيحه

ثم استكتبه في انشائه ،واستصحبه لقرب قليبه (١) وطول رِشائه (٢) ، لأنه رجل خلق من أدب لا يتكلّفه ،ولا يعده موعدا فيخلفه ،وحضر معه فتى تِلِمْسان (٣) وكتب في بشائرها ،وأتى بغرائب في عجائب بلادها وعشائرها ،ثم خرج حاجا وركب ثَبَجَ البحر فغرق مامعه ونجا ببدنه ، وأتى ولا شئ معه سوى فنون أفَنَيه ،وأول مادخل القاهرة أتى إليّ ونزل في داركان فيها ،وتردد إلى السماع مابلغه في المغرب من أشعاري ،وكان جمّ الاستحضار ،إذا جل عن الحضار ،واذا سابق جدّ في الاحضار ،مع أدب طري ،كأنه برود عبقري (٤) .

وكتب إليّ قصيدة أبديتها على الله قدزل خجلا ،وأهديتها عجلا ، وفضلك بشرفها بالقبول ،والاعتناء المبذول ،فقبولك لها يشنف آذانها ، ويُلحق بزُهر النجوم حوذانها (٥) ،على أنني في وصف حلاك ،وبشر علاك ،فمن كاثر البحر بصيابه ،وكابر الليث بذبابه ،لكن فضلك يصفح ،ويغضي ويسمح ،أبقاكُ الله سننا للمتقين ،وسندا للمعتقين ،وأدام عُلوّك ،ووصل ارتقاءك وسمّوك ،والسلام البهيج البِشر ،الأرِج النَّشْر ،يختص كمالك ،ويعتمد جلالك ،من معظم قَدْرك ، ومنظم قلائد فخرك ،فلان ماعربت عن لين الغُصن حركاته ،ورحمة الله وبركاته .

=:=

(١) القليب : البئر . (القاموس المحيط : ١٦٣)

(٢) الرشاء : الحبل . (القاموس : ١٦٦١)

(٣) تلمسان : مرالتعريف بها صفحة ٩٢٢

(٤) العبقري : الكامل من كل شيء ،والسيّد ،والذي ليس فوقه شئ ،نسبة الى وادي عبقر . (القاموس : ٥٥٩)

(٥) حوذان : نوع من أنواع النبات . (القاموس : ٤٢٤)

فكتبت جواب قصيدته وكتبت معها :

أتحفتني أعزّك الله بعقيلة عذراءَ وخميلةٍ غرّاء ماالكتحل طرف ناظر بمثلها، ولانُحِلَ طالب بأغزر من فضلها وشي سحاب منهمر، ودرسحاب مقتدر، حياها روض وجناها روض السحر حشو مقلها، والكحل فاضل ماالكتحل طرف ناظر بمثلها، ولانحل طالب جاء (١) من المغرب ماأودعه الشرق من درالكواكب في ليله، وطفقت اعترف للمغرب لما رأيته من أهله، ولمابهت تلك العقيلة تتهادى في ترِبها، عفّرالهلال جبينه في تُربها، فرأيت أكبر آياتها ولاضير، وطلعت الشمس من مغربها وما تمّ إلاّ الخيرُ .

قلت : ولقد أضربت عن أبيات القصيدتين إذكانت قصيدته تتضمن في فن المَدْح، مالو أثبتّه لم آمَنْ فيه من القَدْح، فما تركتها هي وجوابها لقصور فيها ولا لشيء بسبَبه أُخفيها، الاّ لماقال في قصيدته فيَّ من المديح، واني لاأقنع من الزمر بريح، فهذه حال قصيدته، وأما قصيدتي فانها جواب وأندادها فذة من أختها مالايقتضيه الصواب، على أنه غيرُ بِدْع اذا سترتُ عَواري، وكنت له أُواري، ثم نعود إلى اليثربي فنقول :

ومن نثره قوله :

وكتابنا هذا إليكم وجانب هذا الأمر قداتّسع مجاله، ونصرت أنصاره ورجاله، والعدو قدبدت رجاله، ودَنَتْ بعون الله آجالُه، والفتح المبين قدخفقت أعلامُه، وسيف الله قدرفع منارَها وارتفاع نارها واشراق أنوارها، وقدعلمتم

(١) في الأصل : ولاتحل طالب جاءت، والصواب : ما أثبت .

أنا كنا نحو بلاد دَرْعَة (١) حرس الله ساحتها، وعمّر بالعافية ساحتها، وتضـــع منهم نواظرَ طَرَفها الشوق، وتحيّرُ منهم قلوبا أدنفها إلينا البوق، وقصدنـــا تدويخ البلاد السوسيّة (٢) إلى (أن) تقر أمرنا في نصابه، وتنتزع حقنا فيها من أيدي العصابة، وأخلاؤنا فيخليهم بأتم وجود الاستجلاب، ويحضهم على الجماعة التي هي رحمة ويحذرهم من الفرقة التي هي عذاب، إلى أن انقاد ـ والحمد لله ـ للطاعة عُصيّهم، والتفت دون القتال حبالُهم وعصِيّهم، وقرب دانيهم وقاصيهم، صنعاً من الله كريما، وفضلاً من لدنه عظيما، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما.

ثم عدنا بالجيش الموفر، والجمع المنصور المظفّر، بمايروق دوا ويحضر، في نصره غِنىً.

ومنه قوله:

وغرسنا بواديه، وخيّمنا بناديه، فالجأنا إلى حصنه الذي يعتصم بذروته، ويقتنع بصهوته، فألفيناه قدفتح من الكبر الذي أتى عليه أكبر باب، ووُشج بينه وبين الشّقوة انتساب، وهيهات هيهات ممن لم يرعه أوعار الجهال ولا اقتحام البحار ولا اعتساف اليباب (٣).

=:=

(١) درعة: مدينة صغيرة بالمغرب من جنوب الغرب، بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ، ودرعة غربيها، أكثر تجارها اليهود، وأكثر ثمرتها القصب اليابس جدا، ينسحق اذ ارق

(معجم البلدان لياقوت: ٢ / ٤٥١)

(٢) نسبة إلى سوسة، وسوسة من مدن المغرب بأفريقية على ساحل المتوسط وبينها وبين صاقس يومان. (معجم البلدان: ٣ / ٢٢٣)

(٣) اليباب: الخراب. (القاموس: ١٨٦)

فساعة وصولنا ناشبناه القتال، وزحفنا إلى جلاده بالخيل والرجال، وأسقيناه ذعاف القراع والنضال، فنفقت يومئذ سوق الآجال، وازدحمت فيه الرجال على الرجال، والنّصال على النّصال، وكثرة القذف بالحجارة والرمي بالنبال، وفي كل ذلك لم يمسّ أولياءَنا قَرْح، ولا تتخطى صفقتهم رُمح، بل كان النصر من أول صدمة صُدِموها، والظفر لأوليائنا على أعدائنا على العادة التي ألفوها وعلموها، وناجزنا الشقيّ غير بعيد، وأريناه العذاب من غير وعيد، وأذقناه ومن معه حرّ الحديد، وأنزلنا بهم بأسه الشديد، فلما رأى من أمر الله ماراعه وأهاله، وضاعف حزنه وأوجاله، لم يجد في التماسك طمعا، ولا قال قائل له من عثرته لَعًا، فقال بلسان حاله لنفسه الخبيثة: أيتها النفس أجملي جَزَعا، فغصت لَهَوات بالحمام، وقرعت ظنابيبه (١) جنبك الحسام، وَوَطِئ بلدَهُ الجيش العرمرمُ، وشفي أوامه (٢) منهم خيفة اللّهذَم (٣)، وحصلنا الذخائر والأموال، والعُدَد والأثقال، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث (٤) مما ضيّق على رحب المكان أرضه، وفي أسرع من كثير الطّرْف، لا بل أقرب من لمح الطّرْف، ملأ الله الأيدي من طارفهم وتلادهم، وأعاد إلى القلة والذلة وافر أعدادهم، فأقروا

=: :=:=:=:=

(١) ظنابيب: مسامير تكون في جبهة السّنان. (القاموس: ١٤٢)

(٢) أوامه: دوار الرأس. (القاموس: ١٣٩٣)

(٣) اللهذم: القاطع من الأسنة، والحر الواسع. (القاموس: ١٤٩٨)

(٤) إشارة إلى قوله تعالى ((زيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحيوة الدنيا والله عنده حسن المآب)) سورة آل عمران: آية ١٤

هذه البشرى في نواديكم ، وابعثوا بها نسخا إلى بواديكم ، واشكروا الله على هذا الفتح الذي نظم شمل البشر ، ونثر سلك المكر والشر ، فالشكر مفتاح المزيد وعنوان الخير العتيد ، وتيقنوا أن حبل الله هو الأقوى ، وأن العاقبة للتقوى .

ومنه قوله :

وأمرنا أن تأخذوا في محو هذا الحصن من ديوان الوجود ، وأن تنزل به أم المنايا السود ، ثم إذا أتممنا بمن الله هذا العمل المفضي بقوة الله إلى بلوغ الأمل نأخذ في الإياب ونسرع في الانقلاب .

أبو عبد الله

محمد بن محمد بن أبي البركات

السلاخي

ومنهم : أبوعبدالله محمد بن محمد بن أبي البركات السلالحي (١)

قدم مصر وأوى إليّ ، وثوى حواليّ ، وبقي برهة أنيس وحدتي وجليس مودتي ، وكان ظريفا في هيئته ، لطيفا بخلاف فئته ، وكانت الموسيقى جلّ مايعرفه ، وقلّ ألاّ يألفه .

قال لي : إنه من أهل بيت توارثته بنوه ، وتدبره بعد جده أبـوه ، وأنهم أهل انقطاع مامنهم من خدم السلطان في منصب ولازاد منه حتى يجدب ولا يخصب ، أتى حاجا وقضى نسكه ، ومضى على أثره فما استطاع أن يسلكه ، فأقام بالقاهرة ، ثم تعرّف بي ، ثم تحول إلى قُربي ، وتأكدت بيننا المعرفة ، حتى صارت صحبة ، ثم سارت به قدمه إلى حيث قضى نحبه ، فبلغني أنه مات بقابس (٢) ، وحبسه بها المنيه حابس ، وكانت له في الأدب مشاركة ، ماقصّر فيها ولاطـال ، ولا وصف فيها سحابه بجهام ولاهطّال .

وكتب إليّ رضي الله عنه عن السيادة السنية ، والمجادة السريّة ، والمطيرة السحابية ، الخطيرة الشهابية العلية العمرية بسبب بجر على المجرة ذيله ، ويجري

=:=

(١) يستفاد من كلام المؤلف أنّ السلالحي هذا كان من أصحابه ، على أني لم أجده فيمابين يدي من أمهات المراجع ولعل هذا ممن تفرد بترجمتهم المؤلف ، اذ انني لا أكفّ عن البحث عن ترجمة ما الآ بعد طول عناء وتنقيب

(٢) قابس: مدينة بين طرابلس وصفاقس ثم المهدية على ساحل البحر فيها نخل وبساتين غربي طرابلس المغرب، وهي ذات مياه جارية ، كان فتحها مع فتح القيروان سنة ٢٧ على مايذكر في القيروان ، قال البكري : قابس مدينة جليلة مسوّرة بالصخر الجليل من بنيان الأول ذات حصن حصين وارباض وفنادق وجامع وحمامات كثيرة وقد أحاط بجميعها خندق كبير يجرون إليه الماء عند الحاجة فيكون أمنع شيء ، ولها ثلاثة أبواب .

(معجم البلدان : ٤/٢٨٩)

في ميدان الافتخار نُجُبُهُ (١) وخيله ،حاز مجليا خصال سَبْقه ،وجاز مواليًا أكارم غربه وشَرْقه ،ومن ادعى الجمع ففاروقه يثني على تحقيق فرقه ،روضة علم وآداب ، تربو بظرفها على علم الدهري وابن داب ،وتُبين فتاويها الحقّ ،وتظهر أياديها الكرم الذي (ما) بينه وبين البحر فرق ،وصل الله في العز المحدود سُمُوّ (١) قدره ،وأحل في سماء السعود نُمُوّ بدره.

وبعد ،فلما تنسم عندكم نسمات هذه الخمائل ،وعرف من شمائلها ما اشتملت عليه من لطافة تلك الشمائل ،أراد الله أن يتقرب بمدحه مِسْكِيّة نَسَماتها ، شمسيّة قسماتها ،أعطافها أغصان ، وأردافها كثبان ، ووجناتها تجنى القطوف ، بستان يمدح بها جدا بين أهلها ، وأكملها جودا وأسعدها جدودا ،وما أنا ياسيدي أدام الله نصرك وأعلى قدرك في الهذر والضجر،إلاّ كجالب التمر الى هجر،(٣) ولكني رددت البضاعة لمبضعها ،والأمانة لموضعها ،إن احسنت فارتضاؤكم يظهره ويبديه ،وإن أسأت فإغضاؤكم يستره ويخفيه .

وكتب معها إليّ قصيدة من غزله مما افتتحها به من أولها : (الكامل)

بادر إلى الروض الأنيق الزاهرِ   واسرح بلحظك في رياض أزاهر

=:=

(١) في الأصل :نحبه تصحيف ،والصواب ما أثبت .
(٢) في الأصل :بنحو قدره ! وهوخطأ ،والصواب ما أثبت .
(٣) المثل (جالب التمر الى أو "كمستبضع التمرالى هجر" أو "كمستبضع تمرا الى خيبر"

انظر (المستقص في أمثال العرب : ٢/٢٣٣)

فالطلّ من فوق الغصون كأنّه	درٌّ منظّمٌ في عقود جآذر
وبنفسج الروض النضير كأنّه	زرقُ العيون بدت لعين الناظر
مع سوسنٍ راقَ النّهى كأنّما	قبضت على تبرٍ بها متنا ثِر
أيقظ نديمك من كراه وعاطه	كأس الحيا كالصّباح السّافر
من كفّ أحورَ يا بليّة لحظه	يسبي العقول له بطرفٍ ساحر
إن كان يجحد ذاك سيف جفونه	فبخدّه أثرٌ يبين لناظري

أَبُو مُحَمَّدٍ

عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ مُحَمَّدٍ

البُوزَوِي

ومنهم : أبو محمد عبد الصمد بن محمد التَّوزَري : (١)

شاب يشبُّ معه ذَكاؤه ، ويهب خاطره بما تتوقد به ذُكاؤه يتوسم كالزرع زَكاؤه ، ويبتسم إثر يراعه إذا بَكاؤه ، جليس ممتع المذاكرة ، مهرع المحاضرة ، وإلى أن رأيته سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ما بَقَل (٢) وجهه ببنانه ، ولا بقي للنجوم إلا ما لفظ من أسنانه ، أو قضى على قطع ما جمعه للناس ، ومنعه بما يحمي به ظبيُ الكِناس ، ضناً تعربه الأبكار ، وظناً أن يحصل بأدبه الشعشع الإسكار ، أتى في الركب المغربي لحج بيت الله الحرام وزيارة النبي عليه السلام ، ثم كرّ راجعا ، وغرب كوكبُه الذي أشرق لمّا شَرَّق طالعا .

وكتب اليّ مستجيزا كلاما وجيزا :

وعد سيدي الدهر وإتيانه ومعلي صرح الفخار ومشيد أركانه ، قرنت النبوة المحمدية ، وزينت الولادة العمريّة ، وهبه الله عمرا طويلا ، وذكراً جميلاً ، لا يبغي عنه تحويلا ، ونصره نصراً عزيزا معجلا ، ومثله مولى بإجازة خديمه المتطاول إلى خطة تقديمه ، وقد قيل : أَنْجَزَ حُرٌّ ما وعد (٣) ، فالإنجاز ما يفته معد . . . .
ففي الوقت أَجَزْتُه ، وعجلت له الوعد وأنجزته .

=:=

(١) أبو محمد عبد الصمد بن محمد التوزري من أصدقاء العمري ، ولكني ما وجدته في كتب التراجم ، مما يجعلني أرجح بأنه من الذين انفرد بترجمتهم .

(٢) بقل : خرج شعر وجهه . (القاموس المحيط : ١٢٤٩)

(٣) "أنجز حر ما وعد" يقال : نجز الوعد ينجز ، وقال الأزهري : نجز الوعد وأنجزت أنا ، وكذلك نجزت به ، وإنما قال حر ولم يقل الحر لأنه حذر أن يسمي نفسه حرا فكان ذلك مدحا .
قال المفضل : أول من قال ذلك الحارث بن عمرو آكل المرار الكندي لصخر بن نهشل بن دارم ، وذلك أن الحارث قال لصخر : هل أدلك على غنيمة على أن لي خمسها ؟ فقال صخر : نعم ، فدله على ناس من اليمن ، فأغار عليهم بقومه ، فظفروا وغنموا ، فلما انصرفوا قال له الحارث : أنجز حر ما وعد ، فأرسلها مثلا . (الأمثال للميداني : ٣ / ٣٧١)

فكتب إليّ :

وصلني أعزّك الله سيدي من إجازته ماتيهت به عجبا وفرحا ،ومشيت به مختالا مَرحا ،إذ أعطاني كاهلَ الشعرى العَبور ،وأراني وجواري الأفلاك دوني تدور ،وأبان لي تصور شكري وأنا جد شكور ،وقام بي فَنَهضتُ على رغم الجدّ العَثور ،وقد يجد هذا المصطنع مَنْ يَرُبّهُ ، ويغالي هذا المصطنع ولا يقدر على أزيد من أنه يُحِبُّه ،ولولا أ نني من حركة الأوبة على أوفاز ، وأنه لم يأنِ له الا وقف مجتاز لقرن هذه البوية إلى ذلك الجناب بمدحه يطولها ولا تبلغ قصاراه ،لا يتعرض بها إلا لمن رآه ،وسيأتي ذكره من ثغر الاسكندرية المحروس ان أقام بها الركْبُ يومين ،بما يحلو من زور ومَيْن ،والسلام الأزكى العُفَرّ كالزهر ضحكا الناصع طيبه، بالعطر ماسحبت به جلابيبه ،على ذلكم المجد الأشرف،والجناب الأرحم الأرأف ورحمة الله وبركاته .

وكتب إليّ كتابا من الاسكندرية كتابا مع قصيدته التي جهزها ،وعقيلته التي مثل العروس أبرزها كتابا طوّله ،وتطوّل به وأرسله .

ومنه : وهي قصيدة بنى أمره على إطالتها فقصّرها ، وعلى أن يقتدر به حق تلكم الجلاله فما قدرها ،وظن أنه يَعْذر بهامن قريحته أمده فماأعذر منها وما أعذرها ،وتوهّم أنه مقدّمٌ بها وسائله فأخّرها لمارأى تأخّرها ،على أن تلكم السيادة أشرف من كل مايقال ،وتلكم المجادة أعظم من جميع مايجليه فكراً ويدور على بال ، وما المادحُ لها وإن أطْنَبَ ، والواصفُ لها وإن خيّم على السُّهى والفرقد وَطَنّبَ ،

==:=

(١)السّهى :كوكب صغيرخفيّ الضوء في مجموعة بنات نعش نعش الكبرى أوالصغرى .
(القاموس : ١٦٧٤)

إلاّ مقصرا غيرَ معذور، وشاكرا مبلغا عن مشكور ،لأنها لايُعطى حقها ولا يوفّى، والساكت في مقام جلالتها أبلغُ من المتكلم فإن نور الشمس لا يُطافا .

وهذا وان ذكر مع من كان بمصر لوقوعها في قسم المغرب وطلوعهـــا به لما فاتها أن تكون نجم الصباح (صارت) نجم المغرب ،وهذا وإن سلم فيه إلى الحق فهو مما تشرق لعصبيتها صدور الشرق لأنه جارها الأدنى ،وهي قطعة منه في حقيقة المعنى ،ولكن كيف الحيلة فما أوقع الله عليه قسمه بلاد،،و سهم مـــا سطح عليه كرة الأرض لعباده ،وهاأنا إذا ذكرت من أنار من أقمار الكُتّاب . فـــي غربها ، أغض عيون الشرق يفيض غَرْبها ،مما أنا في السوق عن قربها ،وسل مـــن خلجها سيوفا لا ترضى الحور لحمائلها ولا الغمائم لقربها ،سقوا بماء النيل فبانت حلاوته في منطقهم ،وجاور املاق مقطعات ،فجاؤا بمثلها في ملقهم (١) ورأوا الهرمين فأتوا قواعده في بنيانهم ،وولدوا في أرض السحرة فتعلموا منهم السحر واستعملوه في بيانهم (٢) .

=:=

(١) ملدق : الودّ واللطف . (القاموس : ١١٩٣)

(٢) إشارة الى بلاد مصر .

ابن عبد

ومنهم : ابن عَبْد : (١)

كان كاتب ابن طولون (٢) ، وكان على طريق الأوائل ،إلا أنه يجرّ بريق الفصص سحبان وائل ،شاعر مِدْرَهْ ،وكاتب له على قطع المنازع قُدْرَهُ ، وفصيح كل كلمة يقولها ببدره بل بِدَرِه .

ومن نثره قوله :

أومثلك يظن بمثلي هذا ،وأنا ـ أطال الله بقاءك ـ أرُبُّ الصنيعَ ولا أكفره ، وأرعى الذّمام ولا أخفره ،وأحمل الكَلَّ وإنِ هاضني (٣) ،وأنْبَسُطُ للصاحب وإن رابني ، وأبذل عن صديقي الوفي نفسي ،فداء ان قَبلت ،ووفاء ان رضيت أضنّ بحديث سميري (٤) ،ولا أطّلِعُ على ما استأمن عليه أدنى ضميري ،وشهد الله ماخرجت عن خُلُقي أعانق العنا ،وأحبوا الحِبى ،أجامل الأصدقاء وأتوقى بعضهم لبعض وأكتم السرّ فيه ضربة العنق .

:=:

(١) ابن عبدكان : هوأحمد بن محمد بن ودود " ابوجعفر " ،وقد نال شهرة واسعة في عصره وبعد عصره ، اصطحبه ابن قولون معه بغداد ،اسمه يدل على أنه فارسي ،اذ الألف والنون تأتي في الفارسية القديمة للنسبة بينما تأتي الكاف للتصغير ،واذ افعبدكان تقابل في العربية عبيدي ،كان على المكاتبان الديوانيه الطولونيه ،وعرف ابن عبدكان بجودة أدبه وفنه ،قال صاحب الفهرست: " كان بليغا مترسلا فصيحا ،وله ديوان رسائل كبير " اقترن اسمه مع الصابي يعني بموازنة عباراته موازنة تخرج به الى السجع فان تركه فالى الازدواج . وهذا يدل على أنه كانت تتأصل عنده رغبه في احكام عباراته وتنسيقها تنسيقا بديعا .

انظر (صبح الأعشى ١/ ٩٥) و(الفهرست لابن النديم ١٩٧) و(معجم الأدباء ٦/ ٨٥ .

(٢) ابن طولون : مرّت ترجمته صفحة ٢٩٧

(٣) هاض : كسر بعد الجبور . (القاموس : ٨٤٨)

(٤) سميرى : صديقي . (لسان العرب : ٤/ ٣٧٥)

ابن خيران

ومنهم : ابن خَيْران : (١)

كتب عن الحاكم غير حَيْران ، بخاطر وقّاد قذف البَهْرَمان (٢) الأحمر فيه فهو منه شرارةُ نيران ، والياقوت الأصفر كأنه منه غَيْران ، معانيه منسهبة ، وألفاظه موجزة مذهبة ، له في نَقْش التعبير ، نَفَسُ عبيرٍ ، ولم يوردْ له ابنُ سعيد (٣) على كثرة ماله من المحاسن وآثار فكره من الجواهر التي لا تكونها المعادن الا قوله وقد خرج أمر الأمامة بهدم كنيسة القمامة ، حتى يصير سقفُها أرضاً ، وطولُها عَرْضاً .

==::::=

(١) هو أحمد بن علي بن خيران الكاتب المصري أبو محمد الملقب بولي الدولة صاحب ديوان الانشاء بعد أبيه كان تقليد ديوان الانشاء للظاهر ثم للمستنصر توفي سنة ٤٣١ ترجمته في معجم الأدباء ٤/٥ ، وفيه وكان أبوه أيضا فاضلا بليغا - وهو المراد هنا - وهو علي بن خيران الذي كان في عهد الحاكم الفاطمي ، وكان أعظم قدرا من ابنه وأكثر علما .

(٢) البهرمان : الحناء .

(٣) ابن سعيد : هو علي بن موسى بن سعيد وفد على مصر من المغرب ، ونقل عن علماء مصر وأدبائها في كتابه (المغرب في حلى المغرب) .

(الموسوعة العربية الميسرة : ١/١٨)

المُوَفَّقِ بنُ الصَّيرَفِيّ

ومنهم : الموفق بن الصَّيْرَفي : (١)

تـا قد كلام، وناقل مضاء سيوف وأقلام، وحديث نصر عن أعلام، كان صاحب ديوان المكاتبات (٢) في آخر الدولة العبيدية، يعم الناس بالاحسان الجَمّ، والإحسان بالرعاية التي خلاها الذم، فإليه أرسل القاضي الفاضل أبوه ليُدَرِّبَ وعرض عليه سيفه لِيُجَرِّبَ، فوجده جوهرا، فورده، وهو يتلظى نهرا، ويُعرفُ هذا بابن الصيرفي، بابن الجلال (٣)، وكان آيةً في كرم الخلال، لولا كبرياء كانت تتخازرُ بطَرْفِهِ وتتخاذل على من دخل بتثاقل عطفه، وكان الفاضل يعرف فضله إلا إذا وفعلـه كلّه إلا هذا، وقد زعم ابن سعيد أن منه المادة الفاضلية بالتذاذ ... ، وأن من تَبَحَّرَ فـي كلاميهما يظهر له طرق المآخـذ الجلية ولعمري انه ماأنصف، ولا الأمر كما وصف، بل والله بينهما مابين شهرتيهما، والتفاوت في تغريقهما تفاوتٌ مابين صفتيهمـا، على أن هذا الرجل لايغمط إمام التمام سابقتَهُ ولا تنكر قبل الغمام بارقته .

=:=

(١) هوعلي بن منجب بن سليمان أبوالقاسم تاج الرياسة ابن الصيرفي، منشئ، مؤرخ من أعيان المصريين، ولي ديوان الانشاء بمصرفي ايام الآمر الفاطمي سنة ٤٩٥ وبقي الى سنة ٥٣٦ له " الاشارة الى من نال الوزارة " و "مناهج القرائح" و(رد المظالم) و(عقائل الفضائل) و(قانون ديوان الرسائل) وغيرها، توفي سنة ٥٤٢ وكانت ولادته سنة ٤٦٣

(ترجمته في الاشارة : ٢/١٢)

(٢) ديوان المكاتبات: وموضوعها قراءة الكتب الواردة على السطان وكتابة أجوبتها وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها . (صبح الأعشى للقلقشندى)

(٣) ابن الصيرفي : هوعثمان بن سعيد بن عثمان ويقال له ابن الصيرفي أحد حفاظ الحديث ومن الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره . توفي في (دانية) بالأندلس سنة ٤٤٤ هـ.
(الأعلام : ٤/٢٠٦)

ومن نثره قوله :

وجاءت غربان الماء تحكي قِطَعَ السَّحائب في أديم السَّماء يحسبُ النَّاظر أنها ركائبُ ، قد لفقت في بحر السَّراب ، أو جُفونا محدقةً والمجاذيف أهداب

ومنه قولـه :

وجاءت هـذه الخيمة تُوفي على إيوان كسرى ، وظلت الأبصار في أرجائها خاسئةً حسرى ، وقد اجتمع فيها متضاد الحيوان ، ولا أذى ولا ضير وكأنها بساط سليمان وقد حشر له جنودُه من الجن والأنس والوحش والطير .

ومنه قوله :

حاشالله أن تنسى منن المولى وبردها على كبده وأياديه التي تعجز عن سعة شكرها ذاتُ يَدِه ، وقد قرن هذه الخدمة بهدية مثله وهي مدحة وكتاب وقول عسى أن يفكَّ به أزرار ذلك العتاب ، هيهات زال بكرم الله الإعراض وردت سهام الأعداء في نحورهم قبل أن تصل إلى الأعراض .

الأُثيرِ بن سنان

ومنهم الأثير بن بنان : (١)

عديم النظير ،عديل الكوكب المنير ،ولم يكن في وقته مثله ، ولا في سَمْته من الكواكب شكله ،ناهيك به من رجل تروى بماء البِشر ظماؤه ، ولا يحشى إبله ولا يتخفض ماؤه ،إلا أن سعادة الفاضل أخملته ،وأبقت عليه حليه وعطلته ، وقد ذكره الشيخ الحافظ أوحد الفضلاء صلاح الدين أبو الصفا خليل الصفدي (٢) وقال : من أهل مصر وأصله من الأنبار (٣) ،قرأ الأدب وسمع الحديث وقال ما ملخصه أنه قدم بغداد رسولا مع قافلة الحاج وأكرم مثواه ،بعثه سيف الاسلام طُغتكين ابن أيوب (٤) وقال :

=:=

(١) هو محمد بن محمد بن بنات الأنباري ،أبو طاهر بن أبي الفضل الكاتب من أهل مصر وأصله من الأنبار ،قرأ وسمع الحديث ،وكان عالما أديبا بليغا حسن الخط ،قدم بغداد رسولا مع قافلة الحج من مكة من جهة سيف الاسلام طغتكين أخي صلاح الدين من اليمن فأنزل بباب الأزج وأكرم مثواه وحدث بالصحاح وبالسيرة ،له (تفسير القرآن المجيد) ولد سنة ٥٠٧ ، وتوفي ٥٩٦.
(فوات الوفيات ٣/ ٢٦٠)

(٢) صلاح الدين الصفدي : هو أبو الصفاء خليل بن ايبك ،ولد في صفد سنة ٦٩٦هـ ،وتعلم في دمشق على ابن نباتة الشاعر وأبي حيان ، تولى ديوان الانشاء في صفد والقاهرة وحلب مات في دمشق سنة ٧٦٤هـ . وهو من أعظم كتاب هذا العهد ومن أوسعهم علما من أهم مؤلفاته . (الوافي بالوفيات) (معجم المؤلفين لرضا كحالة : ٤/ ١١٤)

(٣) الأنبار : مدينة قرب بلخ وهي قصبة ناحية جوزجان وبها كان مقام السلطان ، وهي على الجبل وهي أكبر من مرو الروز وبالقرب منها ،ولها مياه وكروم وبساتين كثيرة وبناؤهم طين ،وقال الهروي : هي مدينة على الفرات في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ . وكانت الفرس تسميها فيروز سابور . وقيل : انما سميت الأنبار لأن بخت نصر لما حارب العرب حبس الأسراء فيها فتحت في ايام أبي بكر رضي الله عنه ،سنة ١٣ للهجرة على يد خالد بن الوليد رضي الله عنه .
(معجم البلدان لياقوت : ١/ ٢٥٧- ٢٥٨)

(٤) طغتكين : استلم ملك دمشق بعد ابن دقاق وبقي حتى توفي سنة ٥٢٢هـ .
(الموسوعة العربية الميسرة : ٢/ ١١٦٠)

وكتب الكثير بخطه المليح وتولى ديوان النظر في الدولة المصريـــة، وتقلّب في الخدمة في الأيام الصلاحية بتِنّيس (١) والاسكندرية ،وكان القاضي الفاضل ممن يغشى بابه ويمدحه ويفتخر بالوصول إليه،وقال :

وكان الصالح بن رُزّيك (٢) قدألزم الأثير بمال عليه لكونه كان يتولّى أموالا له ،واعتقله ، فأرسل اليه : تمت تقديم الخدمة والتشيع الموافق في المذهب فقال الصالح بن أبي بنان سهنانه (٣) يحصن بالدين مافي يده ؛ برئت مـــن الرفض إلا له ، وتبت من النصب إلاعليه .

قلت : وقد بدر ابن رُزّيك ،وإياك باابن بنان بما تحرى بـــك

ثم نعود إلى تتمة ذكر ابن بنان فأقول :

إنه كان يمتُّ إلى البيت العمري، حيث كانوا نزلاء تلك الدولة بمنجاة تبرئه من الرّفض (٤) ، وبعضه تولى في هذا طلبه للحديث على إخمال أهل تلك البدع لأهله ،ولعلّه يقرب الى ابن رزّيك لقول لسان لامعتقد ،وكان صديــق المجلي جدّ أبي ، وبينهما انتساب أدبي ،ومكاتب .

=:=

(١) تنيس: مدينة عظيمة طم عليها الماء قبل الفتح الاسلامي بمائة سنة فأغرق ماحولها وصارت بحيرة، وهي الآن قرية صغيرة بوسط البحيرة والماء محيط بها .(معجم البلدان : ٢/ ٥١)

(٢) الصالح بن رزيك: هوطلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح وزيرعصامي يعد من الملوك .أصله من الشيعة الامامية في العراق ، ولي وزارة الخليفة الفائزالفاطمي سنة ٥٤٩ هـ ،واستمرفي وزارة العاضد . (الأعلام للزركلي : ٣/ ٢٢٨٨) .

(٣) السهنانه ،قال ابن الأعرابي : الرمال اللنية .قال أبومنصور: أبدلت النون من اللام والله أعلم. وهناتعني اللين السهل . (لسان العرب : ١٣/ ٢٢٩)

(٤) الرفض والرافضة : الفرقة منهم ،وفرقة من الشيعة بايعوا زيد بن علي ثم قالوا له : تبرأ من الشيخين فأبى وقال : كانا وزيري جدي فتركوه ورفضوه وأرفضّوا عنه . (القاموس المحيط : ٨٢٩)

وما كتب إليه قوله:

كتبت كتب الله على نفسه الرحمة، وفي سابق علمه النعمة، للمجلس العالي الأمير الأجل الاسفهسلار (١) عزالدين وكبت أعداءه وَوَدَّ أودّاءه، وأمطر نَداهُ وأدام برسله السحاب اقتداءه، عزالدين وتجلل صفات تنزيله البحر ارتداءه، ولا زال فناؤه بالوفود مهر الترحاب، وسمعه مملوء الاصغاء بالمحاب، وقد مضت عنده ليال، ماأنار فيها من كتبه هلال ولا قمر، ولا ورد من خاطره سائل جدول ولا نُهَر، وكنت - شَهِدَ الله - أظنّ أنه لا يخلي المملوك رجع نَفَسٍ من مروره على ذكر خاطره، ولسان قلمه وعيان ناظره، لموالاة المولى أولى بها وأحق برعايته قديم انشاؤها وقويم إحسانها، وشكر مابرح عليه ولا يبرح، ولو قطع به ماقطع، لا يميل به ولا يجور، والمملوك لا يسعه إلا أن يقول إن المولى معذور، وليندر على سيدنا ضمان الوفاء بالنذور.

=:=

(١) الاسفهسلار: اسم لوظيفة من وظائف أرباب السيوف وعامة الجند، وصاحبها زمام كل زمام، وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم، وفي خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم. وهي كلمة أعجمية معناها قائد الجيش. وكانت العامة تقول: اسباسلار.

(التعريف بمصطلحات الصبح: ٣٣).

ابـن
ظافر العسقلاني

ومنهم : ابن ظافر العسقلاني : (١)

أصله من عسقلان (٢) وأنما بمصر مرباه ومنشؤه بها كان كلفه ورشاؤه ، ألّف كتاب "بدائع البدائه" وأتى فيه بمتشابه وغير متشابه ، وخلاه بما اتّفق عليه توارد الخواطر ، وقارب هذا مما بعد في النوادر ، ورصّع ذهب كلامه بفرائد الجواهر وفوائد في ليل المداد كالنجوم الزواهر ، تَبِعَ في مواضع منه طريق "قلائد العقيان"، إلاّ أنه ما لزمها في كلّ كتابه ، ولا رقمها في جميع جميل جلبابه.

وقد أورد ابن سعيد قطعة من كلامه في "بدائع البدائه" وقال : هي لابن أبي المنصور الدمياطي وزير الملك الأشرف ، وما علمت هل التبس عليه ، لا بل هو أعرف .

ومن نثره قوله :

في وقت مطر أجرى كلّ وهدة (٣) نهرا ، وحلى جيد كل غصن من الزهر جوهرا ، وبين يديه جاريه تسقيه ، وهي مقابل بدر وجهها ينجم في الكأس في راحة كالثريّا ، تخجل الزهر بطيب العرف والرّيّا ، فاتفق أن لعب البرق بحسامه ، وأجال سوطه المذهب بسوق ركاب ركامه ، فارتاعت لخطفته ، وذعرت من خيفته ، فقال المعتمد بديهاً : تبين أطربه معناهما ، وهزه وحركه استحسانها واستفزّه .

=:=

(١) هو علي بن ظافر بن حسين الأزدي الخزرجي أبو الحسن جمال الدين : وزير مصري من الشعراء الأدباء المؤرخين ولد في القاهرة سنة ٥٦٧ ، وتوفي بها سنة ٦١٣ ، ولي وزارة الملك الأشرف مدّة ، فوكالة بيت المال ثم اعتزل الأعمال وله مصنفات منها : "بدائع البدائة" و"الدول المنقطعة" ترجمته في فوات الوفيات ٢ / ٢٦ . ومعجم الأدباء ٣ / ٢٦٤)

(٢) عسقلان : مدنية بالشام ، من أعمال فلسطين ، على ساحل البحرين غزة وبيت جبرين .
(معجم البلدان : ٤ / ١٢٢)

(٣) الوهدة : الأرض المنخفضة . (القاموس المحيط : ٤١٨)

ومنه قوله :

جلسنا ليلة مقياس الجزيرة عند مبالغة النيل في اختراقه ، وانفراجه عالمهزل مستورا من أرضه وانفراقه والمراكب قد انتظمت ، وركدت بالأرساء فوق لُجّه وأحاطت به إحاطة المحيط بنقطته ، وسفها الريح تعبث بهما حتى كادت تذهب بوقارها وأجسادها فتلبست لفقد الماء حدادا قارها (١) ، وهي في أوكارها من المراسي مرمومة ، وأجنحة قلوعها لعارض الليل مضمومة .

ومنه قوله :

ذكر ابن رشيق في كتاب الأنموذج " ماهذا معناه : خرج أبو العباس ابن حديد (٢) في جماعة من رفقائه طلبا للتنزه ، فَحَلّوا بروضة قد سفرت عن وَجَنات الشقيق (٣) ، وبين زبرجد الشباب نجوم من عقيق ، والجو قد أفرط في تعبيسه ، ونثر لقيطه جميع ماكان من لؤلؤ القطر في كيسه .

=:=

(١) القار : طائفة من المواد المعدنية الطبيعية ، عرف الآن أنها تكون أساسا من خليط المركبات الايدروكربونية والاسفلت وزيت البترول ، وكذلك المواد التي تشبه الاسفلت ، وزيت البترول ، أو تحتوي على مكوناتهما توصف بأنها قارية ، ويستعمل لطلي السفن .
(معجم البلدان : ٤/ ٢٩٣) و(والموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٣٦٠

(٢) أبو عباس بن حديد : هو عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن حديد عز الدين ، أديب وشاعر من علماء المعتزلة ، حاز شهرة واسعة بكتابه " شرح نهج البلاغة " ، وهو من فضلاء الشيعة المعتزلة ، وله شعر جيد واطلاع واسع على التاريخ . ولد بالمدائن عام ٥٨٦ هـ وفي سنة ٦٣٣ قام بالاشغال الديوانية في المحكمة المستنصرية ، وتوفي ببغداد سنة ٦٥٦ هـ.
قال شعرا ، يستدل بها على ميله في نهاية حياته للرجوع إلى السنة المحضة تاركا علم الكلام الذي عاناه طويلا دون طائل .
(معجم اعلام الفكر الانساني لابراهيم مدكور : ٣١)

(٣) الشقيق : نبات أو ورد أحمر وسميت بالشقيق تشبيهها بشقيقة البرق
(القاموس : ١١٦٠)

ومنه قوله :

قالا : جلسنا في بعض الأيام لاجتناء زهرالمحادثة ،واقتناء درر المنافثة، فسمعنا صوت شبّابة (١) تذكر الشائب الهرم زمان الشّبيبة ، وتحرك من الحَزِق الهم غزله وتشبيبه ،وصوتها أشجى من أنين المشتاق لفرط الأشواق ،وأرق من نوح الشاق ،عند عَزْم الغريق على الفِراق .

ومنه قوله:

في يوم حلّى ذهب برقه ،وأذاب ورق وَدْقه ،والأرض قدضحكت لتعبيس السماء ،واهتزت وربت عندبرق الماء .

ومنه قوله:

جلسناعلى بركة في منظرة الصاحب بالجزيرة،وقدألقي عليها وردأحمر ملأ بكثرة نجومه فسحةَ سمائها ،ولفت بحمرة شعاعها صفحة بنائها ،وأهدى رَمَده إلى مقلتها الزرقاء فأفصح سرا بدائها .

ومنه قوله:

في منزل قدانعطفت قدود أسحاره ،وابتسمت ثغور أزهاره وذاب كافور مائه على عنبر طيبه،وامتدت بكاسات الجلنار(٢) أنامل غصونه ،والنسيم قدحف واعتلّ ،وسقط رداؤه الخفاق في الماء فابتلّ ،ووهت (٣) قواه حتى ضعف

=:

(١) الشبابة : أداة من أدوات الطرب يستعملها الرعاة .
(الموسوعة العربية الميسرة : ٢/١٠٧٢)

(٢) الجلنار: وهوأشد صفرة من البهرمان وأكثره شعاعا ومائية ودون الخلوقي ،وهونوع من الياقوت.
وفي القاموس المحيط : زهرالرمان . (القاموس المحيط : ٤٦٨)

(٣) وهت قواه : ضعفت وخارت . (القاموس : ٢٠٨)

عن السير ،واشتد مرضه حتى ناحت عليه نوائح الطير.

ومنه قوله:

مررت بدولاب يئنّ أنين الثكالى فقدت أطفالها ،والنواعج أضلّت إفالَها (١)

وهو يبكي بكاءَ الصَّبِّ آلَمَهُ هواه ،وصارمه من يهواه ،وفرّق البين بينه وبين محبوبه فراقاً لا يرجى انقطاعه ولا يمكن استرداد مايسلمه منه ولا استرجاعه ،فقلبه قد ملأته أوجاعه ،وجفنه قد ضاق مجراه عن دمعه ففُتحت به أضلاعه ،وَبَصُرنا بساقيةٍ تتلوى تلَوِّيَ الأفعوان ،وتخفق خفقان قلب الجبان ،والزهر قد نظم بلبسها عقودا فوق أثوابها الممسكة ،والنسيم يكسوها ويسلبها غلائل مفركه .

ومنه قوله:

في ليلة وقود عمّ السُّرور فيها الأرضَ بسحابها وغمرها بفائض انسكابه فانبثت نواحيها جلنار النار في حصون (٢) كل جدار وكشف بها النور سجف (٣) الظلماء ،ونقل طرف الليل إلى السنة الشقراء (٤) من السنة الدهماء (٥) ،وا روب الأرض بشهب النيران على جو السماء

[وصف غلام ذي خيلان وذوائب]

ومنه قوله يصف غلاما ذا خيلان وذوائب :

كأن الشمس من إزاره أشرقت ،وكأن النار في وجناته أنارت وما أحرقتْ ،ذو

=:=

(١) الإفل : الفصيل أو الحمل الصغير. (القاموس : ١٢٤٢)

(٢) الحصون جمع حصن : المعوج . (لسان العرب : ١٣/ ٢٨٦)

(٣) السجف : الستر. (القاموس : ١٠٥٧)

(٤) الشقراء : يعني بها الجديدة . (اللسان : ٤/ ٤٢٢)

(٥) الدهماء : يعني بها القديمة . (القاموس : ١٤٣٣)

خيلان قد وشيت دهم خيلها في مُحيّاه ، و تفرقت لاقتناص فرسان القلوب التي كَسَرَها هواهُ وقد حققت وصف وجناته بالشقيق ، ولفقت فصوص السُّبَح في العقيق ، وهو مائل العِطف ، ذليل الطّرْف ، قد عانق أُفعوان شعره غصن قده ، وطابق به مبيض وجهه مسوده .

ولما عَرس ابرأيار المصري ببنت بازكوج مقدم الأسديّة ، بَرَز من ضروب آلات الحرب مايفوق الوصف ويروق الطرف ، وظهرت من البندود بدورٌ في سماء الغبار ، وغصون من زَغَفِهم (١) بين غدران ومن سيوفهم بين أنهار ، يَسْبونَ النواظر ، بالقدود النواظر ، فخرجنا لنظر تلك الأجساد ، و نتأمل تلك الظباء الظاهرة بزي الآساد .

ومنه قوله :

في روض قد تناسبت قدوده ، واخضرّت بُروده ، وخجل ورده من عيون نرجسه (٢) فاحمرّت خدوده ، والروض يهدى الى الآناف (٣) عطر عَرْفه ، والنسيم يركض في ميادين الأزهار بطِرْفِه .

ومنه قوله :

فلما غابت الشمس وفاتت ، ودفنت في المغرب حين ماتت ، وتطرّز حداد الظلام بعلم هلاله ، وتحلى زنجي الليل بخَلْخَاله ، اقترح الجماعة على فلان أن يعملا في صفحة الحال ، فأطرق كلٌّ منهما مفكرا ، وميّز ماقدم إليه بحر خاطره

=:=

(١) الزغف : دقاق الحطب ، وأطراف الشجر الضعيفة . (القاموس : ١٠٥٤)

(٢) النرجس : نوع من الورد أولع بوصفه . (القاموس : ٧٠٦)

(٣) الآناف : السادة والناس . (القاموس : ١٠٢٥)

من جواهر المعاني متجرا .

ومنه قولـه :

فحللنا روضا تنبت قامات أشجاره ، وتفتن قيان أطياره، وبين أيدينا بركة ماء ، كجو سماء ، فنثر عليها بعض الحاضرين ياسمينا زان سماءها بزواهـر منيرة ، وأهدى إلى لُجَّتِها جواهر نثيرة .

ومنه قـوله :

في ليلةِ فِطْرٍ ظهر بها الهلال للعيون ، وبرزت صفحة نحرالليل كالنون والشمس فوق نحرالليل غازية وإلى مستقرها جارية ، ذاهبة قدشمرت للمغيب الذيل ، واصفرت خوفا من هجمة الليل والهلال في حمرة الشفق ، كحاجب الشائب أوكزورق الورق .

ومنه قـوله:

وبالمجلس شاب وسيم ، كأنه خشف (١) ريم ، قدمسك عذاره وردخديه، وعجزت الراح أن تفعل في الندامى فعل عينيـه .

ومنه قـوله:

سيف قدنظم الفرند في (٢) صفحته جوهره وألبسه من سلخ الأفاعي رادءً لا يمنع من برقه بدر مجن ولا ثريا مغفر ولا يسلم لحده من يلبث ولا ينحو لطولـه من فر .

=:=

(١) خشف : ولد الظبي أول مايولد ، أو أول مشيه . (القاموس المحيط: ١٠٣٩)

(٢) الفـرند : السيف ، ومايلمح في صفحته من أثرتموج الضوء .
(القاموس : ٣٩٠)

ومنه قوله :

ومرت بهم امرأة كالشمس تحت سحاب النقاب والغصن في أوراق الشباب، فحدّقوا إليها تحديق الرقيب إلى الحبيب ، والمريض إلى الطبيب ، فجعلت تتلفّت تلفت الظبي المذعور لفَرَقِهِ القانصَ فهرب وتثنّت تثنّي الغصن الممطور، عانقه النسيم فاضطرب .

ومنه قوله:

بركة رق ماؤها وصحت سماؤها ، قد صف تحت دساتيرها نارنج فتن قلوب الحضار ، فكأنما رفعت صفائح من فضة على أُكَرٍ (١) من النُّضار .

ومنه قوله:

في منزل ابيضت حيطانه وطاب استيطانه ، والبدر قد محا خضابَ الظلماء ، وجلا محيّاه في زرقة قناع السماء ، وقد كسى الجدران نباتا من فضة ، ونثر كافورا على مسك الثرى بعد أن سحقه وَرَضّه ، والنسيم قد استولى على الأغصان فَمَيَّلَهـا ، وغصبها مباسم زهرها فقبلها ، وعندنا مغنٍ إن بدا فَذُكاءُ (٢) طالعة ، أو شدا فالورقاء ساجعة، تُغازِلُه مقلةُ سراج قد قصر على وجهه بحديقة ، وقابله فقلنا البدر قابل عَيُّوقَهُ (٣) ، فكتبت إلى الأعز بن المؤيد في وصف تلك الليلة التي ارتفعت عن أيام الأعياد ، ارتفاع الأرواح على الأجساد : (الخفيف)

=:=

(١) الأكر: جمع أكره ، وهي الكرة . (القاموس : ٤٣٩)

(٢) ذكاء: الذكاء بالضم : اسم الشمس قال في اللسان ، وهو معرفة لا ينصرف ولا تدخله الألف واللام ويقال للصبح ابن ذكاء لأنه من ضوئها . (اللسان ١٤/٢٨٧)

(٣) العيوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن ، يتلو الثريا ويتقدمها ويطلع قبل الجوزاء . (القاموس : ١١٧٩)

غبت عني يا ابن المؤيد في وقـ — ـت شهي تلقى المحب المشوقا

بت فيها منادما لصديق — ظل بين الأنام خلاً صدوقا

إن يغني سمعت داود (١) أولا — ح تأملت يوسف (٢) الصديقا

وإذا قابل الصباح رأينا — منه بدراً يقابل العيوقا

ما بدا نرجس الكواكب إلا — قام من خده يسرينا شقيقا

فجعلنا ريحاننا طيب ذكرا — ك فخلناه عنبراً مفتوقا

وهذه الأبيات له وهي كما تراها (بها) رقة ، كأنها من أهواء القلوب مشتقة ، شائقة مشوقة ، منظورة بالاستحسان مرموقة ، أشهى من الضى وأبهى من القمر في السنا ، وأدخل على القلوب من الرضا ، وأخطف للأبصار من البرق على ذات الأضاة (٣) كأنها من النفوس مخلوقة ، أو بالعنبر كما قال قائلها مفتوقة .

ومن نثره قوله :

مررنا في بعض العشايا على بعض البساتين ، تلك المجاورة لبحر النيل فرأينا بئرا عليها دولابان متحادثان ، قد دارت أفلاكهما بنجوم القواديس ، ولعبت بقلـوب

==:=

(١) داود : توفي سنة ٩٧٢ ق . م . النبي - عليه السلام - والملك يصعد نسبه الى اسحق بن ابراهيم عليه السلام - كان راعي غنم . يعد من أعظم الأبطال القوميين عند العبرانيين ، يعزى إليه كثير من المزامير ، حول اليهود من الحياة القبلية إلى دولة قومية منظمة .

(صموئيل : ١/ ١٧٠)

(٢) يوسف : يوسف بن يعقوب ، الأثير لديه ، ألقاه أخوته في الجب غيرة منه ، فمرت سيارة فأخرجته من الجب ، وحمل الى مصر ، وبيع لأحد أشرافها ، وراودته زوجة سيده عن نفسه لشدة جماله ، فأبى . وكذلك ورد ذكره وقصته في القرآن الكريم في سورة كاملة .

(سفر التكوين : ٣٠ ، ٣٧ ، ٣٩)

(٣) الأضاة : المستنقع من سيل وغيره .

(القاموس المحيط : ١٦٢٦)

ناظريهما لعب الأماني بالمغاليس، وهما تئنان أنين أهل الأشواق، ويفيضان دمعا أغزر من دموع العشاق، والروض قد حلا للأعين زبرجده، والأصيل قد راقه حسنه فنثر عليه عسجده، والزهر قد نظم جواهره في أجياد الغصون، والسيول قد أزالت من سلاسل فضتها كل مصون، والنبت قد اخضر شاربه وعارضه، وطرف النسيم قد ركضه في ميادين الدهر راكضه، ورضاب الماء قد علا من الطل لمى، وجناة المجارى جائزة تخاف من زمرد النبات أن يدركها العمى، والبحر قد صقل صيقل النسيم درعه، وزعفران العشي قد ألقى في ذيل الجو درعه، فاستحوذ علينا ذلك الموضع استحواذا، وملأ أبصارنا حسنا وقلوبنا التذاذا، وملنا إلى الدولابين شاكين زمرا حتى شجت قيان الطير بألحانها، وشدت على عيدانها، أم ذكرا أيام نعماء وطابا فنفينا عنهما لذيذ الهجوع، ورجعا النوح وأفاضا الدموع، طلباً للرجوع.

:=:

النجم القاضي

وزير صاحب حماة

وشهم : النجم القاضي وزير صاحب حماة : (١)

طلع (في) سماء ملكه نجما بمشكاة، وليس بالسابق ولا بالمقصر علـــى أنه بالسابق كالمبصر، لأنه مثير معانٍ لا يقدر عليها لفظه، ولا يقدر على مناسبتها حفظه.

وقال ابن سعيد : (٢)

وقفت (له) على رسائل في التفضيل أعظم وسائل، ومن فصوله القصار اللفظ الطوال في الاستحسان، قوله :

ولما نزلنا ساحة الرياض، نثرت علينا أغصانها دُرر الأزاهر عن قرى، ومدت لنا مقاطعاتها سنابك فضة ينتشر كفُّ النسيم فيها جوهرا، والأطيار تتخاصم فـــي إكرامنا بكل فن، ويهزُّ من كل قد سبقا نتذكر به سيف بن ذي يزن (٣) والأكؤس تدور، كأنها شموس وبدور، والخدود على غروبها شاهدة، وإن أمست الألسنة بها جامدة.

=:

(١) النجم القاضي صاحب حماة : أبو الفداء توفي سنة ٧٣٢ وهو الملك المؤيد اسماعيل بن علي الأيوبي صاحب حماة، أطلق الملك الناصر يده فيها دون مراقبة، وبالغ الناصر في تكريمه ورفع قدره كان محبا للعلم متمكنا في الفقه والطب والفلسفة، اشهر كتبه "المختصر في اخبار البشر" (سير أعلام النبلاء ١/ ٢٤٨)

(٢) ابن سعيد : هو علي بن موسى بن سعيد المغربي، من ذرية عمّار بن ياسر : مؤرخ أندلسي من الشعراء العلماء بالأدب، نشأ واشتهر بغرناطة وتوفي بتونس سنة ٦٨٥هـ.
(الأعلام : ٥/ ٢٦).

(٣) سيف بن ذي يزن : هو سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن مالك بن زيد الحميري، من ملوك العرب اليمانيين ودهاتهم، ولد ونشأ بصنعاء، وكان الحبش قد ملكوا اليمن في أوائل القرن السادس للميلاد وقتلوا أكثر ملوكها من آل حمير فلم يلتفت اليه، فقصد النعمان بن المنذر فأوصله إلى كسرى أنوشروان، فأعانه ملك الفرس على قتل ملك الحبشه ثم الحقت اليمن ببلاد الفرس على أن يكون ملكها والمتصرف في شؤونها سيف بن ذي، توفي سنة ٥٠ ق.هـ.
(الاعلام ٣/ ١٤٩)

محيي الدين

أبو الفضل عبد الله بن الطاهر بن نشوان السعدي

ومنهم : محي الدين ابو الفضل عبد الله بن الظاهر بن نشوان السّعدي : (١)

آخرسابق أخذ بكل باسق ،سلك الطريقة الفاضلية ،وعهد هابالسالك منذ زمان ،والماسك عليها منذ زمان ،والماسك عليها لا يظفر بأخذ جسمان ،فأحيا مواتها ،وحيّا في لحود الدفاتر أمواتها ، فأعاد فواتها ،وأعاذ من الضلال غواتها بكلام هو السحر إلا أن عنبره أعزُّ وجودا من الحجر المكرم ،كان مطبوع الكلام ،حلو اللمام كالأحلام ،لا يتكلّف له الأسماع ،ولا يتخلّف عن تفضيله الاجماع ،أسرع إلى غرائز الطباع ،من قبول المرآة للانطباع ،وأوصل إلى القلوب من رضى المحبوب ،وأزكى في الهبوب ،من العود المشبوب ، أحلى من العسل المشور (٢)طعما ،وأحلى

=:=

(١) هوالصاحب محي الدين عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدي الموقع كاتب الانشاء بالديار المصرية المعروف بالرّوحي - نسبة الى روح بن زنباع الجذامي ،أما السّعدي فمن سعد بطن من جذام ، ولد سنة ٦٢٠ بالقاهرة وكان من سادات الكتّاب ورؤسائهم وفضلائهم ،وهو صاحب النظم الرائق والنثر الفائق ،توفي سنة ٦٩٢ ودفن بالقرافة بتربته التي أنشأها ،ترجمته في النجوم الزاهرة ٨/ ٣٨ وجاء في الأصل :عبد الله بن طاهر ،وهو خطأ ،والصواب ما أثبتناه ويقول صاحب الوفيات أنه " وضع كثيرا من اصطلاحات الانشاء ،ونظم الديوان وبقيت نظمه واصطلاحاته معمولا بها في مصر والشام إلى أن فتح العثمانيون مصر . (انظر سيرة الملك المنصور لابن عبد الظاهر . المقدمة ص ٩

(٢) العسل المشور : العسل المستخرج من الوقبة .

(القاموس المحيط : ٥٤٠)

من حديث النسيم المشهور عن نُعمى ،كتب عن ملوك مصر ومن حلّ فيها من خلفاء بني العباس بما أنشأعهودا وما أنس عهودا ،وله عن المستنصر (١) والحاكم (٢) ماهو ألذ من الاغفاء في جفن النائم ،وأسير في الأرض (من) قلب الهائم والطير الحائم ،كتب عن الأئمة من قريش ،فكَّ ملمّة كل جيش ،يرويه عهد الخلافة نبويا كما كان يقال لاعهد بمثله من فصاحة المقال ،فكان كاتب الديوان العزيز ،والمنصوب لرفع قدره على رفقته بالتمييز مع اطّراح نفسي ، ولباس ظرف لايدنس ثوبه بلبس ،هذا إلى مالعمن لطائف توليد ،وطائف تخيل ماجاءت القرائح بعده بوليد ،مع رسم خط كأنه من سوالف الغيد ،مختط صدف أن يكون له الدرّ كالصّدف ،وتسامى أن يكون له الزهر أكماما .

ولقد صدق من قال إنه من حب القلوب والحدق ،وماكذب فيما وَشَى ، من قال إنه كحل مقلة الرّشا ،وما أعرف إلا أن لكلامه بالقلب لوطه ،كالانشوطه لايلحق بدخلها ،حتى يغلق عليه مدخلها ،ولا تحتلها إلاو تعلق به جبلها ،وماحالي واياه إلاّ كما قال الأول وكأنما عَنَاهُ ،وماأصيب بسحره ولا شمّ ريّاه : (الصّدر من الطويل والعجز مختـــل)

=:=

(١) المستنصربالله : قويت في أيامه سلطة العلماء فحرّضوه على خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد فخلعها . وكان أول من عدا على أبيه من بني العباس ،ولم تطل مدة خلافته ان بسلـ غت ستة أشهر وأيام ،وقيل مات مسموما بمبضع طبيب في سامراء .
(الأعلام ٧/ ٧٠) .

(٢) الحاكم بأمرالله ابن العزيز ،سادس الخلفاء الفاطميين في مصرولد بالقاهرة وباشرالملك وعمره ١١سنة ،مال الى آراء الاسماعيلية والتنجيم ، وفي سيرته متناقضات عجيبة ، قيل أن أخته ست الملك دست له رجلين اغتالاه واخفيا أثره

(الموسوعة العربية الميسرة : ١/ ٦٨٦)

فإن كان سحرا فاعذرني على الهوى وإن كان ذا غيرة فلكَ العذر (١)

خلا أن نظمه إذا طوّل الخطّ ، تحوّل حتى يقع على محط ، وماذاك إلا أنه كان لكثرة مايتلطّف تتهلهل نسج قصائده ، ويَنْبَتّ سلك فرائده ، والجور إذا زاد في العيوب صار معيباً ، راهنا الوصل ماكان لماما أوراقب رقيبا .

ومن نثره قوله :

يعلم الأمير أن المنكرات التي أبطلنا فواحشها ، وكففنا نواهشها ، وأمرنا أن نملأ الصحاوف بأجرها ونفرغ الصّحاف ، وأن لا يخلوَ بيت من بيوتها من كسر او زحاف ، وقبلنا الحوالة فيها على الكرم المجازي ، واعتقدنا أن تعطيلها يحسمُ مواد المخازي ، وقدبلغنا أنها اختصرت ، وان كلمة الشيطان بالتغويض عنها قدنصرت ، وأن أم الخبائث (٢) ما عقمت ، والجماعة التي كانت ترتضع ثدي الكأس قدرتعت بعدما فطمت ، وأنها في النشأة ماخيّب إبليسُ سعاها ، وأنها لما أخرج المنع ماءها أخرج لها من الحشيش مرعاها ، واستغنت عما يشير به منها بدرهم عما كانت تبتاعه من الخمر بدينار ، واستراحت من الخمر وأسلاها عن مخامرة الخمر ومعاقرة العقار ، وأن ذلك فشا في كثير من الناس حتى عرفت في عيونهم ماعرف من الاحمرار في الكأس وصاروا كأنهم خُشُب مسنّدة سكرا ، وإذا مشوا يُقدّمون من فساد أذهانهم رجْلا ويؤخّرون أخرى ، ونحن نأمر أن تجتثَّ من أصولها وتقتلع ، ويؤدب غارسها حتى يحصد الندامة لما منها زرع ، ويزال مابطن وماظهر ويتزجر من لها اشتهى ومن بها اشتهر ،

=:=

(١) عجز البيت مختل ، مع الاعتراف بذلك بقوله : تتهلهل نسج قصائده .

(٢) أم الخبائث : الخمرة .

وأن تجلى من مغروسها ومعمولها البساتين والديار ،وتعفى آثارها حتى تصبح وهي الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار (١) ،وليرد ع من لهيا تَعَاطَى ، وعلى أجفانها تَوَاطًا ،وتطهر منها المساجد والجوامع ،ويُشهر مستعملها في المحافل والمجامع حتى لا يشتهي بعدها خضراً ولاخضراء الدمن لا يبقى بها ما يبقى بأختها من الهم والحزن .

ومنه قوله:

وسير من الخيول الرّهاوين (٢) كلما هو على الحسن مشتمل ، ومع سرعته يمشي الهوينى كمشي الشّارب الثّمل ،من كل أشقر كأنه النجم السريع السير لا البطيء ، وكل أحمر كأنه الشفق ،وغرته ما يتخلل الشفق من النور المضيء وكل أشهب كالنهار، وما في هذا من سواد ما بداله من أواخر الليل وأوائل العشي وكل أصفر حبشي يحسن أن يكون لركاب المقل خادما وكيف لا وهو الخَصيّ الحبشي ،وسير من البغال كلّ فارهة الوثبة كارهة ألا تكون دون رتبة الجياد في حلبة ،كم قاست بذراعها شقة أرض فعلمت طولها من عرضها ،كم لحقت بمشيها ما تلحقه الجياد بركضها ،كم حسب راكبها من وطء ظهرها أنه من على فرش مرفوعة ،وكم بويع لها بالخلافة عن عن الجهاد المطهّمة (٣) على أنها مخلوعة ،يشهد بتمام حسنها العقل ،ويصدّقه

:=:

(١) إشارة إلى قوله تعالى ((ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار)) .

سورة ابراهيم : آية ٢٦

(٢) الرّهاوين إما أن يكون منسوبا إلى الرّها بالفتح : بطن ،أو الرّها بالضم: مدينة .

(معجم البلدان : ٣/ ١٠٦)

(٣) المطهمة : السمينة الفاحشة السمنة والتام من كل شيء .

(القاموس المحيط : ١٤٦٤)

على ذلك منها صحة النقل ، ماضرَّها هجنة أمها مع أصالة أبيها ، وأمها هجينة (١) ولا شانها ذلك ، والله ساوى بينهما بقوله : ((والخيل والبغال والحمير لتركبوهما وزينة)) (٢)

تسبق الطرف والطرف وعمها خالها وماهي حرف ، ومن الجواش(٣) حسنة التساوي والتسامت ، لا يُرى في خَلْق سمائها من تفاوت ، قد رفع بعضها فوق بعض درجات ، وتنبت أسوارا لحفظ المهجات ، قد زينت سماؤها بزينة الكواكب، (٤) وفاق غمامها المتراكم وراق موجها المتراكب ، كم أحسنت دفاع البوس ، عن النفوس ، عدة دفوع ، وكم حنّت حين حنت أضالعها على الضلوع ، كم دخلت جناتها بسلام ، وكم بدت كأنها طلع نضيد (٥) ولا عجب فإنها ذات الأكمام ، إلى غير ذلك من لباس سلم تختلف ، ولأمات (٦) حرب ما تأتلف بألفات القنا ، ولا يكون منها من اجتماع اللام والألف ، ومن سناقر وتراه كم أحسنت الطلب وأحلّت المكتسب ، وحصلت المسلوب من الطير والسّلب ، وأجملت في الهواء المنقلب ، كلها أصفر عين ، ولكنه خير من العين الأصغر من الذهب كأنما إهابها ببياض العيون وسوادها نقش ، أو كأنها سهرق أبيض رقش ، من يد كاتب مرتعش ، تتزين السماء بسماتها في مطارها ، وكم حكى العنّاب والحشف البالي قلوب الطير رطبا ويابسا لسمعدى!

=:

(١) هجين غير واضح النسب. (القاموس : ١٥٩٩)

(٢) سورة النحل : آية ٨

(٣) الجواشن ، جمع جوشن : وهو الصدر ، والدرع . (القاموس : ١٥٣١)

(٤) إشارة إلى قوله تعالى ((إنّا زيّنّا السماء الدنيا بزينة الكواكب)) الصافات: آية ٦

(٥) نضيد : متراكم ، بعضه فوق بعض . (القاموس : ٤١١)

(٦) لأمات جمع لأمة ؛ واللأمة : أداة الحرب كلها من سيف ودرع وغيرها . (القاموس: ١٤٩٣)

أوكارها (١) ،قدحسنت لباسا وريشا في العيون ،وبدت وأجنحتها أحسن من هدب الجفون ،كم بهاجر قداقفر،وجؤجؤ (٢) قد صفر وأصفر ،ونقش نفيس من الطير عاقد عليه بكفه كل أصفر عين ،وناهيك لمعاقده ذي العين الأصفر ،كم أذن طائر (في) حرورها ،وكم أورد من عتب عن أمورها فاتخذتها هزوا وذلك قلبها .

ومنه قوله .

وكم أصيد من الملوك جعل الصيد بالبنادق له نزهة ،وكم قلّب في السماء لذلك وجهه ، وكم بزربرزة ودت النجوم لوأنها بهنا دقه المرسلة ،وتمنّت الجوزاء لوأنها من جملة أطيارها المحصلة ،وودنهرالمجرّة لوأنه من بعض الأملاق ، وتحسّرت قوس قزح لكونها و مارميت عنها بشبيهتها من ذوات الأطواق ، لاسيّما من حمى البلاد والأقطار ،وكفى الأمة الاسلامية عادية التّتار (٣) ، وأخذكل منتسب إلى بلادهم حتى الطائر في السماء إذا طار .

=:=

(١) اشارة الى قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا   لدى أوكارها العناب والحشف البالي

والحشف : أردأ التمر والضعيف اليابس الفاسد .

(البستان : ١/ ٥١٩)

(٢) جؤجؤ : مجتمع رؤوس عظام الصدر .

(لسان العرب : ١/ ٤٢)

(٣) التّتار : اسم عام يطلق على شعوب اكتسحت أجزاء من آسيا وأور وبا بزعامة المغول في القرن الثالث عشر . ويرجح انهم جاءوا من شرق وسط آسيا أومن وسط سيبريا ، في القرن السادس عشر وصلواالى درجة عالية من الحضارة ، وهم يتكلمون لغة من أصل تركي ، ويعتنق معظمهم الاسلام ، ويؤلفون معظم سكان جمهورية التتار السوفيتيه ، ولكن غالبيتهم يعيشون متفرقين في شرق روسيه وغرب سيبريا .

انظر (الموسوعة العربية الميسرة : ١/ ٤٩٠)

ومنه قوله لمن عاد من غزو النوبة : (١)

وينهي أنه أعين الدوي نائمة المداد قد اكتحلت ، ووجوه الصحف قد برقت أساريرها من آثار المساطر وتهتكت ، وألسنة الأقلام قد تهيأت لما تستنطق به وتبتلت ، وكلها ينتظر ما يمليه مولانا على المملوك مما يطرز به حُلَلَ السيرة الشريفة ويرقمها ، وينضده في جندها من عقود نصرتها التي تنظمها ، وسيملأ بها الهوامش والسطور ، ويزيدها تبيانا فتكون نورا على نور ، وحينئذٍ يكون المداد من جملة أعوان مولانا وأمداده ، ومن بعض نجده على العدو الذي أشبهه بسواده ، ويغدو أبيض الورق على نقيضه في السُّحومة (٢) مستطيلا كبعض أجناده ، والله تعالى لا يعدم الاسلام صبغة الجميل ولا غزواته التي هي تارة في أول الغرات (وتارة) في آخر النيل .

ومنه قوله من كتاب وصف فيه دخول سيس (٣) حتى انتهت إلى أوائل بلاد سيس :

=:=

(١) النّوبة : بلاد واسعة عريضة في جنوب مصر أول بلادهم بعد أسوان .
(معجم البلدان : ٥/ ٣٠٨)

(٢) السحومة السوداء . (القموس : ١٤٤٦)

(٣) سيس: بلاد تفصل بين حلب والروم من جهة الساحل ، وتجاور مدينة المصيصة الواقعة على ساحل بحر الشام ، كما تجاور طرسوس هكذا عرفها ابن خلكان في وفيات الاعيان ١/ ١٢٧ و ٤/ ٢٦٢ .
أمّا ياقوت فقد ذكرها باسم "سيسيه" وقال : عامة أهلها يقولون : "سيس" وأضاف : وهي من أعظم مدن الثغور الشامية بين انطاكية وطرسوس على عين زربة وبها سكن ابن ليون سلطان تلك النواحي .
(معجم البلدان ٣/ ٢٩٧- ٢٩٨) .

وهي اليوم قليلة الأهمية .

وهو أوهى البلاد التي جعلت أسوارها من الجبال الراسية، وخنادقها من الأودية الهاوية، تكاد الطيور المهومة تعثر بأوعارها، والرياح اللواقح تعتلق ذيولهـا بأحجارها، فما ارتاع المسلمون من قُلَلِها (١) الراسخة، ولا لواقح سموم أوعارهـا النافخة، ولا أصدافها الصارخة، ولا تضايق دربنداتها (٢) الملاطخة، وطاروا بأجنحة النصر إلى أوكار تلك الهضاب، وَهَوَوْا إلى بلاد الطاغية التكْفور (٣) هُوِيَّ الأجادل (٤)، وهبوا إليه هبوب الرياح، وانصبوا انصباب السيول من الجنادل، فما تركوا سائمة إلاّ ساموها مرخصين ومرخصين، ولا ماشية إلاّ مَشَوْا إليها متربصين لا متلصّصين، وأخذوا في تشويه وجوه تلك البقاع، وتغيير معالم تلك الأصقاع، لما ضلت منزلة بهم من نازلة ولا صنيعة من صَناع، ولما كان اليوم الفلاني عبّى التكْفور - خذله اللهُ - جندَه، واستنفذ من الاستكثار ماعِنْده، ومَن عنده، وأتى في جموع جُمْلَتهم اثناعَشَر ألفا، ومن الرَّجَّالة له مالايُحصى لهم عَدَدٌ ولا يحوط بكثرتهم أَمَدٌ، فتنازعت إليهم الرّجال، فاندفع اللّعين منهزماً حقيراً، وانقلبَ مذموماً مدحوراً، وَأُخِذ صاحبُ سيس- خذله الله - أسيراً، وقتل أخوه وجماعة من ملوك بيته بسيفِ الهوان وأثر فيهم قران النصر الذي صاحبه - بحمد الله - ملك الزمان، وامتلأت الأرض

=:=

(١) قللها: جبالها. (القاموس: ١٣٥٦)

(٢) دربنداتها: البواب، التجار أوباب الأبواب. (معجم البلدان لياقوت: ٢/ ٤٤٩).

(٣) في الأصل: الكفر، والصواب ماأثبت
وتكفور: من ألقاب ملوك الأرمن. والمقصود هنا هوليفون (ليون) بن الكتفور هيثوم بن قسطنطين بن باسال، واسمه لما ملك ليون الثالث وقد امتد حكمه من سنة ٦٦٩هـ الى سنة (سيرة الملك المنصور: ٣١-٩٢)

(٤) الأجادل جمع أجدل: وهو الصقر. (القاموس المحيط: ١٢٦٠)

بأشلاء أجسادهم الخبيثة ،وأهلكت عساكرهم بهذه الحركات الحثيثة ،وأصبحت ديارُهم خاويةً على عروشها ،وأرواحُهم محمولة من أجسادهم على نعوشِهـــا ، وأجسادُهم وأولادهم في قبضةِ الاسترقاق أُسارى ،وحريمُهم في يد الاستحياء حَيارى ، وأموالُهم تقتسمها الأيدي الزّاهية ،وتغتنمها العزائم العالية ،وأخذ الله حقوقَ المملكة الحَلَبية مِمّنْ أساءَ لها الجِوار ودَلَّ على عوراتِها التّتارَ ،وفرَّ فلن ينفعَه الفرارُ .

ومنه قوله:

وكانت المملكة الحمصية ،عروس الممالك الاســلامية ،وغُرّة في وجه الشام وحصناً كم فاضت نُعماه ،وكم حس ساكنوه بساكن أرضه -رضي الله عنه- حــتى وساكنو حماة (١) .

ومنه قـوله :

من تقليد نائب وكانت دمشق عين الممالك اليمين ،وجبهة البلاد الواضحة الجبين ،قد شرّفها الله بأن جعلها ذات قرار ومعين ،وقد أصبحت شامة فــي وجه الشام ،واخضرّت مراتع مرابعها فبدت كما بدو العارض في سالف الأيــام ،وعدت في هذا الوقت مَنْهَض الجهاد ،ومربَض الآساد ،ومركض الجياد ، ومطلع شمس الظّــفر ، ومهرع الفتح المقتدر، ومكرع النجم المبتدر،وقد أ مست باسمه باسمه الثغور ،وبحكمِه واضحة السفور،وبهناته مامن أحد يسأل عنها وعنه إلا تلا: ((بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)) (٢)

=:=

(١) حماة :مدينة من مدن سوريا ،أهلها متمسكون بالاسلام وتشتهر بنواعيرهــا وكثرة مياهها وينابيعها وأشجارها . (معجم البلدان: ٢/ ٣٠٠)
(٢) سورة سبأ : آية ١٥

ومنه قوله في فتح شقيف أرنون : (١)

[فتح شقيف أرنون]

وحين وصلنا ، وترامى لنا وجهه سافراً وملأ لناظره من مرآه ناظـــرا ، دانينا منه حصناً يعدُّ في أعداد النجوم ، ويجر ذيل ارتفاعه في هام الغيوم ، فهو يسكن من السماء في مناكبها ، ويتصرَّف بتصرفاته قلوب كواكبها ، فيتدرع ويطعن بالسماك الرَّامح ، وينظر بعين الطرف ويبطشُ بيد الذَّابح (٢) ولا يزال يشـربُ من دَمِ معاديه بالكفِّ الخَضيب ، ويرشقُ مراميه من قوس الرامي بسهمٍ مصيبٍ ، إلا أنه كان يمتنعُ من صفد بجارٍ تحير على الأيام ، وصاحبٍ يعتصم بحبله عند تواريــه أيَّ اعتصام ، فكان العدوَّ المخذولُ يصولُ منها بيمين وشمال ، وثبت منها على مركبين مُدنيانِ له من مكانه كلَّ بعيد المنال .

فلما قطعت من معاضده بأخذ صَفَدٍ (٣) تلك اليمين ، وفارقه قرينُه وأشدُّ الآلام مفارقة القرين ، ظهر عليه من وحشة الوحدة من صدع شمله كل الانصداع ،

=:=

(١) شقيف أرنون : بفتح أوله وكسرثانية ثم ياء مثناة من تحت وفاء وبعد الراء الساكنة نون ثم واو سكانة ونون أخرى ، والشقيق كالكهف أضيف إلى أرنون اسم رجل امارومي وإما افرنجي ، وهوقلعة حصنية جدا في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل ، (معجم البلدان ٣ / ٣٥٦ ، وأقول : تقع الآن جنوبي لبنان .

(٢) الذابح : سِمَة ، أو ميسم يَسم على الحلق في عرض العنق ، وسعد الذابح ، كوكبان نيران بينهما قيد ذراع . (القاموس المحيط ٢ / ٢٣٠ باب الذال ط.الرسالة ١٩٥٩

(٣) صفد : قال ياقوت : مدينة في جبال عاملة المطلّة على حمص بالشام : كذا قال وانظر معجم البلدان ٣ / ٤١٢ ولا أدر ، كيف خلط وهو الذي يغلب عليه الاتقان ، وصفد هـي في شمال فلسطين في الجبال المسمّاه بجبال الجليل جنوبي جبال عاملة .

وبقي شمال لا يمين وإنما تبطش اليدان بالاجتماع، وأقام بعدها يتماسك تماسُكَ العليل على مابه من الداء ويقوم على ظَلَعِه قيام الضعيف على الرجل العرجاء، إلا أن فيه من عدو الله (ما) يشد من مُنّتِه، ويحزه باعتصامه ومنعته، فأثبتَ في مستنقع الموت قدماً مجاذباً، ولبس جلد النمر مراشقاً ومُطاعنا ومضاربا، وأعلى حصنه عهدا لا يزول إلا بزواله، ولا ينزل إلا مع أحجاره وإن طالت مدّة نزاله.

فلما رأينا أن معضل دائها لا يُحسَمُ إلّا بالكيّ، وأن مَريد شيطانهم لا يردُّه الإرشاد عن الغَي، وكلنا بها من المجانيق ماينقض العهود، ويفسخ العقود، ويقطع بأسباب اتّصاله بين كل ودود ومودود، فزاحمت بمناكبها، مرتفع مناكبها، ودبت إليه عقارب من جميع جوانبه وساورته من حبالها بأفاعٍ لا تقبل الرُّقى (١)، ولا يُطمعُ مع نفثها في البقاء، ومتى لاقت حصناً وإن تَمَنّعَ مرتفعا غادرته لَقىً، فلم يزل به حتى تركت سليم بنيانه يلسعها غير السليم، وقفت عليه أن يدخل التسليمة كرهاً

[تقليد الأشرف خليل بن المنصور قلاوون]

ومنه قوله من تقليد الأشرف خليل بن المنصور قلاوون (٢)

الحمد لله الذي لم يزل له السمع والطاعة فيما أمر والشكر والرضى فيما

=:=

(١) الرقى جمع رقية: وهي العوذة. (القاموس المحيط: ١٦٦٤)

(٢) خليل بن قلاوون الصالح، أحد سلاطين المماليك في مصر، حارب الصليبيين في الشام، واسترد عكا وصور وصيدا وبيروت وقلعة الروم وبيسان، قتله بعض المماليك غيلة.

(الموسوعة العربية الميسرة: ١/ ٧٦٤)

هدم من الأعمار وما عمر، والتفويض في التقويض إن غابت الشمس وبقي القمر، نحمده على أن جعل سلطاننا ثابتَ الأركان ، نابت الأغصان ، كل روضة من رياضه ذات أفنان ، لا تزعزعه ريح عقيم ولا يخرجه رُزْءٌ (١) عظيم، عن الرضا والتسليم ، ولا ولا يعتبط من جملته كريم، إلاّ ويغتبط من أسرته بكريم، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة تزيد قائلها تفويضا ، وتُجزِلُ له تعويضا، وتُحسن له على الصبر في كل خطب تحريضا، وأشهدُ أن محمدا عبدُه ورسولُهُ ، الذي أَنْزَلَ في تسليته : ((وما محمّد إلاّ رسولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)) (٢) والنبي الذي أوضح الله به المناهجَ والسُّبُلَ . صلى الله عليه وعلى آله ماتجاوبت المحابر والمنابر، وتناوبت البُكَرُ والأُصُلُ ، ومابدت عقود ونظمت، ونسخت آيات وأحكمت، ونقضت أمور وأبرمت، وما عَزَمَت آراء وتوكلت فعزمت، ورضي الله عن أصحابه الذين منهم من كان للخليفة نِعْمَ الخليفة، ومنهم من لم يدرك أحد في تسويد النفس الحصيفة، ولا في تبييض الصحيفة مُدَّهُ ولا نَصِيفَهُ، ومنهم من يسَّره الله لتجهيز جيش العسرة فعرف الله ورسوله معروفَهُ، ومنهم من عمل صالحا أرضى ربَّه فأصلح ذريته الشريفة .

وبعد :

فإن من ألطاف الله بعباده، واكتناف عواصفه ببلاده، أن جعلنا كلّما وَهَى للملك ركن شديد شيّدنا ركناً عِوَضَهُ ، وكلما اعترضت للمقادير جملة بدلنا آية مكان آية ، وتناسينا تجلدا تلك الجملة المعترضة، فلم يحوج اليوم لأسه

=:=

(١) الرزء : المصيبة . (القاموس المحيط : ٥٢)

(٢) سورة آل عمران : آية ١٤٤

ولوكان حميدا ، ولا الفار من غرسه وإن كان ثمرُهُ يانعا وظله مديداً ، فأطلعنا في أفق السلطنة كوكبا سعدا كان بحسن الاستحقاق مُعَداًّ ، ومن التسلي للمسلمين خيراً ثواباً وخيرا مَرَدّاً (١) ، ومن يشرالله به من الأولياء المتقين وينذر به من الأعداء قوما لُدّاً ، ومن لم يبق به أنسنا بعدالذين يحبهم كالسيف فَرْدا ، والذي ماأوص جنده ضريبة إلاّ قدّ البيض والأبدان قدّاً ، ولا جهز راية كتيبة إلا أغنى غناء الذاهبين وعدّ للأعداء عداًّ ، ولا يبغته جَزَعٌ فقال كم من أخٍ لي صالحٍ إلا لقيته ورع وقال وخلقتُ يوم خلقتُ جَلْدا ، وهوالذي بقواعد السلطنة الأدرى وبقوانينها الأعرفُ ، وعلى الأولياء الأعطف ، وبالرّعايا الأرأف ، والذي ماقيل لنا ملك هذا عليه قدوهى إلاّ وقيل هذا بنا مثله أسمى ملك وأشرف ، والذي مابرح النصر يبسم من مهابتّ تأهيله للفلاح ، ويبسم ثغره فتتوسم الثغور من مبسمه النجاح ، وينقسم نورُه على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهوَيَشْرَئِبُّ إلى ملاحظة جبينه الوضاح والذي مابرح يحنّ شعار السّلطنة إلى تَوَقّلِهِ وَتَنَقّلِه أتمّ حنين ، فكأنما كوشفت الامامة العباسية بشرف مسماه فيما تقدم من زمن وسَلَف من حين ، تسمت وسمت باسمه أكابر الملوك وأخاير السلاطين ، فخوطب كل منهم مجازا لاكهذه الحقيقة فخليل أمير المؤمنين ، والذي كم جلا ببهاء جبينه من بهيم ، وكم غدا للملك بحسن رُوائه وبمَنّ آرائه بهيم ، وكم أبر أمور العذب هيم ، عطاش ولا ينكر للخليل أنه قيل عنه ابراهيم ، ومن تشخص الأبصار لكماله يوم ركوبه حسيرة ، ويلقى البنان سلاحها

=:==

(١) إشارة الى قوله تعالى ((ويزيد الله الذين اهتدَوا هُدىً ، والباقيات الصالحات خيرٌ عندربك ثوابا وخير مردّا))

سورة مريم : ٧٦

ذهلا وهي لاتدري لكثرة الإيماء إلى جلاله إذا يبدو مشيرة ،والذي ألهم الله الأمة بجوده وجوده صبرا جميلا ، وأتاهم من نفاسة كرمه وحراسة سيفه وقلمه تأمينا وتأميلا ، وعظمه في العيون والقلوب بما من يده سيكون قسمت إلاأبوه ولدا وسماه الله خليلا ،ولما تحتّم من تفويض أمر الملك ماكان لوقته المعلوم قدتأخر وتحدّر، حينه فكملت بزيادة كزيادة الهلال حتى بادر تمامُه فأبدر .

اقتضى حسن المناسبة لنصائح الجمهور ،والمراقبة لمصالح الأمور ، والمصاقبة (١) لمناجح البلاد والثغور المقاربة من فوائد كل ميسور ، أنْ تُفَوَّضَ إليه ولاية العهد الشريف بالسلطنة الشريفة المعظمة، المكرمة المفخمة ، المنظمة ،وأن تبسطَ يده المنيفة لمصافحتها بالعهود ،وتحكيمها في العساكر وفي الجنود ،وفي البحور والثغور وفي البهائم والنجود ،وأن يغدق بسيفها وقلمها كلَّ قطعٍ ووصلٍ ،وكلَّ فرعٍ وأصل ،وكل نصر ونصل ، وكلما يحمي سرحاً ،ويهمي منحاً ، وفي المثيرات على الأعداء نَقْعاً ،وفي المغيرات صبحا ،وفي المنح والإطلاق ،وفي الإرفاد والارفاق وفي الخميس إذا ساق ،وفي الخمس إذا استاق ،وفي السيوف إذا بلغت التراقيَ وقيل من راق (٢) وفي الرّماح إذا التفت السّاق بالساق ،وفي المعاهدات والهُدَن ،وفي العدا بمن عرض من عرض وبالبدن البدن ،وفيما ظهر من أمور الملك ومابطن ،وفي جميع

=:=

(١) المصاقبة : المواجهة . (القاموس المحيط : ١٣٥)

(٢) إشارة إلى قوله تعالى ((وقيل من راق))

القيامة : ٢٧

ماتستدعي عليه بواعثه في السرّ والعَلَن ، وتسترعيه نوافثه من كسب وكسب متفرقين أو في قَرَن ، عهداً مباركة عوذه وتمائمه ، فواتحه وخواتمه ، ومناسمه ومياسمه ، وشروطه ولوازمه : (الطويل)

على عاتق الملك الأعزّ نجاده   وفي يد جبّار السّموات قائمه (١)

لا راد لحكمه ، ولا ناقض لبَرْمِهِ ، ولا داحض لما أثبتته الأقلام من مكنون علمه ، يزيدُه مرّ الليالي جِدّةً وتقادمُ الأيام حسنَ شباب ، وتلزم السنون والأحقاب ، استيداعه حتى المذراري والأعقاب ، فلا سلطان ذو قدوة وقدرة ، ولا ذو أمرٍ وامرة ، ولا نائب في مملكة قربت أو بعدت ولا مقدّم جيوش أتهمت أو أنجدت ، ولا راعٍ ولا رعيّة ولا ذو حكم في الأمور الشرعية ، ولا قلم انسان ولا قلم سحاب ، ولا ذو أنساب ولا ذو أسباب إلاّ وكلّ داخل في قبول هذا العهد الميمون ، ومتمسك بحكم آيات كتابه المكنون ، والتسليم لِنَصّه الذي شهد به من الملائكة الكرام الكاتبون ، وأمست بيعته بالرضوان محفوفة ، والأعداء يدعونها تضرُّعا وخِيفة (٢) ، وليشكروا أمرها الذي كانت الخلفاء تسلطن الملك قد صار سلطان البسيطة تابع من مولاه العهود خليفة عن ملكه بعد خليفة .

وأما الوصايا فانت ياولدنا الملك الأشرف أعزالله بها الدرب وبسماع شذورها وخدورها الطرب ، الذي للغو لا يضطرب ، فعليك بتقوى الله فانها

==:=

(١) القائل المتنبي ، وانظر ديوانه ٢٥٦٠

(٢) إشارة إلى قوله تعالى ((ادعوا ربكم تضرعا وخيفة إنه لا يحب المعتدين))
(سورة الأعراف : آية : ٥٥)

ملاك سدادك ،وهلال أضدادك ،وبها يراش (١) جناح نجاحك ، ويحسنُ اقتداء اقتداحك ،فاجعلها دفين جوانح تأمُّلك ووعيك ،ونصب عيني أمرك ونهيك ،والشرع الشريف فهو قانون الحق المتبع ،ومأمون الأمر المستمع ،وعليه مدار كل ايعاز ،وبه يتمسك من يمتار ويمتاز ،وهو جنة والباطل نار ((فمن زُحزح عن النّار وأُدخلَ الجنّة فقد فاز)) (٢)

فلا تخرج في كل حال عن لوازمه وشروطه ،ولا تنكب عن تعلّقه ومنوطه والعدل فهو مقر غروس الأموال ،ومعمر بيوت الرجاء والرجال ،وأفضل مواسم مواسمك ،وسُمْ به فعلك ، وسم به فرضك ونَفْلَك ،ولا تفرد به فلانًا دون فلان ، ولا مكانا دون مكان ،واقرنه بالفضل ،إن الله يأمر بالعدل والاحسان (٣) وأحسن التأويل ،وأجمل التنويل ، وأكثر لمن حولك التأمين والتأميل ،والتمرين والتمويل، وضاعف الخير لكل مضاف لمقامك ،ومستضيف بانعامك ،حتى لا يعدم في كل مكان وكل زمان من النعماء ضيافة الخليل والثغور فهي للممالك مباسمها وللمسالك مناسمها ،فاجعل نواجذها تفترّعن أحسن ثنايا الصّون ،ومرا شفها شنبه (٤) الشفاه بحسن العون ،ومُنّها بمايحمي السرح منها ،وأَعِنْها بمايدفع المكاره عنها ، فإنها للنصر مقاعد ، وبها حفظ البلاد من كل مارد ،وأمراء الجيوش فهم السور المواقي بين يدي كل سور ، ومامنهم إلا بطل بالنصر مشهور كما (أن) سبقه مشهور ، وهم

=:=

(١) يراش : يلصق عليه الريش. (القاموس المحيط: ٧٦٧)

(٢)سورة آل عمران :آية ١٨٥

(٣) اشارة الى قوله تعالى ((إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكروالبغي يعظكم لعلكم تذكرون)) (سورة النحل : آية ٩٠)

(٤)الشنبه : جمال الثغر وصفاء الأسنان . (القاموس المحيط : ١٣٢)

ذخائر الملوك ، وجواهر السلوك ، وأخاير الأكابر الذين خلصوا من السلوك ، وما منهم إلاّ من له حرمات سلفت ، وحقوق عرفت ، ومواث على استلزامه الرعايا بالعهود وقفت ، فكن بحبوهم متحيّنا ، ولمرابعهم مخصبا ، ولمصالحهم مرتبا ، ولارادتهم مسبوقا ، وللاعتضاد بهم مستصحبا ، وفي حمدهم مُطْنبا ، وفي شكرهم مسهبا ، والأولياء المنصورون الذين هم كالأولاد ، ولهم سوابق أمت من سوابق الأنجاد ، وهم من علمت استكانة من قربنا ، ومكانة من قلبنا ، وهم الساهرون فيما ناب، وما بَرِحوا للدولة الظفر والناب ، فإنهم لكل منهم من احترامك نصيبا ، واجعل صدرك لهم رحيبا ، وأدم لهم ارتياحك ، وألِنْ جناحك ، وقوّ بهم سلاحك ، تجد منهم ضروبا ، لا ينفك كلٌّ منهم في الأعداء ضَروباً .

وكما نوصيك بجيوش الاسلام ، كذلك نوصيك بالجيش الذي له المنشآت في البحر كالأعلام (١) ، فهو جيش الأمواج ، المضاف الى الأفواج ، من جش الفِجاج وهو آخر الجيش السليماني في أسرع السير ، وماسُمّيت مراكبه غِرباناً إلا ليجتمع بها لنا ماجُمع لسليمان صلى الله عليه وسلم من تسخير الريح والطير ، وهي في الديار المصرية في ثبج (٢) البحر كالأسوار ، فإن قدفت قدفت الرعب في قلوب الأعداء وان قلعت قلعت منهم الآثار ، فلا تُخْلِهِ من تجهيز جيشه وسكن طيش البحر بطيشه ،

=:=

(١) إشارة إلى قوله تعالى ((وله المنشآت في البحر كالأعلام))
سورة الرحمن: ٢٤

(٢) ثبج : وسط .

(القاموس: ٢٣٢)

ليصبح لك منها جيشان ،كلّ منهما ذو كرٍّ وفرٍّ ،وهذا في برٍّ وبحرٍ . وهذا في بربحوه وبيوت العبادات فهي التي مصلى سَمِيّك خليل الله تنتهي محاريبها وبها لنا ولك وللمسلمين سوى الدعوات وبأوسها (١) فوقها نصيبها المفروض غير منقوص ، ومرد رفعتها وذكر اسم الله بها حسب الأمر المنصوص ،واخواتها من بيوت الأموال الواجبات الواجدات من حيث أنها كلّها بيوت لله هذه للصلاة وهذه للصّلات ،وهذه كهذه في رفع المنار ،وجمع المبار ،واذا كانت تلك مما أذن الله أن يذكر ويرفع فيها اسمه (٢) فهذه ترفع ويذكر فيها اسمه على الدرهم والدينار ،اصرف إليها اجتهادك فيما يعود بالتثمير ،كما يعود على تلك بالتنوير، وعلى هذه بأشجانها بأنواع الصروف ،كأشجان تلك باستواء الصفوف ،فإنها اذا أصبحت مصونة ،... أجملت بحمد الله المعونة ،وكفلت بالمؤونة ،وان كثرت بالزيادة على المؤونة ،فتكمل هذه لكل ولي دنيا كما كملت تلك لكل دينه .

وحدود الله فلا يتعداها أحد ،ولا يرأف بها ولد بوالد ولا والد بولد ، فأقمها وقم في أمرها حتى ينضبط أتمّ الضبط ،ولا تجعل يد العامل مغلولة إلى عنقها ولا تبسطها كلّ البسط (٣) ،فلكل من الجنايات والقصاص شرط ،شرطه الله وحده فلا يتجاوزوا حدّ ذالك الحدّ ،ولا يخرج ذلك الشرط والجهاد فهو الدّيدان المألوف من حيث نشأتنا ونشأتك في بطون الأرض وعلى ظهور الخيل ، فمِلْ على الأعداء كلّ الميل ، وصبّحهم من كل فتكاتك بالويل بعد الويل ،وارمِهم

=:=

(١) أوسها :عطيتها . (القاموس المحيط : ٦٨٤)

(٢) اشارة الى قوله تعالى ((في بيوت أذن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال)) سورة النور : ٣٦

(٣) الاسراء : آية ٢٩

بكل شَمّريٍّ (١) قد شمّر من يده عن الساعد ، ومن رمحه عن السّاق ، ومن جواده عن الذيل ، واذهب بهم في ذلك كل مذهب ، وأثر بنجوم الخِرْصان (٢) كلّ غيٍّ وغيهبٍ وتكثّرْ من الليل بكل أدهم ومن الشفق بكل أحمر وأشقر ، ومن الأصيل بكل أصفر ، ومن الصبح بكل أشهب ، واستنهب أعمارهم واجعلها آخر مايُسلب وأول مايُنهب .

ونرجو أن الله قد خبأ لك من الفتوحات مايستنجزها لك صادق وعـــد ، وأن ينصرك جيوش الاسلام في كل أنجاد وأتهام وماالنصر إلا من عند الله (٣) ، وبيت الله المحجوج من كل فج ، المقصود من كل لهج ، يسّرْ سبيله ، ووسع الخير وأحسن تسبيله ، وأوصل من نزل لكل من الحرمين ماهو له تصبح ربوعه بذلـــك مأهوله ، واحمِ ممن يُرِدْ فيه بإلحاد بظلم ، وطَهِّره من كل مَكْسٍ وغُرْم ليعود نفعك على البادي والعاكف ، ويصبح واديه وناديه مستغنيا بذلك عن السحاب الواكف ، والرعايا فهم للعدل زروع ، وللاستثمار فروع ، ولاستتمام العمارة مشروع ، فمتى جادهم غيث أعجب الزّراع نباتهم ، وتمت بالصلاح أقواتهم ، وصلحت بالنما ء أوقاتهم ، وكثرت للجند مستغلاّتهم ، وتوفرت زكاتهم ، وتنوّرت مِشكاتُهم ، والله يضاعف لمن يشا ء .

=:=

(١) الشمري : الماضي المجرب . (القاموس : ٥٣٨)

(٢) الخرصان : تقدير الشيء بالظن . يقال خرص النخل والكرم : حزر ماعليه من الرطب تمرا ومن العنب زبيبا . (القاموس : ٧٩٥)

(٣) اشارة إلى قوله تعالى ((وما جعله الله إلا بُشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وماالنصر إلا من عند الله العزيز الحكيم))

سورة آل عمران : آية ١٢٦

هذا عهدنا للسيد الأجل الولد الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين فخر الملوك والسلاطين خليل أمير المؤمنين أعزّنا الله ببقائه فليكن بعروته متمسكا بنفحته وليتقلد سيف هذا التقليد ويفتح مغلق كل فتح منه بخير إقليد ،وها نحن قدكثرنا لديه جواهره فدونه مايشاء من تتويج مفرق وتختمّ أنامل وتسوير زَنْدٍ وتطويق جيد في كل تحيل وتحيد ، والله يجعل استخلافه هذا للمتقين إماما ،وللمعتدين انفطاما ،ويطفئ بنار سيوفه نار كل خطب حتى تصبح كما أصبحت نار سميّه (١) صلى الله عليه و سلم برداً وسلاما .

ومنه منشور الملك الناصر في حياة والده المنصور ولم يكتب به الحمدلله الذي زين سماء الملك بأنوار كوكب بزغ ،وأعز ملكه نبغ ،وأشرف سلطان بلغ ،إلى مابلغه ذووالاكتهال من شرف الجلال ،ومابلغ بحمده حمد به النعماء وتنهى وتعمل الآلاء وتمحى .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصة من كل ريب ،رافضة كل عيب ،شاخصة بها الأبصار إلى عالم كل شهادة وكل غيب ،ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعثه الله بمكارم الأخلاق ،ومكاره ذوي النفاق ، وساوى به بين الكبير والصغير من أولي الاستحقاق في الإرفاد والإرفاق ،صلى الله عليه وعلى آله مارقّ نسيم وراق ،ومانطَقَتْ وُرْق (٢) وماخُصفت أوراق .

وبعد فإن الهواتف أبين ماتشدوا إذا حُفّت الرياض بها من كل جانب،

=:=

(١) المقصود بالسمّي : ابراهيم عليه السلام .

(٢) الورق : الحمام ،واحدتها ورقاء . (القاموس المحيط : ١١٩٨)

والسماء أحسن ماتبدو إذا تزيّنت بالكواكب السيّارة والشهب الثواقب ،والسعادة أجمل ماتجدو إذا خصصت من إليه تُشدّ الركائب وعليه إلا ماتثني الحقائــق والحقائب ،ومن هو للملك فِلْذَةُ كَبِدِهِ ،ونور مقلته وساعدِيَدِهِ ،ومن ينتمي للسلطنة بملا حظة جبينه الوضيء ،ويستنير بلألاء نوره المضيء ، ومن تغضب الدنيا لغضبه وترضى إذا رضي ،ومن نشأ في روض الملك من خير أصل زكي ،وفاحت أزاهــره بأعطر نفح أرجٍ وأطيب نَشْرٍ زكي ،وطلع في سماء السلطنة نجما ما للنَّيِّرين مالـه من الإضاءة، ويزيد عليها بحسن الوَضاءة،ومن تشوّقَ النصرُ النصر له من مهـده ، وتشوق الظفر إلى أن يكون من جنده ،واستبشرت السلطنة بأن صار لها منه فَـرْع باسق ،وعقد متناسق ،وزَنْد وارٍ وجناح وارف ، وفخار تليد ومجد طـصارف و مِطْرَفانِ مُعلمانِ تتزين بنشرهما المطارف .

ولهذه الدواعي المجتمعة ،وهذه المحاسن التي تشرئِبُّ إلى قصدهـا آمال الخلائق المنتجعة ،اقتضى حسن البرالوصول ،وشرف الاقبال والقبول ،إلـى أن خرج الأمر الشريف لابرحت مراسمه مُتَزَيِّنَةً بزينة السّماء بكواكبها ،ومزاحمة سَمْك السِّماك بمناكبها ،أن يجري في ديوان الجناب العالي الولدي الملكي الناصري منشور موسى ابن الملك الصالح .

[منشور موسى ابن الملك الصالح]

الحمدلله الذي ابتلى وسلّى وأخذ وخلّى ،وهدم وعلا ،ومرر وحلاّ ،

وعطّل وحَلا ،نحمده على نعماءٍ بأملائها تتملى ،ونشكره شكرا يورد المحامد منه فضلا وعُلا ،ونشهد أن لا اله إلاّ الله وحده لا شريك له شهادة لا تنسى بلاّ ، ولا تزال ترقب بها ذمة وإلاًّ (١) ،ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي زاده الله من الهدى محلا ورفع محلاً ،صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تتوالى ولا تتولى ، وتحمل الموازين لِكَنّها كَلالا يقال معه كلا .

وبعد ،فإن من حكمة الله تعالى انها إذا نسخت آية أحكمت أخرى ، وإذا أرادت ذخرا ردت ذخرا ،وإذا نسف الحزن كثبان التَّسَلّي وهالهـا وأفرغ أحلام العقول وهالها ،وغيب شمساً أبقى بدرا ،فله الحكم في الأمرين وفي الشكرين وفي اليسرين ((إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا ،إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً)) (٢)

ولما تمّ قضاء الله ونفذ ،أحسن بابقاء بقية صالحه صالحية إذا أخذوا ذلك ينمو هلال ينهب بحسن مرآه عيون الأهلّة ،وتعوّذه الخلائق من شركل طارق بالله ونقول: الملا عند نفوس أشبه الصفات من والده المرحوم منه وصدق .

ومنه ماكتب إلى تاج الدين أحمد بن سعيد ابن الأثير التنوخي (٣)من حلب رحمهما الله تعالى :

==:=

(١) إشارة إلى قوله تعالى ((لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمّة ،وأولئك هم المعتدون))
التوبة : ١٠

(٢) الإنشراح : آية ٥ - ٦

(٣) هوأحمد بن سعيد بن محمد الصاحب تاج الدين بن شرف الدين بن شمس الدين بن الأثير الحلبي الموقع، وأولابن الأثيرهؤلاء غيربني الأثير الموصليين ،باشرالانشاء بدمشق ،ثم بمصر للظاهربيبرس، ثم المنصورقلاوون ، مات بغزة ذاهبا إلى القاهرة سنة إحدى وتسعين وستمائة . (الدليل الشافي لابن تغري بردي : ١/ ٤٧)

يُقبّل اليد الناجية ، لازالت تؤنس الغريب بجود كرمها ، والبعيد باجادة قلمها ، ولاعدمت الأولياء إدامةَ جودها ولا جود دِيَمها ، وينهي بأسفه على وقت طالما مامر في استجلاء كريم المؤانسة ، واستجلاء عرائس المشاهدة الآنسة وإنه لا يقف بحلب المحروسة على رَبْعٍ إلاّ ويقول هذا كان رَبْع الحبيب ، وبه كانت الأوقات تَعْذُب والتنزُّهُ يطيب ، وهذا ماكنا نلتذ بسماع أخباره فدكثر التذاذنا منه بالنظر ، وهذه العراص التي كانت السعادة تلحظها وان السعادةَ لتلحظُ الحَجَر (الكامل) :

زمَنٌ تكاثرت الهمومُ عليَّ في عَرَصَاتها كتكاثر اللُّــوّام
وكأنَّ كلَّ سحابة عرضت بها تبكي بعيني عُرْوَةَ بن حِزَام (١)

ورأى من توشيع الربيع خلال تأثير أرجل المعاول ماأوجب انصاته بحديث الربوع ولاشيء أشجى من حديث المنازل : (الوافر)

أسائِلها عن الندى ربها فلا تَدْري ولا تُذْري دموعا

وشاهد ديار علوة ، وقيل هذه حلب التي أخنى عليها الزمان فماأبقى إلاّ الرغوة : (الطويل)

أناف بها مافي الفؤاد من الصّلى وربعٌ كجسمي ناحلٌ متهدّم

=:=

(١) عروة بن حزام : من عذرة ، قتله عشق ابنة عمه عفراء بنت مهاجر ، تربّى يتيماً في حجر عمه فعلق بعفراء طلب الزواج من عمه فسوفه ، وتزوجها ابن عم آخر من البلقاء . وقال فيها :
واني لتعروني لذكراك هزة لها بين جلدي والعظام دبيب
فماهو إلاّ أراها فجاءة فأبهت حتى ماأكاد أجيب
(إكمال تحفة الألباب في شرح الأنساب للشنقيطي : ٣ / ٢٦٥) .

وتأسف على الشهباء (١) كونها قطعتها عن مداها الجنائب ،واسترقها حتى لم يَرُضْ صَهْوَتها راكب : (البسيط)

هي المنازلُ لي فيها علا ماتُ ... من بعد سُكّانها أهل العلى ماتوا

وبالله لقد استراح مولانا من سؤال مالا يَرُدّ جوابا من تلك الطُّلُولِ ،وأرواح قلبه من الأسف وجفنَه من الهُمول ،ووفر على لحظه تلك المعافر والمعامر جسر الذيول : (الوافر)

لنا ولأهلها أبداً قلوب ... تلاقي في جسوم ماتُلاقي

ولاحزنه فيها ماأحزن الأول من وقوفه على ربوع نشأت ،ولقال ترى منازلة الدهر لهذه المنازل العارة من جملة الأضغاث ،ولاتَشْدُ في ذلك بمابه يُسْتَشهد : (الطويل)

فَدَيْناك من رَبْعٍ وإن زِدْتَنا كَرْبا ... فإنّك كنت الشَّرْق للشمس والغَرْبا (٢)

وبالله أقسم أن مولانا معذور في مغالاته بوصفها ،وأنّها مُماتوصَفُ به لأكثرَ وأشهرَ ،وأبهى وأبْهَر ،وأنوى وأنْوَرَ ،وأزهى وأزْهَرَ ،وأبدى وأبْدَر ، وأندى وأنْذَر وأين هي وبناؤها بأبياتها يزهو ،وأغنيتها نفساً بها تلهو،وأين هي الآن ،وقول المَنازِي (٣) فيها (الوافر)

=:=

(١) الشهباء : البيضاء يصدعه سواد . (القاموس : ٣٢)

(٢) القائل المتنبي : انظر ديوانه : ١٥٩

(٣) جاء في الأصل : المناوي ،وهو خطأ ،والصواب ماأثبت ،وهو أبونصر أحمد بن يوسف المنازي من أهل منازجرد

وانظر السير ١٧/ ٥٨٤ وفيه عزو إلى مصادر أخرى .

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ	وَقاه مُضاعَف النَّبْتِ العَميم
حَلَلْنا دَوْحَهُ فَحَنَى علينا	حُنُوَّ المُرضِعاتِ على الفَطيم
وأرْشَفنا على ظَمَأٍ زُلالاً	أرَقَّ من المُدامَةِ للنَّديم
يُراعِي الشَّمسَ أنّى واجهتنا	فيَحْجِبها ويأذَنُ للنَّسيم
يروعُ حصاه حالِيَةَ العذارى	فتلْمَسُ جانبَ العِقْدِ النَّظيم

ذهبت حشيها ذهبنا ، ودرجت دُراً وفضة في الغضاء لا سيّما حين تخت اولو الفضائل العلائية ، وتنفّست أنوار صبح المعارف الفتوحية ، وكل أرض بها أرضي للمجتلى والمجتنى والمجتبى بتلك البطاح ، . رأى شفاء يشفي العلة مشافهة شِفاهِ تلك الأودية المفترة عن ثغور الأقاح ، التي نسبها الصُّراح ، الماء القَرَاح ، حيث تأتي الأفنانُ بأحسن الفنون ، ويتم التَّفَكُّه بما اقسمَ الله به في المخلوقات من التين والزيتون ، ثم يعود إلى إدمان النَّوح في الدمن وعلى تلك المنارة التي كانت شامَةً في وجه الشام ، فأصبحت زَمِنَة في أعضاء الزَّمن ، ويندب أعظم من دِمْنةِ أم أوْفى (١) التي ما تَكَلَّمَت ولا ترد الجواب ، بل تسير بأغرب مجنونين الربيب والرباب : (الطويل)

مَلَلْتُ بها رُدْني والغَيْمُ مُسْعِدِي	وعَبْرَتُهُ صِرْفٌ وفي عَبْرتي دَمُ

=:=

(١) اشارة إلى أم أوفى في بيت زهير بن أبي سلمى .

أمِن أم أوفى دِمنة لم تكلم	بحومانة الدّراج فالمتثلم

وأم أوفى : امرأة من بني أسد كانت تحت زهير صاحب المعلقة المشهورة ، فغارت على زوجته الثانية أم كعب وبحير فغضب زهير وطلقها فندم . (البيان والتبيين : ٢ / ٩٥)

بل بكاء من وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل ونادى

بواديها بعد مبتديها باديا أكثر مما نادى نوح ابنه وكان في معزلٍ (١)، فما

الموت على سؤاله ، ولا أنهت لو قوفه عليها أصيلا له فاها لها مناره منازل كانت

أَنْزَهَ من شِعْب بَوّان (٢)، لا بل أحضر من قصر غُمدان (٣)، وحمداً لها من مجاري

سيول أبقى لها أحسن المرابع جودُ بني حمدان (٤)، وشكر لها من مواطن مواطر

=:=

(١) اشارة إلى قوله تعالى ((وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يابني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين)) .
(سورة هود : آية ٤٢)

(٢) شعب بوان : بأرض فارس بين أرجان والنهيند جان ، وهو أحد متنزهات الدنيا ، قال المسعودي : انهم ولد بوّان بن ايران من الاسود بن سام بن نوح عليه السلام ، وبوّان هذا اينسب اليه شعب بوان من أرض فارس، كثير الاشجار متدفق المياه وكثرة الأطيار وقال بعضهم: جنان الدنيا أربعة مواضع: غوطة دمشق وصغد سمرقند وشعب بوان ونهر الأبلة .
(معجم البلدان لياقوت الحموي : ١/ ٥٠٣) .

(٣) قصر غمدان : إنه غشاء لما دونه من المقاصير والأبنية: إن ليشرح بن يحصب أراد اتخاذ قصر بين صنعاء وطيوة فأحضر البنائين والمقدرين لذلك فعمدوا الخيط ليقدروه فانقضت على الخيط حدأة فذهبت به فاتبعوه حتى ألقته في موضع غمدان فقال ليشرح : ابنوا القصر في هذا المكان ، فبني هناك على أربعة أوجه : أبيض وأحمر وأصفر وأخضر ، وكان ظله إذا اطلعت الشمس يرى على عينان وبينهما ثلاثة أميال ، وسقفه رخامة واحدة ، على أركانه أسود حجرية ومصابيح تسرج ليلا فكأن القصر برق يلمع.
(معجم البلدان لياقوت : ٤/ ٢١٠)

(٤) بنو حمدان : نسبة إلى (حميدان بن جواس العقيلي) ، كان واليا على دمشق ، كان تحت حكم قسام ، وحدث بينهما خلاف أدى إلى طرد حميدان من دمشق .
(اتعاظ الحنفا : ١/ ٢٤٩) و(الخطط للمقريزي)

آل مرداس (١) ، ومرابع أنشد حالها المحاكي إلا هكذا فليَصنع الناسُ مع الناس ، ولقد وقف المملوك بها وقوف من سمح بدمعه بتلك الرّحاب ، لا وقوف شحيح ضاع خاتمه في التراب ، وكيف يوسف بالشح العقد ، ومن جاد بنفسه وأذهبها عليها حَسَرات : (البسيط)

. . . . والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

ثم يأخذ المملوك غير هذا المذهب ويختصر جملاً من تفاصيل حاله ، وكان من واجب أن يُسهب ، ويقتصر على مايشرحه من تطوافه في كل دارٍ بها فوجدها خاوية على عروشها ، وسوقه بكل سوق سأل عنها فإذا حارها قد قمر به الليالي يستبشرها ، ولا يسأل سيدنا عن ثلوج شابت بها مفارق الجبال ، وابيضّت أعينها من الحزن على من شركها لمصابه بنبال الويل المفضي به إلى الوبال ، حتى قيل إن هذا إزباد البحار صعدت ثم انحطّت ، بل هذه الأرض قد استحييت من مواقعة الحيا فلَقَتْ وجوهها حياء وتغطّت ، كم أضحت الطرق ببياضها سوداء وكم أجرت عيون الدموع وأخمدت عيون الجواري من الماء حتى أعوزت الأقوات سامها وأعوزت الأوقات مقدامها ، وعذر كلّ أبا الطيب في هجاية الثلوج ، لكونها منعت الرّقيّ مهره ، وحبست عن المرتع والمربع حجره ، إلى غير ذلك من أمطار لم يحم منها الخزائن والمجالس ، فما ظنّك ببال البرانس (٢)

=:=

(١) آل مرداس : مراد صغير منسوب : جد ، بنوه بطن من بني عوف بن سليم ، من العدنانيين ، وكانت مساكنهم بين قابس وبلد العناب في المغرب . (الأعلام للزركلي : ٧ / ٢٠٢)

(٢) البرانس ، جمع برنس : قلنسوة طويلة ، أو كل ثوب رأسه منه .
(القاموس المحيط : ٦٨٥)

والطيالس (١) والقلانس قد عدمت الأرض بهاماً كانت توصف به من الجَلَد ، وعادت إلى ما كانت عليه من ماء جمد ، حتى لقد تسبب من الاستكنان النفس ، وعادت وجوه الرجال كوجوه ربّات الحجال لا تبصرها الشمس والغمام وإن كانت بغير ذي طلوع قد سبقت لكن بأفواه القِرَب ، وحسبت كل خيمة منها أنها قنطرة بين أهلها وبين نجار السحائب جسر لكنه من خشب ، أصبحت لها من متجمّد البرد المتواصل أطناباً ممتدة ، وكاد كلّ من اجرائها هَرَباً من بين يدي الرياح ، كما يقال : انقطع من كمسها العدة كم جمع كل منها أشتاتا فقال أكثر ماحسبت وكم أقعد العاصف منها قد بها كان قد وقف و ما وقف له بشيء قد وقفت قد فتحت سماؤها فكانت أبوابا ، وسيّرت جبالها فكانت سرابا (٢) ، كم عشنا بها عند قعاقع الرعود بالتسبيح ، وكم وثقنا بثباتها كحملات الهوج و وثباتها فجبنت و لم تتسلق الريح ، وكم وكم يُحدّث عن البحر ولا حرج ، وأنت لكثرة أهوال الهواء إن يصلح الكتابة فكم دَرَج من عشها درج ، وصار السكن تحت جناحها من دلف الأمطار لا فرق عنده إن دخل فيها أو خَرَج ، وضعفت قواها عن الامتساك وكيف لا وقد أضحت مجلولة السُّرُج وجرت لحنى الأنهار وإن كنا في غير جنّات وقطع الريح تواريها .

ومن أمثال العوامّ : من قطعت توازيره مات ، وأنا بحمد الله في كل مدينة برد يلبس بُرْدَه منضد في أعناقنا من البرد ، عقده نتمتع به في عنفوان شبابه

=:=

(١) الطيالس وطيلسان : ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف ، أو يحيط بالبدن خال من التفصيل والخياطة . واللفظ فارسي معرب : تالسان أو تالشان وذكر صاحب القاموس أن لام الطيلسان مثلثة . (المعجم الوسيط : ٥٦١)

(٢) إشارة إلى قوله تعالى ((وفتحت السماء فكانت أبوابا وسيّرت الجبال فكانت سرابا)) (النبأ : ١٩ - ٢٠)

ونستقبله في أوله ونودعه عند ذهابه ،وكلما تمادى المسير ساء المصير ،وقيل لنا اذ يسرق بعض دفء من الشمس أيتها العير ،والحبل على الجرّار ،وما كلّ جبّ(١) فيه يوسف ويلتقطه بعض السيارة .

فأجاب تاج الدين ابن الأثير :

يقبل اليد المحبوبه والمجتوية ، إلى كل ماقبله المحتوية على الكرم الذي هو للكرام قِبْلَةٌ لازالت مخصوصةً بفضيلة الاعجاز والبلاغة التي كل حقيقة لديها مجاز ، والإحسان بإحسان الذي بطن الاطناب والإسهاب في شكره وذكره من الايجاز .

وينهي ورود مُشَرِّفته التي أخذت البلاغة زخرفها ، وأشبهت الروضَ الأُنُف منها أحرفها ،وأبانت عن معجزات البراعة ،ومثلث له السحر كيف نفث في تلك البراعة ،وأبانت مجازي فضله عن مثل الجمر ،وأفردته بالرتبة التي لا يدّعيها زيد ولاعمرو ،وعلمته كيف يكون الانشاء ((أن الفضل بيدالله يؤتيه من يشاء)) (١) .

فوقف الملوك عليها وقوف من أقحمه الحَصَرُ،وتطاولَ لعباراته فيهـــا ولم يطل من باعه قِصَر ، واستقدم قلمه لجوابها فأحجم ،واستنطق جوابَـه ليُعرِب عن وصفها فأحجم ،وقال لحسنها الذي استرق القلوب ملكتَ فأسجِحْ ، وبلغ الغاية عذر نفسه المقصّرة : (الطويل)

. . . . وَمُبْلِغُ نفسٍ عُذْرَها مثل مُنْجِـــحِ(٣)

=:=

(١) الجب: البئر . (القاموس المحيط : ٨٢)

(٢) إشارة إلى قوله تعالى ((. . . . .قل إنّ الفضل بيدالله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم)) آل عمران : آية ٧٣

(٣) القائل عروة بن الورد

ومن أين لأحدٍ مثل تلك البديهة المسرعة والرَّويَّة التي هي عن الكلمات الخبيثة متورِّعة ، والمعاني التي تتولّد منها أبكارا ، والغرائب التي لا يقتبل الدر من بحارها إلاكباراً ، والخاطر الذي يستخذي الفضلاء من سماحته ، واللســـان الذي تخرس الفصحاء عند فصاحته والقلم الذي هو مفتاح الأقاليم ، والطريق الذي (من سلك) فيه ضل ولو أنه عبدالحميد وابن العميد (١) وعبدالرحيم (٢) ، والألفاظ التي تسرق بها أنوار المعاني فكأنما (هي) الليلة المقمرة ، واليد التي إن لم (تسر) الأقلام بها مورقة فهي مثمرة ، ومولانا حرس الله مجده قد أوتي ملك البيان ، واجتمع له طاعة القلم واللسان ، فخُطَبُ الأقلام تَحْمَدُه على منابر الأمل وقـــد أخذت له البيعة بالتقدم على كل فاضل ولو كان الفاضل ، وأصبح محلّه منها الأسنى وأسماؤه فيها الجُمل الحسنى ، وجاء من المحاسن كَلِماً تُزْهى به الدولُ ، وأضحت طريقته في الفنون كَمِلَّةِ الاسلام في الملل ، ويحرف الاشارة في حلب (٣) وما صنعت فيها الأيام ، وما أشجاه من رَبْعِها الذي لم يبق فيه بَشَاشَتَهُ تسام ، ووقوف مولانا في أطلالها وملاحظة الآثار التي أَعرضت السَّعادةُ عنها بعد إقبالها ، وتفجّعه في دِمَنِها وتوجُّعها لتلك المحاسن التي (أُخذت) منها ، وأنه وجدها وقد حلّت

= = : =

(١) ابن العميد : هو علي بن محمد بن الحسين ، أبو الفتح بن العميد ، وزير من الكتاب الشعراء ، يلقب بذي الكفايتين ، قتله مؤيد الدولة البويهي سنة ٣٦٦هـ . (الاعلام: ٤/ ٣٢٥) .

(٢) عبد الرحيم : هو عبد الرحيم بن ليلى بن السعيد اللخمي وزير من أئمة الكتاب كان من وزراء صلاح الدين . توفي سنة ٢٩٦هـ . (ابن خلكان ج: ٣/ ١٥٨١) .

(٣) حلب : مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة الأديم والماء ، وهي قصبة جند قنسرين في أيامنا هذه ، تكلم أهلها العربية فيقولون حلب اذ احلب ابراهيم عليه السلام ، طول مدينة حلب تسع وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة داخلة في الاقليم الرابع . العماليق بنوا حلب وجعلوها حصنا لأنفسهم وأموالهم . وهي مسورة بحجر أبيض وفيه ستة أبواب وفي جانب السور قلعة في أعلاها مسجد وكنيستان ، وفي أسفل القلعة مغارة وهي مقام ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام .
(معجم البلدان لياقوت ٢/ ٢٨٢- ٢٩٠) .

عِراصَها (١)، ورمت للنوى قِلاصها (٢)، وغِربانها في رسومها ناعية، وأيدي الرزايا بها لاعبة: (الطويل)

فلم يدْرِ رسمُ الدار كيف يُجيبنا ولا نحن من فَرْطِ الأسى كيف نسألُ

يشكر الله موقفه في تلك الدِّمن، ورقّتَه التي قابل بها جفوة الزمن، وأرى له هذا العهد التي تمسكه الآن منه بحسب ورعى له حق الدمع الذي جرى فقضى في الربع ماوجب وشان الملوك توقفه في رسومها، واستراوحه لنسيمها وسقياها بدمعه، وتجديد العهود بمعناها الذي كان يراه بطَرْفِهِ فأصبح يراه بسمعه.

ولقد يعلم الله عز وجل أن الأحلام مامثلها لعينه إلا تأرّقت، ولاذكَرَتْها النفسُ الا تمزّقت، ولا تخيّلها فكرتُه فاستقرت على حال القَلَق، ولا تمثّلتها أمانيّه إلاّ وأمنت مطايا دمعه في السَّبَق: (الطويل)

وماقلت آهٍ بعدها لمُسامر من الناس إلاّ قال قلْبي آها

على أنه قد أصبح من ظل مولانا في وطن، وأنساه أُنسُه مَنْ ظَعَنَ ومَن قَطَنَ، وشرف بخدمته التي يعلى لمن حذا منها منارا، واستعاذ من الأيام التي أخذت منه درهما وأعاضته عنه دينارا، وأصبح لي عن كل شغل له شغل، وأما الأشواق فسل فؤادَك عني يُخْبِرْك ماكان مني، فما ذكرت حبيبا إلا وإياك

==:=

(١) العراص: جمع عرصة، وهي ساحة الدار والبقعة الواسعة. (القاموس المحيط: ٣ / ٨٠)

(٢) قلاص جمع قلوص. وهي الفتية المجتمعة الخلق من الابل، والقلوص أيضا ولد النعام وفرخ الحبارى. وتجمع أيضا على قلائص. (الوسيط: ٧٥٥)

أعني . (الطويل)

وان نَظَرَتْ عيني سِوَاكَ تلفّعَتْ حياءً بأرْدان السوفاءِ من الدَّمْع

ولو أني استطعتُ غمضتُ طَرْفي ، ووصفتُ ماعسى أن أصِفَ من الشوق كان الأمر فوق وصفي : (الطويل)

وإني وفي داري وأهلي كأنّني لبُعْدِك لادارٌ لَدَيّ ولا أهل

وعرف المملوك الاشارة إلى هذه السفرة ومتاعبها ، والطرق ومصاعبها ، والثلوج التي شابت منها مفارق الجبال ، والمفارق التي ينهب السُّرى بها طيف الخيال ، والمرجو من الله تعالى أن تكون العقبى منها مأمونة ، والسلامة فيها مضمونة ، وكأنّ مولانا بالديار وقد دنت ، وبالراحة وقد أذِنت ، والتهاني وقد شرفت بوفودها السحاب والأنس وقد أمسى وهو مجتمع القوى والرحلة وقد ألقت عصاها واستقرّ بها النوى إن شاء الله تعالى .

ومنه ماكتبه إلى كمال الدين ابن العطار : (١)

كتبتُ هذه الخدمة في يوم غاب سماؤه واستهلّت أنواره : (البسيط)

دانٍ مُسِفّ فُوَيْق الأرض هَيْدَبُه يكادُ يَدْفَعُهُ من قام بالسراح (٢)

قدكاثر البحرَ بقَطره ، وروى بِرُّه كل بقعةٍ من بَرّه ، فالبلاد قدفاضت

=:=

(١) كمال الدين بن العطار : هو أحمد بن محمود الشيخ كمال الدين أبو العباس الشيباني ، الدمشقي ، الأديب الشهير بابن العطّار ، ولد سنة ٦٢٦هـ ، وتوفي سنة ٧٠٢هـ .
(الوافي للصفدي : ٨/ ٦٧٠ برقم ٣٥٩٠)

(٢) انظر ديوان أوس بن حجر

غدرانُها ،وكادت تسقط لوقوعه جدرانُها ، حتى عمّ الوهاد والرُّبى ،وبلغَ السَّيْلُ الزُّبَى (١) ،وماأظنه إلاّ اقتدى بكرم مولانا الذي علّم الغيث الندى ،وفعل بالجَدْب مافعله أقلامه بالعدى .

فأجابه أدام الله نعمته وإقدامه على البلاد إقدام المزن ،وأعاد به على ناظر الاسلام سوادَهُ وقد ابيضّت عيناه من الحزن (٢) ،ولا زال نشر ذكره ينعى وروض فضله ينص ،وسقى حماه غيرَ مُفسِدِه صوب الربيع وديمةٌ تَهْمي .

وردكتابه الشريف يصف الغيث الذي صاب وَبْله ،وأصاب بنحر المحل نَبْلَه ، فوقف منه على كتاب الأنواء (٣) ،وشاهد وقد انحلّ فيه عقد كل سماء ،وغير بدع لكل مكاتبة منه أن تعود روضة ،وقلمه منشئ سحابها ،ولاغروَ لكل مكان ينزله أن يجود الغمامُ حروبه وقدسرقتها بركابها : (الطويل)

وماطابَ نَشْر الرّوضِ إلاّ لأنّه إذا مرّفيه ناله فضلُ بُسْرِه

(المتقارب)

وماسقط الغيث إلاّ لكي يُقبّل بحين يديها الثّرى

=:=

(١) بلغ السيل الزبى : مثل . كتب عثمان إلى علي ،رضي الله عنه ،لما حواصر : أمابعد فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين ،فاذا أتاك كتابي هذا فأقبل إلي ،علي كنت أم لي ،يضرب مثلا للأمريتفاقم أويتجاوزالحد حتى لا يتلافى . (اللسان : ١٤/٣٥٣)

(٢) إشارة إلى قوله تعالى ((وتولّى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم)) سورة يوسف : آية ٨٤

(٣) الأنواء : جمع نوء : وهوفي الأصل سقوط النجم في المغرب مع الفجرو طلوع آخريقابله في ساعة من المشرق وكانت العرب تضيف الأمطاروالرياح والحروالبرد إليها .
(القاموس المحيط : ٦٩)

وإلا فلِمَ عنوا منزله وجه سمائه المسفرة وعين شمسه وقاح ، وكيدها جرى مما رشقت ريق الفوادي من ثغور الأقاح ، ولأن المملوك مازال يردد لسانه بالأدعية الصالحة وركابه الكريم منطلق بقوله : (البسيط)

لاقتهمُ حيثما كانت تُحَيينا وَجَادَهُمْ حيث كانوا الوابلُ الغَدِق

فاستجاب الله دعاءه الذي مازال يرفعه ، وبلغه مملاما الذي مازال بالثناء يشفَعُه ، ومتى يحل بدمشق فيجود رهاما (١) جاد سواها ، ويستعين لسقيا يده الكريمة فلا يأس إذا سحَّت الغمائم بسقياها : (الخفيف)

فوجود البلاد تنتظر الغيث انتظار المحب رجع الرسول

يقبل اليد الكريمة لازال نَوْؤُها مُغْدِقا ، ومطلعها مُشرقا ، وروضها مونقاً ، وقلمها لايُرى إلاّ مورقاً ، وبلاغة ابلاغها لاتستعدم الأولياء منها التمائم (٢) والعوذ (٣) والوقاء ، وينهي أنه فارق خدمته التي أرضته عن الأيام ، واسخطته على الغمائم وأغنته عن الناس فماتركته يتذمّم الأقوام ، وهو يلتفت إلى تلك النعم ، بلفت النَّاغِب (٤) إلى نَقْع غُلَّتِه ، لا الناعب على فِراقِ خُلَّتِه ، وتَعَلّل السّليم المستملح هوى كلّ شبيهٍ بأحبّتهِ يلاحظه بطرفه ، ويعتب على زمن أخرجه من ذلك الجناب وآواه إلى خُطةٍ حَشِرَة بها مع أصناف الحشرات لايرى بها إلاّ رجوما ، ولا يشاهد

=:=

(١) رهام : مطر ضعيف دائم . (القاموس : ١٤٤١)

(٢) التمائم جمع تميمه : خرزة رقطاء تنظم في السير ، ثم يعقد في العنق . (القاموس : ١٤٠٠)

(٣) العوذ و مفردها عوذه : الرقية . (القاموس : ١٦٦٤)

(٤) الناغب من نغب الريق : ابتلعه ، ونغب الطائر : حسا من الماء ، ونغب الانسان : جرع . (القاموس : ١٧٨)

إلاّ أراقِم من كل صلد تزاحمت به مدارج السيول ،وعضت خلوف الرحول ،وعـــزا

سَحاًّ في صدور السهول ،قد خمشت الامطار وجه صفاته ،وفتحت الليالي والأيـــام

ما لعلّه كان من حُسْن صفاته ،فأصبح معافىً بين أرحل الورو ع كم لها منه مـــن

أذى ،ومحاجركم أغْمضت عيون الأرض ،منه على ندى كان أسوده على وجـــه

الأرض كاف يودى بالأبصار ،وكم قد استدار عليه منه أقبح عذار ،كم تجمعـــت

فلذه فكانت كظلمات بعضها فوق بعض ، وسبت سامقه فأَحْسِن بها من نهود فوق

صدر الأرض ،يروع المراعي وتسمع منها لسهام المَنِيّة قعاقعُ بتراكيش الأفاعـــي

من كل صِلّ يفترس افتراس الضيغم ،ويملّس انملاس الجدول المفعم ،وينسقـــضّ

انقضاض السّهم ،يروع رائيها في المنام ، ومن حميها لحم الحمام ،وإذا انقبضـت

كانت للمنية عُرْوة واذا انبسطت فهي للرزيّة حِزام ،مانابها بتوليه ناب ،ولا لعابهـا

في جده بالاتيان على الأنفس بلعاب ،ذات ألوان كالدنيا تروق وتروع ،وذات معاطف

كالليالي والأيام منذرة كالفخّ بالوقوع ،وقد غدت للخيام أطنابا عرض الأطناب ،ونابت

عن العمد فيها شرّ مَناب ،فلو شـــاهدها أبُقْراط (١) لم ير أن غيرها للموت

من العلل الخبائث ولا الأسباب ،كم نفحت الأعين منها بأسودَ سالخ ،وكم غــــدا

مهريّ يسمها مهرياً من الحريق فهو في كورة على لغة العَوامّ نافخ .

ومن عجب أنها تمشي على بطنها ،ولا تأكل من نهشته بنابها النائـــب

عن سِنّها ،تحترس وتفترس ، وترى بعينيها في الظلام الآثار ،فما لا يجد عليهـا

هدى طرف المقتبس ،كم غدت لبعير عقالا ،وكم اعتقل الموت منها لمطاعنه رماحـاً

==:=

(١) أبقراط : راجع صفحة ٤٩٩ فقد مرّ ذكره .

طوالا ، وأرسل نبالا ، هذا والشتاء ماقوض خيامه ، ولا ارفض ركامه ، ولا أقلع بنجاح سحابه ولا جهامه ، والجو لم يحث عنه غمامه المنجاب ، وشمسه لم تبرز من بردها إلا بفرو سنجاب (١) ، والحشرات إلى الآن محشورة في عطش ونفش ماظهر دفينها من قرة بعد ولا انتبش ، فما ظنك بها عندما يلفح الحر بوهجه ويقبل القيظ برهجه وهرجه وسرجه ، وأخرجت الأرض أثقالها (٢) وأبرزت ظلالها ، وأينعت الأذى بوابلها الوبيل بوبائها ووبالها ، هنالك تتمنطق بهفه الدواعي الأشجار وتتسور الاغصان وتتختم القضبان وذلك يوم كما وصفه البحتري بقول : (الطويل)

ويوم من الشعرى يذوب لعابه أفاعيه في رمضائها تتململ (٣)

فالانسان من هذه المنزلة في حبالة صيد ، وعجالة كيد ، ودي دون المنزلة التي مارضيها لنفسه ابن دريد (٤) ، شتان هذا والعناق والنوم ، والمرقد البارد في ظل الدوم ، والبرد قد برد كؤوسه ، والدوح وقد نوع ملبوسه

=:=

(١) السنجاب: حيوان أكبر من الفأر ووبره في غاية النعومة وجلده في غاية القوة وحكمه الحل ، ويتخذ من جلده الفراء النفيسه التى يلبسها أعيان الناس ورؤساؤهم .
(الموسوعة العربية الميسرة : ٢ / ١٠٢١)

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ((وأخرجت الأرض أثقالها)) سورة الزلزلة : آية ٢

(٣) انظر ديوان البحتري .

(٤) ابن دريد : هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، من أزد عمان من قحطان ، أبو بكر : من أئمة اللغة والأدب . كانوا يقولون : ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء وهو صاحب "المقصورة الدريدية" ، ولد في البصرة سنة ٢٢٣ هـ ، وانتقل إلى عمان فأقام اثنتي عشر سنة ، وعاد الى البصرة ، مدح آل مكيال" ديوان فارس ، إتصل بالمقتدر العباسي في بغداد فأجرى عليه في كل شهر خمسين دينارا ، فأقام إلى ان توفي سنة ٣٢١ هـ .

(الأعلام لخير الدين الزركلي) و(الموسوعة العربية الميسرة : ١ / ١٥)

ويزيد وما يتجاوز مادحه على ما فيه من المحاسن الفاضلة، ولا يريد وفوده وقد أثار دواعي الأشواق إليه، وبعث بعوث التلهف عليه، والغوطة (١) وقد فاخرت ببساتينها كل بستان، وقالت لمن يجاريها ها دونك الشقراء (٢) والميدان والمزة (٣) وقد حلت، وبرزة (٤) برزت بمحاسن خصبها الدائم وما أمحلت، والاغصان وقد اخضر نبات عارضها ودنانير النوار، ودراهم الأزهار وقد هبت لقابضها، والمنثور وقد نظمت قلائده، وصففت بكفوفه ولائده، والحور وقد حاور ألينها بالتباشير والسرور وقد كشفت عن سوقها فلم يقل عن تلك الأنهار أنه صرح ممرد من قوارير، والسوسان وقد لاحظ بجفنه الوسان (٥)، والورد وقد ورد، والبانُ وقد بان: (الرجز)

كم وَرْدَةٍ تحكي بسبق الوَرْد

حاشيةً (قد) اشربت من جند

قد ضمّها للغصن قُرْصُ النّــدّ

ضَمَّ فمٍ لقُبلــةٍ من بُعْــد

==:=

(١) الغوطة: من الغائط، وهو المطمئن من الأرض، والغوطة مجتمع النبات. وغوطة دمشق هي الكورة التي فيها دمشق. (معجم البلدان: ٤/ ٢١٩)

(٢) الشقراء: فرس، يحمر منها العرف والذنب، وهي فرس الرقاد بن المنذر الضبي وبها ضرب المثل: "شيئا ما يطلب السوط الى الشقراء" لأنه ركبها، فجعل كلما ضربها، زادت جريا. (القاموس: ٥٣٦)

(٣) المزة: حي من أحياء دمشق وهي الآن كثيرة البنيان. (معجم البلدان: ٥/ ١٢٢)

(٤) برزة: قرية قريبة من دمشق وتشتهر بكثرة أشجارها ومياهها. (معجم البلدان: ١/ ٣٨٢)

(٥) الوسان: شدة النوم والنعاس. (القاموس: ١٥٩٨)

ولا ورد على الملوك أوائل الورد في أواخر شعبان ، ولا قول ابـــن

الحجّاج : (الخفيف)

بليالٍ لو أنها دفعتـــني   وسط ظهري وقعت في رمضـــــان

على أن مولانا ليلُه في العفاف نهاره ، وأنوار الجامع المعمور بذكر الله تعالى يده بها بقرباته به وأذكاره ، حيث لا تلمح العين الا مصباحا ، وتودّ أن لا ترى لتلك الليالي الغرّ فيه صباحا ، عندما تتمنطق أركانه من اللّهَب ، بمناطق الذهـــب وبدت قناديله المعتدلة بصفائها ومائها كما يبدو على الجِبّ لاسيّما ليلـــة النصف من شعبان التي يرفرف عليها النعيم ، ويخدمها الأمن المقيم : (الوافر)

فكم للعين فيها لاحَ بَدْرٌ   يروق الطّرفَ منظرُه الوسيـــم
وقد بدتِ السُّـــوفود قبيل بـدرٍ   لخدمتِه ترجّلَتِ النـــتّجوم

كم أضاء بوجهه بحور ، وكم انعكست تلك الأنوار على وجهه الوضّاح فكانت نورا على نور ؛ (مخلّع البسيط)

في خدّه للورى ربيعٌ   ونصف شعبان في فـؤادي

(الكامل)

يبدو فيَعثُر بالعيون أمامَـــه   فإذا استدار تَعَثّرتْ من خَلْفِـــه
حلوٌمدارُ الخَصْر منه كأنّـــه   شعبانُ كلُّ حلاوة في نصفـــه
وقيدُه في مهجتي كمقالِ مَـــنْ   أغرى وينقضُ وعدُه من خَلْفــه

وبعد فهذه خَطْرةُ خاطر خَطَرت نستغفر الله منها ، ونسأله التجاوزَ عنها ، ونقول : لابرحت أوقات سيدنا بالذكر معمورةً ، وأقسامه من الأجور موفورة ، ولياليه

تهجّده تفاخر الأيام ، وأوقات تعبّده توافقه رفاقه من الملائكة المقربين فيها وكيف لا وهو من الكاتبين الكرام ، إن شاء الله تعالى .

ومنه قوله :

وينهي ورود مكاتبته التي ملأت الدنيا عَرْفاً (١) أرجا ، والعيون منظرا بهجا والاسماع كلما أصبح الودّ به منتسجا ، فشكر الله سطورها التي وصلت إلى الجناب ، وأوصلت ماملأ العيون والأيدي والخزائن والمدائن والمرابط من الهبات ، وجعلت تحف الدنيا بين يدينا سماطا ، وأزاهر ذخائر الوجود لدى سريرنا بساطا ، وأمطى سروجنا صهوات الغراقد من الجياد ، التي جاد منها كلّ نفيس وأهدى إلينا من بلاد سبأ منها مايتوقل منه مايوقله سليمان من عرش بلقيس (٢) وسخرلنا منها رياحا تحملنا إلى الأعداء وكيف لا وثبات الريح هي الخيل ، ويلجم لنا منها كلما تعدو به آية الصباح مبصرة وتمحى آية الليل (٣) وله المنّة على أن جاد من الرّماح بكل سمهري (٤) تجري دماء الأعداء في أنابيبه ، ولا يُرى عدو كافر الا وهو في تلابيبه ، كم يلَجّجه شركه تدثر ، وكم تيمّن به مؤمن وتشاءم كافر بكعبه المدوّر ، وكم سمت القدود لما تعذّر لها مشيه ، وكم قالت أقلام الخطّ عن مختصرات رماح الخط ، وإنما تلك ليوم أكبر من

=:=

(١) العرف : الرائحة الطيبة . (القاموس المحيط : ١٠٨٠)

(٢) بلقيس : هي بنت ايلي أشرح بن ذي جدد بن ايلي أشرح بن الحارث بن قيس بن صيفي ، وكانت ملكة سبأ ، ويقال : ان زوجها هو شدد بن زرعة ، انظر (جمهرة أنساب العرب ٤٢٧ - ١٣٩)

(٣) اشارة إلى قوله تعالى : ((وجعلنا الّيل والنهار ايتين فمحونا آية الليل وجعلنا اية النهار مبصرة ...)) سورة الاسراء : آية ١٢

(٤) السمهري : الرمح الصليب العود ، ينسب إلى "سمهر" رجل كان يقوّم الرماح . وامرأته "ردينة" وإليها تنسب الرماح الردينة . (القاموس : ٥٢٦) .

أيامنا مرفهة وغير ذلك من وحوش مدينة ودرر، ولما رأيناها قلنا : لكل منهما هذه الدرة الثمينة .

[مرسوم بتحويل السنة الشمسية]

ومنه قوله من مرسوم بتحويل السّنة الشمسية :

خرجت الأوامر المطاعة متضمنة ماوصل إليه رائد الاجتهاد، ودلّ عليه جميل الارتياد، وانتجت مقدماته مصالح البلاد وسداد العباد ، (فكم) بَطِر أجمل حسنُ التدبير أثره ، وبان في وجوه الأيام غُرَرُه، وانصافا ألزم الأعوام رَدَّماً في ذمتها من القرض ، وعدلا قضى بأخذ الجوّ فيه لبعض الأيام من بعض، وصنعا جهد في أن لايعد وكل من الأيام في غير ملبسه مختالا ، وأن ترد إليه ماكان التحويل يأتي عليه اغتيالا ، وفكرا جميلا أحصى ذلك عددا وميّز أمور الأعوام فلم يكن كما قيل : إن مع الأيام غداً ، وجورا أغنى أيامنا عن أنها تستلف من غيرها ، وأن لاتغدو منفعةً إلاّ من خيرها .

واقتداء بالملوك في الأمربما يعمُّ الامير والمأمور نفعه ، ويعظم في المستغلاّت وقعه ، ويضع الأقساط به لايعدو عليها ولايشطط ، والمعاملات لاتتعدى الاحتياط جدا ولايخالف شرطا ، والسنون لاتمتاز سنة عن أخرى ، والشهور منزهة عن زيادة الكبيس (١) ، إذ قد شهد التنزيل أن عِدَّتها عند الله إثناعشرشهرا

(١) الكبيس :السنة التي يسترق منها يوم ، وذلك في كل أربع سنين .

(القاموس : ٧٣٤)

وحفظا لنظام السنة الهلالية أن تتعلق السنة الشمسيّة لها بأثر، وحراسة من أن يدركها تداخل فان الشمس لاينبغي لها أن تدرك القمر(١)، ورسمنا أن تكون سنة كذا مسمّاة هلاليّة حرا جيه وتلغى بسنة كذا لحكم أن التحويل آخر ماكان في الأيام الفلانية كذا، فلما كان الآن حصل تفاوت كثير من تزايد مولول الأيام وتداخل شهور الأعوام، وخرج أمرنا بذلك نسخا للشك والارتياب وضبطا لقانون الحساب، وأمنا من السهو يطرأ في المحاسبات أو يدخل في المعاملات، أو يؤدي إلى الالهام، أو يُؤَول إلى الابهام، ليكون الأمر يقينا والمجاز حقيقة، وأمور الدين بالصحّة جديرة وبالضبط خليقة، فليسترفع الحسابات على هذا الأمر المقرر، ولايعدل عما يحرّر، وتطرز به جرائد الاحسان، وينطق به وعنه قلم الديوان .

ومنه قوله :

وينهي ورود مشرف كريم تلا مشرفا كريما، وإحسان حديث أعقب إحسانا قديما، تناوبا الإفضال واكتنفا الآمال، فشكر الله انعاما أصبح لهما خير باعث، وتفقدا رسُلَ سجاياه رسولين مصدقين ثم عززهما بثالث (٢)، فلقد نهزت كرامات كرمه، وظهرت في كل مهجة آثار نعمه، وأتت هداياه بكل معجز معجب، ووافت تحاياه بكل موجز موجب، فلا عدمت منها شارقة، ولابارقة

=::=:=:=:=:=:=:=:=:=: !=:=:=:=:=:=:=:=:=:-: :=:=:=:=:=:=

(١) إشارة إلى قوله تعالى ((لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الّيل سابق النهار، وكلّ في فلك يسبحون))
سورة يس : ٤٠

(٢) إشارة إلى قوله تعالى ((إذ أرسلنا اليهم اثنين فكذّبوهما فعززّنا بثالث فقالوا إنّا اليكم مرسلون))
سورة يس : آية ١٤

بعد بارقة، ولو وصف كلُ فرد منها الوصف الذي يجب لضاقت الأيام ، وحفيت اليراعة ((ولو أنّ مافي الأرض من شجرة أقلام)) (١)

ومنه قوله :

وتوافى الناس ، إلى المقياس ، فسألوا عن تعين الوفا أخبر من جهينة (٢) ، وشاهدوا منه أجل من جَميل(٣) ومن بنانه المخلّق أحسن من بنان بثينة (٤) ، ورأوا من وفائه صادقا لا يخون في عهوده ولا يمين ويطلب القاعدة من بنانه المحلّق حين ، وفي من أنه ليس لمخضوب البنان يمين .

=:=

(١) إشارة إلى قوله تعالى ((ولو أنّما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمت الله إن الله عزيز حكيم)) . سورة لقمان : آية ٢٧

(٢) جهينة : أمرأة أعرابية ضرب بها المثل ويقال : ((وعند جهينة الخبر اليقين)) . (اللسان : ١٣/ ١٠١)

(٣) جميل : هو جميل بن معمر نشأ في منازل عذرة بوادي القرى ، واخذ يختلف إلى المدينة ، تلقن الشعر عن هدبة بن الخشرم تلميذ الحطيئة أي أنه يمت إلى مدرسة زهير ، أشعاره في التغني ببثينة معشوقته إحدى نساء قبيلته توفي في مصر في ولاية عبد العزيز بن مروان . انظر (جميل في الاغاني ط دار الكتب ٨ /٩٠١ و(ابن سلام ٤٦١، ٥٤٣) و(تاريخ دمشق لابن عساكر : ٣/ ٣٩٥) و (حديث الاربعاء لطه حسين : ١/ ٢٤٩-٢٤٧) .

(٤) بثينة بن حبا بن ثعلبة العذرية توفيت سنة ٧٠١م ، شاعرة بني عذرة بن قضاعة شهرت بأخبارها مع جميل بن معمر العذري ، كانت منازل قومها بوادي القرى بين مكة والمدينة مات جميل قبلها ، فرثته ، ولم تعش بعده طويلا وفي شعرها رقة ومتانة .

(الموسوعة العربية الميسرة : ١/ ٣٢٧) .

ومنه قوله:

في مثله هذه المكاتبة تبشّره بمنحص فقيل مختالة ،فيجرر على الثرى والوهاد ذيولا ، ويجرّد في وجه المحل سيفا مسلولا ،وهو النيل الذي أتى ووجه الأرض قد اغبّر، وثغر بزاعة قد بشر، والخطب قد افتر ،وبرّه قد أقفر منه كلّ برّ ،فحسن في مسرى مسراه ،وجعل على اسم الله مجراه ، وجاء يركض في مضماره ولا يسلحق ،ويجري في تيّاره ولا يسبق ،فكم مسنى قحط ومرّ عليه من تلك الفجاج في مسيل ،وكم ميت (في) (١) جَدَثٍ عليه التراب في تلك الجسور قد هيل ،وكم عروس قريه يبنى (بها) (٢) في مسرى فكان كما قيل مصر عروس النيل ،وكان هذا الموسم من أشرف المواسم بمايشتمل عليه من بشائر تملأ الوجود، ونعمة على الخلائق تعود ،ومِنَّة جَرَى بها من اليَبَس الماءُ في العود ، وكيف لا ويومها بسعد السعود (٣)، فيشيع هذا الخبر إشاعة تبدي وتُعيد ،ويوجد برداها بردا على كَبِده ، ويزيد بزيد لابَرِحَ مخصوصا بالاستبشار ، تارة بكسر الاعداء وتاره بكسرالبحار .

=:=

(١) مابين الحاصرتين سقط من الأصل ،واضفناه لاتمام السياق .

(٢) كذا في الأصل .

(٣) سعد السعود :كوكبان ،وقيل هو ثلاثة كواكب أحدها نيّر والآخران دونه في النور . أمّا سعد الذابح فهماكوكبان صغيران بينهمافي رأي العين أقل من قدر ذراع ،أحدهما مرتفع في ناحية الشّمال والآخر منخفض في ناحية الجنوب ،سمي سعدا لانهمال الأمطار في أيام طلوعه ،وسمي ذابحا لقوة البرد في إبان طلوعه فتموت المواشي ببرده .

(لسان العرب :٣/٢١٣)

ومنه قوله :

ويأخذ في شكر مقدم المشرفة الكريمة التي خفقت خوافيها وقوادمها بالشمن من اليمن ، ونعم طيبها حتى قيل إن جنة الدنيا زَبيدُ (١) أم جنّة عدن ، وتأملها فإذا هي قد جمعت أجناسا للطرف وأنواعا ، ورأت كلما كان المتظرف لا يصدق وجود مثله سماعا ، وأتحفت بماملأ بصر المعاين ، وَضَيّق صدور الخزائن ، وأرض إلاّ عنه كلّ ضامر ، ولم يرقبلها تحفةً غريبة لها في الجمال أشباه ونظائر ، ولا حسناً ان يصف وجهها بالدّمامة الضرائر .

ومنه قوله في منشور طلبه صاحب اليمن لولديه:

لاسيما اعتزار يمين الدولة القاهرة منه بحدين ماضيين وبجنا حسين اثنينَ يرفرف وبهما ويجول ، واذا أتت دولة أخرى بابه افتخرت هي بالاتيان بأمن الرسول ، ولما سبح فافتتح هذا الباب ، واقتضى الاجابة إلى ذلك الاقتضاب تناقس على تسطير ذلك الملتمس سواد العيون وبياض الغُرر ، وقال القلم قد خصّ بتسطيره ألاَ وإنّ هذا خير ممّا خُصّ الغصنُ به من يانع الثمر .

ومنه قوله :

قَدّرَ الله أننا وجّهنا إليه وجه العزائم ، وجعلنا لمخبولة مجانين المجانيق (٢) الرُقَى ومن حجارتها التمائم ، وأخذنا النقوب في ضميره ، وزحفنا إليه الزحف الذي لطم بأسورته وشَقّقَ جيوبَ سورِهِ .

=:=

(١) زبيد : بفتح أوله وكسرثانيه اسم واديه مدينة يقال لها الحُصيب ، ثم غلب عليها اسم الوادي فلاتعرف إلاّ به ، وهي مدينة مشهورة باليمن أحدثت في أيام المأمون ، وينسب إليها جمع كثيرمن العلماء . (معجم البلدان : ٣ / ١٣١)

(٢) المجانيق : جمع منجنيق ، وهي آلة حربية كانوا يرمون بها الحجارة مؤنثة ، وهي يونانية . (محيط المحيط والقاموس المحيط : ١١٢٦)

[فتح القرن]

ومنه قوله في فتح القرن : (١)

وهو فتوح القرن الذي غدا في جبهة عكا (٢) عُدَّةً للقراع ، ومتعداً للقتال ومتّكأً للامتناع ، ومطلعا للاغارات التي كم صادت الضباع إلى الضياع ، قدر الله أننا عرجنا عليه تعريج السيل العرم ونازلناه منازلة المنتقم ، ولَوَّنا له الآلات الحاصرة ، ونوعنا له أسباب العقوبة المناصرة ، فمن مجانيق تُسلّ من خناصر البروج فصوص تلك الخواتم ، ومن أخرى تخطف من الشرفات العمائم ، ومن نقوب يسري (في) الأبدان سريان النوم في المفاصل ، وتمتوصل من جشاشات الأسوار إلى مالاتصل إليه المناصل ، ومن زحف إلى أبوابها هو الأصل في باب هذا الظفر ومن قتال أضجر الحديد وماداخلَ رجالنا الضجر ، ولما آن وقت النصر المرتقب وانقضى الأجل الذي كتبه الله لمن خفق له القلب افتتحناه وفجعنا عكا بقرن كان يحميها ، وأصبحت جمّاء لا يمنعها شيء ولا يقيها ، وكان قد وصل إلى عكا ملك اسمه ورد اعتقد أن قد حمى عكا ومرجها ، وحمى طريقها ونهجها ، وتوهم أن جماعة من الفرنج قد أحصنت فرجها ، وما درى أن لنا عزماً يعزو الكفار في عقر الدار ، وأن عساكرنا كم وطئت منها موطئاً

=:=

(١) القرن : اسم مكان وهو الطريق الذي يفترق منه فانه موضع فيه طرق مختلفة كثيرة .
(القاموس : ١٥٧٩)

(٢) عكا : اسم مدينة فلسطينية على ساحل بحر الشام ، وهي من أحسن بلاد الساحل في أيامنا هذه وأعمرها ، وهي مدينة حصينة كبيرة الجامع فيه غابة زيتون يقوم بسرجه وزيادة ، ولم تكن على هذه الحصانة حتى قدمها ابن طولون . حدث فيها سنة ٤٩٧ قتال بين أهلها والافرنج فتحها صلاح الدين سنة ٥٨٣ . معجم البلدان : ٤/١٤٣- ١٤٤)

يغيظ الكفار(١) ولمّا شاهد المذكور هذه العزائم سَكَتَ وماتكلّم ، وحَضَرنفسَه مع محصوريها إلى جهنم .

ومنه قوله في معـناه :

وكم أسكَتَتْ افرنجة الكمانيه قلوب الاسلام خوفا ، وأقرض الممالك الشاميـة من الإغارات ديونا لم يكن من غير يدنا ويد عساكرنا تُوفَى ، واعتقدوا أن أجفـان سيوفهم تهجر الاصطباح على هذا الورد لذيذ وَسَنِها ، وإن شكوتهم إذ حيث بوَزرها لم تُحيها رماح الإسلام ولاأسِنتُهم بسَوْسَنِها ،نصرنا إليه والسيوف مربوبة الأكباد ، وعيار الجهاد قدأصبح جسادا على الأجساد ، وأنابيب القَنا تقطـــر دما ينسجم ، وكل من الكماة يعتقد غداة البين أن قد سَلِم ، فالمجلس يبتهج بهذا الفتح الحلو الجَنَى ، وهذا النصر القريب من يد المنى ، ويسلك من الجدل بهذه البشارة في أبين الطّرق ، ولاتقل جاء هذا الفتح آخراً فأحسنُ (ما) يبدو البـدر اذلاح في ذيل الأفق .

ومنه قوله في معـناه:

هذه المكاتبة إليه أسمعه الله من البشائر كُلَّ محققة بجميل الظّنّ مطربة من بالتاريخ إلى التاريخ عانى وعن سروره بكل تهنئة يبقى فخرها وكيف لا وهو الذي كم أفنى للكفر من قرن نعلمه بأنه كان السمى بالملك ، ورد ملك الانكتـا ر، وأعظم طواغي الكفار ، في البحار قدسَيّر كتابه إلى أهل عكا يُفهمهم أنه الأســدُ

=: : :=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) إشارة إلى قوله تعالى ((ويطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوّ نيلا إلاكتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجرالمحسنين)) .
سورة التوبه : آية ١٢٠

الوَرْدُ المُشبل ،ويطعمهم حتى يخيل لكل منهم أنه مبشر أوجاء كتـــاب

الســـــــــــــــورد أنه مُقبِل ،وأَنْفَذَ قبل شهر رمضان بليال خزنداره (١)

وجماعة من أولى البسالة وذوي القتال إلى عكا يزعمون أنهم نجدة متواصلـــــــة،

ونعوت متعاجلة ، وليوث مخاتلة ،وعيون هامله ، فتسالمت لتقاطيرهم زمن أهل

الطغيان ،وتصرّمت لتفرقهم الاخوة والخيّاله والفرسان ،وتقدمت لتأخرهم نداء

الشرك قائلة أوائل ورد في أواخر شعبان ، ووصل هو بنفسه يوم السبت السابع

والعشرين من شهر رمضان المعظم وصحبه جماعة من نيران الكفر المؤصدة ،وجَمَرات

الحتوف المتوقّدة ،يعتقدون بأنهم يجتمعون للاسلام بضِرام تلك الشُعل ، ويتحدثون

أن مهابة وردهم يحصل لكل منها العجل ،وماعلموا أن أنوف أهل الايمان لاتبالي

بتهسم تلك الحدة ،وأنهم يتحققون أن الوَرْدَ - والمِنّةُ لله- قصيرُ المُدّة ،وأن ناجين

الرماح طويلة الأعمار ،وأزاهر الأسنّة لاتماثلها بقية الأزهار ،وأن تفكه نصرنـــا

طالما حتى ورق الحديد الأخضر يانع الثمار ،وكانت طوائح العزائم الماضيـــة

قد طوّحت مافي وجه طرابلس (٢) تطلب منها حقا أوْجَبَه عليها الظَفَرُ

المستـــــب ،وحققت في جهتها النصر المرتّـــب .

==:=

(١) خزنداره : وموضوعها التحدث في خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغيرذلك .

(٢) طرابلس: أول من بناها أشباروس قيصر ،وتسمى أيضا مدينة اياس ،وعلى مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان ،وهي على شاطئ البحر ،ومبنى جامعها أحسن مبنـــــــى ومرساها مأمون من أكثر الرياح ،وهي كثيرة الخيرات والثمار ،غزاها عمرو بن العاص سنة ٢٣ هـ .

انظر (معجم البلدان لياقوت الحموي : ٤/ ٢٥)

فلما سمعنا خبرَ هذا الطاغية ورد اخرنا أمرها إلى أجل معدود ،وسأل صاحبها في هدنة قبلنا ها منه كما شئنا لاكما شاء طرفه الممدود ، وعجلنا الحضور إلى جهة عكانفهمه ان كان حضوره للنضال فإن العزائم مرصدة ،أو الاستحصار فما هذه هيم الملوك المنجدة ،أو المسالَمَة فالاحسان لايردُّ رغبات الأمل المسترفد وجعلنا القرآن أقرب منزلة ، إلا أنّ عكاترمي العدُوّ منها من كثب ،وأدنى مقاعد للقتال الذي يستسهلها من طارح وتسفر منها وثب ،فنصبنا عليها مجانيق تعوّدت اقتلاعَ وتملك الممالك ،والفت تلين معاركها حتى صارت لاتجدُ كُلْفـــةً في ذلك .

فلما رآها الحصن المذكور تشوّق (إلى) استفتاحها وحَنَّ ،وتحقّـق هلال أهله ((وكم أهلكنا قبلهم من قَرْن)) (١) .

فلما رأى من فيه شديد عزمنا البعيد ،سألوهم الامان (و) تخفيف هذا التشديد ،فلم يبق إلا من أسلم نفسه وسلّم وسكت لما رأى أن غيره هلك لمّا تكلّم ، واشتدّت بفتوحه دواعي الأعداء على الأعداء وامتدت به إلى عكا وأهلها مواد الأدواء ،وفجعت منه نجم قرنها فلوأنها لايؤخذ لها بحق اذ أخذ للجمّاء (٢) من القرناء (٣) وكتابنا هذا يبشره بما وهب الله الأمة من هذا الظفر الــذي

=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=: : =:=:=:=:=:=:=:=:=

(١)إشارة الى قوله تعالى ((وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحسّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركـزا))سورة مريم : آية ٩٨

(٢) الجماء وجميم : هوالنبت الذي طال بعض الطول ولم يتم (اللسان : ١٢/١٠٧) .

(٣)القرناء : حية لها كحلمتين في رأسها ،وأكثرمايكون في الأفاعي .
(القاموس : ١٥٧٨)

ثم استأنفنا نقوبا غير تلك النقوب في تلك الأسوار، وكورنا من سود الحجارة في نص التجارة الليل على النهار ، وأسأنا مجاورة الحصن بتطلك هذه الباشورة وما من عادتنا الآ حسن الجوار .

ومنه قوله :

فان الله قد منّ علينا بالنّصر المعجّل والفتح القريب ، وهيأنا الاخراس لسان الناقوس وشل يَدي الصليب جعلنا لانقدم مهمّا على دفع مرتبة شرع وغصب منبر خطيب ، اذكان ذلك هو المهمّ المقدّم على كل مهم والنور الساطع الذي كم أراد الاعداء اطفاؤه ويأبى الله إلاّ أن يتمّ (نوره) (١) (٢)

ولما هيّأ الله فتوح حصن الأكراد (٣) الذي كان حق الاسلام المغصوب ومتاعه المنهوب ، ومفقوده المندوب ، وفريده المسلوب ، وقداقتلعناها من يد الكفر وعيونهم باكية وقلوبهم متحسّرة، وألسنتهم شاكية ، وسيوفهم لا تجيب صداها إذا جاوبت الأصداء المحاكية ، رأينا أن تجعل مشرع الشّرع بها رويّا ، ووعد الحق بها وفيا ، وأن تبدل الكفر بالايمان فنختار للصلوات بها ما اختاروه لصلواتهم من بقعه وأن تجعل بها عوض موسم الأحد موسم الجمعة ،

==:=

(١) ما بين الحاصرتين سقط من الأصل ، وأضيف

(٢) إشارة الى قوله تعالى ((يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الاّ أن يتمّ نوره ولوكره الكافرون))

التوبة : ٣٢

(٣) حصن الأكراد : مقابل حمص في سوريا .

انظر (معجم البلدان : ٢ / ٢٦٤) و(وتشريف الأيام والعصور ٨٥)

وأن تكون كنيستهم جامعا شمل الهدى بعد الضلال ، وبيتا من بيوت الله التي أذن فيها أن ترفع ويذكر فيها اسمه ((يسبح له فيها بالغدوّ والآصال)) (١)

[التعزية بأخوين]

ومنه قوله في التعزية بأخوين :

انهما لمصرعان وقد صرعا الأمل ، ورزيتان ماللفؤاد بواحد منهما قبل ، ومصيبتان ماانقضت واحدة منهما حتى أعقبتها الأخرى ، وثكلان مامنهما الا الطامّة الكبرى ، فما عسى أن يقول المعزي بهذين الفقيدين ، وماذا يقول المسلي عن هذين الوجدين بم تبطش السياط إذا فقدت اليدين ، ولم تقطع السيوف اذا عدمت الحدّين أما يكفي كسوف الشمس حتى تلابخسوف القمر ، ولا ذهاب الشمع حتى يشفع بذهاب البصر ، ولا نضوب البحر بنضوب النهر ، وهيهات لقد تنوّعت المصائب ، وتناوبت النوائب ، وقارنت الرّزايا مابين الأجلين ، وقارنت مابين الحجلين ، وجمعت مابين الرجلين ، لقد تجانست الحيلات ، حتى في الممات أناخت الأشيّات حتى في المنيّات ، وانها لحسرة محكمة الاسباب ، وموعظة تسفر الألباب ومسألة مابين أقرب منها الجواب .

=:=

(١) إشارة إلى قوله تعالى ((في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدوّ والآصال))

سورة النور : آية ٣٦

ومن نظمه مما أجاد فيه من قوله المبدع وأخذ بكل ثنيّة ومطلع قوله في مليح حلق حاجبه وأزاله ، وكشط من سمائه هلاله ،كأنما خافت أن يمتدّ منه على ديباجة خدّه وشي العذار المرقوم ،أو يرق لعاشق ويقدم قصة مظلوم وهو : (السريع)

وقاتل الألحاظ كم مُهْجَةٍ جريحةٍ من سيفها القيا ضب
أماطَ عن مقتله حاجبا وقال للعائب والعاتب
لحظي بتكليم قلوب الورى أصبح يستغني عن الحاجب

فسمع بها زين بن عبدالله وكان رفيقه من جاري في النظم لا بلسان تفرقه ،فأما النثر فإنه كان لا يعرف طريقه فقال : (الطويل)

تدالي في حلق الحواجب فتنة فقلت بعقل ذاهب فيه ذاهب
حبيبي بحق الله قل لي ما الذي دعاك إلى هذا فقال مجاوبي
وعدت بوصلي العاشقين تعطفا فلم يثقوا واسترهنوا قوس حاجبي

وسافر مرّة حتى اذا كان بعيون القصب وهو مكان يغسل المسافر به أدران النّصب ،ويجلو صداُ الوصب (١) ،لأنه دون حمص لا يشط عن حيرتها (٢) ولا يبعد عن شطّ بحيرتها في صحراء من الأرض بين جبال انفرجت عنها أذيالها، وأرجت في ميدانها صباها (٣) وشمالها (٤) سجن القصب الأخضر مافيها وجرت

==:=:=:=:=:=:=:=:=:=:-:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=

(١) الوصب: العرض . (القاموس : ١٨١)

(٢) حيرتها : بلدة أو المخضرة المبقلة . (القاموس : ٤٨٨)

(٣) صباها : ريح القبول ، لأنها تستقبل الدبور وتستقبل باب الكعبة . (اللسان : ١١/ ٥٤٥)

(٤) الشمال : ريح الشمال أو الشمول . (القاموس : ١٣١٩)

على ترابها الأحمر فضة سواقها ،فهيّج له مرآها أسى وتذكارا ،وذكره رياها أوطانا وأوطارا ،فأطربه في أعين القصب التشبيب ،وعاوده ماعاود أمرأ القيس من ذكرى منزل وحبيب ،فأغصت مآقيه دموعه الحرّى ،وأغرت ضلوعه بأن تتوقد جمرا ،فجذب القلم والدواة ،وكتب مالاألمّ به سواه، وهو : (الطويل)

كتبت لـ من أعين القصب التي لها من معانيكم ومن نفسها طرب

فان لذّ لي التّشبيب فيها بذكركم فكم طرب التشبيب من أعين القصب

وسافر ولده سفرة طالت ،وغلبت عليه عوادي مدتها واستطالت ، فما طول بفراقه سُهْدَه ، وأخذ منه قلبَه وماردّه ،تعلل بعده تعلل العليل وسقم سقام صب لايشفيه في صباح صبا ولابليل بليل ، فلما أوهن جلده النحول واتفق أنه توجّه إلى جهته رسول ،كتب إليه يقول : (الكامل)

إن شئت تنظرني وتنظر حالتي قابل إذا هبّ النّسيم قبولا

لتراه مثلي رقة ولطافة ولأجل قلبك لاأقول عليلا

فهو الرسول إليك مني ليتني كنت اتخذت مع الرسول سبيلا (١)

ومنه قوله : (السريع)

لايقبل الروض أحاديثه عن كل نمّام غدت خافيه

فإنه ينقل أخباره إلى عيون عنده صافيه

=:=

(١) إشارة الى قوله تعالى ((ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول ياليتني اتّخذت مع الرسول سبيلا))

سورة الفرقان : آية ٢٧

ومنه قوله في شملة (١) : (الطويل)

ومشمولة رقت وراقت وأصبحت	على الشرب تزهى حين تهدى إلى الكاس
معتقة ماتشمت بعد عصرها	لإثم وكم فيها منافع للناس

ومنه قوله يهنئ الظاهر بفتح عكا ويغالط أن يادبها عكا (٢) يزيد عليها في المقادر ، والنسبة بينهما لمن رأى نسبة مابين الثريا و الثرى والذي قال (الرمل)

يامليك الأرض بشرى	هي عنوان السعادة
إن عكاء بقبنا	هي عكا وزيادة

ومنه قوله :

وقد ترك الملك الأشرف الساحل وفتح بلاده المعاقل ، فنظف من وسخهم ثوب الشام ، ونزل فرسانهم عن حصن الحصون إلى الرغام ، ماخاطب به بني الأصفر (٣) ، وبدر لأمر كما قال أو أكثر وهو : (الرمل)

يابني الأصفر حلت بكم	نقم الله التي لا تنفصل
نزل الأشرف في ساحلكم	أبشروا فيه بصلة متصل

=:=

(١) شملة : الخمر : عرضها للشمال فبردت .
(القاموس : ١٣١٩)

(٢) عكا (عكّة) : مدينة بفلسطين في شماليها ، على ساحل الخليج المسمى باسمها .
(معجم البلدان ٤ / ١٤٤)

(٣) بنو الأصفر : قال ابن الأثير : يعني الروم لأن أباهم الأول كان أصفر اللون ، وهو روم بن عيصو بن اسحق بن ابراهيم وقيل : ملوك الروم ، قال ابن سيده : ولا أدري لم سموا بذلك قال عدي بن زيد :
وبنو الأصفر الكرام ، ملوك ال روم ، لم يبق منهم مذكور
(لسان العرب : ٤ / ٤٦٥) .

وله في نوبة (١) دنقلة (٢) وقد جلا بياض الترك سوادها، وفكّ عنها من لباس الحزن حدادها، وكان القتل قد استحرّ في عبيدها، ومدحورهم ملّبيدها وما وى الجيش المنصور يدقّ أقفاء السودان، ويعيد رؤوسهم للهوان، والذي قاله : (الكامل)

يا يوم دنقلة وقتل عبيدها | في كل ناحية وكلّ مكان
اذ كلّ نوبيّ يقول لأمّه | نوحي فقد دقّوا قفا السّودان (٣)

ومنه قوله : (الخفيف)

نسب النّاس للحمامة شجوا | وأراها في الحزن ليست هنا لك
خضبت كفّها وطوّقت الجيد . . | د وغنّت وما الحزين كذلك

=:==

(١) النوبة : بضم النون وسكون الواو : جنس أو جيل من السودان ، الواحد نوبي ، لهم بلاد واسعة بجنوب الصعيد تعرف ببلاد النوبة .
(محيط المحيط : نوب) و (القاموس المحيط : ١٧٩)

(٢) دنقلة : هي دنقلة ، بضم أولها وسكون ثانيها وضم قافها ، مدينة كبيرة في بلاد النوبة ، وهي منزلة ملك النوبة على شاطئ النيل ، ولها أسوار عالية ، غزاها عبد الله بن سعد بن أبي السرح في سنة ٣١هـ في خلافة عثمان بن عفان .
(معجم البلدان : ٢/ ٤٧٠ - ٤٧٨) .

أقول : وهي الآن تقع شمالي السودان على نهر النيل .

(٣) القفا : الجبل .
(القاموس المحيط : ١٧٠٩)

ومنه قوله : (المجتث)

يا قاتلي بلحاظ قتيلُها ليس يقبر

إن صبّروا عنك قلبي هو القتيل المصبّر

وكان في الصحبة الظاهرية، فلما كان بمنزلة القطيفة (١) أصبح ذات يوم فرأى الأرض قد ولد الطلّ رُباها، وحلّ ذاقب اللجين ثراها، واشتدّ يومئذ الزّمهرير (٢) وكشر أنيابه مرعدا بالهزير (٣) فلم يبق إلاّ من كره لأجله القطيفة وولاّها، وذاق طعم العرّفما استحلاها، فقال : (مرّفل الكامل)

هذي القطيفة والتي لا تشتهي عقلا ونقلا

حشّت ببرد يابس فلا جل ذاك الحشو ثقلا

فسمع بذلك رفيقه تاج الدين بن الأثير فقال : فيه، وانما نحا غير هذا المعنى في التشبيه، فانه يحيل أن القطيفة قد رش عليها الزمهرير سكرا، وسقاها السحاب المرد القطى مكرّرا، فقال : (الوافر)

على ذم القطيفة (قد) (٤) جُمعنا وإن سقيت بقطر قد تكرّر

=:=:=:=: :=:=:=:=:=:=: :=:=:=:=: =:=:=:=:=: =:=:=:=

(١) القطيفة : تصغير القطيفة، وهو كساء يفترشه الناس، وهو يسمى اليوم زويله ومحفورة. وهي قرية دون ثنية العقاب للقاصد إلى دمشق في طرف البرية من ناحية حمص.
(معجم البلدان : ٤/ ٣٧٨)

(٢) الزمهرير : شدة البرد. (القاموس : ٥١٤)

(٣) الهزير : الشرب على الجنب والظهر بشدة مع الطرد والنفي.
(القاموس المحيط : ٦٤٠)

(٤) ما بين الحاصرتين سقطت من الأصل، وهي كلمة ضرورية لإقامة الوزن.

وقد أضحى عليها للزميتا رشاش مثلما قد رش سكّر (١)

على أن ناصرالدين بن النقيب الكتاني نازع كلا منهما في بيته داعيا أنهما له وآخذا من حرز ديوانه وعدا فيهما عليه ،وهما أصدق ،ومنه أليق ،وهذا آخر أعيان المصريين من الموتى الذين فرغ منهم شغل الوجود ،وأطبق على درّهم صدف اللحود ،وكانوا عينا يسُرّ العيون ،فصاروا أثرا ،يصر في المسامع دررا .

فأما من هو الآن حي موجود ودّ أن لكلا مهم ماتحلت به العقود ،فلا أعرف منهم إلا من أتمم بتوشيعه هذا الطراز ،وأكمل ببديعه من حديث هؤلاء الجماعة ماعاز،وهما فرقدا سماء أنارا ،ويديطش تمدّ كلتا هما يمينا لا يسارا ،وهما من حالى عقيب اولئك رغدا مع الكاتبين الكرام إلاّ أنهم من الملائك وهانحن لا نعد عنهم ، ونحسبهم وان لم يكونوا إلابعدهم فنقول :

==:==

(١)الزميت : الوقار .

(لسان العرب : ١٢/٥٤١)

شهاب الدين

ابو عبد الله الحسين

الموسوي

ومنهم : السيد الشريف شهاب الدين أبو عبد الله الحسين بن الحسن الموسوي (١) المعروف بابن قاضي العسكر: (٢)

رجل أقل ما فيه يشكر وما من المحاسن إلا ما هو أقل انه به يذكر ، وجدّه الشريف الأرموي تقدّم بسؤدده ، من كل جهة بعضها شرف محتِده ، لم يزل لبيته سياسة الدول ورياسة العلم والعمل ، وأبرّ آخرهم على أولهم ، ورموا فوق غاية الأرموي طول بطولهم ، حتى رفعوا على السماء قبابا ، وأرموا الثوابت أوتادا مدوا بها للمجرة أطنابا ، وأتى هذا الشريف شهاب الدين شهابا في أفقهم ، وسحابا يحبس سيله في طرقهم ، فهو الآن واحد كتّاب السلطان ، وأصحاب الانشاء التي تغدو البُرُد بها كالطير خماصا وتروح وهي بطان (٣) ،

=:=

(١) الموسوي : من الكتّاب الأحياء الذين عايشوا العمري وكانوا أحياء عند ما ألف كتابه مسالك الأبصار ، وبعد عملية التحري المضنية ما استطعت أن أعثر على ترجمة له مما رفعنا إلى القول بأن العمري انفرد بترجمته .

(٢) هو الشريف شهاب الدين حسين بن محمد بن حسين بن زيد الحسيني المصري الشافعي الشهير بابن قاضي العسكر نقيب الأشراف بالديار المصرية ، كان كاتبا بارعا وأديبا بليغا ، كتب الانشاء بمصر ، وباشر كتابة السر بحلب ، وله ديوان خطب وتعاليق ونظم ونثر ، وكانت له اجازة من ابن دقيق العيد والدمياطي والأبرقوهي وغيرهم ودرّس في بعض المدارس ثم قرر في التوقيع بين يدي السلطان الكامل شعبان سنة ٧٤٦ ، وتوفي سنة ٧٦٢ عن أربع وستين سنة ، ترجمته في : النجوم الزاهرة ١١ / ١٠ والمنهل الصافي ٢ / ٤٧ والدرر الكامنة ٢ / ٦٦)

(٣) إشارة إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم :
عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . رواه الترمذي ، واللفظ له ، في كتاب الزهد باب في التوكل على الله جزء ٤ / ٤٩٥ طبعة دار مكة ١٩٨٧

خطيب منبر تورق بخطبه أعواده ، وكاتب كأنّ أهواء النفوس مداده ، وفقيه كأنّ أمواج السحاب أمداده ، مع وفاء يصفر به صنع الشمول ، وصفاء سريرة ماانطوت عليها إلاّ أحناء الصدور الأول ، وود يستشفى (به) عهد مدليس رداء وماتحوّل ، وحيد أمته محي الدين أبو الفضل عبدالله بن عبدالظاهر السعدي المقدم في الكتاب وان تأخر إلى قبل ابنه هذا المذكور في هذا الكتاب، فلم يكن شيء أفصح منه بعد ، بيد أنّه من قريش وأرضع في في بني سعد .

وهذه التقاليد اليوم لا تبرز إلا من انشائه ، ولا يترقبها في اليمن إلا من هو من صنعه وشاؤه ، وله ديوان خطب أخمل ابن نباته (١) وترسّل فضل الفاضل وفاته ، ونظم ترك بديهة ابن عمه الرضي لا يرضى أناته .

ومن غرر نثره ودر قبوله على دشره قوله :

أيها السيّد وماحلت البقاع ، والامام الذي انعقد على فضله الاجماع ، والماجد الذي محاسنه ومحامده ملئ الأبصار والأفواه والأسماع ، صفحا عن قريحة أومضت حتى خبت ، ولا مضت حتى كبت ، ولا قضت حتى نبت ، ولا امتدّ لهاظل العيش حتى تقلّص ، ولا ساغ لها ورده حتى تغصص وتنغّص ، ولا طلّ سحابه حتى أقلع ولا طلّ حتى تقشّع ، ولا سلم بيانه حتى ودّع ، كثرت عليها الكروب ، وانحطّت إليها الخطوب وتوالت عليها الهموم فلم تدع لها همّة ، ورمتها الحوادث بكل ملمّة ، تسوّد القلب وتبيّض اللّمّة ، فلا غرو أن أضحت كليلة من الاسراج ، وامستدمئة من الأفراج ، تدعى

=:=

(١) ابن نباته : هو محمد بن محمد ، جمال الدين ، ابن نباته : شاعر عصره وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب . مولده ووفاته بالقاهرة . سكن الشام سنة ٧١٥هـ . وولي نظارة "القمامة" بالقدس أيام زيارة النصارى لها .

(الأعلام : ٧/ ٣٨)

ولا تجيب ، وماذاك بعجيب ، أنشأ المملوك انشاء ،أبت إلاّ إباء ،وقالت للنّجاة النجاة، فبضاعتك مزجاة (١) عدّ عن هذا السبيل ،ليست من هذا القبيل ،فقلت لما أعطت منعها وأكثرت ردّها وردعها ، ((لا يكلّف الله نفسا إلاّ وسعها)) (٢)

ومنه قوله :

يقبل تُربا شرف أن يكون المسك (له) تربا (٣) ، وحسب المسكُ فخر الدم أنه ،دم ومن ثم خلق الكرم الجم .

(و)قوله (٤)

وللمملوك مذهب في الزيادة وأي اختيار يؤثر أن لا يكثر ،ويجب أن لا يعتّب.

ومنه :

وها أنا قد انقطعت عن الناس ،وقنعت باليأس ،وأقمت في بيتي وعلمت أنّ ماكان لي سيأتي ،وأرحت من الأطماع روحي ،وقلت للنفس مكانك تحمدي أو تستريحي (٥) .

=:=

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ((فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسّنا وأهلنا الضّر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا ،إن الله يجزي المتصدّقين)) سورة يوسف :آية ٨٨ ومزجاة :صفة لبضاعة ،والا زجاء السّوق بدفع ،وأنها بضاعة تدفع ولا يقبلها كل أحد ،وقال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة .
(الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٩/ ٢٥٣) .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

(٣) سقطت من الأصل فاستدركناها .

(٤) سقطت من الأصل فاستدركناها .

(٥) مأخوذ من قول عمرو بن الأطنابة :
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي
(قطر الندى وبل الصدى : ٢٥٩

[لعب الكرة]

ومنه قوله (من (١) رسالة في لعب الكرة :

ولا حلا مقرّ أنس من أنس مقرّه ،ولا موطن سرور من نشر محياه ومحياه نشره ،ولا مجال أوعب من (مجال) (٢) محجّلاته وغرّه ،ولا ميدان حرب أحرب من إقدامه وكرّه ،ولا وعد (إلاّ) (٣) من نصله ، ولا ولِيّ (الا) (٤) من نصره ، (و) المملوك يقبل اليد التي لاتزال بين منّة تسلفها ،وأسنّة تُرعفها ،وأعنة تصرّفها كيف شاءت ويصرفها ،وصهوات جياد تمطيها ،وهبات جود تعطيها ، ومسالك توطّدها ، وممالك توطئها ،وغمرات تكشفها ،وعورات تغطّيها ،وتقتسم من قسماتها الشمس وضحاها ،ومن لألائها القمر إذا تلاها (٥) ، ومن آرائها المبيضة في الخطوب المسودة بالنهار إذا جلاّها ،ومن دُهم جيادها التي تدهم العدى بالليل إذا يغشاها ،لقد أوحشنا مولانا من مصر ولذاتها ،ولطف معناها وذاتها ،وإشراق ناديها وشط نيلها ، وشاطئ واليها خصوصا من لعب الكرة التي هي عقلة المستوفز ،وفرصة المستوفز ،وأنموذج الحرب ومجال التمرّن على اجادة الطعن والضرب ،ومن ذلك الميدان الذي هو كصدره في الرحب والسّعة ، وحرمة في الأمن والدّعة ،بل نادي مولانا أندى وأخصب ،وصدره أوسع وأرحب ، وكراته تفعل بالكرات كفعل عليّ برأس مرحب ،حيث الظلال السلطانية قد بسطها الله على البسيطة ومدّها ،والعزائم الناصرية قد أيّدها الله بنصره وأمدّها ،

=:==

(١) + (٢) + (٣) + (٤) سقطت من الأصل فاستدركناها .

(٥) إشارة إلى قوله تعالى ((والشمس وضحاها . والقمر اذا تلاها))

(سورة الشمس : آية ١ - ٢

ونحن من جود ملكنا نصطبح (١) ونغتبق (٢) ، وعلى الجياد بين يسرله نَطّرد ونستبق ، وننفرد ونتّسق ، ونتحد في ولايته ولا نفترق ، وان كنّا في طلب الكرة نعترض تركض من جيادنا مايسبق البرق لرواكضها ، وتفوت العارض الهتّان لو عارضها ، من كلّ حمراء كأنما جدلت من الشّفق ، ودهماء كسويداء القلب وسواد الحدق أوكالليل وماوسق ، وشهباء ذات إهاب من نقق كشهاب ائتلق ، أوكالقمر اذا اتّسق (٣) وشقراء كمامتزج السلاف ، يوقن من يتّخذه بالتّلاقي ومن يقصده بالتّلاف ، أرشق من السهم في السير وأسبق إلى المدى من الوهم إلى الضمير . »

وبايدينا صوالج (٤) كأنها سمهريّة تباهي بها الطعان إلى أن تباهي او غصون حنت عليها عواصف الريح فأزالت جناها ، أو أعناق المطيّ مالت رقابها وشاها ، والكرة بيننا تُضرب ولبست مثلا ، وتكر ولبست حنانا ، وبكر وليست بقرة صفراء فاقع لونها (٥) لها من الدّرارى اشراقها ومن الدّر كونها تضرب ببعضها وتضرب في الأرض فتجوب وتجول في عرضها وطولها كأنما صنعت من لهب ، أو صيغت من ذهب ، أوكأنها شموس كُوّرت ، أو من البرق اليمانيّ كُوّنت . ومن خَلوق

=:=

(١) الاصطباح : الشرب في الصباح . (القاموس : ٢٩١)

(٢) الاغتباق : الشرب في المساء . (القاموس : ١١٨٠)

(٣) إشارة إلى قوله تعالى ((فلا أقسم بالشفق والليل وماوسق والقمر اذا اتّسق)) سورة الانشقاق : آية ١٦ - ١٨

(٤) الصوالج جمع ومفرده صولجان : المحجن . (القاموس : ٢٥١)

(٥) إشارة إلى قوله تعالى ((قالوا ادع لنا ربّك يبين لنا مالونها ، قال إنّه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين)) البقرة : ٦٩

الصبح لبّت وصوّرت ،والسلطان أيّده الله ـ : يمدّ إلينا ولها باعه ،وتحرص عليها أتباعه ، ويضربها فتفرّ من بين يديه ،والفرار من بين يدي الملك طاعة ويسير إليها في مواكبه ،كأنه البدرين كواكبه ،يحف به من الله مايبدءه ومن اليسر جنوده ويحدقون به كما تحدق الأهداب بالمقل ،والعطاش بالنّهل ، والله يحرسه في رجوعه واتّجاهه ،بعونه وجاهه .

وبالجملة فمولانا مشغول عن الكرات اللّعبية بالكرات الحربية ، وعن الصّولجان (١) بالصّول على كل جان ،وعن التبكير إلى الكرة والتغليس ،بانتزاع نفس واقتلاع رأس كل رئيس ،وعن الطّراد في السبت بالطّراد في الخميس ،والله تعالى لا يخلي مجال النصر من حلول ركابه ، ولا مواطن الابتهاج ومواقف الهيجاء من حياته وجنابه ، بمنّه وكرمه .

ومن شعره : (الكامل)

لا تقترح شيئاً على الأقدار	واصبر لأحكام القضاء الجاري
ودع اختيار النفس في أفعالها	وكل الأمور لفاعل مختار
واصفح عن الأيام في هفواتها	واشكر على الإعدام والإقتار
واطرح هموم النفس لا تحفل بها	كلّ بتقدير العزيز الباري
واقصر عن الآمال في الدنيا التي	كم أهلكت بسرابها الغدّار
واسرح بعين الفكر هل أبقى الفنا	أحداً يُرى بفِناء هذى الدّارِ
لا تَغْبطنّ فتىً على الإيراد (بل	يخشى عليه) عواقب الإصدار (٢)

==:=

(١) الصولجان : بفتح الصاد واللام : المحجن ، وجمعه صوالج .(القاموس : ٢٥١)
(٢) مابين الحاصرتين سقط من الأصل واستدركناه .

وله أيضا : (المتقارب)

تلقَّ الأمور بصبرٍ جميـــــــل	وصدرٍ رحيبٍ وخلِّ الحـــرج
وسلّم لربّـك في حكمـــــــه	فإما الممات وإما الـــفرج

وله أيضا : (الطـويل)

حماني من الـدنيا الدنيّـة خالقـي	ولي خبّأ الأخرى له الحمد والمنُّ
وما كان لي في علمه فهو كائـــن	ولو جهدت في حرماني الانس والجنُّ

وله أيضا : (مجزوّ الكامل)

وأنا ابن فاطمةٍ وحيـــــــــــ	ـدر مالنعي مقتــــض (١)
لم يجرِ أجر اللــــــــه إلّا	في صحيفـةٍ من رضـى

=:=:=:=:=: : :=:=:=:=:=:=:=:=: : :=:=:=:=:=:=:=:=:

(١) حيدر: الأسد ،أو الحسن الجميل .

(القاموس المحيط : ٤٧٦)

تاج الدين

أبو سعد محمد بن محمد بن

عبد المنعم البارزباري

ومنهم : تاج الدين أبو سعد محمد بن محمد بن عبد المنعم السعدي ابن البارنباري (١) :

وهو المؤخر المقدم بفضله ، المعلم شبا النوائب بنبله ، المعظم بمحله المنظم بقلمه مافات السيف في جوهر نصله ،ياله قلما لايخطئ سهمه القرطاس، ولا يخلو نخبه من شرب كاس وطاس ، من بنان ينسي الصاحي ،وينسي مقالته اللاحي ،فلايدري أرياضا بواقع تيقظ راقدها ،أم مطالع تفط حيث تسامر فراقدها، تزوج إلى أقربائه وتزود ماينفق بضاعته على قرنائه أدبا كأنه حلل أوعقائل ما• وآها حلل ،أرق حاشية من ذلا ذل النسيم ،وأدق معنى من يكشف الشمس في اليوم الغيم ، هو من بني سعد وصاهر إليهم ،وجاهر الجواهر بمافصه لديهم ،وظاهر بني عبد الظاهر ،وفاخر في دولة الناصر مالهم في دولة الظاهر فكان تفاوت السلكين تفاوت مابين الملكين ،بما تفتر له ثغور الأقاحي ،وبعبير زائد دهره المعطور في اليوم الصاحي ، أتى السيل فطم على القرى وطلع الصباح فأخفى

=:=

(١) هو القاضي تاج الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد المنعم بن عبد الرحمن بن عبد الحق السعدي البارنباري ولد في ربيع الأول سنة ٦٩٦ ،وتعاطى الآداب ،قال ابن رافع :سمع من علي بن القيم وكان يحب أهل الدين واشتغل بالعربية وكتب الخط الحسن ،وكتب في الانشاء سنة ٧١٣ واستكتبه علاء الدين بن الأثير في البريد، وباشر الوظيفة مكان ابن غانم بطرابلس ،وفي سنة ٧٤٥ تعرض لحادث افقده ولديه وعقله فتوجه إلى القدس زائرا فمات به سنة ٧٥٦ ،
ترجمته في الدرر الكامنة ٤/ ١٩٥- ١٩٦ والنجوم الزاهرة ١٠/ ٣٢٠ والمنهل الصافي ٢/ ٢٨٥ .
(جاء في الأصل : أبو سعيد وهو خطأ ، والصواب ماأثبت عن النجوم الزاهرة)
والبارنباري نسبة إلى بانباره بمصر .

نور الكواكب الدّريّ ، بفضائله الغرر ، ورسائله التي فات على قسمات الطـــروس كالطّرر ، كان بمصر ينادي نيلها السائغ الشراب ، وقبلها الأتراك الأتراب المحاسن نشرها ديوان الانشاء حبرا ، وصورها في مخاطبات الملوك دُرَرا ، ثم عقد له بطرابلس على رئاسة هذا الديوان ، وقعد على كيوان (١) ، ورأيـــت منه على تجافي الاخوة والاخوان ، وتنافي أحوال الموالي والأدوان ، وتكافي مال العز والهوان ، ماحمدت طريقه وحمدت منه الخليقة ، فألفيته لايسمح بصاحبه ، ولا يجنح إلى حفظ معيب عائبه ، لامعيب عائبه بسعي في مآربه ويرى منه أكثر من أقاربه .

ومن نثره قوله :

وينهي ورود المثال العالي بماكان حصل للمزاج الشريف من التوعّك الزائر ، ثم زال أسرع من خطفة طائر ، وعادت الصحة إلى المزاج الشريف تماما على الذي أحسن وابتهجت القلوب وقرّت الأعين ، وإن مولانا أظهر مايجـــب من الاعلان بالسرور ، وملأ بالبشرى الممالك فابتسمت ثغور الثغور ، وزينت مدينــة جلّق (٢) ، وكلّ أمير ومأمور فيها كأنه كوكب مخلّق ، وما اقتضته الصدقات العميمة من أعلام الملوك بهذا النبأ الذي أزال البؤس ، وأبهج النفوس ، وسكن الخواطر بصحة الذات الشريفة والمزاج المحروس ، ليأخذ المملوك من مسرتها حظّه ، ويودع قرتها لحظه ، ورسم بتجهيز فلان في هذه البشرى ، وقد قابلها المملوك بسجوده شكرا ، وعطّر بالخلوق ، كلّ بَشَر مخلوق ، وهذه أعظم نعمه أهداها مولانـــا

=:=

(١) كيوان : زحل . (القاموس المحيط : ١٥٨٥)

(٢) جلّق : اسم لكورة الغوطة كلها ، وقيل بل هي دمشق نفسها ، وقيل جلق موضع بقرية من قرى دمشق

قال حسان بن ثابت الأنصاري :

لله درّ عصابة نادمتهم يوما بجلق في الزمان الأول (معجم البلدان لياقوت الحموي : ٢/ ١٥٤)

إلى المملوك ، شرحت الصدور وقدمت بالسرور وقامت بها دعائم الاسلام في سائر المعمور ، وبات الايمان على طمأنينة في كل الأمور ، وشكر المملوك صدقات مولانا التي نبهته على هذه المسرة وأطلعت المملوك على هذه التهنئة وكم له من مبرّة ، والمملوك تحت جناحه مقيم ، ومن تلقائه يأتي كلُّ خير عظيم ، وحال ورود هذه البشارة تقدّم بزينة مدينة طرابلس ، فأصبحت ذات أفراح ، وأمست ذات حلي ووشاح ، وطار القلب من فرحه بغير جناح ، والحمد لله على هذه المسرّة التي عمّت الأقطار ، وامتدّت مع الليل والنهار ، إلى ماوراء البحار ، ولو بدل الأنام بهجتهم في السرور بهذا الشقاء تقصّروا ، ولو سطروا البشائر بسواد الأبصار لاختصروا : (البسيط)

لله يومُ مسرّاتٍ وقد وردت	فأسفرت عن محيا كلُّه قمــرُ
جاءت بصحة ملك الأرض قاطبةً	فتمّ للدين منها العزُّ والظّفرُ
إن البسيطة أضحت في بشائرها	كأنها الرّوض فيه أينع الثّمر

ومما كتب إليه يستدعي نسخة كتاب " صبابة المشتاق " وهو ديوان نظمته في المدائح الشريفة النبويّة زادها الله شرفا :

والمملوك يسأل الانعام عليه بنسخة من القصائد لأنه جار عدوّ كائد منشد عند الفزع ، فيذهب الله بها البأس والجزع ، وينزل السّكينة ، ويعزّ النفس المسكينة ويعرف الكافر ويحرق السفينة ، وكان الرّعب تقدّمَ جيشه صلى الله عليه وسلم شهرا من المدينة ، فمدائحه الشريفة وذكر معجزاته تُدْرأ بها الخطوب ، وتستنزل الغيوث من الغيوب ، والله تعالى يهدي بعلومه الشريفة فإنها إحياء الدين وقوت القلوب .

وما كتبه إليّ أيضا :

وينهي ورود المثال العالي المبلغ للوطر ،المرجو منه مايرجى من المطر يتضمن الخبر الذي لولاه لكان المملوك نسياً منسيا (١) ، والبيان الذي أصبح قسيّا ، وحين قصد المملوك قصد قائما ورآه لابواب الخير فاتحا ولأئمة العلم خاتما ، وكلامه بالقلم الشريف مرقوم ،وهذه منّة ليس شكر المملوك بها يقوم ،والسيّد بنوع في خير مرقوقه ،ولو صنع العبد ماصنع ماقام لسيده بحقوقه، ومن حين حل الركاب الكريم في دمشق امتدّ جاه المملوك واشتدّ ساعده وأيقن المملوك أن له بحراً يمده إذا لمتروّه موارده ، فلا عاش شانئه ،ولاسعد حاسده .

(٢)
وما كتبه إليّ عن الأمير طينال نائب طرابلس :

يقبل الباسطة لازالت أوطانها بها معمورة والقلوب بالاقبال الشريفة عليها مسرورة، ومناقبها في صفحات الأيام سطورة ،وينهي أن المسرّة بما جدّد الله لمولانا من الانعام الشريفة قد جلّت عن الحصر ،وعاقبة الصّبر النّصر ،والحمد لله الذي زخرف الجنّة وشيّد القصر ،وماكان الله ليذر الممالك ممن يحلو بألفاظه حدها ،ولايحليها ممن يفوق كتابة الكاتب ويحدها ،وأنتم أهل بيت الألطاف إليكم ناظرة ،والأقدار لكم ناصرة ،ولكم سلف صالح ترجون بركته في الدنيا والآخرة ، وعند المملوك من الابتهاج بقرب مولانا وأنسه بمالاتستوعب العبارة شرحه ،لأن إحسان مولانا سابق ،ومواقع فضله لاينسى الله لها تلك الحقائق .

=:=

(١) إشارة إلى قوله تعالى ((فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتني مِتّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا)) سورة مريم : آية ٢٣

(٢) طينال المارد بني الناصري ،كان من جملة أمراء الالوف بديار مصر في دولة أستاذه الناصر محمد بن قلاوون ،ثم وقعله أمور حتى صار من جملة أمراء الطبلخانات، ونائب قلعة الجبل ،ثم عزل وأنعم عليه بأمرة عشرة ،واستمر حتى مات في رمضان سنة ٧٠٩هـ .
ابن تغرى بردى : ١/ ٣٧٦

و بتمام ذكره كتّاب مصر أمواتا وأحياء ، ممن نكص لهم البدر خجلا

وتنقبت السماء حياء ممن وقع في القسم المغربي حسابه ، وهمع من الأفق الغربي

سحابه ، وهذا أوان انقضاء جملة الكُتّاب في القسمين شرقاً وغرباً ، بعد أن كانت

ثرت لمدادهما اليمين بحراً وسحباً ، قد ارتبك الجانبان عيانا لنظرك وأعيانا

ماثلة لمحضرك ، فأي الأفقين الآن أفضل ، وأي المشرقين أنضر وأنضل ؟

على أني أقول ولاعصبيّة ولا حميّة لقوة غضبية ، إن كُتّاب المشرق أفخم

بما نالوا وأعظم بما فعلوا لا بما قالوا ، وهم إن لم يرجحوا على كتّاب المغرب عدداً ،

ويطرحوا ملء المهارق (١) لؤلؤا بددا ، فماهم بدون نظرائهم في الأدب

العُباب مدداً ، ولا أقصر في عمر الزمان مُدَدا ، ولولا كتاب مصر في قبلة ، ومآب القوم

إلى سبيله ، لما ازدان ذلك الأفق بأنجمه ، ولا تحدّر البيان من أزاد إن أممه ، مع

سبق سادات لهم لاسبب أن ينكر به أحد فضلهم كابن خاقان وابن بسّام ، وكلاهما

ضاحك بسّام ، امتاروا من طراز مصر طرازها المحرّر وشكرها المكرّر .

=:=

(١) المهارق جمع المهرق : الصحيفه .

(القاموس المحيط : ١٢٠٠)

THE UNIVERSITY OF SINDH

JAMSHORO.

AL-UMARI'S MASALIK AL-ABSAR
THE CRITICAL EDITION OF LITERARY VOLUME 13

BY

ABDUL RAOUF ZUHDI HUSSEIN MUSTAFA

A Dissertation Submitted for the Fulfilment of the Degree of Doctor of Philosophy in Arabic, Institute of Languages.

UNDER THE GUIDANCE OF

Professor, Dr. Madad Ali Qadri

SINDH UNIVERSITY. JAMSHORO.

Vol. I

Correction copy
3.4.91

I

CERTIFICATE.

Certified that Mr.Miss /Mrs. ABDUL RAOUF
S/o/D/o ZUHDI HUSSIEN MUSTAFA has carried out research on the
Topic" تحقيق النقدي للجزء الأولى من مسالك الأبصار "الجزء الثاني عشر"
under my supervision and that his/her work is original and
distinct and his/~~her~~ dissertation is worthy of presentation to
the University of Sind for award of the degree of ~~Master of Philosophy~~/Doctor of Philosophy.

DIRECTOR
Institute of Language,
University of Sind.
Jamshoro

No.AC-I/